

تأليف

أبى اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى

المعروف بالثعلبى

المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبى وشركاه

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة على محمد وآله .

قال الأستاذ أبو اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي رحمه الله تعالى : هذا كتاب يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة فى القرآن بالشرح والله المستعان وعليه التكلان .

باب فى ذكر بعض وجوه الحكمة فى تقصيصه تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين

قال الله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . قالت الحكماء : ان الله تعالى قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الأنبياء والأمم الخالية لخمسة أمور أى حكم :

الحكمة الأولى منها : أنه اظهار لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته وذلك أن النبى ﷺ كان أميا لم يختلف الى مؤدب ولا إلى معلم ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيه الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار ولم يعرف له طلب شىء من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان فنزل عليه جبريل عليه السلام ولقنه ذلك فأخذ يحدث الناس بأخبار مامضى من القرون وسير الأنبياء الماضين والملوك المتقدمين فمن كان من قومه عاقلا موفقا صدق بما يوحى الله اليه واخباره إياه بذلك فآمن به وصدقه وكان ذلك معجزة له ودليلا على صحة نبوته ومن كان منهم عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ماجاء به وقال كما أخبر الله تعالى ـ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ـ . قال الله تعالى تكذيبا لهم وتصديقا للنبى عليه السلام ـ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ـ .

والحكمة الثانية : أنه انما قص عليه القصص ليكون له اسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء والصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم ولتنتهى أمته عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها عليها واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب فتمم الله له بذلك معالى الأخلاق فلما امتثل أمر الله تعالى واستعمل أدب الأنبياء أثنى الله عليه فقال تعالى ـ وإنك لعلى خلق عظيم ـ ولذلك قالت عائشة رضى الله تعالى عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن.

والحكمة الثالثة : أنه انما قص عليه القصص تثبيتا له وإعلاما بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله علم أنه عوفى هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء وخفف عنهم فى الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التى كانت على الأمم الماضية كما قال بعض المتأولين فى تفسير قوله تعالى — وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة — ان النعمة الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة تضعيف الصنائع قال الله تعالى — يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر — وقال تعالى — وما جعل عليكم فى الدين من حرج — وقال تعالى — يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا — ، فلما قص الله تعالى هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحدا من الأنبياء والأمم فوصل قيام ليله بنهاره وصيامه بقيامه لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورمت قدماه فقيل يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ثم افتخر عليه السلام فقال بعثت بالحنيفية السمحة .

والحكمة الرابعة : أنه انما قص الله تعالى عليه القصص تأديبا وتهذيبا لأمته وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم والأعداء وعقابهم ثم ذكر فى غير موضع تحذيره إياهم عن صنع الأعداء وحثهم على صنع الأولياء فقال تعالى — لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين — وقال — لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب — وقال — وهدى وموعظة للمتقين — ونحوها من الآيات ، وكان الشبلى رحمه الله تعالى يقول فى هذه الآيات اشتغل العام بذكر القصص واشتغل الخاص بالاعتبار من القصص .

والحكمة الخامسة : أنه قص عليه أخبار الأنبياء والأولياء الماضين إحياء لذكرهم وآثارهم ليكون المحسن منهم فى إبقاء ذكره مثبتا له تعجيل جزاء فى الدنيا حتى يبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام فى إبقاء الثناء الحسن فقال — واجعل لى لسان صدق فى الآخرين — والناس أحاديث يقال ما مات ميت والذكر يحييه وقال ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على الصانع والحصون والقصور إلا لإبقاء الذكر . وأنشدنا ناصر بن محمد المروزى قال أنشدنى الدريدى :

وانما المرء حديث بعده   فكن حديثا حسنا لمن وعى

مجلس فى صفة خلق الأرض

قال الله تعالى — الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء — الآية ونظائرها كثيرة فى القرآن . واعلم أن الكلام فى نعت خلق الأرض على سبعة أبواب

الباب الأول فى بدء خلق الأرض وكيفيتها

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر اليها نظر هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار وأرعد من خشية الله فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة وخلق

الله من ذلك الدخان السماء فذلك قوله تعالى ـ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ـ أى قصد وعمد إلى خلق السماء وهى بخار وخلق من ذلك الزبد الأرض فأول ماظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله الأرض من تحتها فلذلك سميت أم القرى يعنى أصلها وهى قوله تعالى ـ والأرض بعد ذلك دحاها ـ ولما خلق الله الأرض كانت طبقا واحدا ففتقها وصيرها سبعا وذلك قوله تعالى ـ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ـ ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، احدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب، باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمى الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهى كالحسكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور فى البحر فهو يتنفس كل يوم نفسا فاذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة خضراء غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهى الصخرة التى قال لقمان لابنه ـ يابنى إنها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أوفى السموات أوفى الأرض يأت بها الله ـ الآية . روى أن لقمان لما قال له هذه الكلمة انفطرت من هيبتها مرارته ومات وكانت آخر موعظته ، فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم واسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال قال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة وثقل الدنيا وماعليها حرفان من كتاب الله تعالى قال لها الجبار كونى فكانت فذلك قوله عز وجل ـ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ـ ولذلك قال بعض حكماء الشعراء :

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فان ذلك نقص منك فى الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال كعب الأحبار : ان إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض فوسوس اليه وقال له أتدرى ماعلى ظهرك يالوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك قال فهم لوتيا أن يفعل ذلك فبعث الله تعالى اليه دابة فدخلت فى منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن الله تعالى لها فخرجت . قال كعب الأحبار فوالذى نفسى بيده انه لينظر اليها وتنظر اليه إن هم بشىء من ذلك عادت كما كانت وهذا الحوت الذى أقسم الله تعالى به فقال ـ نٓ والقلم ومايسطرون ـ ثم قالوا ان الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال وذلك قوله تعالى ـ والجبال أرساها ـ وقوله تعالى ـ والجبال أوتادا ـ وقوله

تعالى ـ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ـ يعنى لكيلا تتحرك بكم . قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أول ماخلق الله الأرض عجت وقالت يارب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويلقون على الخبائث فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها ، وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف ، فأحاط بها كلها وهو الذى أقسم الله به فقال ـ ق والقرآن المجيد ـ وقال وهب إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبالا صغارا فقال له من أنت ؟ قال أنا قاف قال فأخبرنى ماهذه الجبال التى حولك ، فقال هى عروقى فاذا أراد الله أن يزلزل أرضا أمرنى فحركت عرقا من عروقى فتزلزل الأرض المتصلة به ، فقال ياقاف أخبرنى بشىء من عظمة الله تعالى ، فقال إن شأن ربنا لعظيم تقصر عنه الصفات وتنقضى دونه الأوهام . قال فأخبرنى بأدنى مايوصف منها قال إن ورائى أرضا لمسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضا ، ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها لولا ذلك الثلج والبرد لاحترقت الدنيا من حر جهنم . قال زدنى ، فقال إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تعالى ترعد فرائصه فيخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك وهم صفوف بين يدى الله تعالى منكسو رءوسهم لايؤذن لهم فى الكلام إلى يوم القيامة ، فاذا أذن الله تعالى لهم فى الكلام قالوا لا إله الا الله وهو قوله تعالى ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ـ يعنى لا إله الا الله . وروى يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال وألقاها عليها فاستقامت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ، ؟ قال نعم الحديد ، فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار ، فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح ، فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال نعم الانسان يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

الباب الثانى فى حدود الأرض ومسافتها وأطباقها وسكانها

روى عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : بين كل أرض الى التى تليها مسيرة خمسمائة عام ، وهى سبعة أطباق : الأرض الأولى هذه فيها سكانها . والأرض الثانية مسكن الريح ومنها تخرج الرياح المختلفة كما قال تعالى ـ وتصريف الرياح ـ وفى الأرض الثالثة خلق وجوههم مثل وجوه بنى آدم وأفواههم مثل أفواه الكلاب ، وأيديهم كأيد الإنس ، وأرجلهم كأرجل البقر ، وآذانهم كآذان المعز ، وأشعارهم كأصواف الضأن لايعصون الله طرفة عين ليس لهم أثواب ليلنا نهارهم ونهارهم ليلنا . والأرض الرابعة فيها حجارة الكبريت التى أعدها الله لأهل النار تسجر بها جهنم . قال النبى ﷺ : والذى نفسى بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسلت فيها الجبال الرواسى لانماعت . قال وهب بن منبه هى مثل الكبريت الأحمر الصخرة منها مثل الجبل العظيم ، وهى التى قال الله تعالى فيها ـ وقودها

الناس والحجارة — . أخبرنا أبوبكر بن عبدوس بن المزنى قال أخبرنا أبوعبدالله محمد بن يونس المقرى قال حدثنا محمد بن منصور قال حدثنا أحمد بن الليث قال حدثنا أبوحفص عمر بن حفص القشيرى قال حدثنا على بن الحسين قال سمعت منصور بن عمار يقول بينما أنا أردت الحج إذ دفعت الى الكوفة ليلا ، وكانت ليلة مدلهمة فانفردت من أصحابى ثم دنوت الى زقاق باب دار ، فسمعت بكاء رجل وهو يقول فى بكائه ، : إلهى وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتى مخالفتك ولكنى عصيتك إذ عصيتك بجهلى ، وخالفتك إذ خالفتك لشقوتى فالآن من عذابك من ينقذنى وبحبل من أتصل اذا انقطع حبلك عنى واذنوباه واغوثاه يا ألله . قال منصور فأبكانى والله ، فوضعت فمى على شق الباب وقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم — بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة الآية — قال فسمعت عند ذلك اضطرابا شديدا ثم خمد الصوت ، فوضعت حجرا على الباب لأعرف الموضع فلما أصبحت غدوت اليه فاذا بأكفان أصلحت وعجوز تدخل الدار باكية وتخرج باكية ، فقلت لها ياهذه ماهذا الميت لك ، فقالت اليك عنى ياعبدالله لاتجدد على أحزانى فقلت إنى أريد هذا لوجه الله الكريم لعلك تستودعينى دعوة فانى منصور بن عمار واعظ أهل العراق ، قالت يامنصور هذا ولدى قلت فما كانت صفته ؟ قالت كان من آل رسول الله ﷺ يكتسب ما يكتسب فيجعله أثلاثا ثلثا لى وثلثا للمساكين وثلثا يفطر عليه وكان يصوم النهار ويقوم الليل حتى إذا كان آخر ليلة أخذ فى بكائه وتضرعه فمر رجل فى هذه الليلة وتلا آية من كتاب الله تعالى ، فلم يزل حبيبى يضطرب حتى أصبح وقد فارق الدنيا رحمه الله تعالى . وقال منصور بن عمار : دخلت يوما خربة فوجدت شابا يصلى صلاة الخائفين فقلت لنفسى إن لهذا الفتى لشأنا عظيما لعله من أولياء الله تعالى ، فوقفت حتى فرغ من صلاته فلما سلم سلمت عليه فرد على ، فقلت له ألم تعلم أن فى جهنم واديا يسمى لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى ، فشهق شهقة وخر مغشيا عليه فلما أفاق قال زدنى فقلت — يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة — الآية فخر ميتا ، فلما كشفت ثيابه عن صدره رأيت عليه مكتوبا بقلم القدرة — فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية — فلما كانت الليلة الثانية نمت فرأيته فى المنام جالسا على سرير وعلى رأسه تاج ، فقلت له مافعل الله بك فقال آتانى ثواب أهل بدر وزادنى ، فقلت له لم ؟ قال لأنهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بسيف الملك الجبار . والأرض الخامسة فيها عقارب أهل النار كأمثال البغال لها أذناب كأمثال الرماح لكل ذنب منها ثلثمائة وستون فقارا فى كل فقار ثلثمائة وستون فرقا من السم فى كل فرق منها ثلثمائة وستون قلة من سم لو وضعت قلة من ذلك السم فى وسط الارض لمات جميع أهل الدنيا من نتنه وفسد منه كل شىء ، وفيها أيضا حيات أهل النار كأمثال الأودية لكل حية منها ثمانية عشر ألف ناب كل ناب منها كالنخلة الطويلة فى أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم لو أمر الله حية منها أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل فى الارض لهدته حتى يعود رميما ، وانها لتلقى الكافر فتسمه فتقطع مفاصله . والأرض السادسة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم

الخبيثة واسمها سجين قال الله تعالى ـ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ـ . والأرض السابعة جعلها الله مسكنا لإبليس وجنوده ، وفيها عشه في أحد جانبيه سموم وفي الآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المردة وعتاة الجن ومنها يبث سراياه وجنوده ، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبني آدم . وروى سلمة بن كهيل عن أبي الزرقاء عن عبد الله قال : الجنة اليوم في السماء السابعة فاذا كان غد جعلها الله حيث يشاء ، والنار اليوم في الأرض السفلى فاذا كان غد جعلها الله حيث يشاء . وأما بعد قعر الأرض فكافيك به حديث قارون حيث خسف الله به الأرض وبداره وبأمواله ، ففي الخبر أنه يخسف به كل يوم مقدار قامة فلا يبلغ قعرها الى يوم القيامة ، وقال النبي عليه الصلاة السلام : بينما رجل يتبختر في برديه وينظر في عطفيه وقد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

الباب الثالث في ذكر الأيام التي خلق الله تعالى فيها الأرض

قال الله تعالى ـ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين الآية ـ قال أبو اسحق قال شبك بيدي أبو بكر محمد بن أحمد القطان قال شبك بيدي أحمد بن الحسين بن شاذان قال شبك بيدي ابراهيم ابن يحيى قال شبك بيدي صفوان بن سليم قال شبك بيدي أيوب بن خالد الأنصاري قال شبك بيدي عبد الله ابن أبي رافع قال شبك بيدي أبو هريرة قال شبك بيدي أبو القاسم محمد ﷺ فقال : خلق الله الأرض يوم السبت والجبال يوم الأحد والأشجار يوم الاثنين والظلمات يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء والدواب يوم الخميس وآدم يوم الجمعة :

الباب الرابع في ذكر أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه : الأولى من الأرض تسمى أديما ، والثانية بسيطا ، والثالثة ثقيلا ، والرابعة بطيحا ، والخامسة متثاقلة ، والسادسة ماسكة ، والسابعة ثرى . (وأما أسماؤها المذكورة في القرآن) فهي سبعة أيضا : سماها الله فراشا ، فقال ـ الذي جعل لكم الأرض فراشا ـ ، وسماها قرارا ، فقال ـ أمن جعل الأرض قرارا ـ وسماها رتقا فقال ـ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ـ وسماها بساطا فقال ـ والله جعل لكم الأرض بساطا ـ وسماها مهادا فقال ـ ألم نجعل الأرض مهادا ـ وسماها ذات الصدع فقال ـ والأرض ذات الصدع ـ يعني بالنبات وسماها كفاتا فقال ـ ألم نجعل الأرض كفاتا ـ قال خالد بن سعيد كنت أمشي مع الشعبي بظهر الكوفة فنظر إلى بيوت الكوفة فقال هذه كفات الأحياء ، ثم نظر الى المقبرة فقال هذه كفات الأموات .

ويحكى أن عبد الله بن طاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد المجوس شاب متطبب يدعي تحقيق الكلام وأظهر مسئلة تحريق الأنفس بالنار ، وكان يزعم أن الجسد كثيف منتن في حال الحياة ، فاذا مات فلا حكمة في دفنه والتسبب الى زيادة نتنه وأن الواجب إحراقه وإذراء رماده ، فقيل لبعض الفقهاء ان الناس قد افتتنوا بمقالة هذا المجوسي ، فكتب الفقيه الى عبد الله بن طاهر أن اجمع بيننا وبين هذا المجوسي

لنسمع منه فاجتمعوا عند عبدالله ، فلما تكلم المجوسى بمقالته تلك قال له الفقيه أخبرنا عن صبى تدعيه أمه وحاضنته أيهما أولى به ، فقال له الأم ، فقال إن هذه الأرض هى الأم منها خلق الخلق فهى أولى بأولادها أن يردوا اليها ، فأفحم المجوسى وأنشد فى معناه لأمية بن أبى الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وسئل يحيى بن معاذ الرازى أن ابن آدم يدرى أن الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن اليها . قال لأنه منها خلق فهى أمه وفيها نشأ فهى عشه ومنها رزق فهى عيشه واليها يعود فهى كفاته وهى ممر الصالحين إلى الجنة

الباب الخامس فى ذكر ما زين الله به الأرض

وهى سبعة أشياء : الأزمنة وزين الأزمنة بأربعة أشهر قال الله تعالى — إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، فالأربعة الأشهر الحرم منها ثلاثة سرد وواحد فرد فالثلاثة السرد ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم والفرد رجب ، والأمكنة وزينها بأربعة أشياء: مكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد العشائر ، وزينها أيضا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وزين الأنبياء بأربعة ابراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الوجيه ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم أجمعين ، وهم أهل الكتب وأصحاب الشرائع وأولو العزم ، وزينها أيضا بآل محمد ﷺ ، وزينهم أيضا بأربعة على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم .

وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر فلما انفتل من الصلاة أقبل علينا بوجهه الكريم فقال يامعاشر المسلمين من افتقد الشمس فليستمسك بالقمر ومن افتقد القمر فليستمسك بالزهرة ومن افتقد الزهرة فليستمسك بالفرقدين فقيل يارسول الله ما الشمس وما القمر وما الزهرة وما الفرقدان ؟ فقال أنا الشمس وعلى القمر وفاطمة الزهرة والحسن والحسين الفرقدان فى كتاب الله تعالى لايفترقان حتى يردا على الحوض وزينها أيضا بالصحابة وزينهم أيضا بأربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المرضيون رضى الله عنهم أجمعين .

وروى عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : لايجتمع حب هؤلاء الأربعة إلا فى قلب مؤمن قال أنس قد اجتمع حبهم فى قلبى والحمد لله ، وزينها أيضا بالمؤمنين ، وزينهم بأربعة العلماء والقراء والغزاة والعباد ، وزينها أيضا بأنواع الحيوانات والنباتات والجمادات .

الباب السادس فى عاقبتها ومآلها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعدها بسبعة أشياء : أحدها التبديل وهو قوله تعالى — يوم تبدل الأرض غير الأرض — وفى الخبر يؤتى بأرض بيضاء من فضة كالخبز النقى الحوارى لم يعص الله عليها قط طرفة عين ولا وصم فيها ولاقصم مستوية كالصلب المهند . والثانى الزلزلة قال الله تعالى — إذا زلزلت الأرض

زلزالها ـ الآية وقال رسول الله ﷺ : لاتقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قيل وما الهرج يارسول الله ؟ قال القتل ، فاذا أكلت أمتى الربا كانت الزلزلة ، واذا جاروا فى الحكم اجترأ عليهم العدو ، واذا ظهرت الفاحشة كان الوباء والموت ، واذا منعوا الزكاة قحطوا ولولا البهائم لم يمطروا وفى الحديث أن الأرض تزلزلت على عهد عمر رضى الله عنه ، فأخذ بعضادتى منبر رسول الله ﷺ وقال : يا أهل المدينة إنكم رجفتم ، وان الرجفة من كثرة الربا والزنا ونقصان الثمر من قلة الصدقة وإنكم أحدثتم أشياء حتى أعجلتم فهل أنتم منتهون أو يفر عمر من بين أظهركم . والثالث البروز قال الله تعالى ـ وترى الأرض بارزة ـ يعنى لفصل القضاء . والرابع الرج قال الله تعالى ـ إذا رجت الأرض رجا ـ قال المفسرون كما يرج الصبى فى المهد حتى ينكسر كل شىء عليها فرقا من ربها . والخامس الرجف قال تعالى ـ يوم ترجف الأرض والجبال ـ والسادس المدحتى تتخلى وتلقى مافى بطنها قال تعالى ـ وإذا الأرض مدت وألقت مافيها وتخلت ـ والسابع الدك قال تعالى ـ إذا دكت الأرض دكا دكا ـ وقال تعالى ـ فدكتا دكة واحدة ـ ويحكى أن الربيع بن خثيم كان اذا قرأ هذه الآية أخذ بجلد ذراعيه ويقول ياحماه ويادماه أين أنتما ؟ .

الباب السابع فى وجوه الأرض المذكورة فى القرآن

وهى سبعة أولها مكة خاصة قال الله تعالى فى الرعد والأنبياء ـ أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ـ يعنى أرض مكة . والوجه الثانى أرض المدينة قال الله تعالى ـ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ـ يعنى أرض المدينة وقال تعالى ـ إن أرضى واسعة ـ وقال تعالى ـ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ـ . والثالث أرض الشأم وذلك قوله تعالى ـ ادخلوا الأرض المقدسة ـ الآية يعنى بلاد الشام وقال تعالى ـ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ـ والوجه الرابع أرض مصر قال تعالى ـ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ـ أى أرض مصر . وقوله تعالى ـ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ـ وقوله ـ فلن أبرح الأرض ـ أى أرض مصر وقوله تعالى ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ وقال تعالى ـ ويستخلفكم فى الأرض ـ أى أرض مصر . والخامس أرض المشرق فذلك قوله تعالى ـ إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ـ والسادس الأرضون كلها وذلك قوله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ـ وقوله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ـ يعنى بالأمم فى التصاوير أمثالكم فى التسخير وقال تعالى ـ ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ـ وقال تعالى ـ الذى جعل لكم الأرض فراشا ـ والسابع أرض الجنة فذلك قوله تعالى ـ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ـ وقوله تعالى ـ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين .

مجلس فى ذكر خلق السموات وما يتصل به

وترتيب الكلام فى هذا المجلس أيضا على سبعة أبواب، لقول وهب بن منبه : كادت الأشياء أن تكون سبعا فالسموات سبع والأرضون سبع والجبال سبع والبحار سبع وعمر الدنيا سبعة آلاف والأيام سبعة والكواكب سبعة وهى السيارة والطواف بالبيت سبعة أشواط والسعى بين الصفا والمروة سبعة ورمى الجمار سبعة وأبواب جهنم سبعة ودركاتها سبعة وامتحان يوسف عليه السلام سبع سنين قال تعالى ـ فلبث فى السجن بضع سنين ـ وإيتاؤه ملك مصر سبع سنين ـ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان ـ وكرامة الله تعالى للمصطفى ﷺ سبع قال الله تعالى ـ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ـ والقرآن سبعة أسباع ، وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء وخلقه من سبعة أشياء قال الله تعالى ـ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين إلى قوله ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ ورزق الانسان وغذاؤه من سبعة أشياء . قال الله تعالى ـ فلينظر الانسان إلى طعامه ـ الى قوله ـ متاعا لكم ولأنعامكم ـ وأمر بالسجود على سبعة أعضاء .

الباب الأول فى بدء خلق السموات

يروى فى الأخبار المشهورة المأثورة أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة مثل السموات السبع والأرضين السبع ثم نظر اليها نظرة هيبة فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع وعلاه زبد ودخان فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء وذلك قوله تعالى ـ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ـ أى قصد ثم فتقها بعد أن كانت طبقة واحدة فصيرها سبع سموات قال الله تعالى ـ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ـ

الباب الثانى فى جواهرها وأجناسها

قال الربيع بن أنس سماء الدنيا موج مكفوف . والثانية من صخرة . والثالثة من حديد . والرابعة من نحاس . والخامسة من فضة . والسادسة من ذهب . والسابعة من ياقوتة بيضاء

الباب الثالث فى هيئتها وحدودها

قال الله تعالى ـ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ـ قال ابن عباس رحمه الله تعالى خلق الله السموات مثل القباب فسماء الدنيا قد شدت أقطارها بالثانية والثانية بالثالثة وكذلك الى السابعة والسابعة بالعرش فذلك قوله تعالى ـ بغير عمد ترونها ـ وعمادها من فوقها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون فقال فيم أنتم تتفكرون ؟ قالوا نتفكر فى الخالق فقال لهم : تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فانه لا تحيط به الفكرة تفكروا فى أن الله خلق السموات سبعا

والأرضين سبعا وتحت كل أرض خمسمائة عام وبين السماء والأرض خمسمائة عام وتحت كل سماء خمسمائة عام وما بين كل سماء ين خمسمائة عام وفى السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك قائم لا يجاوز الماء كعبه .

الباب الرابع فى أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه أولها سماء الدنيا ديناح والثانية ديقا والثالثة رقيع والرابعة فيلون والخامسة طفطاف والسادسة سمساق والسابعة اسحاقائل . وأما أسماؤها المذكورة فى القرآن فسبعة أولها البناء قال الله تعالى ــ والسماء بناء ــ والسقف قال الله تعالى ــ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ــ والطرائق قال الله تعالى ــ وجعلنا فوقكم سبع طرائق ــ والطباق قال الله تعالى ــ الذى خلق سبع سموات طباقا ــ والشداد قال الله تعالى ــ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ــ والرتق والفتق قال الله تعالى ــ كانتا رتقا ففتقناهما ــ والدخان قال الله تعالى ــ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ــ .

وروى أن الملائكة قالت يارب لو أن السماء والأرض حين أمرتهما عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ . قال كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما قالت يارب فأين تلك الدابة ؟ قال فى مرج من مروجى قالت يارب فأين ذلك المرج قال فى علم من علومى قالت الملائكة سبحان ذى البسط القوى . وقد ورد عن الضحاك بن مزاحم الهلالى حديث غريب حسن جامع لما تقدم من الأبواب فى صفة السموات وحدودها وهيئتها وما فيها وأهلها وسكانها وأسمائها وألقابها وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين العدل حدثنا محمد بن جعفر ، قال أخبرنا الحسن بن علوية قال حدثنا إسمعيل بن عيسى قال حدثنا إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك ومقاتل قالا : خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها وهى ماء ودخان وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام ولونها كلون الحديد المجلى واسمها برقيعا وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة خلقوا من نار وريح وعليهم ملك يقال له الرعد وهو ملك موكل بالسحاب والمطر يقول سبحان ذى الملك والملكوت ، وخلق السماء الثانية على لون النحاس وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة على ألوان شتى صفوف لو قيست شعرة بين منا كبهم لما انقاست رافعون أصواتهم يقولون سبحان ذى العزة والجبروت واسمها قيدوم وخلق الله فيها ملكا يقال له حبيب نصفه من نار ونصفه من ثلج وبينهما رتق فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار وهو يقول يامن ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ، ومنها الى السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام ولون السماء الثالثة كلون الشبة وغلظها مسيرة خمسمائة عام واسمها الماعون وفيها ملائكة ذوو أجنحة الملك منهم له جناحان وله أربعة أجنحة وله ستة أجنحة ووجوه شتى رافعون أصواتهم بالتسبيح يقولون سبحان الحى الذى لا يموت أبدا صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص لو قيست شعرة بين منا كبهم لما انقاست لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله تعالى ، وخلق الله السماء الرابعة وبينها وبين السماء

الثالثة مسيرة خمسمائة عام وغلظها خمسمائة عام ولونها كلون الفضة البيضاء واسمها فيلون وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة السماء الثالثة . وكذلك أهل كل سماء أكثر عددا من السماء التى تليها إلى الضعف ، وفى السماء الرابعة ملائكة لايحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم كل يوم فى زيادة وذلك قوله تعالى ـ ومايعلم جنود ربك إلاهو ـ قال وهم قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة يبعث الله تعالى الملك منهم فى فى أمر من أموره فينطلق الملك ثم ينصرف فلايعرف صاحبه الذى إلى جانبه من شدة العبادة وهم يقولون سبوح قدوس ربنا الرحمن الذى لا إله إلاهو ، قال وخلق الله السماء الخامسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ولونها على لون الذهب واسمها اللاحقوق ومنها إلى السماء السادسة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الأربع سموات وهم ركوع وسجود لم يرفعوا أبصارهم ولايرفعونها إلى يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة قالوا ربنا لم نعبدك حق عبادتك وخلق الله السماء السادسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ومنها إلى السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام وفيها جند الله الأعظم الأكبر الكروبيون لايحصى عددهم إلا الله تعالى وعليهم ملك جنده سعون ألف ملك وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك وهم الذين يبعثهم الله فى أموره إلى أهل الدنيا رافعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح واسمها عاروس وهى من ياقوتة حمراء ، ثم خلق الله السماء السابعة غلظها مسيرة خمسمائة عام فيها جنود الله تعالى من الملائكة وعليهم ملك وهو على سبعمائة ألف ملك كل ملك منهم له من الجنود مثل قطر السماء وتراب الثرى والسهل والرمل وعدد الحصى والورق وعدد كل خلق فى سبع سموات وسبع أرضين ويخلق الله سبحانه وتعالى فى كل يوم مايشاء واسمها الرقيع وهى من درة بيضاء ، ومن السماء السابعة الى مكان يقال له مرهوثا مسيرة خمسمائة عام وعليه جنود الله من الملائكة وهم رؤساء الملائكة وهم أعظمهم سوى الروح وحملة العرش الملك منهم له وجوه شتى وأجنحة شتى وأنوار شتى فى جسده لايشبه بعضهم بعضا رافعون أصواتهم بالتهليل ينظرون إلى العرش لايطرفون لو أن الملك منهم نشر جناحه لطبق الدنيا بريشة من جناحه ولايعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومن فوق ذلك غمامة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، ومن السماء السابعة اليها كما بين سبع سموات وسبع أرضين ، والعرش فوق ذلك فى عليين لايعلم منتهاه إلا الله تعالى .

الباب الخامس فى ذكر الأيام التى خلق الله الأشياء فيها

روت الرواة أن الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس وخلق فى يوم الخميس ثلاثة أشياء السموات والملائكة والجنة الى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة فخلق فى الساعة الأولى الأوقات والآجال ، وفى الثانية الأرزاق ، وفى الثالثة آدم عليه الصلاة والسلام وذلك قوله عزوجل ـ فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ـ الآية .

الباب السادس فى ذكر مازين الله به السموات

وهى عشرة أشياء . الشمس : قال الله تعالى ـ وجعل الشمس سراجا ـ وقال تعالى ـ سراجا

وهاجا ـ . والقمر قال الله تعالى ـ وجعل القمر فيهن نورا ـ والكواكب قال الله تعالى ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ـ وهي على ضربين منها معلق كتعليق القناديل فى المساجد ومنها مركب كتركيب الفص فى الخاتم وهى مع كثرتها مختلفة الصور ماخلق الله تعالى منها كوكبا على مثال كوكب . وفى بعض الأخبار : ما يكون من حيوان فى الارض ولا دابة تدب دون العرش إلا وفى خلق الكواكب مثلها .

والعرش قال الله تعالى ـ رفيع الدرجات ذو العرش ـ . روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : فى العرش تمثال جميع ماخلق الله تعالى فى البر والبحر وقال هذا تأويل قوله تعالى ـ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ـ ، وإن مابين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية لخفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ، والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لايستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى ، والأشياء كلها فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة ، وإن لله ملكا يسمى حزقيائيل له ثمانية عشر ألف جناح مابين الجناح الى الجناح مسيرة خمسمائة عام فخطر له خاطر هل يقدر أن ينظر الى العرش فزاده الله تعالى فى الأجنحة مثلها فكان له ستة وثلاثون ألف جناح مابين الجناح الى الجناح مسيرة خمسمائة عام ثم أوحى الله تعالى اليه : أيها الملك طر فطار مقدار عشرين ألف سنة فلم يبلغ قائمة من قوائم العرش ثم ضاعف الله تعالى له فى الأجنحة والقوة وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش فأوحى الله تعالى اليه أيها الملك لو طرت الى أن ينفخ فى الصور مع أجنحتك وقوتك ماتبلغ ساق عرشى فقال الملك سبحان ربى الأعلى فأنزل الله سبحانه وتعالى ـ سبح اسم ربك الأعلى ـ فقال النبى ﷺ اجعلوها فى سجودكم . وقال كعب الأحبار : لما خلق الله تعالى العرش قال لم يخلق الله تعالى شيئا أعظم منى فاهتز فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح فى كل جناح سبعون ألف ريشة فى كل ريشة سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف فم فى كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا والملائكة أجمع ، فالتفت الحية بالعرش فالعرش الى نصف الحية وهى ملتوية به .

والكرسى قال الله تعالى ـ وسع كرسيه السموات والارض ـ وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ أنه قال : الكرسى لؤلؤة طولها حيث لايعلمه العالمون وقد جعل الله آية الكرسى أمانا لأهل الإيمان من شر الشيطان .

وروى اسمعيل بن مسلم عن أبى المتوكل الباجى عن أبى هريرة رضى الله عنه : أنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فاذا التمر قد أخذ منه ملء الكف ثم دخل يوما آخر فاذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ثم دخل يوما آخر فاذا هو قد أخذ منه مثل ذلك فذكر ذلك أبو هريرة رضى الله عنه للنبى ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام أيسرك أن تأخذه قال نعم قال إذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك لمحمد فذهب ففتح الباب وقال ذلك فاذا هو قائم بين يديه فقال له ياعدو الله أنت صاحب الفعل قال

نعم ثم قال لا أعود ما كنت أخذت منه إلا لأهل بيت فقراء من الجن فتركه ثم عاد فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال أيسرك أن تأخذه قال نعم قال فاذا فتحت الباب فقل مثل ذلك أيضا ففتح الباب وقال سبحان من سخرك لمحمد فاذا هو قائم بين يديه فقال له ياعدو الله أليس قد عاهدتني أن لا تعود فقال دعني هذه المرة فاني لا أعود فتركه ثم عاد فأخذه الثالثة فقال أليس قد عاهدتني أن لا تعود لا أدعك اليوم حتى أذهب بك الى النبي ﷺ فقال لا تفعل فانك ان تدعني علمتك كلمة إذا قلتها لم يقربك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى قال له لتفعلن ان تركتك قال نعم قال فما هي قال الله لا إله الا هو الحي القيوم حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد بعد ذلك فذكر ذلك أبو هريرة للنبي ﷺ فقال أما علمت يا أباهريرة هذه انه كذلك صدق الخبيث .

واللوح والقلم قال الله تعالى — وكل شيء أحصيناه في إمام مبين — وقال تعالى — نٓ والقلم وما يسطرون — وقال ابن عباس : ان مما خلق الله تعالى لوحا محفوظا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء كتابته نور وقلمه نور عرضه كما بين السماء والارض ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويفعل مايشاء فذلك قوله تعالى — كل يوم هو في شأن — .

ويروى أن أول ما خلق الله القلم فنظر اليه نظرة هيبة وكان طوله كما بين السماء والأرض فانشق نصفين وقال اكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال له اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة .

ويحكى أن ابن الزيات دخل على بعض الخلفاء فوجده مغموما فقال له روح عني يا ابن الزيات فأنشأ يقول :

الهم فضل والقضاء غالب	وكائن ما خط في اللوح
فالتمس الروح وأسبابه	أيأس ما كنت من الروح

والبيت المعمور : وروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن في سماء الدنيا بيتا يقال البيت المعمور بحيال الكعبة ، وان في السماء السابعة بحرا من نور يقال له الحيوان يدخل فيه جبريل عليه السلام كل غداة فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج منه سبعون ألف قطرة من نور فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا فيؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه فيأتونه فيدخلونه ويصلون فيه ثم يخرجون فلا يعودون اليه إلى يوم القيامة .

وسدرة المنتهى . قال الله تعالى — عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى — . قال كعب وغيره دخل حديث بعضهم في بعض هي شجرة في السماء السابعة مما يلي الجنة أصلها ثابت في الجنة وعروقها تحت الكرسي وأغصانها تحت العرش اليها ينتهي علم الخلائق ، كل ورقة منها تظل أمة من الأمم يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ومقام جبريل عليه السلام وسطها والله أعلم .

والجنة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن الجنة كيف هي ؟ قال : من

يدخل الجنة حى لايموت ومنعم لا ييأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . قيل يارسول الله كيف بناؤها ؟ قال : لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ملاطها مسك أذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران ،

وروى مجاهد عن مسروق عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ ان السماء أطت وحق لها ان تئط ليس منها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم أو قاعد يذكر الله تعالى لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصحراء تجأرون إلى الله تعالى .

الباب السابع فى ذكر مآلها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعد السماء بسبعة أشياء : أحدها المور . قال الله تعالى — يوم تمور السماء مورا — يعنى تدور كدوران الرحى من هول يوم القيامة . والثانى أخبر أنها تصير كالمهل فقال تعالى يوم تكون السماء كالمهل — يعنى دردى الزيت . والثالث أخبر أنها تصير وردة كالدهان قال الله تعالى — فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان — . والرابع الانشقاق قال الله تعالى — إذا السماء انشقت — والخامس الانفطار قال الله تعالى — إذا السماء انفطرت ، والسماء منفطر به — والانفطار أكثر من الانشقاق . والسادس الانفراج قال الله تعالى — وإذا السماء فرجت — . والسابع الكشط قال الله تعالى — واذا السماء كشطت — أى نزعت من مكانها وطويت طيا قال الله تعالى — يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب — الآية وأحسن الشاعر حيث قال :

إذا قيل من رب هذى السما   فليس سواه له مضطرب
ولو قيل رب سوى ربنا   لقال العباد جميعا كذب

مجلس فى ذكر خلق الشمس والقمر وصفة سيرهما وبدء أمرهما ومعادهما

وهو ما أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون الثقة الأمين بقراءتى عليه فى صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة قال أخبرنى أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الشرقى الحافظ قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمى قال حدثنا أبو عصمة يحيى بن أبى مريم الخراسانى قال أنبأنا مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . بينما هو جالس ذات يوم من الأيام إذ أتاه رجل فقال يا ابن عباس انى سمعت العجب من كعب الأحبار يذكر فى الشمس والقمر وكان ابن عباس متكئا فاحتفز ثم قال : وماذا قال ؟ قال زعم كعب الأحبار أنه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان فى النار . قال عكرمة فطارت من ابن عباس شظية ووقعت أخرى غضبا ثم قال كذب كعب الاحبار قالها ثلاثا بل هذه يهودية يريد ادخالها فى الاسلام والله تعالى أكرم وأجل من أن يعذب أهل طاعته ألم تر الى قوله تعالى — وسخر لكم الشمس والقمر دائبين — يعنى دأبهما فى طاعته فكيف يعذب عبدين أثنى عليهما أنهما دائبان فى طاعته قاتل الله هذا الحبر وقبح حديثه ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين

العبدين المطيعين لله تعالى ثم استرجع مرارا ثم أخذ عودا من الأرض فجعل ينكت به فى الأرض وظل كذلك ماشاء الله ثم انه رفع رأسه ورمى بالعود وقال ألا أحدثكم بما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فى الشمس والقمر وبدء خلقهما ومصير أمرهما قلنا بلى يرحمك الله تعالى فقال إن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك فقال إن الله تعالى لما أتقن خلقه إحكاما ولم يبق إلا آدم خلق شمسين من نور عرشه فأما ما كان من سابق علم الله تعالى أن يدعها شمسا فانه خلقها مثل الدنيا من مشارقها ومغاربها وأما ما كان من سابق علم الله أن يطمسها ويحولها قمرا فانه خلقها دون الشمس فى العظم ولكن إنما يرى صغرها من شدة ارتفاع السماء وبعدها عن الأرض فلو ترك الله تعالى الشمس كما كان فى بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا يدرى الأجير متى يعمل ولا متى يأخذ أجرته ولا يدرى الصائم إلى متى يصوم والى متى يفطر ولا تدرى المرأة كيف تعتد ولا يدرى المسلمون متى وقت صلاتهم ومتى وقت حجهم ولا يدرى المدينون متى يحل دينهم ولا يدرى الناس متى يزرعون ومتى يسكنون راحة لأبدانهم وكان الله أنظر لعباده وأرحم بهم فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر وهو يومئذ مثل الشمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور فذلك قوله تعالى ــ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ــ فالسواد الذى فى جوف القمر مثل الخطوط فيه إنما هو أثر المحو. ثم خلق الله تعالى الشمس من ضوء نوره ثم خلق الله تعالى للشمس عجلة فيها ثلثمائة وستون عروة ووكل بالشمس وعجلتها ثلثمائة وستين ملكا من الملائكة من أهل سماء الدنيا قد تعلق كل منهم بعروة من تلك العرى وخلق الله تعالى مشارق ومغارب فى أقطار الأرض وكنفى السماء ثمانين ومائة عين فى المشرق من طينة سوداء وثمانين ومائة عين فى المغرب مثل ذلك من طينة سوداء يفور غليانها كغلى القدر إذا ما اشتد غليانها وذلك قوله تعالى ــ وجدها تغرب فى عين حمئة ــ ومعنى حمئة سوداء من طين فكل يوم وليلة لها مطلع جديد ومغرب جديد مابين أولها مطلعا وأولها مغربا أطول ما يكون النهار فى الصيف وآخرها مطلعا مشرقا ومغربا أقصر ما يكون النهار فى الشتاء فذلك قوله تعالى ــ رب المشرقين ورب المغربين ــ يعنى آخرها ههنا وأولها ههنا وترك مابين ذلك من المشارق والمغارب ثم جمعها بعد ذلك فقال ــ رب المشارق والمغارب ــ فذلك عدة تلك العيون كلها ثم خلق الله تعالى بحرا دون سماء الدنيا بمقدار ثلاثة فراسخ فهو موج مكفوف قائم فى الهواء بإذن الله تعالى لا يقطر منه قطرة والنجوم كلها ساكنة فى ذلك البحر وهو جار فى سرعة السهم وانطلاقه فهو فى الهواء مستو كأنه جبل ممدود مابين المشرق والمغرب وتجرى الشمس والقمر والخنس فى سرعة دوران الرحى من أهوال يوم القيامة وزلازلها فى ذلك البحر فذلك قوله تعالى ــ كل فى فلك يسبحون ــ والفلك فى دوران العجلة فى لجة غمرة ماء ذلك البحر ، والذى نفس محمد بيده لو بدت الشمس من دون ذلك البحر لأحرقت كل شىء على وجه الأرض حتى الصخور والحجارة ولو بدا القمر من دون ذلك البحر لافتتن به أهل الأرض حتى يعبدونه من دون الله تعالى إلا ماشاء الله أن يعصمه من أوليائه وأهل طاعته . قال ابن عباس رضى الله عنه قال على

ابن أبي طالب رضي الله عنه بأبي أنت وأمي يارسول الله ذكرت مجرى الخنس مع الشمس والقمر وقد أقسم الله تعالى بالخنس في القرآن مثل ما كان ذكرك اليوم فما الخنس فقال عليه السلام ياعلى هن الكواكب الخمسة البرجيس وهو المشترى وزحل وعطارد وبهرام والزهرة فهذه الكواكب الخمسة الطالعات الجاريات مع الشمس والقمر في الفلك . وأما سائر الكواكب فكلها معلقات في السماء كتعليق القناديل في المساجد وهي تدور مع السماء دورانا بالتسبيح والتقديس والصلاة لله تعالى ثم قال النبي ﷺ وان أحببتم أن تستبينوا ذلك فانظروا دوران الفلك مرة من ههنا ومرة من ههنا وان لم تستبينوا الفلك فالمجرة وبياضها مرة من ههنا ومرة من ههنا فذلك دوران الشمس والقمر ودوران الكواكب معا كلها سوى هذه الخمسة ودورانها اليوم كما ترون فذلك صلاتها ودورانها يوم القيامة في سرعة دوران الرحا من أهوال يوم القيامة فذلك قوله تعالى — يوم تمور السماء مورا — يعني تدور دورانا — وتسير الجبال سيرا — فاذا طلعت الشمس فانها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها ثلثمائة وستون ملكا ناشرى أجنحتهم يجرونها في الفلك بالتسبيح والتقديس لله تعالى على قدر ساعات النهار ، والقمر كذلك على قدر ساعات الليل مابين الطول والقصر في الشتاء كان ذلك أو في الصيف أو مابينهما من الخريف والربيع ، فاذا أحب الله أن يبتلى القمر والشمس ويرى العباد آية من الآيات يستعتبهم رجوعا عن معاصيه وإقبالا على طاعته تحركت الشمس عن العجلة وقال مرة خرت الشمس عن العجلة فتقع في غمر ماء ذلك البحر وهو الفلك ، فاذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية ليشتد خوف العباد وقعت الشمس كلها فلا يبقى على العجلة شيء منها ، فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم وذلك هو المنتهى عند كسوفها ، فاذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثان في الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون كسوف ابتلاء الشمس والقمر وذلك تخويف للعباد واستعتاب من الله تعالى ، فأى ذلك كان صارت الملائكة الموكلة بعجلتها فرقتين : فرقة منهم يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة ، والفرقة الأخرى تقبل على العجلة فتجرها الى الشمس ، وهم في ذلك يقودونها في الفلك على مقادير ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهارا لكيلا يزيد في طولها شيء ، وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك وجعل لهم تلك القوة فالذى ترون من خروج الشمس والقمر بعد الكسوف قليلا قليلا من ذلك السواد الذى يعلوه فهو من غمر ماء ذلك البحر وهو خروجها من ذلك الماء ، فاذا أخرجوها كلها اجتمعت الملائكة كلها فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة وذلك حين تنجلى للعالم حتى يحمدوا الله تعالى على ماقواهم لذلك ويتعلقون بعرى العجلة حتى يجروها باذن الله تعالى في لجة ذلك البحر حتى اذا بلغوا بها المغرب أدخلوها من بعض تلك العيون فتسقط من أفق السماء في العين ، ثم قال ﷺ « عجبت من خلق الله ، ومابين من القدرة فيما لم يخلق أعجب منه » . ومن ذلك قول جبريل عليه السلام لسارة — أتعجبين من أمر الله — وذلك أن الله تعالى خلق مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب على كل مدينة

منهما عشرة آلاف باب ما بين كل باب الى الآخر مسيرة فرسخ ، فأهل المدينة التي بالمشرق من بقايا عاد من نسل مؤمنيهم الذين كانوا آمنوا بهود عليه السلام واسمها بالسريانية برقيشا وبالعبرانية جابلق ، واسم المدينة التي بالمغرب بالسريانية برجيسا وبالعبرانية جابرسانيوت ، على كل باب من هاتين المدينتين كل يوم عشرة آلاف رجل في الحراسة عليهم السلاح ومعهم الكراع لاتنوبهم تلك الحراسة بعد ذلك اليوم الى يوم ينفخ في الصور ، والذي نفس محمد بيده لولا كثرة هؤلاء القوم وضجيج أصواتهم لسمع أهل الدنيا وقع هذه الشمس حين تطلع وحين تغرب ، ومن ورائهم ثلاث أمم لايعلم عددهم إلا الله تعالى وهم منشك وتارس وتاويل ، ومن ورائهم يأجوج ومأجوج وان جبريل عليه السلام انطلق بي اليهم ليلة أسرى بي الى السماء فدعوت يأجوج ومأجوج إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته فأبوا أن يجيبوني فهم في النار مع من عصى الله من ولد آدم وولد إبليس ، ثم انطلق بي الى هاتين المدينتين فدعوتهم إلى الله تعالى والى دينه وعبادته فأجابوا وأنابوا فهم إخواننا في الدين من أحسن منهم فهو مع المحسنين ومن أساء فهو مع المشركين ، ثم انطلق بي الى الأمم الثلاث فدعوتهم الى دين الله وعبادته فأبوا علي وكفروا بالله وكذبوا برسله فهم مع يأجوج ومأجوج وسائر من عصى الله تعالى في النار ، فاذا ما غربت الشمس رفع بها الى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة ، وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع من مغربها أم من مطلعها وتكسى ضوءا ، وان كان القمر فنورا على قدر ساعات الليل والنهار ثم ينطلق بها إلى ما بين السماء السابعة وما بين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة فتنحدر حيال المشرق من سماء إلى سماء فاذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الفجر عن الصبح ، فاذا انحدرت من بعض تلك العيون فذلك حين يضيء الصبح ، فاذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين يضيء النهار فتلك مطالعها ومغاربها ما بين أولها عينا الى آخرها عينا في الطلوع والغروب فذلك تمام ستة أشهر ثم إذا رجعت كذلك من عين إلى عين في الطلوع والغروب إلى آخرها عينا فذلك تمام السنة ، فعدة أيامها ولياليها ثلثمائة وستون ليلة ، وخلق الله تعالى عند المشرق حجابا من الظلمة فوضعه على البحر السابع مقدار عدة الليالي في الدنيا منذ خلقها الله تعالى إلى يوم تنصرف ، فاذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل ، فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب ، فلا تزال تلك الظلمة تخرج من خلال أصابعه قليلا قليلا وهو يراعي الشفق ، فاذا غاب الشفق أرسل الظلمة جميعا ، ثم ينشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وكنفي السماء ، ويجاوزان ماشاء الله خارجا في الهواء ، فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل ، فاذا بلغ المغرب أسفر الصبح من المشرق فضم جناحيه ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض فيقبضها بكفيه ثم يقبض عليها بكف واحد نحو قبضته التي تناولها من الحجاب بالمشرق ثم يضعها عند المغرب على البحر السابع ، فمن هناك ظلمة الليل إذا ما نقل ذلك الحجاب إلى المشرق وإلى المغرب ، فاذا نفخ في الصور انقضت أيام الدنيا فنور النهار من ضوء الشمس وظلمة الليل من قبل ذلك الحجاب ، فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطلعهما إلى مغربهما إلى ارتفاعهما إلى السماء السابعة

إلى محبسهما تحت العرش ، حتى يأتى الوقت الذى وقته الله تعالى لتوبة العباد ، وتكثر المعاصى فى الأرض ويذهب المعروف ولا يأمر به أحد ، ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد ، فاذا فعلوا ذلك حبست الشمس مقدار ليلة تحت العرش وكلما سجدت واستأذنت ربها من أين تطلع فلا يؤذن لها ولا يرد لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يؤذن لهما ولا يرد لهما جواب ، حتى يحبسا مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجدون فى الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة فى الأرض فى كل بلد من بلاد المسلمين فى هوان بين الناس وذلة فى أنفسهم ، فينام أحدهم تلك الليلة مقدار ما كان ينام قبلها من الليل ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلى ورده ولا يصبح نحو ما كان يصبح كل ليلة قبل ذلك ، فينكر ذلك ويخرج فينظر إلى السماء فاذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت فى السماء وصارت فى أماكنها من أول الليل ، فينكر ذلك ويظن فيها الظنون ويقول : أخففت قراءتى أم قصرت صلاتى أم قمت قبل حينى ؟ قال ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلى نحو صلاته ثم ينظر فلا يرى الصبح ، فيخرج أيضا فاذا هو بالليل مكانه فيزيده ذلك إنكارا ويخالطه الخوف ويظن فى ذلك الظنون من السوء ، ثم يقول لعلى قصرت صلاتى او خففت قراءتى أو قمت فى أول الليل ، ثم يعود وهو وجل خائف مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة فيقوم فيصلى أيضا مثل ورده كل ليلة قبل ذلك ، ثم ينظر فلا يرى الصبح فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فاذا هو بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت فى أماكنها أول الليل ، فيشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيلحقه الخوف وتلحقه الندامة ، ثم ينادى بعضهم بعضا وهم قبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون ، فيجتمع المتهجدون من أهل كل بلدة فى تلك الليلة فى مسجد من مساجدهم يجأرون الى الله تعالى بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ، فاذا ماتم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام اليهما فيقول لهما : إن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا الى مغربكما فتطلعا منه إنه لاضوء لكما عندنا ولا نور ، فيبكيان عند ذلك وجلا من الله تعالى وخوف يوم القيامة بكاء يسمعه أهل السبع سموات ومن دونها ، وأهل سرادقات العرش ومن فوقها فيبكون جميعا لبكائهما لما خالطهم من خوف الموت وخوف يوم القيامة ، فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما . قال فبينا المتهجدون يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى والغافلون فى غفلتهم إذ نادى مناد ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما ، فينظر الناس فاذا هم بهما أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك فذلك قوله تعالى ـ وجمع الشمس والقمر ـ وقوله تعالى ـ إذا الشمس كورت ـ فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقا ، ويتصارخ أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرات فؤادها فتشتغل كل نفس بما كسبت ، فأما الصالحون والأبرار فانه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم ذلك عبادة ، وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم ويكتب عليهم حسرة ، فاذا ما بلغ الشمس والقمر سرة السماء وهى منتصفها جاءهما جبريل عليه السلام فيأخذ بقرونهما ويردهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما من تلك العيون

ولكن يغربهما من باب التوبة ، فقال عمر بأبى أنت وأمى يارسول الله : وماباب التوبة ؟ فقال ياعمر : خلق الله تعالى بابا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجوهر مابين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله تعالى (١) إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ، ولم يتب عبد من عباد الله تعالى توبة نصوحا منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة فى ذلك الباب ، ثم ترفع إلى الله تعالى ، فقال معاذ بن جبل : بأبى أنت وأمى يارسول الله وما التوبة النصوح ؟ قال أن يندم العبد على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لايعود اليه كما لايعود اللبن إلى الضرع . قال فيغربهما جبريل عليه السلام من ذلك الباب ثم يرد المصراعين ، ثم يلتئم مابينهما فيصير كأنه لم يكن فيما بينهما صدع قط ، واذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولاتنفعه حسنة يعملها فى الاسلام إلا من كان قبل ذلك محسنا ، فانه يجرى عليه ما كان يجرى عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله تعالى — يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا — فقال أبى بن كعب : بأبى أنت وأمى يارسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا ؟ فقال يا أبى : إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك ثم يطلعان ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس فانهم مع مارأوا من فظاعة تلك الآية وعظمتها يلحون على الدنيا ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار ويبنون فيها البنيان . وأما الدنيا فلو نتج للرجل منهم فيها مهر لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن ينفخ فى الصور ، فقال حذيفة جعلنى الله فداءك يارسول الله فكيف بهم عند النفخ فى الصور ؟ قال ياحذيفة والذى نفسى بيده لينفخن فى الصور ولتقومن الساعة والرجل قد لاط حوضه فلايشرع فيه الماء ، ولتقومن الساعة وقد أخذ لبن لقحته من تحتها فلايشربه ، ولتقومن الساعة والثوب بين الرجلين فلاينشرانه ولايطويانه ولايبيعانه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع لقمته إلى فيه فلا يطعمها ثم تلا هذه الآية — ولتأتينهم بغتة وهم لايشعرون — فاذا قامت الساعة قضى الله تعالى بين أهل الدارين وميز بين الفريقين أهل الجنة والنار ، وقبل أن يدخلوها يدعو الله تعالى بالشمس والقمر فيجاء بهما أسودين لانور لهما مكدرين قد وقعا فى الزلازل والبلايا وفرائصهما ترعد من هول يوم القيامة وهول ذلك اليوم ومن مخافة الرحمن تعالى ، فاذا كانا حذاء العرش خرا ساجدين لله تعالى ويقولان : يا إلهنا قد علمت طاعتنا لك ودأبنا فى طاعتك وسرعتنا للمضى فى أمرك أيام الدنيا فلاتعذبنا بعبادة المشركين إيانا فقد علمت أنا لن ندعوهم إلى عبادتنا ولم نذهل عن عبادتك ، فيقول الله تعالى صدقتما إنى قد قضيت على نفسى أن أبدىء وأعيد إنى أعيدكما إلى مابدأتكما منه فارجعا إلى ماخلقتكما منه فيقولان ربنا مم خلقتنا ؟ فيقول خلقتكما من نور عرشى فارجعا اليه ، فيلمع من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نورا فيختلطان بنور العرش فذلك قوله تعالى —

---

(١) قوله منذ خلق الله تعالى الخ ، هكذا بالأصل ولعله الدنيا فليحرر اه مصححه .

يبدئ ويعيد — قال عكرمة فقمت مع النفر الذين حدثوا عن كعب ماحدثوا به من أمر الشمس والقمر حتى أتيناه فأخبرناه بغضب ابن عباس وماوجده من حديثه ، وبما حدثنا عن رسول الله ﷺ فيهما مما بين مبدئهما إلى معادهما ، فقال كعب الأحبار : إنى حدثت عن كتاب دارس منسوخ قدتداولته الأيدى وابن عباس حدث عن كتاب حديث العهد بالرحمن جل جلاله ناسخ للكتب وعن سيد الأنبياء والمرسلين خير البشر ، ثم قام فمشى إلى ابن عباس فقال بلغنى ما كان من وجدك من حديثى وماحدثت به من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ ألا وإنى أستغفر الله من ذلك مع أنى لم أتقوله من تلقاء نفسى ولكن حدثت عن كتاب دارس ، فلا أرى ما كان فيه من تبديل الكفار واليهود ، وأنت حدثت ماحدثت عن كتاب حديث العهد بالرحمن ناسخ للكتب وعن سيد المرسلين ، وأنا أحب أن تحدثنى بما حدثت به أصحابك من حديث الشمس والقمر ، فأحفظ عنك الحديث ، فاذا حدثت بشىء من أمر الشمس والقمر فيما بعد هذا اليوم كان هذا الحديث الذى تحدثنى به مكانَ حديثى الأول ، قال عكرمة : فوالله لقد أعاد عليه ابن عباس الحديث وإنى لأستقرئه فى قلبى بابا بابا فما زاد شيئا ولا نقص شيئا ولا قدم ولا أخر فزادنى ذلك فى ابن عباس رغبة وللحديث حفظا والله أعلم .

مجلس فى قصة آدم عليه الصلاة والسلام وهو يشتمل على أبواب كثيرة

الباب الأول فى ذكر وجوه من الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

قال الحكماء خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده ولو لم يخلق لما عرف أنه موجود وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لا تتأتى إلا من قادر حكيم وليعبد فانه يحب عبادة العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله لا على قدر أفعالهم وان كان غنيا عن عبادة خلقه لا تزيد فى ملكه طاعة المطيعين ولا تنقص من ملكه معصية العاصين قال الله تعالى — وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون — وليظهر احسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن اليهم وليتفضل عليهم فيعامل بعضا بالعدل وبعضا بالفضل ، وخلق المؤمنين خاصة للرحمة كما قال عز وجل — وكان بالمؤمنين رحيما — وقال تعالى — ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم — قال جعفر بن محمد الصادق والضحاك ابن مزاحم أى للرحمة خلقهم وليحمدوه لأنه يحب الحمد .

ويروى أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض فقال يارب هلا سويت بينهم ، فقال الله تعالى — انى أحب أن أشكر — .

قال أبو الحسن الفتال : خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبرة وخلقك للمحنة قال تعالى — الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم — .

قال العلماء : خلقكم لاظهار القدرة ثم رزقكم لاظهار الكرم ثم يميتكم لاظهار القهر والجبروت

ثم يحييكم لاظهار العدل والفضل والثواب والعقاب ، ومنهم من قال خلق الخلق جميعهم لأجل محمد ﷺ عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ياعيسى آمن بمحمد وأمر أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ماخلقت آدم ولا الجنة ولا النار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن وقيل خلقهم لأمر عظيم غيبه عنهم لا يجليه حتى يحل بهم ماخلقهم له قال الله تعالى ــ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ــ . وقال على ابن أبي طالب رضي الله عنه يا أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو . وقال الأوزاعي بلغني أن في السماء ملكا ينادى كل يوم : ألا ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا عرفوا ماخلقوا له ، وقال بعضهم إذا ماتوا ثم خلقوا علموا ماذا خلقوا له وجلسوا فتذاكروا ماذا علموا . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول في مناجاته : الهي غيبت عنى أجلي وأحصيت على عملي ولا أدرى الى أى الدارين منقلبي لقد أوقفتني وقفة المحزونين أبدا ما أبقيتني .

وقال أبو القاسم الحكيم : إن الله تعالى جعل ابن آدم بين البلوى والبلى ، فما دام الروح في جسد فهو في البلوى ، فاذا فارق الروح الجسد فهو في البلى فأنى له السرور وهو بين البلوى والبلى .

وقال بعض الحكماء : يا ابن آدم انظر إلى خطر مقامك في الدنيا إن ربك حلف فقال ــ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ــ وان إبليس حلف فقال ــ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ــ وأنت يامسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساه لاه والله أعلم .

الباب الثاني في خلق آدم عليه الصلاة والسلام وكيفيته وصفته

قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة : ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض إني خالق منك خلقا منهم من يطيعني ومنهم من يعصيني فمن أطاعني منهم أدخلته الجنة ومن عصاني أدخلته النار ، ثم بعث اليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض انى أعوذ بعزة الله الذى أرسلك أن تأخذ منى شيئا يكون فيه غدا للنار نصيب فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا وقال يارب استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها ، فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا فرجع إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا ، فبعث الله تعالى ملك الموت فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا فقال ملك الموت وانى أعوذ بالله أن أعصى له أمرا ، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى ومن سبختها وطينها وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها وحزنها فكذلك كان في ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والطالح والجميل والقبيح ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم قال الله تعالى ــ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ــ ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى ، فأمره أن يجعلها طينا ويخمرها فعجنها بالماء المر والعذب والملح حتى جعلها طينا وخمرها فلذلك اختلفت أخلاقهم ، ثم أمر

جبريل عليه السلام أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمدا ﷺ فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة الصفح الأعلى فقبض قبضة من موضع قبر النبي ﷺ وهي يومئذ بيضاء نقية فعجنت بماء التسنيم ورعرعت حتى صارت كالدرة البيضاء ثم غمست في أنهار الجنة كلها فلما خرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبيا فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا ﷺ ، ثم طيف بها في السموات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمدا ﷺ قبل أن تعرف آدم ثم عجنها بطينة آدم عليه الصلاة والسلام ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طينا لازبا لينا ثم تركها أربعين عاما حتى صارت صلصالا كالفخار وهو الطين اليابس الذي إذا ضربته بيدك صلصل أي صوت ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة لا بالطبع والحيلة فان الطين اليابس لا ينقاد ولا يتأتى تصويره ، ثم جعله جسدا وألقاه على طريق الملائكة التي تهبط إلى السماء وتصعد منه أربعين سنة فذلك قوله تعالى ـ هل أتى على الانسان حين من الدهر ـ الآية قال ابن عباس الانسان آدم والحين أربعون سنة كان آدم جسدا ملقى على باب الجنة ، وفي صحيح الترمذي بالإسناد عن رسول الله ﷺ في تفسير أول البقرة : ان الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض من السهل والجبل والأسود والأبيض والأحمر فجاءت الأولاد على ألوان الأرض ، وسأل عبد الله بن سلام رسول الله ﷺ كيف خلق الله آدم عليه السلام؟ فقال خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة وصدره وظهره من بيت المقدس وفخذيه من أرض اليمن وساقيه من أرض مصر وقدميه من أرض الحجاز ويده اليمنى من أرض المشرق ويده اليسرى من أرض المغرب ثم ألقاه على باب الجنة فكلما مر عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ولم يكونوا قبل رأوا شيئا يشبهه من الصور فمر به إبليس فرآه فقال لأمر ما خلقت ثم ضربه بيده فاذا هو أجوف فدخل في فيه وخرج من دبره وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك ثم قال لهم أرأيتم ان فضل هذا عليكم فما أنتم فاعلون ؟ قالوا نطيع ربنا فقال ابليس في نفسه والله لئن فضل هذا على لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكنه فذلك قوله تعالى ـ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ـ يعني ما أظهرت الملائكة من الطاعة وأسر إبليس من العصية وقوله تعالى ـ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ـ وفي الخبر أن جسد آدم عليه الصلاة والسلام كان ملقى أربعين سنة يمطر عليه مطر الحزن ثم أمطر عليه السرور سنة واحدة فلذلك كثرت الهموم في أولاده وتصير عاقبتها إلى الفرح والراحة ، وأنشدنا في هذا المعنى أبو عوانة المهرجاني :

يقولون ان الدهر يومان كله ... فيوم محبات ويوم مكارها

وما صدقوا فالدهر يوم محبة ... وأيام مكروه كثير البدائها

وأنشدني ابن الاعرابي فقال :

محن الزمان كثيرة لا تنقضى ... وسروره يأتيك بالفلتات

وأنشدنى أبوبكر الصولى لابن المعتز :

أى شىء يكون أعجب من ذا ... لو تفكرت فى صروف الزمان

حادثات السرور توزن وزنا ... والبلايا تكال بالقفزان

الباب الثالث فى صفة نفخ الروح

قال العلماء : فلما أراد الله أن ينفخ فى آدم عليه السلام الروح أمرها أن تدخل فى فيه فقالت الروح مدخل بعيد القعر مظلم المدخل ، فقال للروح ثانية فقالت مثل ذلك وكذلك ثالثة إلى أن قال فى الرابعة ادخلى كرها واخرجى كرها ، فلما أمرها الله تعالى بذلك دخلت فى فيه فأول ما نفخ فيه الروح دخلت دماغه فاستدارت فيه مقدار مائتى عام ثم نزلت فى عينيه . والحكمة فى ذلك أن الله تعالى أراد أن يرى آدم بدء خلقه وأصله حتى إذا تتابعت عليه الكرامات لا يدخله الزهو ولا العجب بنفسه ، ثم نزلت فى خياشيمه فعطس فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه فلقنه الله تعالى أن قال الحمد لله رب العالمين فكان ذلك أول ماجرى على لسانه فأجابه ربه عزوجل فقال يرحمك ربك يا آدم للرحمة خلقتك قال تعالى « سبقت رحمتى غضبى » ثم نزلت الروح إلى صدره وشراسيفه فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه ذلك وذلك قوله تعالى — وكان الانسان عجولا — وقوله تعالى — خلق الانسان من عجل — ، فلما وصلت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فهو أول حرص دخل جوف آدم عليه الصلاة والسلام وفى بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما قال له ربه يرحمك ربك يا آدم مد يده ووضعها على أم رأسه وقال أوه فقال الله مالك يا آدم فقال انى أذنبت ذنبا فقال من أين علمت ذلك فقال لأن الرحمة للمذنبين ، فصارت تلك سنة فى أولاده إذا أصاب أحدهم مصيبة أومحنة وضع يده على رأسه وتأوه ، ثم انتشرت الروح فى جسده كله فصار لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا ثم كساه الله تعالى لباسا من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسنا ، فلما قارف الذنب بدل بهذا الجلد وبقيت منه بقية فى أنامله ليتذكر به أول حاله .

قال عبدالله بن الحارث : كانت الدواب تتكلم قبل خلق الله تعالى آدم عليه السلام وكان النسر يأتى الحوت فى البحر فيخبره بما فى البر ويخبره الحوت بما فى البحر ، فلما خلق الله تعالى آدم عليه السلام جاء النسر إلى الحوت فقال لقد خلق الله اليوم خلقا ورأيت اليوم شيئا لينزلنى من وكرى وليخرجنك من البحر ، فلما أتم الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه الروح قرطه وشقه وصوره وختمه ومنطقه وألبسه من لباس الجنة وزينه بأنواع الزينة يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ونور نبينا محمد ﷺ فى جبينه كالقمر ليلة البدر ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وقال لهم طوفوا به فى سمواتى ليرى عجائبها ومافيها فيزداد يقينا ، فقالت الملائكة لبيك ربنا سمعنا وأطعنا فحملته الملائكة على أعناقها وطافت به السموات مقدار مائة عام حتى وقف على كل شىء من آياتها وعجائبها ، ثم خلق الله فرسا من المسك الأذفر

يقال له الميمون له جناحان من الدر والجواهر فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجبريل آخذ بلجامه وميكائيل عن يمينه واسرافيل عن شماله فطافوا به السموات كلها وهو يقول السلام عليكم يا ملائكة الله فيقولون وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقال الله تعالى يا آدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم إلى يوم القيامة ثم علمه الله تعالى الأسماء كلها . واختلف العلماء في هذه الأسماء فقال الربيع بن أنس أسماء الملائكة كلهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أسماء ذريته وقال ابن عباس وأكثر الناس علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة ، ثم أمر الله الملائكة بالسجود له كما قال الله تعالى — فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين — وأكثر العلماء على أن الأمر بالسجود لآدم إنما توجه على الملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون سائر الملائكة وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لاسجود صلاة وعبادة ، فلما أمرهم بالسجود سجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

الباب الرابع في صفة خلق حواء عليها السلام

قال المفسرون : لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشي فيها وحشيا لم يكن له من يجالسه ويؤانسه فألقى الله تعالى عليه النوم فنام فأخذ الله ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر يقال له القصيرى فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك ولا وجد له ألما ، ولو ألم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه فلما هب آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه ماهذه يا آدم قال امرأة قالوا وما اسمها قال حواء قالوا صدقت ولم سميت حواء بذلك قال لأنها خلقت من شيء حي قالوا ولماذا خلقها الله تعالى ؟ قال لتسكن الي وأسكن اليها ، وذلك قوله تعالى — هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها — قال النبي ﷺ « خلقت المرأة من ضلع أعوج فان تقمها تكسرها وان تتركها تستمتع بها على عوجها » وقيل الحكمة في أن الرجال يزيدون على مرور الأيام والأعوام حسنا وجمالا لأنهم خلقوا من التراب والطين يزداد كل يوم حدة وجمالا ، والنساء يزددن على مرور الأيام قبحا لأنهن خلقن من اللحم ، واللحم يزداد على مرور الأيام فسادا . وفي بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما رأى حواء مد يده اليها فقالت الملائكة مه يا آدم فقال ولم وقد خلقها الله تعالى لي فقالت الملائكة حتى تؤدي مهرها . قال وما مهرها ؟ قالوا أن تصلي على محمد ﷺ ثلاث مرات قال ومن محمد ؟ قالوا آخر الأنبياء من ولدك ولولا محمد ماخلقت .

وروى سعيد بن جبير عن سعيد عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله أن يخلق جارية بعث اليها ملكين أصفرين مكللين بالدر والياقوت فيضع أحدهما يده على رأسها ويضع الآخر يده على رجلها ويقولان باسم ربنا وربك الله ضعيفة خلقت من ضعيفة المنفق عليها معان إلى يوم القيامة » .

الباب الخامس فى ذكر امتحان الله تعالى آدم عليه السلام وما كان منه فى ذلك

قال أهل التاريخ : لما أسكن الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام الجنة أباح لهما نعيم الجنة كلها إلا شجرة واحدة وذلك قوله تعالى — وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة — إلى قوله — فتكونا من الظالمين — واختلفوا فى هذه الشجرة التى هى شجرة المحنة ماهى ؟ فقال على رضى الله عنه هى شجرة الكافور ، وقال قتادة هى شجرة العلم وفيها من كل شىء علامة ، وقال محمد بن كعب ومقاتل هى السنبلة ، وقيل هى الحنطة ، وقيل هى الكرمة فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما الشجرة فأكلا مانهاهما ربهما عن أكله من ثمرة تلك الشجرة وحسن لهما معصية الله تعالى فى ذلك حتى أكلا منها ، وكان وصول عدو الله إبليس اليهما وتزيينه ذلك لهما على ماذكره أصحاب الأخبار أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة من ذلك فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب التى خلقها الله تعالى لها أربعة قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة وكانت لإبليس صديقة فسألها أن تدخله الجنة فى فيها فأدخلته فى فمها ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة وكان قد دخل مع آدم الجنة ولما دخل الجنة ورأى مافيها من النعيم والكرامة فقال طيب لو كان خلدا فاغتنم ذلك الشيطان منه فأتاه من قبل الخلد ، وقيل إن إبليس لما سمع بدخول آدم الجنة حسده وقال ياويلاه أنا أعبد الله منذ كذا وكذا ألف سنة ولم يدخلنى الجنة وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة فاحتال فى اخراج آدم عليه السلام من الجنة فوقف على باب الجنة وتعبد ثلثمائة سنة هنالك حتى اشتهر بالعبادة وعرفوه بها وهو فى كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم فمكث على باب الجنة ثلثمائة سنة لا يأذن الله تعالى فى خروج خلق منها فبينما هو كذلك إذ خرج اليه الطاوس وكان سيد طيور الجنة فلما رآه إبليس قال له أيها الخلق الكريم من أنت وما اسمك فما رأيت من خلق الله أحسن منك ؟ قال أنا طائر من طيور الجنة اسمى طاوس فبكى إبليس فقال له الطاوس من أنت ومم بكاؤك ؟ فقال له إبليس أنا ملك من الملائكة الكروبيين وانما بكيت تأسفا على مايفوتك من حسنك وكمال خلقتك ، فقال له الطاوس أيفوتنى ما أنا فيه قال بلى ، وانك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبيدون إلا من تناول من شجرة الخلد فانهم المخلدون من تلك الخلائق . فقال الطاوس وأين تلك الشجرة قال إبليس هى فى الجنة قال الطاوس ومن يدلنا بمكانها ؟ قال إبليس أنا أدلك عليها ان أدخلتنى الجنة . قال الطاوس كيف لى بادخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك لمكان رضوان فانه لا يدخل الجنة أحد ولا يخرج منها أحد إلا باذنه ، ولكنى سأدلك على خلق من خلق الله تعالى يدخلكها فانه ان قدر على ذلك أحد فهو هو دون غيره فانه خادم خليفة الله تعالى آدم قال ومن هو؟ قال الحية . قال له إبليس فبادر إليها فان لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك ، فجاء الطاوس الى الحية وأخبرها بمكان إبليس وماسمع منه وقال إنى رأيت بباب الجنة ملكا من الكروبيين من صفته كيت وكيت فهل لك أن تدخليه الجنة ليدلنا على شجرة الخلد فأسرعت الحية نحوه فلما جاءته قال لها إبليس نحوا من مقالته للطاوس فقالت كيف لى بإدخالك الجنة ورضوان اذا رآك لم يمكنك من دخولها فقال لها أتحول ريحا فتجعلينى بين أنيابك ،

قالت نعم ، فتحول إبليس لعنه الله ريحا ودخل فى فم الحية فأدخلته الجنة فلما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التى نهى الله تعالى عنها آدم ، وجاء حتى وقف بين يدى آدم وحواء عليهما السلام وهما لايعلمان أنه إبليس فناح عليهما نياحة أحزنتهما فبكيا ، وكان أول من ناح فقالا له مايبكيك ؟ فقال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة فوقع ذلك فى أنفسهما واغتما لذلك وبكى إبليس ومضى. ثم إن إبليس أتاهما بعد ذلك وقد أثر قوله فيهما . فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى . قال نعم قال كل من هذه الشجرة شجرة الحنطة فقال نهانى ربى عنها . فقال إبليس مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فأبى أن يقبل منه فأقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين فاغترا بذلك وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء الى أكل الشجرة ثم زينت لآدم حتى أكلها .

روى محمد بن اسحق عن يزيد بن عبدالله بن قسيط قال سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول سمعت أبى يقول سمعت جدى يقول : سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله ولايستثنى أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر حتى اذا سكر قادته اليها فأكل ، ولذلك قال رسول ﷺ « الخمر مجمع الخبائث وأم الذنوب » ويقال لما قال الله تعالى لآدم وحواء لاتقربا هذه الشجرة قالا نعم لانقربها ولا نأكل منها ولم يستثنيا فى قولهما بمشيئة الله تعالى فوكلهما الله تعالى الى أنفسهما حتى أكلا المنهى عنها : وقال سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول سمعت ابراهيم بن الأشعث يقول سمعت ابراهيم بن أدهم يقول لقد أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا . وقال الشبلى : أول الذن دردى هذا أبونا آدم باع ربه بكف من حنطة فلما أكل من الشجرة المنهى عنها ابتلاه الله بعشرة أشياء . الأولى معاتبته إياها على ذلك بقوله ـ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ـ . والثانية الفضيحة فانه لما أصابا الذنب بدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنة فتحير آدم وصار هاربا فى الجنة فتلقته شجرة العناب فأخذت بناصيته وناداه ربه أفرارا منى يا آدم . قال بلى يارب ولكن حياء منك ، ولذلك قيل كفى بالمقصر حياء يوم القيامة .

ويروى أن آدم لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة يغطى بها عورته فزجرته أشجار الجنه حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة فطفقا يعنى آدم وحواء يخصفان عليهما من ورق الجنة فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه فى الحلاوة والمنفعة وأعطاه الله ثمرتين فى كل عام . والثالثة أوهن جلده وصيره مظلما بعد أن كان جلده كله كالظفر وأبقى عليه من ذلك قدرا يسيرا على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله . والرابعة أخرجه من جواره ونودى انه لاينبغى أن يجاورنى من عصانى فذلك قوله تعالى ـ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ـ الآية يعنى آدم وحواء وإبليس والحية والطاوس فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند ، وقيل على جبل من أرض الهند يقال له نود

وقيل واسم وحواء بجدة بلد من أرض الحجاز وإبليس بالأبلة من أرض العراق وهى بالبصرة وقيل مشان والحية بأصبهان والطاوس بأرض بابل .

ويقال إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة أنه كان فى صلبه من لا يستحق الولاية ولا يصلح لحظيرة القدس فاذا أخرجهم من صلبه أعاده الله اليها خالدا فيها ، ويقال إن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها وذلك قوله تعالى ــ إنى جاعل فى الأرض خليفة ــ ولم يقل فى الجنة أخبرنى نافل بن أزفر بن أحمد باسناده عن عثمان بن علية قال سمعت الوضين بن عطاء يذكر أن آدم قال كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى الأرض فلا ينبغى لنا الفرح فى الدنيا ، ولكن الحزن والبكاء مادمنا فى دار السباء حتى نرد إلى الدار التى سبينا منها وقال الشاعر :

ياناظرا يرنو بعينى راقـد	ومشاهد الأيام غـير مشاهـد
منتك نفسك وصلة فأبحتها	سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب الى الذنوب وترتجى	درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدم	منها إلى الدنيا بذنب واحـد

والخامسة الفرقة فرق بينه وبين حواء مائة سنة هذا بالهند وهذه بجدة فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فازدلفا فسميت المزدلفة واجتمعا بجمع فسمى جمعا وتعارفا بعرفة فى يوم عرفة فسمى الموضع عرفات واليوم عرفة . السادسة العداوة ألقى بينهم العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى ــ بعضكم لبعض عدو ــ فالانسان عدو الحية يشدخ رأسها حيث يراها والطاوس عدوه والحية عدوته تلدغه إذا أمكنها وإبليس عـدولهم جميعا ، وفيه إشارة الى أن الأحباب اذا اجتمعوا وتعاونوا على معصية أعقبت معصيتهم عداوة كما قال الله تعالى ــ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ــ . والسابعة : النداء عليهم باسم العصيان فقال الله تعالى ــ وعصى آدم ربه فغوى ــ .

وروى أن ابراهيم عليه السلام تفكر ذات ليلة من الليالى فى أمر آدم فقال يارب خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك بلا عمل ثم بزلة واحـدة ناديت عليه بالمعصية وأخرجته من جوارك من الجنة ، فأوحى الله تعالى اليه يا ابراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب أمر شديد . والثامنة تسليط العدو على أولاده وهو قوله تعالى ــ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم ــ الآية . والتاسعة جعل الدنيا سجنا له ولأولاده وابتلاه بهواء الدنيا ومقاساة البرد والحر فيها ولم يكن له بهما عهد لتعود هواء الجنة وهو كما قال الله تعالى ــ لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ــ قال رسول الله ﷺ « الجنة سجسج لا حر فيها ولا قر » . العاشر التعب والشقاء وذلك قوله تعالى ــ إن هـــذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ــ فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والنصب .

﴿ فصل ﴾ وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال وبخمس عشرة خصلة سواهن . الأولى الحيض ،

يروى أنها لما تناولت الشجرة دميت الشجرة قال الله تعالى إن لك علىّ أن أدميك أنت وبناتك فى كل شهر مرة كما أدميت هذه الشجرة قال رسول الله ﷺ فى الحيض : إن هذا شىء كتبه الله تعالى على بنات آدم . الثانية ثقل الحمل ، الثالثة الطلق وألم الوضع قال الله تعالى ـ حملته أمه كرها ووضعته كرها ـ وفى الخبر: لولا الزلة التى أصابت حواء كان النساء لم يحضن ولكن حليمات وكن يحملن سرا ويضعن سرا. الرابعة نقصان دينها . الخامسة نقصان عقلها ، عن أبى سعيد فى حديث ذكره قال : رسول الله ﷺ « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من احدا كن فقلن له ومانقصان عقلنا وديننا يارسول الله ؟ قال أليس شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل فذلك نقصان عقلها أوليس اذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم قلن بلى قال فذلك نقصان دينها » . السادسة أن ميراثها على النصف من ميراث الرجل قال الله تعالى ـ للذكر مثل حظ الأنثيين . السابعة تخصيصهم بالعدة ، الثامنة جعلهن تحت أيدى الرجال كما قال تعالى ـ الرجال قوامون على النساء ـ وقال عليه الصلاة والسلام : استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوار عندكم . التاسعة ليس لهن من الطلاق شىء ولايملكن ذلك وإنما هو للرجال . العاشرة حرمن الجهاد . الحادية عشرة ليس منهن نبى . الثانية عشرة ليس منهن سلطان ولا حاكم . الثالثة عشرة لاتسافر احداهن إلا مع ذى رحم محرم . الرابعة عشرة لاتنعقد بهن الجمعة . الخامسة عشرة : لايسلم عليهن .

وعاقب إبليس لعنه الله تعالى بعشرة أشياء . أولها عزله من الولاية وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا وكان خازن الجنة . الثانية أخرجه من جواره وأهبطه الى الأرض . الثالثة مسخ الله صورته فصيره شيطانا بعد ما كان ملكا . الرابعة غير اسمه وكان اسمه عزازيل فسماه إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى . الخامسة جعله إمام الأشقياء . السادسة لعنه الله . السابعة نزع منه المعرفة . الثامنة أغلق عنه باب التوبة . التاسعة جعله مريدا : أى خاليا من الخير والرحمة . العاشرة جعله خطيب أهل النار .

وعاقب الحية بخمسة أشياء : قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب وجعل غذاءها التراب وجعلها تموت كل سنة بالشتاء وجعلها عدوة بنى آدم وهم أعداؤها حيثما يرونها يقتلونها وأباح رسول الله ﷺ قتلها فى الصلاة وفى حال الاحرام ، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ماسالمناهنّ منذ حاربناهنّ من ترك شيئا منهن خيفة منه فليس منى يعنى الحيات ، أخبرنا ابن(١) قال حدثنا عبد الله بن يونس قال أخبرنا داود عن محمد عن أبى الأعين المبعدى عن أبى الأحوص الحسنى قال . بينما ابن مسعود يخطب ذات يوم فاذا هو بحية تمشى على الجدار فقطع خطبته ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركا قد حل دمه .

---

(١) بياض بالأصل

الباب السادس فى حال آدم بعد هبوطه الى الأرض وما كان منه

قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أهبط آدم الى الأرض على جبل سرنديب وذكر أن ذروته أقرب من ذرى جبال الأرض الى السماء وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه فى السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم وكان آدم يأنس بذلك فهابته الملائكة واشتكت الى ربها فحطت قامته الى ستين ذراعا وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب فصلع وأخذ أولاده الصلع فلما نقص من قامته ذلك قال رب كنت جارك فى دارك ليس لى رب سواك ولا رقيب دونك آكل فيها رغدا وأسكن حيث أحببت فأهبطتنى إلى هذا الجبل وكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ثم أهبطتنى الى الأرض وحططتنى الى ستين ذراعا فقد انقطع عنى الصوت والنظر وذهبت عنى رائحة الجنة فأجابه الله تعالى — بمعصيتك يا آدم — فقال آدم ذلك بك يارب . وقال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة واستقر جالسا على الأرض عطس عطسة فسال أنفه دما فلما رأى سيلان الدم من أنفه ولم يكن رأى قبل ذلك دما هاله مارأى ولم تشرب الأرض الدم فاسودّ على وجهها كالحمم ففزع آدم من ذلك فزعا شديدا فذكر الجنة وما كان من الراحة فخر مغشيا عليه وبكى أربعين عاما فبعث الله اليه ملكا فمسح ظهره وبطنه وجعل يده على فؤاده فذهب عنه الحزن والغشى فاستراح مما كان يصيبه من الغم . قال شهر بن حوشب بلغنى أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط الى الأرض مكث ثلثمائة سنة لايرفع رأسه حياء من الله تعالى . وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : بكى آدم وحوّاء على مافاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ولم يقرب آدم حوّاء مائة سنة فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته كما قال تعالى — فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه — الآية . واختلفوا فى تلك الكلمات ماهى ؟ فقال ابن عباس هى أن آدم عليه السلام قال يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى قال ألم تنفخ فىّ من روحك قال بلى قال ألم تسبق لى رحمتك قبل غضبك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال فلم أخرجتنى منها ؟ قال لشؤم معصيتك قال أى رب أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ترجعنى الى الجنة فهى الكلمات : وقال عبد الله بن عمر : إن آدم قال يارب أرأيت ماأتيته شىء ابتدعته من تلقاء نفسى أو شىء قدرته على قبل أن تخلقنى بيدك قال لا بل شىء قدرته عليك قبل أن أخلقك قال يارب فكما قدرته علىّ فاغفر لى وقال محمد بن كعب القرظى هى قول لاإله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فتب علىّ انك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى انك أنت الغفور الرحيم لاإله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت خير الراحمين . وقال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة هى قوله تعالى — ربنا ظلمنا أنفسنا — الآية ثم أنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة ووضعها موضع البيت على قدر الكعبة لها بابان باب شرقى وباب غربى وفيها قناديل من نور ثم أوحى الله تعالى الى آدم

إن لى حرما بحيال عرشى فأته فطف به كما يطاف حول عرشى وصلّ عنده كما يصلى عند عرشى فهنالك أستجيب دعاءك فانطلق آدم من أرض الهند الى أرض مكة لزيارة البيت وقيض الله له ملكا يرشده فكان كل موضع يضع عليه قدمه عمرانا وماتعداه مفاوز وقفارا فلما وقف بعرفات وكانت حوّاء طلبته وقصدته من جدة فالتقيا بعرفات يوم عرفة فسمى ذلك الموضع عرفات فلما انصرفا الى منى قيل لآدم تمنّ فقال أتمنى المغفرة والرحمة فسمى ذلك الموضع منى وغفر ذنبهما وقبل توبتهما ثم انصرفا الى أرض الهند . قال مجاهد حدثنى ابن عباس أن آدم حج من أرض الهند أربعين حجة على رجليه فقيل لمجاهد ياأبا الحجاج ألا كان يركب قال وأى شىء كان يحمله فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عمر : لما حج آدم عليه السلام البيت وقضى المناسك كلها تلقته الملائكة يهنئونه بالحج وقبول التوبة فقالوا برّحجك يا آدم فداخله من ذلك شىء فلما رأت الملائكة منه ذلك قالوا يا آدم إنا قد حججنا هذاالبيت قبلك بألفى عام فتقاصرت الى آدم نفسه . وقال أبو العالية : خرج آدم من الجنة ومعه عصا من شجرة الجنة وعلى رأسه تاج من شجر الجنة فلما صار الى الأرض يبس ذلك الاكليل وتحات الورق فنبت منه أنواع الطيب فلذلك كان أصل كل طيب بالهند . وقال ابن عباس رضى الله عنهما نزل آدم من الجنة ومعه طيب فزرع آدم شجر الهند فى أوديتها وكان أصله من الجنة فامتلأ ماهنالك طيبا فمن ثم يؤتى بالطيب من الهند وأصله من ريح آدم عليه السلام وريحه من ريح الجنة وأنزل الله معه الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى وقيل كانت من البان .

وروى سفيان عن منصور بن معمر عن ربعى بن خراش عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لما أهبط آدم من الجنة الى أرض الهند وعليه ذلك الورق الذى كان لباسه من الجنة فيبس وتطاير بأرض الهند فعبق بشجر العود والصندل والمسك والعنبر والكافور من ذلك الورق فقالوا يارسول الله المسك هو من الدواب أم من الشجر قال أجل إنما هى دابة تشبه الغزال رعت من ذلك الشجر فصير الله المسك فى سرتها فاذا رعت الربيع جعله الله مسكا وتساقط فينتفع به الآدميون قالوا يارسول الله فأين يقع قال: قال لى جبريل فى ثلاث كور لا يكون فى شىء من الأرض إلا فيها أرض الهند وأرض السعدى وأرض التبت قالوا يارسول الله العنبر إنما هى دابة فى البحر قال أجل كانت هذه الدابة بأرض الهند ترعى فى البر فبعث الله اليها جبريل عليه السلام فساقها ومامعها فقذفها فى البحر وهى أعظم ماتكون من الدواب غلظها ألف ذراع وإنما ترمى به كما ترمى البقرة أخثاءها فربما يخرج من جوفها العنبرة وزنها ألف رطل وخمسمائة رطل ونحو ذلك ثم إن آدم وجد ضربانا فى رأسه وجسده فشكا ذلك الى الله تعالى فنزل عليه جبريل بشجرة الزيتون فأمره أن يأخذ ثمرها ويعصره فقال إن فى هذه الشجرة شفاء من كل داء إلا السام ودله جبريل عليه السلام على شجرة الاهليلج الأبيض والأسود والأصفر فقال له إن ربك يقرئك السلام ويقول لك كل من هذه فانك لن تتداوى

أنت وذريتك بدواء أفضل منهـا فيها شفاء من كل داء ان بقى فى جوفك لم تخف منه وإن خرج أخرج الداء كله وأبرأه فأكله آدم فبرىء .

قال أهل الاخبار إن آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض وأصاب جسده أذى الهواء وأحس به اشتكى وحشة بجسده وكان قد اعتاد هواء الجنة فشكا ذلك الى جبريل ، فقال انك تشكو العرى فأنزل الله عليه ثمانية أزواج المذكورة فى سورة الأنعام من الضأن اثنين ومن المعزاثنين ومن الإبل اثنين ومن البقراثنين ثم أمره ان يذبح كبشا منها فذبحـه ثم أخذ صوفه فغزلته حوّاء ونسجه آدم فجعـل منه جبة لنفسهوجعل لحواء درعا وخمارا فلبساه وبكيا على مافاتهما من لباس الجنة فحواء أول من غزلت وآدم أولمن نسج ولبس الصوف. عنابن جـريج عنعطاء عن ابن عباس قال : جاء رجل الى النبي ﷺ فقال يا رسول اللهماتقول فىحرفتى ؟ فقال رسول الله ﷺ وماحرفتك فقال أنا رجل حائكقال حرفتك حرفة أبينا آدم عليهالسلام وكان أولمن نسج آدم ، وكانجبريل يعلمه وآدم تلميذه ثلاثةأيام وان الله عزّ وجل يحب حرفتكفانها حرفة يحتاج اليها الأحياءوالأموات فمن قال منكم القبيـح فأبونا آدم خصمه ومن أنف منكم فقد أنف من آدم ومن لعنكم فقدلعنآدم ومن آذاكم فقد آذى آدم وهو خصمهم يوم القيامة فلا تخافوا وأبشروا فان حرفتكم حرفة مباركة ويكون آدم قائدكم الى الجنة . وعن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ عليـكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل عليـكم بلباس الصوف تعرفون به فىالآخرة وان النظرفى الصوفليورث القلب التفكر والتفكر يورث الحـكمةوالحـكمةتجرى فى الجوف مجرى الدم فمن كثر تفكره قلطمعه وكل من قل تفكره كثر طمعه وعظم بدنهوقساقلبه والقلبالقاسى بعيدمن اللهبعيدمنالجنةقريبمن النار قالوا ثم ان آدم عليه الصلاة والسلام بعد ستر عورته اشتـكى فقال له جبريل ما الذى أصابك فقال أجد فى نفسى قلقا واضطربا لا أجد الى العبادة منه سبيلا وانى أجد بين لحمى وجلدى دبيبا كدبيب النمل فقال له جبريل ذلك يسمى الجوع . قال وكيف الخلاصمن ذلك قال سوف أهديك الى ذلك فغاب عنه ثم جاءه بثورين أحمرين والعلاة يعنى السندان والمطرقةوالمنفخة والـكلبتين ثم جاءهبشرر من جهنم فوقع فى يد آدم فطارمنه شرارةفوقعت فىالبحر فدخلجبريل اليهاوأتىبها فدفعها الى آدم فطارتمنه أيضا حتىفعلذلك سبعمرات فذلكقولالنبى ﷺ : إن ناركمهذه جزءمن سبعين جزءا من نار جهنم بعد أنغسلت بالمـاءسبعمرات فلما جاءبهافى الثامنة نطقت النارفقالتياآدمانى لاأطيعك وانىمنتقمة من عصاةأولادك يومالقيامة فقالجبريلياآدمانها لنتطيعك ولـكنىأسجنها لكولأولادك ليكون لك ولأولادكفيها المنافع فسجنهافى الحجروالحديد فذلكقوله تعالى ــ أفرأيتم النارالتى تورون أأنتم ــ الآية ، ويروى أن آدم لما أخذ النار احترقت يده فخلى عنها فقال لجبريلمالها تحرق يدىقال لأنك عصيت الله وانى لم أعصهثم أمرهجبريل باتخاذآ لةالحرث فهوأول من عمل الحديد ثمأتاهبصرة من حنطة فيها ثلاث حباتمن الحنطة فقال يا آدم لك حبتان ولحواء حبةفلذلك صار للذكر مثلحظ

الأنثيين وكان وزن الحبة مائة ألف درهم وثمانين ألف درهم فقال آدم ما أصنع بذلك كله فقال يا آدم خذها فانها سبب سدجوعتك وبها أخرجت من الجنة وبها تحيا فى الدنيا وبها تلقى الفتنة أنت وأولادك الى أن تقوم الساعة ثم أمره أن يشد الثورين ويكسر من الخشب ويضعه عليهما ففعل ذلك وجعل يحرث الأرض عليهما فهو أول من حرث الأرض وبكى الثوران على مافاتهما من راحات الجنه فقطرت دموعهما على الأرض فنبت منها الجاورس وبالا فنبت منه الحمص وراثا فنبت منه العدس ثم كسر جبريل تلك الحبوب حتى كثرها ثم بذرها فنبتت من ساعته فقال آدم عليه الصلاة والسلام آكله فقال لا أصبر حتى يدرك فلما سنبل وأفرك قال آكله قال لا وعلمه الحصاد فلما حصد قال آكله قال لا وعلمه الدياس فلما داس قال آكله قال لا وعلمه التنقية فلما نقاه قال آكله قال لا وجاءه بحجرين وعلمه الطحن فلما طحنه قال آكله قال لا وعلمه العجن ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما نخل دقيقه فأمره جبريل أن يبث النخالة فى الأرض المستحصدة فنبت فيها الشعير فلما عجن قال آكله قال لا فأمره أن يحفر حفيرة ويضع الحطب فيها ويوقد عليها نارا ففعل ذلك ثم وضع عجينه عليه فخبز حتى جعله خبزملة فهو أول من خبز فلما أخرجه قال آكله قال لا حتى يبرد فلما برد أكله فلما أكله دمعت عينا آدم عليه السلام وقال ماهذا التعب والنصب قال له هذا وعدالله الذى وعدك فذلك قوله تعالى — إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى — أما آن لك أن تأكل من كد يمينك وعرق جبينك أنت وذريتك فلما استوفى آدم من الطعام شكا من بطنه ولم يدر ماهو فشكا ذلك الى جبريل عليه السلام فقال ذلك العطش قال فبم أسكنه فغاب عنه ثم عاد اليه ومعه المعول وقال له احفر الأرض فما زال يحفر حتى بلغ الى ركبتيه فنبع المـاء من تحت رجليه ماء زلالا أبرد من الثلج وأحلى من العسل وقال يا آدم اشرب منه شربة فشرب بها فاطمأن ثم إنه بعد ذلك وجد تشكيا أشد من الأول والثانى فقال لجبريل ماهذا الذى أجده قال لا أدرى فبعث الله اليه ملكا ففتق قبله ودبره ولم يكن قبل ذلك للطعام مخرج فلما خرج منه ما آذاه ووجد ريحه بكى على ذلك سبعين سنة. قالوا لما أنزل الله الى آدم الحديد نظر الى قضيب من حديد نابت على الجبل فقال هذا من هذا فجعل يكسر أشجارا قد عتقت ويبست فأوقد على ذلك الحديد حتى ذاب وكان أول شيء ضرب منه مدية فكان يعمل بها ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذى فار بالعذاب بالهند . قالوا لما أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام أخرج معه من الجنة قطعة من ذهب فلذلك يبقى الذهب لايبلى بالثرى ولايصدأ من الندى ولاتنقصه الأرض ولاتأكله النار لأنه من الجنة حمل .

قيل إن الله تعالى زود آدم حين أهبطه إلى الأرض من الثمار ثلاثين نوعا عشرة منها فى القشور وعشرة لها نوى وعشرة لاقشور لها ولانوى ، فأما التى هى فى القشور فالجوز واللوز والفستق والبندق والخشخاش والبلوط والشاه بلوط والنارنج والرمان والموز . وأما التى لها نوى فالخوخ والمشمش والإجاص والعناب والفرسك والرطب والغبيراء والنبق والزعرور والمقل ، وأما التى لاقشر لها ولا نوى فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والأترج والخرنوب والخيار والبطيخ .

وقال ابن جريج : أهبط الله تعالى آدم عليه السلام ومعه آنية فيها بزر عريشة من عنب وريحانة فغرس آدم العريش ، فلما طلعت جاء إبليس فسرق ثمرها فقال له آدم ويلك أخرجتني من الجنة ولا تريد أن تجعل لي رزقا فقال له إن لي فيها حقا قال وماحقك قال نشوها ولكم سائرها .

وقال ابن عباس : هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء الآسة وهي سيدة رياحين الدنيا وبالسنبلة وهي طعام أهل الدنيا وبالعجوة وهي سيدة ثمار الدنيا .

وروى ابن عباس وعائشة وأبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « ان العجوة من غراس الجنة وفيها شفاء وانها ترياق أول البكرة وعليكم بالتمر البرني فكلوه فانه يسبح في شجره ويستغفر لآكله » .

وقال ابن عباس : لما هبط آدم إلى الأرض كان أول شيء أكله من الثمار التين ، وقال كعب : أول من ضرب الدينار والدرهم آدم وقال لا تصلح المعيشة الا بهما . وقال وهب بن منبه ان آدم لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره فقال يارب أما لأرضك هـــذه من عامر يسبحك ويحمدك ويقدسك غيري قال الله تعالى سأجعل فيها من ولدك من يسبحني ويحمدني ويقدسني وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكري ويسبح فيها خلقي ويذكر فيها اسمي وسأجعل من ولدك يا آدم من يعبدني حق عبادتي وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتي وأوثره باسمي فأسميه بيتي وأنطقه بعظمتي وعليه وضعت جلالي وأجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمته ماحوله ومافوقه وماتحته فمن حرمه بحرمته استوجبه بذلك كرامتي ومن أخاف أهله فيه فقد خفر ذمتي وأباح حرمتي واستوجب بذلك عذابي وعقابي ، وسأجعل هذا البيت أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركا يأتونه شعثا غبرا — وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق — يرجون بالتلبية رجيجا ويضجون بالبكاء ضجيجا ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن اعتمره لا يريد غيره فقد وفد إلي وزارني واستضافني فحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلا بحاجته ، يا آدم تعمره مادمت حيا ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن ، ثم ان الله تعالى مسح ظهر آدم بيده وأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة كالذر بنعمان من عرفة قرية بمكة ثم أخذ عليهم الميثاق وكلمهم — وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين — ، وسئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله خلق آدم ومسح ظهره فاستخرج منه ذرية وقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج ذرية وقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال : ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة فيدخل الجنـة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهـل النار حتى يموت على ذلك فهو من أهل النار » .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : أوحى الله الى آدم بعد ماتاب عليه يا آدم إني أجمع لك العلم كله في

أربع كلمات واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس. فأما التى لى فتعبدنى لاتشرك بى شيئا ، وأما التى لك فأجزيك بعملك أحوج ماتكون اليه ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء ومنى الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس فأن ترضى لهم ماترضى لنفسك فقال آدم يارب شغلت بطلب المعيشة والرزق عن التسبيح والعبادة ولست أعرف ساعات التسبيح فى أيام الدنيا ، فأهبط الله تعالى اليه ديكا فأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح فهو أول داجن اتخذه آدم من الخلق ، فكان الديك اذاسمع التسبيح فى السماء سبح فى الأرض فيسبح آدم بتسبيحه .

ويروى أن الله تعالى أوحى الى آدم لما أراد أن يهبطه إلى الأرض : يا آدم انى منزلك أنت وذريتك دارا مبنية على أربع قواعد ، أما الأولى فانى أقطع ماتصلون ، وأما الثانية فانى أفرق ماتجمعون ، وأما الثالثة فانى أخرب ماتبنون ، والرابعة أميت ماتلدون ولذلك قيل :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... وكلكمو يصير إلى ذهاب

الباب السابع فى ذكر هبوط إبليس لعنه الله الى الأرض وحاله فيها بعد اللعنة

قال الله تعالى ــ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ــ الآية .

قال الشعبي : أنزل إبليس من السماء عليه عمامة ليس تحت ذقنه منها شىء أعور فى إحدى رجليه نعل .

وروى ابن المبارك عن خالد عن حميد بن هلال إنما كره أن يتخصر فى الصلاة لأن ابليس هبط متخصرا .

وروى حماد عن ثابت وحميد عن عبدالله بن عبيد بن عمير : أن ابليس قال يارب أخرجتنى من الجنة من أجل آدم وانى لاأستطيعه إلا بسلطانك قال فانك مسلط عليه قال يارب زدنى ، قال لايولد له ولد الا ولدلك مثلاه قال يارب زدنى . قال صدورهم مساكن لك وتجرى منهم مجرى الدم . قال يارب زدنى . قال ــ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلاغرورا ــ قال آدم يارب قدسلطته علىّ وانى لاأمتنع منه إلابك . قال لايولد لك ولد الاوكلت به من يحفظه من قرناء السوء . قال يارب زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها وأزيدها ، والسيئة بمثلها واحدة وأمحوها . قال يارب زدنى قال ــ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ــ الآية . قال يارب زدنى قال التوبة لاأنزعها من ولدك ما كانت الروح فيهم . قال يارب زدنى قال أغفر ولا أبالى قال حسبى .

وروى : أن ابليس قال يارب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطانا رجيما مذموما مدحورا وبعثت فى بنى آدم الرسل وأنزلت عليهم الكتب فمارسلى قال الكهنة قال فما كتبى قال الوشم قال فماحديثى قال حديثك الكذب قال فماقراءتى قال قراءتك الشعر قال فمامؤذنى قال مؤذنك

المزمار قال فما مسجدى قال مسجدك السوق قال فما بيتى قال بيتك الحمام قال فما طعامى قال طعامك مالم يذكر اسمى عليه قال فما شرابى قال شرابك كل مسكر قال فما مصايدى قال مصايدك النساء .

وروى مقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن ابليس لما خرج من الجنة ألقى الله عليه الحرقة والغلمة فنكح نفسه فباض أربع بيضات فمنها ذريته :

وروى اسحق بن بشر عن محمد بن اسحق : بلغنى أن إبليس تزوج الحية التى دخل فى فيها حين كلم آدم عليه السلام بعدما أخرج من الجنة فمنها ذريته .

الباب الثامن فى ذكر ماروى من الأخبار فيمن تراءى له إبليس فرآه عيانا وكلمه شفاها

يروى أن آدم التقى بابليس فى أرض فلاة فلامه على صنيعه وقال له يا ملعون أى شىء هذا الذى أحللت بى غررتنى وأخرجتنى من الجنة وفعلت بى مافعلت . قال فبكى إبليس وقال يا آدم انى فعلت بك ماتقول وأزلتك هذه المنزلة فمن فعل بى ما أنا فيه وأحلنى هذه المنزلة .

ويروى : أن ابليس تصور لفرعون فى صورة الانس بمصر فى الحمام ، فأنكره فرعون فقال له ابليس ويحك أما تعرفنى ؟ فقال لا قال : فكيف وأنت خلقتنى ألست القائل أنا ربكم الأعلى .

ويروى : أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل ابليس فقال أىّ الأعمال أحب اليك وأبغض الى الله تعالى فقال لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك إنى لست أعلم شيئا أحب الى وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة .

ويروى عن النبى ﷺ أنه قال : مامن آدمى إلا وقد عمل خطيئة أو همّ بها إلا يحيى بن زكريا فانه ماعمل خطيئة ولا هم بها ، ولقد قال رب أرنى ابليس كما هو وأعزم عليه أن لا يكتمنى شيئا سألته عنه فأوحى الله تعالى إلى ابليس أن ائت عبدى يحيى بن زكريا كما هبطت الى الأرض ولا تكتمه شيئا يسألك عنه ، فأتاه وقال يا يحيى أنا ابليس أمرنى ربى أن آتيك كما هبطت الى الأرض ، فنظر اليه يحيى فاذا على رأسه خطاطيف تطير وحقواه محفوفتان بأكوار كور ههنا وكور ههنا وفى رجليه خلاخيل فقال ماهذه الخطاطيف التى تطير على رأسك قال بها أخطف عقول بنى آدم ، فقال ماهذه الخلاخيل التى فى رجليك قال أحركها لبنى آدم حتى يغنى أو يغنى له قال فأى ساعة أنت على ابن آدم أقدر قال حين يمتلىء شبعا وريا قال فهل وجدت فى نفسى شيئا قال لا ولا على حال قال نعم قدم اليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشهيته اليك حتى أكلت أكثر من عادتك فتثاقلت عن وردك وعادتك ، فقال يحيى لاجرم لاأشبع أبدا فقال ابليس لاجرم لاأنصح آدميا أبدا .

وقيل لما مات رسول الله ﷺ وأخذوا فى جهازه وخرج الناس وخلا الموضع قال ابن عباس قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لما وضعته ﷺ على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت ياعلى لاتغسلوا محمدا فانه طاهر مطهر قال فوقع فى قلبى من ذلك شىء وقلت ويلك من أنت فان النبى ﷺ

أمرنا بهذا وهذه سنته واذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته غسله يا علىّ فان الهاتف الأول كان الشيطان حسد محمدا ﷺ أن يدخل قبره مغسلا قال علىّ جزاك الله خيرا قد أخبرتنى أن ذلك إبليس فمن أنت؟ قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد ﷺ .

ويحكى : أن قوما من بنى اسرائيل تراءى لهم إبليس فقالوا له قف موقفا كنت تقفه بين يدى الله تعالى حسبما كنت تقف قبل أن عصيت ربك فقال إنكم لا تطيقون رؤية ذلك فألحوا عليه فوقف وقفة فلما نظروا اليه والى خشوعه وخضوعه ماتوا عن آخرهم.

ويروى : أن رجلا كان يلعن ابليس كل يوم ألف مرة فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه وقال قم فان الجدار هاهو يسقط فقال له من أنت الذى أشفقت علىّ هذه الشفقة فقال له أنا إبليس فقال كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة فقال هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ماينالون .

الباب التاسع فى قصة قابيل وهابيل

قال الله تعالى ــ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا ــ إلى آخر القصة . قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين إن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلاما وجارية إلا شيثا فانها ولدته منفردا وكان جميع من ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى فى عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته اقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث ، ثم كثر الله فى نسل آدم كما قال ــ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ــ الآية .

قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده وولد ولده أربعين ألفا ، ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد . واختلف العلماء فى وقت مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشى آدم حواء بعد مهبطهما الى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته إقليما فى بطن ، ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد .

وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض فحملت له بقابيل وتوأمته فلم تجد عليهما وحما ولا نصبا ولا طلقا حين ولدتهما ولم تر معهما دما لطهارة لبنه ، فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته لبودا فوجدت فيهما الوحم والنصب والطلق والدم حتى اذا شب أولاده زوج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر، وكان الرجل منهم يتزوج أىّ أخواته شاء إلا توأمته التى ولدت معه فانها لا تحل له وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ الا أخواتهم وأمهم حواء . فلما ولد قابيل وتوأمته إقليما فى بطن واحد وهابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى وأدركوا أمر الله تعالى آدم أن ينكح لبودا أخت هابيل قابيل وينكح هابيل اقليما أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل

من أجمل النساء وأحسنهن خلقا ، فذكر آدم ذلك لولده هابيل فرضى وسخط قابيل وقال هى أختى ولدت معى فى بطن وهى أحسن من أخت هابيل فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض فأنا أحق بأختى ، فقال له أبوه إنها لاتحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منه وقال إن الله تعالى لم يأمره بذلك وانما هو من رأيه ، فقال لهما آدم : قربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها .

وقال معاوية بن عمار : سألت جعفرا الصادق أكان آدم زوج ابنته من ابنه ؟ فقال معاذ الله لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله ﷺ ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد ﷺ ، إن الله تعالى أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما وولد له بنت فسماها عناق فبغت وهى أول من بغى فى الأرض ، فسلط الله عليها من قتلها فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل ، فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة فى صورة إنسية وخلق لها رحما وأوحى الله إلى آدام أن زوجها من قابيل فزوجها منه ، فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حوراء فى صورة إنسية وخلق الله لها رحما وكان اسمها تركة ، فلما نظر اليها هابيل ورمقها أوحى الله إلى آدم أن زوجها من هابيل ففعل ، فقال قابيل ياأبت ألست أكبر من أخى وأحق بما فعلت به منه ، فقال يابنى إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، فقال لا ولكنك آثرته على بهواك ، فقال له إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه ، قالوا وكانت القرابين حينئذ إذا قبلت نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا لم تقبل لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع فخرجا ليقربا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من الطعام من أردإ زرعه وأضمر فى نفسه ماأبالى أيقبل منى أم لا لايتزوج أختى أبدا ، وكان هابيل راعيا صاحب ماشية فقرب كبشا سمينا من خيار ماشيته ولبنا وزبدا وأضمر فى نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره ، وقال اسمعيل بن رافع ان هابيل نتج له كبش فى غنمه فلما كبر لم يكن له مال أحب اليه منه وكان يحمله على ظهره فلما أمر بالقربان قربه . قال فوضعا قربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش والزبد واللبن ولم تأكل من قربان قابيل حبة لأنه لم يكن زاكى القلب، وقبل قربان هابيل لأنه كان زاكى القلب فما زال الكبش يرتع فى الجنة حتى فدى به ابن ابراهيم فذلك قوله تعالى ــ فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، إلى قوله : من المتقين ــ فنزلوا عن الجبل وتفرقوا وقد غضب قابيل لما رد الله قربانه ،وظهر فيه الحسد والبغى وكان يضمرهما قبل ذلك فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت . فلما أراد أن يأتى مكة قال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، فقال ذلك للأرض والجبال فأبيا ، فقال ذلك لقابيل فقال نعم ترجع وتراه كما يسرك ، فرجع آدم وقد قتل قابيل هابيل فذلك قوله تعالى ــ إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ــ يعنى قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم خانه قالوا ، فلما غاب آدم أتى قابيل إلى هابيل وهو فى غنمه ، فقال لأقتلنك قال ولم ؟ قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قربانى وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس

أنك خير منى وأفضل ويفتخر ولدك على ولدى ، فقال له هابيل وماذنبى — انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الىّ يدك لتقتلنى ماأنا بباسط يدى اليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين — .

قال عبدالله بن عمر إن المقتول كان أشدّ ولكنه منعه التحرّج أن يبسط إلى أخيه يده . قال الله تعالى — فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله — الآية أى طاوعته وساعدته فقتله. قال السدى لما قصد قابيل قتل هابيل زاغ هابيل فى رءوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات . وقال ابن جريج لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه ، فتمثل له إبليس وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة . واختلفوا فى مصرعه وموضع قتله فقال ابن عباس على جبل نود وقال بعضهم على عقبة حراء ، وحكى محمد بن جرير الطبرى قال جعفر الصادق بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم ، فلما قتله تركه ولم يدر مايصنع به لأنه كان أول ميت على وجه لأرض من بنى آدم ، فقصدته السباع فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى تروح وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أين يرمى به فتأكله ، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكن له فى الأرض ثم ألقاه فى الحفرة وواراه وقابيل ينظر اليه ، فلما رأى ذلك — قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين — يعنى على حمله لاعلى قتله . وروى عن الأوزاعى قال حدثنى المطلب ابن عبدالله المخزومى لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء ، فناداه الله أين أخوك هابيل ؟ قال ماأدرى ما كنت عليه رقيبا ؟ فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك ، قال فأين دمه إن كنت قتلته ؟ فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا .

وعن الضحاك عن ابن عباس قال : لما قتل قابيل هابيل وآدم بمكة اشتاك الشجر ، وتغيرت الأطعمة ، وحمضت الفواكه ومر الماء واغبرت الأرض ، فقال آدم قد حدث فى الأرض حدث ، فأتى الهند فاذا قابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول وهو أوّل شعر قيل .

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كلّ ذى طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

وروى عن ابن عباس أنه قال : من قال إن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمأثم ، وإن محمدا ﷺ والأنبياء كلهم فى النهى عن مشعر سواء قال الله تعالى — وما علمناه الشعر وما ينبغى له — ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سريانى وإنما يقول الشعر من تكلم بالعربية ، فلما قال آدم مرثيته فى ابنه هابيل وهو أوّل شهيد على وجه الأرض قال آدم لشيث يابنى إنك وصى فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس ، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قطحان بن هود عليه السلام ، وكان يتكلم بالسريانية والعربية وهو أول من ركب الخيل وتكلم بالعربية وقال

الشعر فنظر فى المرثية فاذا هو سجع فقال إن هذا ليقوم شعرا ، فردّ المقـدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعرا فما زاد فيه ولا نقص حرفا من ذلك فقال :

تغيرت البـلاد ومن عليها فوجـه الأرض مغبرّ قبيح
تغـير كلّ ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيح
وقابيل أذاق المـوت هابـيـل فواحزنا لقد فقد المليح
ومالى لاأجود بسكب دمع وهابيل تضـمنه الضريح
وجاءت شـعلة ولهـا رنين لهابلهـا وقابلهـا يصـيح
لقتل ابن النبى بغـيرجـرم فقلبى عنـد فتلته جـريح
وجاورنا لعـين ليس يفنى عـدوّ لايمـوت فنستريح

وقالت حوّاء :

دع الشكوى فقد هلـكا جميعا بموت ليس بالثمن الربيـح
وما يغنى البـكاء عن البواكى إذا ما المرء غيب فى الضريح
فابك النفس وانزل عن هواها فلست مخلـدا بعد الذبيح

فأجابهما إبليس لعنه الله شامتا بهما :

تنح عن البلاد وساكنيها ففى الجنات ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك فى رخاء وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما زالت مكايدتى ومكرى إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمـة الجبار أضحى بكفك من جنان الخلد ريح

وقال سالم بن الجعد : لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ، ثم أتى فقيل له حياك الله وأضحكك ولا أبكاك . قال ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد ماقتل قابيل هابيل بخمس سنين ولد له شيث وتفسيره هبة الله يعنى أنه خلف الله من هابيل وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعبادة الخلق فى كل ساعة منها ، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة وكان وصىّ آدم وولىّ عهده ، وأما قابيل فقيل له اذهب فذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من رآه فأخذ بيد أخته إقليما وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتى اليه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أيضا أنت نارا تـكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من نصب النار وعبدها ، قال وكان لا يمر بواحد من ولده إلا رماه ، وكان لقابيل ولد أعمى ومعه ابن له ، فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قابيل فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله قال: فقال ابن الأعمى إنه أبوك فرفع يده فلطمه فمات ، فقال الأعمى ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى . قال مجاهد فعلقت إحدى يدى قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهت إلى الشمس حيثما دارت وعليه فى الصيف

حظيرة نار وفى الشتاء حظيرة ثلج . قالوا واتخذأولاد قابيل آلات اللهو من أنواع الطبول والمزامير والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام وبقى نسل شيث عليه السلام والله اعلم .

الباب العاشر فى ذكر وفاة آدم عليه السلام

ذكر أهل التاريخ وأصحاب الأخبار أن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوما وأوصى إلى ابنه شيث وكتب وصيته ودفعها إلى شيث وأمره أن يخفى ذلك من ولد قابيل لأن قابيل كان قد قتل هابيل حسدا منه له حين خصه آدم بتزويج أخته إقليما ، فخاف عليه أيضا أن يقتله حين خصه آدم بالعلم ، فأخفى شيث وولده ماعندهم من الوصية فلم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « لما أخرج الله ذرية آدم من ظهره فجعل يعرضهم على آدم ، فاذا قوم عليهم النور فقال يارب من هؤلاء الذين عليهم النور؟ قال هؤلاء الأنبياء والرسل واذا فيهم رجل يزهو وهو أضوأهم نورا ، فقال يارب من هذا ؟ فقال ذلك داود ، فقال يارب كم عمره ؟ قال ستون سنة ، قال يارب زده فى عمره ، قال لا إلا أن تزيده أنت من عمرك فقد جف القلم بأعمار بنى آدم وكان عمر آدم ألف سنة فوهب له من عمره أربعين سنة فكتب الله عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة ، فلما مضى من عمره تسعمائة وستون سنة جاء اليه ملك الموت ليقبضه ، فقال آدم عجلت على يا ملك الموت قال مافعلت بل أنت استوفيت أجلك ، قال آدم قد بقى من عمرى أربعون سنه ، قال إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال مافعلت ولا وهبت له شيئا ، فأنزل الله الكتاب وأقام الملائكة شهودا ، ثم إن الله أكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة . قال رسول الله ﷺ نسى آدم فنسيت ذريته وجحد فجحدت ذريته فأمر الله بالكتاب والشهود من يومئذ » .

قال ابن اسحق وغيره : ثم إن آدم مات واجتمعت عليه الملائكة لأنه صفى الرحمن فدفنته الملائكة وشيث واخوته فى مشارق الفردوس عند قرية هى أول قرية كانت فى الأرض وكسفت عليه الشمس والقمر سته أيام بلياليهن فلما اجتمعت عليه الملائكة بعث الله اليه بحنوط وكفن من الجنة ووليت الملائكة غسله ودفنه فغسلته بالسدر والماء وترا ، وكفنوه فى ثلاثة ثياب ثم لحدوا له ودفنوه ثم قالوا هذه سنة ولد آدم من بعده . قال ابن عباس فلما مات آدم قال شيث لجبريل صل على آدم ، فقال له جبريل تقدم أنت فصل على أبيك فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهى الصلاة ، وأما خمس وعشرون فهى تفضيل لآدم . وقد اختلف فى موضع قبره ، فقال ابن اسحق فى مشارق الفردوس وقال غيره دفن بمكة وقيل فى غار أبى قبيس وهو غار يقال له الغار الكبير .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : مات آدم على جبل نود بالهند وقال ابن عباس لما كان أيام الطوفان حمل نوح تابوت آدم فى السفينة ، فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس ، وكانت وفاة آدم يوم الجمعة وعاشت حواء بعده سنة ، ثم ماتت فدفنت مع آدم عليهما السلام والله أعلم .

باب فى الخصائص التى خصّ الله بها آدم عليه السلام

قال الأستاذ : خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وجعله خاتمة خلقه ، فى أحسن صورة وأقسم عليه فقال عز من قائل — والتين والزيتون وطور سينين وهـذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم — ولقنه الحمد حين عطس ، ثم قال له يرحمك ربك ، فسبقت له رحمته غضبه وأسكنه بعد خلقه الجنة بلا عمل ، وأباح له جميع الجنة إلا شجرة واحـدة ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمر ملائكته بالسجود له وأمرهم بالتلقين ، وجعله أبا البشر وجعله خليفته فى الأرض ، وعرف الملائكة فضـله عليهم ، ولعن إبليس من أجله مع كثرة عبادته ، وعاتب الملائكة بسببه وهو أول حامـد وأول تائب وأول مجتبى وأول مصطفى وأول خليفة لله فى الأرض ، وهو المميز للأرواح الخبيثة من الطيبة وهوالباعث يوم القيامة بعث النار من ذريته فهذه ثلاث وعشرون خصلة من خصائصه ﷺ وشرّف وكرّم والله أعلم .

مجلس فى ذكر النبي إدريس عليه السلام

قال الله تعالى — واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا — قال أهل العلم بأخبار الماضين وقصص النبيين : هو إدريس بن برد وقيل باريد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم واسمه أخنوخ وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث وأمه أشوت وكان إدريس أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب بعثه الله الى ولد قابيل ثم رفعه الى السماء وكان سبب رفعه الى السماء على ما قاله ابن عباس وأكثر الناس أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس فقال يارب إنى مشيت فى الشمس يوما فتأذيت فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد . اللهم خفف عنه ثقلها واحمل عنه حرها ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب خفف عنى حر الشمس فما الحال الذى قضيت علىّ فيه ، فقال تعالى إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبته الى ذلك : فقال يارب اجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلة فأذن الله له فكان ادريس يسأله وكان مما سأله أن قال أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده فاشفع لى اليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرا وعبادة فقال الملك — لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها — قال قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى فقال أنا مكلمه لك وما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك ثم حمله الملك على جناحه حتى رفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم انه أتى إلى ملك الموت فقال له لى اليك حاجة فقال له أفعل لك كل شيء أستطيعه فقال لى صديق من بنى آدم تشفع بى اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك الىّ ولكن ان أحببت أعلمته أجله ومتى يموت فيتقدم فى نفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فأخبره باسمه وقال إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال إنى لأجده

يموت عند مطلع الشمس ، قال فانى أتيتك وتركته هناك فقال له فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات والله مابقى من أجل إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتا . قال وهب كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل مايرفع لأهل الأرض جميعهم فى زمانه فتعجبت منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن الله فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة بنى آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه الى طعامه فأبى أن يأكل وفعل ذلك ثلاث ليال فأنكره وقال له فى الليلة الثالثة انى أريد أن أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أزورك وأصاحبك فأذن لى فى ذلك فقال له إدريس لى اليك حاجة قال وماهى ؟ قال اقبض روحى فأوحى الله تعالى اليه أن اقبض روحه فقبض روحه ثم ردها الله عليه بعد ساعة فقال له ملك الموت فما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون له أشد استعدادا ثم قال له لى اليك حاجة أخرى قال وماهى قال ترفعنى الى السماء لأنظر اليها والى الجنة فأذن له فى ذلك فلما قرب من النار قال لى اليك حاجة قال وماتريد قال تسأل مالكا يفتح لى أبواب النار حتى أردها ففعل ذلك ثم قال فكما أريتنى النار فأرنى الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتحها ففتحت له أبوابها فدخلها فقال له ملك الموت اخرج لتعود الى مقرك فتعلق بشجرة وقال لا أخرج منها فبعث الله ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لاتخرج قال لأن الله تعالى قال — كل نفس ذائقة الموت — وقد ذقته وقال تعالى — وإن منكم إلا واردها — وقد وردتها وقال تعالى — وماهم منها بمخرجين فلست أخرج فقال الله تعالى لملك الموت دعه فانه باذنى دخل الجنة وبأمرى لايخرج فهو حى هناك فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة وتارة يتنعم فى الجنة ، والله أعلم .

قصة هاروت وماروت

قال الله تعالى — واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان — الآية . قال أهل التفسير : ان الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف فى مدة زوال ملك سليمان هذا ماعلم آصف بن برخيا سليمان الملك ثم دفنوها تحت مصلاه ولم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوها من تحت مصلاه وقالوا للناس ماملككم سليمان إلا بهذه . قال السدى وذلك أن شيطانا تمثل على صورة إنسان فأتى نفرا من بنى اسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لاينفد أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت كرسى سليمان وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحية فقالوا له ادن فقال لا ولكنى ههنا فان لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسى إلا احترق فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان ان سليمان كان يضبط الجن والانس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وذهب فأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان فان كان هذا علمه فقد هلك سليمان وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم فأنزل الله هذه الآية إظهارا لعذر سليمان وبيانا لبراءته فهذه قصة الآية .

وأما قصة هاروت وماروت

فقال المفسرون : إن الملائكة لما رأوا ما يصعد الى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس النبى عليه السلام عيروهم بذلك وأنكروا عليهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى لو أنزلتكم الى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك قال الله تعالى اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما الى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم قال الكلبى قال الله تعالى اختاروا ثلاثة منكم فاختاروا عزا وهو هاروت وعزابيا وهو ماروت وعزرياثيل وانما غير اسمهما لما اقترفا الذنب كما غير الله اسم ابليس وكان اسمه عزازيل فركب الله تعالى فيهم الشهوة التى ركبها فى بنى آدم وأهبطهم الى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر . فأما عزرياثيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربه وسأله أن يرفعه الى السماء فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياء من الله تعالى ، وأما الآخران فانهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما فاذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعدا الى السماء . قال قتادة فما مرّ عليهما شهر حتى افتتنا وذلك أنه اختصم اليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء . قال علىّ رضى الله عنه كانت من أهل فارس وكانت ملكة فى بلدها فلما رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك فقالت لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا: لا سبيل الى هذه الأشياء فان الله قد نهانا عنها فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى نفسها من الميل اليهما ما فيها فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله أمر عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه . قال الربيع ابن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكبا ، وقال علىّ رضى الله عنه والسدى والكلبى إنها قالت لا تدركانى حتى تعلمانى الذى تصعدان به الى السماء فقالا نصعد باسم الله الأعظم فقالت فما أنتما بمدركىّ حتى تعلمانيه قال أحدهما لصاحبه علمها فقال إنى أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله تعالى فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت الى السماء فمسخها الله تعالى كوكبا . قال الأستاذ فعلى قول هؤلاء هى الزهرة بعينها وقال آخرون هى هذا الكوكب الأحمر واسمها بالفارسية ناهيد وبالقبطية بادخت ، يدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن إسمعيل باسناده عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه قال كان النبى ﷺ إذا رأى سهيلا قال لعن الله سهيلا إنه كان عشارا باليمن ولعن الله الزهرة فانها فتنت ملكين هاروت وماروت .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لى ارمق الكوكب يعنى الزهرة فاذا طلعت فأيقظنى

فلما طلعت أيقظته فلما نظر اليها سبها سباشديدا فقلت يرحمك الله تسب نجما سامعامطيعا فقال ان هذه كانت بغيا فلقى الملكان منها مالقيا وكذلك قال ابن عباس ، وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التى جعلها الله تعالى قواما للعباد وأقسم بها فقال تعالى — فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس — وانما كانت التى فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زهرة لجمالها فلما زنت مسخها الله شهابا فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعنها وكذلك سهيل العشار كان رجلا فلما رأى رسول الله ﷺ هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه ، يدل عليه ماروى قيس بن عباد عن ابن عباس فى هذه القصة قال كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب فلما أمسى هاروت وماروت بعد ماقارفا الذنب هما بالصعود الى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ماحل بهما فقصدا الى ادريس عليه السلام فأخبره بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما الى الله تعالى وقالا له إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل مايصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا الى الله تعالى قال ففعل ادريس ذلك فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع فهما ببابل يعذبان .

واختلف العلماء فى كيفية عذابهما : فقال ابن مسعود هما معلقان بشعورهما الى قيام الساعة . وقال مقاتل كبلا من أقدامهما الى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد ملئ جب نارا فجعلا فيه وقال عمرو بن سعيد هما معلقان منكسان فى السلاسل يضربان بسياط الحديد .

وروى أن رجلا قصدهما لتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة وجوههما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال لا إله الا الله فلما سمعا كلامه قالا لا إله الا الله من أنت قال رجل من الناس قالا وله ومن أى أمة أنت قال من أمة محمد ﷺ قال أوبعث محمد ﷺ قال نعم فحمدا الله تعالى وأظهرا الاستبشار فقال الرجل ومما استبشاركما قالا انه نبى الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا.

وروى هشام عن عائشة أنها قالت قدمت امرأة من دومة الجندل جاءت تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السحر وماتعمل به فقالت عائشة لعروة يا ابن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ فكانت تبكى حتى رحمتها ثم قالت إنى لأخاف أن أكون قد هلكت ثم قالت كان لى زوج غاب عنى فدخلت على عجوز فشكوت لها ذلك فقالت ان فعلت ما آمرك به جعلته يأتيك فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت هى الآخر فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل واذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا ماجاء بك فقلت أتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى من حيث أتيت فقلت لا قالا فاذهبى الى ذلك التنور فبولى فيه فذهبت لأبول ففزعت فلم أفعل فرجعت فقالا فعلت قلت نعم فقال هل رأيت شيئا فقلت لم أر شيئا فقالا لم تفعلى شيئا فارجعى الى بلادك ولا تكفرى فأبيت فقالا اذهبى الى ذلك التنور فبولى فيه فذهبت فاقشعر جلدى وخفت

ثم رجعت اليهما فقلت قد فعلت فقالا مارأيت قلت لم أرشيئا قالا كذبت لم تفعلى فارجعى الى بلادك ولاتكفرى فانك على رأس أمرك فقلت لا فقالا لى اذهبى الى ذلك التنور فبولى فيه فذهبت اليه فبلت فيه فرأيت فارسا مقنعا بحديد خرج منى حتى ذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه فجئتهما ؟ فقلت قد فعلت قالا فما رأيت قلت رأيت فارسا مقنعا بالحديد خرج منى وذهب فى السماء فلم أره قالا صدقت ذلك إيمانك خرج منك فاذهبى . فقلت للمرأة والله ما أعلم شيئا ولا قالا لى شيئا فقالا لاتريدين شيئا الا كان، خذى هذا القمح فابذريه فبذرته ثم قلت له اطلع فطلع فقلت له أحصد فحصد فقلت له انفرك ، ففرك ثم قلت انطحن فطحن ثم قلت انخبز فخبز فلما رأيته أنى لا أريدشيئا إلا كان سقط فى يدى فرجعت وندمت والله يا أم المؤمنين مافعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا .

قال الأوزاعى بلغنى أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ياجبريل صف لى النار فقال ان الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لايطفأ جمرها ولا يخمد لهبها والذى بعثك بالحق لوأن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ولوأن ذنوبا من شرابها صب فى ماء الأرض جميعا لقتل من ذاقه ولو أن حلقة من السلسلة التى ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعا لذابت وما استقلت ولوأن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبى ﷺ وبكى جبريل لبكائه وقال أتبكى يامحمد وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا وبكى جبريل فقال ياجبريل أتبكى وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهذا الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء ياجبريل ويامحمد ان الله تعالى قد أمنكما من غضبه فلا يعذبكما وان فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة .

مجلس فى قصة نوح عليه السلام

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ـ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ـ الآية وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام وأمه قينوش بنت راكيل وقيل بنت كايل بن محوئيل بن أخنوخ أرسله الله تعالى إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث .

قال ابن عباس : وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان فى رجال الجبل صباحة وفى نسائهم دمامة وكان فى نساء السهل صباحة وفى الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام فآجر نفسه منه وكان يخدمه واتخذ ابليس شيئا مثل الذى يزمر به الرعاة فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم مستمعين اليه واتخذوه عيدا يجتمعون اليه فى السنة فتتبرج النساء للرجال والرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم

وهم في عيدهم فرأى النساء وصباحتهن فجاء إلى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحوّلوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهم وهو قوله تعالى ـ ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ـ .

قال ابن عباس : كان آدم أوصى أن لاينا كح بنو شيث بنى قابيل فجعل بنوشيث آدم فى مغارة وجعلوا عليه حفاظا لئلا يقربه أحد من أولاد قابيل وكان الذى يأتونه ويستغفرلهم بنو شيث . فقال مائة من بنى شيث صباح لو نظرنا مافعل بنو عمنا يعنون بنى قابيل فهبطت المائة الى نساء السهل صباح الوجوه من بنى قابيل فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ماشاءالله . فقال مائة أخرى : لو نظرنا مافعل اخوتنا فهبطوا من الجبل اليهم فاحتبستهم النساء ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثر بنو قابيل حتى ملئوا الأرض وأكثروا الفساد فبعث الله اليهم نبيهم نوحا وهو ابن خمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته كما أخبر الله تعالى بقوله ـ ربّ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ـ وقال تعالى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ـ وقال تعالى ـ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ـ .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن نوحا كان يضرب ثم يلف فى لبد ثم يلقى فى بيته فيرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا . فقال يابنىّ انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك فقال ياأبت مكنى من العصا فأعطاه العصا فقال ضعنى فى الأرض فوضعه فمشى اليه فضربه بالعصا فقال نوح ربّ قد ترى مايصنع بى عبادك فان يكن لك فى عبادك حاجة فاهدهم وان يكن غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم بينى وبينهم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله اليه ـ انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ـ فآيسه من ايمان قومه وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن فعند ذلك دعا عليهم وقال رب انهم عصونى. الآيه إلى قوله : ولاتذرنّ ودّا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ـ وهى أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله وقوله تعالى ـ رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ـ وقوله تعالى ـ ولاتزد الظالمين إلا تبارا ـ أى هلاكا ودمارا فأجاب الله دعاءه وأمره أن يصنع الفلك كما قال تعالى ـ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ـ الآية قال نوح يارب وما الفلك ؟ قال بيت من خشب يجرى على وجه الماء حتى أغرق أهل المعصية وأريح أرضى منهم قال نوح يارب أين الماء قال يانوح انى على ماأشاء قدير قال نوح يارب وأين الخشب قال أغرس الشجر فغرس الساج وأتى على ذلك أربعون سنة وكف فى تلك المدة عن الدعاء فلم يدعهم فأعقم الله تعالى أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد فلما أدرك الشجر أمره ربه أن يقطع الشجر فقطعه وجففه ثم قال يارب كيف أتخذ هذا البيت قال اجعله أزور على ثلاث صور رأسه كرأس الديك وجوفه كجوف الطير وذنبه كذنب الديك مائلا واجعلها مطبقة واجعل أبوابها فى جنبيها واجعلها ثلاث طبقات واجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وطولها

فى السماء ثلاثين ذراعا والذراع إلى المنكب هذا قول أهل الكتاب ثم بعث الله جبريل يعلم نوحا صنعة الفلك وكان نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القار وغيره وكان قومه يمرون عليه وهو فى عمله فيسخرون منه ويقولون يانوح قد صرت نجارا بعد النبوّة ثم يقولون ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتا يسير به على الماء ويضحكون منه وذلك قوله تعالى — ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه — فيقول نوح : ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم — وأوحى الله تعالى الى نوح أن عجل صنعة الفلك فقد اشتدّ غضبي على من عصانى فاستأجر نوح أجراء يعملون معه وأولاده سام وحام ويافث ينحتون معه السفينة فجعل السفينة طولها ستمائة ذراع وستون ذراعا وعرضها ثلثمائة وثلاثون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثة وثلاثون ذراعا هذا قول ابن عباس فى رواية الضحاك وطلاها بالقار داخلها وخارجها وشدّها بالدسر وهى مسامير الحديد وذلك قوله تعالى — وحملناه على ذات ألواح ودسر — وفجر الله له عين القار بجنب السفينة تغلى غليانا حتى طلاها به فلما فرغ من صنع السفينة أوحى الله اليه أن احمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لاينقطع نسلهم وحشرها الله اليه من البرّ والبحر والسهل والجبل وقد جعل الله فوران التنور آية بينة وبين نوح وعهد الله اليه فقال اذا رأيت التنور فار فاركب أنت ومن معك على الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى — حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور : أى عذابنا وهو الطوفان قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين — الآية .

واختلف العلماء فى قوله تعالى — وفار التنور — قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يعنى طلع الفجر ونوّر الصبح وقال ابن عباس انبجس الماء من وجه الأرض والعرب تسمى وجه الأرض تنورا وقال قتادة التنور أشرف موضع فى الأرض وأعلى مكان فيها وقال الحسن أراد بالتنور الذى يخبز فيه وكان تنورا من حجارة ، وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح فقيل له اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك فنبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته ، واختلفوا فى موضعه فقال مجاهد كان ذلك فى ناحية الكوفة .

وروى السدى عن الشعبي أنه كان يحلف بالله مافار التنور إلا فى ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران الماء علما لنوح ودليلا على هلاك قومه . وقال مقاتل ذلك تنور آدم وانما كان بالشام فى موضع يقال عين ورد . وقال ابن عباس كان التنور بالهند والفوران هو الغليان فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمره الله تعالى .

قال ابن عباس : أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة فأقبلت الوحوش والطير والدواب إلى نوح حين أصابها المطر وسخرت له فحمل منها من كل زوجين اثنين فكان أول ماحمل نوح فى الفلك

من الدواب الدرة وآخر ماحمل الحمار فلما دخل الحمار بصدره تعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قالو ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زل بهالسانه فلماقالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح ماأدخلك ياعدو الله فقال ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك قال أخرج ياعدو الله قال ماأخرج وما كان بذلك أن تحملني معك وكان فيما يزعمون على ظهر الفلك

قال مالك بن سليمان المروى : إن الحية والعقرب أتيا نوحا فقالا احملنا فقال انكما سبب الضر والبلايا فلا أحملكما قالا احملنا ونحن نضمن لك أن لانضر أحدا ذكرك فمن قرأحين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين لم يضراه .

عن وهب بن منبه : قال لما أمر الله تعالى نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين قال كيف أصنع بالأسد والبقر وكيف أصنع بالعناق والذئب وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال الله تعالى له من ألقى بينهم العداوة ؟ قال أنت يارب قال فأنا أؤلف بينهم حتى لايتضاروا فحمل نوح السباع والدواب فى الطبقة الأولى فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر ولذلك قيل :

وما الكلب محموما وان طال عمره   لعمرك ما المحموم دوما سوى الأسد

وجعل الوحوش فى الطبقة الثانية ، وركب هو ومن معه من أولاد آدم فى الطبقة العليا ، وجعل الدرة معه فى الطبقة العليا شفقة عليها لئلا يقتلها شىء .

واختلفوا فى أهل السفينة الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى ــ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ــ . قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن ترسو السفينة قال باسم الله فرست واذا أراد أن تجرى قال باسم الله فجرت على الماء فذلك قوله تعالى ــ بسم الله مجريها ومرساها ــ الآية ــ ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ــ من هم وكم هم ؟ قال قتادة لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه سام وحام ويافث ونساؤهم فجميعهم ثمانية فأصاب حام امرأته فى السفينة فدعا نوح ربه قال فتغيرت نطفته فجاء بالسودان .

قال الكلبى : أمر نوح أن لايقرب ذكر أنثى مادام فى السفينة فوثب الكلب على الكلبة فدعا عليه نوح . فقال نوح اللهم اجعله عسرا ، وقال الأعمش كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين وثلاثة كنائن له . وقال اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة إناث ممن كانوا آمنوا معه وأزواجهم جميعا . وقال مقاتل : كانوا سبعين ونوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم فكان الجميع ثمانية وسبعين نفسا نصفهم نساء ونصفهم رجال . وقال ابن عباس كانوا ثمانين انسانا وحمل نوح جسد آدم معه وجعله معرضا حاجزا بين الرجال والنساء .

قالوا فلما ركب نوح فى الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك فى شهر آب بالرومية فلما دخل

وحمل معه من حمل تحركت ينابيع الارض والغوط الأكبر وأمطرت السماء كأفواه القرب كما قال تعالى ــ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ــ يعني التقى ماء السماء وماء الأرض فجعل الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض حتى كثر واشتد وكان بين ارسال الماء وبين احتمال الماء الفلك أربعين يوما وليلة ثم احتمل الماء الفلك وكان كنعان بن نوح تخلف عن أبيه . قال قتادة لم يركب في السفينة فناداه نوح ــ وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ــ وكان عهد كنعان الجبال أنها تحصن من المطر فظن ذلك كما كان فقال نوح ــ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ــ وكثر الماء فارتفع فوق الجبال . قال ابن عباس ارتفع على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعا .

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : لو رحم الله أحدا من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبي وذلك أنها خشيت عليه من الماء وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت قلته فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبي فلما بلغ رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله أحدا منهم لرحم هذه . قالوا ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعا وقد رفع الله البيت الذى كان يحجه آدم صيانة له من الغرق وهو البيت المعمور وخبأ جبريل الحجر الأسود في جبل أبي قبيس . فلما طافت السفينة بالحرم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودى وهو جبل حصين من أرض الموصل فاستقرت عليه . قال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها ماء فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعا وتواضع لأمر ربه الجودى فلم يغرق فأرست السفينة عليه فذلك قوله تعالى ــ واستوت على الجودى ــ .

وقال ابن عباس استوت السفينة على الجودى وقد باد ما على وجه الأرض من الكفار ومن كل شيء فيه الروح والأشجار فلم يبق شيء من الحيوانات إلا نوح ومن معه في الفلك وإلا عوج بن عنق فذلك قوله تعالى ــ وقيل بعدا للقوم الظالمين ــ أى هلاكا . قال ابن عباس : كان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه اليها ثم يأكله فقال لنوح احملني معك فقال اخرج ياعدو الله فانى لم أؤمر بحملك ، وطبق الله الماء على وجه الأرض والجبال وما بلغ ركبتى عوج بن عنق ، فلما استوت السفينة على الجودى قيل يا أرض ابلعى ماءك أى انشفى ويا سماء أقلعى أى احبسى ماءك وغيض الماء أى ذهب ونقص فصار ما نزل من السماء هذه البحور التى في الأرض لأنها آخر ما بقى في الأرض من ماء الطوفان وبقى في الأرض أربعين سنة ثم ذهب .

وروى عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى

كثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب ، فقال أتدرون ماهذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب سام بن نوح ، قال ثم ضرب الكثيب بعصاه وقال له قم بإذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى أهكذا هلكت قال لا بل مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت ، فقال له حدثنا عن سفينة نوح قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الانس وطبقة فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله الى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأكلاه ، فلما كثرت الفأر فى السفينة وجعل يقرض حبالها وذلك أنه توالد فى السفينة أوحى الله تعالى الى نوح أن اضرب بين عينى الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأرة فأكلاه ، فقال له عيسى كيف علم نوح أن البلاد قد يبست . قال بعث نوح غرابا يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها واشتغل عن الرجوع فدعا عليه نوح بالخوف فلذلك لا يألف البيوت ، ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد جفت قال فطوقها بالخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت ، فقالوا يارسول الله ألا ننطلق به الى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ ثم قال له عد بإذن الله تعالى فعاد ترابا .

قال أهل التاريخ : أرسل الله الطوفان لثلاثة عشر يوما خلت من آب ومضى ستمائة سنة من عمر نوح ولتتمة ألفى سنة ومائة سنة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم الى الأرض وركب نوح ومن معه فى السفينة لعشر خلون من رجب وخرجوا منها فى العاشر من المحرم فلذلك سمى يوم عاشوراء وأقاموا فى الفلك ستة أشهر ، فلما هبط نوح ومن معه من الفلك سالمين صام نوح وأمر جميع من معه من الانس والوحوش والدواب والطير فصاموا شكرا لله تعالى ، ويقال ان نوحا وقومه كانت قد أظلمت عليهم أعينهم فى السفينة من دوام النظر الى الماء ، فأمروا بالاكتحال يوم عاشوراء الذى خرجوا فيه من السفينة .

عن ابن عباس : قال قال رسول الله ﷺ « من اكتحل بالإثمد يوم عاشوراء لم ترمد عينه أبدا » ، فلما خرج نوح ومن معه من السفينة اتخذ فى ناحية من أرض الجزيرة موضعا وابتنى هناك قرية سموها سوق ثمانين لأنه كان ابتنى فيها لمن آمن معه وهم ثمانون فهى اليوم تسمى سوق ثمانين ، فأوحى الله تعالى الى نوح أنه لا يعود الطوفان الى الأرض أبدا وعاش نوح بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة فكان جميع عمره ألف سنة إلا خمسين عاما ثم قبضه الله تعالى اليه هذا هو أكثر أقاويل العلماء وكذلك هو فى التوراة . وقال عون بن أبى شداد عاش نوح بعد الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما وقبله ثلثمائة وخمسين سنة فعلى هذا القول يكون مبلغ عمر نوح ألفا وثلثمائة سنة .

ويروى أنه قيل لنوح لما احتضر كيف وجدت الدنيا ؟ قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ، ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه ساما وجعله ولىّ عهده وكان ولد له سام قبل الطوفان بثمان وسبعين سنة ، وقيل لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساما وهو بكره فقال يابنى أوصيك باثنتين وأنهاك عن

اثنتين . فأما اللذان أنهاك عنهما فالاشراك بالله والكبر فانه لايدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر . وأما اللذان أوصيك بهما فانى رأيتهما يكثران الولوج الى الله تعالى قول لاإله إلاالله وسبحان الله ، فان قول لاإله إلاالله لوجمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغ الى ربها ولوجعلت لاإله إلاالله فى كفة ميزان لرجحت بالسموات السبع والأرضين السبع ومافيها ، وأوصيك بسبحان الله فانها صلاة الخلق وبها يرزقون .

ذكر خصائص نوح عليه السلام

وهى خمس عشرة خصلة : لم يسم أحد من الأنبياء باسمه وسمى بذلك لكثرة نوحه على نفسه وكان أول نبى من أنبياء الشريعة وأول داع من الله تعالى وأول نذير عن الشرك وأول من عذبته أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه ، ويقال ان الله تعالى أوحى اليه بعد الطوفان : إنى خلقت خلقى وأمرتهم بطاعتى فانتهكو معصيتى فاشتد لذلك غضبى فعذبت بذنوب العاصين من لم يعصنى وعذبت بذنوب بنى آدم جميع خلقى فى حلفت أنى لاأعذب مثل هذا العذاب أحدا من خلقى بعدها ولكن أجعل الدنيا دولا بين عبادى ثم أجزيهم بأعمالهم إذا اجتمعوا عندى ، وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين وجعل معجزته فى نفسه لأنه عمر ألف سنة ولم ينقص له سن ولم ينقص له قوة ولم يبالغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل مابالغ وكان يدعو قومه ليلا ونهارا واعلانا واسرارا ولم يلق نبى من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء مالقى فلذلك قال الله تعالى ــ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ــ وجعل ثانى المصطفى ﷺ فى الميثاق والوحى قال الله تعالى ــ واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ــ ، وقال تعالى ــ إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ــ وفى البعث هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد ﷺ وأعطاه الفلك وعلمه صنعته وحفظه بمافيه وأجراه فوق الماء وسماه شكورا ، فقال تعالى ــ ذرية من حملنامع نوح إنه كان عبدا شكورا ــ وأكرمه بالسلامة والبركة فقال تعالى ــ يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ــ الآية .

قال محمد بن كعب القرظى : دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وجعل ذريته هم الباقين فهو أول البشر وأصل النسل .

وروى عن الحسن عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « ولد لنوح ثلاثة سام وحام ويافث : فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج » .

قال عطاء : ودعا نوح على حام أن لايعدو شعر ولده آذانهم وحيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث ، فلما هبط نوح وذريته من الفلك قسم الأرض بين ولده أثلاثا فجعل لسام وسط الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون ، وذلك مابين قيسون الى شرقى النيل ومابين مجرى الجنوب الى مجرى الشمال وجعل لحام قسمه غربى النيل ومابين مجرى ريح الجنوب وما

وراءه الى سيحون الى مجرى ريح الدبور ، وجعل قسم يافث من فيسون فما وراءه الى مجرى الصبا فذلك قوله تعالى ـ وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ـ .

مجلس فى قصة هود عليه السلام

قال الله تعالى ـ وإلى عاد أخاهم هودا ، إلى تتقون ـ وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهو عاد الأولى وكانوا ينزلون اليمن وكانت منازلهم منها بالشحر والأحقاف كما قال الله تعالى ـ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر ـ الآية ، وهو رمال يقال له لمارمل عالج وهو ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وكثروا وقهروا أهلها لفضل قوتهم التى آتاهم الله تعالى وكان قد أعطاهم الله من القوة والقامة مالم يعط غيرهم كما قال الله تعالى ـ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ـ أى عظما وطولا وقوة وشدة .

قال أبو حمزة اليمانى : كان طول كل رجل منهم سبعين ذراعا . وقال ابن عباس ثمانين ذراعا . وقال الكلبى كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا .

وقال وهب : كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى فمنها صنم يقال له صدى وصنم يقال له هرد وصنم يقال له هبا ، فبعث الله اليهم هودا نبيا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا وهو هود بن عبد الله ابن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقال محمد بن اسحق بن يسار : وهود بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة ، فأمرهم هود أن يوحدوا الله تعالى ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فأبوا ذلك عليه وكذبوه وقالوا من أشدمنا قوة وبنو المصانع وبطشوا فيها بطش الجبارين كما قال الله تعالى ـ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين ـ ، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى أضربهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد طلبوا من الله تعالى الفرج وكان طلبهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكلهم معظم لمكة عارف بحرمتها ومكانتها عند الله تعالى وأهل مكة يومئذ العماليق ، وانما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن سام بن نوح وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية اسمها ناهدة بنت الجبيرى رجل من عاد ، فلما قحط المطر عن عاد جهدوا وقالوا جهزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم فبعثوا منهم قيل بن عنز ولقيم بن هزال بن هزيل وعبيل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما كتم اسلامه وجلهمة بن الخبيرى خال معاوية بن بكر ، ثم بعثوا أيضا لقمان بن عاد بن ضد

ابن عاد الأكبر فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارج الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمور وتغنيهم الجردتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى والله ما أدرى كيف أصنع بهم فأستحيي أن آمرهم بالخروج الى ما بعثوا اليه فيظنون أنه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا ، فشكا ذلك من أمرهم الى قينتيه الجرادتين فقالتا له قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك يحركهم ، فقال معاوية بن بكر :

ألا ياقيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمنحنا غماما
فتسقى أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لايبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجوا ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمو بخير ... فقد أمست نساؤهمو عيامى
وان الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض ياقوم انما بعثكم قومكم يستغيثون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم ، فقال مرثد بن سعد وكان قد آمن بهود عليه السلام سرا انكم والله لا تستقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وأنبتم الى ربكم سقيتم ، فأظهر اسلامه عند ذلك . قال جلهمة بن الخيبرى خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنه قد تبع دين هود عليه السلام :

أبا سعد فانك من قبيل ... ذوى كرم وأمك من ثمود
فانا لا نطيعك ما بقينا ... ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد ... ورمل وآل ضد والعبود
ونترك دين آباء كرام ... ذوى رأى ونتبع دين هود

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخا كبيرا احبسا عنا مرثد بن سعد حتى لايقدم معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا إلى مكة يستسقون لعاد بها فلما دخلوا مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشىء مما خرجوا اليه ، فلما انتهى قام يدعو الله ووفد عاد قد أخذوا يدعون ، فجعل يقول : اللهمّ أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعو به وفد عاد ، وكان قيل بن عنز رأس وفد عاد قد أمرهم أن يؤمنوا عليه

فقال وفد عاد اللهمّ أعط قيلا ماسألك واجعل سؤالنا مع سؤاله وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد ولم يدخل فى دعوتهم ، فقال اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤلى ، وقال قيل بن عـنز حين دعا واستسقى اللهمّ لم أجئ لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه اللهمّ اسق عادا ما كنت تسقيهم باإلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلـكنا ، فأنشأ الله سحائب ثلاثا واحــدة بيضاء وواحدة حمراء وواحدة سوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب ألا ياقيل اختر لنفسك واحدة من هذه السحب الثلاث ، فقال قيل اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء ،فناداه المنادى يقول اخترت ياقيل رمادا رمددا لم تبق من آل عاد أحدا لا ولدا تتركه ولاوالدا إلا جعلتهم رمما همدا إلا بنو اللويدة المهدا ، وبنو اللويدة رهط من هزال بن هزيل بن بكر وكانوا سكانا بمكة مع أخوالهم لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الآخرة ، فساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا بها — وقالوا هذا عارض ممطرنا — ، فقال الله تعالى — بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كلّ شىء بأمر ربها — أى كلّ شىء مرت به ، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلـكة امرأة من عاد يقال لها مهدد ، فلما تبينت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت ، فلما أفاقت قالوا ما رأيت؟ قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها .

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين أنبأنا محمد بن جعفر أنبأنا الحسن بن علوة أنبأنا اسمعيل بن عيسى أنبأنا اسحق بن بشر أخبرنى المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أوحى الله تعالى إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم ، فخرجت بغير كيل ولاوزن على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض مما يلى المشرق والمغرب . قال فقال الخزان يارب لن يطيقوها ولو خرجت على حالها لأهلـكت مابين مشارق الأرض ومغاربهـــا فأوحى الله اليها أن ارجعى فاخرجى على قدر خرمة الخاتم وهى الحلقة ، قال فسخرها الله عليهم سبع ليالى وثمانية أيام حسوما: أى دائمة متتابعة ، فلم تدع أحدا من عاد إلا أهلـكته ، وكان هود ومن معه قد اعـتزلوا فى حظيرة مايصيبهم من الريح إلا مايلين جلودهم وتلذ به الأنفس ، وانها من عاد لطعن فتحملهم مابين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلـكوا .

قال محمد بن اسحق والسدى : بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا الى الابل والرجال تطـير بهم الريح بين السماء والأرض ، فتبادروا البيوت فلما دخـلوها دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها فهلـكوا ، فلما أهلـكهم الله تعالى أرسل عليهم طيورا سودا التلقيهم فى البحر فألقتهم فيه .

قال ابن بشار : لما خرجت الريح على عاد من الوادى قال تسعة رهط منهم أحـدهم الخلجان وكان رئيسهم وكبيرهم فى ذلك الزمان تعالوا حتى نقوم على رأس الوادى فنردها ، فجعلت الريح تدخل تحت الواحـد منهم فتحمله ثم ترمى به فيندقّ عنقه ، وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة

بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم وتقلعهم فتتركهم كما قال الله تعالى — كأنهم أعجاز نخل خاوية — حتى لم يبق منهم إلا الخلجان فمال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه فاهتز فى يده ثم أنشأ يقول :

لم يبق إلا الخلجان نفسه يالك من يوم دهانى أمسه

ثبت الوطء شديدا بطشه لولم يجئنى جئته وحبسته

فقال له هود : ويحك ياخلجان أسلم تسلم ، فقال له مالى عند ربك إذا أسلمت ؟ قال الجنة ، قال فما هؤلاء الذين أراهم فى السحاب كأنهم البخت ، قال هود ذلك الملائكة ، قال إن أسلمت أيقيدنى ربك منهم لقومى ؟ قال ويحك هل رأيت ملكا يقيد من جنوده ، فقال لوفعل مارضيت ، فجاءت الريح فألحقته بأصحابه وأهلكته ، وأفنى الله عادا سوى من بقى من قومهم بمكة ونواحيها .

أخبرنا الحسين بن محمد الدينورى أخبرنا أحمد بن محمد بن اسحق السنى أخبرنا أبو يعلى الموصلى أخبرنا اسحق بن أبى اسرائيل وعبيد الله بن عمر القواريرى أخبرنا جعفر بن سليمان الضبيعى أخبرنا فرقد السبخى عن عاصم عن عمرو البجلى عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ قال « يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو فيصبحون قردة وخنازير ويصيبهم خسف وقذف فيقولون لقد خسف الليلة ببنى فلان ، وليرسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عادا بشربهم الخمر وأكلهم الربا واتخاذهم القينات ولبسهم الحرير وقطعهم الأرحام » قالوا وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه ، فبينماهم عنده إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلة مقمرة من أمصار عاد ، فأخبرهم بهلاك عاد ، فقالوا له أين فارقت هودا وأصحابه ، قال فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فيما حدثهم به ، فقالت هرملة بنت بكر صدق ورب الكعبة ومنور بن يعفر ابن أخى معاوية بن بكر معهم . قالوا وقد قيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم ، فقال مرثد اللهم أعطنى براوصدقا فأعطى ذلك . وقال قيل أختار أن يصيبنى ما أصاب قومى فقيل له هلاك فقال لا أبالى لا حاجة لى فى البقاء بعد قومى فأصابه الذى أصاب عادا من العذاب فهلك . وقال لقمان يارب أعطنى عمرا فقيل له اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر من أظب عفر لايمسها القطر أو عمر سبعة أنسر إذا مضى نسر حولت الى نسر آخر ، فاستحقر بقاء الأبعار واختار النسور فعمر سبعة أنسر ، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوته فيربيه حتى إذا مات أخذ غيره ، فلم يزل يفعل مثل ذلك حتى أتى إلى السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة ، فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ للقمان ياعم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر ، فقال لقمان : يا ابن أخى هذا لبد ولبد بلسانهم الدهر فلما انقضى عمر لبد طارت النسور غداة من رأس الجبل ولم ينهض لبد فيها ، وكانت نسور لقمان لاتغيب عنه . قال فلما رأى لبدا لم ينهض مع النسور قام الى الجبل لينظر مافعل لبد فوجد لقمان فى نفسه وهنا لم يكن يجده قبل ذلك ، فلما انتهى الى الجبل رأى نسره لبدا واقفا

بين النسور ، فناداه انهض لبد فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات لقمان معه وفيه جرى المثل : أتى أبد على لبد ، وقال النابغة الذبيانى :

أضحت قفارا وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وقال محمد بن اسحق قال مرثد بن سعد حين سمع قول الراكب الذى أخبر بهلاك عاد شعرا :

عصت عاد رسولهم فأمسوا   عطاشا ماتبلهم السماء
وسير وفدهم شهرا ليسقوا   فأردفهم مع العطش العناء
بكفرهم بربهم جهارا   على آثارهم عاد العفاء
ألا نزع الاله حلوم عاد   فان قلوبهم قفر هواء
من الرب المهيمن إذ عصوه   وما تغنى النصيحة والشقاء
فنفسى وابنتاى وأم ولدى   لنفس نبينا هود فداء
أتانا والقلوب معميات   على ظلم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صمود   يقابله صدى والهناء
فأبصره الذين له أنابوا   وأدرك من يكذبه الشقاء
وانى سوف ألحق آل هود   واخوته إذا جن المساء

ثم إنه ألحق بهود ومن آمن معه وبقى هود ماشاء الله ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة ، وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا رضى الله عنه يقول لرجل من أهل حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء وأراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من حضرموت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين إنك لتنعته لى نعت رجل قد رآه قال لا ولكننى قد حدثت عنه ، فقال الحضرمى وما شأنه يا أمير المؤمنين ، فقال فيه قبر النبى هود عليه السلام . أخبرنا أبو عمر وأحمد بن أبى العرابى ، أنبأنا المغيرة بن عمرو بن الوليد بمكة فى المسجد الحرام بين الركن والمقام أنبأنا الفضل بن يحيى الجندى أنبأنا يونس بن محمد أنبأنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان الثورى عن عطاء عن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال : بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل عليهم السلام فى تلك البقعة . وفى رواية أخرى كان النبى من الأنبياء إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتى مكة هو ومن معه يعبدون الله تعالى حتى يموتوا والله أعلم .

مجلس فى قصة صالح عليه السلام

قال الله تعالى — والى ثمود أخاهم صالحا — وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس وأرادهها القبيلة . قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمودا لقلة مائها والثمد الماء القليل وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام وكان من قصتهم على ماذكره محمد بن اسحق بن يسار والسدى

والـكلبي ووهب بن منبه وكعب وغيرهم من أهل الـكتب دخل كلام بعضهم فى بعض أن عادا الأولى لما أهلكهم الله تعالى وانقضى أمرهم عمرت ثمود بعـدهم واستخلفوا فى الأرض فخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبنى المسكن من الحجر والمدر فينهدم وهو حى ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا ، فنحتوا منها وجابوها وجوّفوها وكانوا فى سـعة من معايشهم كما قال الله تعالى ـ واذكروا إذ جعلـكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولهـا قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ـ فخالفوا أمر الله وعبدوا غـيره وأفسـدوا فى الأرض ، فبعث الله اليهم صالحا نبيا وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن حاذر ابن ثمود وكانوا قوما عربا ، وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، فبعثه الله تعالى اليهم رسولا فـدعاهم إلى الله تعالى والى عبادته فـلم يتبعه إلا قليل مستضعفون ، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوه أن يريهم آية تـكون مصـداقا لـما يقول ، فقال اللهم أرهم آية ليعتبروا بها ثم قال لهم أىّ آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيـد يخرجون اليـه بأصنامهم فى يوم معلوم من السـنة فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا ، فقال لهم صالح نعم ، فخرجوا بأوثانهم إلى عيـدهم ذلك وخرج صالح معهم، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعو به ، ثم قال جندع بن عمرو ابن جواس وهو يومئذ سيد ثمود : ياصالح أخرج لنا من هذه الصخرة يعنى الصخرة المنفردة عن الجبال فى ناحية الحجر يقال لهـا الـكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت البخت من الابل فان فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك ، فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إن فعـل ذلك صدقوه وآمنوا به ، ثم إن صالحا عليه السـلام صلى ودعا الله تعالى بذلك ، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، ثم تحرّكت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوه لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عظما وهم ينظرون ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم ، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتابعوه ، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورياب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود ، وكان لجندع بن عمرو ابن عمّ يقال له شهاب ابن خليفة ، فأراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال رجل من ثمود :

وكانت عصبة من آل عمرو   إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمـود كلهـم جميعا   فهمت أن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا   وما عـدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولـكنّ الغواة من آل حجر   تولوا بعـد رشـدهم ذبابا

فلـما خرجت الناقة قال صالح : هذه ناقة لهـا شرب ولـكم شرب يوم معلوم ، فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب المـاء ، فـكانت ترد الماء يوما ولهم يوم ، فاذا

كان يومها وضعت رأسها فى بئر بأرض الحجر يقال لها بئر الناقة فيرتفع الماء اليها فما ترتفع رأسها الاوقد شربت جميع مافيهاولا تدع قطرة ماء فيها فتتفحج ثم تروح عليهم ، فيحلبون من لبنها ماشاءوا فيشربون ويدخرون ويملئون أوانيهم ، لكن تصدر من غير الفج الذى وردت منه ، لأنهالا تقدر أن تصدر من حيث وردت لأنه يضيق عليها . قال أبو موسى الأشعرى أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا فاذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء وقد أخرجه الله تعالى لهم من البئر وادّخروا ماشاءوا قدر كفايتهم فى يوم الناقة وكانوا من ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة فى الصيف إذاكان الحر تطلع ظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم وتهبط الى بطن الوادى فى حره وحدته فكانت المواشى تنفر منها إذا رأتها ، وإذاكان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهر الوادى فى البرد والحدة فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختيار فكان مراتعها الجبال فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على عقر الناقة فاحتالوا فى عقرها وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى أم غنم وهى من بنى عبيد بن المهل وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزا مسنة ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت المحيا بن مهر وكانت غنية جميلة ذات مواش كثيرة وكانتا هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة لصالح وكانتا تحتالان فى عقر الناقة من كفرهما بصالح بما أضرت بمواشيهما وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له صنيم بن هراوة بن سعد بن العطريف بن هلال فأسلم وحسن إسلامه وكانت صدوق قد فوضت اليه مالها فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح عليه الصلاة والسلام حتى نفد المال فاطلعت صدوق على إسلامه فعاتبته على ذلك فأظهر لها دينه ودعاها الى الله تعالى فأبت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم فى بنى عمها الذين هى منهم فقال لها زوجها ردّى علىّ أولادى فلما ألح عليها قالت حتى أحاكمك الى بنى عمى وذلك أن بنى عم زوجها كانوا مسلمين فأبت أن تحاكمه اليهم فقال لها بنو عمها والله لتعطينه ولده طائعة أوكارهة فلما رأت ذلك أعطته أولاده ثم إن صدوق وعنيزة احتالتا فى عقر الناقة للشقاء الذى كتب عليهما فدعت صدوق رجلا من ثمود يقال له الحباب فأمرته بعقر الناقة وعرضت عليه نفسها ان هو فعل ذلك فأبى عليها ثم انها دعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها ان هو عقر الناقة وكانت من أوفر الناس جمالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا فأجابها الى ذلك ودعت عنيزة قدار بن سالف من أهل قدح واسم أمه قديرة وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان لزنية رجل يقال له صفوان ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه ، فقالت له ياقدار أعطيك من بناتى أيما شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا فى قومه وذكره رسول الله ﷺ اذا انبعث أشقاها رجل عزيز فى قومه مثل أبى زمعة قالوا فانطلق قدار ومصدع فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود فاتبعهم سبعة نفر وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى — وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون — فلقيهم هديات

ابن مبلغ خال قدار وكان عزيزا من أهل الحجر وذعر بن غنم بن داعرة أخى مصدع وخمسة لم تذكر أسماؤهم فاجتمعوا على عقر الناقة . قال السدى وغيره : أوحى الله الى صالح ان قومك سيعقرون الناقة فقال لهم ذلك فقالوا ما كنا لنفعل ذلك فقال لهم إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه فقالوا لاجرم لا يولد لنا فى هذا الشهر ولد الا قتلناه فولدلتسعة منهم فى ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه وكان بكره لم يولد له قبل ذلك شىء وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا وكان اذامرّ بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله قالوا نخرج فترى الناس أنا قدخرجنا لسفر فنأتى الغار فنكمن فيه حتى اذا كان الليل وخرج صالح الى مسجده أتيناه فنقتله ثم نرجع الى الغار فنكمن فيه ثم ننصرف بعد ذلك الى رحالنا فنقول : ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا ويظنون أنا قد خرجنا الى سفر ، وكان صالح لاينام الليل معهم فى القرية وكان يأوى الى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه فى الليل فاذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم فاذا أمسى خرج الى المسجد فبات فيه فلما دخلوا الغار وأضمروا أنهم يخرجون اليه بالليل فيقتلونه سقطت عليهم صخرة من الغار فقتلتهم فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار فإذاهم رضخ فرجعوا يصيحون فى القرية ياعباد الله ماقنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فأجمع أهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن إسحق إنما كان تقاسم التسعة على تبييت صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا هلمّ فلنقتل صالحا فان كان صادقا كنا عجلنا قتله وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله فرمتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتى اصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم وهموا به فقامت عشيرته دونه وأخذوا السلاح ، وقالوا لهم والله لاتقتلونه ابدا فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم فى ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا وان كان كاذبا فأنتم من وراء ماتريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

قال السدى وغيره : فلما ولد ابن العاشر يعنى قدارا وكان يشب فى كل يوم شباب غيره فى الجمعة ويشب فى الجمعة شباب غيره فى الشهر ويشب فى الشهر شباب غيره فى السنة ، فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشرب فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد عليهم ذلك وقالوا مانصنع باللبن لو كنا نأخذ الماء الذى تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيرا لنا فقال ابن العاشر هل لكم أن أعقرها ؟ قالوا نعم .

وقال كعب كان سبب عقرهم الناقة امرأة يقال لها ملكا كانت قدملكت ثمود فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرياسة اليه حسدته فقالت لامرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدار بن سالف

ولامرأة يقال لها قابل وكانت معشوقة مصدع بن مهرج وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما كل ليلة يشربون الخمر فقالت لهما ملكا ان أتاكما الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاها وقولا لهما إن الملكة حزينة لأجل صالح وناقته فنحن لا نطيعكما حتى تعقرا الناقة فان عقرتماها أطعناكما فلما أتياها قالتا لهما هذه المقالة فقالا نحن نعقرها .

قال ابن اسحق وغيره فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى أصل شجرة على طريقها وكمن لها مصدع فى أصل شجرة أخرى فمرت الناقة على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن النساء وجها فتراءت لقدار وأسفرت له عن وجهها وحرضته على عقر الناقة فشد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فأرداها وطعن فى لبتها فنحرها وخرج أهل البلدة واقتسموها وأكلوا لحمها ، وكانت لما عقرها رغت فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعا يقال له ضوء وقيل اسمه قارة ، وروى ذلك مسندا عن رسول الله ﷺ من حديث شهر بن حوشب عن عمر بن خارجة فأتى صالح عليه السلام فقيل له أدرك ناقتك فقد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون اليه ويقولون يا نبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال لهم صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله الى الجبل فتطاول فى السماء حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام . فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح عليه السلام لكل أمة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ذلك وعد غير مكذوب . قال محمد بن اسحق بن يسار اتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع وأخوه ذؤاب ولد مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله وألحقوا لحمه مع لحم أمه فقال لهم صالح عليه السلام انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله تعالى ونقمته فقالوا مستهزئين به ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الأيام ، فيوم الأحد الأول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وفيه يقول الشاعر ،

أؤمل أن أعيش وإن يومى   بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فان أفته   فمؤنس أو عروبة أو شبار

قالوا وكان عقر الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه السلام حين سألوه عن وقت العذاب وآيته إنكم تصبحون غرة مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم الأول فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالكلام وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه فخرج صالح عليه السلام هاربا منهم حتى لحق الى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل

على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل ويكنى أباهدب وهو مشرك فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يانبي الله إنهم ليعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم . قال نعم فدلهم عليه مبدع فأتوا أباهدب فكلموه فى ذلك ، فقال نعم هو عندى وليس لكم اليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل ، فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كان ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم وخرج معه من آمن به حتى جاءوا الشام فنزلوا رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وكان حنوطهم الصبر والمر وكانت أكفانهم الأنطاع ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم الى السماء مرة والى الأرض مرة لايدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت فى الأرض فقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق فيهم صغير ولا كبير الاهلك كما قال عز وجل ـ فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ـ ولم ينج منهم الاجارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله لها رجليها بعد ماعاينت العذاب أجمع فخرجت كأسرع شيء يكون حتى أتت قرحا وهو وادى القرى حد مابين الحجاز والشام فأخبرتهم بماعاينت من العذاب وما أصاب ثمود ثم استسقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت .

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال لما مر النبي ﷺ بالحجر فى غزوة تبوك . قال لأصحابه لايدخلن أحد منكم هذه القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ثم قال أما بعد فلاتسئلوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم رسول الله ﷺ مرتقى الفصيل حين ارتقى فى الغار فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها الارجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان فى حرم الله تعالى فمنعه حرم الله من عذاب الله تعالى ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله ﷺ قبر أبى رغال فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وبحثوا عليه فاستخرجوا ذلك الغصن من الذهب ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه وأسرع السير حتى جاوز الوادى . وقال أهل العلم توفى صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وذلك

أنه انتقل من الشام الى مكة بعد ما أهلك الله تعالى قومه وكان يعبد الله تعالى هناك حتى مات وكان قد أقام فى قومه عشرين سنة .

أخبرنا محمد بن عبدالله بن حمدون . قال أخبرنا عبدالله بن محمد بن الحسن . قال حدثنا عبدالله ابن هاشم حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا قتيبة أبو عثمان عن أبيه عن الضحاك بن مزاحم قال : قال رسول الله ﷺ « ياعلى أتدرى ما أشقى الأولين ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم . قال عاقر الناقة قال ياعلى أتدرى من أشقى الآخرين ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم . قال قاتلك » والله أعلم .

مجلس فى قصة إبراهيم عليه السلام والنمروذ

وهو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ ابن سام بن نوح وكان اسم أبى إبراهيم الذى سماه به أبوه تارخ فلما صار مع النمروذ قيما على خزائن آلهته سماه آزر وقال مجاهد إن آزر ليس اسم أبيه وانما هو اسم صنم وقال ابن اسحق ليس هو اسم صنم بل هو لقب عيب به وهو بمعنى معوج وقيل هو بالنبطية الشيخ الهرم وولد لناخور تارخ بعد ما مضى من عمره سبع وعشرون سنة ، وهذا المجلس يشتمل على أبواب والله أعلم .

الباب الأول فى مولد ابراهيم عليه السلام

اختلف العلماء فى الموضع الذى ولد فيه فقال بعضهم : كان مولده بالسوس من أرض الأهواز وقال بعضهم كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوثا وقال بعضهم : كان مولده بالوركاء ناحية فى حدود كسكر ثم نقله أبوه الى الموضع الذى كان به نمروذ من ناحية كوثا . وقال بعضهم : كان مولده بحران ، ولكن أبوه نقله الى أرض بابل . وقال عامة السلف من أهل العلم : ولد ابراهيم عليه السلام فى زمن نمروذ بن كنعان ، وكان بين الطوفان وبين مولد ابراهيم عليه السلام ألف ومائتان وثلاث وستون سنة ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف وسبع وثلاثين سنة ، ونمروذ الذى ولد فى ملكه ابراهيم هو نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن كورش ابن حام بن نوح . وفى الحديث « ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران : فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين عليهما السلام ، وأما الكافران فنمروذ وبختنصر وكان نمروذ أول من وضع على رأسه التاج وتجبر فى الأرض ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد فى بلدك فى هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء .

وقال السدى : رأى نمروذ فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا ودعا السحرة والكهنة والقافة وهم الذين يخلطون فى الأرض وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد فى ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على

يديه قال فأمر نمروذ بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا رقيبا أمينا فاذا حاضت المرأة خلى بينه وبينها إذا أمن المواقعة فاذا طهرت عزل الرجل عنها فرجع آزر أبو ابراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فحملت بابراهيم عليه السلام .

وقال محمد بن اسحق : بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنه إلا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم يبن فى بطنها .

وقال السدى : خرج نمروذ بالرجال إلى العسكر ونحاهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود أن يكون فمكث كذلك ماشاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأتمن عليها أحدا من قومه إلا آزر فدعاه وقال له ان لى اليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك إلا لثقتى بك فأقسمت عليك أن لاتدنو من أهلك ولاتواقعها فقال آزر أنا أشح على دينى من ذلك فأوصاه بحاجته ثم بعثه فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال لودخلت إلى أهلى فنظرت اليهم فلما نظر إلى أم ابراهيم لم يتمالك حتى وقع عليها فحملت بابراهيم عليه السلام .

قال ابن عباس : لما حملت أم ابراهيم قال الكهان للنمروذ ان الغلام الذى أخبرناك به قد حملت به أمه فى هذه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم ابراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعته فى نهر يابس ثم لفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء ورجعت فأخبرت زوجها بابنها وأنها قد ولدت وأن الولد فى موضع كذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سردابا عند نهر فواراه وسد عليه بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف اليه فترضعه .

وقال السدى : لما عظم بطن أم ابراهيم خشى آزر أن تذبح فانطلق بها الى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها وركاء فأنزلها فى سرب من الأرض وجعل عندها مايصلحها ، وجعل يتعهدها ويكتم ذلك من أصحابه فولدت إبراهيم عليه السلام فى ذلك السرب فشب فكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين وصار من الشباب بحالة أسقطت عنه طمع الذباحين ثم ذكر آزر لأصحابه أن له ابنا كبيرا فانطلق به اليهم .

قال ابن اسحق : لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلة الى مغارة وكانت قريبا منها فولدت فيها ابراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه مايصلح بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت الى بيتها ثم كانت تطالعه فى المغارة فتجده حيا يمص إبهامه . قال أبوزريق كانت أم ابراهيم كلما دخلت على ابراهيم عليه السلام وجدته يمص إبهامه فقالت ذات يوم لأنظرن الى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبنا ومن أصبع عسلا ومن أصبع سمنا .

قال ابن اسحق : وكان آزر سأل أم ابراهيم عن حملها مافعل فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها

وسكت عنها وكان اليوم على ابراهيم عليه السلام فى الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث ابراهيم عليه السلام فى المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء الى أبيه آزر فأخبره أنه ابنه وأخبرته بما كانت صنعت فى شأنه فسر آزر بذلك وفرح فرحا شديدا .

الباب الثانى فى خروج ابراهيم عليه السلام من السرب ورجوعه إلى قومه ومحاجته إياهم فى الدين والقائهم إياه فى النار وما يتعلق بذلك

قال أهل العلم بسير الماضين : لما شب ابراهيم عليه السلام وهو فى السرب قال لأمه من ربى قالت أنا ، قال فمن ربك ؟ قالت أبوك ، قال فمن رب أبى ؟ قالت له نمروذ ، قال فمن رب نمروذ ؟ قالت له اسكت فسكت ، ثم رجعت الى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذى يحدث أنه يغير دين أهل الأرض فانه ابنك ، ثم أخبرته بما قال لها فأتاه أبوه آزر . فقال له ابراهيم عليه السلام يا أبتاه من ربى ؟ قال أمك ، قال فمن رب أمى ؟ قال أنا ، قال فمن ربك ؟ قال نمروذ . قال فمن رب نمروذ ؟ فلطمه لطمة وقال اسكت ، وذلك قوله عزوجل — ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين — ثم قال لأبويه أخرجانى فأخرجاه من السرب فانطلقا به حتى غابت الشمس فنظر ابراهيم عليه السلام الى الابل والبقر والغنم والخيل يراح بها فسأل أباه ماهذه ؟ فقال ابل وخيل وبقر وغنم فقال مالهذه بد من أن يكون لها رب خالق . ثم نظر وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال ان الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى إله غيره ، ثم نظر فاذا المشترى قد طلع ويقال الزهرة وكانت تلك الليلة فى آخر الشهر فرأى الكوكب قبل القمر فقال هذا ربى فذلك قوله تعالى — فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر — لأنه رأى ضوأها أعظم — فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين — قالوا وكان أبوه يصنع الأصنام فلما ضم ابراهيم الى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها فيذهب بها ابراهيم عليه السلام فينادى من يشترى مايضر ولا ينفع فلا يشترى أحد منه فاذا بارت عليه ذهب بها الى نهر فضرب رءوسها وقال لها اشربى كسدت استهزاء بقومه وبما هم عليه من الضلالة والجهالة حتى فشا عيبه إياها واستهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته فحاجه قومه فى دينه . فقال لهم أتحاجونى فى الله وقد هدان الآيات إلى قوله عزوجل — وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم — حتى خصمهم وغلبهم بالحجة ثم ان ابراهيم عليه السلام دعا أباه آزر إلى دينه فقال — يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا — إلى آخر القصة فأبى أبوه الاجابة إلى مادعاه اليه ثم ان ابراهيم عليه السلام جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون وأظهر دينه فقال — أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم

وآباؤكم الأقدمون فانهم عدوّ لى إلا ربّ العالمين ـ قالوا فمن تعبد أنت قال رب العالمين قالوا تعنى نمروذ فقال لا ـ الذى خلقنى فهو يهدين ـ الى آخر القصة ففشا ذلك فى الناس حتى بلغ نمروذ الجبار فدعاه . فقال له ياابراهيم أرأيت إلهك الذى بعثك وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره ماهو ؟ قال ابراهيم عليه السلام ربى الذى يحى ويميت قال نمروذ أنا أحيى وأميت قال ابراهيم كيف تحيى وتميت قال آخذ رجلين قد استوجب القتل فى حكمى فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ثم أعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته فقال له ابراهيم عند ذلك إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرجع اليه شيئا ولزمته الحجة فذلك قوله عز وجل ـ فبهت الذى كفر ـ الآية، ثم إن ابراهيم عليه السلام أراد أن يرى قومه ضعف الأوثان التى كانوا يعبدونها من دون الله وعجزها إلزاما للحجة عليهم فجعل ينتهز لذلك فرصة ويحتال فيه الى أن حضرهم عيد لهم .

قال السدى : كان لهم فى كل سنة عيد يخرجون اليه ويجتمعون فيه فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم يا ابراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فتولوا عنه وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس ـ وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ـ فسمعوها منه.

وقال مجاهد وقتادة : انما قال ابراهيم عليه السلام هذا فى سر من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد منهم وهو الذى أفشاه عليه . قالوا ثم رجع ابراهيم عليه السلام من الطريق الى بيت الآلهة فاذا فى البيت نهر مستقبل باب النهر صنم عظيم يليه أصغر منه الى باب النهر واذاهم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا اذا كان حين رجوعنا رجعنا وقد باركت الآلهة فى طعامنا أكلنا فلما نظر ابراهيم عليه السلام الى الأصنام والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم تجبه قال ـ مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين ـ وجعل يكسرهنّ بفأس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الأكبر فعلق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل ـ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ـ فلما جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوها بتلك الحالة ـ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ـ هو الذى نظنه صنع هذا فبلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه إنه هو الذى فعل ذلك وكرهوا أن يأخذوه بغير بينة . قاله قتادة والسدى وقال الضحاك لعلهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه فلما أحضروه ـ قالوا له أ أنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم ـ قال ابراهيم بل فعله كبيرهم هذا ـ غضب أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فكسرهن ـ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ـ قال النبى ﷺ لم يكذب ابراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها فى الله تعالى : قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله للملك الذى عرض لسارة هى أختى فلما قال لهم ابراهيم ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم

الظالمون هذا الرجل فى سؤالكم إياه وهذه آلهتكم التى فعل بها مافعل حاضرة فاسألوها وذلك قول ابراهيم عليه السلام - فاسألوهم ان كانوا ينطقون - فقال قومه مانراه إلا كماقال . وقيل إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغارمع هذا الكبير ثم نكسوا على رءوسهم متحيرين فى أمره وعلموا أنها لاتنطق ولا تبطش فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فلما اتجهت الحجة عليهم لابراهيم عليه السلام قال لهم - أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم أف لكم ولماتعبدون من دون الله أفلا تعقلون - فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب قالوا - حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قال عبد الله بن عمر ان الذى أشارعليهم بتحريق ابراهيم عليه السلام بالنار رجل من الأكرادقال شعيب الجبائى اسمه هينون فخسف الله تعالى به الأرض وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة قال فلما أجمع نمروذ وقومه على احراق ابراهيم عليه السلام حبسوه فى بيت وبنوا له بنيانا كالحظيرة فذلك قوله عز وجل - قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم - ثم جمعوا له من أصلب الحطب وأصناف الخشب حتى ان كانت المرأة لتمرض فتقول لئن عافانى الله تعالى لأجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تنذر فى بعض ماتطلب مما تحب أن تدرك لئن أصابته لتحتطبن حطبا وتجعله فى النار التى يحرق بها ابراهيم احتسابا فى دينها

قال ابن اسحق : كانوا يجمعون الحطب شهراحتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ماأرادوا أشعلوا النار فى كل ناحية بالحطب فاشتعلت النار حتى ان كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها ثم عمدوا إلى ابراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا باشارة إبليس لعنه الله تعالى حيث لم يتمكنوا من إلقائه فى النار من شدة حرها فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيدا مغلولا صلوات الله عليه فضجت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة وقالوا اى ربنا ابراهيم ليس فى أرضك أحد يعبدك غيره يحرق فى النار فاذن لنا فى نصرته . فقال الله تعالى لهم : ان استعان بشىء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم فى ذلك وان لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه ملك المياه فقال ان أردت أخمدت النار فان خزائن المياه والأمطار بيدى ، وأتاه خازن الريح فقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لاحاجة لى اليكم ثم رفع رأسه إلى السماء فقال اللهم أنت الواحد فى السماء وفى الأرض ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى، وروى المعتمر عن أبى بن كعب عن أرقم أن ابراهيم عليه السلام حين أوثقوه ليلقوه فى النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لاشريك لك ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار فى موضع شاسع فاستقبله جبريل عليه السلام فقال ياابراهيم ألك حاجة قال أما اليك ، فلا قال جبريل فاسئل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبى من سؤالى علمه بحالى حسبى الله ونعم الوكيل ، وفى الخبر أن ابراهيم عليه السلام انما نجا بقوله حسبى الله ونعم الوكيل قال الله عز وجل - يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم - .

قال السدى : كان جبريل عليه السلام هو الذى ناداها بأمر الله تعالى قال على بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس : لو لم يقل وسلاما لمات ابراهيم من بردها ولم يبق حينئذ نار فى الأرض الا طفئت ظنت أنها تعنى . قال كعب الأحبار روى قتادة والزهرى ماانتفع أحـــد من الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار يومئذ شيئا إلا وثاق ابراهيم عليه السلام ولم يبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فلذلك أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقا . قال السدى : فأخذت الملائكة بضبعى ابراهـيم فأقعدته على الأرض فاذا عـين ماء وورد أحمر ونرجس قالوا فأقام ابراهـــيم فى النار سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهـــيم خليل الله ما كنت أياما قط أنعم منى عيشا فى الأيام التى كنت فيها فى النار .

قال ابن اسحق وغيره : وبعث الله ملك الظل فى صورة ابراهيم عليه السلام فقعد فيها إلى جنب ابراهيم وهو يؤنسه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال له ياابراهـيم ان ربك يقول أما علمت أن النار لاتضر أحبابى وألبسه القميص ثم أشرف نمروذ من صرح له عال ونظر إلى ابراهيم عليه السلام ومايشك أنه قد هلك فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا إلى جنبه وحوله نار تحرق ماجمعوا من الحطب ، فناداه نمروذ ياابراهيم كبير إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك ياابراهيم فهل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال نعم قال فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام ابراهـــيم عليه السلام يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له يا ابراهيم من الرجل الذى رأيت معك فى مثل صورتك قاعدا إلى جنبك ؟ قال ملك الظل أرسله إلى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ ياابراهـــيم انى مقرب إلى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزمه فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال له أبراهيم لايقبل الله منك شيئا ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه الى دينى فقال ياابراهـــيم لا أستطيع ترك ملـكى ولـكن سوف أذبحها له فذبحها وقربها ومنع العذاب عن ابراهـــيم ثم انه قال لابراهيم نعم الرب ربك ياابراهيم .

قال الشعبي : ألقى ابراهيم عليه السلام فى النار وهو ابن ست عشرة سنة وذبح اسحق وهو ابن سبع سنين وولدته سارة رضى الله عنها وهى ابنة تسعين سنة وكان مذبحه من بيت المقدس على ميلين ولما علمت سارة بما أراد باسحق بقيت يومين وماتت فى اليوم الثالث .

قال ابن اسحق : استجاب لابراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ماصنع الله عزوجل به من جعل الله النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم فآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ وهاران هو أخو أبراهـــيم عليه السلام وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارخ فهاران أبو لوط وناحـــور أبو تنويل وتنويل أبو لابان ورفقا بنت تنويل امرأة اسحق بن ابراهيم أم يعقوب وليا وراحيل زوجتا يعقوب عليه السلام وهما ابنتا لابان وآمنت أيضا

به سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الأكبر عم ابراهيم عليه السلام . وقال السدى : كانت سارة بنت ملك حران ، وذلك أن ابراهيم ولوطا عليهما السلام انطلقا قبل الشام فلقى ابراهيم سارة وهى بنت الملك حران ، وكانت قد طعنت على قومها فى دينهم فتزوّجها ابراهيم عليه السلام على أن لا يضرها :

قال ابن اسحق : خرج ابراهيم عليه السلام من كوثا من أرض العراق مهاجرا إلى ربه عز وجل وخرج معه لوط وسارة عليهما السلام كما قال الله تعالى ـ فآمن له لوط وقال انى مهاجر إلى ربى ـ فخرج حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله تعالى أن يمكث ثم خرج منها حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من فلسطين وهى برّية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة فبعثه الله تعالى نبيا فذلك قوله عز وجل ـ ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ـ يعنى الشام فبركتها أن بعث منها أكثر الأنبياء وهى الأرض المقدسة وأرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك الله تعالى المسيخ الدجال بباب لدّ ، وهى أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار يطيب فيها العيش للغنى والفقير

قال أبىّ بن كعب : مامن ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس ثم يتفرق فى الأرض والله أعلم .

الباب الثالث فى ذكر مولد اسماعيل واسحق عليهما السلام
ونزول اسماعيل وأمه هاجر الحرم وقصة بئر زمزم

قال أهل العلم بسير الماضين : لما نجى الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام آمن به من آمن وتابعوه على فراق قومهم واظهار البراءة منهم فقالوا انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أيها المعبودون من دون الله وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أيها العابدون حتى تؤمنوا بالله وحده ثم خرج ابراهيم عليه السلام مهاجرا إلى ربه وخرج معه لوط عليه السلام وتزوّج ابراهيم عليه السلام بابنة عمه سارة فخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادته لربه حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله أن يمكث ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى وكانت سارة من أحسن النساء وأجملهن وكانت لا تعصى ابراهيم عليه السلام فى شىء وبذلك أكرمها الله تعالى قال فأتى الجبار رجل وقال له ان ههنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء ووصف له حسنها وجمالها فأرسل الجبار إلى ابراهيم عليه السلام فجاءه فقال له ماهذه المرأة منك فقال هى أختى وتخوف إن قال هى امرأتى أن يقتله فقال له زينها وأرسلها إلىّ حتى أنظر إليها فرجع ابراهيم إلى سارة عليها السلام وقال لها ان هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فانك أختى فى كتاب الله عز وجل وإنه ليس فى هذه الأرض مسلم غيرى وغيرك ثم أقبلت سارة إلى الجبار وقام ابراهيم عليه السلام يصلى فلما دخلت عليه ورآها أهوى اليها يتناولها بيده فيبست يده إلى

صدره . فلما رأى الجبار ذلك أعظم أمرها وقال لها سلى ربك أن يطلق يدى فوالله لا آذيتك . فقالت سارة اللهم ان كان صادقا فأطلق له يده فأطلق الله تعالى يده .

وفى بعض الأخبار المسندة : أنه فعل ذلك ثلاث مرات يقصد أن يتناولها فتيبس يده فلما رأى ذلك ردها إلى ابراهيم ووهب لها هاجر وهى جارية قبطية فأقبلت الى ابراهيم فلما أحس بها ابراهيم انفتل من صلاته قال مهيم فقالت كفى الله كيد الفاجر وأخدمنى هاجر قال محمد بن سيرين كان أبو هريرة اذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ قال فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

وفى بعض الأخبار : أن الله تعالى رفع الحجاب بين ابراهيم وسارة حتى كان ينظر اليها من وقت خروجها من عنده الى وقت انصرافها اليه كرامة لها وتطييبا لقلب ابراهيم عليه السلام قالوا وكانت هاجر جارية ذات هيئة فوهبتها سارة لابراهيم فقالت انى أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولدا وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت فوقع ابراهيم على هاجر فولدت له اسماعيل عليه السلام .

روى محمد بن اسحق عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما » قال ابن اسحق فسألت الزهرى ما الرحم الذى ذكر رسول الله ﷺ فقال كانت هاجر أم اسماعيل منهم قالوا ثم خرج ابراهيم من مصر إلى الشام وهاب ذلك الملك الذى كان بها وأشفق من شره فنزل السبع من أرض فلسطين واحتفر بها بئرا واتخذ بها مسجدا وكان ماء تلك البئر معينا ظاهرا ، وكانت غنمه تردها فأقام ابراهيم عليه السلام بالسبع مدة ثم ان أهلها آذوه فيها ببعض الأذى فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا ببلد يقال لها قطة ، فلما خرج من بين أظهرهم نضب ماء تلك العين وذهب فندم أهل السبع جميعا على ما صنعوا وقالوا أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحا فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع فقال ما أنا براجع الى بلد أخرجت منه . قالوا ان الماء الذى كنت تشرب ونشرب معك منه قد نضب وذهب فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال اذهبوا بها معكم فانكم اذا أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معينا ظاهرا كما كان فاشربوا منها ولا تقربنها امرأة حائض فخرجوا بالأعنز . قال فلما وقفت على البئر ظهر الماء فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال حتى أتتها امرأة طامث ، فاغترفت منها فركد ماؤها الى الذى هو عليه اليوم ، وأقام ابراهيم عليه السلام ببلده وكان يضيف من نزل به وقد وسع الله تعالى عليه وبسط له من الرزق والمال والخدم ، فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط عليه السلام بعث اليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم وأمرهم أن يبدءوا بابراهيم عليه السلام ويبشروه وسارة باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فلما نزلوا على ابراهيم عليه السلام وكان الضيف قد حبس عنه خمسة عشر يوما حتى شق عليه ذلك وكان لا يأكل إلا مع ضيف ما أمكنه فلما رآهم على صورة الرجال سر بهم ورأى ضيوفا لم يضيف مثلهم حسنا وجمالا فقال لا يخرج لهؤلاء القوم

الا أنا فخرج فجاء بعجل سمين حنيذ وهو المشوى بالحجارة فقربه اليهم فأمسكوا أيديهم عنه فقال لهم ألا تأكلون ـ فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ـ حيث لم يأكلوا من طعامه فقالوا ياابراهيم لانأكل طعاما إلا بثمن . قال فان لهذا ثمنا قالوا وماثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله تعالى على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهما السلام وقال يحق لهذا أن يتخذه ربه خليلا ثم قالوا له لاتخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته سارة قائمة تخدمهم وابراهيم قاعد معهم فلما أخبروه بما أرسلوا به وبشروه باسحاق ويعقوب ضحكت سارة .

واختلف العلماء فى العلة الجالبة لضحكها ماهى ؟ . فقال السدى : انما ضحكت سارة حيث لم يأكلوا من طعامهم ، وقالت ياعجبا لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لايأكلون طعامنا . وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم . وقال مقاتل والكلبى : ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهم فيما بين خدمه وحشمه . وقال ابن عباس : ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها ، وكانت هى بنت تسعين سنة وابراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

قال السدى : قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها بالولد على حالة الكبر ما آية ذلك ؟ فأخذ بيده عودا يابسا فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر . فقال ابراهيم هولله اذا ذبيح . وقال مجاهد وعكرمة : فضحكت أى حاضت فى الوقت ، تقول العرب : ضحكت الأرنب اذا حاضت . وقال السدى وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار : فحملت سارة باسحاق ، وقد كانت حملت هاجر باسماعيل فوضعتا معا فشب الغلامان فبينما يتناضلان ذات يوم وقد كان ابراهيم عليه السلام سابق بينهما فسبق اسماعيل فأخذه وأجلسه فى حجره وأجلس اسحق الى جانبه وسارة تنظر اليه فغضبت وقالت عمدت الى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت الى ابنى فأجلسته إلى جنبك وقد جعلت أن لاتضرنى ولا تسوءنى وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها ثم ثاب اليها عقلها فبقيت متحيرة فى ذلك . فقال لها ابراهيم عليه السلام اخفضيها واثقبى أذنيها ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء . ثم ان اسمعيل واسحق عليهما السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان فغضبت سارة على هاجر . وقالت لاتساكنينى فى بلد واحد وأمرت ابراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها ، فأوحى الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام أن يأتى بهاجر وابنها مكة فذهب بهما حتى قدم مكة وهى إذ ذاك عضاه وسلم وسمر وبحواليها خارج مكة ناس يقال لهم العماليق وموضع البيت يومئذ ربوة حمراء . فقال ابراهيم عليه السلام لجبريل عليه السلام ههنا أمرت أن أضعهما . قال نعم فعمد بهما الى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم اسمعيل أن تتخذ عريشا ثم قال ـ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ـ ثم انصرف فاتبعته هاجر وقالت

إلى من تـكلنا فجعل لايردّ عليها شيئا ، فقالت آلله أمرك بهـذا ؟ قال نعم فقالت إذا لايضيعنا ، ثم انصرف راجعا إلى الشام وكان مع هاجر شنة فيها ماء فنفد الماء فعطشت وعطش الصبي ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض فصعدت الصفا وتسمعت هل تسمع صوتا أو ترى انسيا فلم تسمع شيئا ولم تر أحدا ، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادى نحو اسمعيل فأقبلت اليه بسرعة لتؤنسه ثم سمعت صوتا نحو المروة فسعت وماتريد السعي كالانسان المجهود فهى أوّل من سعى بين الصفا والمروة ثم صعدت إلى المروة فسمعت صوتا كالانسان الذى يكذب سمعه حتى استيقنت وجعلت تدعواسمع ايل تعنى ياألله قد أسمعتنى صوتك فأغثنى فقد هلـكت وهلك من معي ، فاذا هى بجبريل عليه السلام فقال لها من أنت فقالت سرية ابراهيم عليه السلام تركنى وابنى ههنا قال وإلى من وكلـكما قالت وكلنا إلى الله تعالى قال لقد وكلـكما إلى كريم كاف ثم جاء بهما وقد نفد طعامهما وشرابهما حتى انتهى بهما إلى موضع زمزم ، فضرب بقدمه ففارت عين فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل عليه السلام فلمـا نبع المـاء أخذت هاجر شنة لهـا وجعلت تستقى فيها وتدخره ، فقال لها جبريل عليه السلام انهاوى وجعلت أم اسماعيل تحبسها حبسا . قال رسول الله ﷺ « لولا أنها عجلت لـكانت زمزم عينا معينا » وقال لها جبريل لاتخافى الظمأ على أهل هذه البلدة فانها عين يشرب منها ضيفان الله تعالى وقال لها أما ان أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله تعالى بيتا هذا موضعه ، قالوا ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا ان هذا الطير لحائم على ماء فأشرفوا فاذا هم بالماء ، فقالوا لهاجر ان شئت كنا معك فآنسناك والمـاء ماؤك فأذنت لهم فنزلوا معها وهم أوّل سكان مـكة فلذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها :

لاهمّ ان جرهما عبادك الناس طارف وهم تلادك وهم قديمـا عمروا بلادك

فـكانوا هناك حتى شب اسمعيل وماتت هاجر فتزوج اسمعيل امرأة من جرهم وأخذ لسانهم فتعرب بهم فأولاده العرب المتعربة . ثم ان ابراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها فأذنت له واشترطت عليه أن لاينزل فقدم ابراهيم عليه السلام مكة وقد ماتت هاجر ويقال انه قدمها راكبا البراق ، فلما قدمها ذهب إلى بيت اسمعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ليس ههنا ذهب يتصيد ، وكان اسمعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع وكان مولعا بالصيد نخص بالقنص والفروسية والرمى والصراع ، فقال لها ابراهيم عليه السلام هل عندك ضيافة هل عندك طعام أو شراب قالت ليس عندى شيء وما عندى أحد ، فقال لها ابراهيم إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له فليغير عتبة بابه ، فذهب ابراهيم عليه السلام ودخل اسمعيل فوجد ريح أبيه ، فقال لامرأته هل جاءك أحد ؟ فقالت جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه . قال فما قال لك قالت قال أقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه ، فطلقها وتزوّج أخرى ، فلبث ابراهيم عليه السلام ماشاء الله ، ثم استأذن سارة أن يزور اسمعيل فأذنت له واشترطت عليه أن لاينزل ، فجاء ابراهـيم عليه السلام

حتى انتهى إلى باب اسمعيل ، فقال لامرأته أين صاحبك قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الآن انشاء الله تعالى فانزل يرحمك الله ، قال لها هل عندك ضيافة قالت نعم فجاءت باللبن واللحم فدعا لهم بالبركة فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمرا لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرا ، ثم قالت له انزل حتى أغسل رأسك وشعثك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فبقى أثر قدمه فيه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم جعلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء اسمعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد قالت نعم جاءنى شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا فقال لى كذا وكذا وقلت له كذا وكذا وغسلت له رأسه وهذا موضع قدميه على المقام فقال ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال أنس بن مالك : رأيت فى المقام أثر أصابع ابراهيم عليه السلام وعقبيه وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم

وأخبرنا محمد بن أحمد بن عبدون قال أخبرنا محمد بن حمدون بن خالد حدثنا محمد بن ابراهيم حدثنا هدبة بن خالد حدثنا أبو يحيي بن جابر بن مسح القرشى قال : سمعت مسافر بن شيبة يقول سمعت عبد الله بن عمر يقول أشهد ثلاث مرات أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا أن طمس الله نورهما لأضاءا مابين المشرق والمغرب » .

الباب الرابع فى القول على بقية قصة زمزم

روت الرواة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال عبد المطلب بن هاشم : بينا أنا نائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال لى احفر طيبة قلت وما طيبه ؟ فذهب عنى ولم يجبنى ، فلما كانت الليلة الثانية جاءنى فقال احفر درة قلت وما درة فذهب عنى ولم يجبنى ، فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فقال احفر المصونة قلت وما المصونة فذهب عنى ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت ، فجاءنى فقال احفر زمزم فقلت وما زمزم ، وكانت قد درست وغار ماؤها لما مضت أيام اسمعيل عليه السلام قال بئر يستقى الحجيج منه عند منحر قريش عند نقرة الغراب وقرية النمل ، فلما تبين له قام فدل على موضعه وعرف أنه قد صدق ، فغدا بمعوله ومعه الحارث بن عبد المطلب وليس له ولد غيره يومئذ ، فلما علمت به قريش قاموا اليه فقالوا ياعبد المطلب انها من آثار أبينا اسمعيل وان لنا فيها حقا فأشركنا فيها ، فقال ماأنا بفاعل ان هذا شىء خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم . قالوا له فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك . قال فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أخاصمكم اليه قالوا كاهنة بنى سعد ابن هذيل قال نعم ، وكانت فى أطراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، فركب من كل قبيلة من قريش نفر قال والأرض إذ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز نفد ما كان معهم

من الماء حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا إنا بمفازة وانا نخشى على أنفسنا أن يصيبنا مثل ما أصابكم ، فلما رأى عبد المطلب ماصنع القوم قال لأصحابه ماذا ترون ؟ . قالوا ان رأينا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت قال فانى أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بما يجد من القوة فكل من مات منادون صاحبه دفنه فى حفرته . قال فحفروا وجلسوا ينتظرون الموت . ثم قال عبد المطلب وما لنا لا نضرب فى الأرض فعسى الله تعالى أن يرزقنا ماء فارتحلوا ومن معهم من قريش ينظرون اليهم ماهم فاعلون وتقدم عبد المطلب الى راحلته فركبها ، فلما أن انبعثت به انفجرت من تحت حوافر دابة عبد المطلب عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب منه وشرب أصحابه حتى رووا وملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله تعالى وإياكم فشربوا وسقوا ، ثم قالوا قد والله قضى الله لك علينا ياعبد المطلب والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا ان الذى سقاك هذا الماء فى هذه الفلاة فهو ساقيك زمزم فارجع ، فرجع ورجعوا معه حتى وافوا مكة وخلوا بينه وبين زمزم ، ولما جن الليل رأى عبد المطلب فى منامه كأن قائلا يقول له :

يا أيها المدلج احفر زمزم ... انك ان حفرتها لم تندم
وهى تراث من أبيك الأعظم ... تسقى الحجيج حافلا لم ينقم

فلما سمعه عبد المطلب قال وأين موضع زمزم ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم قال فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عند الوثنين اساف ونائلة اللذين كانت قريش تعبدهما وتنحر عندهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت قريش اليه وقالوا والله لا نتركك أن تحفرها ووثنانا ومنحرنا عندها ، وكانت قريش حسدوه على ذلك لأنهم أخبروا أن جرهما لما سكنت مكة أودعت فى زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى ﷺ لما أخبرت أن الله تعالى باعث فى هذه القرية نبيا من صفته وحاله كيت وكيت ولم يكونوا عرفوا موضعها ، فلما أخبر بذلك عبد المطلب نازعوه فى ذلك فقال بعضهم لبعض دعوه يحفر فربما يخطىء الموضع ، فحفر غير بعيد فظهرت له العلامات فكبر فعرفوا أنه لم يخطىء فتمادى حتى بلغ الى تمثالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم ووجد فيها سيوفا ودروعا فقالت له قريش ياعبد المطلب لنا معك فى هذا شركة قال لا ولكن نضرب بالقداح عليه قالوا وكيف نصنع ؟ قال اجعلوا للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شىء كان له ومن تخلف قدحاه فلاشىء له . قالوا أنصفت فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوا القداح التى تضرب بها عند هبل وقام عبد المطلب يدعو فخرج السهمان الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش ، قال فعلق عبد المطلب الأسياف والأدرع بباب الكعبة وضرب فى الباب الغزالين الذهب فكان أول ذهب حليت به الكعبة وكانت الرياسة والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم ، فلما حفرها وأخرج منها ما أخرج ازداد بذلك فى قريش عظما وجاها ومنزلة .

وعافت الحجيج المياه التى كانت بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم لما كان من عذوبة مائها لكونها من أثر اسماعيل عليه السلام وافتخرت بذلك بنو عبد مناف على قريش وعلى سائر العرب والله أعلم .

الباب الخامس فى صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبى أحمد الفراتى أخبرنا الحسن بن المغيرة بن عمر بن الوليد المغربى بمكة حدثنا أبو سعيد المفضل بن محمد بن ابراهيم بن المفضل حدثنا عبد الله بن أبى غسان اليمانى حدثنا أبو همام حدثنا محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال :قال اليمانى . قال رسول الله ﷺ « كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة والبيت المعمور الذى فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه الى يوم القيامة حذاء الكعبة الحرام وان الله تعالى أهبط آدم عليه السلام الى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شدة رعدته وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء ، فأخذه آدم فضمه اليه استئناسا به ، ثم أخذ الله تعالى من بنى آدم ميثاقهم فجعله فى الحجر ، ثم أنزل الله تعالى على آدم العصا ثم قال يا آدم تخط فتخطى فاذا هو بأرض الهند فمكث هناك ماشاء الله أن يمكث ، ثم استوحش الى البيت فقيل له حج يا آدم ، فأقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية ومابين ذلك مفاوز حتى قدم مكة فلقيته الملائكة فقالت برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام ثم قال فما كنتم تقولون حوله ؟ قالوا كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر فكان آدم اذا طاف بالبيت قال هذه الكلمات ، وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع خمسة أسابيع بالليل وبالنهار أسبوعان فقال آدم يارب اجعل لهذا البيت عمارا يعمرونه من ذريتى ، فأوحى الله تعالى اليه انى معمره بنبى من ذريتك اسمه ابراهيم أتخذه خليلا أقضي على يديه عمارته وأنيط له سقايته أورثه حله وحرمه ومواقفه وأعلمه مشاعره ومناسكه ، فلما فرغ من بنائه نادى يا أيها الناس ان الله تعالى بنى بيتا فحجوه فأسمع مابين الخافقين فأقبل من يحج هذا البيت من الناس يقولون لبيك لبيك » وقال النبى ﷺ « ان آدم عليه السلام سأل ربه عزّ وجل فقال يارب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئا أن تلحقه بى فى الجنة فقال الله تعالى يا آدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئا بعثته آمنا يوم القيامة » .

وروت الرواة بأسانيد مختلفة : ان آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض كان رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم وتسبيحهم ويأنس اليهم فهابته الملائكة واشتكت ذلك الى الله عز وجل فنقصه الله تعالى الى ستين ذراعا بذراع آدم ، فلما فقد آدم عليه السلام ما كان يسمع من أصوات الملائكة وتسبيحهم استوحش وشكا ذلك إلى الله عز وجل فأنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة فكانت على موضع البيت الآن ، ثم قال يا آدم انى أهبطته لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما كنت تصلى عند عرشى فتوجه آدم عليه السلام إلى مكة ورأى البيت فطاف به .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام ان لى حرما بحيال عرشى فانطلق فابن لى بيتا فيه ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى فهنا لك أستجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى قال آدم رب كيف لى بذلك ولا أقوى عليه ولا أهتدى اليه فقيض الله له ملكا فانطلق نحو مكة ، فكان آدم عليه السلام إذا مر بروضة وبمكان يعجبه ، قال للملك انزل بى ههنا ، فيقول له الملك مكانك حتى قدم مكة ، فكان كل مكان نزل فيه عمرانا وكل مكان تعداه مفاوز وقفارا ثم بنى البيت ، فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس كلها اليوم ، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعا ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات على نور . قال أبو يحى بائع القت : قال لى مجاهد لقد حدثنى عبد الله بن عباس أن آدم نزل حين نزل بالهند ، ولقد حج منها أربعين حجة على رجليه ، فقلت له ياأبا الحجاج ألا كان يركب ، قال وأى شىء كان يحمله والله إن خطوته مسيرة ثلاثة أيام . وقال وهب بن منبه إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره ، قال يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى ؟ قال الله تعالى : إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره باسمى وأسميه بيتى أنطقه بعظمتى وعليه وضعت جلالى ، ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى أجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثا غبرا — وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق — يضجون بالتلبية ضجيجا ويثجون بالبكاء أجيجا ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن آثره لايريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافنى ، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته ، تعمره ياآدم ما كنت حيا ثم يعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن فهكذا كان بدء أمر الكعبة حرسها الله تعالى ، ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان ، فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمان ابراهيم عليه السلام ، ثم إن الله تعالى أمر ابراهيم بعد ماولد له اسماعيل واسحق عليهما السلام ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر اسمه ، فلم يدر ابراهيم فى أى موضع يبنيه ، فسأل الله عز وجل أن يبين له ذلك . واختلف العلماء فى كيفية بيان ذلك فقال قوم بعث الله تعالى اليه السكينة لتدله على موضع البيت كما حدث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن رجلا قام إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وضع للناس ؟ فقال لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة ووضع فيه مقام إبراهيم عليه السلام ومن دخله كان آمنا وان شئت أنبأتك كيف بنى إن الله عز وجل أوحى إلى ابراهيم عليه السلام أن ابن لى بيتا فى الأرض

فضاق بذلك ابراهيم ذرعا ، فأرسل الله عز وجل السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهيتا إلى مكة فتطوقت على موضع البيت كتطوق الجحفة وأمر ابراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فبنى بيتا . وقال آخرون أرسل الله تعالى اليه سحابة على قدر الكعبة ، فجعلت تسير معه إلى أن قدم مكة فوقفت فى موضع البيت ونودى ياابراهيم ابن على ظلها لاتزد ولا تنقص . وقال بعضهم إن الذى خرج مع ابراهيم عليه السلام من الشام لدلالته على موضع البيت جبريل عليه السلام وذلك قوله عزّ وجلّ — وإذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت — الآية . قالوا فجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة وكان ابراهيم عبرانيا واسماعيل عربيا ، فألهم الله تعالى أحدهما لسان صاحبه فكان ابراهيم عليه السلام يقول هب لى كينا يعنى هات لى حجرا ، فيقول له اسماعيل هاك نخذه ، فبنيا الكعبة من خمسة أجبل طور سينا وطور زيتا ولبنان والجودى وبنيت قواعده من حراء . قال فبقى حجر فذهب اسمعيل يبتغيه ، ثم رجع فوجده قد رُكب الحجر فى مكانه ، فقال ياأبت من أتاك بهذا الحجر ، فقال له أتانى به من لم يكلنى اليك ، ثم قال ابراهيم لاسماعيل ائتنى بحجر حسن أضعه على الركن ليكون علما للناس ، فناداه أبو قبيس ياابراهيم إن لك عندى وديعة فهاك نخذها ، فأخرج ابراهيم عليه السلام الحجر الأسود من جبل أبى قبيس وركبه فى موضعه ، فلما فرغ ابراهيم واسماعيل من بناء البيت وأتماه دعوا بهما فذلك قوله تعالى — وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، الى قوله — وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم — فأجاب الله تعالى دعاءهما وأرسل جبريل عليه السلام اليهما ليعلمهما مناسك الحج ، فخرج بهما يوم التروية الى منى فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى أصبح فصلى بهما الصبح ، ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك حتى اذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهما الى الموقف من عرفة فوقف بهما على الموضع الذى يقف عليه الناس اليوم ، فلما غربت الشمس دفع بهما الى المزدلفة فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى طلع الفجر ثم صلى بهما صلاة الغداة فوقف بهما على قزح حتى اذا أسفر الصبح أفاض بهما الى منى فأراهما كيف يرميان الجمار ، ثم أمرهما بالذبح وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلق ، ثم أفاض بهما الى البيت ، فأوحى الله تعالى الى نبينا محمد ﷺ — أن اتبع ملة ابراهيم حنيفة وما كان من المشركين ثم أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال يارب وما يبلغ صوتى ؟ فقال عليك الأذان وعلىّ البلاغ فعلا ثبيرا ونادى ياعباد الله إن ربكم قد بنى بيتا فحجوه وأجيبوا داعى الله فسمعه ما بين السماء والأرض وما بين الأبحر ومن فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه كل من آمن بالله ممن سبق فى علم الله تعالى أن يحج الى يوم القيامة لبيك اللهمّ لبيك .

وقال عبد الله بن الزبير لعبيد بن عمير : استقبل ابراهيم عليه السلام اليمن والمشرق والمغرب

والشام فدعا الى الحج ، فأجيب لبيك اللهمّ لبيك وذلك قوله عز وجل ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ الآيات ، فلم يزل البيت على ما بناه ابراهيم عليه السلام الى سنة خمس وثلاثين من مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك قبل مبعثه بخمس سنين ، فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها . وكان السبب فى ذلك على ماذكر محمدبن اسحق وغيره من أهل الأخبار أن الكعبة كانت رضمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها ، وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم فى أنفسهم بعض مايصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها ما يهدى لها كلّ يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانوا يهابونها وذلك أنه كان لايدنو منها أحد إلا كشرت وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينا هى ذات يوم على جدار الكعبة كما كانت تصنع فبعث الله طائرا فاختطفها فذهب بها وقالت قريش إنا لنرجو أن الله تعالى قدرضى ماأردناه من عمارة بيته وان عندنا عاملا رفيقا وخشبا وقد كفانا الله تعالى الحية وذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة ، فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أبووهب بن عمرو بن عمير بن عامر بن عمرو بن مخزوم وتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا ولاتدخلوا فيها من مهربغىّ ولا بيع ربا ولامظلمة أحدمن الناس ، ثم إن الناس هابوا هدمها فقال الوليدبن المغيرة أنا أبدأ لكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لانريد الا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا ننتظره فان أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت وان لم يصبه شىء فقدرضى الله تعالى بمافعلنا فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم الى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنمة الابل آخذ بعضها ببعض فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع أحدهما ، فلما تحرّك الحجر تحرّكت مكة بأسرها فعلموا أنهم قدانتهوا إلى الأساس وقالوا ان القبائل قد اجتمعت لبنائها فجعلت كلّ قبيلة تجمع على حدتها ثم بنوا ، فلما بلغوا فى البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه فكل قبيلة أرادت أن تضعه فى صفة دون الأخرى حتى تحالفوا وتحالفوا وتواعدوا القتال فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدىّ بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فسموا لعقة الدم بذلك ، فمكثوا أربع ليال أوخمس ليال على ذلك ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان حينئذ أسن قريش كلها ، فقال لهم يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه فرضوا بذلك وتوافقوا عليه ، فكان أوله من دخل عليهم محمد رسول الله ﷺ ، فلمارأوه قالوا هذا محمد الأمين قد رضينابه فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال : هلموا الىّ ثوبا فأتوابه فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ذلك حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه . قالوا

فكانت الكعبة كذلك على ما بينه قريش الى سنة أربع وستين من الهجرة حتى حاصر الحصين بن نمير السكونى عبد الله بن الزبير فقذفوا البيت بالمنجنيق وأخذوا يرتجزون ويقولون .

حطارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها عيدان هذا المسجد

وقال آخر منهم

كيف ترى صنيع أم فروه تأخذهم من الصفا والمروه

أم فروة اسم منجنيق فمالت حيطان الكعبة مما رميت به من حجارة المنجنيق وانها مع ذلك احترقت ، وكان السبب فيه أنهم كانوا يوقدون حولها فأقبلت شرارة هبت بها الريح فأحرقت باب الكعبة واحترق خشب البيت .

وقال الواقدى : حدثنى عبد الله بن زيد قال حدثنى عروة بن أذينة قال قدمت مكة مع أبى يوم احترقت الكعبة وقد خلصت اليها النار ورأيت الركن قد اسودّ وانصدعت منه ثلاثة أمكنة ، فقلت ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا الى رجل من أصحاب ابن الزبير قالوا احترقت بسبب هذا أخذ قبسا فى رأس رمح له فطارت الرمح به فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليمانى والحجر الأسود .

وقال بعضهم : كان السبب فى ذلك أن امرأة كانت تبخر البيت فطارت شرارة من النار فاحترق البيت ، وكان أول ما تكلم الناس فى القدر يومئذ فقال قوم هو من قدرة الله . وقال قوم ليس من قدرة الله . قالوا فهدم عبد الله بن الزبير الكعبة حتى سواها بالأرض ، وكان الناس يطوفون بها من وراء الأساس ويصلون إلى موضعها ، وجعل الحجر الأسود عنده فى تابوت فى خرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب عند الحجبة فى خزانة البيت ثم أعاد بناءه ، وقال إن أمى أسماء بنت أبى بكر حدثتنى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس ابراهيم فأزيد فى الكعبة الحجر ، وان قريشا أعوزتهم النفقة فأخرجوا الحجر من البيت ولجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا ، فأمر به ابن الزبير فحفر فوجدوا قلاعا أمثال الابل فحرّكوا منها صخرة فبرقت برقة ، فقال أقروها على أساسها ، فبناها ابن الزبير وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابين يدخل من أحدها ويخرج من الآخر ، فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل الحجاج بن يوسف الثقفى عبد الله بن الزبير وولى الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان ، فنقض الحجاج بنيان الكعبة الذى كان بناه ابن الزبير بأمر عبد الملك وأعادها إلى بنائها الأول بمشهد مشايخ من قريش ، فهى اليوم على ما بناها الحجاج الا ما كان من قلع القرمطى صاحب البحرين لعنه الله الحجر الأسود عام أوقع بالحجيج بمكة فذهب به مع من أسر من الحاج إلى البحرين ثم أخذ منه ورد إلى موضعه ، وذلك على يد شيخنا أبى اسحق ابراهيم بن محمد بن يحى البرمكى النيسابورى رحمة الله عليه .

الباب السادس فى ذكر أمر الله تعالى خليله عليه السلام بذبح ولده

قال الله تعالى فلما بلغ معه السعى قال يابنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين — . واختلف السلف من علماء المسلمين فى الذى أمر ابراهيم عليه السلام بذبحه من ابنيه بعد إجماع أهل الكتاب على أنه كان اسحق عليه السلام ، فقال قوم هو اسحق واليه ذهب من الصحابة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب ، ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير والقاسم بن أبى برة ومسروق بن الأجدع وعبد الرحمن بن أبى سابط وأبوالهزيل والزهرى والسدى .

روى شعبة عن أبى اسحق عن أبى الأحوص قال : افتخر رجل عند عبدالله بن مسعود قال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله ذاك يوسف بن يعقوب بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله .

وروى سفيان عن زيد بن أسلم عن عبيد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده قال : قال موسى عليه السلام يارب يقولون يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب فلم قالوا ذلك ؟ فقال إن إبراهيم لم يعدل بى شيئا قط إلا اختارنى عليه وإن إسحق جاد لى بالذبح فهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن .

وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال . قال يوسف عليه السلام للملك مصر : أترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب نبىّ الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله . وقال الآخرون هو اسماعيل وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن عمر وأبو الطفيل عامر ابن واثلة وسعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهد وكان الشعبى يقول رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى أنه كان لايشك فى أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم عليه السلام هو إسماعيل وهى رواية عطاء بن أبى رباح عن عبدالله بن عباس قالا المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود .

وروى محمد بن إسحق عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول إن الذى أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه من ابنيه اسماعيل وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى فى قصة الحق عن ابراهيم عليه السلام وما أمر به من ذبح ابنه أنه إسماعيل وذلك أن الله عز وجلّ يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم — وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين — . وقال تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب يقول بابن وابن ابن فلم يكن يأمره بذبح إسحق وله فيه من الله تعالى من الموعود ماوعده وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل قال محمد بن كعب القرظى فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشأم فقال لى عمر إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه وإنى لأراه

كما قلت ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشأم وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال له أيّ ابنى إبراهيم الذى كان أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل ، ثم قال والله ياأمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولـكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى كان أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ماأمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم . وقد روى عن رسول الله ﷺ كلا القولين ولو كان فيهما قول صح بالاجماع لم يعزه أبو عبد الله الى غيره . فأما الرواة التى روت عنه أن الذبيح إسحق فأخبرنى أبوعبدالله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : الذى أراد إبراهيم أن يذبحه إسحق ، وعنه ﷺ أنه قال : الذى فداه الله بذبح عظيم إسحق وأخبرنا ابوعبدالله أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان أخبرنا يوسف بن عبدالله بن ماهان أخبرنا موسى بن إسماعيل أنبأنا المبارك عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ يشفع إسحق بعدى فيقول يارب صدقت نبيك وجدت بنفسى للذبح فلا تدخل النار من يشرك بك شيئا . قال فيقول الله وعزتى لاأدخل النار من لايشرك بى شيئا . وأخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق المزنى قراءة عليه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة أنبأنا جدى أبو بكر بن محمد بن إسحق بن خزيمة امام الأئمة أنبأنا على بن حجر أنبأنا عمر ابن حفص عن أبان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : إن الله خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى وبين أن أختبىء شفاعتى فاخترت شفاعتى ورجوت أن يكون ذلك أعم لأمتى ولولا الذى سبقنى اليه العبد الصالح لتعجلت منها دعوتى وذلك أن الله تعالى لما فرج عن إسحق كرب الذبح قيل له ياإسحق سل تعط فقال أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزغة الشيطان اللهم من مات لايشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة . وأما الرواة التى روت عنه ﷺ أن الذبيح إسماعيل فروى عمر بن عبد الرحمن الخطابى باسناده عن الصباحى . قال كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا أن الذبيح إسماعيل أو إسحق فقال : على الخبير سقطتم كنت عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال يارسول الله أعد علىّ ماأفاء الله عليك ياابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ فقيل ياأمير المؤمنين ومن الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهل الله عليه أمرها ليذبحن أحد ولديه قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ولدك بمائة من الابل ففداه بمائة من الابل والثانى إسماعيل فهذا ماورد من الأخبار وفى القرآن مايدل على صحة كل واحد من القولين فأما الدليل على أنه إسحق فهو أن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام حين فارق قومه مهاجرا الى الشام مع سارة ولوط وقال إنى ذاهب الى ربى سيهدين أنه دعا فقال رب هب لى من الصالحين يعنى ولدا صالحا من الصالحين وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أم إسماعيل ثم أتبع ذلك الخبر عن إجابة دعوته وتبشيره إياه بغلام حليم وعن رؤيا إبراهيم أن يذبح ذلك الغلام الذى بشر به حين

بلغ معه السعى وليس فى القرآن أنه بشر بولد ذكر إلا باسحق . وأما الدليل على انه اسماعيل فما ذكرناه من حديث القرنين وقد صح الخبر أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة الى أن احترق البيت فاحترق القرنان فى أيام ابن الزبير والحجاج وهذا أدل دليل على أن الذبيح إسماعيل .

وأما قصة الذبح وصفته وفعل إبراهيم بابنه عليهما السلام

قال السدى باسناده لما فارق ابراهيم الخليل عليه السلام قومه مهاجرا الى الشام هاربا بدينه كما قال تعالى ـ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ـ دعا الله أن يهب له ابنا صالحا من سارة فقال رب هب لى من الصالحين . فلما نزل به ضيافه من الملائكة المرسلين الى المؤتفكة بشروه بغلام حليم فقال إبراهيم لما بشر به هو إذا لله ذبيح فلما ولد الغلام وبلغ معه السعى قيل له أوف بنذرك الذى نذرت قربانا الى الله تعالى وكان هذا هو السبب فى أمر الله خليله ابراهيم عليه السلام بذبح ابنه فقال ابراهيم عند ذلك لإسحق انطلق نقرب قربانا الى الله تعالى وأخذ سكينا وحبلا ثم انطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال له الغلام يا أبت أين قربانك ؟ فقال يا بنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك أى رأيت لفظه مستقبل ومعناه الماضى فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . قال ابن اسحق كان ابراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويرجع من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعى وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيــه من عبادة ربه وتعظيم حرماته رأى فى المنام أن يذبحه فلما أمر بذلك قال لابنه يا بنىّ خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا الى هذا الشعب لنحتطب فلما خلا ابراهيم بابنه فى شعب ثبير أخبره بما أمر به و ـ قال يا بنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ـ الآية فقال له ابنه الذى أراد أن يذبحه يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن واشحذ شفرتك وأسرع بمرّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىّ فان الموت شديد فاذا أتيت أمى فأقرئها منى الســلام فان رأيت أن ترد قميصى اليها فافعل فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى ، فقال له ابراهيم نعم العون يا بنىّ أنت على ما أمر الله به ففعل إبراهيم ما أمره ابنه ثم إنه أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى حتى استنقع الدموع تحت خده ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم يعمل السكين شيئا . قال السدى وضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال عند ذلك الابن يا أبت كبنى على وجهى فانك إن نظرت الى وجهى رحمتنى وأدركتك علىّ رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل إبراهيم ذلك فذلك قوله تعالى ـ فلما أسلما وتله للجبين ـ ثم انه وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودى يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا الآية هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه فنظر ابراهيم عليه السلام فاذا هو بجبريل عليه السلام ومعه كبش أعين أملح أقرن فــكبر الــكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه فذلك قوله تعالى ـ وفديناه بذبح عظيم ـ قال سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس خرج عليه الــكبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفا . وروى عنه أيضا أن الــكبش الذى فدى به عن ابراهيم عليهما السلام هو الــكبش الذى قربه هابيل بن آدم فتقبل

منه فأرسل ابراهيم ابنه وأخذ الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه فوالذى نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الاسلام وان رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميازيب الكعبة قد وخش يعنى يبس ، وروى عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبيه أنه كان يقول . مافدى إسماعيل إلا بكبش من الأروى أهبط عليه بثبير وهى رواية أبى صالح عن ابن عباس قال كان وعلا .

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن اسحق عن رجال قالوا لما رأى ابراهيم فى المنام أن يذبح ابنه قال الشيطان والله لئن أفتن عند هذا آل ابراهيم والالم أفتن أحدامنهم أبدا فتمثل لهم الشيطان رجلا فأتى أم الغلام فقال لها أتدرين أين ذهب ابراهيم بابنك ؟ قالت ذهب به ليحتطب من هذا الشعب فقال لا والله ماذهب به الاليذبحه قالت كلا هو أرحم به منى وأشد حبا له من ذلك فقال لها إنه يزعم أن الله أمره بذلك ، فقالت له إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه وفى استسلامه لأمر الله تعالى فخرج الشيطان من عندها هاربا حتى أدرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه فقال له ياغلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال لا والله مايريد إلا ذبحك . قال ولم؟ قال يزعم أن الله أمره بذلك . قال له فليفعل ما أمره الله به فسمعا وطاعة لأمر الله تعالى فلما امتنع منه الغلام أقبل على ابراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ ؟ قال أريد هذا الشعب لحاجة لى ، فقال والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح ابنك هذا فعرفه ابراهيم فقال له اليك عنى ياملعون فوالله لأمضين لأمر ربى فرجع ابليس لعنه الله بغيظه لم يصب من ابراهيم وأهله شيئا مما أراد وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن ابراهيم عليه السلام لما أمر بذلك عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه فسبقه ابراهيم عليه السلام ثم ذهب الى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى ابراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى فهذه قصة الذبح . وقال أمية بن أبى الصلت الثقفى فى ذلك شعرا .

ولابراهيم الموفى بنذر ... احتسابا وحامد الاجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه ... ولو رآه فى معشر أقتال
* أبنىّ إنى نذرتك لله ... شحيطا فاصبر فذلك حالى
واشدد العضد عند جبذى للسكين ... جبذ الأسير للأغلال
وله مدية تخايل فى اللحم ... غلاما جبينه كالهلال
بينما يخلع السراويل عنه ... فكه ربه بكبش حلال
فخذن ذا فدى لابنك إنى ... للذى قد فعلتما غير قالى
ربما تجزع النفوس من الأمر ... له فرجة كحل العقال

الباب السابع في هلاك النمروذ بن كنعان وما أحل الله تعالى به من نقمته وقصة الصرح

قال الله تعالى — قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون — .

روت الرواة بأسانيد مختلفة أن أول جبار كان فى الأرض النمروذ بن كنعان وكان الناس يخرجون اليه ويمتارون من عنده الطعام فخرج اليه ابراهيم يمتار مع من يمتار وكان النمروذ إذا مر به الناس قال لهم من ربكم قالوا أنت حتى مرّ به إبراهيم فقال له من ربك قال ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ورد ابراهيم بغير طعام فرجع ابراهيم الى أهله فمر بكثيب أعفر فقال لآخذن من هذا فآتى به أهلى فتطيب به قلوبهم حين أدخل عليهم فأخذ ابراهيم منه فأتى به أهله فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فاذا هو بأجود دقيق رأته فأخذته وصنعت منه طعاما فلما أفاق قدمته اليه وكان عهد أهله أن ليس معهم شىء ولا عندهم طعام فقال لهم من أين هذا ؟ فقالت من الطعام الذى جئت به فعلم ابراهيم أن الله رزقه فحمد الله وشكره ثم إن النمروذ الجبار لما حاجه ابراهيم عليه السلام فى ربه قال ان كان ما يقول ابراهيم حقا فلا أنتهى حتى أعلم من فى السماء فبنى صرحا عظيما عاليا ببابل ورام منه الصعود الى السماء لينظر الى إله ابراهيم فيما يزعم .

قال ابن عباس ووهب : كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال مقاتل وكعب كان طوله فرسخين ثم عمد الى أربعة أفراخ من النسور فعلفها اللحم والخبز ورباها حتى شبت واستفحلت ثم قعد فى تابوت ومعه غلام وقد حمل قوسه ونشابه وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه وبابا من أسفله ثم ربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم على عصا فوق التابوت ثم خلى عن النسور فطارت وصعدت طمعا فى اللحم حتى أبعدت فى الهواء فقال النمروذ لفتاه افتح الباب الأعلى وانظر الى السماء هل قربنا منها ففتح الباب الأعلى ونظر فاذا السماء على هيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل فانظر الى الأرض كيف تراها ففتح فقال أرى الأرض مثل اللحية البيضاء والجبال كالدخان وطارت النسور وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لغلامه افتح البابين ففتح الأعلى فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الأسفل فاذا الأرض سوداء مظلمة ونودى أيها الطاغى الباغى أين تريد . قال عكرمة فأمر عند ذلك غلامه فرمى بسهم فعاد اليه السهم متلطخا بالدم فقال كفيت شغل إله السماء . واختلفوا فى ذلك السهم من أى شىء تلطخ فقال عكرمة من سمكة فى بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض قربت نفسها لله تعالى وقال بعضهم أصاب السهم طائرا من الطير فتلطخ من دمه ثم أمر النمروذ غلامه أن يصوب العصا وينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت أنه أمر حدث فى السماء وأن الساعة قد قامت فذلك قوله تعالى — وقد

مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ـ أى جزاء مكرهم ـ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ـ وقرأعلى وعمرو وابن مسعود وإن كان مكرهم لتذل منه الجبال بالدال ، ثم إن الله تعالى أرسل ريحا على صرح النمروذ فألقت رأسه فى البحر فخر عليهم الباقى وانقلبت بيوتهم وأخـذت النمروذ رعدة وتبلبلت ألسن الناس حين سقط صرح النمروذ من الفزع فتكلموا بثلاث وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل لتبلبل الألسنة فيها فذلك قوله تعالى ـ فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ـ وذلك أن الله تعالى بعث الى النمروذ ملكا أن آمن حتى أتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية . والثالثة فأبى عليه فقال له الملك اجمع جموعك الى ثلاثة أيام فجمع النمروذ جموعه وجنوده فأمر الله تعالى الملك أن يفتح عليه بابا من البعوض ففعل فطلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض فبعثها الله تعالى على النمروذ وقومه فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق منهم إلا العظام والنمروذ كما هو لم يصبه شىء من ذلك فبعث الله اليه بعوضة فدخلت فى منخره حتى وصلت إلى دماغه فمكث أربعمائة سنة تضرب رأسه بالمطارق فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كمدة ملكه ثم إن البعوضة أكلت دماغه وأهلكه الله سبحانه وتعالى وخذله .

الباب الثامن فى ذكر وفاة سارة وهاجر وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده

قال الله تعالى ـ أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته ـ الآية . قال أهل العلم بأخبار الماضين ماتت سارة وهى ابنة مائة وسبع وعشرين سنة بالشام بقرية الجبابرة من أرض كنعان فى جبرون فى مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها وكانت هاجر ماتت قبل سارة بمكة فدفنت فى الحجر فلما ماتت سارة تزوج ابراهيم بامرأة من بعدها من الكنعانيين يقال لها قطور ابنة يقطان فولدت له ستة نفر يقشان وزمران ومدان ومد وأشيق ووشوخ وتزوج أيضا بامرأة أخرى من العرب اسمها حجون بنت أهيب فولدت له خمسة بنين كيسان وفروخ وأهيم ولوطان ونافس فكان جميع بنى ابراهيم مع إسحق وإسماعيل ثلاثة عشر وكان إسماعيل بكره وأكبر أولاده فأنزل إسماعيل بأرض الحجاز وإسحق بأرض الشام وفرق سائر ولده فى البلاد فقالوا لابراهيم ياأبانا أنزلت إسحق معك وإسماعيل بقربك وأمرتنا أن ننزل بأرض الغربة والوحشة قال بذلك أمرت ثم علمهم اسما من اسماء الله تعالى فكانوا يستسقون به ويستنصرون .

الباب التاسع فى ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام

قال أهل التاريخ والسير : لما أراد الله تعالى قبض روح ابراهيم عليه السلام أرسل اليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم قال السدى باسناده وكان ابراهيم كثير الاطعام يطعم الناس ويضيفهم فبينما هو يطعم الناس إذا هو بشيخ كبير يمشى فى الجادة فبعث اليه بحمار فركبه فلما أتاه قدم اليه الطعام فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها فى عينه مرة وفى أذنه مرة ثم اذا

أدخلها فى فيه وحصلت فى جوفة خرجت من دبره وكان إبراهيم قد سأل ربه أن لايقبض روحه حتى يكون هو الذى يسأله الموت ، فقال للشيخ حين رأى حاله مابالك ياشيخ تصنع هكذا ؟ فقال ياابراهيم من الكبر . قال ابن كم أنت ؟ قال كيت وكيت فحسب إبراهيم فوجد عمره يزيد على عمر ابراهيم بسنتين ، فقال له ابراهيم إنما بينى وبينك سنتان فاذا بلغت عمرك صرت مثلك . قال نعم ، فقال ابراهيم اللهم اقبضنى قبل ذلك فقام الشيخ فقبض نفسه وكان الشيخ ملك الموت وكان عمر ابراهيم مائتى سنة وقيل مائة وخمس وتسعون سنة ودفن عندقبرسارة فى مزرعة جبرون .

الباب العاشر فى ذكر خصائص ابراهيم عليه السلام

هو ابراهيم خليل الرحمن قال الله تعالى ــ واتخذ الله ابراهيم خليلا ــ وهو سيد الفتيان روى فى الحديث « أنه قيل للنبى ﷺ ياسيد البشر . قال ذاك ابراهيم » وهو أبو الضيفان وكان لايتغدى ولايتعشى إلا مع ضيف وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا وضيافته قائمة الى يوم القيامة وهى الشجرة المباركة التى قال الله تعالى ــ يوقد من شجرة مباركة ــ الآية وصح أنه دعا الله تعالى أن يجعل النبوّة فى نسله فاستجاب له وجعل النبوّة فى شعبى إسماعيل واسحق عن أنس بن مالك . قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت على ثمانية آلاف نبى أربعة آلاف من بنى اسرائيل » وهو المجعول له لسان الصدق فى الآخرين فليس من نبى تجرى ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضله وتبجله كل أمة غيره وذلك بدعائه عليه السلام ــ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ــ وهو المبتلى بأنواع البلاء والمشهود له بالوفاء قال الله تعالى ــ واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، وقال ــ وابراهيم الذى وفى ــ أى بما أمر به وهو الأمة القانت . قال الله تعالى ــ إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ــ الى آخر الآية ومعنى الأمة أنه كان معلما للخير ، وقداجتمع فيه من خلال الخير وأنواع الفضل مايجمع فى أمة كماقال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

وهو الذى أوتى رشده من قبل بلوغه وهو إمام الموحدين وجعل له لسان الحجة فى التوحيد فدعا الخلق الى الحق بلسان الحجة من صغره الى كبره . قال تعالى ــ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم ــ الآية وأول من سماه الله حنيفا مسلما . قال تعالى ــ ولكن كان حنيفا مسلما ــ وبرأه من دعاوى اليهود والنصارى وشهد له بالاسلام والاخلاص ، فقال تعالى ــ ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ــ الآية وهو أول من اختتن .

قال أبومنصور الحمشارى : حدثنا أبوعباس المعقلى ، أخبرنا عبد الحكيم ، أخبرنا ابن وهب أخبرنا يحيى ابن نصر . قال قرأ علىّ ابن وهب أخبرنا ابن سمعان عن محمد بن المنكدر عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : اختتن ابراهيم عليه السلام بالقدوم وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة .

وأخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه أخبرنا محمد بن مخلد بن جعفر أخبرنا الحسن بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى أخبرنا إسحق بن بشر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس . قال : إن ابراهيم أول من أضاف الضيف وأول من ثرد الثريد وأول من لبس النعلين وأول من قسم الفيء وأول من قاتل بالسيف وأول من اختتن ، واختتن على رأس مائة وعشرين سنة من ميلاده ختن نفسه فى موضع يقال له القدوم بالقدوم وهو الفأس وذلك أنه كان وقع بينه وبين العمالقة وقعة عظيمة فقتل من الفريقين خلق عظيم فلم يعرف ابراهيم أصحابه ليدفنهم فجعل الختان علامة لأهل الاسلام فاختتن يومئذ بالقدوم ، وهو أول من اتخذ السراويل .

أخبرنا الحسن الدينورى أخبرنا أحمد بن شداد بن عمر بن أحمد القطان أخبرنا محمد بن اسماعيل ابن حسان أخبرنا وكيع أخبرنا جرير بن حازم عن واصل مولى ابن عيينة قال : أوحى الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنك أكرم أهل الأرض علىّ فاذا سجدت فلا ترى الأرض عورتك فاتخذ السراويل ، وهو أول من شاب فلما رآه هاله ذلك فقال يارب ماهذا ؟ قال الوقار فقال يارب زدنى وقارا ، وهو أول من أقام المناسك وذلك بدعوته حيث قال ـ وأرنا مناسكنا ـ فاستجيب له ، وهو أول من ضحى وهو الذى بوّأ الله له مكان البيت وأراه ذلك بعد دروسه حتى بناه . قال الله تعالى ـ وإذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت ـ الآية وهو أول من ألقى فى النار فى الله فجعلت النار عليه بردا وسلاما وهو أول نبى أحيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال ـ رب أرنى كيف تحى الموتى ـ الآية وهو الذى كان إذا سافر وتمنى سارة واشتاق اليها رفع الله الحجاب بينه وبينها حتى يراها حيث كان وهو الذى يكسى حلة بيضاء يوم القيامة ويوضع له منبر عن يسار عرش الرحمن . قال النبي عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما » وأول من يكسى ابراهيم خليل الرحمن وهو الكفيل لأطفال المسلمين والقائد لأهل الجنة وهو أول من قص شاربه وأول من قلم أظفاره وأول من استحد وأول من نتف الابط وأول من استاك وأول من فرق شعره وأول من تمضمض وأول من استنشق وأول من استنجى بالماء وأول من هاجر لله . قال الله تعالى ـ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر الى ربى ـ وجعل مقامه قبلة للناس . قال الله تعالى ـ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ـ وجعله إماما للناس . قال الله تعالى ـ إنى جاعلك للناس إماما ـ . وقال تعالى ـ قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم ـ وأمر محمدا خير الأنبياء وأمته خير الأمم باتباع ملته . قال تعالى ـ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ـ وقال ـ قل بل ملة ابراهيم حنيفا ـ وسماه حليما منيبا أوّاها . قال تعالى ـ إن ابراهيم لحليم أوّاه منيب ـ الحليم السيد الذى يملك نفسه عند الغضب ، والأوّاه الذى يكثر التأوه عند ذكر الذنوب ، والمنيب المقبل بقلبه الى ربه فهذه ست واربعون خصلة من خصاله التى أكرمه الله بها .

ويروى أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم : ياابراهيم إنك لما سلمت مالك الى الضيفان وابنك الى القربان ونفسك الى النيران وقلبك الى الرحمن اتخذناك خليلا .

وروى أبو إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى . قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله تعالى ؟ قال مائة صحيفة وأربعة كتب ، أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان . قال فقلت يارسول الله فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال كانت امثالا كلها أيها الملك المبتلى المسلط المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لاأردّها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال ، على العاقل مالم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال والحرام فى المطعم والمشرب وغيرهما ، وعلى العاقل أن لايكون ظاعنا إلا فى ثلاث . تزود لمعاده ومؤنة لمعاشه ولذة فى غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لايعنيه والله عن كل محذور يغنيه .

مجلس فى ذكر بعض أخبار إسماعيل واسحق ابنى ابراهيم عليهم السلام

وقد ذكرنا سير ابراهيم الخليل بابنه إسماعيل وهاجر الى مكة وإسكانه اياهما بها ولما كبر اسماعيل وبلغ النكاح تزوج امرأة من جرهم فكان من أمرها ماقدمنا ذكره ثم طلقها بأمر أبيه ثم تزوج بامرأة أخرى يقال لها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى وهى التى قال لها ابراهيم حين قدم مكة اذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك فولدت السيدة لإسماعيل اثنى عشر رجلا نابتا وقيذار واديبل وبسام ومسمع وذوما ومسا وحرا وفيما وبطور ونافس وقيدما ومن نابت وقيذار ابنى اسماعيل نشر الله تعالى العرب ثم نبأ الله تعالى اسماعيل فبعثه الى العماليق وقبائل اليمن فلما حضرت اسماعيل الوفاة أوصى الى أخيه اسحق أن يزوج ابنته من عيص بن اسحق وعاش اسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر .

وروى عمر بن عبدالعزيز أنه قال : شكا اسماعيل إلى ربه تعالى حر مكة فأوحى الله تعالى اليه انى فاتح لك بابا من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة وفى ذلك المكان دفن .

وأما حديث اسحق عليه السلام فانه نكح رفقا بنت بتويل فولدت له عيصا ويعقوب بعد ما مضى من عمره ستون سنة ولهما قصة عجيبة على ماذكره السدى قال : حملت رفقا فى بطن واحد بغلامين فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان فى بطنها فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص فقال عيص والله لئن خرجت قبلى لأعترضنّ فى بطن أمى فأقتلها فتأخر يعقوب وخرج عيص قبله فسمى عيصا لأنه عصى فخرج قبل يعقوب وسمى الآخر يعقوب لأنه خرج آخرا بعقب عيص وكان يعقوب أكبرهما فى البطن ولكن عيصا خرج قبله فلما كبر الغلامان كان عيص أحبهما إلى أبيه ويعقوب أحبهما إلى أمه وكان

عيص صاحب صيد ، فلما كبر اسحاق وعمى قال لعيص يابنى أطعمنى لحم صيد واقترب منى أدع لك بدعاء دعالى به أبى وكان عيص رجلا أشعر ويعقوب رجل أجرد فخرج عيص يطلب الصيد فسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب يابنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة واشوها والبس جلدها ثم قدمها الى أبيك وقل له أنا ابنك عيص ففعل ذلك وأتى الى أبيه وقال يا أبتاه كل فقال من أنت قال أنا عيص فمسه وقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب فقالت له امرأته هو ابنك عيص فادع له فقال قدم طعامك فقدمه فأكل منه ثم قال له ادن منى فدنا منه فدعا له أن يجعل فى ذريته الأنبياء والملوك ثم قام يعقوب من عنده وجاء عيص بعده فقال يا أبت قد جئتك بالصيد الذى أردته فقال يابنى قد سبقك أخوك يعقوب فغضب عيص وقال والله لأقتلنه فقال يابنى قد بقيت لك دعوة فهلم أدع لك بها فتقدم اليه فدعا له فقال أن تكون ذريتك عدد التراب ولا يملكهم أحد غيرهم ثم ان أم يعقوب قالت ليعقوب الحق بخالك فكن عنده خشية عليه أن يقتله عيص فانطلق يعقوب الى خاله وكان يسير فى الليل ويكمن فى النهار فلذلك سماه الله اسرائيل ، وهو أول من سرى بالليل فأتى يعقوب الى خاله وكان اسحق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله ليان بن ناهر وان يعقوب لما مكث عند خاله فخطب ابنته راحيل وكان له ابنتان ليا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى فقال له هل لك من مال فأزوجك عليه فقال لا لكن أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك فقال له ان صداقها أن تخدمنى سبع حجج فقال يعقوب تزوجنى راحيل لأنها أصغر ولأجلها أخدمك فقال له خاله ذلك بينى وبينك فرعى له يعقوب سبع سنين فلما وفى له شرطه دفع له ابنته الكبرى ليا وأدخلها عليه ليلا فلما أصبح وجد غير ما شرط فجاءه يعقوب وهو فى ناد من قومه . فقال له غررتنى وخدعتنى واستحللت عملى سبع سنين ودلست على غير امرأتى فقال له خاله يا ابن أختى أردت أن لا يدخل على فى ذلك العار وألبسه وأنا خالك ووالدك متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى فهلم فاخدمنى سبع سنين أخرى حتى أزوجك الأخرى وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين الى أن بعث موسى وأنزلت التوراة فرعى له يعقوب سبع سنين أخرى فدفع اليه راحيل فولدت له ليا أربعة أسباط : روبيل وكان أكبرهم ، ويهوذا وشمعون ولاوى ، وولدت له راحيل : يوسف وبنيامين وهو بالعربية شداد ، وانما سمى بنيامين لأن أمه راحيل ماتت فى نفاسها ويامين بالعربية الشكل وكان ليان دفع الى ابنتيه حين جهزهما الى يعقوب أمتين يقال لاحداها زلفة وللأخرى بلهة فوطىء الأمتين يعقوب فولدت كل واحدة منهما ثلاثة أسباط فولدت زلفة ليعقوب دان ونفتالى وروبالون ، وولدت له بلهة جاد ويشجر وآشر فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا : اثنان من راحيل ، وأربعة من ليا ، وثلاثة من زلفة وثلاثة من بلهة ، وهم الذين سماهم الله تعالى الأسباط وسموا بذلك لأن كل واحد منهم ولد قبيلة والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان ، والأسباط من بنى اسرائيل كالشعوب من العجم والقبائل من العرب ، ثم ان يعقوب فارق خاله ليان وانصرف بولده وامرأتيه وجاريتيه المذكورات الى منزل أبيه من فلسطين على

تخوف شديد من أخيه عيص فلم يرمنه الاخيرا فنازل أخاه وتألفه وتلطفه حتى ترك له البلاد وتنقل فى الشام وصار الى السواحل ثم عبر الى الروم فاستوطنها فصار ذلك له ولولده من بعده .

وقال ابن اسحق : تزوج عيص بن اسحق بنت عمه نسيمة بنت اسماعيل بن ابراهيم فولدت له الروم بن عيص فكل بنى الأصفر من ولده وكان عيص فيما يذكر يسمى آدم لأدمته ولذلك سمى ولده بنى الأصفر قالوا : وعاش اسحق بعد ماولد له عيص ويعقوب مائة سنة وتوفى وله مائة وسبعون سنة ودفنه أبناؤه عند قبر أبيه ابراهيم عليهما السلام فى مزرعة جبرون والله أعلم .

مجلس فى قصة لوط عليه الصلاة والسلام

وهو لوط بن هاران بن تارح ابن أخى ابراهيم عليه السلام، وانما سمى لوطا لأن حبه لاط بقلب ابراهيم عليه السلام أى تعلق به ولصق ، ومنه حديث أبى بكر رضى الله عنه حين ذكر عمر اللهم غفرا لولا ذاك ألوط أى ألصق بالقلب وكان ابراهيم يحبه حبا شديدا . وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء وذكر وهب فى البتدإ له أنه شخص من أرض بابل مع عمه ابراهيم مؤمنا به متبعا له على دينه مهاجرا معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور وشخص معه تارح أبو ابراهيم مخالفا لابراهيم فى دينه ومقيما على كفره إلى أن وصلوا إلى حران ومكثوا بها فمات تارح وهو آزر أبو ابراهيم بحران على كفره وشخص ابراهيم ولوط وسارة إلى الشام ثم مضوا إلى مصر فوجدوا بها فرعون من فراعنتها يقال له سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام فرجعوا عودا إلى أرض الشام فنزل ابراهيم فلسطين وأنزل لوطا الأردن فبعثه الله تعالى الى أرض سدوم وما يليها وكانوا أهل كفر بالله وركوب فواحش كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى — أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون — قال عمرو بن دينار ما كان يرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال تعالى — أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر — فكان قطعهم السبيل فيما ذكر أهل التأويل أن اتيانهم الفاحشة مع من ورد بلدهم واتيانهم المنكر فى ناديهم قال المفسرون هو أنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم على الطريق فيحذفون من مر بهم ويتضارطون فى مجالسهم وينكح بعضهم بعضا فى الطريق . وقال مجاهد كانوا يجامعون الرجال فى مجالسهم على الطريق .

وروى أبو صالح عن أم هانىء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مر بهم ويسخرون به وهو المنكر الذى كانوا يأتونه ، وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويدعوهم الى عبادة الله تعالى ويتوعدهم على اصرارهم على ماهم عليه ويأمرهم بالتوبة منه ويخوفهم من العذاب الأليم فلا يزجرهم عن ذلك وعده ولا يزيدهم وعظه إلا تماديا وعتوا واستعجالا بعذاب الله تعالى وانكارا وتكذيبا ويقولون له — ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين — حتى سأل لوط ربه

أن ينصره عليهم فقال رب انصرني على القوم المفسدين ـ فأجاب الله دعاءه وبعث جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام لاهلاكهم وبشارة ابراهيم عليه السلام بالولد فأقبلوا مشاة في صورة رجال مرد حسان حتى نزلوا على ابراهيم عليه السلام فتضيفوه وبشروه باسحق وقد مضت القصة فلما فرغوا من ذلك وأخبروا ابراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط ناظرهم ابراهيم وحاجهم في ذلك كما قال الله تعالى ـ فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ـ وكان جداله إياهم على ما ذكر ابن عباس وغيره أنهم لما قالوا له إنا مهلكوا أهل هذه القرية . قال لهم أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن قالوا لا : قال أفتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن. قالوا لا : قال أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن . قالوا لا: قال أفتهلكون قرية فيها مائة مؤمن قالوا لا : قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا قالوا لا : قال أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنا ؟ قالوا لا : وكان ابراهيم يعدّهم أربعة عشر بامرأة لوط فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وروى سعيد عن ابن عباس قال : قال الملك لابراهيم ان كان فيهم خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . فلما عرف ابراهيم حال قوم لوط . قال للرسل : ان فيها لوطا قالها إشفاقا منه عليه . فقالت له الرسل : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته .

قال قتادة في هذه الآية لا ترى المؤمن ، ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم فلما انتهوا اليها لقوا لوطا في أرض له يعمل فيها قال قتادة راويا عن حذيفة أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فأتوه فقالوا إنا متضيفوك الليلة فانطلق بهم فلما مشى ساعة التفت لهم وقال أوما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية في الأرض وما أعلم على وجه الأرض أناسا أخبث منهم قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله وعلم لوط أنه سيحتاج الى المدافعة عن أضيافه وخاف عليهم من قومه فذلك قوله تعالى ـ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ـ أي شديد .

قال السدي باسناده : لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا سدوم لقوا ابنت لوط تستسقي الماء لأهلها ، وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والأخرى غيثا . فقالوا لها ياجارية هل من منزل ؟ قالت نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم ففزعت عليهم من قومها ثم أتت أباها فقالت يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالا وقالوا له خل عنا فلنضيف الرجال فذلك قوله تعالى ـ أولم ننهك عن العالمين ـ فجاء بهم لوط الى منزله ما يعلم بهم أحد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها بذلك وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم حسنا قط . قال ابو حمزة الثمالي : بلغنا أن العلم الذي كان بين امرأة لوط وقومه إذا أتتهم الضيفان يقول رسولها هيئوا لنا ملحا تدعوهم بذلك الى الفاحشة بأضياف لوط فبلغنا أن الله تعالى مسخها ملحا قالوا فلما أخبرت امرأة لوط

قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يهرعون اليه أى يسرعون ويهرولون فلما أتوه قال لهم لوط ياقوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد وقال لهم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم — قالوا أولم ننهك عن العالمين — أن تضيف الرجال وقالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد — فلما لم يقبلوا منه ماعرض عليهم قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد — قالوا فما بعث الله نبيا بعده إلا فى شرف من قومه ومنعة من عشيرته وقال ﷺ لما قرأ هذه الآية رحم الله أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد قال ابن عباس وغيره وغلق بابه والملائكة معه فى الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور الدار فلما رأت الملائكة مالقى لوط من الكرب والنصب والتعب بسببهم قالوا له — يالوط ان ركنك لشديد وانهم آتيهم عذاب غير مردود إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل — الآية ثم قالوا له افتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحيه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضا وقدماه الى الخضرة فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فذلك قوله تعالى — ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم — الآية فصاروا لايعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ثم انهم انصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء ان فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض وقالوا للوط جئتنا بقوم سحرة سحرونا كن كما كنت حتى نصبح يتوعدونه فلما علم لوط أن أضيافه رسل ربه وانهم أرسلوا بهلاك قومه قال لهم أهلكوهم الساعة . فقال له جبريل : — إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب — ثم أمره أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته . فلما كان السحر خرج لوط وأهل بيته ومعه امرأته فذلك قوله تعالى — إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا — كذلك نجزى من شكر — . فلما أصبحوا أدخل جبريل جناحه تحت أرضهم فاقتلع قرى قوم لوط الأربع ، وكان فى كل قرية مائة ألف فرفعهم على جناحه بين السماء والأرض حتى سمع أهل سماء الدنيا صياح ديوكهم ونباح كلابهم ثم كفأها وقلبها فجعل عاليها سافلها كما قال الله تعالى — فجعلنا عاليها سافلها ثم أتبع شاردهم ومسافرهم بالحجارة فذلك قوله تعالى — وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد — أى ممن يفعل كفعلهم .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرى أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى أخبرنا اسحق بن بشر أخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « انى لأسمع العواصف والقواصف من الرعد فأخشى أنها الحجارة التى أعدت لقوم لوط أو من يفعل بفعلهم » وأخبرنا ابو بكر بن محمد بن أحمد بن عقيل القطان أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور أخبرنا ابو حاتم الرازى أخبرنا ابو اليمان الحكم بن نافع الحمصى عن صفوان بن عمرو قال : كنت عند عبد الملك بن مروان

إلى أن أتى شعيب قاضي حمص وكان رجلا عالما فسأله عقوبة اللوطى ، قال أن يرموه بالحجارة كما رجم قوم لوط ، فان الله تعالى قال ـ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ـ وقال تعالى ـ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ـ فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه ، قالوا وكان الرجل منهم يتحدث فى قريته التى يكون فيها فيأتيه الحجر فيقتله . قال وسمعت امرأة لوط الهدة فالتفتت وقالت واقوماه فأدركها حجر فقتلها ، فذلك قوله تعالى ـ إلا امرأته كانت من الغابرين ـ أى الباقين فى العذاب وقال تعالى ـ إنه مصيبها ما أصابهم ـ الآية .

أخبرنا الحسين بن محمدبن الحسين أخبرنا موسى بن محمدبن على أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى قال أخبرنا المسيب قال سمعت أباروق يقول الا امرأته كانت من الغابرين أى خلقت فمسخت حجرا وكانت تسمى هلسفع وقال غيره اسمها واعلة ، قالوا وكانت قرى قوم لوط خمسا سدوم وعامورا ودومة وساعورا ، فأما سدوم فهى القرية العظمى وكان فى هذه القرية أربعة آلاف فاحتملها جبريل على جناحه فقلبها فلذلك سميت المؤتفكات : أى المنقلبات ، وأما القرية الخامسة فانها تسمى صفرة ونجت من العذاب لأن أهلها آمنوا بلوط .

وروى أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام : ان الله تعالى سماك بأسماء ففسرها لى ، قال وصفك فى قوله تعالى ـ ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ـ فأخبرنى عن قوتك ؟ قال يامحمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء حتى سمعت ملائكة سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهرا لبطن ، قال فأخبرنى عن قوله تعالى مطاع ؟ قال إن رضوان خازن الجنان ومالكا خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها قال فأخبرنى عن قوله تعالى أمين ؟ قال إن الله تعالى أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيرى .

أخبرنا عبد الله بن الحسين بن محمد الثقفى أخبرنا أبو عثمان بن أحمد بن سمعان البزارى أخبرنا عبد الله بن قحطبة أخبرنا ياسر بن ثوبة أخبرنا محمد بن راموز أخبرنا أبو بكر بن عياش قال : سألت أبا جعفر أعذب الله النساء من قوم لوط بعمل رجالهم ؟ فقال الله تعالى أعدل من ذلك بل استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فوجب عليهم العذاب جميعا .

أخبرنا ابن فتحويه أخبرنا مخلد بن جعفر أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى أخبرنا اسحق بن بشر حدثنى مقاتل بن سليمان قال : قلت لمجاهد ياأبا الحجاج هل بقى من قوم لوط أحد ؟ قال لالا الا رجل بقى اربعين يوما وكان بمكة فجاءه حجر ليصيبه فى الحرم ، فقام اليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر ارجع من حيث جئت فان الرجل فى حرم الله ، فوقف الحجر خارج الحرم اربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته ، فلما خرج اصابه الحجر خارج الحرم فقتله . عن مقاتل عن ابى نضرة عن ابى سعيد قال ماعمل ذلك قوم لوط انما كانوا ثلاثين رجلا ونيفا لايبلغون

الأربعين فأهلكهم الله جميعا وقال رسول الله ﷺ « لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو لتعمنكم العقوبة جميعا » .

مجلس فى قصة يوسف بن يعقوب واخوته عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى ـ نحن نقص عليك أحسن القصص ـ الآية قال سعد بن ابى وقاص قالت الصحابة لرسول الله ﷺ : لو حدثتنا . قال فأنزل الله تعالى ـ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ـ الآية ، فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن ـ الآية فدلهم الله تعالى فى هذه الآية على احسن القصص . واختلف العلماء فى سبب تسمية الله تعالى قصة يوسف عليه السلام من بين الأقاصيص احسن القصص ، فقال بعض اهل المعانى معنى الآية قصة حسنة لفظه نفظ المبالغة وحكمه حكم الصفة كقوله تعالى ـ وهو أهون عليه ـ قال الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه اعز واطول

اراد عزيزة طويلة ، واجراه الباقون على الظاهر فقالوا هى احسن القصص ، ثم اختلفوا فى وجهها ، فروى مقاتل عن سعيد بن جبير قال : اجتمع اصحاب رسول الله ﷺ إلى سلمان الفارسى فقالوا ياسلمان حدثنا عن التوراة بأحسن مافيها ، فأنزل الله تعالى ـ نحن نقص عليك أحسن القصص يعنى أن قصص القرآن أحسن مما فى التوراة وقيل سمى الله هذه القصة أحسن القصص لأنها ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ماتضمنت هذه القصة ولذلك قال الله تعالى ـ لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين ـ وقال تعالى ـ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ـ وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجازاة يوسف إخوته وصبره على أذاهم وإغضائه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه معه وكرمه فى العفو عنهم حيث قال ـ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ـ وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والانعام والطير وسير الملوك والمماليك والعلماء والتجار والعقلاء والجهلاء وحال الرجال والنساء ومكرهن وحيلهن ، وفيها أيضا ذكر العفة والتوحيد وعلم السير وتعبير الرؤيا وآداب السياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعانى الجزيلة والفوائد الجليلة التى تصلح للدين والدنيا وتجمع خيرى الدنيا والعقبى ، قال أهل الاشارة سماها الله أحسن القصص لما فيها من ذكر المحب والمحبوب .

الباب الأول فى ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام

هو يوسف الصديق ابن يعقوب الصفى ابن اسحق الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليهم السلام بذلك سماه رسول الله ﷺ كريما وآباءه كرماء . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول

الله ﷺ « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلوات الله عليهم » واختلفوا فى معنى اسم يوسف فقال أكثر الفقهاء هو اسم عبرى فلذلك لايجرى ، وقال بعضهم هو اسم عربى سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبى يقول سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيما فسئل عن يوسف ، فقال الأسف فى اللغة الحزن والأسيف العبد واجتمعا فيه فلذلك سمى يوسف .

الباب الثانى فى صفة يوسف عليه الصلاة والسلام وحيلته ونعت خلقه وصفة صورته

قال الله تعالى ـ فلما رأينه أكبرنه ـ الآية .

أخبرنا أبو عبدالله الثقفى أخبرنا عمر بن احمد بن عثمان اخبرنا محمدبن محمد بن سليمان اخبرنا محمد بن حميد الرازى اخبرنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق عن روح بن القاسم قال : حدثنى عمارة عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى إلى السماء فرأيت يوسف ، فقلت ياجبريل من هذا ؟ فقال هذا يوسف ، قالوا فكيف رأيته يارسول الله ؟ قال كالقمر ليلة البدر » واخبرنى الحسن بن محمد اخبرنا احمد بن جعفر بن حمدان أخبرنا حامد ابن سعدان اخبرنا أبى اخبرنا يعقوب اخبرنا الوليد بن مسلم عن ثابت عن انس قال : قال رسول الله ﷺ « اعطى وأمه شطر الحسن » وعن ابى اسحق بن عبدالله بن ابى فروة قال : كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران . قال كعب الأحبار : إن الله تعالى مثل لآدم ذرّيته بمنزلة الذرّ ، فأراه الأنبياء عليهم السلام نبيا نبيا وأراه فى الطبقة السادسة يوسف متوجا بتاج الوقار متزرا بحلة الشرف مرتديا برداء الكرامة مقمصا بقميص البهاء ، وفى يده قضيب الملك ، وعن يمينه سبعون ألف ملك وعن يساره سبعون ألف ملك ، ومن خلفه أمم الأنبياء لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، وبين يديه شجرة السعادة تزول معه حيثما زال وتحول معه حيثما حال ، فلما رآه آدم قال إلهى من هذا الكريم الذى أبحت له بحبوحة الكرامة ورفعته الدرجة العالية ، قال يا آدم هذا ابنك المحسود على ما آتيته ، يا آدم انحله ، قال آدم قد أنحلته ثلثى حسن ذرّيتى ، ثم ان آدم ضمّ يوسف إلى صدره وقبله بين عينيه ، وقال يابنىّ لاتأسف فأنت يوسف ، فأول من سماه يوسف آدم ، فقسم الله تعالى ليوسف من الجمال الثلثين وقسم بين العباد الثلث وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى بيده وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية وقد كان الله أعطى آدم الحسن والجمال والبهاء يوم خلقه ، فلما عصى نزع ذلك منه وأعطاه يوسف عليه السلام ، ثم لما تاب عليه وهبه ثلث الجمال الذى كان انتزعه منه ، وذلك ان الله تعالى أحبّ أن يرى العباد أنه قادر على مايشاء ، فأعطى يوسف من الحسن والجمال ما لم يعطه أحدا من الناس ، ثم اعطاه العلم بتأويل الرؤيا ، وكان يخبر بالأمر الذى يرى فى المنام أنه سيكون كذا وكذا من قبل أن يكون ذلك الأمر علمه الله ذلك كما علم الأسماء كلها لآدم ، فكان حسن يوسف كضوء النهار وكان

يوسف أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلقة غليظ الساقين والعضدين والساعدين خميص البطن أقنى الأنف صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود وكان ذلك الخال يزين وجهه ، وكان بين عينيه شامة بيضاء كأنها القمر ليلة البدر وكانت أهداب عينيه تشبه قوادم النسور ، وكان إذا تبسم رؤي النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه لايقدر بنو آدم ولا أحد على وصف يوسف عليه الصلاة والسلام ، ويقال انه ورث الحسن من جده اسحق بن ابراهيم ، وكان أحسن الناس واسحق هو الضاحك بالعبرانية ، وهو ورث الحسن من أمه سارة ، فان الله تعالى صورها على صورة الحور العين ولكن لم يعطها صفاءهن ، وأعطى يوسف من الحسن والجمال وصفاء اللون ونقاء البشرة ما لم يعطه أحدا من العالمين ، وانه كان ليأكل البقول والفواكه فترى حين يزدردها فى حلقه وفى صدره حتى تصل إلى بطنه وورثت سارة الحسن من جدتها حواء .

وقال وهب : الحسن عشرة أجزاء ليوسف تسعة وواحد بين سائر الناس .

وعن عبدالله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال « هبط جبريل عليه السلام فقال يامحمد إن الله تعالى يقول لك كسوت حسن يوسف من نور الكرسى وكسوت وجهك من نور عرشى » وقيل لبعض الحكماء أيوسف أحسن أم محمد ؟ فقال كان يوسف من أحسن الناس ومحمد ﷺ أحسن الناس ، ويدل عليه حديث جابر بن عبد الله قال : نظرت إلى رسول الله ﷺ وعليه حلة حمراء ونظرت إلى القمر ليلة البدر فهو أحسن فى عينى من القمر .

القول فى القصة

قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين : كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام وبدء محبة يعقوب له وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة فى صحن داره ، فكان كلما ولد له ولد أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصنا ، فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ ، فاذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه اليه فولد له عشرة بنين فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان ، فلما ولد له يوسف لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئا ، فلما كبر وشب قال لأبيه : يانبي الله انه ليس أحد من إخوتى إلا وله غصن إلا أنا فادع الله تعالى أن يخصنى بغصن من الجنة ، فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال اللهم إنى أسألك أن تهب ليوسف غصنا من الجنة يفتخر به على جميع إخوته ، فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر فقال ليوسف خذ هذا فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع اخوته ، قال فرأى يوسف فيما يرى النائم وهو إذ ذاك صبي كأن قضيبه غرس فى الأرض فعلق وتدلت أغصانه وأثمر من كل ثمرة ، ثم أتى بأغصان اخوته فغرست حوله فلم تعلق ولم تفرع ولم تثمر ، واذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها ، فلم يزل يتعالى فى السماء ويطول حتى طال على أغصان اخوته ،

ثم هبت الريح فاقتلعت أغصان اخوته من أصولها وألقتها فى البحر ونبت غصن يوسف فى الأرض قائما ، فانتبه فزعا مرعوبا ، فقال له ابوه: ماالذى دهاك يابنى ، فقص عليه رؤياه فبلغ اخوته ، فقالوا ياابن راحيل لقد رأيت عجبا يوشك أن تدعى أنك مولانا ونحن عبيدك فشق عليهم رؤياه وحسدوه بعض الحسد . قال وهب رأى يوسف هـذه الرؤيا يعنى الغصن وهو ابن سبع سنين ، ثم انه رأى وهو ابن اثنتى عشرة سنة الرؤيا التى قصها الله علينا فى كتابه اذ قال تعالى — إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا — الآية وكان ينومه إلى جانبه فبينما يوسف نائم عند أبيه ليلةمن الليالى اذ رأى الرؤيا التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز وكانت ليلة الجمعة فانتبه من منامه فزعا مرعوبا فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه وقال ياحبيب أبيه ما الذى أصابك ؟ فقال ياأبت رأيت رؤيا أفزعتنى . فقال يابنى خيرا رأيت ، ما الذى رأيت ؟ قال يوسف : رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقـد أشرق منها النور فاستنارت النجوم وأشرقت الجبال وزخرت البحار وعلت أمواجها وسبحت الحيتان بأنواع اللغات ورأيت كأنى ألبست رداء أشرقت الأرض من حسنه ونوره ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدى : فبينما أنا كذلك إذ رأيت أحد عشر كوكبا انقضت من السماء ومعها الشمس والقمر فخروا لى ساجدين فقال يعقوب — يابنى لاتقصص رؤياك على اخوتك — الآية ، ثم عبر رؤياه فقال — وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث — الآية ، قال فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لهـا يعقوب اكتمى ماقال يوسف ولا تخبرى أولادى بذلك فقالت نعم ، فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم أخبرتهم بالرؤيا التى أمرها يعقوب بكتمها فانتفخت أوداجهم واقشعرت جلودهم غضبا على يوسف وقالوا ماعنى بالشمس غير أبينا ولا بالقمر غيرك ولا بالـكواكب غيرنا ، ثم قالوا ان ابن راحيل يريد أن يتملك علينا فيقول أنا سيدكم وأنتم عبيدى فحسدوه على ذلك فلذلك قيل فى الحكمة : لاتأمنن قارئا على صحيفة ولا شابا على امرأة ولا امرأة على سر .

وروى الحـكم بن ظهيرة عن اسماعيل السدى عن عبدالرحمن عن جابر بن عبدالله قال : جاء رجل من اليهود يقال له نستار إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أخـبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له ماأسماؤها ؟ فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه بشىء حتى نزل جبريل عليه السلام فأخـبره باسمائها فأرسل إلى اليهودىّ ودعاه وقال له ان أخبرتك بأسمائها أتسلم ؟ قال نعم . فقال له : جريان والطارق والذيال وذوالـكتفين والفرغ ووثاب وعمودان وقابس والمصبح والفليق والضروح ، رآها يوسف فى أفق السماء ساجدة له ، فلما قص رؤياه على ابيه قال ارى شيئا مشتتا ويجمعه الله لك ، فقال اليهودى هذه والله اسماؤها ويقال كان بين رؤيا يوسف فى الغصن ورؤياه فى الـكواكب سبع سنين ، فلما كان من امر رؤيا يوسف ما كان وانضاف إلى ذلك تخصيص ابيه

يعقوب إياه بالمحبة والقربة حسده اخوته وحملهم الحسدعلى أن تآمروا بينهم فى ان يفرقوا بينه وبين أبيه بضرب من الاحتيال ويهلكوه فيما بينهم كما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى ــ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفى ضلال مبين ــ أى خطإ بين فى إيثاره يوسف وأخاه علينا اقتلو يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماصالحين أى تائبين فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب. قال قائل منهم وهويهوذا وكان أفضلهم واعقلهم : لاتقتلوا يوسف فان القتل عظيم وألقوه فى غيابة الجب وهو البئر غير المطوية يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين . قيل للحسن أيحسد المؤمن ؟ فقال للسائل ماأنساك بنى يعقوب ولهذا قيل : الأب جلاب والأخ سلاب ، فعند ذلك أجمعوا رأيهم ان يدخلوا على يعقوب ويكلموه فى إرسال يوسف معهم إلى البرية ، فقال لهم روبيل وهو أكبر ولد يعقوب ان أباكم لايأمنكم على يوسف ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف حتى نلعب بين يديه فاذا نظر الينا كيف نمرح ونلعب اشتاق إلى ذلك ، فأقبلوا على يوسف وهو قاعد يسبح فجعلوا يتلاعبون ويتضاحكون بين يديه ، فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى اللعب معهم فأقبل عليهم وقال يااخوتاه أهكذا تلعبون فى مراعيكم ؟ فقالو نعم يايوسف انك لورأيتنا ونحن نلعب فى مراعينا لتمنيت ان تكون معنا فشوقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب اليهم ، فقال لهم ياإخوتاه انطلقوا إلى أبى واسألوه ان يرسلنى معكم فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه صفا وكانوا يفعلون هكذا إذا أرادوا ان يسألوه حاجة فلما رآهم بين يديه وقوفاصفوفا قال لهم ماحاجتكم ؟ قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون ، نحوطه ونحفظه حتى نرده اليك أرسله معنا غدا يرتع ويلعب فى الصحراء وانا له لحافظون فقال لهم يعقوب انى ليحزننى ان تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون لاتشعرون بذلك . قال ابن عباس وغيره انما قال ذلك يعقوب لأنه رأى فى منامه كأن يوسف على رأس جبل وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه واذا ذئب منها يحمى عنه وكأن الأرض قد انشقت فدخل فيهايوسف فلم يخرج منها الا بعد ثلاثة أيام فلما رأى يعقوب هذهالرؤياخاف على يوسف من الذئب فلذلك قال لهمواخاف ان يأكله الذئب.

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنحويه اخبرنا عبدالله بن شبة اخبرنا ابو نعيم وعبدالرحمن بن قريش اخبرنا محمد بن عمرو بن الحكم الهروى اخبرنا مالك بن سليمان القروى أخبرنا عبيد الله بن عمر العمرى عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لاتلقنوا الناس الكذب فيكذبوا فان بنى يعقوب لم يعلموا ان الذئب يأكل الانسان حتى لقنهم ابوهم ، فلما لقنهم وقال انى أخاف ان يأكله الذئب قالوا أكله الذئب فقال بنوه لئن أكله الذئب ونحن عصبة اى عشرة رجال انا إذا لخاسرون عجزة مغلوبون ، ثم قالوا يانبى الله كيف يأكله الذئب وفينا شمعون ذا غضب لا يسكن غضبه حتى يصيح فاذا صاح لا تسمعه حامل الا وضعت ما فى بطنها ، وفينا يهوذا إذا غضب شق السبع نصفين ، فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأن اليهم وأقبل يوسف حتى وقف بين يدى أبيه ثم قال له ياابت

أرسلني معهم قال أوتحب ذلك يابني ؟ قال نعم قال اذا كان غدا أذنت لك في ذلك ، فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقته وأخذ قضيبه وخرج مع اخوته ثم عمد يعقوب إلى السلة التي حمل فيها إبراهيم ، زاد اسحق فحمل فيها زادا ليوسف وخرج ليشيعهم فقالوا يانبي الله ارجع فقال يعقوب يابني أوصيكم بتقوى الله وبحبيبي يوسف أسألكم بالله ان جاع فأطعموه وان عطش فاسقوه وقوموا عليه ولا تتعبوه ولا تخذلوه وكونوا متواصلين متراحمين . قالوا نعم ياأبانا كلنا لك وله وهو أخونا كأحدنا بل له الفضل علينا بحبك إياه فقال نعم يابني ، الله خليفتي عليكم مع أني خائف أن أكون قد ضيعته ، ثم انه أقبل على يوسف فالتزمه وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ، ثم قال استودعتك الله رب العالمين وانصرف راجعا .

وروى السدي ورجاء عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبي ﷺ واسحق بن بشر بن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ومقاتل عن ابن بحيرة عن كعب الأحبار عن سعيد بن أبي عروبة عن الحسن دخل كلام بعضهم في بعض قالوا أرسل يعقوب يوسف مع اخوته فأخرجوه مظهرين له الكرامة ، فلما برزوا به الى البرية أظهروا له العداوة وضربوه ، فجعل يستغيث بهم واحدا بعد واحد وهم يضربونه فلا يرى منهم رحيما وأخذوا ما كان زوده يعقوب وأطعموه الكلاب وضربوه حتى كادوا يقتلونه وعطش عطشا شديدا ، فقال لهم اسقوني جرعة من ماء قبل أن تقتلوني فلم يسقوه ، فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف ، فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه جعل يصيح ويقول يا أبتاه يايعقوب لو تعلم ماتصنع بابنك بنو الآباء فلما هموا بقتله قال لهم يهوذا وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأيا أليس انكم قد أعطيتموني موثقا أن لا تقتلوه فعند ذلك أجمعوا على القائه في الجب كما قال الله تعالى ـ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ـ فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه وكان ذلك الجب في الأردن بين مدين ومصر وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق في واد من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وكانت بئرا وحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها لا يمكنه الصعود وكان ماؤها ملحا وكان الجب من حفر سام بن نوح ويسمى جب الأحزان ، فلما أرادوا أن يلقوه فيه جعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه ، فقال يا إخوتاه ردوا علي قميصي أستر به عورتي ويكون لي كفنا بعد مماتي وأطلقوا يدي أطرد بهما عني هوام الجب ، فقالوا له ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تلبسك وتؤنسك فدلوه في البئر بحبل ، فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل ليسقط فيموت فيه فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة ململمة لينة ورفعها إلى يوسف فوقف عليها وجعل يوسف يبكي فنادوه فظن أنها رحمة لحقتهم فأجابهم فهموا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه فمنعهم يهوذا وقال لقد أعطيتموني موثقا أن لا تقتلوه ، قالوا فلما ألقي يوسف في الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب وبعث الله تعالى اليه ملكا فحل عنه قيده وكان ابراهيم حين ألقي في النار جرد من ثيابه وقذف

فى النار عريانا فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه وكان ذلك القميص عند ابراهيم ، فلما مات ابراهيم ورثه اسحق ، فلما مات اسحق ورثه يعقوب منه ، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذ وعلقه فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه ، فلما ألقى فى الجب عريانا جاءه الملك وكان عليه التعويذ فأخرج القميص وألبسه إياه وجعل يؤنسه بالنهار .

ويروى : ان الملك أتاه بسفرجلة من الجنة فأطعمه إياها ، فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب فقال له يوسف انك إذا خرجت عنى أستوحش فقال له الملك قل إذا هبت شيئا يا صريخ المستصرخين ياغياث المستغيثين يامفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعرف حالى ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، فلما دعا يوسف بهذا الدعاء بعث الله اليه سبعين ملكا فحفوا به وآنسوه فى البئر ثلاثة أيام ،فلما كان فى اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال ياغلام من طرحك ههنا فى هذا الجب ؟ قال اخوتى لأبى . قال ولم ؟ قال حسدونى على منزلتى من أبى . قال أتحب أن تخرج من هذا الجب ؟ قال نعم . قال قل ياصانع كل مصنوع وياجابر كل مكسور وياحاضر كل ملأ وياشاهد كل نجوى وياقريبا غير بعيد ويامؤنس كل وحيد وياغالبا غير مغلوب وياعلام الغيوب وياحيا لايموت ويامحيي الموتى لااله إلا أنت سبحانك أسألك يامن له الحمد يابديع السموات والأرض . يامالك الملك ويإذا الجلال والاكرام أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأن تجعل لى من أمرى ومن ضيقى فرجا ومخرجا وترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لاأحتسب فقالها يوسف فجعل الله له من الجب مخرجا ومن كيد اخوته فرجا وآتاه ملك مصر من حيث لايحتسب وأوحى الله اليه وهو فى البئر لتنبئن إخوتك بما عملوا وهم لايعلمون أنك يوسف فذلك قوله تعالى ـ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ـ .

وقال مجاهد : خرج يوسف من عند يعقوب وهو ابن ست سنين لم يثغر وجمع الله بينهما وهو ابن أربعين سنة .

أخبرنا أبو عبدالله الدينورى أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصرى أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى أخبرنا عمران القزاز ، أخبرنا عبدالوارث أخبرنا يونس عن الحسن قال ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وكان فى العبودية والملك والسجن ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثمانية وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وخمس وعشرين سنة . رجعنا الى قصة يوسف عليه السلام واخوته بعدما ألقى فى الجب فلما ألقوه فى الجب عمدوا إلى سخلة من الغنم فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها ، ثم انهم رجعوا إلى يعقوب وهو قاعد على قارعة الطريق ينتظرهم متى يأتون بيوسف ، فلما دنوا منه اصطرخوا صراخ رجل واحد ورفعوا أصواتهم بالبكاء فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة ، فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه وشقوا جيوبهم وبكوا ففزع

يعقوب وقال مالكم يابنى وأين يوسف قالوا يا أبانا إناذهبنا نستبق أى ننتضل وكذلك هو فى قراءة عبدالله — وتركنايوسف عندمتاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولوكناصادقين — وهـذا قميصه ملطخ بدمه ، فذلك قوله تعالى — وجاءوا أباهم عشاء يبكون — وانما فعلواذلك ليكونوا فى الظلمة أجرأ على الاعتذار وتزوير مامكروا ، فقدقالوا : لاتطلب الحاجة فى الليل فان الحياء فى العينين ولاتعتذر بالنهار من قبح فعلك فتتلجلج فى الاعتذار فلاتقدر على اتمامه .

وروى الشعبى : قال جاءت امرأة إلى شريح فجعلت تبكى ، فقال رجل ألاترى إلى هذه المرأة المسكينة كيف تبكى فقال شريح قدجاء اخوة يوسف عشاء يبكون ثم إنه أنشد فى معناه :

أغرك من شيخ بكاء وملقه ... أم اللحية البيضاء للنتف مطلقه

فان بنى يعقوب جاءوا أباهم ... عشاء وهم يبكون زوراومخرقه

قال فلماقالوا — يا أبانا إناذهبنا نستبق — اى ننتضل وتركنا يوسف عندمتاعنا فأكله الذئب الآية إلى قوله — بدم كذب — لأنه لم يكن دم يوسف وانما كان دم شاة . وقرأت عائشة بدم كدب بدال غير معجمة أى طرى . فلما قالوا ذلك ليعقوب بكى بكاء شـديدا وقال لهم أرونى قميصه فأروه . فقال تالله مارأيت كاليوم ولاذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يشق له جيبا ولاخرق له شقا وصاح صيحة وخرمغشيا عليه فلم يفق الابعد ساعة طويلة فلما أفاق بكى بكاء شديدا ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله ويضعه على وجهه وعينيه .

أخبرنا ابن فتحويه أخبرنا أحمدبن ابراهيم بن شاذان أخبرنا عبيدالله بن ثابت أخـبرنا أبوسعيد الأشج أخـبرنا أسامة حدثنى زكريا عن سماك عن الشعبى قال : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات لما جاءوا به الى أبيـه فقالوا أكله الذئب فقال أبوه لئن أكله الذئب ليشقن قميصه وحـين سعى نحو الباب فشقت قميصه من خلف فعرف الوزير انه لوكان هوالذى راودها لـكان الشق من بين يديه وحين ألقى على وجهه فارتد بصيرا

قالوا فلما أصبح إخوة يوسف من الغد رجعوا الى مراعيهم فقال بعضهم لبعض قد رأيتم ما كان من تـكذيب أبيكم البارحة فان أردتم أن يصدقـكم ويخرجكم من الملامة ، فمروا بناعلى الجب فنخرج يوسف منه ونفرق بين أضلاعه ولحمه ونجيء به فقال لهم يهوذا يا اخوتاه أين العهد الذى بينى وبينكم والله لئن فعلتم ماتقولون لأخبرن يعقوب بما كان منكم اليه ، ثم لأكونن لـكم عدوا مابقيت فتركوه ثم انهم رجعوا الى أبيهم عشاء فقال لهم يعقوب ان كنتم صادقين ان الذئب أكله فأين الذئب ائتونى به فعمدوا الى حبالهم وعصيهم فأخذوها ومضوا الى الصحراء فاصطادوا ذئبا وشدوه وأوثقوه كتافا ثم حملوه الى يعقوب وأوقفوه بين يديه فقال حلواعقاله فحلوه فقال له يعقوب أقبل فأقبل الذئب يتخطى القوم حتى وقف بين يدى يعقوب منـكسارأسه فقال له يعقوب : أيها الذئب أكلت ولدى وقرة عينى وحبيب قلبى وثمرة فؤادى لقدأورثتنى حزناطويلا وألماعظيما قال فتـكلم الذئب وقال لا وحق شيبتك

يانبى الله ما أكلت لك ولدا وإن لحومكم ودماءكم معشر الأنبياء لمحرمة علينا وإنى لمظلوم مكذوب علىّ وإنى لذئب غريب من بلاد مصر فقال له يعقوب وما أدخلك أرض كنعان قال جئت لأجل قرابة لى من الذئاب أزورهم وأصلهم فعند ذلك قال يعقوب لأولاده ـ بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ـ وهو الذى لا جزع فيه ولاشكوى ـ والله المستعان على ماتصفون ـ .

قال ابن عباس إنما كان سبب بلاء يعقوب أنه ذبح شاة وهو صائم فاستطعمه جار له فلم يطعمه فابتلاه الله تعالى بأمر يوسف قال فمكث يوسف فى الجب ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ودعا بالدعاء الذى علمه جبريل عليه السلام جاءت سيارة أى رفقة مارة من قبل مدين تريد مصر فأخطؤا الطريق وضلوا عنها حتى نزلوا قريبا من الجب قال وكان الجب فى قفر بعيد من العمران وإنما هو للرعاة والمجتازة وكان ماؤه مالحا فعذب حين ألقى فيه يوسف ، فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلا من العرب من أهل مدين يقال له مالك بن دعر ليطلب لهم ماء فذلك قوله تعالى ـ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ـ قالوا والوارد الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيهيء الأرشية والدلاء فوصل الوارد الى البئر فأدلى دلوه أى أرسلها فتعلق يوسف بالحبل ، فلما وصل الى فم البئر ورآه مالك بن دعر فرأى أحسن مايكون من الغلمان . فقال مالك يابشراى هذا غلام يبشر أصحابه أنه اصاب عبدا وأسروه بضاعة قال المفسرون أسرّ مالك بن دعر واصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم وقالوا لهم هو بضاعة استبضعناها من بعض الناس الى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة ان علموا حاله . قال وكان يهوذا يأتى يوسف بالطعام كل يوم سرا من اخوته فأتاه ذلك اليوم كما كان يفعل فلم يجده فى البئر فنظر فاذا هو بمالك وأصحابه نزولا ويوسف معهم فرجع يهوذا وأخبر إخوته بذلك فأتوا الى مالك وقالوا له هـذا عبدنا أبق منا . وكتم يوسف حاله مخافة ان يقتلوه فقال مالك انا أشتريه منكم فباعوه منه فـذلك قوله تعـالى ـ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ـ أى باعوه بثمن ناقص ظلم حرام . لأن ثمن الحرّ حرام ثم بين الثمن فقال دراهم معدودة وإنما قال ذلك لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لايزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهما إنما كانوا يعدونها عـدا فاذا بلغ أوقيـة وزنوه لأن اقل اوزانهم واصغرها يومئذ أوقية أربعون درهما .

واختلف العلماء فى عدد الدراهم التى باعوا بها يوسف فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدى : عشرون درهما واقتسموها بينهم درهمين درهمين وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما وقال عكرمة اربعون درهما . وإنما باعوه بهذا القدر لأنهم كانوا فيه من الزاهدين لم يعلموا كرامته على الله ولا منزلته عند الله . ويقال ان السبب فى استرقاق يوسف وبيعهم إياه ان ابراهيم دخل مصر فى بعض الأزمنة فلما خرج منها شيعه زهادهم وعبادهم حفاة مشاة الى اربعة فراسخ تعظيما له وإجلالا ولم يترجل لهم ابراهيم فأوحى الله اليه انك لم تنزل لعبادى وهم يمشون معك حفاة لأعاقبنك بأن يباع

وله من أولادك فى هذه المدينة . ثم ان مالك بن دعر انطلق هو وأصحابه بيوسف ومعهم اخوته يقولون لهم استوثقوا منه فانه آبق سارق كاذب وقد برئنا اليكم من عيوبه فحمله مالك على ناقة له وساروا به الى مصر وكان طريقهم على قبر أمه ، فلما رأى قبر أمه لم يتمالك ان رمى نفسه عن الناقة الى القبر وهو يقول ياأمى ياراحيل حلى عنك عقدة الردى وارفعى رأسك من الثرى وانظرى الى ولدك يوسف ومالقى بعدك من البلاء ، ياأماه لو رأيت ضعفى وذلى لرحمتينى ، ياأماه لو رأيتينى وقد نزعوا قميصى وشدونى وفى الجب ألقونى وعلى حر وجهى لطمونى ، وبالحجارة رجمونى ولم يرحمونى وكما تباع العبيد باعونى وكما يحمل الأسير حملونى .

قال كعب الأحبار : فسمع يوسف مناديا من خلفه وهو يقول اصبر وما صبرك الا بالله . قال فافتقده مالك على الناقة التى كان عليها فلم يجده فصاح فى القافلة ألا ان الغلام قد رجع الى أهله فطلب القوم يوسف فرأوه فأقبل عليه رجل منهم فقال ياغلام قد خبرنا مواليك بأنك آبق سارق فلم نصدق حتى رأيناك تفعل ذلك ، فقال والله ماأبقت ولكنكم مررتم على قبر أمى فلم أتمالك أن رميت نفسى على قبرها . قال : فرفع مالك بن دعر يده ولطم حر وجهه وجره حتى حمله على ناقته . ويروى أنهم قيدوه فذهبوا به حتى قدموا مصر . قال مالك مانزلت منزلا ولا ارتحلت إلا استبان لى بركة يوسف وكنت أسمع تسليم الملائكة عليه صباحا ومساء وكنت أنظر إلى غمامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه اذا سار وتقف على رأسه اذا وقف ، فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر ان يغتسل فاغتسل وألبسه ثوبا حسنا وعرضه للبيع فاشتراه قطفير بن رحيب وهو العزيز بمصر ونواحيها وكان على خزائن الملك الأعظم وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام . ويروى ان هذا الملك ما مات حتى آمن بيوسف وتبعه على دينه ، ثم مات ويوسف حى ، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان كافرا فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى ان يسلم .

قال ابن عباس لما دخلوا مصر تلقى قطفير السيارة وابتاع يوسف من مالك بن دعر بعشرين دينارا وزوج نعال وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه : قدمت السيارة الى مصر فدخلوا بيوسف الى السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وورقا وحريرا فابتاعه قطفير بهذا الثمن من مالك فلما اشتراه أتى به منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . واسمها راعيل بنت رعيائيل قاله إسحق بن يسار .

وأخبرنى ابن فنجويه أخبرنا ابن أبى شيبة أخبرنا أبو حامد السيلمى أخبرنا أبو هاشم الرفاعى . قال اسم امرأة العزيز بكا بنت فيوش ، قالوا فقال لها أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه

ولدا نتبناه . وقال ابن إسحق كان قطفير لا يأتى النساء وكانت امرأته راعيل حسناء ناعمة فى ملك ودنيا .

أخبرنا أبوبكر الجوزقى أخبرنا أبو العباس الدعولى بسرخين أخبرنا علىّ بن الحسين الهلالى أخبرنا أبو نعيم أخبرنا زهيرعن ابن إسحق عن أبى عبيد عن عبدالله بن مسعود . قال : أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف وقال لامرأته أكرمى مثواه. والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبوبكر حين استخلف عمر . قال الله تعالى ـ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ـ يعنى أرض مصر قال أهل الكتاب لما تم ليوسف فى الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر وجعله على خزائنه فذلك قوله تعالى ـ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ـ الآية قالوا فلما أتى العزيز بيوسف إلى منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه فتأملته امرأة العزيز ورأت حسنه وجماله وقع حبه فى قلبها وعشقته فراودته أى طلبت منه متابعتها على هواها وذلك قوله تعالى ـ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ـ أى هلم تدعوه إلى نفسها فقال يوسف عند ذلك معاذالله إنه ربى أحسن مثواى يعنى زوجك قطفير سيدى إنه أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون يعنى ان فعلت هذا فخنته فى أهله بعد ما أكرمنى وائتمننى فأنا ظالم له ولا يفلح الظالمون قال الله تعالى ـ ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ـ ومعنى الهم بالشىء ماحدّث المرء به نفسه ولم يفعل ذلك بعد . قال الشاعر :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى   تركت على عثمان تبكى حلائله

أما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به فاختلف أهل العلم فى ذلك قال السدى وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسة وتشوّقه الى نفسها فقالت له يايوسف ما أحسن شعرك ، قال : هو أول شىء ينتثر من جسدى قالت : يايوسف ما احسن عينيك قال هما اول مايسيل فى الأرض من جسدى قالت : ما احسن وجهك قال التراب يأكله فلم تزل تأمره مرة وتعظمه أخرى وتدعوه الى اللذة وهو شاب مستقبل مجد شبق الشباب وهى حسناء جميلة حتى لان لهـا لمـا يرى من كلفها به ولم يتخوّف منها حتى خلوا فى بعض البيوت وهمّ بها .

وروى إسحق بن يسار عن جويبر عن الضحاك ومقاتل جميعا عن ابن عباس فما كان من محاورتهما قال : قالت يايوسف ما احسن شعرك قال هو اوّل شىء يبلى إذا مت قالت يايوسف ما احسن وجهك قال ربى تعالى صورنى فى الرحم قالت يايوسف قد أنحلت جسمى بصورة وجهك قال : الشيطان يعينك على ذلك قالت يايوسف الجنينة قد التهبت نارا قم فأطفئها فقال ان اطفأتها فمنها احتراقى قالت يا يوسف الجنينة قد عطشت قم فاسقها قال من كان المفتاح بيده فهو احق ان يسقيها منى قالت يايوسف بساط الحرير قد بسط لك قم فاقض حاجتى قال : إذا يذهب نصيبى من

الجنة قالت يا يوسف ادخل معى تحت الستر فأسترك به قال ليس شىء يسترنى من ربى تعالى ان عصيته قالت يايوسف ضع يدك على صدرى تشفنى بذلك قال سيدى أحق بذلك منى قالت أما سيدك فأسقيه كأسا فيه زئبق الذهب فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه ، ثم ألقيه فى استبرق وألقيه فى القيطون يعنى المخدع لا يعلم به أحد من الناس وأوليك ملكه قليله وكثيره . قال . فان الجزاء يوم الجزاء قالت يايوسف إنى كثيرة الدرّ والياقوت والزمرد فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه فى مرضاة سيدك الذى فى السماء فأبى يوسف .

قال ابن عباس فجرى الشيطان فيما بينهما فضرب باحدى يديه الى جنب يوسف وباليد الأخرى الى جنب المرأة حتى جمع بينهما قال ابن عباس فبلغ من هم يوسف الى أن حل الهميان وجلس منها مجلس الرجل الخائن .

وروى جابر عن الضحاك عن ابن عباس ، همت بيوسف أن يفترشها ، وهمّ بها . يعنى تمناها أن تكون له زوجة .

وأما البرهان الذى رآه يوسف . وكان سبب العصمة وصرف الفاحشة عنه فاختلفوا فيه .

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الطبرانى أخبرنا حسن بن عطية عن إسرائيل ابن أبى حسين عن أبى سعيد قال ابن عباس فى قوله تعالى ـ لولا أن رآى برهان ربه ـ قال مثل له يعقوب فضربه بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقال الحسن ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على أصبعه قال فكل بنى يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا إلا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولدا من أجل مانقص من شهوته حين رأى صورة أبيه فاستحيا منه . وقال قتادة رأى صورة يعقوب فقال له يعقوب يايوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء .

وقال السدى نودى يا يوسف لاتواقعها إنما مثلك مالم تواقعها مثل الطير فى جوّ السماء لايطاق ومثلك إن واقعتها مثله إذا مات ووقع فى الأرض لايقدر أن يدفع عن نفسه ، ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لايعمل عليه ، ومثلك ان واقعتها مثل الثور الذى يموت فيدخل النمل فى أصل قرنيه فلايستطيع أن يدفع عن نفسه .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الأصفهانى أخبرنا أحمد بن محمد بن يزيد السكونى أخبرنا محمد ابن ابراهيم بن خالد بن عمر بن حفص البصرى ببغداد أخبرنا خالد بن يزيد البصرى أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى ـ ولقد همت به وهم بها ـ فقد حل سراويله وقعد منها مقعد الرجل من المرأة فاذا بكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها ـ وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ـ فقام هاربا فارا ، فلما ذهب عنهما الروع والرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذا الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها ـ

واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ـ الآية . فقام هاربا وقامت ، فلماذهب عنها الرعب عادت وعاد فلماقعد منها مقعد الرجل من امرأته إذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولامعصم مكتوب فيها ـ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ـ فقام هاربا وقامت فلماذهب عنهما الرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله تعالى لجبريل عليه السلام ياجبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على أصابعه أو كفه وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله فى الأنبياء قال الله تعالى ـ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ـ .

أخبرنا يعقوب بن أحمد أخبرنا محمد بن عبد الله النعمانى أخبرنا عبد الله بن أحمد بن عامر الطبرستانى حدثنى أبى قال حدثنى على بن موسى الرضا حدثنى أبى عن أبيه جعفر بن محمد الصادق حدثنى أبى عن أبيه عن على بن الحسين فى قوله تعالى ـ لولا أن رأى برهان ربه ـ قال قامت امرأة العزيز إلى الصنم فظللت دونه بثوب قال فقال لها يوسف ماهذا ؟ قالت أستحي أن يرانا فقال لها يوسف أتستحيين ممن لايسمع ولايبصر ولايفقه ولاأستحى أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها . قالوا فلما رأى يوسف البرهان قام مبادرا إلى باب البيت هاربا مما أرادته فاتبعته المرأة فذلك قوله تعالى ـ واستبقا الباب ـ يعنى تبادر يوسف وراعيل إلى الباب أما يوسف ففرارا من ركوب الفاحشة وأما المرأة فطلبا ليوسف ليقضى حاجتها التى راودته عنها ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته اليها مانعة له من الخروج فقدت : أى خرقت وشقت قميصه من دبر أى من خلفه لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة فلما خرجا ألفياسيدها لدى الباب أى وجدا زوجها قطفير عند الباب جالسامع ابن عم لراعيل ، فلما رأته هابته وقالت سابقة بالقول لزوجها ماجزاء من أراد بأهلك سوءا يعنى الزنا الا أن يسجن أو عذاب أليم يعنى الضرب بالسياط .

عن ابن عباس : وهذا كالمثل السائر خذ اللص قبل أن يأخذك فقال يوسف بل هى راودتنى عن نفسى فأبيت وفررت منها فأدركتنى وشقت قميصى قال نوف الشامى ما كان يوسف يريد أن يذكرها فلماقالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا غضب وقال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها . واختلفوا فى هذا الشاهد من هو ؟

قال سعد بن جبير والضحاك : كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ، يدل عليه حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال تكلم أربعة فى المهد وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج الراهب وعيسى بن مريم وقال الحسن وعكرمة وقتادة ما كان صبيا ولكن كان رجلا حكيما وله رأى وكان من خاصة الملك . وقال السدى هو ابن عم راعيل كان جالسا مع زوجها على الباب فحكم بما أخبر الله تعالى عنه ـ ان كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قدّ من دبر ـ

عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام فقال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ثم أقبل على يوسف فقال يايوسف أعرض عن هذا الحديث لاتذكره لأحد . ثم قال لامرأته ـ واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين ـ أى من المذنبين حين راودت شابا عن نفسه وخنت زوجك فلما استعصم كذبت عليه .

قالوا فشاع امر يوسف وراعيل وتحدث الناس بذلك وقال نسوة فى المدينة وهن امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواة وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه أى عبدها الكنعانى قد شغفها حبا اى دخل حبه فى شغاف قلبها وهو حجابه وغلافه انا لنراها فى ضلال مبين اى خطأ بين حيث تراود عبدها عن نفسه ، فلما سمعت راعيل بمكرهن أى بقولهن وحديثهن ، وقال ابن اسحق يعنى بكيدهن وذلك انما قلنه مكرا بها لتريهن يوسف لما بلغهن من حسنه وجماله فاتخذت راعيل مائدة ودعت اربعين امرأة منهن هؤلاء اللواتى عيرنها فذلك قوله تعالى ـ وأرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ ـ اعتدت اى هيأت لهن مجلسا للطعام ومايتكئن عليه من النمارق والوسائد .

عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة يعنى هيأت طعاما ، وقرأ مجاهد متكا خفيفا غير مهموز وهو كل طعام تحزه بالسكين ، وقال وهب أعتدت لهن اترجا وبطيخا وموزا ورمانا ووردا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت ليوسف اخرج عليهن وكانت قد اجلسته فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه جلوس فخرج عليهن يوسف فلما رأينه اكبرنه وهالهن امره وبهتن وقطعن ايديهن بالسكاكين اللاتى معهن وهن يحسبن انهن يقطعن الأترج وغيره .

قال قتادة أبن ايديهن حتى القينها فما احسن الا بالدم ولم يجدن من حز الأيدى ألما لشغل قلوبهن بيوسف عليه السلام .

وقال وهب : بلغنى ان سبعا من الأربعين امرأة متن فى ذلك المجلس وجدا بيوسف عليه السلام وقلن حاش لله اى معاذ الله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ، فقالت راعيل عند ذلك للنسوة فذلكن الذى لمتننى فيه اى فى حبه وشغفى به ثم انها ابدت لهن الميل الذى عندها فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم اى امتنع واستعصى ، فقالت النسوة ليوسف أطع مولاتك فقالت راعيل لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ، فاختار يوسف حين عاودته المرأة فى المراودة وتوعدته بالسجن على المخالفة فقال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه وإلا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن اى امل واتابعهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم ثم بدالهم اى العزيز واصحابه من بعد مارأوا الآيات الدالة على براءة يوسف وهو قد القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة ايديهن ليسجننه حتى حين .

قال السدى : وذلك أن المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يعتذر اليهم

ويخبرهم أني راودته عن نفسه ولست أطيق أن أعتذر بعذر ، فاما أن تأذن لي أخرج فأعتذر وإما أن تحبسه كما حبستني فحبسه بعد علمه ببراءته دفعا للتهمة عن امرأته ، وذلك ان الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه وتكفيرا لزلته . قال ابن عباس عثر يوسف ثلاث عثرات : حين همّ بها فسجن ، وحين قال اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين . وحين قال لاخوته إنكم لسارقون قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . ولما سجن يوسف دخل معه السجن فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن الريان ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه واسمه مجلب والآخر ساقيه وصاحب شرابه واسمه بيوص ، غضب عليهما الملك فحبسهما ، وذلك انه بلغه عنهما ان خبازه يريد ان يسمه وأن ساقيه وافقه على ذلك ، وكان السبب فيه ان جماعة من مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فدسوا إلى هذين الغلامين وضمنوا لهما مالا ليسما الطعام للملك والشراب فأجاباهم إلى ذلك ، ثم ان الساقي نكل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام ، فلما حضر وقته وأحضر الطعام قال الساقي أيها الملك لا تأكل فان الطعام مسموم ، وقال الخباز لا تشرب لأن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقي اشرب فشرب فلم يضره ، فقال للخباز كل من طعامك فأبى ، فجرب ذلك الطعام في دابة من الدواب فأكلته فهلكت ، فأمر الملك بحبسهما ، وكان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله اني أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم نجرب علم هذا العبد العبراني فنتراءى له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا . قال عبدالله بن مسعود ما رأى صاحبا يوسف شيئا وانما كانا تحالما ليجربا علمه ، وقال قوم بل كانت رؤياهما على صحة وحقيقة فسألاه عنها ، وقال مجاهد لما رأى الفتيان يوسف قالا له والله لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما الله تعالى لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء ، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبها بلاء ، فلا تحباني بارك الله فيكما قال فأبيا الاحبه وألفاه حيث كان وجعل يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله وقد كانا رأيا حين دخل السجن رؤيا فأتيا يوسف فقال الساقي أيها العالم اني رأيت كأني في بستان فاذا أنا بأصل كرمة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها ، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها وسقيت الملك شربة فذلك قوله تعالى — قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا — يعني عنبا بلغة عمان يدل عليه قراءة ابن مسعود أعصر خمرا اي عنبا ، وقال الخباز إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .

أخبرنا ابوبكر محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن عقيل اخبرنا عبيدالله بن محمد بن ابراهيم بن قالويه اخبرنا محمد بن يزيد السلمي اخبرنا ابوالربيع الزهراني اخبرنا خلف بن خليفة اخبرنا سليم عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى — إنا نراك من المحسنين — قال كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه فاذا ضاق عليه وسع له وان احتاج جمع له وسأل ربه ، وقال قتادة بلغنا ان احسانه كان يداوي مريضهم ويعزي حزينهم ويجتهد لربه ، وقال لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد

انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا ان فى هذا الأجر ثوابا ، فقالوا يافتى بارك الله فيك ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك ، انا لانحب أن نكون فى غير هذا المكان منذ رأيناك لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة فى ذلك فمن أنت يافتى ؟ قال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم عليهم السلام فقال له عامل السجن والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك وأحسن إيثارك فكن فى أى بيت شئت قال فكره يوسف أن يعبر لهما ماسألاه لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض يوسف عن سؤالهما وأخذ فى غيره ، قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما فقالا له هذا فعل الكهنة والسحرة ، فقال ما أنا بكاهن ولا ساحر ولكن ذلكما مما علمنى ربى ثم بين لهما دينه ومذهبه فقال ــ إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحق ويعقوب ــ الخ الآية ، فأراهما يوسف فطنته ودرايته ثم دعاهما إلى الاسلام وأقبل عليهما وعلى أهل السجن وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال الزاما للحجة ــ ياصاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ماتعبدون من دونه ــ الآية ، ثم فسر رؤياهما لما ألحا عليه فقال ياصاحبي السجن أما أحدكما وهو الساقى فيسقى ربه خمرا يعنى الملك ويعود إلى منزلته التى كان عليها ، وأما العناقيد الثلاثة فانها ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يخرج ، وأما الآخر فيصلب والسلال التى رآها فى المنام ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يخرج فيصلب فتأكل الطير من رأسه .

قال ابن مسعود : ثم لما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا مارأينا شيئا انما كنا نلعب ونجرب علمك هذا ، فقال يوسف قضى الأمر الذى فيه تستفتيان اى فرغ الأمر الذى عنه تسألان .

أخبرنا عبدالله بن حامد بن محمد بن الوزان أخبرنا محمد بن عبدالله الصفار أخبرنا أحمد بن مهران عن أبى رزين العقيلى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فاذا عبرت وقعت وان الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة واحسبه قال لاتقصها إلا على ذى رأى وعقل » وقال ﷺ « الرؤيا لأول عابر » فقال يوسف عليه السلام عند ذلك للذى علم أنه ناج منهما وهو الساقى اذكرنى عند ربك يعنى الملك وقل له فى السجن غلام محبوس ظلما ــ فأنساه الشيطان ذكر ربه ــ الآية ، والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة وأكثر المفسرين على ان البضع فى هذه الآية سبع سنين .

وقال وهب بن منبه أصاب أيوب البلاء سبع سنين وعذب بختنصر بالمسخ سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين .

وروى يونس عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله أخى يوسف لولا كلمته مالبث فى السجن مالبث » يعنى قوله اذكرنى عند ربك ثم بكى .

وقال الحسن : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك ، فقيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك ، فبكى يوسف وقال: يارب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت ماقلت فويل لاخوتى.

ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى السجن ، فلما رآه يوسف عرفه وقال يا أخا المنذرين مالى أراك بين المخطئين ؟ فقال له جبريل عليه السلام ياطاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام ربّ العالمين ويقول لك ما استحييت منى ان استشفعت بالآدميين فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، قال يوسف يا أخى ياجبريل وهو فى ذلك راض عنى ؟ قال نعم . قال : إذا لا أبالى ،

وقال كعب الأحبار : قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول لك من خلقك ؟ قال الله تعالى ، قال فمن حببك إلى أبيك ؟ قال الله تعالى ، قال فمن آنسك فى البئر وألبسك وأنت عريان ؟ قال الله تعالى ، قال فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال الله تعالى . قال فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال الله تعالى قال فكيف استغثت بآدمى مثلك ؟ قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي وهذه السبع سوى الخمس التى كانت قبلها . وذلك أنه حبس خمس سنين قبل أن يستشفع بالساقى وهو قوله تعالى ـ ليسجننه حتى حين ـ فلما استشفع بالساقى وقال له اذكرنى عند ربك بقى فى السجن سبع سنين ، فلما انتهت محنته ودنا فرجه وراحته رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجيبة فهالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس. وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان فدخلت فى بطونهن فلم ير منها شيئا ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت . وسبعا أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها . فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم وقال يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون : أى تفسرون قالوا أضغاث أحلام مخلطة مشتبهة التأويل أباطيل وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما : اى من الفتيين وهو الساقى . وادّكر بعد أمة اى وتذكر حاجة يوسف بعد حين قال ابن عباس بعد أمة اى بعد سنين انا أنبئكم بتأويله فأرسلون أى الى السجن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن السجن فى المدينة . فبعثوه فأتى ليوسف فقال له : أيها الصديق يعنى فيما عبرت لنا من الرؤيا . والصديق هو كثير الصدق . أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف إلى قوله لعلهم يعلمون : أى فضلك وعلمك . فقال له يوسف تزرعون سبع سنين دأبا إلى قوله وفيه يعصرون . فرجع الساقى الى الملك واخبره بما افتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار . وعرف الملك ان الذى قال كائن . فقال الملك ائتونى بالذى عبر رؤياى هذه . فلما جاء الرسول إلى يوسف أبى ان يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قبل النسوة . فقال للرسول ارجع إلى ربك : أى سيدك الملك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ إن ربى بكيدهن عليم .

قال ابن عباس : لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك شأنه مازالت فى نفسه منه حاجة يقول هو هذا الذى راود امرأتى . وقال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من أخى يوسف وكرمه وصبره والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبث لأسرعت الاجابة وبادرت الباب ولم أبتغ العذر والله إنه كان حليما ذا أناة » قال فرجع الرسول الى الملك من عند يوسف برسالته ، فدعا الملك النسوة اللاتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، فلما سمع ذلك يوسف قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وان الله لايهدى كيد الخائنين ، فقال له جبريل ولا حين هممت بها يايوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك وما أبرىء نفسى الآية ، فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف امانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال ائتونى به أستخلصه لنفسى . فلما جاء الرسول إلى يوسف قال له اجب الملك الآن . فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف الى اليوم وذلك أنه قال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولاتعم عنهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم فى كل بلدة . فلما خرج يوسف من السجن كتب على بابه هـذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعـداء . ثم انه اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا حسانا وقصد إلى الملك . قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى حسبى ربى من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره . فلما دخل على الملك قال اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره . فلما نظر اليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان ؟ قال لسان عمى اسماعيل ، ثم انه دعا له بالعبرانية ثانيا فقال له الملك ماهذا اللسان ؟ قال لسان أبى يعقوب . قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلما يوسف بلسان أجابه بذلك اللسان . فأعجب الملك مارأى منه وكان يوسف ابن ثلاثين سنة فلما رأى الملك حداثة سنه وغزارة علمه قال لمن عنده : إن هذا علم تأويل رؤياى ولم تعلمه الكهنة والسحرة ، ثم إنه أجلسه وقال له انى أحب أن أسمع رؤياى منك شفاها ، فقال يوسف نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن نهر النيل ، فطلعن عليك من شاطئه تشخب اخلافهن لبنا ، فبينا أنت كذلك تنظر اليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا قعره ، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن انياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع ، فاختلطن بالسمان وافترسنهن افتراس السباع وأكلن لحمهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ، ومششن مخهن ، فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن

ولا زيادة بعد أكلهن إذا سبع سنبلات خضر وسبع أخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء ، فبينما أنت تقول فى نفسك ماهذا هؤلاء خضرمثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الماء إذ هبت ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر المثمرات فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سودا متغيرات فهذا آخرمارأيت من الرؤيا ، ثم انك انتبهت مذعورا فقال له الملك : والله ماشأن هذه الرؤيا وإن كانت عجبا بأعجب مما سمعته منك ، فما ترى فى رؤياى أيها الصديق ، فقال يوسف الصديق : إنى أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وتبنى الأهرام والخزائن وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ويكون قصبه وسنبله علفا للدواب ، وتأمرالناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها ، ثم تأتيك الخلق من جميع النواحى فيمتارون منك بحكمك فيجتمع عندك من الكنوز مالايجتمع لأحدقبلك ، فقال له الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى الشغل فيه ؟ فقال له يوسف اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم : اى كاتب حاسب ، وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة وبلغة من يأتينى ، فقال له الملك ومن أحق به منك وولاه ذلك كله وقال له إنك اليوم لدينا مكين أمين .

أخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى بن مخلد بن علاوية أخبرنا اسماعيل بن جعفر الباقرى ، أخبرنا الحسين بن علاوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى قال أخبرنا اسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله أخى يوسف لولم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن لأجل سؤاله إياه أخرعنه ذلك سنة فأقام عندالملك فى بيته سنة » وروى سفيان عن أبى سنان عن عبدالله بن أبى الهذلى قال : قال الملك ليوسف انى أريد أن تخالطنى فى كل شىء غير انى آنف أن تأكل معى ، فقال له يوسف إنى أحق أن آنف بذلك منك لأنى أنا ابن يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله ، فصار بعد ذلك يأكل معه . قال ابن عباس فلما انصرفت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوّجه بتاجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه وأمر له بسرير من الذهب مكلل بالدر والياقوت فضرب عليه قبة من إستبرق وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشا وستون نمرقة ، ثم أمره أن يخرج فخرج متوّجا ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يُرى فيه من بياض وجهه الناظر صفاء لونه ، ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك ولزم الملك وفوّض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ، ثم مات قطفير عن قريب فزوّج الملك يوسف براعيل امرأة قطفير ، فلما دخل عليها قال لها : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين منى ؟ فقالت له أيها الصديق لاتلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما رأيت فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى صورتك وهيئتك فغلبتنى نفسى ، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها فولدت له ابنين افرائيم وميشا ابنى يوسف عليه

السلام واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم العدل فأحبه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى — وكذلك نجزى المحسنين وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض — يعنى أرض مصر — يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين — وللبحترى فى هذا المعنى :

أما فى رسول الله يوسف أسوة … لمثلك محبوسا على الظلم والافك

أقام جميل الصبر فى السجن برهة … فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الأبيات :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن … وأول مفروح به آخر الحزن

فلا تيأسن فالله ملك يوسفا … خزائنه بعد الخلاص من السجن

قال فلما اطمأن يوسف فى ملكه وخلت السنين المخصبة ودخلت المجدبة جاءت بهول لم تعهد الناس مثله، فأصاب الناس الجوع ، فلما كان بدء القحط نام الملك فبينما هو نائم إذ أصابه الجوع ، فهتف الملك يايوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أوان القحط والجوع ، فلما دخل أول سنة من سنى الجدب هلك فيها كل شىء أعدوه من السنين المخصبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام فباعهم فى أول سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبق فى مصر درهم ولا دينار إلا قبضه ، وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شىء ، وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب حتى احتوى عليها أجمع ، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والاماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه ، وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك ، وباعهم فى السنة السادسة بأولادهم فان الرجل كان يشترى بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة فلم يبق لأحد وله ذكر ولا أنثى إلا مماليك ، وباعهم فى السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار ملكا له ، فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا تالله مارأينا ملكا أجل من هذا وأعظم ، ثم قال يوسف للملك كيف رأيت صنع ربى فيما خولنى فما ترى فى هذا ؟ فقال له الملك الرأى رأيك وإنما نحن لك تبع ، فقال يوسف : فانى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر جميعا ، ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم .

وروى أن يوسف كان لايشبع من الطعام فى تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع .

وروى أن يوسف أمر طباخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار مرة واحدة فى اليوم والليلة ، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ويحسن إلى المحتاجين ففعل الطباخ ذلك فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار . وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون فجعل يوسف لايمكن أحدا منهم وإن كان عظيما من أن أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس وتوسيعا عليهم . فتزاحم

الناس عليه . قالوا وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد .
ونزل بيعقوب من ذلك ما نزل بالناس فأرسل بنيه الى مصر يطلبون الميرة وأمسك عنده بنيامين
أخا يوسف لأمه ، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة ، وكان منزلهم بالقرب من
أرض فلسطين من ثغور الشام وكانوا أهل بادية ومواش . فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه
لما أراد الله تعالى أن يبلغ يوسف ماأراده . قال ابن عباس : وكان بين أن قذفوه فى الجب وبين
أن دخلوا عليه أرض مصر أربعون سنة . فلذلك أنكروه وقيل انه كان متزييا بزى فرعون مصر
فكانت عليه ثياب الحرير جالسا على سريره وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب فلذلك
لم يعرفوه .وقيل كان بينهم وبينه ستر فلذلك أنكروه . قال بعض الحكماء : المعصية تورث النكرة
ولذلك قال الله تعالى — وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون — قالوا فلما نظر
إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فانى أنكرت شأنكم ؟ فقالوا نحن
قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار . فقال لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادى ؟
فقالوا لا والله ما نحن بجواسيس وانما نحن إخوة بنو أب واحد شيخ كبير صديق الله نبى من أنبياء
الله تعالى يقال له يعقوب قال فكم أنتم ؟ قالوا نحن كنا اثنى عشر فذهب منا أخ الى البرية فهلك فيها
وكان أحب إلى أبينا منا . قال كم انتم ههنا ؟ قالوا عشرة . قال فأين الآخر ؟ . قالوا عند أبينا لأنه
أخو الذى هلك من أمه فأبونا يتسلى به . قال فمن يعلم أن الذى تقولون حق ؟ فقالوا أيها الملك إننا
فى بلاد لانعرف فيها . فقال يوسف : فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين . فانى أرضى
بذلك قالوا ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه . قال فضعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى
بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون . وكان أبرهم بيوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى —
ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم — الآية إلى قوله وإنا لفاعلون . فقال عند ذلك
يوسف لفتيانه أى لغلمانه الذين يكيلون الطعام اجعلوا بضاعتهم أى ثمن طعامهم .

قال ابن عباس : كانت بضاعتهم النعال والأدم . وقال قتادة : كانت ورقا فى رحالهم لعلهم يعرفونها
اذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون .

واختلف العلماء فى السبب الذى فعل ذلك يوسف بهم من أجله : فقال الكلبى تخوف يوسف
أن لا يكون عند أبيه من الورق مايرجعون به اليه مرة أخرى . وقيل خشى أن يشق أخذ ذلك
منهم على أبيه إذ كانت السنة سنة جدب ، وقيل رأى لؤما أخذ ثمن الطعام من أبيه واخوته مع
احتياجهم اليه فرده عليهم من حيث لايعلمون تكرما وتفضلا ، وقيل فعل ذلك لأنه علم ان ديانتهم
وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون امساكها فيرجعون اليه لأجلها . فلما رجعوا إلى
أبيهم . قالوا ياأبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجل من ولد يعقوب ماأكرمنا
كرامته . فقال لهم يعقوب إذا أتيتم ملك مصر فاقرءوا عليه منى السلام وقولوا له ان أبانا يصلى عليك

ويدعولك بما اوليتنا . ثم انه قال لهم اين شمعون ؟ فقالوا ان الملك ارتهنه لنأتيه ببنيامين ثم أخبروه بالقصة فقال لهم ولم أخبرتموه بذلك ؟ فقالوا له انه أخذنا وقال انكم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية ثم قصوا عليه القصة ـ وقالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا ـ يعنى بنيامين ـ نكتل وإنا له لحافظون ـ . فقال يعقوب ـ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ـ الآية .

قال كعب : لما قال يعقوب فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين قال الله وعزتى وجلالى لأردن عليك كلاهما بعد ماتوكلت علىّ قالوا ولما فتحوا متاعهم الذى حملوه من مصر وجدوا بضاعتهم أى ثمن طعامهم ردت اليهم ـ قالوا ياأبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ـ فقال لهم يعقوب ـ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ـ أى تهلكوا جميعا .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : فى قوله تعالى ـ لتأتننى به إلا ان يحاط بكم ـ إلى قوله ـ حتى تؤتون موثقا من الله ومن قبل ـ يعنى حتى تحلفوا لى بحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ان لاتغدروا بأخيكم ففعلوا ذلك فلما أتوه موثقهم قال يعقوب الله على مانقول وكيل ، أى شاهد بالوفاء فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم لاتدخلوا مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وذلك انه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيبة وصور حسان وقامات ممتدة وكانوا اولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا فى دخولهم البلد لئلا يصابوا بالعين ثم قال لهم ـ وماأغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ـ ولما دخلوا من حيث أمرهم ابوهم ـ وكان لمصر اربعة ابواب فدخلوا من ابوابها كلها ما كان يغنى عنهم من الله من شىء صدّق الله يعقوب عليه السلام فيما قال إلى قوله تعالى ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ـ ولما دخلوا على يوسف فى الكرة الثانية قالوا ياأيها العزيز هذا اخونا الذى امرتنا أن نأتيك به قد جئناك به قال لهم احسنتم واصبتم وستحمدون على ذلك عندى ثم انه انزلهم واكرمهم واضافهم واجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين على مائدة وحده وحيدا فبكى . وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال لهم يوسف لقد بقى أخوكم هذا وحيدا فريدا ثم اجلسه يوسف معه على مائدته فجعل يؤاكله فلما كان الليل امر لهم يوسف بمثل ذلك وقال لهم ليبت كل اثنين منكم على فراش واحد فلما بقى بنيامين وحده قال يوسف هذا ينام معى على فراشى فبات معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى اصبح ، فجعل روبيل يقول مارأينا مثل هذا ، فلما أصبح . قال لهم انى لأرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس له أخ يؤنسه فان تشاءوا أضمه إلى ليكون منزله معى ثم إن يوسف أنزلهم منزلا واجرى عليهم الطعام والشراب وأنزل اخاه لأمه معه فذلك قوله تعالى ـ آوى اليه اخاه فلما خلا به قال له ما اسمك ؟ قال بنيامين قال له وما بنيامين ؟ قال الثكل وذلك انه لما ولد فقد أمه

قال وما اسم امك ؟ قال راحيل بنت ليان بن ناحور قال فهل لك من ولد ؟ قال نعم : قال كم ؟ قال عشرة بنين . قال فما اسماؤهم : قال لقد اشتققت اسماءهم من اسم أخ لى من امى هلك اسمه يوسف فقال يوسف لقد اضطرك ذلك الى حزن شديد فما أسماؤهم ؟ قال : بالعا واخير واشكل واحيا وخير ونعمان وورد ورأس وحيثم وعيتم . قال فما هذه الأسماء :. قال أما بالعا فان أخى ابتلعه الأرض ، وأما أخير فانه كان بكر أمى ، واما أشكل فانه كان أخى لأبى وامى ومنى واما احيا فلكونه كان حييا ، واما خير فانه كان خيرا حيث كان ، واما نعمان فانه كان ناعما بين ابويه ، واماورد فانه كان بمنزلة الورد فى الحسن ، واما رأس فانه كان منى بمنزلة الراس من الجسد ، واما حيثم فأعلمنى أبى أنه حى ، واماعيتم فلو رأيت غرته لقرّت عينى وتمّ سرورى . فقال له يوسف أتحب ان اكون أخاك بدل اخيك ذلك الهالك ؟ فقال بنيامين أيها الملك ومن يجد اخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولاراحيل . قال فبكى يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه وقال انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ولا تعلمهم بشئ من هذا . ثم ان يوسف أوفى لاخوته الكيل وحمل لبنيامين بعيرا باسمه .

قال كعب : لما قال له انى انا اخوك قال بنيامين فإنى اذا لاافارقك قال يوسف انى قد علمت باغتمام الوالد فان حبستك زاد غمه ولايمكننى حبسك إلا بعد اشهارك بأمر فظيع . فقال لا ابالى افعل ماتريد فقال يوسف إنى أدس صاعى هذا فى رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتهيأ لى ردّك بعد تسريحك . قال افعل فذلك قوله تعالى ــ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ــ وكانت مشربة يشرب بها الملك وكانت كأسا من الذهب مكللا مرصعا بالجواهر جعلها يوسف مكيالا يكتال بها ، ثم انهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا ثم إن يوسف أمر بهم فأدركوا وحبسوا عن السير ــ ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون ــ فوقفوا فلما قرب منهم الرسول قال لهم ألم نحسن منزلتكم ونكرم ضيافتكم ونوف كيلكم وفعلنا لكم مالم نفعل لغيركم قالوا بلى وماذاك ؟ قال سقاية الملك فقدناها ولم نتهم عليها غيركم ــ قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ــ وانا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحدا بسوء واسألوا عنا من مررنا به هل اضررنا أحدا أو أفسدنا شيئا وانا قد رددنا الدراهم لما وجدناها فى رحالنا فلو كنا سارقين مارددناها وفى الحديث انهم لما دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئا فقال الرسول انه صاع الملك الأكبر الذى يتكهن فيه وانه ائتمننى عليه فان لم أجده تخوفت ان تسقط منزلتى عنده وأفتضح فى مصر فمن ردّه علىّ فله حمل بعير من طعام وانا به زعيم : اى كفيل قالوا معاذ الله أن نسرق فقال المؤذن وأصحابه فما جزاؤه أى جزاء من وجد فى رحله ان كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين فقال الرسول عند ذلك لابد من تفتيش أمتعتكم

ولستم بيارحين حتى أفتشها ، ثم انه انصرف بهم إلى يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه لازالة التهمة وكان يفتش امتعتهم واحدا واحدا .

قال قتادة : ذكرلنا انه كان لايفتح متاعا ولاينظر فى وعاء أحد إلا استغفر الله تعالى مما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام فقال ما أظن ان هذا الغلام أخذ شيئا فقالت إخوته والله ما نتركك حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك ولأنفسنا فلما فتحوا متاعه استخرجوا الصاع منه فلما أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا إيش الذى صنعت بنا وفضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل لايزال لنا منكم بلاء أخذت هذا الصاع فقال لهم بنيامين، بل بنو راحيل الذين لايزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه ، ان الذى وضع الصاع فى رحلى هو الذى وضع الدراهم فى رحالكم . ثم انهم قالوا ليوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، وهذا هو المثل السائر : عذره شرّ من جرمه .

واختلف العلماء فى السرقة التى وصفوا بها يوسف : قال سعيد بن جبير وقتادة السرقة التى وصفوا بها يوسف انه سرق صنما لجده أبى أمه من ذهب فكسره وألقاه فى الطريق . وقال ابن جريج أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنما لخاله من ذهب فأخذه وكسره . وقال مجاهد جاء سائل يوما فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل . وقال ابن عيينة : دجاجة فناولها السائل فعيروه بها . وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . وقال الضحاك وغيره : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ان عمته بنت اسحق كانت أكبر ولد اسحق وكانت منطقة اسحق عندها ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا وكانت لاتصبر عنه فلما ترعرع وبلغ سنوات وقع حبه فى قلب يعقوب فأتاها وقال لها يا أختاه سلمى الىّ يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة فقالت له ما أنا بتاركته فلما ألح عليها يعقوب قالت دعه عندى أياما أنظر اليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة اسحَق فحزمت يوسف بها تحت ثيابه ثم انها قالت فقدت منطقة اسحق فانظروا من أخذها فالتمست فلم توجد ، فلما فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف فقالت والله انه ليسلم لى أصنع فيه ماشئت وكان ذلك حكم آل ابراهيم فى السارق فأتاها يعقوب فأخبرته بذلك فقال ان كان هذا فهو مسلم لك لا أستطيع غير ذلك فأمسكته بعلة المنطقة فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت فهو الذى قال اخوته ــ ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرّ مكانا والله أعلم بما تصفون ــ .

قال الرواة : لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصاع فنقره ثم أدناه من أذنه ثم قال ان صاعى هذا ليخبرنى انكم كنتم اثنى عشر رجلا وانكم انطلقتم بأخ فبعتموه فلما سمع بنيامين ذلك قام فسجد ليوسف ، وقال أيها الملك سل صواعك هذا عن اخى احى هو ؟ فنقره ثم قال له حى وسوف تراه فقال بنيامين اصنع بى ماشئت فانه ان علم بى سوف يستنقذنى قال فدخل يوسف

إلى منزله ثم انه بكى وتوضأ فقال بنيامين ايها الملك انى اريد ان تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجعله فى رحله فنقره ثم انه قال إن صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى الذى سرقنى وقد رأيت مع من كنت قال وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا فغضب روبيل وقال أيها الملك والله لئن لم تتركنا وتترك أخانا لأصيحن صيحة لايبقى فى مصر امرأة حامل إلا ألقت مافى بطنها وقامت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنب روبيل ومسه فقام الغلام فمسه فسكن غضبه فقال روبيل ان فى هذا البيت لشيئا من ولد يعقوب فقال يوسف من يعقوب فغضب روبيل وقال أيها الملك لاتذكر يعقوب فانه اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله قال يوسف أنت إذا ان كنت صادقا صادق فلما أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه وانه أولى به منهم واحتبسه ورأوا أن لاسبيل لهم الى تخليصه منه سألوه ان يخليه لهم ويعطونه واحدا منهم بدله فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال يوسف معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل من سرق تحرزا عن الكذب إنا إذا لظالمون ان أخذنا بريئا بسقيم فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا اى خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين فقال كبيرهم يعنى فى العقل وهو شمعون عن مجاهد ، وقال قتادة والسدى كبيرهم فى السن وهو روبيل ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله فى هـذا الغلام لتردّونه ومن قبل مافرطتم فى يوسف اى من قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف فلن أبرح الأرض يعنى أرض مصر حتى يأذن لى أبى فأرجع إلى الملك فأناجزه القتال أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وماشهدنا إلا بما علمنا اى نحن رأينا سرقته معـه وما كنا للغيب حافظين حين سألناك ان ترسـله معنا ولو علمنا الغيب انه يسرق ما ذهبنا به معنا واسأل القرية يعنى واسأل أهل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها يعنى قوما صحبوهم من اهل كنعان وإنا لصادقون لك فى قولنا فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول فقال يعقوب بل سوّلت لـكم أنفسكم أمرا فصبر جميل وهو الذى لاجزع فيه عسى الله أن يأتينى بهم جميعا يعنى يوسف وبنيامين انه هو العليم الحـكيم وتولى عنهم يعقوب وقال يا أسفا على يوسف ــ وذلك انه لما بلغه خبر بنيامين تـكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم ــ وقال يا أسفا على يوسف ــ والأسف أشد الحزن .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لم تعط أمة من الأمم عند المصيبة إنا لله وإنا اليه راجعون إلا أمة محمد ﷺ ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه على ابنه ما أصابه من الحزن لم يسترجع إنما قال يا أسفا على يوسف » .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف من عند ابيه إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجف عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من يعقوب ، فلما شكا وبكى قال له ولده ــ تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تـكون حرضا ــ اى مريضا ذاهب العقل من الهـم ــ أو تـكون من

الهالكين ـ فقال يعقوب لمارأى غلظتهم وجفوتهم ـ إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله ـ لا إليكم ، وفى الحديث « أن يعقوب كبر وضعف حتى سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بخرقة فقال له بعض جيرانه قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أخوك فما بلغ بك ما أرى فقال طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله تعالى إلى يعقوب أتشكونى الى خلقى ؟ فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى قال لقد غفرت لك فكان بعد ذلك إذا سئل قال ـ إنما أشكوا بثى وحزنى الى الله » .

أخبرنى الحسين بن فتحويه : أخبرنا احمد بن الحسن بن حامد أخبرنا الحسين بن أيوب أخبرنا عبد الله بن أبى زياد ، اخبرنا سيار بن حاتم عن عبد الله بن السمط قال سمعت أبى يقول بلغنا أن رجلا قال ليعقوب ما الذى أذهب بصرك ؟ قال : حزنى على يوسف قال : فما الذى قوس ظهرك ؟ قال : حزنى على أخيه فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكونى وعزتى وجلالى لا أكشف ما بك حتى تدعونى فقال عند ذلك ـ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ـ فأوحى الله تعالى اليه وعزتى وجلالى لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر اليهما وانما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين يستطعم فلم تطعموه منها شيئا وان أحب الناس الى من خلقى الأسخياء ثم المساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين فصنع طعاما ثم قال : من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى الى يعقوب أتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال لا يا إلهى قال لأنك شويت عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه ، ويقال إن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف انه كان له بقرة ولدلها عجل فذبح عجلها بين يديها وكانت تخور فلم يرحمها يعقوب فأخذه الله بذلك فابتلاه بفقد أعز ولده اليه ثم ان يعقوب قال لبنيه ـ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ـ الآية . قال السدى : لما أخبره ولده بخبر العزيز وقوله وفعله أحست نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف .

وروى انه كان رأى ملك الموت فى النام فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا وانه والله حى يرزق .

وروى انه رأى ملك الموت وقد زاره فقال له السلام عليك أيها الكظيم فاقشعر جلده وارتعدت فرائصه ورد عليه السلام ، ثم قال له من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسى بابى كيلا يدخل على أحد وأشكو بثى وحزنى الى الله فقال له يا نبى الله أنا الذى أيتم الأولاد وأرمل الأزواج وأفرق بين الجماعات قال : فأنت اذا ملك الموت قال نعم ، فقال له يا ملك الموت أنشدك الله إلا أخبرتنى هل تقبض روح من تأكله السباع ؟ قال نعم قال : فأخبرنى عن الأوراح أتقبضها مجموعة او متفرقة روحا روحا قال : أقبضها روحا روحا . قال فهل مرت بك روح يوسف فى الأرواح قال لا قال : فجئتنى زائرا أم داعيا . فقال يا نبى الله ماجئتك إلا مسلما فان الله تعالى لا يميتك حتى يجمع بينك وبين يوسف ولو كان فى الصخرة التى عليها قرار الأرضين وما أذن الله لى فى زيارتك إلا لأبشرك وأجيبك عما تسألنى عنه وان شئت أعلمتك لماذا ابتليت بفقد ولدك : قال له فأعلمنى يا عزرائيل ، فقال يا اسرائيل الله

هل تذكرت الجارية التي اشتريتها عام كذا في شهر كذا ثم فرقت بينها وبين أبويها قال نعم ياملك الموت كأنه كان بالأمس فقال له ملك الموت فلأجل ذلك ابتليت بفقد الولد ؟ وهل تعلم لماذا ابتليت بفقد البصر قال لا قال : أمرت يوما بذبح جذعة فذبحتها وشويتها في يوم كذا في شهر كذا فمر تميم العابد العبد الصالح بك وهو صائم ما أفطر منذ أسبوع فاشتم قتار الشوى فلم تطعمه شيئا فعند ذلك أعتق يعقوب من كان بحضرته من العبيد والإماء وأمر ان يذبح كل يوم من أغنامه كبشان ويفرق لحمهما على الفقراء والمساكين فقبل الله ذلك منه وشكره عليه وأتاه الفرج فعند ذلك قال يعقوب ـ يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه الى قوله تعالى إلا القوم الكافرون .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله يعقوب عليه السلام ماساء ظنه بالله تعالى في طول بلائه ساعة قط من ليل أو نهار ، فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين الى مصر وهذه كرة ثالثة فدخلوا على يوسف ـ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز ـ اى الملك بلغة مصر ـ مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ـ اى قليلة رديئة لاتنفق في ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها . واختلف المفسرون في هذه البضاعة ماهى ، فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا لاتنفق إلا بوضيعة ، وقال ابن أبى مليكة رضى الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبال رثة المتاع ، وقال عبدالله بن الحارث والحسن كانت أمتعة الأعراب الصوف والسمن والأقط ، وقال الضحاك كانت النعال والأدم والسويق القلى ـ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ـ قال الضحاك : لم يقولوا إن الله يجزيك إن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ، وقال عبد الجبار بن العلائى : سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سفيان : ألم تسمع قول الله تعالى ـ وتصدق علينا ـ أراهم سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالا وانما حرمت على نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم يوسف مجيبا لهم عند ذلك ـ هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ـ واختلف العلماء في السبب الذى حمل يوسف على هذا القول الذى كان بدء فرج يعقوب وراحته وآخر بلائه ومحنته ، فقال محمد بن اسحق ذكر لنا أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فارفض دمعه باكيا ثم باح لهم بالذى كان يكتم فقال ـ هل علمتم مافعلتم ـ الآية ، وقال الكلبي إنما قال ذلك حين حكى لاخوته أن مالك بن دعر قال : إني وجدت غلاما في بئر من حاله كيت وكيت فابتعته من قوم بكذا وكذا درهما فقالوا له أيها الملك نحن بعنا هذا الغلام فاغتاظ يوسف من ذلك وامر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا حتى كف بصره فكيف اذا أتاه خبر قتل بنيه كلهم ، ثم إنهم قالوا له إن انت فعلت بنا ذلك فابعث بأمتعتنا الى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك الوقت رحمهم وبكى ، وقال لهم ذلك القول ، وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين قرأ كتاب أبيه اليه ، وذلك ان يعقوب لما قيل له إن ابنك سرق كتب إلى يوسف كتابا من يعقوب اسرائيل

الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر المظهر العدل والموفى الكيل . أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء ، فأما جدى فابتلى بالنمروذ فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله بذبح عظيم ، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب اولادى الىّ فذهب به إخوته الى البرية ثم اتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت اتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته لذلك وانا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقا فان رددته علىّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك ، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك نفسه من البكاء وعيل صبره فأظهر لهم امره ، وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين هل لك ولد ؟ قال نعم : ثلاثة بنين قال فما سميتهم قال : سميت الأكبر منهم يوسف . قال ولم قال : محبة لك ولذكرك . قال فما سميت الثانى قال ذئبا . قال ولم والذئب سبع عاقر . قال لأذكرك به قال فما سميت الثالث قال دما قال ولم قال : لأذكرك به ، فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك ان قال لاخوته ـ هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ انتم جاهلون قالوا له أئنك لأنت يوسف ـ قال ابن اسحق لما قال يوسف لاخوته هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه فقالوا ـ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى ـ .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال لهم يوسف ـ هل علمتم مافعلتم ـ الآية ثم تبسم وكان اذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف فقالوا له مستفهمين أئنك لأنت يوسف .

وروى عطاء عن ابن عباس انه قال : إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له فى فرقه علامة وكان ليعقوب مثلها وكان لاسحق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه . وقالوا له ـ أئنك لأنت يوسف قال انا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا ـ بأن جمعنا بعد مافرقتم بيننا ـ إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ـ ثم إنهم أقروا بفضل يوسف عليهم وجريمتهم اليه فقالوا ـ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ـ فقال يوسف وكان حليما كريما موفقا ـ لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ـ .

قال السدى وغيره : فلما عرّفهم يوسف بنفسه سألهم عن ابيه فقال مافعل أبى من بعدى قالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه .

قال الضحاك كان ذلك القميص من نسج الجنة وكان فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى ولا على سقيم الا صح وعوفى فأعطاهم يوسف ذلك القميص وهو الذى كان لابراهيم وقد مضت قصته فقال

لهم ـ اذهبوا بقميصى هـذا فألقوه على وجـه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين فلما فصلت العير ـ من مصر متوجهـين إلى كـنعان قال أبوهم يعقوب ـ انى لأجـد ريح يوسف لولا ان تفندون ـ أى تسفهون .

ويروى أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل ان يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها . قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال ، وقال مجاهد وذلك أنه هبت ريح فصفقت القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب فوجـد ريح الجنة فعلم انه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال ـ إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ـ فقال له بنو بنيه ـ تالله إنك لفى ضلالك القديم ـ فلما أن جاء البشير ـ وهو يهوذا بن يعقوب . قال ابن مسعود : جاءه البشير من بين يدى العير ، وقال السدى . قال يهوذا ليوسف : أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته ان يوسف أكله الذئب فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حىّ فأفرحه كما أحزنته .

قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حافيا وجعل يعدو حتى أتى أباه وكان معه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان وكانت المسافة ثمانين فرسخا . فلما أتاه بالقميص ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال الضحاك رجع إليه بصره بعد العمى وقوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت وان ملك الموت استأذن ربه فى ان يأتى يعقوب فأذن له فجاءه ، فقال له يعقوب ياملك الموت أسألك بالذى خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس فقال لا ، ثم قال له ملك الموت يايعقوب ألا أعلمك كلمات قال بلى قال قل ياذا المعروف الذى لاينقطع أبدا ولا يحصيه أحد غيرك قال فدعا بها يعقوب فى تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيرا فقال لهم عند ذلك ـ ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى ـ الآية .

قال أكثر المفسرين أخر ذلك إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وذلك ان الدعاء فى الأسحار لايحجب عن الله تعالى ؛ فلما انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ ، وقال : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ماجنوا على أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أنى قد غفرت لك ولهم اجمعين ، وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة .

اخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه أخبرنا عبد الله بن محمد بن شيبة اخبرنا احمد بن أبى السفر بن بيان البصرى أخبرنا اسحق بن زياد الأرملى اخبرنا الفضل بن حميد البغدادى اخبرنا اسحق بن

زياد وابن ضمرة عن رجاء بن أبى سلمة عن عطاء الخراسانى قال : طلب الحوائج إلى الشباب أيسر منها إلى الشيوخ ، ألا ترى قول يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربى .

وروى أن يعقوب قال للبشير لما أخبره بحياة يوسف كيف يوسف ؟ قال له انه ملك مصر فقال يعقوب ما أصنع بالملك على أى دين تركته . قال على دين الاسلام ، فقال يعقوب الآن تمت النعمة .

وقال الثورى : لما التقى يعقوب و يوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا فقال يوسف ياأبت بكيت علىّ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال بلى يابنى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك يوم القيامة ، قالوا : وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازا ومائتى راحلة وسأله ان يأتيه بأهله ووالده أجمعين فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر الذى فوقه فخرج مع يوسف فى أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب ، وكان يعقوب يمشى متوكئا على يهوذا فنظر يعقوب إلى الجند والناس فقال يايهوذا هذا فرعون مصر الأكبر فقال لاهذا ابنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل واحق بذلك منه فابتدأه يعقوب بالسلام؛ فقال السلام عليك يامذهب الأحزان فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ورفعهما على العرش وابواه يعقوب وخالته ليا فسمى الخالة أما كما سمى العم أبا فى قوله تعالى — قالوا نعبد إلهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق — وقال الحسن نشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت له تحقيقا للرؤيا فذلك قوله تعالى — وخروا له سجدا — وكانت تحية الناس يومئذ السجود ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض فلما رأى يوسف أبويه وإخوته قد خروا له سجدا اقشعر عند ذلك جلده ؛ وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا الآية .

قال وهب دخل يعقوب وولده مصر وهم اثنان وسبعون انسانا مابين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى والزمنى وكانت الذرية ألف ألف سوى المقاتلة . وقال الفضيل بن عياض : بلغنا أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى يوسف ومملكته فكان يطوف يوما من الأيام فى خزائنه فرأى خزانة مملوءة قراطيس بيضاء ، فقال له يابنى لقد تغيرت بعدى لك كل هذه القراطيس وماحملت بطاقة منها تكتب الىّ كتابا ، فقال يوسف هذه القراطيس كلها لك كنت كلما زاد شوقى وكثر حنينى آخذ ورقة حتى أكتب اليك ياأبت فيمنعنى جبريل ان أكتب اليك فأتركها فى هذه الخزانة حتى بلغت هذا المبلغ فسأل يعقوب جبريل عن ذلك فقال منعنى ربى فسأل الله عن ذلك فأوحى الله اليه لأنك قلت أخاف ان يأكله الذئب فهلا خفتنى هذه العقوبة لأجل تخوفك من غيرى .

وروى صالح المرى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم مافعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف قالوا بلى قالوا فان عفوا عنكم فكيف لكم بربكم فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ فأتوه وجلسوا بين يديه ويوسف الى جنب أبيه قاعدا فقالوا يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط والأنبياء أرحم البرية ، فقال مابكم يابنى ؟ فقالوا ألست تعلم ما كان منا اليك والى أخينا يوسف . قال بلى قد علمت قالوا فلستما قد عفوتما عنا قالا بلى قالوا فان عفوكما لايغنى عنا شيئا إذا كان الله تعالى لم يعف عنا قال : فما تريدون يابنىّ قالوا نريد أن تدعو الله لنا فاذا جاءك الوحى من عند الله سله هل عفا الله عنا فان أجابك بأنه قد عفا عنا جميعنا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرت لنا عين فى الدنيا ابدا فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه وقاموا كلهم خلفهما أذلة خاشعين فدعا يعقوب وأمن يوسف عليهما السلام فلم يجب فيهم قريبا من عشرين سنة . قال صالح المرى : ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب ، فقال ان الله تعالى بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك وأنه قد عفا عما صنعوا وأنهم قد انعقدت مواثيقهم بعدك على النبوة قالوا : فأقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله وولده أربعة وعشرين سنة بأغبط حال وأهنإ عيش وأتم راحة وادوم سلامة ؟ ثم حضرته الوفاة فلما احتضر جمع بين بنيه ، وقال ماتعبدون من بعدى قالوا ؟ نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق ، ثم قال يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وانتم مسلمون ، ثم إنه أوصى إلى يوسف ان يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند ابيه اسحق وجده ابراهيم ففعل ذلك ونقله الى بيت القدس فى تابوت من ساج وخرج معه يوسف فى عسكره واخوته وعظماء اهل مصر ووافق ذلك يوم وفاة عيص فدفنا فى يوم واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة لأنهما ولدا فى بطن واحد وقبرا فى قبر واحد .

قال فلما جمع الله ليوسف شمله واقر له عينه وأتم له تفسير رؤياه ، وكان موسعا عليه فى ملك الدنيا ونعيمها وعلم ان ذلك لايدوم له وانه لابد من فراقه فأراد نعيم الجنة اذ هو أفضل منه فتاقت نفسه الى الجنة فتمنى الموت ودعا به ولم يتمن نبي قبله ولا بعده الموت فقال ـ ربّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ـ الآية .

وروى ان يوسف لما حضرته الوفاة جمع اليه قومه من بنى اسرائيل وهم ثمانون رجلا وأعلمهم بحضور أجله ونزول أمر الله تعالى به ، فقالوا يانبى الله نحب ان تعرفنا كيف تتصرف الأحوال بنا بعد خروجك من بين أظهرنا والى مايؤول اليه امرنا وديننا وملتنا ، فقال لهم ان امركم يستقيم على ماأنتم عليه وتستقيمون على دينكم الى ان يبعث رجل جبار عات من القبط يدعى الربوبية فيقهركم ويذبح ابناءكم ويستحيي نساءكم ويسومكم سوء العذاب فتمد أيامه مدة مديدة ، ثم يخرج من بنى اسرائيل من ولد لاوى بن يعقوب رجل اسمه موسى ابن عمران رجل طوال جعد الشعر آدم اللون فينجيكم الله من ايدى القبط على يده

قال فجعل كل من بنى اسرائيل يسمى ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى . قال وكان ليوسف ديك وكان عمره خمسمائة سنة فقال لهم يوسف إنه يستقيم أمركم مادام يصرخ فيكم هذا الديك فاذا ولد هذا الجبار يسكن فلا يصرخ مدة ولايته حتى اذا انقضت مدة ولايته وأذن الله تعالى بمولد هذا النبيّ فيصرخ هذا الديك ويعود إلى صراخه ويكون ذلك علامة انقضاء ملك الجبار وظهور نبي الله فى الأرض فما زالوا يراعون الحال إلى أن سكن صراخ الديك فوجموا له وا كتأبوا وأيقنوا بوهى أركان دينهم وإظلال ما آذنهم به يوسف من مولد الجبار واعتزلوا لذلك واجمين إلى أن صرخ ذلك الديك فاستبشروا وتصدقوا وفرحوا واستيقنوا بالفرج والراحة ثم مات يوسف عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا واستخلفه على بنى إسرائيل فتوفاه الله طيبا طاهرا ودفن فى النيل فى صندوق من رخام وذلك انه لما مات تشاح الناس عليه كل يحب أن يدفن فى محلتهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال فرأوا ان يدفن فى النيل حيث تتفرق المياه بمصر فيمرّ الماء عليه ثم يصل الى جميع مصر فيكونون كلهم فيه شرعا واحدا ففعلوا ذلك ، وكان قبره فى النيل الى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببنى إسرائيل فنقله الى الشام ودفنه بأرض كنعان خارج الحصن حيث هو اليوم فلذلك تنقل اليهود موتاهم الى الشام من فعل ذلك فيهم .

وروى يونس بن عمران عن أبى موسى قال « نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه فقال رسول الله ﷺ أكرمتنا فأحسنت سل حاجتك فقال ناقة نرحلها وعنزة نحلبها أهلى فقال ﷺ أعجز هذا ان يكون مثل عجوز بنى إسرائيل فقالوا يارسول الله وما عجوز بنى اسرائيل فقال ان بنى اسرائيل لما خرجوا اضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل فقالوا ما هذا فقال علماؤهم إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا قال موسى فمن يعلم موضع قبره قالوا عجوز لبنى اسرائيل فبعث اليها موسى فأتته فقال دليني على قبر يوسف فقالت له وتعطيني حكمى قال وما حكمك قالت أن أكون معك فى الجنة فكره ان يعطيها حكمها فأوحى الله اليه أن أعطها حكمها ففعل » .

ويروى من طريق آخر ان هذه العجوز كانت مقعدة عمياء فقالت لموسى ألا أخبرك بموضع قبر يوسف قال نعم ، فقالت له لا أخبرك حتى تعطينى اربع خصال تطلق رجلى وتعيد الىّ بصرى وشبابى وتجعلنى معك فى الجنة قال فكبر ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه ان أعطها ماسألت فانك انما تعطى علىّ ففعل فانطلقت بهم الى موضع عين فى مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطىء النيل فى صندوق من مرمر فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه .

وقال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .

مجلس فى قصة موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام

وهوموسى الأول وقدذكرنا فيمامضى أن يوسف عليه السلام ولدله ابنان أحدهما يقال له افرائيم والآخر ميشا وابنة يقال لها رحمة وهى امرأة النبي أيوب عليه السلام فولد لأفرائيم نون وولد لنون يوشع وهوفتى موسى بن عمران وخليفته على بنى إسرائيل ، وأماميشا فولدله موسى فنبأه الله تعالى فزعم أهل التوراة انه صاحب الخضر والعامة من العلماء أن صاحب الخضر موسى بن عمران ، وكذلك روى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ .

قال أهل العلم بالتاريخ : لمامات يعقوب ويوسف عليهما السلام وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم وأفسدوا فى الأرض وفشا فيهم السحر والكهانة فبعث الله تعالى اليهم موسى بن ميشا رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره واقامة سننه وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتى سنة فأطاعه قوم منهم وعصاه آخرون .

وقال وهب بن منبه وغيره : كان مما أوحى الله اليه أن قل لقومك إنى برىء ممن سحر أوسحر له أوتكهن أوتكهن له أوتطير أوتطير له من آمن بى صادقا وتوكل علىّ فانى كنت له كافيا ومثيبا وكفيته همّ دينه ودنياه وكنت له خير معين وهاد وكنت عند ظنه بى ومن عدل عنى ووثق بغيرى فأنا أغنى الشركاء عن الشرك أكله إلى من وثق بهدونى ، ومن وكلته الى غيرى فليستعد للفتنة والعذاب ، ومن تباعد عنى كنت عنه أشد تباعدا ومن تقرّب الىّ كنت اليه أشدّ تقرّبامنه إلىّ وقل لعبادى لاتغفلوا عن ذكرى وليكثروا ذكر الموت عند كل شهوة فانه يميت الشهوات واللذات كلها قالوافلبث فيهم ماشاء الله أن يلبث يقيم أمرهم ويصلح أحوالهم ثم مات صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والله تعالى أعلم .

مجلس فى ذكر بقية عاد وقصة شديد وشداد وصفة إرم ذات العماد

قال الله تعالى ــ ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ــ الآية .

روى سفيان عن منصور عن أبى وائل قال : إن رجلا يقال له عبدالله بن قلابة خرج فى طلب إبل له قد ضلت : اى شردت ، فبينماهو فى بعض صحارى عدن فى تلك الفلوات إذوقع على مدينة عليها حصن حول ذلك الحصن قصور عظيمة وأعلام طوال ، فلمادنا منها ظنّ أن فيها من يسأله عن إبله فلم يرفيها أحدا لاداخلا ولاخارجا فنزل عن ناقته وعقلها وسل سيفه ودخل من باب الحصن فاذا هو ببابين عظيمين لم ير فى الدنيا أعظم منهما ولاأطول وإذاخشبهما من أطيب عود وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوؤها قد ملأ المكان ، فلما رأى ذلك أعجبه ففتح أحد البابين فاذا هو بمدينة لم ير الراءون مثلهاقط واذاهو بقصور معلقة تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كل قصر منها غرف

مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد على كل باب من أبواب تلك القصور مصراع مثل مصراع باب تلك المدينة من عود رطب قد نضدت عليه اليواقيت وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فلما رأى ذلك ولم ير هناك أحدا أخذه الفزع ثم انه نظر إلى الأزقة فاذا فى كل زقاق منها أشجار قد أثمرت وتحتها أنهار تجرى فى قنوات من فضة أشد بياضا من الثلج فقال هذه الجنة التى وصفها الله لعباده فى الدنيا والحمد لله الذى أدخلنى الجنة ، ثم انه حمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئا ولا من يواقيتها لأنها كانت مثبتة فى أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورة بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف فأخذ منها ما أراد وخرج حتى أتى ناقته فركبها ثم إنه سار يقفو أثر ناقته حتى رجع الى اليمن فأظهر ما كان معه وأعلم الناس بأمره وباع بعض ذلك اللؤلؤ وكان قد اصفر وتغير لونه من طول الزمان الذى مر عليه ففشا خبره حتى بلغ معاوية ابن أبى سفيان فأرسل رسولا الى صاحب صنعاء وكتب اليه باشخاصه فأشخص حتى قدم على معاوية فخلا به ثم سأله عما عاين فقص عليه أمر المدينة ومارأى فيها فاستعظم ذلك معاوية وأنكر ماحدثه به وقال له ما أظن ماتقوله حقا ، فقال له يا أمير المؤمنين إن معى من متاعها الذى هو مفروش فى قصورها وغرفها ، فقال له وماهو ؟ قال اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فقال له أرنى إياه فعرض عليه مما حمله من تلك المدينة من اللؤلؤ وبنادق المسك فشم البنادق فلم يجد لها ريحا فأمر ببندقة منها فدقت فسطع ريحها مسكا وزعفرانا فصدقه عند ذلك ثم قال معاوية كيف أصنع حتى أعرف اسم هذه المدينة ولمن هى ومن بناها والله ما أعطى احد مثل ما أعطى سليمان بن داود عليه السلام وما أظن انه كان له مثل هذه المدينة فقال له بعض جلسائه ما كان لسليمان مدينة مثل هذه ومايوجد خبر هذه المدينة فى زماننا هذا إلا عند كعب الأحبار فان رأى أمير المؤمنين ان يبعث اليه ويأمر باشخاصه ويغيب عنه هذا الرجل فى موضع هنا بحيث يسمع كلامه وحديثه ووصفه للمدينة حتى يتبين أمر هذه المدينة على مثال هذه الصفة فان كعبا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمر هذا الرجل إن كان دخلها لأن مثل هذه المدينة على مثل هذه الصفة لايستطيع هذا الرجل دخولها إلا ان يكون قد سبق له فى الكتاب دخولها فيعرف ذلك فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما حضر قال له ياأبا اسحق انى دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك ، فقال له يا أمير المؤمنين على الخبير سقطت سل عما بدالك فقال له اخبرنا يا أباإسحق هل بلغك ان فى الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة وعمدها من زبرجد وياقوت وحصى قصورها وغرفها اللؤلؤ وأنهارها فى الأزقة تجرى تحت الأشجار فقال كعب والذى نفس كعب بيده لقد ظننت أنى سأسأل قبل أن يسألنى أحد عن تلك المدينة ومافيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هى ومن بناها ، أما تلك المدينة فهى حق على مابلغ أمير المؤمنين وعلى ماوصفت له وأما الذى بناها فشداد بن عاد وأما المدينة فهى إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، فقال له معاوية يا أبا اسحق حدثنا بحديثها يرحمك الله فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن عادا كان له ابنان سمى أحدهما شديدا والآخر شدادا فهلك عاد وبقى ولداه بعده فملكا وتجبرا وقهرا

كل البلاد وأخذاها عنوة وقهرا حتى دان لهما جميع الناس ولم يبق أحد فى زمانهما إلا دخل فى طاعتهما لا فى شرق الأرض ولا فى غربها ، وانهما لما صفا لهما ذلك وقر قرارهما مات شديد بن عاد وبقى شداد فملك وحده ولم ينازعه أحد وكانت له الدنيا كلها وكان مولعا بقراءة الكتب القديمة وكان كلما مر فيها على ذكر الجنة دعته نفسه أن يجعل تلك الصفة لنفسه فى الدنيا عتوا على الله تعالى وكفرا فلما وقر ذلك فى نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التى هى إرم ذات العماد وأمر على صنعتها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان ثم قال لهم انطلقوا إلى أطيب بقعة فى الأرض وأوسعها واعملوا لى فيها مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ وتحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد وياقوت وعلى المدينة قصور ومن فوق القصور غرف واغرسوا تحت القصور غرائس فيها أصناف الثمار كلها وأجروا فيها الأنهار تحت الأشجار فانى أرى فى الكتب صفة الجنة وإنى أحب أن أتخذ مثلها فى الدنيا وأتعجل سكناها فقالت له قهارمته كيف لنا بالقدرة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فنبنى منها مدينة كما وصفت لنا ؟ فقال لهم شداد ألستم تعلمون ان ملك الدنيا كلها بيدى قالوا بلى قال فانطلقوا إلى كل موضع به معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وأى بحر فيه لؤلؤ فوكلوا به من كل قوم رجالا تخرج لكم ما فى كل معدن من تلك الأرض ثم انطلقوا إلى ما فى أيدى الناس من ذلك فخذوه سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن فان معادن الدنيا فيها كثير من ذلك وفيها مما لا تعلمون أكثر وأعظم مما كلفتم به من صنعة هذه المدينة .

قال فخرجوا من عنده وكتب معهم إلى كل ملك فى الدنيا كتابا يأمره أن يجمع لهم ما فى بلاده من الجواهر وأن يحفر معادنها فانطلق هؤلاء القهارمة وأعطوا كل ملك من الملوك كتابا بأخذ ما يوجد فى مملكته فبقوا على تلك الحالة عشر سنين حتى جمعوا ما يحتاجونه الى إرم ذات العماد من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة وأخذوا موضعا كما أراد ووصف لهم فقال معاوية يا أبا اسحق كم عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شداد قال كانوا مائتين وستين ملكا قال فخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة فتفرجوا فى الصحارى ليتخذوا ما يوافق غرضه فلم يجدوا ذلك إلا فى أرض أبين من بلاد عدن فوقعوا بها على صحراء عظيمة نقية من التلال والجبال واذاهم بعيون مطردة فقالوا هذه صفة الأرض التى أمرنا بها فأخذوا بقدر ما أمرهم به من العرض والطول ثم جعلوا لها حدودا محدودة ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة التى فيها الماء فأجروا فيها القنوات لتلك الأنهار ثم وضعوا الأساس من صخور الجزع اليمانى وعجنوا طين ذلك الأساس من دهن البان والمحلب ، فلما فرغوا من وضع الأساس وأجروا فيها القنوات أرسل الملوك اليهم الجواهر والذهب والفضة فمنهم من بعث بالعمد مضروبة ، ومنهم من بعث بالذهب والفضة مصنوعة مفروغا منها فدفعوا كل ذلك إلى أولئك القهارمة والوزراء فأقاموا فيها حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد ، فقال له معاوية يا أبا اسحق إنى لأحسبهم أقاموا فى بنائها زمانا من الدهر . قال نعم يا أمير المؤمنين إنى لأجد فى التوراة انهم أقاموا فى بنائها ثلثمائة

سنة ، فقال معاوية كم كان عمر شداد صاحبها قال كان عمره سبعمائةسنة ، فقال له معاوية ياأبا اسحق لقد أخبرتنا خبرا عجيبا فحدثنا فقال يا أمير المؤمنين إنما سماها الله تعالى إرم ذات العماد من أجل العماد التى تحتها من الزبرجد والياقوت وليس فى الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها فلذلك قال ــ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ــ .

قال كعب : إنهملما أتوه واخبروه بفراغهم منها . قال انطلقوا فاجعلوا عليها حصنا واجعلواحول الحصن ألف قصر عند كل قصر ألف علم ويكون فى كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائى ويكون كل علم منها عليه ناطورفرجعوا وعملواتلك القصور والأعلاموالحصن ثم إنهم أتوهفأخبروه بالفراغ مما امرهم به قال فأمر ألف وزير من خاصته ان يهيئوا اسبابهم ويعملوا على النقلة إلى إرم ذات العماد وامر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام وان يقيموا فيها ليلهم ونهارهم وامر لهم بالعطاء والأرزاق وامر الملك من اراد من نسائه وخدمه ان يتجهزوا الى إرم ذات العماد فأقامو فىجهازهم عشرين سنة ثم سار الملك بمن اراد إلى ارض ابين وخلف من قومه أكثر مما سار به فلما استقل وسار إليها ليسكنها وبلغ منها موضعا وبقى بينه وبين دخولها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالىعليهوعلى كل من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعا ولم يبق أحد منهم ولم يدخل شداد ولا من كان معه إرم ذات العماد ولم يقدر احد منهم على الدخول فيها حتى الساعة فهذه صفة إرم ذات العماد وانه سيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك هذا ويرىمافيها فيحدث بما عاين ولايصدق" فقال له معاوية ياأبا اسحق هل تصفه لنا قال نعم هو رجل أحمراشقر قصير على حاجبه خال وعلىعنقه خاليخرج فى طلب إبل له فى تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد فيدخلها ويحمل مما فيها وكان الرجل حالسا عند معاوية فالتفت كعب فرأى الرجل فقال له هو ذاك الرجل ياأميرالمؤمنين قد دخلهافاسأله عما حدثت به فقال معاوية ياأبا اسحق ان هذا من خدمى ولم يفارقنى قال قد دخلها وإلا سوف يدخلها وسيدخلها أهل هذا الدين فى آخر الزمان فقال معاوية ياأبا اسحق لقد فضلك الله علىغيرك من العلماء ، ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين مالم يعطه أحد فقال ياأمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ماخلق الله فى الأرض شيئا إلا وقد فسره فى التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيرا ، وان هذا القرآن أشد وعيدا وكفى بالله شهيدا ووكيلا .

قال الشعبي : أخبرنا دغفل الشيبانى عن رجل من حضرموت يقال له بسطام انه وقع على حفيرة شداد بن عاد فى جبل من جبالحضرموت مطل" على البحر قال كنت أسمع فى صباى الىآن اكتهلت بمغارة فى جبل من جبالها وان الناس تهيب دخولها فلم أحفل بما كنت أسمع من ذلك فبينما أنا فى نادى قومى اذ أنشدوا حديث تلك المغارة وأطنبوا فى ذكرها ووصفوا موضعها فقلت لقومى إنى غير منته عن هذه المغارة حتى ادخلها فهل فيكم من يساعدنى فقال فتى منهم حديث

السن انا أصاحبك فقلت ياابن أخى أتجسر على ذلك قال عندى ماعد رجل من شدة الجأش وقوة القلب فهيأنا شمعة وحملنا معنا ادوات عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدار مايقوم بنا ونقدر على حمله ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة وكان مشرفا على البحر فى المكان الذى يركب منه أهل حضرموت البحر فلما انتهينا إلى باب تلك المغارة حزمنا علينا ثيابنا وأشعلنا الشمعة ثم ذكرنا الله تعالى ودخلناها ومعنا تلك الأدوات من الماء والطعام فاذا مغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا وطولها علوا نحو خمسين ذراعا فمشينا فيها وهوينا فى طريق أملس مستو ثم أفضينا إلى درج عادية عرض الدرجة عشرون ذراعا فى سمك عشرة أذرع فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرج فقلت لصاحبى هلم إلىّ يدك فكنت آخذ بيده حتى ينزل فاذا نزل وقام فى الدرجة تعلقت بطرف الدرجة وتشبثت حتى يتناول رجلى على منكبه فلم نزل كذلك وذلك دأبنا عامة يومنا حتى نزلناها وكانت مقدار مائة درجة فأفضينا إلى أزج عظيم محفور فى الجبل فى طول مائة ذراع وعرض أربعين ذراعا وسمكه فى السماء قدر مائة ذراع وفى صدره سرير من ذهب منضد بصنوف الجواهر وفوقه رجل عادى عظيم الجسم قد اخذ طول ذلك الأزج وعرضه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم وعليه سبعون حلة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة واذا ذلك الأزج يضىء من ثقب عرضه ذراعان وارتفاعه ثلاثة أذرع خارجا الى فضاء لم يدر ماهو وإذا على رأس السرير لوح من ذهب عظيم فيه كتابة مالها مثل وهى كتابة كاتب عاد كتبها فى زمانه محفورة تلك الكتابة فى اللوح حفرا فطلعنا ودنونا من ذلك الرجل ومسسنا تلك الحلل فصارت رميما وبقيت قضبان الذهب قائمة فجمعناها فكانت مقدار مائة رطل فجعلناها فى أزرنا وأرديتنا ، وأردنا قلع شىء من الجواهر المنضد بها السرير فلم نقدر عليها لوثاقتها فتركناها وهجم علينا الليل ونحن فى ذلك الأزج وعرفنا ذهاب النهار بذهاب ذلك الضوء الذى كان يدخل من ذلك الثقب فبتنا ليلتنا فى ذلك الأزج وطفئت الشمعة التى كانت معنا فلما أصبحنا قلت لصاحبى ماترى قال أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل اليه لارتفاع هذه الدرج وإنا لانستطيع صعودها لاسيما والشمعة قد طفئت ولكن هلم بنا نلزم هذا الضوء الذى تراه فى هذا الثقب فانى أرجو أن نخرج منه الى الفضاء ان شاء الله تعالى فقلت له لعمرى ان هذا لهو الرأى فنهضنا بما معنا من تلك القضبان التى من الذهب وحملنا معنا ذلك اللوح الذى كان عند رأس السرير وسرنا من ذلك الثقب فلم نزل نمشى فى طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه الى كهف فى ذلك الجبل كهيئة الحائط وقد حف بذلك الكهف البحر فجلسنا على باب ذلك الثقب ثلاثة أيام بلياليها نتمون ببقية الماء والطعام الذى كان معنا ، فلما كان اليوم الرابع نظرنا الى مركب قد أقبل فى البحر فلوّحنا اليه فنظر الينا أهله فأرسلوا لنا القارب فنزلنا من باب ذلك الثقب نزولا شاقا حتى وثبنا الى القارب فلما خرجنا من البحر اقتسمنا ذلك الذهب بيننا وصار ذلك اللوح الى بقسطى ثم ان أنفسنا دعتنا الى العود الى ذلك السرب مما يلى الثقب فركبنا قاربا وسرنا فى

البحر نحو المكان الذى خرجنا منه فخفى علينا مكانه فعلمنا أنا لم نرزق منه إلا ما أخذنا فرجعنا وان اللوح مكث عندى حولا لا أجد أحدا يقرؤه لى حتى أتانا رجل من أهل صنعاء حميرى كان يحسن قراءة تلك الكتابة فأخرجنا اليه اللوح فقرأه فاذا فيه مكتوب هذه الأبيات :

اعتبر بى أيها المغرور بالعمر المديد

أنا شداد بن عاد صاحب الحصن العميد

وأخو القوة والبأ ساء والملك الحشيد

دان أهل الأرض طرا لى من خوف وعيد

وملكت الشرق والغر ب بسلطان شديد

وبفضل الملك والعد ة فيه والعديد

جاءنا هود وكنا فى ضلال قبل هود

فدعانا لو قبلنا كان بالأمر الرشيد

فعصيناه وناديـنا ألا هل من محيد

فأتتنا صيحة تهوى من الأفق البعيد

فتوافينا كزرع وسط بيداء حصيد

قال دغفل : سألت علماء حمير عن شداد ، وقلت إنه أصيب وقد كان دنا من إرم ذات العماد فكيف وجد فى تلك المغارة ، وهى بحضرموت فقالوا إنه لما هلك هو ومن معه من الصيحة على مرحلة من تلك المدينة ملك من بعده مزيد بن شداد ، وقد كان أبوه خلفه على ملكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت فحمل مطليا بالصبر والكافور ، ثم أمر بحفر تلك المغارة فحفرت واستودعه فيها على ذلك السرير الذى من الذهب ، والله أعلم .

مجلس فى ذكر قصة أصحاب الرس

قال الله تعالى ـ وعادا وثمود وأصحاب الرسّ ـ اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم : فقال سعيد بن جبير والكلبي والخليل بن احمد دخل كلام بعضهم فى بعض وكل أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرسّ أن اصحاب الرس بقية ثمود وقوم صالح وهم أصحاب البئر التى ذكرها الله تعالى فى كتابه فى قوله تعالى ـ وبئر معطلة وقصر مشيد ـ وكانوا بفلج اليمامة نزولا على تلك البئر ، وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهى رسّ ، وكان لهم نبيّ يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له فتج مصعدا فى السماء ميلا وكانت العنقاء تبيت به وهى كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون وسموها العنقاء لطول عنقها وكانت فى ذلك الجبل تنقضّ على الطير فتأ كله فجاعت ذات يوم وأعوزها الطير فانقضت على صبيّ فذهبت به فسميت عنقاء مغرب لأنها تغرب بما تأخذه ، ثم انقضت على جارية

حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين فشكوا ذلك الى نبيهم فقال اللهم خذها واقطع نسلها وسلط عليها آية تذهب بها فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم يرلها أثر بعد ذلك فضربت بها العرب مثلا فى أشعارها وحكمها وأمثالها ، ثم إن أصحاب الرس قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى .

وقال بعض العلماء بلغنى أنه كان رسان ، أما أحدهما فكان أهله أهل بدو وعمود وأصحاب غنم ومواش فبعث الله اليهم نبيا فقتلوه ، ثم بعث اليهم رسولا آخر وعضده بولى فقتلوا الرسول وجاهدهم الولى حتى أفحمهم وكانوا يقولون إلهنا فى البحر وكانوا على شفيره ، وكان يخرج اليهم من البحر شيطان فى كل شهر خرجة فيذبحون عنده ويتخذونه عيدا فقال لهم الولى أرأيتم ان خرج إلهكم الذى تدعونه وتعبدونه الى وأطاعنى أتجيبوننى إلى مادعوتكم اليه قالوا بلى فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا أربعة أحوات وله عنق مستعلية على رأسه مثل التاج ، فلما نظروا اليه خروا له سجدا فخرج الولى اليه وقال له ائتنى طوعا أو كرها باسم الله الكريم فنزل عند ذلك من على اخوته ، فقال له الولى ائتنى راكبا عليهن لئلا يكون القوم من أمرهم على شك فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضوا به الى البرية يجرونه ويجرهن فلما رأوا ذلك سخروا وكذبوه ونقضوا العهود فبعث الله اليهم ريحا فألقتهم فى البحر ومواشيهم جميعا وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية فأتى الولى الصالح إلى البحر وأخذ الذهب والفضة والأوانى فقسمها على أصحابه بالسوية حتى الصغير والكبير وانقطع ذلك النسل .

وأما الآخر . فانهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ينسبون اليه وكان فيهم أنبياء كثيرة لايقوم فيهم نبى إلاقتلوه وذلك النهر بمنقطع أذربيجان بينها وبين أرمينية فاذا قطعته مدبرا دخلت فى حد أرمينية واذا قطعته مقبلا دخلت فى حد أذربيجان ، وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ومن قدامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران وهم كانوا يعبدون الجوارى العذارى فاذا تمت لأحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ وكان يرتفع فى كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التى حوله وكان لاينصب فى بحر ولابر فاذا خرج من حدهم يقف ويدور ، ثم يرجع اليهم فبعث الله تعالى اليهم ثلاثين نبيا فى شهر واحد فقتلوهم جميعا فبعث الله تعالى اليهم نبيا وأيده بنصره وبعث معه وليا فجاهدهم فى الله حق جهاده ، ثم بعث اليه ميكائيل حين نابذوه وكان فى أوان وقوع الحب فى الأرض وكانوا عند ذلك أحوج ما يكونون الى الماء فحفر نهرهم فى البحر وانصب مافى أسفله وأتى إلى عيونه من فوق فسدها وبعث الله اليه خمسمائة من الملائكة أعوانا له ففرقوا مابقى فى وسط نهرهم ، ثم أمر الله جبريل فنزل فلم يدع فى أرضهم عينا ولانهرا إلاأيبسه باذن الله تعالى وأمر ملك الموت فانطلق الى المواشى فأماتها دفعة واحدة وأمر الرياح الأربع الجنوب والشمال والدبور والصبا فضمت ما كان لهم من متاع وألقى الله تعالى عليهم السبات ، ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع

أجمع فرمته فى رءوس الجبال وبطون الأودية ، وأما ما كان من حلى وتبر وآنية فان الله تعالى امر الأرض فابتلعته فأصبحوا لاشاة عنـدهم ولا بقرة ولامال يعودون اليـه ولاماء يشربونه ولا طعاما يأكلون فآمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم الله إلى غار فى جبل له طريق من خلفه فنجوا وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين وكان عدة الباقى من الرجال والنساء والدرارى ستمائة ألف ماتوا عطشا وجوعا ولم يبق منهم باقية ، ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها فدعا القوم عند ذلك مخلصين لله ان يجيئهم بماء وزرع وماشية ويجعله قليلا لئلا يطغوا فأجابهم الله تعالى الى ذلك لما علم من صدق نياتهم وإخلاصهم وقالوا إنه لا يبعث الله رسولا الى من يليهم ويقاربهم إلا أعانوه وصدقوه وعضدوه فعلم الله منهم الصدق فأطلق لهم نهرهم وزادهم على ماسألوه فأقام أولئك القوم فى طاعة الله ظاهرا وباطنا حتى مضوا وانقرضوا فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله فى الظاهر ونافقوا فى الباطن وأملى الله تعالى لهم وكان عليهم قادرا ، وكانت معاصيهم اكثر من طاعتهم وخالفوا اولياء الله فبعث الله عليهم من فارقهم وخالفهم فأسرع فيهم القتل وبقيت منهم شرذمة فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحد وبقى نهرهم ومنازلهم ومافيها مائتى عام لا يسكنها أحد ، ثم أتى الله بقوم بعد ذلك فنزلوها وكانوا صالحين فأقاموا فيها ستين سنة ثم أحدثوا فاحشة فجعل الرجل يدعو ابنته وأخته وزوجته فيبيت معها جاره وأخاه أو صديقه يلتمس بذلك البرّ والصلة ثم ارتفعوا من ذلك الى نوع آخر ترك الرجال النساء حتى شبقن واستغنى الرجال بالرجال فجاءت للنساء شـيطانة فى صورة امرأة ، وهى الدلهان بنت إبليس ، وهى أخت الشيطان ، وكانا فى بيضة واحدة فشهت للنساء ركوب بعضهن بعضا وعلمتهن كيف يصنعن فأصل ركوب النساء بعضهن بعضا من الدلهـان فسلط الله تعالى على هؤلاء القوم صاعقة فى أول ليلهم وخسفا فى آخره وصيحة مع الشمس فلم يبق منهم باقيـة وبادت منازلهم ، ولا أحسب منازلهم اليوم مسكونة .

وروى على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جده علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهم أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له عمر أتاه ، فقال : ياأمير المؤمنين أخـبرنى عن أصحاب الرسّ ، وفى أىّ عصر كانوا ، وأين كانت منازلهم ، ومن كان ملـكهم ، وهل بعث الله إليهم رسولا أم لا وبمـاذا أهلـكوا فانى أجد فى كتاب الله عز وجل ذكرهم ولا أجد خبرهم فقال له أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه : لقد سألتنى عن حديث ماسألنى عنه أحد قبلك ولا يحدثك به احد بعدى . كان من قصتهم ، ياأخا تميم : انهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبر يقال لهـا شات درخت ، وكان يافث بن نوح غرسها على شفير عـين يقال لهـا دوسان كانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان ، وانما سموا أصحاب الرسّ لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض ، وذلك قبل سليمان بن داود عليهما السلام ، وكان لهم اثنتاعشرة قرية على شاطىء نهر يقال له الرس من بلاد المشرق ، وبهم سمى ذلك النهر ، ولم يكن يومئذ فى الأرض نهر أغزر منه ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكانا وعمرانا منها ، وكان أعظم

منازلهم اسفنديا ، وهى التى كانت ينزلها ملكهم ، وكان يسمى تركون بن عابور بن نوش بن سارب ابن النمروذ بن كنعان فرعون ابراهيم عليه السلام ، وفيها العين التى يسقون منها الصنوبرة التى كانوا يعبدونها ، وقد غرسوا فى كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة فتنبت تلك الحبة وتصير شجرة عظيمة ثم حرّموا ماء تلك العين والأنهار فلا يشربون منها لا هم ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك قتلوه ، ويقولون هى حياة آلهتنا فلا ينبغى لأحد ان ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذى عليه قراهم ، وقد جعلوا فى كل شهر من السنة فى كل قرية عيدا يجتمع اليه أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير فيها أصناف الصور ، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانا للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب الكثير ، فاذا سطح دخان تلك الذبائح وقتارها وبخارها فى الهواء وحال بينهم وبين النظر للسماء خروا سجدا للشجرة يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم وكان الشيطان يجىء فيحرك أغصانها ويصيح فى ساقها صياح الصبى : عبادى قد رضيت عنكم فطيبوا نفسا وقرّوا عينا فيرفعون عند ذلك رءوسهم ويشربون الخمر ويضربون المعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون ، حتى اذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع اليه صغيرهم وكبيرهم فيضربون عند شجرة الصنوبر والعين سرادقا من ديباج وعليه أنواع الصور . له اثنا عشر بابا كل باب لأهل قرية منهم فيسجدون للصنوبرة من خارج السرادق ويقربون اليها الذبائح أضعاف ماقربوا للشجرة التى فى قراهم فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكا شديدا ويتكلم من جوفها كلاما جهوريا يعدهم ويمنيهم بأكثر مما وعدتهم الشياطين جميعا فيرفعون رءوسهم من السجود ولهم من الفرح والسرور مالا يفيقون ولا يتكلمون معه فيديمون الشرب والمعازف ويكونون على ذلك اثنى عشر يوما وليلة بعدد أعيادهم فى السنة . ثم انهم ينصرفون . فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره بعث الله اليهم نبيا من بنى اسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب فلبث فيهم زمانا طويلا يدعوهم الى الله تعالى ويعرفهم بربوبيته فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته ، فلما رأى شدة ماهم فيه من الغىّ والضلالة وتركهم قبول مادعاهم اليه من الرشد والصلاح حضر عند قريتهم العظمى ، وقال : يارب إن عبادك أبوا تصديقى ودعوتى اليهم وما أرادوا الا التكذيب والكفر بك ثم غدوا يعبدون شجرة لاتنفع ولاتضر فأيبس شجرهم أجمع وأرهم قدرتك وسلطانك فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله فهالهم ذلك وخضعوا فصاروا فرقتين : فرقة قالوا سحر هذا الرجل الذى زعم أنه رسول رب السماء آلهتكم ليصرف وجوهكم عنها الى إلهه ، وفرقة قالت بل غضبت عليكم آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم الى عبادة غيرها فحجبت حسنها وبهاءها وجمالها لكى تغضبوا لها فتنتصروا منه فأجمعوا أمرهم على قتله فاتخذوا مثال بيت واتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعة الأفواه ، ثم انهم أرسلوها الى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ ونزحوا مافيها من الماء ثم حفروا فى قعرها بئرا ضيقة العين عميقة فرسوا فيها نبيهم وألقوا على فيها صخرة عظيمة ، ثم أخرجوا الأنابيب

من الماء ، وقالوا : الآن نرجو ان ترضى عنا آلهتنا اذا رأت أنا قتلنا من كان يقع فيها ويصدّ عن عبادتها وأنا دفناه تحت كبيرها يتشفى فيه فيعود لها نورها ونضرتها كما كان فبقوا على ذلك عامة يومهم ويسمعون أنين نبيهم ، وهو يقول : سيدى ومولاى ترى ضيق مكانى وشدة كربى فارحم ضعف ركنى وقلة حيلتى وعجل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى حتى مات عليه السلام ، فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام : انظر عبادى هؤلاء الذى غرهم حلمى وأمنوا مكرى وعبدوا غيرى وقتلوا رسلى وانا المنتقم ممن عصانى ولم يخش عقابى وانى حلفت بعزتى لأجعلنهم عبرة ونكالا للعالمين ، فبينما هم فى عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء فتحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم الى بعض ثم إن الأرض صارت من تحتهم كحجر كبريت تتوقد وأظلتهم سحابة سوداء فألقت عليهم حجرا كالقبة يلتهب فأذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار ، فنعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته ، إنه هو السميع العليم . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والله اعلم .

مجلس فى ذكر قصة نبى الله أيوب وبلائه عليه السلام

قال الله تعالى ــ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه ــ الآية . وقال تعالى ــ وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ــ .

قال : وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب كان أيوب رجلا من الروم . وكان رجلا طويلا عظيم الرأس . جعد الشعر . حسن العينين والخلق . قصير العنق . غليظ الساقين والساعدين . وكان مكتوبا على جبهته المبتلى الصابر وهو ايوب بن اموص بن تارخ بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها وكان له من اصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير مالا يكون لرجل افضل منه فى العدة والكثرة وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ولكل أتان ولد من الاثنين الى فوق الخمسة وكان الله اعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان امرأ تقيا رحيما بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لأنعم الله تعالى مؤديا لحقه قد امتنع من عدو الله إبليس ان يصيب منه ما أصاب من اهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن امر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله رجل من أهل اليمن يقال له اليفن ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما مالك وللآخر ظافر وكانوا كهولا .

قال وهب : ان لجبريل عليه السلام بين يدى الله مقاما ليس لأحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة وان جبريل هو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله تعالى عبدا بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم

من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش فاذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات فاذا صلت عليه ملائكة السموات هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض ، وكان إبليس لايحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هناك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة ، فلم يزل على ذلك يصعد الى السماء حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب عن أربع وكان يقعد فى ثلاث ، فلما بعث الله محمدا ﷺ حجب عن الثلاث الباقية فهو وجنوده محجوب عن جميع السموات إلى يوم القيامة — إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين — قال فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدركه البغى والحسد وصعد سريعا حتى صعد فى السماء موقفا كان يقفه فقال : يا إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تختبره لا بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك ، فقال الله تعالى انطلق اليه فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله حتى بلغ الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم ، فقال لهم ماذا عندكم من القوة والمعرفة فانى قد سلطت على مال أيوب ، وزوال المال هو المصيبة الفادحة والفتنة التى لا تصبر عليها الرجال ، فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة مالو شئت تحولت إعصارا من نار فأحرقت كل شيء آتى عليه ، فقال له إبليس فأت الابل فأحرقها ورعاتها فانطلق يؤم الابل وذلك حين وضعت رءوسها وثبتت فى مراعيها فما تشعر الناس حتى ثارت من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ فيه رياح السموم لا يدنو منها أحد الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها فى صفة راعيها ثم انطلق يؤم أيوب حتى وجده قائما يصلى ، فقال له يا أيوب قال لبيك ، فقال هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترته وعبدته بابلك ورعاتها فقال أيوب انها ماله أعارنيها وهو أولى بها ان شاء تركها وان شاء أخذها وقد تحققت وطيبت النفس إنى ومالى للفناء والزوال ، فقال له إبليس فان ربك أرسل اليها نارا من السماء فاحترقت كلها وبقى الناس مبهوتين وقوفا عليها يتعجبون منها فمنهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان الا فى غرور ، ومنهم من يقول لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئا لمنع وليه من حريق مواشيه ، ومنهم من يقول بل هو الذى فعل ما فعل فشمت به عدوه وفجع به صديقه ، فقال أيوب الحمد لله الذى أعطانى وحيث شاء نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود الى القبر وعريانا أحشر الى ربى . ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك الله وتجزع حين قبض عاريته فهو أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيدا مع الشهداء ولكنه علم فيك شرا فأخرك وخلصك من البلاء كما يخلص الزوان من القمح الخالص ، فرجع إبليس الى أصحابه خائبا ذليلا وقال لهم ماذا عندكم من القوة إنى لم أكلم قلبه ؟ فقال عفريت من عظمائهم عندى من القوة مالو شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه ، فقال له إبليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق يؤم الغنم ورعاتها حتى اذا توسطها صاح صوتا ماتت

منه الغنم جميعا وماتت رعاتها ، ثم ان إبليس خرج متمثلا بقهرمان الرعاة حتى جاء الى أيوب وهو قائم يصلى، فقال له مثل قوله الأول ورد عليه أيوب مثل ما قال فى النوبة الأولى ، ثم ان إبليس رجع الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب ؟ فقال عفريت من عظمائهم عندى من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنشف كل شىء تأتى عليه حتى لا يبقى منه شىء ، فقال له إبليس فأت الفدادين والحرث فانطلق يؤمهم حتى قرب من الفدادين واستوى فى الحرث وأولادهم رتوع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنشفت كل شىء من ذلك حتى كأنه لم يكن ، ثم ان إبليس خرج متمثلا بقهرمان الحرث حتى جاء الى أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأول ، فأجابه أيوب بمثل جوابه الأول فجعل إبليس يصيب ماله الأول فالأول حتى أتى على آخره .

قال : وأيوب كلما انتهى اليه بهلاك مال من ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقى له مال ، فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئا ولا نجح فى شىء من أفعاله شق عليه ذلك وصعد سريعا ووقف الموقف الذى كان يقفه وقال إلهى ان أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها الفتنة المضلة والصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم فقال الله تعالى له انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدوّ الله حتى جاء بنى نبى الله أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله حتى تداعى القصر من قواعده ثم جعل يناطح بجدره بعضها بعضا فرماهم بالخشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة ثم رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين ، ثم ان إبليس انطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه فأخبره بذلك وقال له يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر وكيف نكسوا على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رق أيوب لذلك وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فاغتنم ابليس الفرصة منه لذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا ثم لم يلبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبدروا ابليس وسبقوه إلى الله والله أعلم بما كان ، فوقف إبليس خاسئا ذليلا فقال إلهى إنما هوّن على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على نفسه وبدنه فانى لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدن نعمتك ، فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله ، وكان والله أعلم به أنه لم يسلطه عليه الا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب . فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب ساجدا فقبل أن يرفع رأسه أتاه من قبل الأرض فى موضع وجهه ونفخ فى منخريه

نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآ ليل مثل أليات الغنم . ووقعت فيه حكة لايملكها ولا يتماسك عن حكها فحك بأظفاره حتى سقطت كلها . ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن . فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت افرائيم ابن يوسف بن يعقوب عليهم السلام وكانت تختلف اليه بما يصلحه وتكرمه . فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه . فلما طال به البلاء انطلقوا اليه وهو فى بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به .

قال وكان حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال انكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ولكنكم قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الأمر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم . فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم . ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض فى يومكم هذا ثم انكم لم تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئا من أمره منذ آتاه ماآتاه إلى يومكم هذا ولا علمتم أنه نزع منه شيئا من الكرامة التى أكرمه الله بها ولا أن أيوب غير الحق فى طول ماصحبتموه إلى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى النبيين والصدقين والشهداء والصالحين . ثم ان بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ولا هوانهم عليه ولكنه كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة الا انكم آخيتموه على وجه الصحة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر الله له ويحزن لحزنه ويدله على رشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان لكم فى عظم الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عىّ ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء النبلاء البلغاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذ ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله تعالى واعزازا واجلالا ، فاذا استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة يعدون أنفسهم مع الخاطئين الظالمين وانهم برآء ويعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين وانهم لأكياس أقوياء وانهم لايستكثرون لله الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مروّعون مفزعون خاشعون مستكينون فقال أيوب إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب المؤمن الكبير والصغير ، فمتى نبتت فى القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب ولا طول التجربة ، فاذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط

منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة . ثم إن أيوب أقبل على الثلاثة وقال : أتيتموني غضابارهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا كيف بكم لوقلت لكم تصدقوا عني بأموالكم لعل الله يخلصني وقربوا عني قربانا لعل الله يتقبلها ويرضى عني . وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم باحسانكم فهنالكم بغيتم وتعززتم . ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله عليكم بالعافية التي ألبسكم إياها وقد كنت فيما خلا الرجال توقرني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي . فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم فانتم اليوم أشد عليّ من مصيبتي . ثم انه أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثا متضرعا اليه فقال : رب لأي شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني ماخلقتني ياليتني كنت حيضة ألقتني أمي أوليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني والحقتني بآبائي فالموت كان أجمل لي . ياإلهي ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما . إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمنة لك وان اسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا لقد وقع عليّ بلاء لوسلطته على جمل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي . إلهي تقطعت أصابعي فاني لا أرفع الأكلة من الطعام الا بيديّ جميعا فما يبلغان فمي الا على الجهد مني . إلهي تساقطت لهواتي ولحم رأسي فما بين اذني من سداد بل إحداهما ترى من الأخرى . وان دماغي ليسيل من فمي . إلهي تساقط شعر عيني كأنما أحرق بالنار وجهي . وحدقتاي متدليتان على خدي . وورم لساني حتى ملأ فمي فما أدخل فيه طعاما الا غصني . وورمت شفتاي حتى غطت العليا أنفي والسفلى ذقني وتقطعت أمعائي في بطني واني لأدخل الطعام فيخرج كما دخل ما أحسه ولاينفعني . وذهبت قوة رجليّ فكأنهما قد يبستا ولا أطيق حملهما ، وذهب المال فصرت اسأل بكفي ويطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة فيمن بها عليّ ويعيرني . إلهي هلك اولادي ولو بقي واحد منهم أعانني على بلائي ونفعني . قد ملني اهلي وعقني ارحامي وتنكرت لي معارفي ورغب عني صديقي وقطعني اصحابي وجحدت حقوقي ونسيت صنائعي ، اصرخ فلا يصرخونني واعتذر فلا يعذرونني ، دعوت غلامي فلم يجبني وتضرعت لأمتي فلم ترحمني ، وإن قضاءك هو الذي اذلني وادناني واهانني وأقامني ، وان سلطانك هوالذي اسقمني وأنحل جسمي ، ولو ان ربي نزع الهيبة التي في صدري فأطلق لساني لأتكلم بملء فمي ، ولو كان ينبغي للعبد ان يحاج عن نفسه لرجوت ان يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه القاني وتخلى عني ، فهو يراني ولااراه ويسمعني ولا اسمعه ولاانظر إلي فرحمني ولا دنا مني ولا ادناني فأتكلم ببراءتي واخاصم عن نفسي ، فلما قال ذلك ايوب واصحابه عنده اظلته غمامة حتى ظن اصحابه انه عذاب ، ثم نودي ياأيوب إن الله تعالى يقول لك ها انا قد دنوت منك فلم ازل منك قريبا ، فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد عليك إزارك وقم مقام جبار ، فانه لاينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي ولاينبغي أن يخاصمني الامن يجعل الزمام في

فم الأسد والسخال فى فم العنقاء واللحم فى فم التنين ، ويكيل مكيالا من النور ويزن مثقالا من الريح ويصر صرة من الشمس ويرد أمس لقدمنتك نفسك أمرا مايبلغ بمثل قوتك ، ولو كنت إذ منتك نفسك ذلك ودعتك اليه تذكرت أى مرام رامت بك أم أردت ان تكاثرنى بضعفك ام اردت أن تخاصمنى بغيك ام اردت أن تحاججنى بخطئك ، أين كنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل علمت بأى مقدار قدرتها؟ أم كنت معى تمر بأطرافها ام تعلم مابعد زواياها ام على أى شىء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ام بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاء ؟ أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لامعاليق تمسكها ولا تحملها دعائم من تحتها ، هل يبلغ من حكمتك ان تجرى وتسير نجومها ، ام هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها ، أين كنت منى يوم سجرت البحار وأنبعت الأنهار ، أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها ام قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها ، أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ، هل لك ان تطيق حملها ام كنت تدرى كم مثقال مافيها أين الماء الذى أنزلته من السماء ، هل تدرى كم بلدة أهلكتها وكم من قطرة أحصيتها وقسمت الأرزاق ام قدرتك تثير السحاب وتنثر الماء ، هل تدرى ما أصوات الرعد ام من اى شىء لهب البرق ، وهل رأيت عمق البحر ام هل تدرى مابعد الهواء ، ام هل تدرى أين خزانة النهار بالليل وأين طريق النور وبأى لغة تتكلم الأشجار ، أين خزانة الريح وأين جبال البرد ، ام هل تدرى من جعل العقول فى أجواف الرجال ، ومن شق الأسماع والأبصار وذلت الملائكة لملكه ، ومن قهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته ، ومن قسم للأسد أرزاقها وعرّف الطير معاشها وعطفها على افراخها ، ومن أعتق الوحوش من الخدمة وجعل مساكنها البرّية لا تأنس بالأصوات ولا تهاب السلاطين أبحكمتك عطفت عليها أمهاتها حتى أخرجت لها طعاما من أجوافها وآثرتها بالعيش على نفوسها ام بحكمتك يبصر العقاب الصيد البعيد واضحا فى أماكن الفلا ، اين انت يوم خلقت البهموت مكانه فى منقطع التراب واللوتيا يحملان الجبال والقرى والعمران أنيابهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ورءوسهما كأنها الجبال وعروق أفخاذهما كأنها عمد النحاس ، أأنت ملأت جلودهما لحما ام انت ملأت رءوسهما دماغا ، هل لك فى خلقهما من شرك ام لك بالقوة التى غلبتهما يدان ام هل يبلغ من قوتك أن تضع يديك على رءوسهما ، ام تقعد على طريق فتحبسهما اوتصدهما عن قوتهما ، اين انت يوم خلقت التنين ورزقه فى البحر ومسكنه فى السماء وعيناه تتوقدان نارا ومنخراه يثوران دخانا أذناه مثل قوس السحاب يثور منهما لهب كأنه إعصار العجاج جوفه يحرق ونفسه يلتهب وزبده جمر كأمثال الصخور ، وكأن ضرب أسنانه اصوات الصواعق ، وكأن نظر عينيه لمع البرق ، تمرّ به الجيوش وهو متكئ لايفزعه شىء ليس فيه مفصل ، زبر الحديد عنده مثل التبن والنحاس عنده مثل الخيوط ، لايفزع من النشاب ولا يخشى وقع الصخور على جسده ويطير فى الهواء كأنه عصفور فيهلك كل شىء يمر به ، هل أنت آخذه بأحبولتك وواضع اللجام فى شدقه ، هل تحصى عمره ام هل تعرف

أجله ام تعرف رزقه ام هل تدرى ماذا خرّب من الأرض ، وماذا يخرّب فيما بقى من عمره ، ام هل تطيق غضبه حين يغضب ام تأمره فيطيعك تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال أيوب عليه السلام : قصرت عن هذا الأمر الذى ورد علىّ ليت الأرض انشقت لى فذهبت ولم أتكلم بشىء يسخط ربى حين اجتمع علىّ البلاء ، إلهى قد جعلتنى لك مثل العدو ، وقد كنت تعرفنى وتعرف نصحى ، وقد علمت ان كل الذى ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من هـذا لو شئت علمت أن لا يعجزك شىء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة . من هذا الذى يظن أن يسرّ عنك سرا وأنت تعلم ما يخطر على القلوب وقد علمت منك فى بلائى هذا مالم أكن أعلم وخفت ان يكون أمرا أكثر مما كنت أخاف انما كنت أسمع بصوتك ، فأما الآن فهو نظر العين إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى ، وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت عن لسانى فلن أعود . وقد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى ودسست فيه وجهى لصغارى ، وسكت حين أسكتتنى خطيئتى فاغفرلى ماقلت فلن أعود لشىء تكرهه منى . فقال الله تعالى : يا أيوب نفذ فيك حكمى وسبقت رحمتى غضبى إذا أخطأت فقد غفرت لك ماقلت ورحمتك ، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين . فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء . وقرّب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصونى فيك . فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل . فأذهب الله عنه ما كان فيه من البلاء . ثم انه خرج وجلس فأقبلت امرأته فقامت تلتمسه فى مضجعه فلم تجده ، فقامت متكدرة كالوالهة فمرّت به . فقالت ياعبدالله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا فقال لها : وهل تعرفينه اذا رأيتيه ؟ فقالت نعم وكيف لا أعرفه فتبسم وقال ها أناهو فعرفته لماضحك فاعتنقته .

قال ابن عباس : والذى نفسى بيده مافارقته من عناقه حتى مر بهما كل ما كان لهما من المال والولد وذلك قوله تعالى ــ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضرّ ــ الآية .

واختلف العلماء فى وقت ندائه ومدة بلائه والسبب الذى قال لأجله مسنى الضرّ .

حدثنا الامام ابو الحسين محمد بن على بن سهل املاء فى شهر ربيع الأول سنة اربع وثمانين وثلثمائة أخبرنا ابوطالب عمر بن الربيع بن سليمان الخشاب بمصر ، اخبرنا يحى بن أيوب العلاف اخبرنا سعيد بن ابى مريم اخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن نبيّ الله أيوب لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال احدهما لصاحبه : والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه احد من العالمين ، فقال له صاحبه وما أدراك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة له فى البلاء لم يرحمه الله ويكشف ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك فقال أيوب ما أدرى ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع الى بيتى فأنكفئ عنهما كراهة ان

يذكر الله تعالى الا في حق. قال وكان يخرج لحاجته فاذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وذلك أن الله تعالى أوحى الى أيوب فى مكانه أن — اركض برجلك — الآية فاستبطأته فذهبت لتنظر ماشأنه فأقبل عليها وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء وهو أحسن ما كان. فلما رأته قالت له هل رأيت نبيّ الله المبتلى . فقال انى أناهو وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض .

ويروى ان الله تعالى أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يحثو منه فى ثوبه ، فناداه يا أيوب ألم أغنك عما ترى قال بلى يارب ولكن لاغنى لى عن فضلك ورزقك ورحمتك ومن يشبع من نعمتك .

وقال الحسن : كان أيوب عليه السلام مطروحا على كناسة فى مزبلة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب . وقال وهب لم يكن بأيوب أكلة وانما كان يخرج منه مثل ثدى النساء ثم يتفقأ . قال الحسن ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة امرأته صبرت معه تخدمه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده وأيوب على مابه لايفترّ عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه الله ، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب ، فلما اجتمعوا عليه قالوا له ماحاجتك ؟ قال لهم أعيانى هذا العبد سألت ربى ان يسلطنى على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزده ذلك إلا صبرا وثناء على الله ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقى على كناسة لايقربه إلا امرأته وقد افتضحت من ربى فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له أين مكرك اين علمك الذى أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا علىّ قالوا نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجته من الجنة من أين اتيته قال من قبل امرأته . قالوا فشأنك وأيوب من قبل امرأته فانه لايستطيع ان يعصيها وليس أحد يقرب به غيرها قال اصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته وهى تطلب الصدقة فتمثل لها فى صورة رجل فقال ان بعلك يا أمة الله ؟ فقالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده ، فلما سمعها طمع ان تكون كلمة جزع فوسوس لها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وماهو فيه اليوم من الضرر وان ذلك لاينقطع عنه ابدا . قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال لها ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ ، قال فجاءت تصرخ وقالت يا أيوب الى متى يعذبك ربك ولايرحمك اين المال اين الماشية اين الولد اين الصديق اين ثوبك الحسن قد تغير وصار مثل الرماد واين جسمك الحسن قد بلى وهو يتردد فيه الدود اذبح هذه السخلة واسترح ، فقال لها أيوب : اتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبتيه ويلك ارأيت ماتبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أنعم به علينا ؟ قالت الله ، قال فكم متعنابه ؟ قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت منذ سبع سنين ، قال ويلك والله ماعدلت ولا انصفت ربك ألا صبرت فى هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ، والله لئن شفانى الله

لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتيني أن أذبح لغير الله تعالى وطعامك وشرابك الذى تأتينى به على حرام لا أذوق مما تأتيني به شيئا بعد ان قلت هذا فاعزبى عنى لا أراك فطردها فذهبت ، فلما رأى أيوب امرأته وقد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر لله ساجدا وقال رب مسنى الضر ثم رد الأمر إلى ربه وسلم فقال وأنت أرحم الراحمين . فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك ـ اركض برجلك ـ الآية فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل فلم يبق من دائه شيء ظاهر إلا سقط أثره وأذهب الله منه كل ألم وداء وكل سقم وعاد اليه شبابه وجماله أحسن مما كان وأفضل مما مضى ، ثم انه ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج فقام صحيحا وكسى حلة ، قال فجعل يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى شيئا مما كان له من أهل وولد ومال إلا وقد ضاعفه الله تعالى ، فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم إن امرأته قالت : أرأيت إن كان قد طردنى إلى من أكله أأدعه حتى يموت جوعا وعطشا ويضيع فتأكله السباع ، فوالله لأرجعن اليه فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحال التى كانت تعهدها وقد تغيرت الأمور . فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وأيوب ينظرها . قال وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله فأرسل اليها أيوب فدعاها وقال لها ماتريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان منبوذا على هذه الكناسة لا ادرى أضاع ام ماذا فعل به . فقال أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت بعلى فهل رأيته . فقال وهل تعرفينه اذا رأيتيه ؟ قالت وهل يخفى على ثم انها جعلت تنظر اليه وهى تهابه وقالت اما إنه كان أشبه خلق الله بك اذا كان صحيحا قال فأنا أيوب أمرتيني أن اذبح لابليس فانى أطعت الله وعصيت الشيطان فرد على ماترين .

وقال كعب : كان ايوب فى بلائه سبع سنين . وقال وهب لبث فى ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما واحدا . فلما غلب ايوب إبليس لعنه الله ولم يستطع له على شيء اعترض امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وجمال . فقال لها انت صاحبة ايوب المبتلى قالت نعم . قال فهل تعرفيننى قالت لا . قال انا إله الأرض وانا الذى صنعت بصاحبك ماصنعت وذلك انه عبد إله السماء وتركنى واغضبنى ولو سجدلى سجدة واحدة رددت عليكما ما كان لكما من مال وولد فانهم عندى ثم أراها اياهم فى بطن الوادى الذى لقيها فيه .

قال وهب : وقد سمعت انه قال لها : لو أن صاحبك اكل طعاما لم يسم عليه لعوفى مما هو فيه من البلاء والله اعلم ، واراد عدو الله ان يأتيه من قبلها ورأيت فى بعض الكتب ان إبليس قال لرحمة : وإن شئت اسجدى لى سجدة واحدة حتى ارد عليك الأولاد والمال ، واعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما اراد فقال لقد اراد عدو الله أن يفتنك عن دينك ثم إن ايوب اقسم ان عافاه الله ليضربنها مائة جلدة فقال عند ذلك مسنى الضر من طمع إبليس فى سجود حرمتى له ودعائه إياها واياى الى الكفر قالوا ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه

على البلاء وخفف عنها واراد أن يبر يمين ايوب فأمره ان يأخذ جماعة من الشجر مبلغ ماثة قضيبه خفافا لطافا فيضربها ضربة واحدة كما قال تعالى ـ وخذبيدك ضغثا فاضرب به ولاتحنث ـ الآية وقد كانت امرأة ايوب تتكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته ، فلما طـال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد التمست يوما من الأيام ماتطعمه فما وجدت شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف وأتته به فقال لها أين قرنك ؟ فأخبرته فقال عند ذلك مسنى الضرّ وقيل إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه فخشى ان يعيا عن الذكر والفكر وقيل إنما قال ذلك حـين وقعت الدودة من فخذه فأخذها وردها إلى موضعها . وقال لها كلى فقد جعلنى الله طعامك فعضته عضة زاد ألمه على جميع ماقاسى من عض الديدان . وقال عبد الله بن عمر كان لأيوب اخوان فأتياه فقاما من بعيد لايقدران على الدنوّ منه من نتن ريحه فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله علم فى ايوب خيرا ماابتلاه بما ترى . قال فما سمع أيوب شيئا كان أشدّ عليه من تلك الـكلمة وماجزع من شيء أصابه جزعه من تلك الـكلمة فعند ذلك. قال مسنى الضر ثم قال اللهم ان كنت تعلم أنى لم أبت ليلة شبعان قط وانا أعلم بمكان جائعا فصدقنى فصدقه وهما يسمعان، ثم قال اللهم إن كنت تعلم أنى لم اتخذ قميصا قط وانا أعلم بمكان عريانا فصدقنى فصدقه وهما يسمعان فخر ساجدا لله وقيل معناه مسنى الضر من شماتة الأعداء يدل عليه ماروى أنه قيل له بعد ماعوفى ما كان أشد عليك فى بلائك فقال شماتة الأعداء ، وأنشد بعضهم فى معناه .

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحساد
إن المصـائب تنقضى أيامهـا وشماتة الأعداء بالمرصاد

وقال الجنيد فى هذه الآية عرفه فاقة السؤال ليمن عليه بكرم النوال ، وذلك قوله تعالى ـ فـكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ـ الآية .

واختلف العلماء فى كيفية ذلك ، فقال قوم لما ابتلى الله أيوب فى الدنيا مثل له اهله فأما الذين هلـكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وإنما وعد الله ايوب ان يؤتيه إياهم فى الآخرة . وقال وهب كان له سبع بنات وثلاث بنين ، وقال آخرون بل ردهم الله تعالى اليه بأعيانهم وأعطاه اهله ومثلهم معهم وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب قالوا أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم وهـذا القول اشبه بظاهر الآية .

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعين سنة وانه أوصى عند موته الى ابنه حومل وأن الله بعث بعـده بشر بن أيوب نبيا وسماه ذا الـكفل وأمره بالدعاء الى توحيـده وأنه كان مقيما بالشام طول عمره حتى مات ، وكان مبلغ عمره خمسا وتسعين سنة وأن بشرا أوصى ابنه عبدان وان الله تعالى بعث بعده شعيبا عليه السلام والله أعلم .

مجلس فى قصة ذى الـكفل عليه السلام

هذا المجلس يأتى بعد فى آخر الـكتاب بعد قصة اليسع وما كتب ههنا زيادة فى المجلس المذكور

روى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبدالله بن الحارث أن نبيا من الأنبياء قال من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولايغضب فقام شاب فقال انا فقال له اجلس ، ثم إنه أعاد مثل قوله الأول فقام ذلك الشاب فقال انا فقال له اجلس ، ثم إنه أعاد قوله ثالثا فقال الشاب أنا فقال له تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب ، قال نعم ، فمات ذلك النبي فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لايغضب فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال من هذا ؟ فقال رجل له حاجة فأرسل اليه رجلا فقال لا أرضى بهذا الرجل فأرسل معه آخر فقال لاأرضى فخرج اليه فأخذ بيده وانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب فسمي ذا الكفل، وقال بعضهم ذو الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولا إلى أرض الروم فآمنوا به وصدقوه واتبعوه ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا يابشر إنا نحب الحياة ونكره الممات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله تعالى ورسوله فلوسألت الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا اذا شئنا لنعبده ونجاهد اعداءه فقال لهم بشر لقد سألتمونى عظيما وكلفتمونى شططا ثم إنه قام وصلى ودعا وقال إلهى أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وامرتنى أن أجاهد اعداءك وانت تعلم أنى لاأملك إلا نفسى . وان قومى قد سألونى فى ذلك ماأنت اعلم به منى فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى فأنا أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك . قال فأوحى الله تعالى اليه : يابشر إنى سمعت مقالة قومك . وإنى قد أعطيتهم ماسألونى . طولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا فكن كفيلا لهم منى بذلك فبلغهم بشر رسالة الله وأخبرهم بما أوحى الله اليه وتكفل لهم بذلك كما أمر الله تعالى فسمى ذا الكفل ثم انهم توالدوا وكثروا ونموا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنغصت معيشتهم وتأذوا بكثرتهم فسألوا بشرا ان يدعو الله أن يردهم إلى آجالهم فأوحى الله تعالى الى بشر أما علم قومك أن اختيارى لهم خير من اختيارهم لأنفسهم ثم انهم ردّوا الى أعمارهم فماتوا بآجالهم . قال فلذلك كثرت الروم حتى يقال إن الدنيا دارهم خمسة أسداسها للروم وسموا روما لأنهم نسبوا إلى جدهم روم بن عيص بن إسحق بن ابراهيم عليه السلام . قال وهب وكان بشر بن ايوب المسمى ذا الكفل مقيما بالشام حتى مات وكان عمره خمسا وتسعين سنة والله أعلم .

مجلس فى ذكر قصة شعيب النبي عليه السلام

قال الله تعالى ــ وإلى مدين أخاهم شعيبا ــ الآية ، اختلف العلماء فى نسب شعيب . فقال أهل التوراة هو شعيب بن صيفون بن عيفا بن نابت بن مدين بن ابراهيم . وقال محمد بن إسحق هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم واسمه بالسريانية يثرون وأمه ميكيل ابنة لوط وكان شعيب عليه السلام أعمى فذلك قوله تعالى إخبارا عن قومه ــ وإنا لنراك فينا ضعيفا ــ أى

ضريرا وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وان الله تعالى بعثه نبيا الى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة والأيكة الشجر الملتف .

وقال قتادة بعثه الله تعالى الى أمتين أهل مدين وأصحاب الأيكة . قالوا وكان قوم شعيب أهل كفر بالله وبخس للناس وتطفيف فى المكاييل والموازين وكان الله قد وسع لهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش استدراجا منه لهم فقال لهم شعيب — ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان — الآية ونظيرها فى الاعراف — فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم — الآية وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من قصد شعيبا ليؤمن به أنه كذاب فلايفتنك عن دينك ، وكانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم .

قال السدى وأبوروق كانوا عشارين . قال عبد الله بن زيد كانوا يقطعون الطريق .

وقال النبىّ ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى خشبة على الطريق لايمرّ بها ثوب أحد إلا شقته ولا شىء إلا حرقته ، فقلت ماهذا ياجبريل ؟ فقال هذا مثل اقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا — ولا تقعدوا بكل صراط توعدون —» الآية وكان من قول شعيب وجواب قومه إياه ماذكره الله تعالى فى سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء .

قال المفسرون وكان مما نهاهم عنه شعيب وعذبوا لأجله قطع الدنانير وذلك قوله تعالى — قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا . إلى قوله : الحليم الرشيد — أى السفيه الغاوى وهو على الضدّ كما يقال للحبشى أبو البيضاء وكقوله تعالى — ذق انك أنت العزيز الكريم — .

قال ابن عباس رضى الله عنهما كان شعيب كثير الصلاة ، فلما كثر فسادهم وقلّ صلاحهم دعا عليهم فقال — ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين — فأجاب الله تعالى دعاءه فيهم فأهلكهم بالرجفة وهى الزلزلة عن الكلبى ويقال بالصيحة وبعذاب الظلة .

قال ابن عباس وغيره وهى ان الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم فأرسل عليهم بردا وحرا شديدا فأخذا بأنفاسهم فدخلوا فى اجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولاماء فأنضجهم الحر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم ووجدوا لها بردا وجاءت ريح طيبة فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم نارا ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى فصاروا رمادا وذلك قوله تعالى — فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها — وقال تعالى — فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم — .

قال ابن عباس بلغنى أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهم لما رأى الظلة فيها العذاب اقشعر جلده وقال .

ياقوم ان شعيبا مرسل فذروا	عنكم شميرا وعمران بن شداد
إنى أرى غيمة ياقوم قد طلعت	تدعو بصوت على حنانة الوادى

فانه لن يرى فيها ضجاء غد إلا الرقيم يمشى بين انجاد

وشمير وعمران كاهنان لهم والرقيم كلب لهم . قال أبو عبد الله البجلى أبو جاد وحطى وهوز وكلن وسعفص وقرشت أسماء ملوكهم وكان ملكهم يوم الظلة فى زمن شعيب كلن فقالت أخت كلن تبكيه حين هلك .

كلن هدد ركنى هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الحتف نارا وسط ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحله

قال الله تعالى ـ الذين كذبو شعيبا كأن لم يغنوافيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ـ أى لهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

مجالس فى ذكر صفى الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام وهو يشتمل على أبواب

الباب الأول فى ذكر نسب موسى عليه السلام

قال الله تعالى ـ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ـ وهو موسى بن عمران ابن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام . قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين ولد ليعقوب لاوى وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ثم إن لاوى نكح نابتة بنت ماوى بن يشجب فولدت له غرسون ومرزى ومردى وقاهث ثم إن قاهث بعد ان مضى له من عمره ست وأربعون سنة نكح فاهى بنت مبين بن تنويل بن الياس فولدت له يصهر بن قاهث فنكح يصهر بن قاهث سميت بنت يتادم بن بركيا بن يشعان بن ابراهيم فولدت له عمران وقد مضى له من عمره ستون سنة وكان عمر يصهر مائة وسبعا وأربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نجيب بنت شمويل بن بركيا بن يشعان بن ابراهيم فولدت له هرون وموسى واختلف فى اسم أمهما فقال ابن إسحق نجيب وقيل ناجية وقيل يوخابيل وهو المشهور وكان عمر عمران مائة وسبعا وثلاثين سنة وولد له موسى عليه السلام وقد مضى من عمره سبعون سنة والله أعلم .

الباب الثانى فى ذكر مولد موسى عليه السلام

قال أهل التاريخ لما مات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه السلام وهو الذى ولى يوسف خزائن أرضه وأسلم على يده فلما مات ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف الثانى فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى وكان جبارا وقبض الله يوسف فى ملكه وطال ملكه ثم هلك وقام بالملك بعده اخوه ابو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن إراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان أغنى من قابوس

وا كبر وأفجر وامتدت أيام ملكه وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وقد انتشروا وكثروا وهم تحت العمالقة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب واسحق وابراهيم شرعوا فيه من الاسلام متمسكون به حتى كان فرعون موسى الذى بعثه الله اليه وقد ذكرنا اسمه ونسبه ولم يكن فيهم فرعون أعتى على الله ولا أعظم قولا ولا أقسى قلبا ولاأطول عمرا فى ملكه ولا أسوأ ملكا لبنى اسرائيل منه وكان يعذبهم ويستعبدهم وجعلهم خدما وخولا وصنفهم فى أعماله فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنف يتولون الأعمال القذرة ومن لم يكن أهلا للعمل فعليه الجزية كما قال الله تعالى ـ يسومونكم سوء العذاب ـ وقد استنكح فرعون منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم رضى الله عنها من خيار النساء المعدودات ويقال هى آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول فأسلمت على يد موسى.

قال مقاتل : لم يسلم من أهل مصر إلا ثلاثة آسية وحزقيل ومريم بنت تاموسى التى دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام قالوا فعمر فرعون فيهم وهم تحت يده عمرا طويلا يقال إنه أربعمائة سنة يسومهم سوء العذاب فلما أراد الله أن يفرّج عنهم بعث موسى عليه السلام وكان بدء ذلك على ماذكره السدى عن رجاله ان فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بنى اسرائيل فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه فقالوا يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل فجمع القوابل من النساء من أهل مملكته وقال لهن لايسقط على أيديكنّ غلام من بنى إسرائيل إلا قتلتنه ولا جارية إلا تركتنها ووكل بهنّ وكلاء فكن يفعلن ذلك .

قال مجاهد : لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض ثم يأتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيوقفهن عليه فتجرح أقدامهن حتى ان المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها فتظل تطؤه وتتقى به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها . وكان يقتل الغلمان الذين فى وقته ويقتل من يولد بعدهم ويعذب الحبالى حتى يضعن مافى بطونهنّ وأسرع الموت فى مشيخة بنى اسرائيل فدخل رءوس القبط على فرعون وقالوا له إن الموت قد وقع فى مشايخ بنى اسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة فولد هرون فى السنة التى لايذبح فيها أحد فترك وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها قال فولدت هرون أمه علانية آمنة فلما كان فى العام الذى أمر فيه بقتل الولدان حملت بموسى فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه واشتد غمها فأوحى الله تعالى اليها ـ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ

إلى قوله : المرسلين ـ فلما وضعته فى خفية أرضعته ، ثم إنها اتخذت له تابوتا وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه .

قال مقاتل : وكان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون ، وقيـل إنه كان من بردى فاتخذت أم موسى التابوت وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى وصرّت رأسه ثم ألقته فى النيل فلما فعلت ذلك وتوارى عنها أتاها الشـيطان فوسوس اليها فقالت فى نفسها ماذا صنعت بابنى لو ذبح عندى لواريته وكفنته كان أحبّ الىّ من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر ثم عصمها الله تعالى وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون الى روضـة هى مستقى جوارى فرعون وكان بالقرب منها نهر كبير فى دار فرعون داخل فى بستانه فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقين فوجدن التابوت فأخذنه وظنّن أن فيه مالا فحملنه على حالته حتى أدخلنه الى آسية فلما فتحته رأت فيه الغلام فألقى الله تعالى عليها محبة منه فرحمته آسية وأحبته حبا شديدا فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على آسـية بشفارهم ليذبحوا الصبى فقالت آسية للذباحين انصرفوا فان هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل فأنا آتى فرعون وأستوهبه إياه فان وهبه لى كنتم قد أحسنتم وان أمركم بذبحه فلا ألومكم ، ثم إنها أتت به فرعون وقالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا فقال فرعون قرة عين لك أما أنا فلا حاجة لى فيه قال رسول الله ﷺ والذى يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت لهداه الله تعالى به كما هدى به امرأته ولـكن الله تعالى حرمه ذلك قال فأراد أن يذبحه وقال انى أخاف ان يكون هذا من بنى اسرائيل وان يكون هذا الذى هلاكنا على يده وزوال ملـكنا فلم تزل آسية تـكلمه حتى وهبه لها فلما آمنت آسية أرادت ان تسميه باسم اقتضاه حاله فسمته موشى لأنه وجد بين الماء والشجر ، وهو بلغة القبط : مو الماء وشى الشجر فعرب فقيل موسى .

أخبرنا ابن فتحويه اخبرنا مخلد بن جعفر اخبرنا الحسن بن علوية اخبرنا اسماعيل بن عيسى اخبرنا ابن بشير اخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن بنى اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ووافق خيارهم أشرارهم ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب فذبحوا أبناءهم . قال وقال ابو الياس : قال وهب بلغنى انه ذبح فى طلب موسى سبعون ألف ولد .

قال اسحق عن ابن عباس : ان أم موسى لما قاربت ولادتها وكانت قابلة من القوابل التى وكلهنّ فرعون بحبالى بنى اسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت اليها أم موسى فقالت نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك إياى فقالت لها نعم فعالجت قبالها فلما وقع موسى على الأرض أضاء لها نور بين عينى موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى فى قلبها . ثم قالت لها ياهذه ماجئت اليك حين دعوتينى إلا فى رأى قتل ولدك وإخبار فرعون بذلك ولـكن وجدت لابنك هذا حبا ماوجدت حب شىء مثله فاحتفظى بابنك فانى أراه هو عدونا . فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى

بابها ليدخل على موسى . فقالت أخته ياأماه : هذا الحرس بالباب فطاش عقلها فلم تعقل ماتصنع به خوفا على موسى فلفت موسى فى خرقة والقته فى التنور وهو مسجور . وكان ذلك إلهاما من الله تعالى لها لما أراد الله بعبده موسى فدخلوا فاذا التنور مسجور وأم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن . فقالوا لها ماأدخل عليك هذه القابلة قالت هى مصافية لى فدخلت علىّ زائرة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها . فقالت أخت موسى : أين الصبىّ قالت لاأدرى فسمعت بكاء الصبىّ فى التنور فانطلقت فوجدته قد جعل الله تعالى عليه النار بردا وسلاما فاحتملته .

قال اسحق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ولدها فقذف الله فى نفسها أن تتخذله تابوتا ثم تقذفه فى اليمّ وهو النيل فانطلقت إلى رجل نجار من أهل مصر من قوم فرعون فاشترت منه تابوتا صغيرا فقال لها النجار ماتصنعين بهذا التابوت ؟ فقالت أخبأ فيه ابنا لى وكرهت أن تكذب قال لم ؟ قالت أخشى كيد فرعون ؟ قال فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمرها . فلما همّ بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطلق فجعل يشير بيده فلم تدر الأمناء مايقول . فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه . فلما انتهى النجار الى موضعه ردّ الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله تعالى بلسانه وبصره فلم ينطق الكلام ولم يبصر شيئا فضربوه وأخرجوه فوقع فى واد يهوى فيه حيران فأشهد الله تعالى عليه إن ردّ له لسانه وبصره أن لايدل عليه وان يكون معه يحفظه حيثما كان فعلم الله منه الصدق فردّ عليه لسانه وبصره فخرّ لله ساجدا ، وعلم أن ذلك من الله تعالى فآمن به وصدقه . فانطلقت أم موسى به وألقته فى البحر ، وذلك بعد ما أرضعته ثلاثة اشهر ، وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها اليه ، وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها الأطباء من مصر والسحرة فنظروا فى أمرها . فقالوا له أيها الملك إنا لانرى برأها إلا من قبل البحر شىء يؤخذ منه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا فى ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس . فلما كان فى يوم الاثنين غدا فرعون الى مجلس له كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون وجواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن فبينما هن على ذلك إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج . فقال فرعون إن هذا لشىء فى البحر قد تعلق بالشجر ائتونى به فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا فدنت منه آسية فرأت فى جوف التابوت نورا لم يره غيرها للأمر الذى أراد الله تعالى من اكرامها وهدايتها فعالجته ففتحت التابوت فاذا هى بصبى صغير فى مهده والنور بين عينيه وقد جعل الله رزقه فى ابهامه يمص منها لبنا فألقى الله

تعالى محبة موسى فى قلبها وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت بنت فرعون عليه فلما أخرجوه من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك انا نظن ان المولود الذى تحذر منه من بنى اسرائيل هو هذا ارم به فى البحر أو اقتله فهمّ فرعون بقتله فاستوهبته منه آسية فوهبه لها ثم إنه قال سميه فقالت قد سميته موشى لأنه وجد بين الماء والشجر .

قالوا ثم ان أم موسى قالت لأخته وكانت تسمى مريم قصيه أى اتبعى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحىّ هو أم قد أهلكته دواب البحر ونسيت وعد الله فبصرت به عن جنب أى عن بعد وهم لايشعرون أنها أخته وكانت آسية قد أرسلت إلى من حولها من كل أنثى بها لبن لتختار له ظئرا تربى موسى فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت آسية ان يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق لتجتمع عليه الناس ترجو ان تصيب له ظئرا يقبلها ويأخذ ثديها ويرضع منها فلم يقبل ثدى امرأة فذلك قوله عز وجل — وحرمنا عليه المراضع من قبل — فقالت أخت موسى حين أعياهم امره وأعيا الظؤورة هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها وقالو لها وما يدريك بنصحهم له ولعلك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ماأعرفهم وانما نصحهم له وشفقتهم عليه من أجل رغبتهم فى ظؤورة الملك ورجاء منفعته فتركوها فانطلقت إلى أمه فأخبرتها بالخبر فأتت فلما وضعته على ثديها فى حجرها نزل اللبن من ثديها حتى ملأ جنبيه فانطلق البشير إلى آسية يبشرها ان قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت اليها فأتى بها فلما رأت مايصنع بها قالت لها امكثى عندى ترضعى ابنى هذا فانى لم أحب شيئا مثل حبه قط قالت لا أستطيع أن ادع بيتى وولدى فيضيعوا فان طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى وولدى فيكون معى ولا أولى له إلا خيرا فعلت وإلا فانى غيرتاركة بيتى وولدى فتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وايقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده فرجعت بابنها إلى بيتها من وقتها .

وقيل كانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة ايام ثم رده الله اليها وذلك قوله عزوجل — فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن — فلما جاءت به أمه الى بيتها كادت تقول هو ابنى فعصمها الله عز وجل فذلك قوله تعالى — ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين — وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه . فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى أحب ان تريني ابنى فوعدتها يوما تريها إياه فيه فقالت آسية لخواصها وقهارمتها لا يبقى منكن واحدة الا استقبلت ابنى بهدية وكرامة فانى باعثة أمينة تحصى ماتصنع كل قهرمانة منكنّ فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت ان أخرج من بيت أمه الى أن دخل على امرأة فرعون فلما ان دخل عليها أكرمته وفرحت به واعجبها مارأت من حسن أثرها عليه ، ثم قالت لها انطلق به الى فرعون ليكرمه فلما دخلت به على فرعون أخذه

ووضعه فى حجره فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها ونتف منها بعض شعرات ، وكان فرعون طويل اللحية ويقال أنه لطم وجهه .

وفى بعض الروايات : انه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير فضرب به على رأس فرعون فغضب غضبا شديدا وتطير منه . وقال هذا عدوى المطلوب فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه فبلغ ذلك امرأة فرعون فجاءت تسعى الى فرعون وقالت له مابدالك فى هذا الصبى الذى قد وهبته لى فأخبرها بمافعل موسى فقالت له انما هو صبى لا يعقل وانما صنع هذا من صباه وانا اجعل فيه بينى وبينك أمرا تعرف به الحق وأضع له حليا من الذهب والياقوت وأضع له جمرا فان أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وان أخذ الجمرة علمت انه صبى . ثم إنها وضعت له طستا فيه الذهب والياقوت وطستا آخر فيه الجمرة فمد موسى يده على أن يأخذ الجوهر ليقبض عليه فحوّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة ووضعها فى فيه فجاءت على لسانه فأحرقته وذلك الذى قال فى قوله تعالى ــ واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ــ فقالت له آسية ألا ترى الى فعله وانه صبىّ لا يعقل فكيف عن قتله وصرف الله عنه ذلك السوء فلم يزل عزيزا مكرّما فى بيت فرعون . وحببه الله اليه والى الناس كلهم حتى كان يحبه كل من يراه .

ويروى أنه سئل إبليس هل أحببت أحدا من العالمين قال لا إلاموسى بن عمران عليه السلام فقيل له وكيف ذلك فقال لأن الله تعالى قال ــ وألقيت عليك محبة منى ــ فلم أتمالك أن أحببته .

الباب الثالث : فى ذكر حلية موسى بن عمران وهرون عليهما السلام

قال كعب الأحبار : كان هرون بن عمران نبى الله رجلا فصيح اللسان بين الكلام إذا تكلم تكلم بتؤدة وعلم ، وكان أطول من موسى وكان على رأسه شامة وعلى طرف لسانه أيضا شامة سوداء ، وكان موسى بن عمران رجلا آدم اللون جعدا طويلا كأنه من رجال أزدشنوءة وكان بلسان موسى عقدة ثقل وسرعة وعجلة وكان أيضا على طرف لسانه شامة سوداء .

الباب الرابع : فى قصة قتله القبطى وخروجه من مصر وورووده مدين

قال أهل التفسير لما بلغ موسى بن عمران أشده كان يركب مراكب فرعون ويلبس مايلبس فرعون كان يدعى موسى بن فرعون وامتنع به عن بنى اسرائيل كثير من الظلم والسخر التى كانت فيهم ولا يعلم الناس ان ذلك إلا من قبل الرضاعة قالوا فركب فرعون ذات يوم مركبا وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب فركب موسى فى أثره وأدركه القيل بأرض يقال لها منف فدخلها نصف النهار وقد أغلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد وهى التى قال الله تعالى فيها ــ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ــ فبينما هو يمشى فى ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتتلان أحدهما من بنى اسرائيل والآخر من آل فرعون كما قال الله تعالى ــ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه ــ الآية

والذى من شيعته يقال له السامرىّ والذى من عدوّه رجل من القبط كان خبازا لفرعون واسمه فاتون وكان قد اشترى حطبا للمطبخ فسخر السامرىّ ليحمله فامتنع السامرىّ فلما مر به موسى استغاثه السامرىّ على القبطى فقال موسى للقبطى دعه فقال الخباز لموسى إنما آخذه فى عمل أبيك وأبى أن يخلى سبيله فغضب موسى فبطش به وخلص السامرىّ من يده فنازعه القبطى فوكزه موسى فقتله وهو لا يريد قتله فذلك قوله تعالى ـ فوكزه موسى فقضى عليه قال ـ موسى ـ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ثم ـ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ـ .

وقال وهب : أوحى الله الى موسى بن عمران وعزتى وجلالى : لو كانت النفس التى قتلت أقرت لى طرفة عين أنى إله خالق رازق لأذقتك طعم العذاب وإنما عفوت عنك لأنها لم تقرّ لى ساعة واحدة أنى إله خالق رازق . قالوا ولما قتل موسى القبطى لم يرها إلا الله تعالى والاسرائيلى فلما قتله أصبح فى المدينة خائفا يترقب الأخبار فأتوا فرعون وقالوا إن بنى اسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فى ذلك فقال فرعون ائتونى بقاتله ومن يشهد عليه لأنه لا يستقيم أن يقضى بغير بينة ولا يثبت ملك على الأخذ بالظلم فاطلبوا ذلك فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الاسرائيلى يقاتل فرعونيا فاستغاثه الاسرائيلى على قتال الفرعونى فصادف موسى وهو نادم على ما كان منه بالأمس فكره الذى رآه فغضب موسى فمدّ يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونى وقال للاسرائيلى ـ إنك لغوى مبين ـ ففر الاسرائيلى من موسى وظن أنه يبطش به من أجل انه غلظ عليه فى الكلام وكان غضبان فلما أقبل لنصره ومد يده ظن أنه يريد قتله فقال له ـ ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ـ الآية ، وانما قال ذلك مخافة من موسى وظن ان يكون موسى أراده ولم يكن أراده ، وانما أراد الفرعونى فتنازعا فذهب الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الاسرائيلى ، وذكر أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس وهو المثل السائر : العدو العاقل أحرى عليك من الصديق الأحمق ، وينشد فى معناه .

إن اللبيب اذا تزايد بغضه ⁂ أحرى عليك من الصديق الأحمق

قال فلما أخبر فرعون بذلك أرسل الذباحين وأمرهم بقتل موسى وقال لهم اطلبوه فانه غلام يهتدى الى الطريق فطلب موسى فى ثنيات الطريق وكان موسى يسلك الطريق الأعظم فجاءه رجل من شيعته من أقصى المدينة يقال له حزقيل وكان على بقية من دين ابراهيم وكان أول من صدّق بموسى وآمن به .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب يس وعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه بالجنة وهو أفضلهم » قال جاء حزقيل مؤمن آل فرعون فأخبر موسى بما أمر به فرعون من قتله واختصر طريقا قريبا حتى سبق الذباحين اليه فأخبره الخبر فذلك قوله تعالى ـ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن

الملأ يأتمرون ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ـ فتحير موسى ولم يدر أين يذهب فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فقال له اتبعنى فاتبعه فهداه الطريق إلى مدين .

وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج موسى من مصر الى مدين وبينهما مسيرة ثمان ليال ويقال نحو من الكوفة الى البصرة فلم يكن له طعام إلا ورق الشجر فما وصل اليها الاوقد وقع خف قدمه وان خضرة البقول لترى من بطنه .

الباب الخامس فى دخول موسى مدين وتزويج شعيب ابنته إياه

قالت العلماء : لما انتهى موسى الى أرض مدين فى ثمان ليال نزل فى أصل شجرة واذا تحتها بئر وهى التى قال الله تعالى ـ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهما امرأتين تذودان ـ اى تحبسان أغنامهما فقال لهما ـ ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء ـ لأنا امرأتان ضعيفتان لانقدر على مزاحمة الرعاء فاذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم ومايبقى من حياضهم ـ وأبونا شيخ كبير ـ تعنيان شعيبا .

وروى حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابن عباس قال : اسم أبى امرأة موسى الذى استأجره ثيرون صاحب مدين ابن أخى شعيب النبى عليه السلام واسم إحدى الجاريتين ليا ويقال حنونا والأخرى صفورا وهى امرأة موسى عليه السلام فلما قالتا ذلك لموسى رحمهما وكان هناك بئر على رأسها صخرة عظيمة وكان النفر من الرجال يجتمعون اليها حتى يرفعوها عن رأسها .

وحكى الأستاذ أبو سعيد عبد الملك بن أبى عثمان الواعظ ان تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاء قال وقد حضرتها ورأيتها ، قال فرفع موسى الصخرة عن رأسها وأخذ دلوا لهما وقال لهما قدما غنمكما فسقى لهما أغنامهما حتى أرواها فرجعتا الى أبيهما سريعا قبل الناس وتولى موسى الى الظل ظل الشجرة و ـ قال رب إنى لما أنزلت الىّ من خير فقير ـ قال ابن عباس لقد قال ذلك موسى ولو شاء إنسان أن ينظر الى خضرة أمعائه من شدة الجوع لنظرها وماسأل الله تعالى إلا أكلة وقال ابو جعفر محمد الباقر لقد قالها وإنه لمحتاج الى شق تمرة قالوا فلما رجعتا الى أبيهما قال لهما ما أعجلكما وأسرع رواحكما الليلة قالتا وجدنا رجلا صالحا فرحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه الىّ فجاءته إحداهما وهى التى تزوجها موسى وهى تمشى على استحياء قالت له إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا فقام موسى فتقدمته وهو يليها : اى يتبعها فهبت ريح فألصقت ثوب المرأة بردفها فكره موسى ان يرى ذلك منها فقال لها موسى امشى خلفى ودليني على الطريق فاذا أخطأت فارمى قدامى بحصاة حتى أنهج نهجا فانا بنى يعقوب لا ننظر الى أعجاز النساء فنعتت له الطريق الى منزل أبيها ومشت خلفه حتى دخل على شعيب فسأل شعيب موسى عن حاله وقصته فأخبره الخبر فقال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين فقالت احداهما وهى التى كانت الرسول الى موسى يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوىّ الأمين .

قال النبي ﷺ « أصدق النساء فراسة امرأتان كلتاهما تفرستا فى موسى فأصابتا احداهما امرأة فرعون حين قالت قرة عين لى ولك لاتقتلوه والأخرى بنت شعيب حيث قالت ـ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ـ وإنما قالت القوىّ الأمين لأنه أزال الحجر العظيم الذى لا يرفعه إلا أربعون رجلا فقال لها أبوها هبك انك عرفت قوّته فما أعلمك بأمانته فأخبرته بما أمرها موسى من استدبارها إياه فى الطريق فازداد فيه شعيب رغبة فقال له ـ إنى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ـ الى قوله من الصالحين : اى فى حسن الصحبة معك والوفاء بشرطك فقال موسى ـ ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت ـ الآية .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه سئل : اى الأجلين قضى موسى قال أكملهما وأفضلهما ، وروى أنه قال قضى أوفاهما وتزوج بصغراهما .

الباب السادس فى ذكر نعت عصا موسى وبدء أمرها

اختلف العلماء فى اسمها والمنافع التى كانت فيها وماظهر من دلالة قدرة الله فيها قالوا ثم ان شعيبا أمر ابنته أن تأتيه بعصا ليعطيها موسى فيستعين بها فى رعايته فجاءته بعصا وكانت تلك العصا وديعة عنده دفعها اليه ملك على صورة رجل فردها عليها شعيب وأمرها ان تأتيه بعصا أخرى فما زالت ترجع وتأتيه بها بعينها لأنها كانت كلما ردتها الى مكانها وأرادت ان تأخذ غيرها سقطت هى فى يدها فما زالت كذلك حتى أخذها شعيب وأعطاها موسى فلما أعطاه إياها ندم على ذلك لأنها كانت وديعة عنده فقال له شعيب رد علىّ العصا فأبى ان يردها عليه فتنازعا الى أن شرطا على أنفسهما ان يرتضيا حكم أول رجل يدخل عليهما فأتاهما ملك يمشى فتحاكما اليه فقال ضعها على الأرض فمن حملها فهى له فوضعها موسى على الأرض فعالجها الشيخ فلم يطق حملها فأخذها موسى بيده فرفعها فلما رأى شعيب ذلك تركها له ، وفى رواية أخرى ان موسى لبث عند شعيب ماشاء الله ثم استأذنه فى الانصراف فأذن له وقال له ادخل هذا البيت وخذ عصا من العصى تكون معك تدرأ بها السباع عنك وعن غنمك وكانت عصى الأنبياء عند شعيب فلما دخل موسى البيت وثبت اليه العصا فصارت فى يده فخرج بها فقال شعيب ردها وخذ غيرها وذلك ان شعيبا كان قد أخبر بأمر العصا ولم يدر شعيب ان صاحبها هو موسى فردها موسى الى البيت فألقاها وذهب ليأخذ غيرها فوثبت حتى صارت فى يده ففعل ذلك مرارا فقال له شعيب ألم أقل لك خذ غيرها فقال موسى قد رددتها مرات فكلما فعلت ذلك وثبت حتى تصير فى يدى فعلم شعيب أن ذلك أمر يريده الله تعالى فقال له خذها .

قالوا : وزوجه ابنته ورعى له موسى عشر سنين وولد لموسى أولاد من ابنة شعيب . قالوا لما خرج موسى من مدين ووافى مصر كان شعيب يزوره فى كل سنة فاذا أكل قام موسى على رأسه ثم يكسر له الخبز ويلقيه بين يديه ويقول له كل .

وقال مقاتل : بل كان جبريل هو الذى دفع العصا الى موسى وهو متوجه الى مدين بالليل . قاله كعب : لما قدم مكة عبد الله بن عمرو بن العاص قلت سلوه عن ثلاث فان أخبركم فانه عالم سلوه عن شىء من الجنة وضعه الله للناس وعن أول ما وضع فى الأرض وعن أول شجرة غرست فى الأرض فسئل عنها فقال عبد الله : أما الشىء الذى وضعه الله للناس فى الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود ، وأما أول ماوضع للناس فى الأرض فبئر برهوت باليمن يردها أرواح الكفار وأما أول شجرة وضعها الله تعالى فى الأرض فالعوسجة التى اقتطع منها موسى عصاه فلما بلغ ذلك كعبا قال صدق الرجل فعلى هذا القول إنما اقتطع موسى عصاه من تلك الشجرة فأظهر الله فيها قدرته ومعجزة موسى فيها وقال ابن عباس كتب صاحب الروم الى معاوية يسأله عن أربعة أشياء لم يركضوا فى رحم فلما قرأ معاوية الكتاب قال أخزاه الله وما علمى بها ههنا فقيل له اكتب الى ابن عباس فاسأله عن ذلك فكتب اليه يسأله عنها فكتب اليه ابن عباس فى الجواب أما الأربعة التى لم يركضوا فى رحم فآدم وحواء والكبش الذى فدى به اسماعيل وعصى موسى حيث ألقاها فصارت ثعبانا . وقال أكثر العلماء كانت عصا موسى من آس الجنة وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى حملها آدم من الجنة الى الأرض فورثها الناس صاغرا عن كابر الى أن وصلت الى شعيب فأعطاها موسى واختلف العلماء فى اسمها فقال سعيد بن جبير اسمها ماسا وقال مقاتل بن سليمان اسمها نفعة وقال ابن حبان اسمها غياث وقال آخرون اسمها عليق .

الباب السابع فى صفة المآرب التى كانت فيها لموسى

قال أهل العلم بأخبار الماضين كان لعصا موسى شعبتان ومحجن فى أسفل الشعبتين وسنان حديد فى أسفلها وكان موسى إذا دخل مفازة ليلا ولم يكن قمر تضىء شعبتاها كالشعبتين من نار تضيئان له مد البصر وكان إذا أعوزه الماء دلاها فى البئر فتمتد على قدر قعر البئر ويصير فى رأسها شبه الدلو فيستقى بها واذا احتاج الى الطعام ضرب الأرض بها فيخرج ما يأكل يومه وكان اذا اشتهى فاكهة من الفواكه غرسها فى الأرض فتخرج أغصان تلك الشجرة التى اشتهى موسى فاكهتها وأثمرت له من ساعتها ويقال كانت عصا موسى من اللوز وكان إذا جاع ركزها فى الأرض فأورقت وأثمرت وأطعمت وكان يأكل منها اللوز وكان اذا قابل بها عدوه يظهر على شعبتيها تنينان يقاتلان وكان يضرب بها على الجبل الوعر الصعب المرتقى وعلى الحجر والشوك فتفرج له الطريق وكان اذا أراد عبور نهر من الأنهار بلا سفينة ضرب بها عليه فانفلق وبدا له فيه طريق منفرج وكان يشرب من إحدى شعبتيها العسل ومن الأخرى اللبن وكان إذا أعيا فى طريقه ركبها فتحمله الى اى موضع شاء من غير ركض ولا تحريك وكانت تدله على الطريق وكانت تقاتل أعداءه عنه وكان اذا طلب منها الطيب فاح منها الطيب فيتطيب ويطيب ثوبه واذا كان فى طريق فيه لصوص يخاف الناس جانبهم تكلمه العصا فتقول له خذ جانب كذا وكذا ولا تأخذ حيث كذا وكذا وكان يهش بها على غنمه ويدفع بها السباع عنها والحشرات

والحيات واذا سافر وضعها على عاتقه وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساءه وطعامه وشرابه . قال ابن حبان قال شعيب لموسى حين زوّجه ابنته وسلم اليه أغنامه يرعاها اذهب بهذه الأغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها أكثر فان هناك تنينا عظيما أخشى عليك وعلى الأغنام منه فذهب موسى بالأغنام حتى اذا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى ان يصرفها ذات الشمال فلم تطعه فخلاها على ماتريده ثم نام موسى والأغنام ترعى واذا التنين قد جاء فقامت العصا فحاربته فقتلته وأتت فاستلقت الى جانب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى رأى العصا دامية والتنين مقتولا فعلم موسى ان فى تلك العصا قدرة وعرف ان لها شأنا ، فهذه مآرب موسى اذا كانت فى يده . وأما اذا ألقاها فيرى أنها كانت تقلب حية كأعظم مايكون من الثعابين سوداء مدلهمة تدب على أربع قوائم فتصير شعبتاها فما وفيه اثنا عشر نابا وضرسا لها صريف وصرير يخرج منها لهب النار ، ويصير محجنها عرفا لها كأمثال النار تلتهب ، وعيناها تلمعان كما يلمع البرق تهب منها رياح السموم فلا تصيب شيئا إلا أحرقته تمر بالصخرة مثل الناقة الكوماء فتبتلعها حتى إن الصخور فى جوفها التقعقع ، وتمر بالشجر فتقصمها بأنيابها وتحطمها وتبتلعها وجعلت تتلمظ وتبرم كأنها تطلب شيئا تأكله وكانت تكون فى عظم الثعبان وفى خفة الجان ولين الحية ، وذلك موافق لنص القرآن حيث يقول الله تعالى فى موضع ـ فاذاهى ثعبان مبين ـ وفى موضع آخر ـ كأنها جان وفى موضع آخر ـ فاذاهى حية تسعى ـ .

الباب الثامن فى ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين وتكليم الله إياه فى الطريق وارساله الى فرعون واستعانته بأخيه هرون ، وكيفية ذهابهما الى فرعون لتبليغ الرسالة

قال الله عزوجل ـ فلما قضى موسى الأجل ـ الآية . قالت العلماء بسير الأنبياء : لما وردموسى أرض مدين وأتى عليه من يوم وروده تسع سنين ، قال له شعيب انى وهبت لك كلّ بلقاء وأبلق من نتاج اغنامى التى تضعها فى هذه السنة : يعنى السنة العاشرة أراد بذلك مبرة موسى وصلة ابنته صفورا امرأة موسى . قال فأوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الأغنام ففعل موسى ذلك ثم سقى الأغنام من ذلك الماء فما اخطأت واحدة من تلك الأغنام إلا وضعت حملها مرتين مابين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى واهله فوفى موسى بشرطه وسلم اليه الأغنام التى وهبها منه وقضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما ـ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ـ منفصلا من ارض مدين وكان فى أيام الشتاء ومعه امرأته وأغنامه وهى فى شهرها لاتدرى أتضع ليلا أم نهارا فانطلق فى برية الشام عادلا عن المدائن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام وكان أكبر همه يومئذ طلب أخيه هرون واخراجه من مصر إن استطاع اليه سبيلا ، فسار موسى فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه السير الى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشية شاتية شديدة البرد وأظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر واخذ امرأته الطلق ، فعمد موسى إلى زنده

فقدحه فلم ينور فتحير وقام وقعد إذ لم يكن له عهد بمثل ذلك فى الزند ، وأخذ يتأمل ماقرب ومابعد تحيرا وضجرا ثم أخذ يتسمع طويلا هل يسمع حسا أوحركة فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نورا فحسبه نارا ـ فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ـ يعنى من يدلنى على الطريق وكان قد ضل الطريق فلما أتاها رأى نورا عظيما ممتدا من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك ، واختلفوا فى تلك الشجرة ما كانت فقيل العوسجة وقيل العناب فتحير موسى وارتعدت فرائصه حيث رأى نارا عظيمة ليس لها دخان وهى تلتهب وتشتعل من جوف شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظما ولا تزداد الشجرة الا خضرة ، فلما دنا موسى منها استأخرت عنه فلما رأى ذلك رجع عنها وخاف ثم ذكر حاجته الى النار فرجع اليها ودنت منه ـ فنودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ـ أن ياموسى ـ فنظر فلم ير أحدا فنودى ـ إنى انا الله رب العالمين ـ فلما سمع ذلك علم أنه ربه تعالى فناداه ربه ان ادن واقرب ، فلما قرب وسمع النداء ورأى تلك الهيبة خفق قلبه وكلّ لسانه وضعفت بنيته وصار حيا كميت إلا أن روح الحياة تتردد فيه من غير حراك ، وأرسل الله اليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه فلما ثاب اليه عقله نودى ـ فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ـ وكان السبب فى أمره بخلع نعليه ما أخبرنا حامد بن عبدالله الأصبهانى قال حدثنا يحي السدى ، قال حدثنا أحمد بن بجدة ، قال حدثنا الجمالى ، قال حدثنا عيسى بن يونس عن حميد عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ فى قوله فاخلع نعليك قال « كانتا من جلد حمار ميت » وفى بعض الأخبار غير مدبوغ :

وقال مجاهد وعكرمة : انما قال فاخلع نعليك كى تمس راحة قدمية الأرض الطيبة فتناله بركتها لأنها قدست مرتين ، وقال سعيد بن جبير إنما قال له ذلك لأن الحفوة من أمارات التواضع والاحترام فقيل له طأ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة لتحصل من بركة الوادى . وقال أهل الاشارة : النعل عبارة عن المرأة ، وذلك تأويله فى المنام فقيل له فرغ قلبك من شغل أهلك . ثم قال تعالى تسكينا لقلبه وإذهابا لدهشته ـ وماتلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى ـ الآية فقال الله تعالى ـ ألقها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى ـ قد صارت شعبتاها فمها ومحجنها عرفا لها فى ظهرها وهى تهتز لها أنياب وهى كما شاء الله أن تكون فرأى موسى أمرا فظيعا فولى موسى مدبرا ولم يعقب فناداه ربه تعالى أن ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين سنعيدها سيرتها الأولى : أى نردها عصا كما كانت ويقال إن الحكمة فى أمر الله تعالى إياه بالقاء العصا قبل أن يصل الى فرعون لكيلا يفزع منها موسى إذا رآها على تلك الحالة عند فرعون ، فلما أقبل موسى قال له خذها إذ كانت عصاك ولا تخف لأنه كان ادعى الملك فقال هى عصاى فنبه على ذلك ، وكان على موسى جبة من صوف فلف كمه على يده وهو لها هائب فنودى أن احسر يدك فحسر كمه عن يده ثم أدخل يده تحت لحيها فلما أدخل يده قبض فاذا هى عصاه فى يده ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها ، ثم قال له أدخل يدك فى جيبك تخرج

بيضاء من غير سوء آية أخرى ، وإنما قال فى جيبك لأنه لم يكن للبوسه كم واسع فضاق عليه فأدخله يده فى جيبه ثم أخرجها ، فإذا هى نور تلتهب يكلّ عنه البصر ثم ردها فخرجت كما كانت على لون يده ، فقال الله تعالى — فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه — الآية ثم قال له — اذهب إلى فرعون إنه طغى — فقال موسى — رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، الى قوله يكذبون — فقال له ياموسى انى أوقفتك موقفا لاأجعل بعده لأحد عليك سلطانا دونى ولاينبغى لمن بعدك أن يسمع كلامى وأنت فى اقرب الأماكن منى ، وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خللها بخلال وجبة من صوف وثياب من صوف وقلنسوه من صوف والله تعالى يكلمه ويعهد اليه ويقول له ياموسى انطلق برسالتى وأنت بعينى وسمعى ومعك قوتى وبصرى بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وعبدونى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وزعم أنه لايعرفنى ، وانى أحلف بعزتى وجلالى لولا الحجة والقدرة اللتان جعلتهما بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والبحار والجبال والشجر والدواب فلو أذنت للسماء لحصبته وللأرض لابتلعته وللجبال لدكدكته وللبحار لغرقته ولكن سقط من عينى وهان علىّ وصغر عندى ووسعه حلمى وأنا الغنى عنه وعن جميع خلقى وحق ذلك لى وأنا خالق الغنى والفقير لاغنى إلا من أغنيته ولا فقير إلا من أفقرته فأبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدى والاخلاص لى وحذره نقمتى وبأسى وذكره آياتى وأعلمه أنه لايقوم لغضبى شىء وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وبجله فى خطابك اياه ولا يروعك ماألبسته من لباس الدنيا فان ناصيته بيدى ولايطرف ولا ينطق ولا يتنفس عن شىء إلا بعلمى وأخبره بأنى من العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة وقل له أجب ربك فانه واسع المغفرة ، وقد أمهلك فى طول هذه المدة وفى كلها تدعى الربوبية دونه وتصد عن عبادته وفى كل ذلك يمطر عليك السماء وينبت لك الأرض ويلبسك العافية حتى لم تهرم ولم تسقم ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء لعاجلك بالنقمة ولسلبك ماأعطاك ولكنه ذوحلم عظيم ثم امسك الكلام عن موسى سبعة أيام بلياليها ثم قيل له بعد سبع ليال أجب ربك ياموسى فيما كلمك فقال — رب اشرح لى صدرى — الى قوله تعالى بصيرا ، فقال الله تعالى — قد أوتيت سؤلك ياموسى — فجاهد بنفسك واخيك وكان قد خطر فى قلب موسى ان فرعون فى بأس عظيم وجند كثير وانا واخى وحيدان فريدان فقال الله تعالى له إنكما جندان عظيمان من جندى وانا معكما أسمع وارى وابصركما وا كون معكما فلا تستضعفان ولاتستقلان ولو شئت ان آتيه بجنود لاقبل له بها فعلت ، ولكن ليعلم ذلك الشقى الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجنوده ان الفئة القليلة ولا قليل معى تغلب الفئة الكثيرة باذنى ولايعجبنكما زينته ولا يهولنكما عدته فلو شئت ان أزينكما من زينة الدنيا وبهجتها مايبهت فرعون وملأه اذا نظروا اليها ويعلم ان مقدرته تعجز عما آتيتكما فعلت ، فلا تأسفا عما أزويه عنكما من متاع الدنيا وزينتها فان ذلك دأبى فى اوليائى واصفيائى

إذودهم عن نعيم الدنيا ولذاتها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن المراتع الرديئة لكى تستكملوا نصيبكم من كرامتى فى الآجل . واعلم أنه لا يتزين أحد من عبادى بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا وهى زينة الأبرار ، ويقال ان الله تعالى كلمه فى تلك المدة مائة ألف كلمة وأربعة عشر ألف كلمة يقول له مع كل كلمة قتلت نفسا بغير حق .

وقيل لموسى عليه السلام بم عرفت ان الله تعالى هو الذى كلمك ، فقال لأن كلام المخلوق انما يسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهى السمع وانى كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحى كلها فعرفت أنه كلام الله تعالى .

قالوا : ولما صعد موسى الجبل لمناجاة الله تعالى صار الجبل عقيقا فلما نزل موسى عنه عاد إلى حالته الأولى ، فلما رجع موسى شيعته الملائكة ، وكان قلب موسى مشغولا بولده وأراد أن يختنه فأمر الله تعالى ملكا فمدّ يده ولم تزل قدمه عن موضعها حتى جاء به الملك ملفوفا فى خرقة وناوله الى موسى فأخذ حجرين فحك أحدهما بالآخر حتى حدّده كالسكين من الحديد فختن به ابنه . ثم إن الملك عالج المقطوع من المختون فتفل فيه فبرأ من ساعته باذن الله تعالى ، ثم إن الملك رده الى موضعه الذى جاء به منه ولم يزل أهل موسى مقيمين فى ذلك المكان لا يدرون مافعل موسى حتى مرّ بهم راع من اهل مدين فعرفهم فاحتملهم وردهم الى مدين فكانوا عند شعيب حتى بلغهم خبر موسى بعد مافلق البحر وجاوزه ببنى اسرائيل واغرق الله فرعون فبعثهم شعيب الى مصر لموسى . قالوا وخرج موسى من فوره ذلك لما بعثه الله الى مصر لا علم له بالطريق ، وكان الله تعالى يهديه ويدله وليس معه زاد ولا سلاح ولا حمولة ولا صاحب له ولا شيء من الأشياء غير العصا ومدرعة صوف وقلنسوة صوف ونعلين ، وكان يظل صائما ويبيت قائما ويستعين بالصيد وبقول الأرض حتى ورد مصر فلما قرب من مصر أوحى الله تعالى اليه لا تخف ولا تجزع ثم اوحى الله تعالى الى أخيه هارون يبشره بقدوم موسى ويخبره أنه قد جعله وزيرا له ورسولا معه الى فرعون وأمره ان يمرّ يوم السبت غرة ذى الحجة متنكرا الى شاطىء النيل ليلتقى بموسى تلك الساعة . قال فخرج هارون وأقبل موسى فالتقيا على شاطىء النيل قبل طلوع الشمس واتفق انه كان يوم ورود الأسد الماء ، وكانت لفرعون أسد تحرسه فى غيضة محيطة بالمدينة من حوالها وكانت ترد الماء غبا وكان فرعون إذ ذاك فى مدينة حصينة عليها سبعون سورا ، وكان بين كل سورين بساتين وأنهار ذات مزارع وأرض واسعة فى ربض لكل سور سبعون ألف مقاتل ومن وراء تلك المدينة غيضة تولى فرعون غرسها بيده وعمل فيها وسقاها بالنيل واسكنها الأسد فتناسلت وتوالدت حتى كثرت ثم اتخذها جندا من جنوده تحرسه وجعل خلال تلك الغيضة طرقا تفضى بمن سلكها الى أبواب المدينة معلومة ليس لتلك الأبواب طرق غيرها فمن أخطأها وقع فى تلك الغيضة فتأكله الأسود ، وكانت الأسود إذا وردت النيل ظلت عليه يومها كله ثم تصدر مع الليل قال فلما التقى موسى بهرون وكان يوم ورودها فلما رأتهما الأسد مدت اعناقها ورءوسها اليهما وشخصت

بأبصارها نحوهما وقذف الله فى قلوبها الرعب فانطلقت نحو الغيضة مسرعة هاربة على وجوهها يطأ بعضها بعضا حتى اندست فى الغيضة . وكان لها ساسة يسوسونها ودادة يدودونها : اى يغرونها ويسلطونها على الناس ، فلما أصابها ما أصابها خاف ساستها من فرعون ولم يشعروا من أين أتوا ، ثم إن موسى وهرون انطلقا فى تلك الغيضة حتى وصلا الى باب المدينة الأعظم الذى هو أقرب أبوابها الى منزل فرعون ، وكان منه يدخل ويخرج وذلك ليلة الاثنين بعد هلال ذى الحجة بيوم فأقاما عليه سبعة أيام فكلمهما واحد من الحراس وقال لهما هل تدريان لمن هذا الباب ، فقال موسى ان هذا الباب والأرض كلها وما فيها لرب العالمين وأهلها عبيد له فسمع ذلك الرجل كلاما لم يسمع مثله قط ولم يظن أن أحدا من العالمين يفصح بمثله ، فلما سمع الرجل ماسمع أسرع الى كبرائه الذين فوقه وقال لهم سمعت اليوم قولا وعاينت عجبا من رجلين هما عندى أعظم وأشنع وأفظع مما أصابنا فى الأسد وما كانا يقدران أن يقدما على ماقدما عليه إلا بسحر عظيم وأخبرهم بالقصة ، فلم يزل ذلك الخبر يتداول بينهم حتى انتهى الى فرعون . قال السدى باسناده سار موسى بأهله نحو مصر حتى أتاها ليلا فتضيف أمه وهى لاتعرفه فأتاها فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل فنزل فى جانب الدار فجاء هرون ، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه ، فلما قعدا وتحدثا سأله هرون من أنت ؟ فقال أنا موسى فقام كل واحد منهما الى صاحبه فاعتنقه ، فلما تعارفا قال له موسى ياهرون انطلق معى الى فرعون فان الله تعالى قد أرسلنا اليه ، فقال له هرون سمعا وطاعة فقامت أمهما وصاحت وضجت ، وقالت : أنشدكما الله أن لاتذهبا الى فرعون فيقتلكما فأبيا عليها مضيا لأمر الله تعالى فانطلقا اليه ليلا فأتيا الباب والتمسا الدخول عليه ليلا فقرعا الباب ففزع فرعون فزع البواب ، فقال فرعون من هذا الذى يضرب بابى فى هذه الساعة ، فأشرف عليهما البوّاب كلمهما ، فقال له موسى إنى أنا رسول رب العالمين ففزع البواب وأتى فرعون وأخبره بما سمع ، وقال له : ان هنا انسانا مجنونا يزعم أنه رسول رب العالمين . وقال ابن اسحق خرج موسى لما بعثه الله تعالى حين قدم مصر على باب فرعون هو وأخوه هرون يلتمسان الاذن عليه وهما يقولان — إنا رسول رب العالمين — فمكثا فيما بلغنا سنتين يغدوان الى بابه ويروحان وفرعون لايعلم بهما ولايجترىء أحد ان يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلعب معه ويضحكه ، فقال له الملك : ان على بابك رجلين يقولان قولا عجيبا يزعمان أن لهما إلها غيرك ، فقال فرعون أدخلوهما فأدخل موسى ومعه هرون عليهما السلام .

الباب التاسع فى ذكر دخول موسى وهرون على فرعون

قال الله تعالى — فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين — . وقال تعالى — فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى — .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى فى هذه الآية قال قال لهما أعذرا اليه لعله يتذكر أو يخشى فقولا له ان لك رباومعادا وإن بين يديك جنة ونارا لعله عند ذلك يتذكر أو يخشى وعيدكما ، وهو عندى لايتذكر ولا يخشى . قال لكيلا يقول أهلكته قبل أن أعذر اليه . قال فلما أذن فرعون لموسى وهرون دخلا عليه ، فلما وقفا عنده دعا موسى بدعاء ، وهو لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله الا الله العلى العظيم ، سبحان رب السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره وأستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت . قال : فتحول ما فى قلب موسى من الخوف أمنا ، وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمن الله خوفه ونفس كربته وهون عليه سكرات الموت ، ثم ان فرعون قال لموسى من أنت ، فقال : أنا رسول رب العالمين فتأمله فرعون فعرفه ، فقال له — ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين — معناه على ديننا هذا الذى هو الآن تعيبه . قال موسى — فعلتها إذا وأنا من الضالين — اى من المخطئين ، ولم أرد بذلك القتل — ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين — . ثم أقبل موسى ينكر عليه ما ذكره له من يده عليه ، فقال — وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل — اى اتخذتهم عبيدا تنزع أبناءهم من أيديهم فتسترق من شئت وتقتل من شئت : اى انما صيرنى اليك ذلك — قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين . قال فرعون — لمن حوله من ملئه : ألا تستمعون — انكارا لما قال موسى قال موسى — ربكم ورب آبائكم الأولين — قال فرعون — إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون — يعنى ماهذا بكلام رجل صحيح العقل إذ يزعم أن لكم إلها غيرى — قال موسى — رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون — ثم قال فرعون لموسى — لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتك بشىء مبين — تعرف به صدقى وكذبك وحقى وباطلك — قال فرعون — فأت به إن كنت من الصادقين فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين — فاتحة فاها قد ملأت مابين جانبى القصر واضعة لحيها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر حتى رأى بعض من كان خارجا من مدينة مصر رأسها ، ثم توجهت لنحو فرعون تأخذه فانفض منها الناس وذعر منها فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام من بطنه فى يومه ذلك أربعين مرة ، وكان فيما يزعمون لايسعل ولا يتمخط ولا يتصدع رأسه ، ولا تصيبه آفة مما يصيب الناس ، وما كان يقوم الا فى كل أربعين يوما مرة واحدة ، وكان أكثر ما يأكل الموز لأنه لا يكون له تفل فيحتاج الى القيام وكانت هذه الأشياء مما زين له أن قال ما قال لأنه ليس له من الناس شبيه .

قالوا فلما قصدته الحية صاح ياموسى أنشدك الله وحرمة الرضاع الا ما اخذتها وامسكتها عنى وانا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ، ثم ان موسى نزع يده من جيبه فأخرجها فقال له فرعون هذه يدك فما فيها فأدخلها موسى فى جيبه ثم أخرجها ولها

نور ساطع فى السماء تكل عنه الأبصار قد أضاء ما حولها ودخل ضوؤها البيوت ورؤى من الكوى ومن وراء الحجب فلم يستطع فرعون النظر اليها ثم ردها موسى الى جيبه ثم أخرجها فاذا هى على لونها الأول ، قالوا فهمّ فرعون بتصديقه فقام اليه هامان وجلس بين يديه ، ثم انه قال له بينما أنت إله تعبد إذ أنت تابع لعبد ، فقال فرعون لموسى أمهلنى اليوم وغدا فأوحى الله لموسى ان قل لفرعون إنك إن آمنت بالله وحده عمرتك فى ملكك ورددتك شابا طريا فاستنظره فرعون فلما كان من الغد دخل اليه هامان فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربه فقال له هامان والله مايعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوما واحدا ونفخ فى منخره ثم قال له هامان أنا أردك شابا فأتى بالوشم فخضبه به فهو أول من خضب بالسواد فلذلك كره ﷺ ونهى عنه ، فلما دخل عليه موسى ورآه على تلك الحالة هاله ذلك فأوحى الله تعالى اليه لا يهولنك ما رأيت فانه لن يلبث إلا قليلا حتى يعود الى حالته الأولى .

وفى بعض الروايات أن موسى وهرون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما مطر فى الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمهما وكان فرعون وجه الطلب فى اثرهما فلما دخل عليهما الليل ناما فى دارها وجاء الطلب الى الباب والعجوز منتبهة ، فلما أحست بهم خافت عليهما فخرجت العصا من جانب الباب والعجوز تنظر اليها فقاتلتهم فقتلت منهم سبعة أنفس ، ثم عادت ودخلت النار فلما انتبه موسى وهرون أخبرتهما العجوز بقصة الطلب ونكاية العصا فيهم ، ثم ان العجوز آمنت بهما وصدّقتهما .

الباب العاشر فى قصة موسى وهرون مع فرعون والسحرة وخروجهم يوم الزينة الى الفضاء للمغالبة

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : ان موسى وهرون عليهما السلام وضع فرعون أمرهما وما أتيا به من سلطان الله تعالى على السحر فقال للملأ حوله إن هذان لساحران عليمان فماذا تأمرون ، قالوا اقتلهما فقال العبد الصالح حزقيل مؤمن آل فرعون ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ـ الى قوله تعالى ـ سبيل الرشاد ـ وقال الملأ من قوم فرعون أرجئه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم ـ وكانت لفرعون مدائن فيها سحرة معدة للأمر اذا أحزنه .

قال ابن عباس : قال فرعون لما رأى من سلطان الله تعالى فى اليد والعصا ما رأى إنا لا نغالب موسى إلا بمن هو مثله فأخذ غلمانا من بنى اسرائيل فبعث بهم الى قرية يقال لها الغرقاء يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان فى الكتاب فعلموهم سحرا كثيرا ، ثم إن فرعون واعد موسى موعدا ، ثم بعث الى السحرة فجىء بهم ومعهم معلمهم ، فقال له ماذا صنعت فقال له معلمهم قد علمتهم سحرا عظيما كبيرا لا تطيقه سحرة الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فانهم لا طاقة لهم به ، ثم إن فرعون بعث الى الشرط فى مملكته فلم يتركوا فى مملكته ساحرا الا أتوا به ، واختلفوا فى عدة السحرة

الذين جمعهم فرعون ، فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين ساحرا : اثنان من القبط وهما رؤساء القوم، وسبعون من بنى اسرائيل .

وقال الكلبي : كانوا سبعين ساحرا غير رءوسهم وكان الذى يعلمهم السحر رجلين مجوسيين من أهل نينوى .

وقال كعب : كانوا اثنى عشر ألفا ، وقال السدى : كانوا بضعة وثلاثين ألفا ، وقال عكرمة : سبعين ألفا ، وقال محمد بن المنكدر : ثمانين ألفا ، والجامع لهذه الأقاويل ماروى أن فرعون جمع السحرة وهم سبعون ألفا ، فاختار منهم سبعة آلاف ليس فيهم إلا من هو ساحر ماهر ، ثم اختار منهم سبعمائة ، ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم . قال مقاتل ، وكان اسم رأس السحرة شمعون ، وقال ابن جريج يوحنا ، وقال عطاء : كان رأس السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ، فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمهما دلينا على قبر أبينا فدلتهما عليه فأتياه وصاحا باسمه فأجابهما ، فقالا له إن الملك وجه الينا رسولا لنقدم عليه لأنه أتاه رجلان ليس معهما سلاح ولا رجال ولهما عز ومنعة وقد ضاق الملك ذرعا من عزهما ومنعتهما ومعهما عصا اذا ألقياها لايقوم لها شيء حتى تبلع الحديد والخشب والحجارة فأجابهما أبوهما ، وقال انظراهما اذاهما ناما فاذا قدرتما أن تسلا العصا فسلاها فان الساحر لايعمل سحره وهو نائم فان عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين لاطاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا، ثم انهما أتياهما فى خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما العصا، قالوا ثم إنه واعد موسى غدوة يوم الزينة وكان يوم سوق لهم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يوم عاشوراء ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة وهو يوم النيروز وكان يوم عيد لهم تجتمع اليه الناس من جميع الآفاق ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان مجمعهم بالميقات بالاسكندرية ، ويقال بلغ ذنب الحية الجزيرة من وراء البحر يومئذ ، قالوا ثم ان السحرة قالت لفرعون — أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين — قال فرعون نعم — وإنكم إذا لمن المقربين — يعنى فى المنزلة ، فلما اجتمع السحرة والناس جاء موسى متكئا على عصاه ومعه أخوه هرون حتى أتيا المجتمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم — ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى — فتناجى السحرة فيما بينهم ، فقال بعضهم لبعض ماهذا بقول ساحر فذلك قوله تعالى — فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى — فقالت السحرة لنأتينك اليوم بسحر لم تر مثله ، — وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون — وكانوا قد جاءوا بالعصى والحبال يحملها ستون بعيرا ، فلما أبوا الا الإصرار على السحر قالوا لموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين — قال لهم موسى بل ألقوا أنتم حبالكم وعصيكم فألقوا فاذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا تسعى فذلك قوله تعالى — يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى — الى قوله تعالى — خيفة موسى — فقال موسى والله إنها كانت لعصيا فى أيديهم ولقد عادت حيات وماعصاى هذه

فلما حدث نفسه بذلك أوحى الله اليه — لاتخف إنك أنت الأعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتى — ففرح موسى ثم انه ألقى عصاه من يده فاذاهى ثعبان مبين — كأعظم ما يكون من الثعابين أسود مدلهم يدب على أربع قوائم قصار غلاظ شداد وهو أعظم وأطول من بختى عظيم وله ذنب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله لا يضرب بذنبه على شيء إلا حطمه وقصمه ويكسر بقوامه الصخور الصم الصلاب ويطحن كل شيء ويصرم الحيطان والبيوت نفسه نار . وله عينان تلتهبان نارا ومنخراه ينفخان سموما وعلى معرفته شعر كأمثال الرماح وصارت الشعبتان له فما سعته اثنا عشر ذراعا وفيه أنياب وأضراس لها فحيح وكشيش وصريف وصرير فاستعرضت ماألقت السحرة من حبالهم وعصيهم وهى تخيل فى أعين الناس وعين فرعون أنها تسعى فجعلت تلقفها وتبلعها واحدا واحدا حتى لم ير فى الوادى لاقليلا ولا كثيرا مما ألقوا وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين فتزاحموا وتضاغطوا ووطيء بعضهم بعضا حتى مات منهم يومئذ فى ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا وانهزم فرعون فيمن انهزم متخوفا مرعوبا ذاهبا عقله ، وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمائة مرة فصار يحصل له ذلك أربعين مرة فى كل يوم وليلة على الدوام إلى أن هلك . فلما انهزم الناس وعاين السحرة ماعاينوا قالوا لبعضهم لو كان ساحرا ماغلبنا ولا خفى علينا أمره ولو كان سحرا فأين حبالنا وعصينا — فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون — وكان فيهما اثنان وسبعون شيخا قد انحنت ظهورهم من الكبر وكانوا علماء ورؤساء وكان رءوس السحرة خمسة نفر : سابورا وغادر وجفظ وخطط ومصفا . وهم الذين آمنوا حين رأوا مارأوا من سلطان الله تعالى . فلما رأى فرعون ذلك أسف وقال لهم متجلدا — آمنتم له قبل ان آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر — إلى قوله تعالى — أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات — الآية — فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل وهو أول من فعل ذلك فأصبحوا سحرة كفرة وأمسوا شهداء بررة ورجع فرعون مغلوبا مهزوما مكسورا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليه الآية وأخذه وقومه بالسنين إلى أن أهلكهم . ثم إن موسى عاد راجعا إلى قومه والعصا على حالها حية تتبعه وتبصبص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه والناس ينظرون اليها ويتعجبون منها وقدملئوا رعبا فلم تزل العصا على هيئة الحية والناس يتحدثون وينظرون اليها ويتصاعقون ويتضاغطون حتى دخل موسى عليه السلام عسكر بنى اسرائيل فأخذ برأسها فاذا هى عصا كما كانت أول مرة، وشتت الله على فرعون أمره ولم يجد الى موسى سبيلا واعتزل موسى مدينته ولحق بقومه وعسكره وكانوا مجتمعين الى أن صاروا ظافرين .

الباب الحادى عشر فى قصة حزقيل مؤمن آل فرعون وامرأته ومقتله وأولاده رضى الله عنهم أجمعين

قالت الرواة : كان حزقيل من أصحاب فرعون نجارا وهو الذى صنع لأم موسى التابوت حين ولدته وألقته فى البحر . وقيل إنه كان خازنا لفرعون قد خزن له مائة سنة وكان مؤمنا مخلصا يكتم إيمانه إلى أن ظهر موسى على السحرة فأظهرحزقيل أمره فأخذ يومئذ وقتل مع السحرة صلبا وهو الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله تعالى ـ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ـ وقال رسول الله ﷺ «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حبيب النجار مؤمن آل يس وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلى مؤمن آل محمد ﷺ وهو أفضلهم » واما امرأة حزقيل فانها كانت ماشطة بنات فرعون وكانت مؤمنة من إماء الله الصالحات إلا أنها كانت مع بنات فرعون تخدمهن . وكان من قصتها ما أخبرنا به بالأسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ قال « لما أسرى بى مررت برائحة طيبة فقلت لجبريل عليه السلام ماهذه الرائحة ؟ قال هذه رائحة ماشطة آل فرعون وأولادها كانت تمشط ذات يوم بنت فرعون فوقع المشط من يديها فقالت باسم الله فقالت بنت فرعون أبى قالت لا بل ربى ورب أبيك فقالت لها لأخبرن بذلك أبى فلما اخبرته دعا بها وبولدها وقال لها من ربك فقالت ان ربى وربك الله فأمر بتنور من نحاس فأحمى وأمر بها وبولدها أن يلقوا فيه فقالت له ان لى اليك حاجة فقال وما هى قالت تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها قال ولك ذلك لما علينا من الحق . ثم أمر بأولادها فألقوا واحدا واحدا فى التنور حتى إذا كان آخر أولادها ولدا صبيا رضيعا فقال اصبرى يا أماه فانك على الحق فألقيت فى التنور مع ولدها . فسئل ابن عباس فيمن تكلم فى المهد فقال : تكلم فى المهد أربعة عيسى بن مريم وشاهد يوسف وصاحب جريج وهذا الصبى .

الباب الثانى عشر فى ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومقتلها رحمها الله تعالى

قال الله تعالى ـ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ـ يقال إن امرأة فرعون آسية كانت من بنى اسرائيل وكانت مؤمنة مخلصة وكانت تعبد الله سرا حتى إنها كانت لتتعلل فى قضاء حاجتها فتبرز فتصلى يومها فى مبرزها خوفا من فرعون . وكانت على تلك الحالة الى ان قتل فرعون امرأة حزقيل وكانت آسية متطلعة من كوّة فى قصر فرعون تنظر الى الماشطة امرأة حزقيل كيف تعذب وتقتل . فلما قتلت الماشطة عاينت آسية الملائكة وقد عرجت بروحها لما أراد الله تعالى من كرامتها وما أراد لها من الخير فزادت يقينا بالله وتصديقا فبينما هى كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر الماشطة امرأة حزقيل وما صنع بها فقالت له آسية الويل لك يافرعون ما أجرأك على الله تعالى فقال لها لعلك قد اعتراك الجنون الذى اعترى صاحبتك فقالت مااعترانى جنون ولكنى

آمنت بالله ربى وربك رب العالمين فدعا فرعون أمها وقال لهـا إن ابنتك قد أخذها الجنون الذى أخـذ الماشطة ، ثم انه أقسم لتذوقن الموت او لتـكفرنّ بإله موسى فخلت بها أمها وسألتها موافقة فرعون فيما أراد فأبت وقالت تريدين ان أكفر بالله فلا والله ما أفعـل ذلك أبدا فأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد ثم مازالت تعذب حتى ماتت رحمها الله تعالى ، وذلك قوله تعالى ــ وفرعون ذى الأوتاد ــ عن ابن عباس قال أخـذ فرعون امرأته آسـية حين ابتدأ بها يعذبها لتدخل فى دينه فمرّ بها موسى وهو يعذبها فشـكت اليه بأصبعها فدعا الله موسى ان يخفف عنها من العـذاب فبعدذلك لم تجدللعذاب ألما الى أن ماتت فى عذاب فرعون فقالت وهى فى العذاب ــ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى ــ الآية فأوحى الله اليها أن ارفعى رأسك ففعلت فرأت البنت فى الجنة من درّ فضحكت ، فقال فرعون انظروا الى الجنون الذى بها تضحك وهى فى العذاب .

الباب الثالث عشر فى بناء الصرح

قال الله تعالى ــ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا ــ الآية قالت العلماء كان الله تعالى قد أملى لفرعون فى كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والتنعم والترفع والتمتع ماقد استخف به رعيته من أهل مملكته حتى استعبدهم فعبدوه وادعى الربوبية فقبلوه مع ماأوتى من العمر الطويل والقوة والمتعة والسعة والجنود والشوكة والعـدة والعدد ، وكان قدبلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوة تركيبه وبنيته أنه ربعـا لبث أربعين يوماوليلة لايخرج منه شىء إلا مرة واحدة وهو مع ذلك يأكل ويشرب ولا يبزق ولايتمخط ولا يتنحنح ولايسعل ولايأخذه وجع فى بطنه ولاترمد عيناه ولايمرض ولا تصيبه آفة فى نفسه ولا كراهة قالوا وبلغ من إملاء الله تعالى انه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه قال سعيد بن جبير ملك فرعون أربعمائة سنة لايرى مكروها ولوكان فى تلك المدة أدرك جوع يوم أوحمى ليلة لما ادعى الربوبية وقدم على خطب عظيم وخطر جسيم فلم يمسه سوء ولا مكروه ولا تلقاه الامحبوب ومرغوب وكان له قصرّ من قصوره مشرف منيف على ألف درجة وسخر الله له دابة من دوابه يركبهافيصعد ذلك القصر عليها ، وكان يركبها صاعدا ونازلا مع ماأنعم الله تعالى به عليه استدراجا منه فلما عاين من أمر موسى ماعاين لم يزده ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وعلم من قومه الرعب والخوف فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكانه فاحتال لنفسـه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه فقال لوزيره ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا فأمر هامان ببنيانه فجمع له العمال والفعلة ولم يترك أحدا يقدر عليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجص ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير فلم يزل يبنى الصرح ويسر الله تعالى له أمره استدراجا له منه وأتاه الأمر على مايريده الى أن فرغ منه فى سبع سنين فارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض

فشق ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أن دعه وما يريد فانى مستدرجه وآخذه بغتة وانى مبطل كل ماعمله فى ساعة واحدة وكان ذلك الصرح إذا طلعت الشمس ضرب ظله نحو المغرب واذا غربت ضرب ظله نحو المشرق بحيث لايعلمه الا الله تعالى فلما أتم بناءه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب بجناحه الصرح ضربة فقطعته ثلاث قطع فوقعت قطعة منه فى البحر وقطعة فى الهند وقطعة فى المغرب . قال الضحاك بعث الله جبريل فضرب بجناحه الصرح فقذف به على عسكر فرعون فقتل منهم ألفى ألف رجل قالوا ولم يبق أحد ممن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة فما من نجار او حداد اوبناء إلا ايبست يده ، واما الذين كانوا يطبخون الآجر والجص فانهم احترقوا عن آخرهم ، وأما القهارمة والعمال فماتوا وكان تدمير فرعون من امر الله تعالى على ذلك كله مابين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، فلما رأى فرعون ذلك من امر الله تعالى علم ان حيلته لم تغن عنه شيئا فعزم على قتال موسى وقومه فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ثم إن عسكر فرعون قالوا لموسى إنك لساحر وأنت عبد من عبيد فرعون أبقت منه وكفرت نعمته وتربيته ونسيت احسانه اليك ومنته عليك حيث ألقتك امك فى اليم فبحابك وبغضا لك لما علمت ما أنت صائر اليه من سوء الحال فاستنقذك فرعون من الغرق واستدركك من الموت فآواك وكفلك ورباك واتخذك ولدا ، ثم فررت منه آبقا كافرا وجئته عدوا محاربا فلسنا بممتنعين عنك حتى نردك إلى عبادته وخدمته أو نذيقك الذل والهوان ، فلما رأى الله تعالى ذلك وقد علم انه لايغنى عنهم ماجاءهم به موسى لماسبق فيهم من مكر الله النافذ وحقت عليهم كلمة العذاب ابتلاهم الله بالعذاب و بالآيات .

الباب الرابع عشر فى ذكر الآيات التى ابتلى الله بها فرعون وقومه حين دنا هلاكهم اظهارا لقدرته وإلزاما لحجته

قال الله تعالى ـ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ـ قال المفسرون هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر فقال تعالى ـ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات .

قال قتادة : أما السنون فكانت ببواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم قال الله تعالى ـ فأرسلنا عليهم الطوفان ـ الآية .

واختلف المفسرون فى ذلك الطوفان ماهو .

قال ابن عباس : كان أول الآيات الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء ، وقال مقاتل هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها ، وقال الضحاك هو الغرق ، وقال مجاهد وعطاء هو الموت الذريع الجارف ، وروى ذلك عن رسول الله ﷺ ، وقال وهب هو الطاعون بلغة أهل اليمن أرسل الله الطاعون على ابكار آل فرعون فافتضهن فى ليلة فلم يبق منهن باقية ، وقال أبو قلابة الطوفان الجدرى فهم أول من عذب به فبقى فى الأرض والجراد والقمل .

واختلفوا فى القمل ماهو ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة . وروى عن أبى طلحة انه الذباب . وقال مجاهد والسدى وقتادة والكلبى وغيرهم الجراد الطيارة التى لها أجنحة والقمل الصغار التى لا أجنحة لها . وروى معمر عن قتادة قال القمل أولاد الجراد ، وقال عبد الرحمن بن أسلم هو البراغيث . وقال عطاء هو القمل دليله قراءة الحسن والقمل بفتح القاف وجزم الميم . وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القردان قال أبو العالية أرسل الله الحمنان على دوابهم فأكلها حتى لم يبق منها شىء ولم يقدروا على المسير قال أمية ابن أبى الصلت الثقفى .

أرسل الذر والجراد عليهم وعذابا فأهلكتهم دبور

باب فى صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق وغيرهم من أصحاب الأخبار دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : لما آمنت السحرة وصلبهم عدوّ الله فرعون ورجع عدوّ الله مغلوبا مقهورا انصرف موسى وهرون إلى عسكر بنى اسرائيل فأمر فرعون قومه أن يكلفوا بنى إسرائيل مالا يطيقون فكان الرجل من القبط يجىء الى الرجل من بنى اسرائيل يقول له انطلق معى فاكنس حشى واعلف دوابى واستق لى وتجىء القبطية الى الكريمة من بنى اسرائيل فتكلفها مالا تطيق ولا يطعمونهم فى كل ذلك خبزا فاذا انتصف النهار يقولون لهم اذهبوا فاكتسبوا لأنفسكم ماتأكلون فشكوا ذلك إلى موسى فقال لهم — استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين — . قالوا — ياموسى — أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا — كنا نطعم اذا استعملونا من قبل أن تأتينا فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا ، فقال موسى — عسى ربكم أن يهلك عدوكم — يعنى فرعون والقبط — ويستخلفكم فى الأرض — يعنى الشام ومصر — فينظر كيف تعملون — فلما أبى فرعون وقومه إلا التمادى على الكفر والاقامة على الشر والظلم دعا موسى ربه فقال : يارب إن عبدك فرعون قد طغى فى الأرض وبغى وعتا وان قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك ، رب خذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم من الأمم اعتبارا فتابع الله عليهم الآيات المفصلات بعضها فى اثر بعض فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء حتى كادوا يهلكون وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها فى بعض فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم من جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل من الماء قطرة واحدة وفاض الماء على وجه أراضيهم وركد فلم يقدروا على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا حتى جهدوا ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا العذاب فنؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل . فدعا موسى ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل وعادوا الى أشر ما كانوا عليه . فأنبت الله تعالى لهم فى تلك السنة من

الـكلأ والزرع والثمرة مالم ينبت قبل ذلك فأعشبت بلادهم وأخصبت . فقالوا هـذا ما كنا نتمنى وما كان هذا الماء الانعمة لنا ومايسرنا أنا لم نمطر فأقاموا شهرا فى عافية ثم بعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمـارهم وأوراق أشجارهم وزهرها حتى انها كانت لتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمساميرمن الحديد حتى تساقطت دورهم وابتلى الجراد بالجوع فجعل لايشبع وكان لايدخل بيوت بنى اسرائيل ولايصيبهم من ذلك شىء فعجبوا وضجوا وقالوا ـ ياموسى ادع لناربك بماعهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل فأعطوه عهد الله وميثاقه فسأل موسى ربه فـكشف الله عنهم الجراد بعد ماأقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ، ويقال ان موسى برز الى الفضاء فأشار الى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يـكن .

فصل فى بعض ماورد من الأخبار الغريبة فى الجراد

أخبرنى الحسن بن محمد باسناده عن جابر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان يدعو على الجراد يقول : اللهم اقطع الجراد . اللهم اقطع دابرهم . اللهم اقتل كبارهم وأهلك صغـارهم وأفسد بيضه وخـذ بأفواههم عن معايشنا وأرزاقنا إنك أنت سميع الدعاء فقـال رجل من القوم كيف ذلك يارسول الله تدعو على جند من جنود الله بهـلاكه وقطع دابره ؟ فقال إنمـا الجراد نثر حوت من البحر .

قال ابن علاثة : وحدثنى من رأى الحوت ينثره ، وباسناده عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « فى صدر الجراد مكتوب جند الله الأعظم » . وباسناده عن جابر بن عبد الله قال . عـدم الجراد فى سنة من سنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يخبر عنه بشىء فاغتم لذلك فأرسل راكبا إلى اليمن وراكبـا إلى الشام وراكبا إلى العراق يسألون هل رأوا شيئا من الجراد أو لا فأتاه الراكب الذى دخل اليمن بقبضة من الجراد فألقاه فى يده فلما رآه كبر ثلاثا ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خلق الله ألف أمة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر فأول شىء يهلك من هـذه الأمم الجراد فاذا هلك الجراد تتابع مثل النظام إذا قطع سلـكه » وباسناده عن أبى أمامة الباهلى يحدث عن النبي ﷺ أنه قال « إن مريم ابنة عمران سألت ربها أن يطعمها لحما لادم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغيرشباع » فقلت ياأبا المضىء ما الشباع ؟ قال الصوت ، وباسناده عن عبد الله بن ضمره السلولى قال : لما أخرج الله تعالى ابليس من الجنة قال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا قال الله تعالى ; وانا متخذ من خلقى جندا هو الجراد فقال ابليس وأنا جندى النساء هن شبكتى التى لاتخطىء أبدا .

أخبرنا الحسين باسناده عن الأوزاعى يقول : كان ببيروت رجل صالح يذكر أنه رأى رجلا صالحا راكبا على جرادة قال وعليه خفان طويلان أظنهما أحمرين وهو يقول الدنيا باطل باطـل

مافيها ويقول بيده هكذا فحيثما أشار اساق الجراد الى ذلك الوضع فبلغنا ان ذلك الرجل ملك الجراد . قال فأقام قوم فرعون شهرا فى عافية ثم بعث الله عليهم القمل وذلك ان موسى أمر أن يمشى الى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس فمشى موسى الى ذلك الكثيب وكان مهيلا عظيما فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكلها ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلىء قملا حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالجص ويزلقها حتى لا يرتقى فوقها شىء ثم يرفع فوقها الطعام فاذا صعد اليه ليأكله وجده ملىء قملا فما أصيبوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذ القمل اشعارهم وابشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزمت جلودهم كأنها الجدرى عليها ومنعتهم النوم والقرار ولم يستطيعوا لها حيلة . وقال سعيد بن جبير القمل السوس الذى يخرج من الحبوب فكان الرجل يخرج عشرة أقفزة الى الرحا فلا ترد منها ثلاثة أقفزة فلما رأوا ذلك شكوا الى موسى وصاحوا وقالوا يا أيها الساحر : اى أيها العالم إنا نتوب ولا نعود فادع لنا ربك بما عهد عندك يكشف عنا هذا العذاب فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل فانتشروا فى أقطار الأرض وأطراف البلاد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ثم نكثوا العهد وعادوا الى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا قط أحق ان نستيقن أن موسى ساحر لنا إلا اليوم فيجعل الرمل دواب فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بنى اسرائيل فقد أهلك زرعنا وحروثنا وأذهب أموالنا فما عسى ان يفعل أكثر مما فعل وعزة فرعون لا نصدق به أبدا ولا نتبعه ، فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرا فى عافية وقيل أربعين يوما فأوحى الله تعالى اليه وأمره ان يقوم على ضفة النيل فيغرز عصاه فيه ويشير بالعصا الى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ففعل ذلك فتتابعت له الضفادع بالنقيق من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضا وأسمع أدناها أقصاها ثم انها خرجت من النيل مثل الليل الدامس سراعا تؤم نحو باب المدينة فدخلت عليهم فى بيوتهم بغتة وامتلأت منه أفنيتهم وآنيتهم وأبنيتهم وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس الى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع فى فيه وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض وتصير عليه ركاما حتى لا يستطيع ان ينصرف الى شقه الأيمن ولا الأيسر وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتسبقه الضفدعة الى فيه وكانوا لا يعجنون شيئا من العجين الا انشدخت فيه ولا يطبخون قدرا الا امتلأت منه وكانت تثب فى نيرانهم فتطفئها وفى طعامهم فتفسده فلقوا منها أذى شديدا .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله تعالى على فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها فى القدور وهى تفور وفى التنانير وهى مسجورة فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء قال فضجوا الى فرعون من ذلك وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفا من كثرة مايطئونها بأقدامهم وأروحت البقاع كلها منها فلما

رأواذلك بكوا وشكوا الى موسى وقالوا اكشف عنا هذا البلاء فانانتوب هذه المرة ولانعود فأخذ على هذا عهودهم ومواثيقهم ثم ان موسى دعا ربه فكشف عنهم الضفادع وذلك فيما يروى أن موسى أمر أن يهتف بعصاه ويميلها ففعل ذلك فانقشع ما كان منها حيا فلحق بالنيل وأرسل الله على الميتة ريحا فنجتها عن مدينتهم بعدما أقامت عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت فأقاموا شهرا فى عافية وقيل اربعين يوما ثم نقضوا العهد وعادوا الى كفرهم وتكذيبهم ، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم وذلك أن الله تعالى امر موسى أن يذهب الى شاطىء البحر فيضربه بعصاه ففعل ذلك فسال عليهم النيل دما وصارت مياههم كلها دما ومايستقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دما أحمر عبيطا فشكوا ذلك الى فرعون وقالوا انا قدابتلينا بهذا الدم وليس لنا شراب غيره فقال لهم إنه قدسحركم موسى فكان يجتمع الرجلان على الاناء الواحد القبطى والإسرائيلى فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما عبيطا وكان القبطى والاسرائيلى يستقيان من ماء واحد فيخرج ماء القبطى دما وماء الاسرائيلى ماء عذبا وكانا يقومان الى الجرة التى فيها ماء فيخرج للاسرائيلى ماء وللقبطى دم حتى ان المرأة من آل فرعون تأتى الى المرأة من بنى اسرائيل حين يجهدها العطش فتقول اسقينى من مائك فتسكب لها من جرتها أو تصب لها من قربتها فتعود فى الاناء دما حتى إنها تقول لهـا اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فىّ فتأخذ فى فيها ماء فاذا مجته صار دما قالوا والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر فاذاذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دما عبيطا وان فرعون اعتراه العطش فى تلك الأيام حتى انه اضطر الى مضغ الأشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها ملحا أجاجا ومرّا زعاقا فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون الا الدم .

وقال زيد بن أسلم : كان الدم الذى سلط عليهم الرعاف فلما ضجروا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك وذلك ان موسى أمر أن يضرب النيل بعصاه ضربة أخرى فضربه فتحول ماء صافيا كما كان فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وذلك قوله تعالى ــ فأرسلنا عليهم الطوفان ــ الآيات قال نوف البكالى ابن امرأة كعب الأحبار مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب السحرة يريهم الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال أصحاب الأخبار لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه ورآهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادى والكبر دعا عليهم وأمن هرون عليهما السلام وهو ــ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ــ فأجاب الله دعاءهما كما قال تعالى ــ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان ــ الآية قالوا وكان لفرعون وأصحابه من أثاث الدنيا وزهرتها وزينتها من الذهب والفضة واليواقيت وأنواع الحلى والجواهر مالا يحصيه إلا الله تعالى وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام فى زمانه أيام القحط فبقى ذلك فى يد القبط فأوحى الله إلى موسى عليه السلام إنى مورث بنى اسرائيل ما فى أيدى آل فرعون من العروض والحلى وجاعله

لهم جهازا وعيادا إلى الأرض المقدسة فاجعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى وتعظمونى ذلك اليوم وتعبدونى فيه لما أريكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء وأستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلى وأنواع الزينة فانهم لايمنعون عنكم للبلاء الحالّ بهم فى ذلك الوقت ولما قذفت فى قلوبهم لكم من الرعب ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى فأمر فرعون بزينة اهله وولده وما كان فى خزائنه من انواع الحلى فأعيرت لبنى اسرائيل لما أراد الله بذلك أن يفيء على موسى وقومه أفضل أموال أعدائهم بغير قتال ولا ايجاف خيل ولا رجل لطفا منه بهم وافضالا عليهم فلما دعا موسى عليهم مسخ الله الأموال التى بقيت فى أيديهم حجارة كلها حتى المنخل والدقيق .

قال محمد بن كعب القرظى : سألنى عمر بن عبد العزيز عن التسع آيات التى أراها الله فرعون وقومه فقلت الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطمس وفلق البحر فقال عمر لا يكون الفقه إلا هكذا ثم إنه دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان اذ كان فيها بقايا أموال فرعون فأخرج البيضة مشقوقة نصفين وإنها لحجر والجوزة مشقوقة وإنها لحجر والحمصة والعدسة .

وروى محمد بن اسحق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : قد رأيت نخلة مصروعة وانها لحجر وقال لقد رأيت انسانا وماشككت أنه انسان وإنه لحجر وكان ذلك المسخ فى أرقائهم دون أحرارهم إذ العبيد من جملة أموالهم فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ماخلا الذى بأيدى بنى اسرائيل من الحلى والجواهر وأنواع الزينة .

وقال ابن عباس : أول الآيات العصا وآخرها الطمس . قالوا وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وجعل سكرهم حجارة .

الباب الخامس عشر فى قصة اسراء موسى عليه السلام ببنى اسرائيل وخبر فلق البحر لهم

قال الله تعالى — وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون — قال العلماء بأخبار الأنبياء : أوحى الله تعالى الى موسى حين أراد اظهاره على عدوه أن اجمع بنى اسرائيل كل أهل أربعة بيوت فى بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن واضربوا بدمائها على الأبواب فانى مرسل على أعدائكم عذابا وانى سأرسل الملائكة فلا تدخل بيتا على بابه الدم وسآمرها أن تقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم فتسلمون أنتم ويهلكون هم ثم اخبزوا فطيرا فانه أسرع لكم ثم أسر بعبادى حتى تنتهى بهم الى البحر فيأتيك أمرى فأمر موسى بنى اسرائيل ففعلت ذلك فقالت القبط لبنى اسرائيل لم تجعلون هذا الدم على أبوابكم . فقالوا إن الله تعالى لمرسل العذاب عليكم فنسلم وتهلكون فقالت لهم القبط فما يعرفكم ربكم إلا بهذه العلامة فقالوا هكذا أمرنا نبينا فأصبحوا وقد طعن أبكار آل فرعون وماتوا كلهم فى ليلة واحدة وكانوا سبعين ألفا فاشتغلوا بدفنهم وبما نالهم من

حزنهم على الصبية وسرى موسى وقومه متوجهين إلى البحر وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا لا يعد فيهم ابن سبعين سنة لكبره ولا ابن عشرين سنة لصغره وهم المقاتلة سوى الذرية وكان موسى على الساقة وهرون على المقدمة ، فلما فرغ القبط من دفن أبكارهم وبلغهم خروج بنى اسرائيل . قال فرعون هـذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا ثم إنهم خرجوا ولم يرضوا أن ساروا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالنا معهم فنادى فرعون فى قومه كما قال الله تعالى ـ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون ـ ثم إن فرعون تبعهم فى قومه وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وبيده حربة ، وقال ابن جريج أرسل فرعون فى أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر مع كل ملك ألف رجل ثم خرج فرعون خلفهم فى الدهم وكان فى عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الألوان وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت كما قال الله تعالى ـ فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان ورأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا ياموسى أين ماوعدتنا من النصر والظفر هذا البحر قدامنا إن دخلنا غرقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ولقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا فقال موسى لقومه ياقوم استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ـ .

[فصل] قالوا لما سار موسى ببنى اسرائيل من مصر وأرادوا أن يسيروا ضرب الله عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون فدعا موسى عليه السلام مشايخ بنى اسرائيل فسألهم عن ذلك فقالوا له إن يوسف عليه السلام لما مات بمصر أخذ على اخوته عهدا أن لايخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فيضعوه فى الأرض المقدسة فلذلك نالنا هذا الأمر فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقام موسى ينادى : أنشد الله كل من يعلم موضع قبر يوسف الا أخبرنى ومن لايعلم صمت أذناه عن قولى ، فكان يمرّ بين الرجلين ينادى فلا يسمعان قوله حتى سمعته عجوز منهم ، فقالت له : أرأيتك إن دللتك عليه أتعطينى ماسألتك ؟ فأبى عليها ، وقال حتى أستأذن ربى فأمره ربه أن يعطيها مناها فأعطاها ذلك . فقالت له : انى أريد أن لاتنزل غرفة من الجنة الا نزلتها معك . قال نعم ، قالت فانى عجوز كبيرة لا أستطيع أن أمشى فاحملنى فحملها فلما دنت من النيل قالت له : انه فى جوف هذا الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله تعالى فحسره عنه ، فقالت له : احفر ههنا ففعل فاستخرجه وهو فى صندوق من مرمر فحمله معه ودفنه فى الأرض المقدسة .

قال عروة بن الزبير : وقد كان الله تعالى أمر موسى أن يسير ببنى اسرائيل إذا طلع الفجر فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل ، فمن ثم تحمل اليهود موتاهم من كل بلد إلى الأرض المقدسة من فعل نبيهم ذلك .

أخبرني الحسن بن محمد باسناده عن ابن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي ﷺ قال: نزل النبي ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له عليه السلام: تعاهدنا فأتاه الأعرابي، فقال له عليه السلام: ماحاجتك؟ قال له الأعرابي: ناقة يارسول الله برحلها وأعنز يحلبها أهلي، فقال له رسول الله ﷺ ثانية ماحاجتك، فقال مالي حاجة غيرها، فقال عليه السلام: إن عجوز بني اسرائيل كانت أحسن مسئلة من هذا وذكر الحديث الذي في قصة يوسف. قال فلما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح وعادت ترمي بموج كالجبال، فقال له يوشع بن نون: يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ فقال موسى ههنا فخاض يوشع بن نون الماء فجاز البحر ولم يوار حافر دابته الماء، وقال الذي يكتم إيمانه وهو حزقيل مؤمن آل فرعون: يا كليم الله أين أمرت. قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه، ثم اقتحم البحر فارتسب في الماء فذهب القوم ليصنعوا مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لايدري كيف يصنع فأوحى الله اليه — أن اضرب بعصاك البحر — وكان الماء في ذلك الوقت في غاية الزيادة فضرب موسى البحر بعصاه فلم يطعه فأوحى الله تعالى اليه: أن كنه فضربه ثانيا وقال: انفلق ياأبا خالد باذن الله تعالى — فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — فلما انفلق البحر فاذا بالرجل الذي أقحم فرسه البحر واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده وظهر في البحر اثنا عشر طريقا لاثني عشر سبطا لكل سبط طريق وأرسل الله تعالى الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا كما قال الله تعالى — فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى — .

قال سعيد بن جبير: أرسل معاوية الى ابن عباس يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس الا مرة واحدة فأرسل إليه انه المكان الذي انفلق عنه البحر لبني اسرائيل.

أخبرنا الحسن بن محمد باسناده عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر قال: يامن كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا فرجا ومخرجا فأوحى الله تعالى اليه — أن اضرب بعصاك البحر — فضرب بعصاه البحر — فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — .

وروى الأعمش عن شقيق عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أعلمكم الكلمات التي تكلم بها موسى حين جاز البحر ببني اسرائيل؟ فقلنا بلى يارسول الله. قال قولوا: اللهم لك الحمد واليك المشتكى، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم» قال عبدالله: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

قالوا فخاض بنو اسرائيل البحر كل سبط في طريق وعلى جانبيه الماء كالجبل العظيم لايرى بعضهم بعضا فخافوا، وقال: كل سبط قد قتل اخواننا فأوحى الله الى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء شبكات كهيئات الطاقات فنظر بعضهم بعضا فأخذوا يجاوزون البحر وهم يرون بعضهم بعضا ويسمع بعضهم بعضا

حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى ـ وإذ فرقنا بكم البحر ـ اى فلقناوميزنا لكم الماء يمينا وشمالا ـ فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ـ وذلك انه لما خرجت ساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدمة عسكر فرعون اليه فأراد موسى أن يدعو البحر ليرجع الى حالته الأولى فأوحى الله اليه ـ أن اترك البحر رهوا ـ اى ساكنا على حاله ـ إنهم جند مغرقون ـ فلما وصل جند فرعون الى البحر رأوه منفلقا ، فقال فرعون : انظروا الى البحر كيف انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائى وعبيدى الذين أبقوا منى فأقتلهم فادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن فى خيل فرعون أنثى وانما كانت ذكورا كلها فجاء جبريل عليه السلام على فرس له أنثى وديق مشتهية للفحل وعليه عمامة سوداء فتقدمهم وخاض البحر فظن أصحاب فرعون أن الفارس منهم ، فلما شمت الخيول ريحها اقتحمت البحر فى أثرها حتى خاضوا كلهم وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويقول لهم : الحقوا بأصحابكم ، فلما أراد فرعون أن يسلك طريق موسى نهاه وزيره هامان وقال له : إنى قد أتيت الى هذا الموضع مرارا ومالى عهد بهذا الطريق ، وإنى أخاف ولا آمن ان يكون مكرا من الرجل يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون وذهب معاجلا على حصانه ليدخل البحر فامتنع الحصان فجاءه جبريل على رمكة بيضاء فصهلت فحمحم اليها حصان فرعون فخاض جبريل البحر فتبعها حصان فرعون فأقحمه البحر ، فلما توافوا فى البحر وهم أولهم ان يخرج من البحر أمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فغرقهم أجمعين ، وذلك بمرأى من بنى اسرائيل ، فذلك قوله تعالى ـ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ـ يعنى إلى مصارعهم ، وانفرد جبريل عليه السلام بفرعون ، فلما أدرك فرعون الغرق ـ قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ـ فقال له جبريل ـ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ـ ثم إن جبريل أراه فتياه وتوقيعه الذى فيه وقال أما هذا فتياك الذى أفتيت به ، ثم جعل يدس فى فيه من حمأ البحر مخافة أن يعيد تلك الشهادة . وفى الحديث أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ « ما بغضت أحدا من الخلق ما بغضت رجلين : أما أحدهما فمن الجن وهو إبليس عليه لعنة الله حين أبى أن يسجد لآدم ، والآخر من الإنس ، وهو فرعون حين قال ـ أنا ربكم الأعلى ـ ولو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حمأ البحر وأدسه فى فيه مخافة أن يقول كلمة التوحيد فيرحمه الله تعالى بها » .

قالوا فلما سمعت بنو اسرائيل صوت التطام البحر قالوا لموسى : ما هذه الضوضاء ، فقال لهم ، إن الله قد أهلك فرعون وكل من كان معه غرقا . فقالوا لموسى إن فرعون لا يموت ألم تر انه كان يلبث كذا وكذا يوما لا يحتاج الى شىء مما يحتاج اليه الانسان فأمر الله تعالى البحر فألقاه على نجوة من الأرض وعليه درعه حتى نظر اليه بنو اسرائيل ، فذلك قوله تعالى ـ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ـ فيقال انه لو لم يخرجه الله ببدنه لشك فيه بعض الناس ، فلما جاوز موسى ببنى اسرائيل البحر أتوا على

قوم يعكفون على أصنام لهم ـ قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون ـ .

أخبرني الحسن بن محمد باسناده عن محمد بن قيس قال : جاء يهودى إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ماصبرتم بعد نبيكم خمسا وعشرين سنة حتى قتل بعضكم بعضا ، فقال بلى قد كان صبر وخير ولكنكم ماجفت أقدامكم من حمأ البحر حتى قلتم ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فلما أغرق الله تعالى فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه بعث موسى جندين عظيمين من بنى اسرائيل كل جند اثناعشر ألفا الى مدائن فرعون ، وهى يومئذ خالية من أهلها قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم وقادتهم ومقاتلتهم ، فلم يبق منهم الا النساء والصبيان والمرضى والهرمى فأمر على الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فدخلوا بلاد فرعون وغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم فحملوا من ذلك ما استقلت به الحمول منها ، ومالم يطيقوا حمله باعوه من قوم آخرين فذلك قوله تعالى ـ كم تركوا من جنات وعيون ـ الى قوله تعالى ـ فا كهين كذلك وأورثناها قوما آخرين ـ الى آخر القصة ، ثم ان يوشع بن نون استخلف على قوم فرعون رجلا منهم وعاد الى موسى بمن معه من المسلمين غانمين شاكرين .

الباب السادس عشر فى قصة ذهاب موسى الجبل لميقات ربه وصفة إيتاء الله تعالى له الألواح وإنزاله التوراة وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى ـ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ـ وقال فى موضع آخر ـ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ـ . قال العلماء بقصص النبيين وسير الماضين : إن موسى كان وعد بنى اسرائيل وهو بمصر اذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون ، فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بنى اسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون اليها قالوا ياموسى : ائتنا بالكتاب الذى وعدتنا به فسأل موسى ربه ذلك فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى طور سيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب فصام ثلاثين يوما ، فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه فتسوك بعود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر فمصه فقالت له الملائكة إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك ، فأوحى الله تعالى اليه أن صم عشرة أيام أخر ، وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من رائحة المسك وكانت فتنتهم فى العشرة الأيام التى زادها الله تعالى على موسى فذلك قوله تعالى ـ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ذا القعدة ـ وأتممناها بعشر ـ يعنى من ذى الحجة .

أخبرنى الحسن بن محمد باسنادة عن أبى هريرة أن جميع الشهور تنقص ماخلا ذا العقدة لقوله

تعالى ـ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ـ أى من ذى الحجة ـ فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة ـ فلما مضت أربعون ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات ربه ، فلما أتى طور سيناء كلمه ربه وناجاه وقرّبه وأدناه كما قال تعالى ـ وقرّبناه نجيا ـ .

قال وهب : كان بين الله وبين موسى سبعون حجابا فرفعها الله كلها الا حجابا واحدا فتخلى موسى لكلام الله تعالى واشتاق الى رؤيته وطمع فيها ـ فقال رب أرنى أنظر اليك ـ .

قال السدى : لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس فى الأرض حتى خرج من بين قدمى موسى فوسوس فى قلبه وقال : إن مكلمك الشيطان فعند ذلك سأل الرؤية ، فقال الله تعالى ـ لن ترانى ـ وليس يطيق البشر النظر الىّ فى الدنيا من نظر الىّ مات ، فقال إلهى سمعت كلامك فاشتقت للنظر اليك ولأن أنظر اليك ثم أموت أحب الىّ من أن أعيش ولا أراك ، فقال له انظر الى الجبل وهو أعظم جبل فى مدين يقال له زبير وذلك ان الجبال لما علمت أن الله يريد أن يتجلى لجبل منها تعاظمت وتشامخت رجاء أن يتجلى الله لها وجعل زبير يتواضع من بينها ، فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينهنّ وخصه بالتجلى . قال الله تعالى ـ فان استقرّ مكانه فسوف ترانى ـ فتجلى الله تعالى للجبل .

واختلف العلماء فى معرفة التجلى . قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل ، وقال الضحاك : أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور ، وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار : ماتجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا كسمّ الخياط حتى صار دكا دكا ، وقال السدى : ماتجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ماروى ثابت عن أنس عن النبى ﷺ انه قرأ هذه الآية فقال : هكذا ووضع الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل يعنى غار . وقال الحسن : أوحى الله تعالى الى الجبل وقال هل تطيق رؤيتى ؟ فغار الجبل وساخ فى الأرض وموسى ينظر اليه حتى ذهب أجمع ، وقال ابو بكر بن عمر الوراق : حكى عن سهل بن سعد الساعدى أن الله تعالى أظهر من بين سبعين ألف حجاب نورا قدر درهم فجعل الجبل دكا . قال أبو بكر : فعذب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل مجنون وبرئ كل مريض وزال الشوك عن الأشجار واخضرت الأرض وأزهرت وخمدت نار المجوس وخرت الأصنام لوجوهها ، وقال السدى : ماتجلى للجبل إلا قدر جناح بعوضة فصار الجبل دكا ، وقال ابن عباس ترابا ، وقال سفيان ساخ حتى وقع فى البحر . قال عطية العوفى صار رملا هائلا ، وقال الكلبى جعله دكا : اى مكسرا جبالا صغارا ، وبالاسناد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ـ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ـ قال صار بعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة فى المدينة : أحد وورقان ورضوى ، ووقعت ثلاثة بمكة : ثور وثبير وحراء ـ وخرّ موسى صعقا ـ قال ابن عباس : مغشيا عليه ، وقال قتادة ميتا ، وقال الكلبى : خرّ موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر . قال الواقدى لما خرّ موسى صعقا ، قالت الملائكة ما لابن عمران وسؤاله الرؤية .

وفى بعض الكتب : أن ملائكة السموات والأرض أتوا موسى وهو مغشى عليه فجعلوا

يلكزونه بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة ، وقال وهب : لما سأله موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذى عليه موسى وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى أربعة فراسخ من كل ناحية فمرّت به الملائكة ملائكة سماء الدنيا كثيرا مثل البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع موسى مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى جسده فقال : ندمت على مسئلتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شىء ان خرجت احترقت وإن قعدت مت ، فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ، ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس والتهليل كلجب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة ، فقال له رئيس الملائكة مكانك يا ابن عمران حتى ترى مالاصبر لك عليه ، ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لايشبههم شىء من الذين مرّوا به ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شىء من أصوات الذين مرّوا به ، ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة فى سبعة الوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم طرفه ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوف موسى فزعا واشتد خوفه وكثر بكاؤه ، ثم قال له خير الملائكة وكبيرهم يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض مالا تصبر عليه ، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدى الذى أراد رؤيتى فاعترضوا عليه فهبطوا وفى يد كل ملك منهم حربة طويلة تلتهب نارا أشد ضوءا من الشمس ولباسهم كلهب النار واذا سبحوا وقدسوا جاوبهم كل من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت ، وفى رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع رأسه وصوته يسبح معهم ويبكى ويقول : رب اذكرنى ولاتنس عبدك لا أدرى هل أتخلص مما أنا فيه أولا إن خرجت احترقت وان مكثت احترقت ، فقال له رئيس الملائكة وكبيرهم أوشك يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ، ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة . قال الله تعالى : أروه إياه ، فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة رب العزة ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس ربّ العزة أبدا لايموت بشدة أصواتهم فارتج الجبل واندك وخرّ موسى صعقا على وجهه ليس معه روح فقلب الله الحجر الذى كان موسى عليه وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى وأرسل الله عليه روح الحياة برحمته فقام موسى يسبح الله ويقول آمنت بأنك ربى وصدقت بأنه لايراك أحد فيحيا ومن نظر الى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم

ملائكتك أنت رب الأرباب واله الآلهة وملك الملوك لايعدلك شيء ولايقوم لك شيء تبت اليك لك الحمد لاشريك لك أنت رب العالمين .

قال السدى حف حول الجبل بالملائكة وحف حول الملائكة بالنار وحف حول النار بالملائكة وحف حول الملائكة بالنار ثم تجلى ربه للجبل .

أخبرنى الحسن باسناده عن عروة بن ديلم اللخمى . قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى صماء ملساء ، فلما تجلى الله الجبل صار الطور دكا وتفطرت الجبال وصار فيها كهوف وسقوف قالوا ثم بعث الله تعالى جبريل عليه السلام الى جنة عدن فقطع منها شجرة فاتخذ منها تسعة ألواح طول كل لوح منها عشرة أذرع بذراع موسى وكذلك عرضه وكانت الشجرة التى اتخذ منها الألواح من زمرد أخضر ثم أمر جبريل أن يأتيه بتسعة أغصان من سدرة المنتهى فجاء بها فصارت جميعا نورا وصار النور قلما أطول مما بين السماء والأرض وكتب التوراة لموسى بيده وموسى يسمع صرير القلم فكتب الله له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا وذلك يوم الجمعة وأشرقت الأرض بالنور ثم امر الله موسى أن يأخذها بقوة ويقرئها قومه فوضعت الألواح على السماق فلم تطق حملها لثقل العهود والمواثيق التى فيها فقالت يارب كيف أطيق أن احمل كتابك الثقيل المبارك وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى فلم يطق حملها فقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود وهل خلقت خلقا يطيق حملها فأمده الله بملائكة يحملونها بعدد كل حرف من التوراة فحملوها حتى بلغوها موسى وعرضوا له الألواح على الجبل فانصدع لها الجبل وخشع ، وقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها وضرب الله مثلا فى القرآن فقال تعالى — لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون — كما أنزل التوراة على الجبل فلم يطق حملها . قال فلما وضعوها على الجبل بين يدى موسى ، وذلك عند صلاة العصر فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها فلم يزل يدعو حتى هون الله عليه حملها فحملها فذلك قوله — ياموسى إنى اصطفيتك — الآية وقوله تعالى — وكتبنا له فى الألواح — الآية .

فصل فى نسخة العشر الكلمات التى كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه فى الألواح
وهى معظم التوراة وعليها مدار كل شريعة

وهى بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران أن سبحنى وقدسنى لااله إلا أنا فاعبدنى ولاتشرك بى شيئا واشكر لى ولوالديك إلى المصير أحيك حياة طيبة ولا تقتل النفس التى حرم الله عليك فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها ولاتحلف باسمى كاذبا فانى لا أطهر ولاأزكى من لايعظم اسمى ولاتشهد بما لايعى سمعك ولاتنظر عينك ولا يقف عليه قلبك فانى أوقف اهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة وأسألهم عنها ولاتحسد

الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى فان الحاسد عدوّ نعمتى ساخط لقسمتى ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ولاتذبح لغيرى فانه لا يصعد الىّ من قربان أهل الأرض إلا ماذكر عليه اسمى ولاتفجرن بحليلة جارك فانه أكبر مقتا عندى وأحبب للناس ماتحب لنفسك واكره لهم ماتكره لنفسك ، فهذه نسخة العشر الكلمات ، وقد أعطاها الله جميعها لمحمد ﷺ فى ثمان عشرة آية وهى قوله تعالى فى سورة بنى اسرائيل — وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه — إلى قوله — ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ثم جمعها فى ثلاث آيات من سورة الأنعام وهى قوله تعالى — قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم — إلى قوله تعالى — ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

أخبرنا أبو عمر محمد الفريابى باسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لما أعطى موسى الألواح نظرفيها فقال يارب لقد أكرمتنى بكرامة لم تكرم بها أحدا من العالمين قبلى قال — ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين — اى بقوة وجد ومحافظة وتموت على حب محمد عليه السلام قال موسى يارب ومن محمد ؟ قال أحمد الذى أثبت اسمه على عرشى قبل أن اخلق السموات والأرض بألفى عام وأنه نبيي وصفيي وخيرتى من خلقى وهوأحب إلىّ من جميع خلقى وجميع ملائكتى ، فقال موسى يا رب ان كان محمد أحب إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمة أكرم عليك من أمتى قال الله تعالى ان فضل أمة محمد عليه السلام على سائر الأمم كفضلى على جميع الخلق قال يارب ليتنى أراه وأراهم قال ياموسى انك لن تراهم ولو أردت أن تسمع كلامهم أسمعتك قال يارب فانى أريد أن أسمع كلامهم قال الله تعالى ياأمة محمد فأجبنا كلنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا : لبيك اللهم لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك فقال الله تعالى ياأمة محمد ان رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق عقابى قدأعطيتكم من قبل أن تسألونى وقد أجبتكم من قبل ان تدعونى ، وقد غفرت لكم من قبل ان تعصونى من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا اله إلا الله وان محمدا عبدى ورسولى دخل الجنة ولو كانت ذنوبه اكثر من زبد البحر ، وهذا قولة تعالى — وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين — وقوله تعالى — وما كنت بجانب الطور اذ نادينا —.

أخبرنا ابو عبد الله محمد بن احمد بن على بن نصير المكى قال اخبرنا أبوالعباس محمدبن اسحق السراج قال حدثنا قتيبةبن سعيد قال حدثنا سعيد بن عبدالرحمن المعافرى عن ابيه إن كعب الأحبار رأى حبرا من اليهود يبكى ، فقال له مايبكيك ؟ فقال ذكرت بعض الأمر ، فقال كعب الأحبار أنشدك الله لئن اخبرتك بما ابكاك لتصدقنى . قال نعم . قال انشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى عليه الصلاة والسلام ان موسى نظرفى التوراة فقال : إنى أجد أمة هم خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والآخر ويقاتلون أهل

الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال ، فقال موسى رب اجعلهم أمتى قال هم أمة محمد ياموسى قال له الحبر نعم . قال كعب أنشدك الله تعالى هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى أن موسى نظر فى التوراة ، فقال انى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس هم المحكمون اذا أرادوا أمرا قالوا نفعله ان شاء الله تعالى فقال موسى فاجعلهم أمتى فقال هم أمة محمد ياموسى قال له الحبر نعم ، قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة ، فقال يارب انى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم ، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار غير أن موسى كان يجمع صدقات بنى اسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلا اشتراه من تلك الصدقة وما فضل يحفر له حفرة عميقة القعر وألقاه فيها ، ثم دفنه كى لا يرجعوا فيه وهم المسبحون المستجيبون المستجاب لهم وهم الشافعون والمشفعون . قال موسى : يارب اجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ياموسى . قال الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة ، فقال انى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى وإذا هبط إلى واد حمد الله تعالى ، الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غرا محجلين من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ياموسى قال الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى التوراة أن موسى نظر فيها فقال يارب انى أجد أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، واذا عملها كتبت له عشر الى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه وإذا عملها كتبت عليه سيئة مثلها فاجعلهم يارب أمتى . قال هم أمة محمد ياموسى . قال الحبر نعم . قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة ، فقال يارب انى أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هم أمة أحمد ياموسى : فقال الحبر نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل ان موسى نظر فى التوراة فقال يارب انى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفون فى صلاتهم صفوفا كصفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار منهم أحد ، ومنهم من لا يرى الحساب الا مثل مايرى الحرمن وراء الشجر فاجعلهم أمتى . قال هم أمة محمد ياموسى . قال الحبر نعم . قال فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله لأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين . قال موسى ياليتنى من أصحاب محمد : فأوحى الله تعالى اليه بثلاث آيات يرضيه بهن فقال تعالى — ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين إلى قوله تعالى — دار الفاسقين — وقوله تعالى — ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون — قال فرضى موسى كل الرضا .

وقال ابن عباس : لما سار موسى الى طور سيناء الى الميقات . قال له ربه ماتبتغى قال جئت أبتغى الهدى . قال وجدته ياموسى قال موسى يارب : اى عبادك أحب اليك . قال الذى يذكرنى

ولاينسانى . قال فأى عبادك أقضى . قال الذى يقضى بالحق ولايتبع الهوى . قال اى عبادك أعلم . قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه فيسمع الكلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى .

وقال عبدالله بن مسعود : لماقرب الله تعالى موسى الى طورسيناء رأى عبدا فى ظل العرش جالسا قال يارب من هذا قال عبد لايحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله بر بوالديه لايمشى بالنميمة . قال موسى يارب اغفرلى ماجرى من ذنبى وما غبر ومابين ذلك وما أنت أعلم به منى أعوذبك من وسوسة نفسى وأعوذبك من سوء عملى . قال قد كفيت ذلك ياموسى قال موسى يارب : اى الأعمال أحب اليك أن أعمل به قال تذكرنى ولاتنسانى . قال : اى عبادك خير عملا قال من لم يكذب لسانه ولايفجر قلبه ولا يزنى فرجه مؤمن فى خلق حسن . قال فأى عبادك شر عملا قال فاجر فى خلق سيئ جيفة بالليل بطال بالنهار قال ، فلمارجع موسى الى قومه ، وقد آتاهم بالتوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بمافيها من الأثقال والأغلال التى كانت عليهم فيها وكانت شريعة ثقيلة فأمر الله جبريل فقلع جبلا على قدر عسكرهم ، وكان فرسخا فى فرسخ فرفعه فوق رءوسهم مثل الظلة مقدار قامة الرجل ، وقال أبو صالح عن ابن عباس أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رءوسهم مثل الظلة فذلك قوله تعالى ـ وإذأخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ـ وقوله تعالى ـ واذنتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ـ .

وقال عطاء عن ابن عباس : رفع الله تعالى فوق رءوسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر ملحا من خلفهم ، وقيل لهم خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا فان قبلتموه وفعلتم ما أمرتكم به والا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار ، فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل وهم سجود فصارت سنة فى اليهود لايسجدون الاعلى انصاف وجوههم فلما زال الجبل قالوا ياموسى سمعناوأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك .

وروى قتادة عن الحسن قال : مكث موسى بعد ماتغشاه نور رب العالمين وانصرف الى قومه أربعين ليلة لايراه أحد الا مات حتى إنه اتخذ لنفسه برنسا وعليه برقع لا يبدى وجهه لأحد مخافة أن يموت .

وأخبرنى أبوعبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى قال حدثنا محمد بن أبى شيبة قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله القزوينى قال حدثنا محمدبن مرزوق النضرى قال حدثنا هانئ بن يحيى السلمى قال حدثنا الحسن بن أبى سهل عن جعفر عن قتادة عن يحى بن وثاب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لما كلم الله موسى كان يبصر بعد ذلك دبيب النملة فى الليلة المظلمة على الصفا من مسيرة عشرة فراسخ .

وأخبرنا أبوعبدالله الثقفى . قال : حدثنا عبد الله بن شيبة قال حدثنا أبو حامد المستملى قال حدثنا

إسحق قال حدثنا خالدبن خراش قال حدثنا عبدالله بن زيدبن أسلم عن أبيه ان موسى كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارا لشدته .

باب فى ذكر قصة بنى اسرائيل وهرون مع السامرى حين اتخذ لهم العجل

قال أهل السير وأصحاب التواريخ : لما أهلك الله فرعون وقومه . قال موسى إنى ذاهب الى الجبل لميقات ربى وآتيكم بكتاب فيه بيان ماتأتون وما تذرون وواعدهم ثلاثين ليلة واستخلف عليهم أخاه هرون فجاء جبريل عليه السلام على فرس يقال لها فرس الحياة وهى بلقاء أنثى لاتصيب شيئا إلا حيى فلما رآه السامرى على تلك الفرس عرفه ، وقال إن لهذه الفرس لشأنا عظيما واخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل هذا قول السدى .

وقال الكلبى : انما اتخذ السامرى من تراب حافر فرس جبريل العجل حين عبروا البحر وبعث الله تعالى جبريل على فرس بلقاء خطوتها مد البصر عليها تركب الأنبياء كلهم وخاض البحر وشمت خيول قوم فرعون ريحها فخاضت فى أثرها قالوا وانما عرف السامرى جبريل دون بنى اسرائيل لأن فرعون حين أمر بذبح أولاد بنى اسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا فى جوف الليل الى صحراء أو واد أو غار فى جبل فأخفته فيقيض الله له ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس ، وكان الذى ربى السامرى جبريل عليه السلام فجعل يمص من أحد ابهاميه سمنا ومن الآخر عسلا فمن ثم عرفه ، ومن ذلك الوقت اذا جاع الطفل يمص إبهامه فيروى من المص لأنه جعل له فيه رزق ويقال إن جبريل عليه السلام وكل بالسامرى وعلا لبونا تسقيه اللبن بالغداة والعشى حتى كبر واختلط بالناس ، فلذلك عرفه دون سائر بنى اسرائيل لأنه هو الذى رباه وكان أبو عمرو[1] السكندرى يقول دابة موسى وفرعون دابة موسى أزاهل بهشت وفرعون أزاهل دوزخ ، ودابة السامرى وجبريل دابة جبريل أزاهل بهشت والسامرى أزاهل دوزخ بود . قال قتادة والسدى كان عظيما من عظماء بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق وقال سعيد بن جبير كان السامرى من اهل كرمان ، وقال غيرهما كان رجلا صائغا من أهل باجرمى واسمه منجا ، وقال ابن عباس اسمه موسى ظفر ، وكان رجلا منافقا قد أظهر الاسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى قلبه حب البقر فلما ذهب موسى لميقات ربه ، وكان قد وعد قومه ثلاثين ليلة وأتمها الله بعشر حتى صارت أربعين فعد بنو اسرائيل ثلاثين ليلة فلما لم يرجع اليهم افتتنوا وقالوا إن موسى أخلفنا الوعد فاغتنمها السامرى حتى فعل مافعل ، وقال قوم انهم عدوا الليل يوما والنهار يوما ، وكان موسى قد وعدهم أربعين ليلة فلما مضت عشرون يوما افتتنوا فأتاهم السامرى وقال لهم إن موسى قد احتبس عنكم فينبغى أن تتخذوا إلها فان موسى ليس براجع اليكم ، وقد تم الميقات

(١) قوله وكان أبو عمرو الخ ، عبارة فارسية معناها دابة موسى وجبريل عليهما السلام من أهل الجنة ، ودابة فرعون والسامرى من أهل جهنم اه من هامش الأصل .

فينبغى لكم أن تتخذوا إلهـا ، وإنما طمع فيهم السامرىّ لأنهم يوم عبر موسى البحر مروا على قوم من العمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلهـا كما لهم آلهة الآية فاغتنمها السامرىّ ، فلما كان ذلك اليوم وخرج موسى ومضى من خروجه عشرون يوما وكانوا قد استعاروا حليا كثيرا من آل فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلة العيد ، وأهلك الله فرعون وقومه وبقى ذلك الحلى بأيدى بنى اسرائيل فلما خرج موسى . قال هرون لبنى اسرائيل إن حلىّ القبط الذى استعرتموه منهم غنيمة ولا يحل لكم فاجمعوه جميعا واحفروا له حفرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه ففعلوا ذلك فجاء السامرى بالقبضة التى أخـذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام ، فقال لهرون يانبى الله هل أقذفها فيه فظن هرون أنه من الحلى يريد به مايريد اصحابه فقال له اقذف فقذفها فى الحفرة على الحلى فصارت عجلا جسدا له خوار .

وقال ابن عباس : أوقد هرون نارا ، وأمرهم أن يقذفوها فيه فقذف السامرى تلك القبضة فيها ، فقال كن عجلا جسدا له خوار ، وكان البلاء والفتنة حين صار كذلك ، وذلك أن السامرىّ قال لهرون أألقى مافى يدى ؟ وهو يظن أنه من تلك الحـلى فقال نعم ، ويقال إن الذى قال لبنى اسرائيل إن الغنيمة لاتحل لكم هو السامرى فصدقوه وجمعوها ودفعوها اليه فصاغ منها عجلا فى ثلاثة أيام ، ثم ألقى فيه القبضة فحثا وخار خورة ثم لم يعد ، وقال السدى كان يخور ويمشى فلمـا أخرج السامرى العجل ، وكان من ذهب مرصع بالجواهر كأحسن مايكون ، وقال هذا إلهكم وإله موسى فنسى : أى أخطأ الطريق فتركه ههنا وخرج يطلبه فلذلك أبطأ عليكم وأخلف الموعد وفى بعض الروايات أن السامرى لمـا صاغ العجل وقذف القبضة فيه أشعر العجل وعدا وخار فصار له لحم ودم ويروى أن ابليس خار فى وسطه ، ويقال ان السامرى جعل مؤخر العجل الى حائط وحفر فى الجانب الآخر فى الأرض وأجلس فيه انسانا فوضع فمه فى دبره فخار وتـكلم بما تـكلم به ، وقال هذا إلهكم وإله موسى فلبس السامرى على أوغاد بنى اسرائيل وجهالهم حتى أضلهم وقال لهم ان موسى قد أخطأ ربه فأتاكم ربه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم الى نفسه بنفسه ، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه اليه وأنه قد أظهر اليكم العجل ليكلمكم من وسطه كما كلم موسى من الشجرة .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، إنما سمى العجل لأنهم تعجلوه قبل رجوع موسى اليهم .

وقال الحسن البصرى : اسم عجل بنى اسرائيل الذى عبدوه يهموت قالوا فلما رأوا العجل وسمعوا قول السامرى افتتنوا به غير اثنى عشر ألفا ، وكان مع هرون ستمائة ألف فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله وأحبوه حبا ماأحبوا مثله شيئا قط ، فقال لهم هرون يابنى اسرائيل ، إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى فأقام هرون فيمن معه من المسلمين ، وأقام من يعبد العجل على عبادته وتخوف هرون أن سار بمن

معه من المسلمين الى المفتونين الضالين أن يقول له موسى فرقت بين بنى اسرائيل ، وكان له هائبا مطيعا ، وقال قتادة فى هذه القصة قد كره الصالحون الفرقة قبلكم .

أخبرنى الحسن باسناده عن راشد بن سعيد قال : لما واعدالله موسى أربعين يوما . قال الله تعالى ياموسى إن قومك قد افتتنوا من بعدك قال يارب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر وأنعمت عليهم . قال انهم اتخذوا العجل إلها من دونى وهو عجل ذو جسد له خوار . قال يارب من نفخ فيه الروح قال أنا ، قال أنت وعزتك فتنتهم إن هى إلا فتنتك الآية فقال الله تعالى ياموسى يارأس النبيين يا أبا الأحكام إنى رأيت ذلك فى قلوبهم فيسرته لهم ، فلما رجع موسى من الميقات الى قومه وقرب منهم سمع اللغط حول العجل وكانوا يعزفون ويرقصون حوله ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره ربه من حديث العجل ، فقالوا هذا قتال فى المحلة فقال موسى لهم لا ولكنه صوت الفتنة افتتن القوم بعدنا بعبادة غير الله ، فذلك قوله تعالى — ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا — فلما رآهم حول العجل وما يصنعون به ألقى الألواح من يده فتكسرت فصعد عامة الكلام الذى كان فيها ولم يبق فيها الا سدسها ، ثم أعيدت له فى لوحين .

عن ابن عباس قال :قال رسول الله ﷺ « ليس المعاين كالمخبر قال الله تعالى لموسى إن القوم قد فتنوا فلم يلق الألواح فلما عاين ألقى الألواح فكسرها » .

عن تميم الدارى قال : قلت يارسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت قريبة من ساحل البحر ، فقال عليه الصلاة والسلام « تلك انطاكية أما إن فى غار من غيرانها رضاضا من ألواح موسى ومامن سحابة شرقية ولا غربية تمر بها إلا ألقت عليها من بركاتها ولن تذهب الأيام والليالى حتى يسكنها رجل من أهل بيتى يملؤها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما » . قالوا فلما رأى موسى ماصنع قومه من بعده من عبادة العجل أخذ بشعر رأس أخيه هرون بيمينه ولحيته بشماله وكان هرون قد اعتزلهم فى اثنى عشر ألفا لم يعبدوا العجل ، فقال لهرون — مامنعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى — هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم فقال هرون — يا ابن أم — الآية . قال المفسرون كان هرون أخا موسى لأبيه وأمه ولكنه أراد بقوله يا ابن أم ترقيقه واستعطافه عليه لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى اى بذوائبى إنى خشيت إن قاتلتهم ان يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضا فتقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى اى ولم تحفظ وصيتى حين قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، ثم إن موسى أقبل على السامرىّ وقال له ماخطبك ياسامرىّ اى ما أمرك وشأنك ؟ فقال السامرىّ بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول يعنى أخذت ترابا من أثر فرس جبريل فنبذتها وطرحتها فى العجل وكذلك سولت لى نفسى اى زينت لى ، قالوا فلما علم بنو اسرائيل انهم قد اخطئوا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا على ذلك واستغفروا الله تعالى كما قال تعالى — ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين — فقال لهم موسى ياقوم إنكم

ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . قالوا فأى شىء نصنعه وما الحيلة ؟ قال توبوا إلى الله بارئكم اى ارجعوا إلى خالقكم ، قالوا فكيف نتوب ، قال فاقتلوا أنفسكم اى ليقتل البرىء المجرم ذلكم يعنى القتل خير لكم عند بارئكم . قال ابن عباس أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال الذى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل ، وقال قتادة جعل الله توبة عبدة العجل القتل لأنهم ارتدوا وكفروا والكفر مبيح الدم ، فلما أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره وقالوا نصبر لأمر الله ، فجلسوا فى الأفنية محتبين وأظلت عليهم القوم بالسيوف والخناجر فكان الرجل يرى أخاه وابنه وأباه وقريبه وجاره فلم يمكنه إلا الإمضاء أمر الله تعالى فقالوا ياموسى كيف نصنع ، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء حتى لا يبصر بعضهم بعضا وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته فكانوا يقتلونهم الى المساء ، فلما كثر فيهم القتل وبلغ عدة القتلى سبعين ألفا دعا موسى وهرون ربهما وجزعا وتضرعا وقالا يارب هلكت بنو اسرائيل البقية البقية ، فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يرفعوا السلاح ويكفوا القتل فلما انكشفت السحابة عن القتلى اشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة ، فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقى منهم مكفرا ذنبه الله فذلك قوله تعالى ــ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ــ وقالوا أمر الله تعالى موسى أن يبرد العجل بالمبرد ويحرقه ثم يذروه فى النيل فمن شرب ماء من عبدة العجل اصفرلون وجهه واسودت شفتاه وقيل ثبت على شاربه الذهب فكان علما لجرمه ، فأخذ موسى العجل فذبحه ثم برده ثم أحرقه وجمع رماده وأمر السامرىّ بالبول عليه استخفافا به وتصغيرا له ثم ذراه فى الماء فذلك قوله تعالى ــ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ــ الآية قالوا ثم إن موسى أمرهم بالشرب من ذلك الماء فشربوا منه فاصفرت وجوه الذين عبدوه واسودت شفاههم فأقروا بحب العجل وعبادته وقالوا ياموسى إنا قد ندمنا على ما صنعنا وتبنا الى الله فلو أمرنا أن نقتل نفوسنا لتقبل توبتنا قتلناها ، فقيل لهم . فاقتلوا أنفسكم ، ثم ان موسى همّ بقتل السامرىّ ، فأوحى الله تعالى اليه لا تقتله فانه سخى فلعنه موسى وقال له ــ فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه ــ اى بعذابك فى القيامة ، ثم أمر موسى بنى اسرائيل ان لا يخالطوه ولا يقربوه فصار السامرىّ وحشيا لا يألف أحدا ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمس أحدا منهم فمن مسه قرض ذلك الموضع بالمقراض وكان كذلك حتى هلك قال قتادة ان بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك اى لامساس وفى بعض الكتب انه ان مس أحدا من غيرهم أو واحدا منهم حمّ كلاهما فى الوقت ، قالوا ثم ان الله تعالى أمر موسى أن يأتيه فى ناس من خيار بنى اسرائيل ليعتذروا اليه من عبادة قومهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلا لينطلقوا معه الى الجبل كما أمر الله تعالى وأمره ان يكونوا شيوخا فلم يصب الاستين شيخا ، فأوحى الله تعالى اليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا .

وروى : أنه اختار من كل سبط ستة نفر فصاروا اثنين وسبعين رجلا فقال انما أمرت

بسبعين رجلا فليتخلف منكم رجلان فتشاحوا على ذلك فقال موسى ان لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقناء فأمر موسى السبعين أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا أثوابهم ثم خرج بهم إلى الطور لميقات ربه وذلك قوله تعالى ـ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ـ الآية وكان لايأتيه الا بإذن منه ، فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على وجهه نور ساطع لايستطيع أحد من بنى اسرائيل أن ينظر اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجدا وسمعوا الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يكلم موسى ويأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى : إنى أنا لا إله الا أنا ذوبكة ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى ، فلما فرغ موسى من الكلام وانكشف الغمام أقبل اليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهى نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعا . قال وهب بل أرسل الله عليهم جندا من السماء فلما سمعوا حسهم ماتوا يوما وليلة فذلك قوله تعالى ـ واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ـ فلما ماتوا قال موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يارب كيف أرجع إلى بنى اسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، ولم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله له جميعا رجلا بعد رجل ينظر بعضهم بعضا كيف يحيون ، فذلك قوله تعالى ـ ثم بعثناكم من بعد موتكم ـ الآية .

أخبرنى الحسن باسناده عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « إذا راح منا إلى الجمعة سبعون كانوا كالسبعين الذين وفدوا مع موسى إلى ربهم وأفضل » .

باب فى قصة قارون حين عصى ربه واستكبر وأورثه ماله الطغيان والبطر حتى أهلكه الله تعالى

قال الله تعالى ـ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ـ الآية قالت العلماء بأخبار القدماء قارون كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث هذا قول أكثر العلماء .

وقال ابن اسحق : تزوج يصهر بن قاهث سمين بنت ماريت بن بركيا بن يقشان بن ابراهيم فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر فنكح عمران بخيت بنت شمويل بن بركيا بن يقشان فولدت هارون وموسى ابنى عمران فموسى على قول ابن اسحق ابن أخى قارون وقارون عمه لأبيه وأمه وعلى قول الآخرين ابن عمه وعليه أصحاب التواريخ وكان قارون أعلم بنى اسرائيل بعد موسى وهرون وأفضلهم وأجملهم ، قال قتادة كان يسمى النور لحسن صورته ولم يكن فى بنى اسرائيل أقرأ للتوراة منه ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فبغى على قومه كما قال تعالى ـ فبغى عليهم ـ واختلفوا فى معنى هذا البغى قال ابن عباس رضى الله عنهما كان فرعون قد ملك قارون على بنى اسرائيل حين كانوا بمصر .

وأخبرنى الحسين : باسناده عن المسيب بن شريك أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم قال كان عاملا لفرعون على بنى اسرائيل وكان يبغى عليهم ويظلمهم ، وقال عطاء الخرسانى وشهر ابن حوشب زاد عليهم فى الثياب شبرا ، وروى شيبان عن قتادة قال بغى عليهم بالكبر والبذخ وبكثرة ماله وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم كما قال تعالى ـ وآتيناه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوء ـ الآية أى لتثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها ، واختلف المفسرون فى عدد العصبة فى هذا الموضع فقال مجاهد مابين العشرة إلى الخمسة عشر ، وعن قتادة مابين العشرة إلى الأربعين ، وعن عكرمة منهم من يقول أربعون ومنهم من يقول سبعون ، وعن الضحاك مابين الثلاثة إلى العشرة وقيل هم ستون .

وروى جرير عن خيثمة قال وجدت فى الانجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غرا محجلة مايزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح منها كنز ويقال إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع فكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا . واختلفوا فى سبب جمع تلك الأموال فقيل كان عنده علم الكيمياء . قال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع ابن نون ثلث ذلك العلم ، وعلم كالب بن يوقنا مثله وعلم قارون مثله فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه ، وفى الخبر ان الله تعالى علم موسى الكيمياء فعلم موسى أخته فعلمته قارون فكان ذلك سبب أمواله فذلك قوله تعالى ـ انما أوتيته على علم عندى ـ أو بالتصرف فى التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب ـ وقيل فى سبب جمعه تلك الأموال ماأخبرنا الثقفى باسناده عن أبى الحوارى قال سمعت أبا سليمان الدارانى كان يقول تبدّى ابليس لقارون وكان قارون قد أقام على جبل أربعين سنة يتعبد حتى إذا غلب جميع بنى اسرائيل فى العبادة بعث اليه ابليس شياطينه فلم يقدروا عليه فتقدم هو له وجعل يتعبد مع قارون وجعل ابليس يقهره بالعبادة ويفوقه فخضع له قارون وقال له ابليس ياقارون قد رضينا بهذا الذى نحن فيه لانشهد لبنى اسرائيل جماعة ولا نعود لهم مريضا ولانشهد جنازة . قال فأحدره من الجبل إلى البيعة فكانوا يؤتون بالطعام ، فقال له ابليس ياقارون قد رضينا أن نكون هكذا كلا على بنى اسرائيل ، فقال له قارون فأى رأى عندك ، قال نكتسب يوما فى الجمعة ونتعبد بقية الجمعة قال فتكسبا فى يوم الجمعة وتعبدا بقيتها فقال ابليس قد رضينا أن نكون هكذا ، قال قارون فأى الرأى عندك ، قال نكتسب يوما ونتعبد يوما فنتصدق ونعطى قال فلما كسبا يوما وتعبدا يوما جلس ابليس وتركه ففتحت على قارون ابواب الدنيا فبلغ ماله ماأخبرنا به ابن فتحويه باسناده عن المسيب بن شريك قال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة وكانت أربعمائة ألف فى أربعين خزانة فصار فى الثروة وكثرة المال بحيث يضرب به الأمثال أنشدنى أبو العباس سهل بن محمد المروزى عن بعضهم :

وعدتنى وعدك حتى إذا   أطمعتنى فى كنز قارون

جئت من الليـل بغسالة تغسـل ماقلت بصابون

فبغى قارون وطغى وتجبر حين استغنى وأثرى حتى هلك فصار عبرة للغابرين وعظة للباقين وكان أول طغيانه وعصيانه انه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال فكان يخرج فى زينته وهيئته ويختال كما قال تعالى — فخرج على قومه فى زينته — الآية قال مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليها المعصفرات وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات قال وكان ذلك أول يوم ظهرت المعصفرات فى الأرض . فيما كان أبى يذكر لى عن مقاتل انه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ، ومعه ستمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب فتمنى أهل الخسارة والجهالة مثل الذى أوتيه فقالوا — ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم — ، فأنكر عليهم اهل العلم بالله وقالوا لهم اتقوا الله واعملوا بما أمركم الله به وانتهوا عما نهاكم عنه فان — ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون — عن لذات الدنيا وشهواتها قال الله تعالى — ومايلقاها إلا الذين صبروا — اى لا يوفق لهذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا ثم ان الله أوحى الى نبيه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا اربعة فى كل طرف خيط أخضر لونه كلون السماء فقال موسى يارب لم أمرت بنى اسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر فى أرديتهم ؟ فقال الله تعالى إن بنى اسرائيل فى غفلة وقد أردت أن أجعل لهم علما فى ثيابهم يذكرونى به إذا نظروا اليه ويذكرون إله السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى ، فقال موسى : يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بنى اسرائيل تحقر هذه الخيوط قال له ياموسى إن الصغير من أمرى ليس بصغير وان لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير . قال فدعا موسى بنى اسرائيل ثم قال لهم : إن الله أمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لتذكروا ربكم اذا رأيتموها ، ففعلت بنو اسرائيل ما أمرهم به واستكبر قارون فلم يطعه ، وقال مايفعل هذه إلا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم فكان أيضا هذا من بغيه وعصيانه .

قالوا فلما قطع موسى ببنى اسرائيل البحر جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة وبيت القربان لهرون فكانت بنو اسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هرون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون فى نفسه من ذلك فأتى موسى وقال ياموسى : لك الرياسة والرسالة ولهرون الحبارة ولست أنا فى شيء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة منكما ولاصبر لى على هذا ، فقال موسى والله ماجعلتها أنا فى هرون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك فى ذلك حتى تريني بيانه ، قال فجمع موسى رؤساء بنى اسرائيل وقال : هاتوا عصيكم فمن أصبحت عصاه خضراء فهو أحق بالحبارة فجمعوا العصى وجاءوا بها وكتب كل واحد اسمه على عصاه فحزمها موسى وألقاها فى القبة التى كان يعبدالله فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هرون قد اهتزت ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز

فقال موسى : ياقارون ترى هذا من فعلى فقال قارون : والله ماهذا بأعجب مما تصنع السحرة وذهب قارون مغاضبا واعتزل موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ولا يزيد كل يوم إلا عتوا وتجبرا ومخالفة ومعاداة لموسى حتى انه بنى دارا وجعل بابها من الذهب الأحمر وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملأ من بنى اسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه . قال ابن عباس ثم إن الله أنزل الزكاة على موسى فلما أوجب الله الزكاة عليهم أتى قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار دينار واحد وعن كل ألف درهم درهم واحد وعن كل ألف شاة شاة واحدة وعن كل شىء شىء ثم رجع قارون الى بيته وحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بنى اسرائيل وقال لهم ياقوم إن موسى قد أمركم بكل شىء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا له أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بماشئت فقال آمركم أن تجيئوا بفلانة البغى فنجعل لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرجت عليه بنو إسرائيل فرفضوه فاسترحنا منه فأتوابها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستا من ذهب وقيل حكمها وقال لها أنا أمونك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو اسرائيل ، فلما كان من الغد جمع قارون بنى اسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى اسرائيل اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم ، فخرج اليهم موسى وهم فى براح من الأرض فقام فيهم خطيبا ووعظهم وقال فيما قال : يابنى اسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة وان كان له امرأة رجمناه حتى يموت ، فقال له قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا ، قال ان بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال أنا قال نعم ، قال ادعوها فان قالت فهو كما قالت ، فدعوها فلما جاءت قال لها موسى يافلانة أنا فعلت بك مايقول هؤلاء وعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لموسى وبنى اسرائيل وأنزل التوراة على موسى الاصدقت، فلما ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت فى نفسها لأن أحدث اليوم توبة أفضل من ان أوذى رسول الله فقالت لا بل كذبوا ولكن جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى ، فلما تكلمت بهذا الكلام سقط فى يد قارون ونكس رأسه وسكت الملأ وعرف انه قد وقع فى مهلكة فخر موسى ساجدا لله يبكى ويقول : يارب إن عدوك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى وسبنى اللهم ان كنت رسولك فاغضب لى وسلطنى عليه ، فأوحى الله تعالى اليه أن ارفع رأسك وأمر الأرض بماشئت تطعك فقال موسى : يابنى اسرائيل إن الله تعالى قد بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون ، فمن كان معه فليلبث مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا عن قارون ولم يبق معه الا رجلان ثم قال موسى ياأرض خذيهم ، فأخذتهم الى كعابهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى ركبهم ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم الى جنوبهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى أحقابهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى أعناقهم وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون الى موسى ويناشده قارون بالله والرحم حتى روى فى بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة

وموسى فى جميع ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه عليه ثم قال ياأرض خذيهم فانطبقت الأرض عليهم واوحى الله إلى موسى ياموسى ما أفظك استغاثوا بك سبعين مرة فلم تغثهم ولم ترحمهم أما وعزتى وجلالى لو إياى دعوا لوجدونى قريبا مجيبا . قال قتادة ذكر لنا ان الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة وانه يجلجل بهم فيها لايبلغون قعرها إلى يوم القيامة .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه قال أحمد بن محمد بن الحسين أخبرنا محمد بن يحيى وعبدالرحمن بن بشير وأحمد بن يونس قالوا أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر بن راشد عن همام ابن منبه قال أخبرنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل يتبختر فى برديه وينظر فى عطفيه وقد أعجبته نفسه إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » قالوا فلما خسف الله بقارون وصاحبيه الأرض أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم ان موسى إنما دعا على قارون ليستبدّ بداره وامواله وكنوزه ، فدعا الله موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض وأوحى الله تعالى اليه إنى لا أعيد الأرض لأحد بعدك ابدا فذلك قوله تعالى — فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين — ، فلما حلت نقمة الله بقارون حمد الله تعالى المؤمنون الذين وعظوه وأنذروه بأسّ الله كما أخبر الله تعالى — إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين — أى لاتبطر ولاتأشر — وابتغ فيما آتاك الله الدارة الآخرة — الآية وندم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس وماله وحاله كما قال الله — وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر — فنجى الله نبيه موسى صلوات الله على سيدنا محمد وعليه وسلامه والمؤمنين من كلّ بلاء ومحنة ، وأهلك أعداءهم فرعون وهامان وقارون كما قال تعالى — وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض — الآيات.

باب فى قصة موسى حين لقى الخضر وما جرى بينهما من العجائب إلى أن بلغ من أمرهما ما بلغ

قال الله تعالى — وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا — قال الأستاذ الامام : اختلف العلماء فى السبب الذى قصد موسى لأجله الخضر فروى الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم ياابن عباس إن نوفا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب ان موسى عليه السلام الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا ، قال ابن عباس كذب نوف حدثنى أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أن موسى نبى بنى اسرائيل سأل ربه ، فقال يارب إن كان فى عبادك أحد هو اعلم منى فدلنى عليه ، فقال الله عزّ وجلّ : نعم فى عبادى من هو اعلم منك ثم نعت له مكان الخضر عليه السلام واذن له فى لقائه ، وروى هرون بن عنترة عن ابيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه فقال يارب اى عبادك احب اليك ؟ فقال الذى يذكرنى ولاينسانى ، قال فأى عبادك اقضى ؟ قال الذى يقضى بالحق

ولا يتبع الهوى . قال يارب اى عبادك اعلم ؟ قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تهديه إلى هدى او ترده عن ردى . قال فهل فى الأرض احد اعلم منى ؟ قال نعم . قال يارب من هو قال الخضر ، قال فأين اطلبه ؟ قال على الساحل عند الصخرة التى يفلت عندها الحوت وجعل الحوت علما له ودليلا . وقال اذا حيى هذا الحوت فان صاحبك هناك . وكان قد تزود سمكا مملحا وروى عطية العوفى عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر واستقرت بهم الدار أنزل الله عليهم المنّ والسلوى . فخطب موسى قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة اذ نجاهم من آل فرعون واهلك عدوهم واستخلفهم فى الأرض . قال وكلم الله نبيكم تكليما واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه ، فنبيكم أفضل اهل الأرض وانتم تقرءون التوراة فلم يترك نعمة انعمها الله عليهم الا ذكرها وعرفهم إياها ، فقال له رجل منهم من بنى اسرائيل قد عرفنا الذى تقول فهل على وجه الأرض احد أعلم منك يا نبى الله ؟ قال لا قال فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم اليه فبعث اليه جبريل عليه السلام ، فقال له : ياموسى مايدريك أين أضع علمى بل إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك ، فسأل موسى ربه ان يريه إياه فأوحى الله اليه ان ائت البحر فانك تجد على شاطىء البحر حوتا فخذه وادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطىء البحر ، فاذا نسيت الحوت وهلك منك فثم تجد العبد الصالح . قال فخرج موسى وفتاه يقصدان مجمع البحرين للقاء الخضر عليه السلام ومعهما حوت مالح فذلك قوله تعالى ــ واذ قال موسى ــ يعنى ابن عمران لفتاه اى لصاحبه يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام لاأبرح اى لا ازال اسير حتى ابلغ مجمع البحرين يعنى بحر فارس والروم مما يلى المشرق . قال قتادة وقال أبى بن كعب هو افريقية ، وقال محمد بن كعب طنجة أوامضى حقبا دهرا وزمانا طويلا فذهبا ومعهما الخبز والسمك المملوح وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة عند مجمع البحرين ليلا . قال معقل بن زياد وهى الصخرة التى دون نهر الزيت قال وعندها عين تسمى ماء الحياة ولا يصيب ذلك الماء شيئا الا عاد حيا ، فلما اصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وعاشت ودخلت البحر ، فذلك قوله تعالى : فلما بلغا يعنى موسى وفتاه مجمع بينهما يعنى البحرين نسيا تركا حوتهما ، وإنما كان الحوت مع يوشع وهو الذى نسيه يدل عليه قوله تعالى ــ إنى نسيت الحوت ــ ولكنه صرف النسيان اليهما والمراد به احدهما كما قال تعالى ــ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ــ وإنما يخرجان من المالح دون العذب فاتخذ الحوت سبيله فى البحر سربا أى مذهبا ومسلكا واختلفوا فى كيفية ذلك ، فروى أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال « انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة فلم يلتئم ، فدخل موسى الكوة على اثر الحوت فاذا هو بالخضر عليه السلام » وقال ابن عباس راى اثر جناحيه فى الطين حين وقع فى الماء وجعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة ، وروى ابن عباس عن ابى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال « لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رءوسهما فناما فاضطرب الحوت فى المكتل

فخرج منه وسقط فى البحرها ربا فاتخذ سبيله فى البحرسربا فأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ موسى عليه السلام نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه — آتنا غداءنا — الآية ، وقال قتادة رد الله الى الحوت روحه فسرب حتى أفضى الى البحر ثم سلكه جعل لا يسلك منه موضعا إلا صار ماء جامدا طريقا يبسا ، وقال الكلبى توضأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المملح من ذلك الماء وهو فى المكتل فعاش ووثب فى الماء ، فجعل يضرب بذنبه الماء فلا يضرب بذنبه شيئا من الماء وهو ذاهب إلا يبس . قال الحكماء كان لموسى عليه السلام خمسة أسفار : الأول سفر الهرب وهو قوله تعالى — ففررت منكم لما خفتكم — الآية . والثانى سفر الطور وهو قوله تعالى — فلما أتاها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها — الآية وقوله تعالى — فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن — الآية . والثالث سفر الطلب وذلك عند خروجه من مصر قال الله تعالى — وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى — والرابع سفر الحرب وهو قوله تعالى إخبارا عن قول قومه — فاذهب أنت وربك فقاتلا — الآية . والخامس سفر النصب وهو قوله تعالى — لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا — وذلك أنه لما ألقى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه فقال له فتاه وتذكر — أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت — اى تركته وفقدته ، وقيل فيه إضمار تقديره فانى نسيت أن أذكر أمر الحوت — وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا — . قال عبد الرحمن بن زيد أىّ شىء أعجب من حوت كان دهرا من الدهور يؤكل منه ثم صار حيا حتى حشر فى البحر قال وكان شق حوت ، وقال وهب بن منبه ظهر فى الماء من أثر جرى الحوت أخدود شبه نهر من حيث دخل إلى حيث انتهى فرجع موسى حتى انتهى الى مجمع البحرين واذا هو بالخضر فذلك قوله تعالى — قال ذلك ما كنا نبغ أى نطلب فارتدا — فارتجعا على آثارهما الذى جاءا منه قصصا أى يقصان الأثر — فوجدا عبدا من عبادنا — يعنى الخضر عليه السلام .

فصل فى ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله

واسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وانما لقب بالخضر كما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه . قال أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسين الشرقى ، قال حدثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر وأحمد بن يوسف قالوا أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا عبد الله بن حامد الوراق قال أنبأنا مكى بن عبدان قال أنبأنا أبو الأزهر قال حدثنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال: قال رسول الله ﷺ « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز تحته خضراء » وأخبرنا أبو نصر محمد بن على بن الفضل الخزاعى. قال أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن القصار قال أنبأنا أحمد بن يوسف السلمى قال أنبأنا محمد بن يوسف الفريابى قال ذكر سفيان عن منصور عن مجاهد قال: إنما سمى الخضر لأنه أينما صلى اخضرّ حوله.

فصل فى بدء أمر الخضر عليه السلام

يروى أن رسول الله ﷺ ، لما أسرى به إلى السماء بينما هو على البراق وجبريل يمر به إذ وجد رائحة طيبة ، فقال ياجبريل ماهذه الرائحة الطيبة ؟ قال إنه كان ملك فى الزمان الأول له سيرة حسنة فى أهل مملكته ، وكان له ابن ولم يكن له ولد غيره . قال أصحاب الأخبار وكان أبوه ملكا عظيما فسلمه الى المؤدب يؤدبه ، وكان يختلف اليه وكان بين منزله ومؤدبه رجل عابد كان يمر به فأعجبه حاله فألفه وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه فى المنزل وأبوه يظن انه عند المعلم حتى شب ونشأ وأخذ من العابد شمائله وعبادته ، فقالوا لأبيه ليس لك ولد غيره يرث ملكك فلو زوجته لعله يرزق أولادا فعرض عليه أبوه التزويج فأبى ، ثم عاوده فعرض عليه فرضى فزوجه جارية من بنات الملوك فزفت اليه ، فلما بقيت عنده. قال لها إنى مخبرك بأمر إن أنت سمعتيه صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة وان أفشيت سرى عذبك الله فى الدنيا والآخرة . قالت وماذاك ؟ قال إنى رجل مسلم لست على دين أبى وليست النساء من حاجتى فان رضيت أن تقيمى معى على ذلك وتتابعينى على دينى فذاك اليك ، وان أنت أبيت لحقت بأهلك ، فقالت المرأة بل أقيم معك ، فلما أتت عليها مدة قالوا لأبيه مانظن ابنك إلا عاقرا لايولد له ولد فسأله أبوه ، فقال ماذلك بيدى وانماذلك بيد الله يؤتيه من يشاء فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل مارد عليه الخضر فمكث أبوه زمانا ثم دعا ابنه اليه ، فقال له أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجك امرأة غيرها ولودا ربما ترزق منها ولدا فكره ذلك الخضر وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوجه امرأة غيرها ولودا ثيبا فعرض عليها الخضر مقالته الأولى فرضيت وقالت أقيم معك فلبثا زمانا ثم إن أباه استبطأ الولد منه فدعاه وقال له ليس يولد لك فقال ليس ذلك بيدى ولكنه بيد الله ثم إنه دعا امرأته وقال لها أنت امرأة شابة ولود وقد كنت ولدت عند غير ابنى ولست تلدين عند ابنى فقالت مامسنى منذ صحبته وكذلك المرأة الأولى فدعاها وسألها ؟ فقالت مثل ذلك ، فدعا ابنه وعيره وعنفه ، ففزع من أبيه ولم يأمن على نفسه منه فخرج من عنده فهام على وجهه ولم يدر أحد من خلق الله تعالى أين توجه فندم أبوه على مافعل فأرسل فى طلبه مائة رجل من طرق شتى مختلفة فانطلقوا فى طلبه فأدركه منهم عشرة فى جزيرة من جزائر البحر ، فقال لهم إنى أقول لكم شيئا واحدا فاكتموه عنى فان كتمتموه صرف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة وان أبيتم ذلك وأفشيتم سرى عذبكم الله فى الدنيا وفى الآخرة قالوا له قل ماشئت . قال هل بعث أبى فى طلبى أحدا غيركم ؟ قالوا نعم ، فقال لهم إذا فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبى انكم رأيتمونى وقولوا مثل قول نظائركم الذين لو أرسلهم فى طلبى فلم يرونى لأنكم ان أخبرتموه بى أوذهبتم بى اليه قتلنى وصرتم أنتم مؤاخذين بدمى . قال فخلوا عنه وانصرفوا ، فلما دخلوا على أبيه . قال تسعة منهم قد وجدناه ، وقال لنا كيت وكيت فخليناعنه ، وقال العاشر مالنا به علم ومالى به خبر والتسعة قالوا بلى قد ظفرنا به وان شئت أتيناك به ، فقال لهم ارجعوا فى طلبه وأتونى به وان الخضر خاف ان يظفروا به فانحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا اليه فلم يجدوه فرجعوا وقالوا لم نره فقتلهم

أبوه . قال وان أباه دعا بالمرأه الثيب ، وقال لها أنت صنعت هذا بابنى حتى هرب فقتلها وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل . وقال العاشر الذى أنكر رؤيا الخضر مايؤمننى أن يقتلنى كما قتل التسعة فهرب حتى أتى قرية فاذا المرأة الهاربة أيضا فى تلك القرية فكانت تحتطب ، فقالت يوما باسم الله فسمعها الرجل الهارب . فقال لها من أنت ؟ فأخبرته خبرها ، فقال ياهذه أنا العاشر خرجت خوف القتل فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت فقالت نعم ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة فاتخذا بيتا من قصب ومكثا فيه ورزقا فيه ثلاثة أولاد فقال لها الرجل إذا انامت فادفنينى فى هذا البيت وكذلك كل من مات منكم فانى لا أحب ان تكون قبورنا مع هؤلاء فاذا كان آخرنا موتا يوصى أن يهدم عليه البيت فمات الرحل فدفنته امرأته ثم انه بلغ فرعون زمانهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه فجيء بالمرأة الى حضرته فأمرها أن ترجع عن دينها فأبت فأمر بقدر من نحاس فملئت ماء وأغلى غليانا شديدا وأمر بالمرأة وولدها، فلما أحضروا . قال لها ارجعى عن دينك وإلا ألقيتك أنت وأولادك فى هذا القدر فأبت عليه فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه فتفسخ فيه وكذلك الثانى وكان فى حجرها ابن رضيع فأرادوا إلقاءه فرقت المرأة ونازعتهم فى شأنه فتكلم الغلام الرضيع وقال لها اصبرى فانا جميعا فى الجنة فلما أرادوا أن يلقوها فى القدر قالت لهم لى إليكم حاجة يسيرة قالوا وما هى ؟ قالت إذا رميتمونى فى القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا فى بيتنا واهدموه علينا ، ففعلوا ذلك فلما أسرى برسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة ، فقال ماهذه ياجبريل ؟ فأخبره بقصتهم وقال هذه رائحتهم . ويروى ان جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ إن قوما من أهل تلك المدينة ركبوا البحر فى تجارتهم فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفينتهم فانفلت منهم رجلان على لوح من ألواحها فضربتهم الأمواج حتى أسندتهما الى جزيرة من جزائر البحر فخرجا يجولان فى الجزيرة فاذاهما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فجلسا حتى فرغ من صلاته فالتفت اليهما وقال لهما من أنتما قالا نحن من مدينة كذا وكذا خرجنا فى هذا البحر لطلب التجارة فانكسرت بنا هذه السفينة ودفعنا الى هذه الجزيرة فقال اختارا إن شئتما ان تقيما فى هذا الموضع تعبدان الله تعالى وتأتيكما أرزاقكما وإن شئتما أردكما الى منازلكما قالا بل تردنا إلى منازلنا ، فقال لهما على أن تعطيانى عهد الله وميثاقه على أنكما لاتخبران بشىء مما تريانه فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان فنظر فاذا سحائب تمر فدعاهن وسألهن فقالت كل واحدة منهن أريد بلد كذا وكذا فدعا التى تريد بلادهما فقال لها احملى هذين حتى تضعيهما على سطوحهما فسقطت السحابة وانشقت لهما ثم رفعتهما ومضت حتى وضعتهما على سطحيهما فعزم احدهما على الكتمان ونزل الى منزله وعزم الآخر على اذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق الى باب المدينة ونادى النصيحة فأدخل على الملك فقال له مانصيحتك ؟ فقال رأيت ابنك فى موضع كذا وكذا وصنع بى كذا وكذا ، فقال له من يعلم ذلك قال فلان كان رفيقى فبعث اليه وسألهم

عما قال ؟ فقال أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعا وقد انكسرت بنا السفينة وصرنا على لوح من ألواحها فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا الى الساحل فخرجنا من البحر فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والثمر ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى انتهينا الى منازلنا ، فقال له الغادر ابعث معى رسلك حتى أدفعه اليك وتعلم أن هذا قد كذب فأمر بالرجل الكاتم فحبس وتوعده بالصلب ان وفى صاحبه بما قال وأوعد الغادر بالصلب ان هو كذب ولم يأت به فبعث معه رسلا فركبوا البحر حتى انتهوا الى الجزيرة فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئا فرجعوا بالرجل الى الملك وقالوا هذا أكذب خلق الله ما رأينا مما قال شيئا فصلبه وخلى عن الآخر ، ثم ان أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصى حتى غضب الله عليهم . قال جبريل عليه السلام فبعثنى الله تعالى اليهم فأدخلت جناحى تحتها واقتلعتها فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك ثم أمرنى فقلبتها فجاءت تهوى بمن فيها حتى انتهت الى وجه الأرض فبقى بيت الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين ثم انطبقت الأرض بمن فيها فلم ينج منهم غيرهما فجعلا يدوران فى حدود المدينة فلا يلقى كل واحد منهما غير صاحبه فلما ان كثر ذلك قال الرجل أيتها المرأة قد رأيت ما أصاب القوم وانه لم يفلت غيرى وغيرك فبأى شىء نجونا فأخبرينى وأنا اخبرك فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا فاذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان ، فقال لها هل لك أن تزوجينى نفسك ونخرج الى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكتسبين على حتى يقضى الله من أمرنا ما يشاء ففعلت فذهبا الى مدينة فرعون من الفراعنة فاتخذا لهما بيتا وولد لهما أولاد وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظيت عندهم فبينما هى ذات يوم قاعدة تسرح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها فقالت باسم الله تعس من كفر بالله ففزعت الجارية من ذلك وقالت لها من الله ؟ قالت ربى ، فقالت لها وإن لك لربا غير أبى ؟ فقالت نعم هو ربى ورب أبيك ورب كل شىء فهبطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت تعلم ان فلانة تقول قولا عجيبا تقول كذا وكذا فأرسل اليها فحضرت ، فقال لها ماهذا الذى بلغنى عنك ؟ فقالت هو ما بلغك قال فهل أحد يقول بقولك ؟ قالت نعم بعلى وصبيتى فبعث اليهم وامتحنهم فاذاهم يقولون قولا واحدا ، فقال لهم إنا لا نقركم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا الى ديننا ، فقالوا له اصنع ما أنت صانع فأمر بقدر من نحاس عظيمة فملئت ماء ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحدا واحدا ليكفروا فأبوا أن يكفروا فأخذهم وطرحهم فى القدر ثم انه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى فألقاه فى القدر ثم دعا بالمرأة وقال لها إن لك علينا حقا فان أنت رجعت الى ديننا وإلا ألقيناك فى القدر ، فقالت له اصنع ما أنت صانع ثم انها قالت له لى اليك حاجة . قال وماهى ؟ قالت إذا صنعت ما أنت صانع فمر ببيتنا أن يحفر فيه حفرة ، ثم تأمر بالقدر فتحمل بما فيها ثم يأتون بها منزلنا فيسكب ما فى القدر فى الحفرة ثم يعاد علينا التراب ثم يهدم علينا البيت ففعل ذلك فهذه

الرائحة رائحة المسك تسطع من بيتهم الى يوم القيامة فهذه قصة الخضر مع أبيه وبدء أمره وكان فى زمن افريدون الملك ابن القباء على قول عامة اهل الكتب الأولى ، وقيل إنه كان على مقدمة ذى القرنين الأكبر الذى كان فى زمن ابراهيم عليه السلام وهو الذى قضى ببئر اليسع وهى بئر كان احتفرها ابراهيم عليه السلام لماشيته فى صحراء الأردن وان قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التى احتفرها فيها ابراهيم عليه السلام فحاكمهم ابراهيم عليه السلام الى ذى القرنين الذى كان الخضر على مقدمته أيام مسيره فى البلاد وانه بلغ مع ذى القرنين نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم به ولا يعلم ذو القرنين ومن معه فى محلته فخلد وهو فى الحياة الى الآن . وقيل ان ذا القرنين الذى كان على عهد ابراهيم عليه السلام وكان الخضر عليه السلام على مقدمته هو افريدون الملك وزعم بعضهم أن الخضر من ولد من كان آمن بابراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل .

وروى محمد بن إسحق بن يسار عن وهب بن منبه أن الخضر هو أرميا بن خلفيا وكان من سبط هرون بن عمران وهو الذى بعثه الله نبيا فى أيام ناشئة بن أموص ملك بنى اسرائيل والقول الأول أشبه بالحق وأولى بالعدل والصدق لأن ناشئة بن أموص كان فى عصر كرفشت بن كرارشت فى أيام بختنصر وبين افريدون وكرفشت من الدهور والأزمان مالا يجهله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم .

وقد صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى بن كعب أن صاحب موسى ابن عمران الذى أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الخضر عليه السلام ورسول الله ﷺ أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية وموسى بن عمران إنما نبىء فى عصر متوشهر الملك وكان متوشهر الملك ملك بعد جده افريدون فدل هذا على خطأ من قال انه أرميا بن خلفيا لأن أرميا كان فى أيام بختنصر وبين عهد موسى وبختنصر من المدة مالا يخفى على أهل العلم اللهم إلا أن يكون الأمر كما قال من قال إنه كان على مقدمة ذى القرنين صاحب إبراهيم عليه السلام فشرب من ماء عين الحياة فخلد ولم يبعث فى أيام إبراهيم ومن بعده إلى أيام ناشئة بن أموص فبعث حينئذ نبيا والله أعلم ، والصحيح أنه نبى معمر محجوب عن الأبصار .

وروى محمد بن المتوكل عن ضمرة بن عبيدالله بن سوار قال : الخضر من ولد فارس وإلياس من بنى اسرائيل يلتقيان فى كل عام فى الموسم ، وأخبرنى محمد بن القاسم اخبرنا أبو بكر محمد بن القاسم قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن يعقوب قال اخبرنا يزيد بن سمعان بن حبان الواسطى أخبرنا على بن المنذر عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال ان الخضر والياس لايزالان حيين فى الأرض مادام القرآن فيها فاذا رفع القرآن ماتا ، واخبرنى ابو عمرو العمرانى اخبرنا ابو احمد بن محمد على الرازى أخبرنا ابراهيم بن إسحق الانماطى اخبرنا ابو همام الوليد بن شجاع السلمى أخبرنا عمر بن عبد الواحد عن ابن ثوبان عن بعض أهل العلم عن أنس بن مالك قال : خرجت مع رسول الله ﷺ واذا بصوت يجىء من شعب . فقال يا أنس انطلق فأبصر ماهذا الصوت ؟ . قال فانطلقت فاذا رجل يصلى ويقول:

اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتوب عليها ، فأتيت رسول الله ﷺ فأعلمته بذلك فقال لي انطلق فقل له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ويقول لك من أنت ؟ . فأتيته فأعلمته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام وقل له أخوك الخضر يقول لك ادع الله ان يجعلني من أمتك المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتوب عليها .

رجعنا الى حديث موسى وفتاه : قالوا فانتهى موسى وفتاه الى الخضر وهو قائم يصلي على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى فقال موسى بني اسرائيل قال نعم قال يا موسى لقد كان في بني اسرائيل شغل قال موسى ان ربي أرسلني إليك لأتبعك واتعلم من علمك ثم جلسا يتحدثان فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء . فقال الخضر ياموسى خطر ببالك انك أعلم اهل الأرض ماعلمك وعلمي وعلم جميع الأولين والآخرين في جنب علم الله تعالى إلا أقل من الماء الذي حملته الخطافة بمنقارها فذلك قوله تعالى — فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا — اى نبوّة وحكمة — وعلمناه من لدنا علما — .

وقال ابن عباس : كان الخضر يعلم علم الغيب فقال له موسى — هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا — لأني اعلم علم الباطن علما علمنيه الله تعالى وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا يعني على مالم تعلمه قال موسى ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك امرا قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء علمته مما تنكره حتى أحدث لك منه ذكرا وأبين لك شأنه فانطلقا يسيران يلتمسان سفينة يركبان فيها فمرت بهما سفينة جديدة وثيقة فركباها فقال اصحاب السفينة هؤلاء لصوص وأمروهم بالخروج منها فقال صاحب السفينة ماهؤلاء بلصوص ولكني أرى وجوههم وجوه أنبياء وقال أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ : انطلقا يمشيان على ساحل البحر إذ مرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما دخلوا في البحر أخذ الخضر عليه السلام فأسا فخرق لوحا من السفينة حتى دخلها الماء فحشاها موسى بثوبه وقال أخرقتها لتغرق أهلها وقد حملونا وأحسنوا الينا فخرقت سفينتهم ماهذا جزاؤهم منا لقد جئت شيئا إمرا أي عجبا منكرا قال الخضر ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال موسى لاتؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا يعني لاتكلفني ولا تضيق عليّ أمري .

قال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية وقال في نفسه ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل كنت في بني اسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية وآمرهم فيطيعوني . فقال له الخضر ياموسى أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك قال نعم ؟ : قال قلت : كذا وكذا

قال صدقت ؟ . فانطلقا يمشيان حتى أتيا أيلة فاذا هما بغلمان عشرة فيهم غلام هو أظرفهم وأضوؤهم وجها .

قال ابن عباس : كان غلاما لم يبلغ الحلم ، وقال الضحاك : كان غلاما يعمل الفساد فتأذى منه أبواه ، وقال الكلبي : كان الغلام يسرق المتاع بالليل فاذا أصبح لجأ إلى أبويه فيحلفان دونه شفقة عليه ويقولان لقدبات عندنا .

واختلفو فى اسمه . فقال الضحاك : كان اسمه خسنود ، وقيل الحسين ، وقال وهب بن منبه كان اسم أبيه ملاس واسم أمه رحمة قال فأخذه الخضر عليه السلام فقتله .

واختلفوا فى كيفية قتله . قال سعيد بن جبير أخذه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، وقال الكلبي : صرعه ثم نزع رأسه ، وقال قوم رفسه برجله فقتله ، وقال آخرون ضرب رأسه بالجدار حتى قتله ، وفى رواية أخرى أدخل أصبعه فى سرة الصبي فاقتلعها فمات فلما قتله قال موسى أقتلت نفسا زكية يعني طاهرة لم تذنب ولم تستوجب القتل بغير نفس لقدجئت شيئا نكرا أى منكرا . قال قتادة النكر أشد وأعظم من الأمر . قال فغضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فاذا فى عظم كتفه مكتوب كافر لا يؤمن بالله أبدا .

ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به عبدالله بن حامد أخبرنا احمد بن عبيدالله اخبرنا محمد بن عبدالله بن سليمان اخبرنا يحيى اخبرنا قيس عن أبى اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « كان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا » فقال الخضر لموسى ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا اى فى فراقى .

اخبرنا عبد الواحد بن حامد الوزان اخبرنا مكى بن عبدان اخبرنا عبد الرحمن بن بشر اخبرنا حجاج بن محمد اخبرنا حمزة الزيات عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال كان رسول الله ﷺ اذا ذكر أحدا بدعائه بدأ بنفسه . فقال ذات يوم رحمة الله علينا وعلى أخى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب العجاب ولكنه قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا يمشيان حتى أتيا أهل قرية .

واختلفوا فى القرية . قال ابن عباس : هى انطاكية وقال محمد بن سيرين هى ايلة وهى ابعد ارض الله من السماء ، وقيل هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة واليها ينسب النصارى . قالوا فوافياها قبل غروب الشمس فاستطعما اهلها واستضافاهم فأبوا ان يضيفوهما . قالوا كانوا اهل قرية لئاما وقال قتادة فى هذه الآيات : شر القرى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه قالوا فلم يجدوا تلك الليلة فى تلك القرية قرى ولا ماء ولا مأوى ، وكانت ليلة باردة فالتجئوا الى حائط على شارع الطريق يريد

أن ينقض اى يكاد ينهدم ويسقط ولم يكن يمرّ به اهل القرية ولا غيرهم من الناس إلا على خوف منه ، وكان قد بناه رجل صالح .

وفي بعض الأخبار : ان سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وكان طوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع وعرضـه خمسون ذراع فأقامه الخضر اى سواه وقال ابن عباس هدمه وبناه . وقال سعيد بن جبير مسح الجدار وسواه بيده ومنـكبيه فاستقام . فقال له موسى لو شئت لاتخذت عليه أجرا ليـكون لنا قوتا وبلغة على سفرنا إذ استضفناهم فلم يضيفونا . فقال له الخضر هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا ثم أخذ يفسر له . فقال أما السفينة فـكانت لمسا كين يعملون فى البحر الآية . قال كعب وغيره كانت لعشرة إخوة زمنى لم يـكن لهم معيشة غيرها ورثوها من أبيهم خمسة منهم يعملون فى السفينة فى البحر وخمسة لايطيقون العمل فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما والثانى أعور والثالث أعرج والرابع آدر والخامس محموم لاتنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو اصغرهم والخمسة الذين لايطيقون العمل اعمى واصم واخرس ومقعد ومجنون وكان البحر الذى كانوا يعملون فيه مابين فارس إلى بحر الروم .

ويروى عن عـكرمة قال قلت لابن عباس فى قوله — أما السفينة فـكانت لمسا كين — كانوا مسا كين والسفينة تساوى ألف دينار فقال ان المسافر مسكين وان كان معه ألف دينار ولهذا قيل ان المسافر وماله على قلة إلا ماوقى الله تعالى فأردت أن أعيبها قطعا لطمع الطامعين فيها ودفعا لشرهم وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وراءهم أى أمامهم قال الله تعالى — من ورائهم جهنم ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون — أى أمامهم ، وقيل خلفهم لأنه كان رجوعهم فى طريقهم عليه ولم يكونوا يعلمون خبره فأعلم الله تعالى الخضر خبره وكان يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكذلك كان يقرأها ابن عباس فخرقتها وعبتها كيلا يتعرض لها ذلك الملك .

واختلفوا فى اسم ذلك الملك . فقال أكثر العلمـاء : اسمه جلندى وكان كافرا . وقال ابن اسحق : كان اسمه منواه بن جلندى الأردنى ، وقال شعيب الجبائى : كان اسمه هـدد بن بدد وقيل كان لهذا الملك ثلثمائة وستون قصرا فى كل قصر امرأة . قال فلما جاوزوا الملك سد الخضر خرق السفينة ورمها وأما الغلام فـكان أبواه مؤمنين فخشينا أى فعلمنا أن يرهقهما يغشاهما طغيانا وكفرا فيهلـكهما وقيل خشى أن يدرك فيدعو أبويه إلى الـكفر فيجيباه ويدخلا معه فى دينه لفرط محبتهما له ، وقيل خشيا على الغلام أن يعمل عمل الفساق فيتغافل أبواه فيدخلان النار فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وصلاحا وأقرب رحمـا .

قال ابن عباس : يعنى واصلا للرحم وبرا لوالديه فأبدلهما الله جارية مؤمنة أدركت يونس بن متى وتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة من الأمم .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا حامد بن أحمد قال أخبرنا ابو محمد عبدالله بن يحيى بن الحارث

أخبرنا عبد الوهاب بن فليح أخبرنا ميمون بن القداح عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه فى هذه الآية قال: أبدلهما جارية فولدت سبعين نبياء وقال ابن جريج ابدلهما بغلام مسلم وكان المقتول كافرا وقال قتادة فى هذه الآية قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى كان فيه هلاكهما فرضا المؤمن بقضاء الله تعالى فيما يكره خير له من رضاه فيما يحبه .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة واسمهما أصرم وصريم وكان تحته كنز لهما .

واختلفوا فى ذلك الكنز ماهو ؟ فقال ابن عباس وسعيد بن جبير كان صحفا مدفونة تحته فيها علم وقال الحسن وجعفر بن محمد كان لوحا من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجبا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن . وعجبا لمن يوقن بالرزق كيف يتعب . وعجبا لمن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع . وعجبا لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن اليها . لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

وقال آخرون كان ذلك الكنز مالا يدل عليه ماأخبرنا أبوبكر الحمشادى المزكى أخبرنا ابوالحسن أحمد بن محمد بن قيدوس الطرائفى اخبرنا عثمان بن سعيد اخبرنا صفوان بن صالح الدمشقى اخبرنا يزيد بن مسلم الصنعانى عن يزيد بن يزيد عن مكحول عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ـ وكان تحته كنز لهما ـ قال كان ذهبا وفضة وكان أبوهما اسمه كاشح وكان صالحا تقيا أمينا فحفظا لصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء .

أخبرنا عبدالله بن حامد بن محمد قال اخبرنا بشر بن موسى اخبرنا الحميدى أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر قال : ان الله عز وجل ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التى هو فيها والدويرات التى حوله فما يزالون فى حفظ الله وستره . وعن سعيد بن المسيب أنه كان اذا رأى ابنه . قال يابنىّ لأزيدن فى صلاتى من أجلك لعلى أحفظ فيك ويتلو هذه الآية . أخبرنا يحيى بن اسماعيل بن سلمة قال كانت لى أخت أسنّ منى فاختلطت وذهب عقلها فتوحشت وكانت فى غرفة فى اقصى سطوحنا فلبثت كذلك بضع عشرة سنة وكانت مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ أنا بباب بيتى يدق نصف الليل فقلت من هذا ؟ فقالت بجة فقلت أختى قالت أختك فقلت لبيك فقمت ففتحت الباب فدخلت ولا عهد لها فى البيت أكثر من عشرين سنة فقلت ياأختى خيرا فقالت خيرا ياأخى بت الليلة فأتانى آت فى منامى فقال لى السلام عليك يابجة فقلت وعليك السلام . فقال لى ان الله قد حفظ أباك اسماعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة جدك وحفظك بأبيك اسماعيل فان شئت دعوت الله لك فيذهب مابك وان شئت صبرت ولك الجنة فان أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد تشفعا لك الى الله تعالى لحب أبيك وجدك إياهما فقلت ان كان ولابد من اختيارى أحدهما فالصبر على ماأنا فيه والجنة وان الله لواسع الفضل لخلقه لايتعاظمه

شيء فى حكمه ولو شاء لجمعهما لى ، قالت فقيل لى قد جمعهما الله لك ورضى عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر فانزلى فان الله أذهب ما كان بك .

ويحكى عن بعض العلوية أنه دخل على هارون الرشيد وقد هم بقتله فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله فقيل له بم دعوت حتى نجاك الله قال قلت : يامن حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظنى منه لصلاح آبائى ـ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ـ المدفون تحت الجدار . وما فعلته عن امرى وانما فعلته بأمر الله تعالى ـ ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ـ ويقال لما عاب موسى على الخضر خرق السفينة وقتله الغلام واقامته الجدار محتسبا مجانا قال له يا موسى أتلومنى على خرق السفينة مخافة غرق أهلها ونسيت نفسك حين القتك امك وانت صغير فى اليم ضعيف فحفظك الله ، وتلومنى على قتل الغلام الكافر بلا أمر ونسيت نفسك حين قتلت القبطى بغير أمر ؟ وتلومنى على ترك أخذ الأجرة فى إقامة الجدار ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسبا لأجل الملك الجبار .

قال بعض اهل الأخبار هذا ما كان من قصة موسى وفتاه وقصدهما الخضر حيث كانوا فى التيه فلما فارق موسى الخضر رجع إلى قومه وهم فى التيه .

ويروى عن على بن أبى طالب وغيره أن موسى لما أراد فراق الخضر قال له الخضر استودعتك الله ، ثم قال له موسى أوصنى ، فقال له الخضر : لاتكن مشاء فى غير حاجة واياك واللجاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخاطئين بخطاياهم وابك على خطيئتك ولا تؤخر عمل اليوم الى غد .

وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال « ألا أحدثكم عن الخضر ؟ قالوا بلى يارسول الله قال بينما الخضر يمشى فى سوق من أسواق بنى اسرائيل إذ لقيه مكاتب فقال له تصدق علىّ بارك الله لك ، فقال آمنت بالله وما يقضى الله من أمر سيكون مامعى من شيء أعطيكه ، فقال له الرجل تصدق على بارك الله عليك فانى أرى الخير فى وجهك فرجوت الخير من قبلك فقال له الخضر آمنت بالله وما يقضى الله من أمر سيكون مامعى شيء أعطيكه ، فقال له السائل أسألك بالله لما تصدقت علىّ فقال له الخضر آمنت بالله مايقضى الله من أمر سيكون مامعى شيء أعطيكه إلا أن تأخذ بيدى وتدخلنى فى السوق فتبيعنى ، قال الرجل وهل يكون مثل هذا قال الحق أقول انك سألتنى بعظيم سألتنى بوجه ربى وقد أجبتك فخذ بيدى وأدخلنى السوق فبعنى فأخذ بيد الخضر فأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم فلبث عند المبتاع أياما لايستعمله فى شيء ، فقال له الخضر استعملنى فقال له إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك قال لا يشق علىّ ذلك قال فقم فانقل هذه الحجارة من ههنا إلى ههنا وكانت الحجارة لاينقلها الا ستة نفر فى يوم تام فقام ونقلها فى ساعة واحدة وأمده الله تعالى على نقلها بملك من الملائكة فتعجب الرجل منه وقال أحسنت ثم عرض للرجل سفر فقال للخضر انى أراك أمينا صالحا ناصحا فاخلفنى فى أهلى قال نعم ان شاء الله تعالى فاستعملنى فى شيء قال أكره أن أشق عليك قال لايشق ذلك علىّ فقال اضرب لى لبنا أريده لقصرلى ووصفه له ثم خرج لسفره

فلما قضى حاجته ورجع من سفره اذ هو بالخضر عليه السلام قد شيد بنيانه على ماأراد ، فازداد منه تعجبا وقال له من أنت قال أنا المملوك الذى كنت اشتريتنى ، فقال له سألتك بوجه الله أن تخبرنى من أنت فقال الخضر إن هذا القسم هو الذى أوقعنى فى العبودية أما أنا فسأخبرك أنا الخضر سألنى سائل بوجه ربى أن أعطيه ولم يكن معى شىء أعطيه فأمكنته من نفسى حتى باعنى وبلغنى أن من سئل بوجه الله ورد سائله وهو يقدر على قضاء حاجته وقف يوم القيامة بين يدى ربه وليس على وجهه لحم ولاجلد الا عظم يتقعقع ، قال فبكى ذلك الرجل وانكب عليه يقبله ويقول له بأبى أنت وأمى شققت عليك ولم أعرفك فاحكم علىّ فى مالى وأهلى وإن أحببت أن أخلى سبيلك فعلت قال نعم بل أحب أن تخلى سبيلى أعبد ربى وكان الرجل كافرا فأسلم على يديه واعطاه أربعمائة دينار وخلى سبيله فأوحى الله اليه قد نجيتك من الرزق وأسلم الكافر على يديك واعطاك مكان كل درهم دينارا لتعلم ان لايخسر احد فى معاملتى ، فهذا آخر قصة الخضر وموسى وفتاه والله اعلم .

باب فى ذكر قصة عاميل قتيل بنى اسرائيل وقصة البقرة

قال الله تعالى — واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة — قال المفسرون وجد قتيل فى بنى اسرائيل اسمه عاميل لم يدر من قتله . واختلفوا فى قاتله وسبب قتله ، فقال عطاء والسدى كان فى بنى اسرائيل رجل كثير المال وله ابن عم مسكين ولا وارث له غيره فلما طالت عليه حياته قتله ليرثه ، وقال بعضهم كان تحت عاميل ابنة عم له مالها فى بنى اسرائيل مثل فى الحسن والجمال فقتله ابن عم لها لينكحها فلما قتله حمله من قرية إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقال عكرمة كان لبنى اسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا لكل سبط منهم باب فوجد قتيل على باب سبط جر الى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان ، وقال ابن سيرين قتله القاتل ثم احتمله ووضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يطلب ثأره ودمه ويدعيه عليه وقيل ألقاه بين القريتين فاختصم أهلها وجاء أولياؤه إلى موسى واتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوه القصاص فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا ولم يكن لهم بينة فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم قتال واختلاف وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم أمر ذلك القتيل فسأل موسى ربه فامرهم بذبح البقرة فقال لهم موسى — ان الله أمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا — جئناك لنسألك عن القتيل فتأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك لتباعد الأمرين فى الظاهر ولم يدروا وجه الحكمة فيه فقال موسى — أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين — أى من المستهزئين بالمؤمنين فلما علم القوم أن ذبح البقرة أمر من الله تعالى قد لزمهم سألوه الوصف فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ولو أنهم عمدوا إلى ادنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم لكنهم شددوا الأمر على أنفسهم فشدد الله عليهم وانما كان تشديدهم تقديرا من الله وحكمة وكان السبب فيه على ماذكره السدى وغيره أن رجلا فى بنى اسرائيل كان بارّا بأبيه ، وبلغ من بره أن رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها

بخمسين ألفا وكان فيها فضــــل وربح فقال البائع اعطنى ثمن اللؤلؤة فقال ان أبى نائم ومفتاح الصندوق تحت رأســه فأمهلنى حــتى يستيقظ وأعطيك الثمن فقال أيقظ أباك وأعطنى المال . فقال ما كنت لأفعل ولـكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى ينتبه أبى ، فقال الرجل أنا أحط عنك عشرة آلاف ان أيقظت أباك وعجلت النقد فقال أنا أزيدك عشرين الفا ان انتظرت انتباهه فقال قبلت فقعد ولم يوقظ أباه ، فلما استيقظ ابوه اخبره بذلك فدعا له وجزاه خيرا وقال له أحسنت يابنى وهذه البقرة لك بما صنعت وكانت بقية بقر كانت لهم وقال رسول الله ﷺ فى هذه القصة : انظروا ماصنع الله به لأجل البر .

وقال ابن عباس ووهب وغيرهما من أهل الـكتب : كان فى بنى اسرائيل رجل صالح وله ابن طفل وكان له عجلة فأتى بالعجلة إلى غيضة وقال اللهم انى استودعتك هــذه العجلة لابنى حتى يكبر ، ثم مات الرجل وشبت العجلة فى الغيضة حتى صارت عوانا وكانت تهرب من كل من رآها ، فلما كبر الابن وكان بارا بوالدته وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عنــد رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصــدق بثلثه ويأكل بثلثه ويعطى والدته ثلثه ، قالت له امه يوما يابنى ان أباك ورثك عجلة وذهب بها الى غيضة كذا وكذا واستودعها الله تعالى ، فانطلق اليها واعزم عليها باله ابراهيم واسماعيل واسحق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت اليها يتخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت اسمها المذهبة لحسن خلقها وصفاء لونها وصفرتها ، فأتى الغيضــة فرآها وهى ترعى فصاح بها الفتى وقال لها أعزم عليك باله ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب أن تردى علىّ فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها وقادها فتكلمت البقرة باذن الله تعالى وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فان ذلك أوهون لك ، فقال ان أمى لم تأمرنى بذلك وانما قالت خذ بعنقها ، فقالت البقرة وإله بنى اسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر علىّ أبدا فانطلق فانك لو أشرت الى الجبل أن ينقلع من أصــله وينطلق لفعل لبرك بوالدتك فانطلق الفتى بها فاستقبله عدو الله إبليس فى صورة راع فقال له أيها الفتى إنى راع من رعاة البقر اشتقت الى أهلى فأخذت ثورا من ثيرانى وحملت عليه زادى ومتاعى حتى اذا بلغت شطر هذه الطريق ذهبت لأقضى حاجتى فغدا وسط الجبل وماقدرت عليه ، وانى لأخشى على نفسى الهلـكة فان رأيت ان تحملنى على بقرتك هذه وتنجينى من الموت وأعطيك بقرتين مثل بقرتك ، فلم يفعل الفتى وقال اذهب فتوكل على الله فلو علم الله منك اليقين لبلغك بلازاد ولاراحلة ، فقال له إبليس لعنه الله ان شئت فبعنيها بحكمك وان شئت فاحملنى عليها وأعطيك عشرة أمثالها فقال له الفتى ان أمى لم تأمرنى بهذا فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدى البقرة ، فنفرت البقرة هاربة فى الفلاة وغاب الراعى ، فدعاها الفتى وقال باسم الله اله ابراهيم فرجعت اليه البقرة وقالت أيها الفتى البار بوالدته ألم تر الى الطائر الذى طار فانه إبليس عدو الله اختلسنى أما انه لو ركبنى لماقدرت على أبدا فلما دعوت باله ابراهيم جاءنى ملك انتزعنى

من يد إبليس وردنى اليك لبرك بأمك وطاعتك لها فجاء بها الفتى الى أمه فقالت له انك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها فقال بكم أبيعها فقالت بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاى ومشورتى وكان ثمن البقرة فى ذلك الوقت ثلاثة دنانير فانطلق بها الى السوق فبعث الله الى الفتى ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خبيرا ، فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتى فقال له الملك أنا أعطيك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضا أمى فردها الى أمه فأخبرها بالثمن ، فقالت ارجع فبعها بستة دنانير على رضاى فانطلق الفتى بالبقرة الى السوق ، فأتى الملك فقال له استأمرت والدتك فقال الفتى نعم أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها فقال له الملك انى أعطيتك اثنى عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع الى أمه فأخبرها بذلك فقالت ان ذلك الرجل الذى يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك فى صورة آدمى ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتأمرنى ان أبيع هذه البقرة أم لا ففعل الفتى ذلك ، فقال له الملك اذهب الى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى اسرائيل ولا تبيعها الا بملء مسكها دنانير ، فأمسكا البقرة وقدر الله على بنى اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة فذلك قوله تعالى ــ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ــ وماسنها قال موسى إنه يعنى الله يقول ــ إنها بقرة لا فارض ولا بكر ــ اى لا كبيرة ولا صغيرة عوان بين ذلك نصف بين السنين ، فافعلوا ماتؤمرون من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال ــ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ــ قال انه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ــ اليها وتعجبهم من حسنها وصفائها لأن العين تسر وتولع بالنظر إلى الشيء الحسن وقال على بن أبى طالب من لبس نعلا صفراء قل همه لأن الله تعالى يقول صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ــ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ــ أسائبة أم عاملة ــ إن البقر تشابه علينا وإنا ان شاء الله لمهتدون ــ الى وصفها قال رسول الله ﷺ « وايم الله لو لم يستثنوا لما قبلت منهم الى آخر الأبد » ــ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول مذللة بالعمل تثير الأرض ــ تقلبها للزراعة ــ ولا تسقى الحرث مسلمة ــ بريئة من العيوب لاشية فيها ، قال عطاء لا غيب فيها ، وقال قتادة لا بياض فيها أصلا ، وقال محمد بن كعب لا لون فيها يخالف معظم لونها . قال فلما قال لهم موسى هذا ــ قالوا الآن جئت بالحق ــ اى بالوصف الثابت التام البين ، فطلبوها فلم يجدوها بكمال وصفها الا عند الفتى البار بأمه فاشتروها منه بملء مسكها ذهبا ، وقال السدى اشتروها بوزنها عشر مرات ذهبا ، ــ فذبحوها وما كادوا يفعلون ــ من غلو ثمنها ، وقال القرطبى : وما كادوا يذبحونها باجتماع أوصافها وذلك قوله تعالى ــ وإذ قتلتم نفسا ــ يعنى عاميل وهذه الآية أول القصة ــ فادارأتم فيها ــ اى فاختلفتم فيها والله مخرج اى مظهر ما كنتم تكتمون اى تخفون فقلنا اضربوه يعنى القتيل ببعضها اى بعض البقرة واختلفوا فى هذا البعض ماهو ، قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو

المقتل ، وقال الضحاك بلسانها قال حسين بن الفضل ، وهـذا اولى الأقاويل لأن المراد من إحياء القتيل كلامه واللسان آلة وقال سعيد بن جبير بعجب ذنبها ، قال غياث وهـو اولى التأويلات بالصواب لأن عجب الذنب اساس البدن الذى ركب عليه الخلق وهواول مايخلق الله وآخرمايبلى. وقال مجاهد بذنبها وقال عكرمة والكلبي بفخذها الأيمن وقال السدى بالبضعة التى بين كتفيها وقيل بأذنها ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا باذن الله تعالى واوداجه تشخب دماوقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه قال الله تعالى ـ كذلك يحيي الله الموتى ـ كما أحيا عاميل بعد موته ـ ويريكم آياته ـ دلائل قدرته وشواهد حكمته ـ لعلكم تعقلون ـ قالوا فلما كان من أمر عاميل ما كان أوحى الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى الأرض المقدسة ببنى اسرائيل لينظر إلى كل قتيل يوجد بين قريتين او محلتين ، فيأخذ اقرب القريتين اليه ويلزمهم الدية ، فان علموا قاتله سلموه إلى اهله وان لم يعلموا تخيروا خمسين رجلا من شيوخهم وصلحائهم ثم ليأخذوا بقرة حولية ويذبحوها ببطن واد يسميه لهم ثم لتضع الخمسون رجلا ايديهم عليها ثم ليحلفوا بالله العظيم ربّ السموات والأرض إله بنى اسرائيل واسحق ويعقوب واسماعيل انا ماقتلناه ولا علمنا له قاتلا ، فاذا حلفوا برئوا من دمه وادوا ديته إلى أوليائه فلم يزل موسى يقضى بالقسامة بينهم إلى ان مات وكذا بنو اسرائيل حتى جاء الاسلام فقضى رسول الله ﷺ بالقسامة والله أعلم .

باب فى ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة وصفة النار التى كانت تأكل القربان وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك

قال الله تعـالى ـ الذين قالوا إن الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النـار ـ الآية .

أنبأنا محمد بن حمدويه باسناده عن وهب بن منبه قال : أوحى الله إلى موسى أن يتخذ مسجدا لجماعتهم وبيت قدس للتوراة والتابوت والسكينة وقبابا للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها ، وأن تـكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان وحبالها التى تمد بها من أصواف تلك الذبائح وعهد إليه أن لايغزل تلك الحبال حائض ولايدبغ تلك الجلود جنب وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عمد من نحاس طول كل عمود منها أربعون ذراعا ، ويجعل فيها اثنى عشرقسما مسرجا ، فاذا انقضى وصار اثنى عشر جزءا جعل على كل جزء بما فيه من العمد سبطا من أسباط بنى اسرائيل ، وأمره أن يجعل سعة تلك السرادقات ستمائة ذراع فى ستمائة ذراع وان ينصب فيه سبع قباب ستة منها مشتبكة بقضبان الذهب والفضة كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طوله أربعون ذراعا ، وعليهـا أربعة دستوت من ثياب محلاة الباطن . الأولى سندس أخضر . والثانى أرجوان احمر . والثالث ديباج . والرابع من جلود القربان وقاية لها من المطر والغبار وحبالها التى تمد بهـا من صوف القربان ، وأن يجعل سعتهـا أربعين ذراعا ، وأن

ينصب فى جوفها موائد من فضة مربعة يوضع عليها القربان ، سعة كل مائدة منها أربعة أذرع فى أربعة أذرع كل مائدة منها على أربع قوائم من فضة ، كل قائمة ثلاثة أذرع لاينال الرجل منها إلا قائما ، وأمره ان ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب طوله سبعون ذراعا يضعه على سبيكة من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا مرصع بأنواع الجواهر ، وان يجعل أسفله مشتبكا بقضبان الذهب والفضة ، وأن يجعل حبالها التى تمد لها من أصواف القربان ، وأن يجعله مصبوغا بألوان من أحمر وأصفر وأخضر ، وان يلبسه سبعة من الجلال محلاة الباطن . الأول منها سندس اخضر ، والثانى أرجوان احمر . والثالث من الديباج الأصفر . والرابع من الحرير الأصفر وبذلك أثواب نحوها وسائرها من الديباج والوشى والظاهر له غاشية من جلود القربان وقاية من الأذى والندى ، وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا وأن يفرش القباب بالقز الأحمر ، وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق مرصع بألوان الجواهر واليواقيت الأحمر والأشهب والزمرد الأخضر وقوائمه من ذهب ، وأن يجعل سعته سبعة أذرع فى أربعة أذرع وعلوه قامة موسى ، وأن يجعل له أربعة أبواب باب تدخل منه الملائكة ، وباب يدخل منه موسى ، وباب يدخل منه هرون ، وباب يدخل منه أولاد هرون ، وهم سدنة ذلك البيت وخزان التابوت ، وأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل محتلم فيها من بنى اسرائيل مثقالا من ذهب ، فينفقه على هذا البيت وأن يجعل باقى ذلك المال الذى لايحتاج اليه من الحلى والحلل التى ورثها الله بنى اسرائيل وموسى وأصحابه من فرعون وقومه دفينا فى أرض بيت المقدس ، ففعل ذلك فبلغ عدد بنى اسرائيل ستمائة ألف وسبعة وخمسين رجلا ، فأخذ منهم ذلك المال وأوحى الله اليه إنى منزل عليكم من السماء نارا لا دخان لها ولا تحرق شيئا ولا تطفأ أبدا لتأكل القرابين المتقبلة وتسرج القناديل التى فى بيت المقدس ، وهى من ذهب معلقة بسلاسل من الذهب منظومة من اليواقيت واللآلىء وانواع الجواهر ، وأمره ان يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام وينقر فيها نقرة لتكون كانون تلك النار التى تنزل من السماء ، فدعا موسى أخاه هرون وقال له : ان الله قد اصطفانى بنار تنزل من السماء تأكل القرابين المتقبلة وتسرج منها القناديل وأوصانى بها ، وإنى قد اصطفيتك بها وأوصيتك بها ، فدعا هرون ابنيه وقال لهما : إن الله تعالى قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به وانه قد اصطفانى له وأوصانى به وإنى قد اصطفيتكما له وأوصيتكما به ، وكان أولاد هرون هم الذين يلون سدنة هذا البيت وامر القربان والنيران ، فشربوا ذات ليلة حتى ثملوا ثم دخلوا البيت وأسرجوا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا فغضب الله عليهم وسلط عليهم تلك النار فأحرقتهما وموسى وهرون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من أمر الله شيئا ، فأوحى الله تعالى إلى موسى هكذا أفعل بمن عصانى ممن يعرفنى فكيف أفعل بمن لايعرفنى من أعدائى ، وهذا آخر القصة والله أعلم .

باب فى ذكر مسير بنى اسرائيل إلى الشام حين جاوزوا البحر وصفة حرب الجبارين وقصة التيه وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى ـ وإذقال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمةالله عليكم إذ جعل فيكم أنبياءوجعلكم ملوكا ـ الآيات اختلفت عبارات المفسرين فى الأرض المقدسة ماهى ، فقال مجاهد هى الطور وما حوله . وقال مقاتل هى إيليا وبيت المقدس . وقال عبدالله بن عمر الحرم محرم بمقداره من السموات والأرض والبيت المقدس مقدس بمقداره من السموات والأرض . وقال عكرمة والسدى هى أريحاء . وقال الكلبى هى دمشق وفلسطين وبعض الأردن . وقال الضحاك هى الرملة والأردن وفلسطين . وقال قتادة هى الشام كله .

[فصل فى فضل الشام وأهله] قال زيدبن ثابت بينما نحن جلوس عند النبى صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع إذقال « طوبى لأهل الشام قيل يارسول الله ولم ذلك ؟ قال إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم » عن عبدالله بن خولة قال : كنا عندالنبى ﷺ فقال « والله لايزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله لكم أرض فارس والروم وأرض حمير وحتى تكونوا أجنادا ثلاثة جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن ، فقلت يارسول الله اخترلى إن أدركنى ذلك ، فقال أختار لك الشام فانها صفوة الله تعالى من بلاده واليها يجتبى صفوته من عباده ، يا أهل الاسلام عليكم بالشام فان صفوة الله من الأرض الشام ، وان الله تعالى قد تكفل لى بالشام وأهله » وقال عبدالله بن مسعود حدثنا رسول الله ﷺ قال « قسم الله الخير عشرة أجزاء فجعل منه تسعة أجزاء فى الشام وواحدا فى العراق ، وقسم الله الشر عشرة أجزاء فجعل منه تسعة فى العراق وواحدا بالشام ، ودخل الشام عشرة آلاف عين رأت النبى ﷺ ونزل حمص تسعمائة من أصحاب النبى ﷺ فيهم سبعون بدريا . وقال الكلبى صعد ابراهيم عليه السلام جبل لبنان وقيل له انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس ، وهو ميراث لذريتك من بعدك فذلك قوله تعالى ـ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ـ يعنى كتب الله فى اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن ، وقال ابن إسحق وهبها الله لكم مساكن وقال السدى أمركم أن تدخلوها .

ذكر قصة بلعام بن باعوراء

قال الله تعالى ـ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ـ الآية . واختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين هو بلعام بن باعوراء بن باعر بن أيدبن مارت بن لوط ، وكان من الكنعانيين من مدينة بلقاء وهى مدينة الجبارين ، وسميت بلقاء لأن ملكها رجل يقال له بالق بن صافوراء . وكانت قصة بلعام على ماذكره ابن عباس وابن إسحق والسدى والكلبى وغيرهم أن موسى عليه السلام لماقصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام الى بلعام وكان عنده اسم الله الأعظم ،

فقالوا له ان موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وانه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وإنا قومك وبنو عمك وجيرانك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاقدم الينا وأشر علينا فى هذا الرجل العدو الذى قد أرهقنا فادع الله أن يردّ عنا موسى وقومه ، فقال لهم بلعام : ويلكم هذا نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت ذلك ذهبت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى قال لهم اصبروا حتى أستأمر ربى وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام فتآمر فى الدعاء عليهم فى المنام فقيل له لا تدع عليهم ، فقال لقومه : إنى قد آمرت ربى فى الدعاء عليهم فنهيت عن ذلك فراجعوه فقال حتى أؤامر ثانيا فآمر فلم يجب فقال قد آمرت فلم يجب لى شيئا ، فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما فعل فى المرة الأولى فلم يزالوا يرققون به ويناشدونه ويتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن ، فقالوا لبعضهم اهدوا اليه فيقال إنهم أهدوا اليه هدية فقبلها . ويقال إن بلعام بن باعوراء لما أبى أن يدعو على موسى وقومه اجتمع آراء قومه على أن يحملوا شيئا إلى امرأته وقالوا إنها فقيرة وانه يصغى إلى رأيها فانطلق عشرة من عظمائهم وحمل كل واحد منهم صحيفة من ذهب مملوءة ورقا فأهدوها لها فأقبلت على صاحبها وألحت عليه حتى قالت له ارجع الى ربك فاسأله أن يأذن لك فى مؤازرتهم والدعاء على عدوهم فلم تزل به حتى استجاب فلم يجب اليه بشىء فقالت له إنه قد خيرك فى الدعا عليهم فلو لم يأذن لنهاك . قالوا فركب أتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر بنى اسرائيل يقال له حسان وكانت مراكب العباد الأولين الأتن ، فما سار عليها غير بعيد حتى ربضت به فنزل عنها وضربها حتى أزلقها فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن الله تعالى لها فى الكلام حجة عليه فقالت له : ويحك يا بلعام أين تذهب ألا ترى أن الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلما سمع ذلك خرّ ساجدا ، فلم يزل باكيا متضرعا حتى غابت عنه الملائكة ثم رفع رأسه فجاءه الشيطان وقال له امض لوجهك فان ربك يستجيب لك ولو لم يرد ذلك لما برحت عنك الملائكة ولما خلوا سبيلك فركب أتانه وخلى الله سبيلها فانطلقت به حتى أشرفت على جبل حسان فجعل لا يدعو عليهم بشىء من الشر إلا اصرف الله به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا اصرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال له قومه أتدرى ما تصنع يا بلعام ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا أمر لا أملك منه شيئا قد غلبنى الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره فعلم ما حل به فقال لقومه قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسآمر لكم واحتال فجملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعن فيه ويشترين وأمروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانهم لو زنى رجل منهم كفيتموهم ففعلوا ذلك ، فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كبشا بنت صوريا برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمرى بن سلوم من سبط شمعون بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ، فقام اليها وأخذ بيدها حين أعجبه حسنها وجمالها ثم وقف

على موسى وقال : إنى سأظنك أن تقول هــذه حرام عليك فقال أجل هى حرام عليك لاتقربها . قال والله لاأطيعك فى هذا ، ثم إنه دخل بهاقبته فواقعها فأرسل الله الطاعون على بنى اسرائيل فى الوقت ، وكان فنحاص بن عيزار بن هرون صاحب موسى رجلا قدأعطى بسطة فى الخلق وقوة فى البطش وكان غائبا حين صنع زمرى بن سلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس فى بنى اسرائيل فأخبر الخبر ، فأخــذ حربته وكانت حديدا كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما فى حربته ، ثم خرج بهما رافعهما بيديه الى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة على لحيته ، وكان بكر العيزار وجعل يقول : اللهمّ هكذا تفعل بمن يعصيك ، فرفع الطاعون عنهم فحسب من هلك من بنى اسرائيل من الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألف نفس فى ساعة واحدة . فمن هنالك يعطى بنو اسرائيل لبنيه من كلّ ذبيحة ذبحوها الخاصرة والذراع واللحى ، لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخــذه إياها بذراعه وإسناده إياها الى لحيته والبكر من كلّ أموالهم لأنه كان بكر العيزار بن هرون ، ففى بلعام أنزل الله تعالى ــ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ــ الآية .

قال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى والاقتلتك فقال انه من أهل دينى ولا أدعو عليهم فجىء بخشبة ليصلبه . فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت له لم تضربنى وأنا مأمورة فلا تظلمنى وهــذه نار أمامى قــد منعتنى أن أمشى فرجع فأخبر الملك فقال له لتدعونّ عليه وإلاصلبتك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لايدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى وبنو اسرائيل فى التيه بدعائه فقال موسى يارب بأىّ ذنب وقعنا فى التيه ؟ قال بدعاء بلعام فقال موسى يارب كما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه أن تنزع منه الاسم الأعظم والايمان فسلخه الله مما كان عليه ونزعت منه المعرفة فخرجت كحمامة بيضاء وأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال آخرون هو نبى من بنى إسرائيل يقال له بلعام أوتى النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ماهم عليه .

وقال عبدالله بن عمر وزيد بن أسلم وأبوروق أنزلت هذه الآية فى أمية بن أبى الصلت الثقفى كانت قصته أنه كان فى ابتداء أمره قد قرأ الــكتب السالفة وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا فى ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ حسده وكان قصد بعض الملوك ، فلما رجع مرّ بقتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد ، فقال لوكان نبيا ماقتل أقرباءه ، فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسألها عن وفاة أخيها فقالت بينا هو راقد إذ أتاه رجلان فــكشطا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه أوعى قال وعى ، قال أزكا قال زكا ، قالت فسألته عن ذلك ؟ فقال خير أريدبى ، ثم قطرت عينه ، ثم غشى عليه ، فلما أفاق قال :

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدا لى فى قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أطيبه من شعر سألتك بالله أن تنشدى شعر أخيك فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا فلاشىء أعلى منك جدا وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهى قصيدة طويلة وأنشدته حتى أتت على آخرها ثم انها أنشدته قصيدته التى يقول فيها :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه مثل ماقال فردا لم يذر فيه راشدا وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب إن تعف فالمعافاة ظنى أو تعاقب فلم تعاقب بريا
إن أؤاخذ بما اجترمت فانى سوف ألقى من العذاب قويا

فقال ﷺ « آمن شعره وكفر قلبه » فأنزل الله تعالى فيه ــ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ــ الآية ، وقال سعيد بن المسيب نزلت فى أبى عامر بن النعمان بن صيفى الراهب الذى سماه النبى ﷺ الفاسق ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح فقدم المدينة ، فقال النبى ﷺ ماهذا الذى جئت به ؟ قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم . قال فأنا عليها فقال النبى ﷺ لست عليها ولكنك أدخلت فيها ماليس منها فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا فى مناظرته طريدا فريدا وحيدا فخرج إلى الشأم وأرسل الى المنافقين أعدوا القوة والسلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر وآتى بجند لنخرج محمدا وأصحابه من المدينة فذلك قوله تعالى ــ وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ــ يعنى انتظارا لمجيئه فمات فى الشام طريدا وحيدا فريدا ، ومنهم من قال انها نزلت فى البسوس وكان رجلا قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وله منها ولد ، فقالت له اجعل لى منها واحدة ، فقال لك منها دعوة فماتريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا فجعلت أجمل امرأة فى بنى اسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الرجل فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس لنا على هذا قرار ولا صبر صارت أمنا كلبة نباحة وان الناس يعيروننا بها فادع الله أن يردها الى الحال التى كانت عليها فدعا الله فصارت كما كانت فذهبت فيها الثلاث دعوات كلها .

باب فى ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم
حين بعثه إياهم الى أرض كنعان جواسيس له ولقومه

قال الله تعالى ـ ولقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ـ الآية وذلك أن الله تعالى وعد موسى أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهى الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون وهم العمالقة من ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ووعده الله أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مساكن بنى اسرائيل فلما استقرت ببنى اسرائيل الدار بمصر أمرهم الله بالمسير الى أريحاء من أرض الشام وهى الأرض المقدسة فقال ياموسى إنى قد كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرج اليها وجاهد من فيها من العدو فانى ناصركم عليهم فخذ من قومك اثنى عشر رجلا من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به فاختار موسى من كل سبط نقيبا وأمره عليهم وهذه أسماؤهم من سبط روبيل شموع بن ذكور ومن سبط شمعون شوقط بن حورى ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ومن سبط جاد جابذ بن يوسف ومن سبط ريالون حدى بن سورى ومن سبط أشير شايون بن مليكيك ومن سبط يقالى حى بن وقسى ومن سبط دان حمل بن وكيل بن حمل ومن سبط لاوى خولا بن مليكا ومن سبط يوسف افرائيم ومن سبط افرائيم يوشع بن نون وهما سبطان لموسى ومن سبط ميشاحى بن موسى ومن سبط بنيامين ناظم بن زقون ، ثم إنه سار ببنى اسرائيل قاصدا أريحاء فبعث موسى اليها هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار له ويعلمون حالها وحال أهلها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق .

فصل فى ذكر جمل من أخبار عوج بن عنق وأحواله

قال ابن عمر كان طول عوج ثلاثة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول ، وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه اليها ثم يأكله .

ويروى أنه أتى نوحا فى أيام الطوفان فقال له احملنى معك فى سفينتك فقال له اذهب ياعدو الله فانى لم أومر بك فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وماجاوز ركبتيه وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ فجاء عوج ونظر اليهم ثم جاء الى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة وانثقبت فوقعت فى عنق عوج بن عنق فطوقته وصرعته فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع وقفز الى فوق عشرة أذرع فما أصاب منه إلا كعبه وهو مصروع فى الأرض فقتله قالوا فأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل وقع على نيل مصر فجسره سنة قالوا وكانت أمه عنق هى إحدى بنات آدم من صلبه ويقال إنها كانت أول من بغى على وجه الأرض وكان كل أصبع من أصابعها طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين

فى كل أصبع ظفران حادان مثل النجلين وكان موضع مقعدها خربة من الأرض ولما بلغت بعث الله اليها أسودا كالفيلة وذئابا ونمورا كالابل ونسورا كالحمر وسلطهم عليها فقتلوها وأ كلوها .

قالوا فلما لقيهم عوج يعنى أصحاب موسى وكان على رأسه حزمة حطب أخذ الاثنى عشر نقيبا وجعلهم فى حزمته وانطلق بهم الى امرأته ، وقال لها انظرى الى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال لأطحنهم برجلى . فقالت له امرأته لاتفعل بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك وخلى سبيلهم فجعلوا يتعرفون أحوالهم وكان لايحمل عنقود عنبهم إلا خمسة نفر بينهم فى خشبة ويدخل فى قشرة الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو اربعة . فلما خرجت النقباء قال بعضهم لبعض ياقوم إنكم ان أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم فشلوا وارتدوا عن نبى الله ولكن ا كتموا شأنهم واخبروا موسى وهرون فيريان رأيهم فيهم فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ، ثم انهم انصرفوا الى موسى وجاءوا بحبة من عنبهم وقشرة من قشور رمانهم واخبروه بما رأوا ثم ان النقباء نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه وقومه عن قتالهم واخبروهم بما رأوا من حالهم إلا رجلين منهم وفيا بما قالا وهما يوشع بن نون بن افرائيم فتى موسى وكالب بن يوقنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران فلما سمع القوم ذلك من الجواسيس رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ياليتنا متنا فى ارض مصر او ليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله ارضهم فتكون نساؤنا وأولادنا واموالنا غنيمة لهم وجعل الرجل منهم يقول لأصحابه تعالوا نجعل علينا رئيسا وننصرف الى مصر فذلك قوله تعالى اخبارا عنهم — قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين — الآية قال قتادة كان لهم أجسام وخلق عجيب ليس لغيرهم مثله — وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون — قال موسى ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم فان الله سيفتحها عليكم وان الذى أنجاكم من آل فرعون وفلق لكم البحر هو الذى يبلغكم ويظفركم عليهم فلم يقبلوا قوله ولم يفعلوا وردوا عليه امره وهموا بالانصراف الى مصر فخرج يوشع بن نون وكالب بن يوقنا الى القوم وهما اللذان اخبر الله عنهما بالتوفيق والعصمة فى قوله تعالى — قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما — بالتوفيق والعصمة — ادخلوا عليهم الباب — يعنى باب مدينة الجبارين فاذا دخلتموه فانكم غالبون لأن الله منجز وعده فانا رأيناهم وخبرناهم فكانت جسومهم عظيمة قوية وقلوبهم ضعيفة فلا تخشوهم وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين فأراد بنو اسرائيل ان يرجموهما بالحجارة وعصوهما وقالوا ياموسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

وروى أن رسول الله ﷺ . قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد عن البيت انى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت فاستشار أصحابه فى ذلك ، فقال المقداد بن الأسود الكندى إنا والله لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكنا نقول إنا معك مقاتلون والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك وبين يديك ولو خضت بحرا لخضناه ولو تسنمت جبلا لعلوناه ولو

ذهبت بنا الى برك الغماد يعنى مدينة بالحبشة لتبعناك ، فلما سمع ذلك أصحاب النبي ﷺ تابعوه على ذلك فأشرق لذلك وجه النبي ﷺ . قال ابن عباس لأن أكون صاحب هذا المشهد احب الىّ من الدنيا وما فيها .

قال فلما فعلت بنو إسرائيل مافعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم سوى يوشع وكالب غضب موسى فدعا عليهم ـ وقال رب انى لاأملك الانفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ـ أى العاصين وكانت عجلة عجلها موسى فظهر الغمام على باب قبة موسى وأوحى الله تعالى الى موسى الى متى يعصينى هذا الشعب والى متى لايصدقون بهذه الآيات لأهلكنهم جميعا ولأجعلن لك شعبا أقوى وأكثر منهم ، فقال موسى إلهى لو أنك قتلت هذا الشعب كلهم لرجل واحد لقالت الأمم الذين سمعوا ذلك إنما قتل هذا الشعب من اجل انه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة فقتلهم فى البرية وانك طويل صبرك كثيرة نعمتك وأنت تغفر الذنوب وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء فاغفرلهم ولا توبقهم ، فقال الله تعالى لموسى انىقد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعد ماسميتهم فاسقين ودعوت عليهم حلفت بعزتى لأحرمنّ عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع بن نون وكالب ولآتينهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التى تحبسوا فيها سنة وكانت أربعين يوما وليأتينهم حتفهم فى هذه القفار ، وأما بنوهم الذين لم يعصونى ولم يعملوا الخير ولا الشر فانهم يدخلون الأرض المقدسة فذلك قوله تعالى ـ فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ـ متحيرين ـ فلاتأس على القوم الفاسقين ـ فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ وكانوا ستمائة ألف مقاتل وكانوا كل يوم يسيرون جادين حتى اذاهم أمسوا فاذاهم بالموضع الذى منه ارتحلوا وسموا الموضع الذى هم فيه فارتحلوا ومات أولئك النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر ، وكل من دخل التيه ممن جاوز عشرين سنة مات فى تلك المدة غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ولم يدخل أحد أريحاء ممن قال إنا لن ندخلها أبدا . فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشىء من ذراريهم ساروا الى حرب الجبارين وفتح الله لهم .

باب فى ذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى اسرائيل فى التيه وخصهم بذلك
ورفع عنهم الهلاك كرامة لنبيه وصفيه موسى عليه السلام

قال الله تعالى ـ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ـ الآية كقوله تعالى ـ وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ـ والعد لا يقع على الواحد ـ التى أنعمت عليكم ـ أى على أجدادكم وأسلافكم . وذلك ان الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأنزل عليهم التوراة فيها بيان كل شىء يحتاجون اليه وأعطاهم ما اعطاهم فى التيه وذلك انهم قالوا لموسى اهلكتنا واخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لاظل فيها ولا كنّ فأنزل الله عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر بل ارق واطيب وابرد منه فأظلتهم ،

وكانت تسير بسيرهم اذا ساروا وتدور عليهم من فوقهم اذا نزلوا وذلك قوله تعالى ـ وظللنا عليكم الغمام ـ يعنى فى التيه يقيكم حر الشمس . ومنها أنه جعل لهم عمودا من نور يضىء لهم بالليل اذا لم يكن ضوء القمر . فقالوا هذا الظل والنور قد حصل فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ .

واختلفوا فيه فقال مجاهد هو شىء كالصمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد . وقال الضحاك هو البر يختبز . وقال وهب هو الخبز الرقاق . وقال السدى كان عسل يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه . وقال عكرمة هوشىء أنزله الله عليهم مثل الرب الغليظ . وقال الزجاجى المنّ مايمن الله به مما لا تعب فيه ولا نصب . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين » قالوا وكان الله ينزل هذا المن كل ليلة يقع على الأشجار مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع كل ليلة . فقالوا ياموسى قتلنا هذا المنّ بحلاوته فادع الله ربك لنا يطعمنا اللحم فدعا موسى فأنزل الله عليهم السلوى .

واختلفوا فيه فقال ابن عباس وأكثر الناس هو طائر يشبه السمانى ، وقال أبو العالية ومقاتل هو طير أحمر بعثه الله عليهم فأمطر به السماء فى عرض ميل قدر رمح فى السماء بعضها على بعض وكانت السماء تمطر عليهم ذلك ، وقيل إنه كان طيرا مثل فراخ الحمام طيبا سمينا قد تمعط ريشه وزغبه وكانت الريح تأتى به اليهم فيصبحون وهوفى معسكرهم ، وقيل انه كان يأتيهم فيسترسل اليهم فيأخذونه بأيديهم . وقال عكرمة هو طير يكون بالهند أكبر من العصفور . وقال المؤرج هو العسل بلغة كنانة . قال شاعرهم :

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألذّ من السلوى إذا مانشورها

فكان الله ينزل عليهم المن والسلوى وكان أحدهم يأخذ ما يكفيه يومه وليلته فاذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت فذلك قوله تعال ـ وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا ـ أى قلنا لهم كلوا من طيبات حلال مارزقناكم ولا تدخروا لغد فخبأوا لغد فدود وفسد ماادخروا وقطع الله عنهم ذلك قال الله تعالى ـ وماظلمونا ـ أى أضرونا بالمعصية ومخالفة الأمر ـ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ باستصحابهم الغذاء وقطع عنهم مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا مشقة فى الدنيا ولاحساب ولا تبعة فى العقبى .

أخبرنا شعيب بن محمد قال أخبرنا مكى بن عبدان قال أخبرنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا روح ابن عبادة قال حدثنا عوف بن عبد الله عن جلاس بن عمر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم ولم يخبث الطعام ، ولولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها » .

ومنها أنهم عطشوا فى التيه . فقالوا ياموسى من أين نشرب ؟ فاستسقى لهم موسى فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك الحجر .

واختلف العلماء فيه . فقال وهب كان موسى يقرع لهم أقرب حجر فى أرض الحجارة فينفجر

منه عيون لكل سبط منهم عين ، وكانوا اثنى عشر سبطا ثم تسيل كل عين فى جدول السبط الذى حمن لسقيهم . فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه لاتقرعن الحجارة بالعصا ولكن كلمها تطعك لعلهم يعتبرون ، وكان يفعل ذلك . فقالوا كيف بنا إذا مضينا إلى الرمل والى الأرض التى ليس فيها حجارة فأمر موسى أن يحمل معه حجرا فحينما نزل ألقاه .

وقال آخرون كان حجرا مخصوصا بعينه ، والدليل عليه قوله تعالى الحجر فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص كقوله رأيت الرجل .

ثم اختلفوا فى ذلك الحجر ماهو ؟ فقال ابن عباس كان حجرا خفيفا مربعا مثل رأس الرجل أمر أن يحمله فحمله فكان يضعه فى مخلاته فاذا احتاجوا الى الماء أخرجه وضربه بعصاه فيتفجر عيونا كما ذكرنا فسقاهم قال أبو روق كان الحجر من الكذان وكان فيه اثنتا عشرة عينا أى حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب فيأخذونه فاذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وكان كل يوم يسقى ستمائة ألف من جميع الأجناس . وقال سعيد بن جبير هو الحجر الذى وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ففر الحجر بثوبه . فلما وقف الحجر أتاه جبريل عليه السلام فقال ياموسى ان الله يقول لك إرفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة وهو الذى ذكره الله تعالى فى قوله ـ ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ـ الآية وهو ماأخبرنا به الحسن بن أحمد الخلدى باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمح فى أثره موسى يقول ثوبى ياحجر ثوبى ياحجر حتى نظر بنوا اسرائيل الى سوأة موسى فقالوا والله مابموسى من بأس قال فقام الحجر بعد مانظر اليه بنو اسرائيل فأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضربا فقال أبو هريرة والله إن أثر ضرب موسى بالحجر ستة أو سبعه ، قال عبد العزيز السكتانى كان موسى ضرب الحجر اثنتى عشرة ضربة فكان يظهر فى كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة ثم يتفجر بالأنهار المطردة فذلك قوله تعالى ـ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ـ .

ومنها أنهم قالوا لموسى فى التيه من أين لنا اللباس فخلد الله تعالى ثيابهم التى عليهم حتى لاتزيد على الأيام ومرور الأعوام إلا جدة وظرافة ولا تخلق ولا تبلى وتنمو على صبيانهم كما تنمو فمكثوا على ذلك زمانا طويلا والله أعلم .

باب فتح أريحاء ونزول بنى اسرائيل الشام

اختلف العلماء فيمن تولى حرب الجبارين وفيمن كان على يده الفتح فقال قوم انما فتح أريحاء موسى ويوشع وكان يوشع على مقدمته فسار موسى اليهم بمن بقى من بنى اسرائيل فى التيه ولم يمت فى التيه فدخلها بهم يوشع وقتل الجبارين الذين كانوا بها فدخلها موسى ببنى اسرائيل

فقام فيها ماشاء الله أن يقيم ثم قبضه الله تعالى ولم يعلم أحد قبره من الناس وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها الى الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء ، أن عوج بن عنق قتله موسى ، وقال آخرون ماقاتل الجبارين إلا يوشع بن نون ولم يسر اليهم إلا بعد موت موسى وهلاك من كان أبى المسير اليها وقالوا مات موسى وهرون عليهما السلام فى التيه .

قصة وفاة هرون عليه السلام

قال السدى : أوحى الله تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام انى متوف هرون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل واذاهما بشجرة لم ير مثلها وبيت مبنى وفيه سرير عليه فرش واذافيه ريح طيبة فلما نظر هرون الى ذلك أعجبه وقال ياموسى انى أحب أن أنام على هذا السرير فقال نم عليه فقال انى أخاف ان يأتى رب هـذا البيت فيغضب علىّ قال له موسى لا تخف أنا أكفيك رب هذا البيت فنم فقال ياموسى نم معى فان جاء رب هذا البيت غضب علينا جميعا فنام موسى وأخذ هرون الموت ، فلما وجد حسه قال ياموسى خدعتنى فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير الى السماء ، فلما رجع موسى الى بنى اسرائيل وليس معه هرون قالوا قتل موسى هرون وحسده لحبنا إياه فقال موسى ويحكم إن هرون أخى ووزيرى فكيف أقتله فلما أكثروا عليه قام وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل السرير حتى نظروا اليه بين السماء والأرض فصدقوه .
وقال عمرو بن ميمون : مات موسى وهرون فى التيه ومات هرون قبل موسى ، وكانا خرجا فى التيه الى بعض الكهوف فمات هرون ودفنه وانصرف الى بنى اسرائيل . فقالوا أين هرون ؟ قال مات ، قالوا كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه ، وكان محببا فى بنى اسرائيل فتضرع موسى الى ربه وشكا الى ربه مالقى من بنى اسرائيل فأوحى الله اليه ان انطلق بهم الى قبره فانى باعثه حتى يخبرهم انه مات موتا ولم تقتله فانطلق بهم الى قبر هرون فناداه ياهرون فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له أنا قتلتك قال لا والله ولكنى مت فعاد وانصرفوا والله أعلم .

ذكر وفاة موسى عليه السلام

قال ابن اسحق : كان موسى قد كره الموت واستعظمه فلما كرهه أراد الله أن يحبب اليه الموت ويكره اليه الحياة ، وكان يوشع بن نون يغدو اليه ويروح فيقول له موسى يانبىّ الله ما أحدث الله اليك ؟ فيقول له يوشع يانبى الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شىء مما أحدث الله اليك حتى تكون أنت الذى تبتدىء به وتذكره ولايذكر له شيئا . فلما رأى موسى ذلك كره الحياه وأحب الموت .
قال الأستاذ باسناده : حدثنى عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهبا يقول وذكر من كرامة موسى عليه السلام انه ضاق ببنى اسرائيل ذرعا لما كثروا عليه فبعث الله اليه ألف نبىّ يكونون أعوانا له . فلما مال الناس اليهم وجد موسى فى نفسه غيرة فأماتهم الله لكرامته فى يوم واحد .

واختلفوا في صفة موت موسى عليه السلام . حدثنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون باسناده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال جاء ملك الموت إلى موسى فقال له أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها قال فرجع ملك الموت إلى الله عزوجل فقال يارب انك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت وفقأ عيني فرد الله عينه وقال ارجع إلى عبدي وقل له الحياة تريد ؟ فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعر فانك تعيش بعدد كل شعرة من ذلك سنة قال ثم ماذا ؟ قال ثم تموت قال فالآن من قريب قال يارب فأدنني من الأرض المقدسة رمية حجر ، قال رسول الله ﷺ لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر . قال سمعت أبا سعيد بن حمدون يقول سمعت أبا حامد الشرقي يقول سمعت محمد بن يحيي يقول قد صح هذا عن رسول الله ﷺ يعني قصة ملك الموت وموسى عليه السلام لا يردها إلا كل مبتدع ضال . وفي حديث آخر : أن رسول الله ﷺ : قال إن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا حتى أتى موسى ليقبضه فلطمه ففقأ عينه فجاء ملك الموت بعد ذلك خفية .

قال السدى في خبر ذكره عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا : بينما موسى عليه السلام يمشي وفتاه يوشع بن نون إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر اليها يوشع ظن أنها الساعة فقال ياقوم أظن أنها الساعة وأني ملتزم بموسى نبي الله فانسل من تحت القميص وترك القميص في يد يوشع فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا اقتلت نبي الله فقال والله ما قتلته ولكنه انسل مني فلم يصدقوه وأرادوا قتله فقال لهم إذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه آت في المنام وأخبره أن يوشع لم يقتل موسى وانما قد رفعناه الينا فتركوه . قال وهب بن منبه : خرج موسى ليقضي حاجة فمر برهط من الملائكة فعرفهم فأقبل اليهم حتى وقف عليهم فاذاهم يحفرون قبرا لم ير شيئا قط أحسن منه ولم ير مثله قط في الخضرة والنضرة والبهجة . فقال لهم ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا نحفره لعبد صالح كريم على ربه فقال موسى إن هذا العبد لمن الله بمنزلة عظيمة ما رأيت كاليوم أحسن منه مضجعا . فقالت الملائكة ياصفي الله أتحب أن يكون لك .قال وددت ذلك ، قالوا فانزل واضطجع فيه وتوجه الى ربك، ثم تنفس أسهل نفس تتنفسه فنزل فاضطجع فيه ثم توجه الى ربه ثم تنفس فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب ، وقيل إنه أتاه ملك الموت بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله روحه .

ويروى أن يوشع بن نون رآه بعد موته في المنام ، فقال له ؟ كيف وجدت الموت يانبي الله ؟ قال كشاة تسلخ وهي في الحياة .

ويروى أن موسى لما مات قالت الملائكة بعضهم لبعض : مات صفي الله موسى بن عمران فمن الذي يطمع في البقاء . وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة : عشرون منها في ملك افريدون ومائة سنة في ملك منوجهر .

قال الأستاذ . رجعنا إلى قصة حرب أريحاء وخبر الفتح . قال : فلما انقضت أربعون سنة ومات موسى بعث الله يوشع بن نون نبيا فأخبرهم أنه نبيّ الله وأن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وبايعوه فتوجه ببنى اسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر ، فلما كان فى الشهر السابع نفخوا فى القرون وصاحوا صيحة واحـدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم وجعلوا يقتلونهم ، فكانت العصابة من بنى اسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها ، وكان القتال يوم الجمعة فبقى منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فخشى يوشع أن يعجزوه . فقال : اللهم اردد الشمس علىّ ، أو انه قال للشمس : إنك فى طاعة الله وأنا فى طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس فردت له الشمس وزيد له فى النهار ساعة واحدة حتى قتلهم أجمعين .

أخبرنا أحمد بن عبدالله بن حامد الأصفهانى باسناده عن عروة بن عبدالله قال : دخلت على فاطمة بنت علىّ رضوان الله عليهما فرأيت فى عنقها خرزا ورأيت فى يدها مسكتين غليظتين ، وهى عجوز كبيرة ، فقلت لها ماهـذا ؟ فقالت : انه يكره للمرأة أن تتشبه بالرجل ، ثم حـدثتنى أن أسماء بنت عميس الخثعمية حدثتها أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كان مع نبىّ الله وقد أوحى الله اليه فجلله بثوبه ولم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول غابت أو أرادت أن تغيب ، ثم إن نبى الله سرى عنه . فقال : أصليت يا علىّ قال لا . فقال النبى ﷺ « اللهم اردد عليه الشمس » فرجعت حتى بلغت نصف المسجد .

قال : ثم أرسل ملوك الأرامنة ، وكانوا خمسة فأرسل بعضهم إلى بعض فجمعوا كلهم على يوشع وقومه فهزمت بنو اسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنية حوران ورماهم الله بأحجار البرد ، فكان من قتله البرد أكثر ممن قتله بنو اسرائيل بالسيف ، وهرب الملوك الخمسة واختفوا فى غار فأمر بهم يوشع فأخرجهم وصلبهم ثم أنزلهم فطرحهم فى ذلك الغار ، وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام ، وصار الشام كله لبنى اسرائيل وفرق عماله فى نواحيها ، ثم جمع الغنائم فلم تنزل النار ، فأوحى الله تعالى الى يوشع : ان فيها غلولا فأمرهم أن يبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده ، فقال له : هلم ماعندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالدر والياقوت والجوهر كان قد غله فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « غزا نبى من الأنبياء فقال للقوم : لا يتبعنى رجل كان قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولا آخر قد بنى له بيتا ولم يرفع سقفه ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ، قال فدنا من القوم صلاة العصر أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علىّ ساعة فحبست له ساعة حتى فتح الله عليه ، قال ثم وضعت الغنيمة فجاءت النار فلم تأكلها ، فقال : إن فيكم غلولا فليبايعنى من كل قبيلة منكم رجل فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده ،

فقال : فيكم الغلول أنتم غللتم . قال : فأخرجوا مثل رأس البقرة من ذهب فألقوه فى الغنيمة وهى بالصعيد فجاءت النار فأكلتها » . قال النبى ﷺ « لم تحل الغنائم لأحد قبلنا ، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا » قالوا : ثم أمرهم الله أن يدخلوا أريحاء متواضعين مستغفرين خافضين رءوسهم . وذلك قوله تعالى ـ وإذقلنا ادخلوا هـذه القرية فـكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ـ . وكان لهم سبعة أبواب سجدا : اى منحنين متواضعين . وقولوا حطة : اى حط عنا خطايانا . قال وهب : انهم أذنبوا بابائهم ، وكان توبتهم إذ أذنبوا دخول أريحاء ، فلما فصلوا من التيه أحب الله أن يستنقذهم من الخطيئة . قال ابن عباس : حطة قول لا إله إلا الله ، سميت بذلك لأنها تحط الذنوب ـ نغفر لـكم خطايا كم وسنزيد المحسنين ـ إحسانا ـ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ـ وذلك أنهم دخلوا متزحفين على أستاههم ، وقالوا حطا سمقاثا : يعنى حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى ـ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ـ أى عذابا من السماء ـ بما كانوا يفسقون ـ وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم طاعونا وظلمة فهلك منهم سبعون ألفا فى ساعة واحدة ثم رفعه الله عنهم ورحمهم قالوا فلما استقرت بنو اسرائيل بالشام وصفت لهم توفى الله نبيه يوشع ودفن فى جبل افرائيم ، وكان عمره مائة وعشرين سـنة ، وتدبيره أمر بنى اسرائيل بعد موت موسى سبعا وعشرين سنة .

مجلس فى ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع وقصة كالب عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين : لما حضرت الوفاة يوشع بن نون استخلف على بنى اسرائيل كالب بن يوقنا ختن موسى عليه السلام ، وهو أحد الرجلين الذين أنعم الله عليهما . قال الله تعالى ـ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ـ فأحسن الخلافة حتى قبضه الله عز وجل واستخلف على بنى اسرائيل ابنه يوساقوس ، وكان فيما ذكر يشبه يوسف عليه السلام فى الحسن والجمال والبهاء وكانوا يفتتنون به ، وكانوا من شغفهم به يأتونه وينظرون اليه ويقولون له : أيها العبد الصالح جئنا لنسلم عليك وهو يستحى أن يردهم ، فلما أكثروا خاف الفتنة فسأل الله أن يغير صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه الجدرى فصار مجدورا ملوحا فلبث فيهم مائة وأربعين سنه ثم قبضه الله اليه ، والله أعلم .

ذكر خبر حزقيل عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام : لما قبض الله كالب وابنه بعث الله تعالى حزقيل إلى بنى اسرائيل نبيا ، وهو حزقيل بن بورى . ويلقب بابن العجوز ، وإنما لقب بابن العجوز لأن أمه سألته

الله تعالى الولد وهى عجوز وقد كبرت وعقمت عن الولد فوهبه الله تعالى لها ، وهو الذى أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته فى قوله تعالى ـ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ـ الآية

قال أكثر المفسرين : كانت قرية يقال لها [داوردان] قرية قبل واسط وقع بها الطاعون فخرج منها طائفة هاربين من الطاعون وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى فى القرية وسلم الذين خرجوا ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا إن أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن الى الأرض التى لا وباء فيها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح ، فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا فماتوا جميعا .

عن محمد بن زكريا قال سمعت الأصمعى يقول : لما وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على حمار له ومعه ولده وخلفه عبد حبشى يسوق الحمار فطفق العبد يرتجز ويقول :

لن يسبق الله على حمار ولا على ذى منعة خطار قد أصبح الله أمام السارى

فرجع الرجل لما سمع من قوله بعياله .

وروى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا سمعتم بالوباء فى بلدة فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » . وقال الضحاك ومقاتل والكلبي : انما فرّ هؤلاء من الجهاد وذلك أن ملكا من ملوك بنى اسرائيل أمرهم أن يخرجوا الى قتال عدوهم فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلوا وقالوا لملكهم : إن فى الأرض التى نأتيها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع الوباء عنها فأرسل الله عليهم الموت ، فلما رأوا أن الموت قد كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ، فلما رأى الملك ذلك قال اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لايستطيعون الفرار من حكمك وقضائك ، فلما خرجوا قال الله لهم موتوا فماتوا جميعا وماتت دوابهم كموتهم موتة رجل واحد فما أتى عليهم ثلاثة أيام حتى انفجروا وأروحوا وأروحت أجسادهم فخرج اليهم الناس فعجزوا عن دفنهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها . واختلفوا فى مبلغ عددهم ، فقال عطاء الخراسانى : كانوا ثلاثة آلاف ، وقال ابن عباس ووهب كانوا أربعة آلاف ، وقال مقاتل والكلبي ثمانية آلاف ، وقال أبو روق عشرة آلاف وقال أبو مالك ثلاثين ألفا ، وقال السدى بضعا وثلاثين ألفا وقال ابن جريج أربعين ألفا ، وقال عطاء بن أبى رباح سبعين ألفا . قال فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم ، فمرّ عليهم حزقيل النبى عليه الصلاة والسلام فوقف متفكرا متعجبا فأوحى الله تعالى اليه ياحزقيل تريد ان أريك كيف أحيي الموتى ؟ قال نعم يارب فأحياهم الله

جميعا . هذا قول السدى وجماعة من المفسرين ، وقال مقاتل والكلبى بل كانوا قوم حزقيل ، فلما أصابهم ذلك بكى حزقيل وقال يارب كنت فى قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيدا لاقوم لى ، فلو شئت أحييت هؤلاء فيعمرون بلادك ويعبدونك . قال الله تعالى او تحب ان أفعل ذلك ؟ قال نعم يارب . قال الله تعالى قد جعلت حياتهم اليك ، فقال لهم حزقيل احيوا باذن الله تعالى فعاشوا. وقال وهب أصابهم بلاء وشدة من الزمان فشكوا ماأصابهم وقالوا ياليتنا قد متنا واسترحنا مما نحن فيه فأوحى الله الى حزقيل إن قومك قد ضجوا من البلاء وزعموا أنهم ودّوا لوماتوا استراحوا ، وأى راحة لهم فى الموت أيظنون أنى لاأقدر أبعثهم بعد الموت فانطلق إلى جبانة كذا فان فيها أقواما ماتوا فأتاهم ، فأوحى الله تعالى اليه ياحزقيل قم فنادهم ، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرقت ومزقها الطير والسباع فنادى حزقيل أيتها العظام إن الله يأمرك أن تعودى وتكتسى اللحم فاكتست جميعا اللحم وبعد اللحم جلودا ودما وعصبا وعروقا فكانت أجسادا فنادى أيتها الأرواح إن الله تعالى يأمرك ان تعودى إلى أجسادك فقاموا جميعا وعليهم ثيابهم التى ماتوا فيها وكبروا تكبيرة واحدة .

وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لاإله إلا أنت فرجعوا الى قومهم وتناسوا بعد ماأحياهم الله وعاشوا دهرا يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لايلبسون ثوبا إلا عاد رميما مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتب الله لهم . قال ابن عباس فانه ليوجد فى ذلك السبط من اليهود تلك الريح ، قال قتادة مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم فى الجهاد فأماتهم الله عقوبة لهم ثم بعثهم لبقية آجالهم ليفوها ولو كانت آجال القوم قد جاءت مابعثوا بعد موتهم فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد وقال — وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم — .

باب فى قصة إلياس عليه السلام

قال الله تعالى — وإن الياس لمن المرسلين — الى آخر القصة قال ابن اسحق والعلماء من أصحاب الأخبار لما قبض الله تعالى حزقيل عليه السلام عظمت الأحداث فى بنى اسرائيل وظهر فيهم الفساد ونسوا عهد الله اليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عزوجل فبعث الله تعالى اليهم إلياس نبيا وهو إلياس بن يس بن فنحاص بن عيزار بن هرون بن عمران . وإنما كانت الأنبياء بعد موسى يبعثون اليهم بتجديد مانسوا وضيعوا من أحكام التوراة وبنو اسرائيل يومئذ متفرقون فى أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة ، وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها بوأها بنى اسرائيل وقسمها بينهم فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها هم سبط الياس فبعث الله تعالى اليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك يقال له لاجب قد ضل وأضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام وكان هو وقومه يعبدون صنما يقال له بعل وكان طوله عشرين ذراعا وكان له أربعة وجوه . وقال ابن اسحق : قد سمعت بعض اهل العلم يقولون ما كان البعل الا امرأة كانوا

يعبدونها من دون الله تعالى فذلك قوله تعالى ـ إذقال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ـ قال فجعل الياس يدعوهم الى الله تعالى ولا يطيعونه ولا يجيبونه الى ذلك الا ما كان من أمر لاجب الملك الذى كان ببعلبك فانه آمن به وصدقه وكان الياس يقوّم أمره ويسدده ويرشده وكان للاجب امرأة يقال لها أربيل وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم فى غزاة أوغيرها فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب وتجلس كما يجلس فى مجلس القضاء وتقضى بين الناس وكانت قتالة للأنبياء وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلص من بين يديها ثلثمائة نبى كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم وكانت فى نفسها غير محصنة ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها ، وهى مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بنى اسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة ، ويقال إنها ولدت سبعين ولدا . قال وكان للاجب هذا جار من بنى اسرائيل رجل صالح يقال له مزدكى . وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها وزينها ، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته ، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها حينا . وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكى وامرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة . وتحتال على غصبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها ويقولون ما أحرى ان تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر ، ويتعجبون من أمر الملك وامرأته كيف لم يغصباها فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكى فى أن تقتله وتأخذ جنينته ، والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد اليه سبيلا . ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد ، فلما طالت غيبته اغتنمت امرأته أربيل ان تتم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكى فى ان تقتله وتأخذ جنينته وهو غافل عما تريد به مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته فجمعت أربيل جمعا من الناس وأمرتهم ان يشهدوا على مزدكى بالزور انه يسب لاجب الملك فأجابوها الى ما سألتهم من الشهادة بالزور ، وكان حكمهم فى ذلك الزمان على من يسب الملك القتل إن قامت البينة فأحضرت مزدكى ، وقالت له بلغنا عنك انك شتمت الملك واغتبته فأنكر مزدكى ذلك فأقامت البينة فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس فأمرت بقتله . فقتل وأخذت جنينته غصبا فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح . فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت خيرا ولا وفقت ولا أرانا نفلح بعدها أبدا وإنا كنا عن جنينته لأغنياء وقد كنا نتنزه فيها وقد جاورنا وتحرم بنا منذ زمان طويل فأحسنا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فقبحت بنا الجوار وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكرك فى العواقب ، فقالت إنما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها أما كان يسع حلمك وعظيم خطرك العفو عن رجل واحد فتحفظين جواره فقالت قد كان ما كان فبعث الله تعالى الياس عليه السلام الى لاجب وقومه وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه حين قتلوه بين أظهرهم ظلما . وقد آلى على نفسه انهما إن لم يتوبا من صنعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكى وإلا يهلكهما يعنى لاجب وامرأته فى جوف الجنينة أشر ما يكون

يسفك دمهما ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما عن لحومهما ولا يمتنعان بها إلا قليلا . قال فجاء الياس وأخبر الملك بما أوحى الله اليه فى أمره وأمر امرأته والجنينة . فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه . ثم قال له يا إلياس والله ما أرى ماتدعونا اليه إلا باطلا والله ما أرى فلانا وفلانا وسمى ملوكا منهم عبدوا الأوثان إلا على مثل مانحن عليه يأكلون ويشربون ويتمتعون مملكين ماينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذى تزعم انه باطل شيء ومانرى لكم علينا من فضل . قال ثم هم بتعذيب الياس وقتله . قال فلما سمع الياس ذلك وأحس بالشر رفضه وخرج عنه فلحق بشواهق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بعل فارتقى إلياس الى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارا فيقال انه بقى فيه سبع سنين شريدا وحيدا فريدا خائفا يأوى الى الشعاب والكهوف ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم فى طلبه وقد وضعوا عليه العيون يتوقعون أخباره ويجتهدون فى أخذه والله تعالى يستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء ، فلما تم له سبع سنين أذن الله تعالى فى إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم فأمرض الله تعالى ابن الملك لاجب وكان أحب أولاده اليه وأعزهم عليه وأشبههم به فأدنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلا وكانوا قد فتنوا ببعل فعظموه حتى إنهم سموا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا له أربعمائة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أمناءه وجعل الشيطان يدخل فى جوف الصنم فيكلمهم بأنواع الكلام والاربعمائة يصغون بآذانهم إلى مايقول الشيطان ويوسوس لهم شريعة من الضلال فيكتبونها للناس ويعملون بها ويسمونهم الأنبياء فلما اشتد مرض ابن الملك طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل ويطلبوا منه لابنه الشفاء والعافية فدعوه له فلم يجبهم ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج فى جوفه ولا الكلام وهم مجتهدون فى التضرع اليه والمريض لا يزداد بذلك إلا ألما وجهدا . فلما طال عليهم ذلك قالوا للاجب أيها الملك إن فى ناحية الشام آلهة أخرى وهى فى العظم مثل الهك فابعث اليها الأنبياء يشفعون لك اليها فلعلها أن تشفع لك إلى بعل فانه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفى مرض ابنك . فقال لاجب لأى شيء غضب على وأنا أطيعه وأطلب رضاه ولم أسخطه ساعة قط ؟ قالوا من أجل انك تقتل الياس وفرطت فيه حتى نجا سالما وهو كافر بالهك يعبد غيره فذلك الذى أغضبه عليك قال لاجب وكيف لى أن أقتله فى يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابنى وليس لالياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد فلو عوفى ابنى تفرغت لطلبه ولم يكن لى هم ولا شغل غيره حتى آخذه وأقتله وأريح إلهى منه وأرضيه قال ثم إنه بعث الاربعمائة نبى ليشفعوا إلى الآلهة التى بالشام ويسألوها ان تشفع الى صنم الملك ليشفى ابنه فانطلقوا الى الأصنام وكلموها فمنع الله عز وجل الشيطان الولوج فى الأصنام ولم تكلمهم فرجعوا الى الملك وأخبروه بذلك فقال الملك وكيف لى أن أقتل الياس فى هذا اليوم . قال فخرج أربعمائة حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذى فيه الياس أوحى الله اليه ان يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم وقال له لاتخف فانى سأصرف عنك شرهم وألقى الرعب فى قلوبهم فنزل

الياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم فلما وقفوا . قال لهم : إن الله أرسلني اليكم وإلى من وراءكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوها صاحبكم ارجعوا اليه وقولوا إن الله تعالى يقول لك : ألست تعلم يالاجب انى أنا الله لا إله إلا أنا إله بنى اسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم فلا يحملنك جهلك وقلة عقلك على أن تشرك بى وتطلب الشفاء لابنك من غيرى ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا الاماشئت وإنى آليت باسمى لأغيظنك فى ابنك ولأميتنه من فوره هذا حتى تعلم أن أحدا لا يملك له شيئا دونى ، فلما قال لهم ذلك رجعوا وقد ملئوا منه رعبا فلما صاروا إلى الملك ووصلوا اليه قالوا له ماقال لهم الياس وأخبروه بأن الياس انحط عليهم من الجبل وهو رجل نحيف طويل وقد قشف وقحل وتمعط شعره ويبس جلده وعليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا ، فلما وقفنا صار معنا فقذف له فى قلوبنا الرعب والهيبة وتقطعت ألسنتنا ، ونحن فى هذا العدد الكثير وهو واحد فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه وملأ أعيننا منه حتى رجعنا اليك ، ثم إنهم قصوا عليه كلام الياس ، فقال لاجب لا أنتفع بالحياة مادام الياس حيا ماالذى منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتأتونى به وأنتم تعلمون أنه طلبتى وعدوى ؟ قالوا له قد أخبرناك بالذى منعنا عنه ، ومن كلامه والبطش به ، فقال لاجب إذا ما نطيق الياس إلا بالمكر والخديعة فقيض له خمسين رجلا من قومه من ذوى القوة والبأس وعهد اليهم عهده وأمرهم بالاحتيال عليه وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليطمئن اليهم ويغتر بهم ويمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه الياس عليه السلام ، ثم إنهم تفرقوا فيه وهم ينادون بأعلى أصواتهم ويقولون يانبى الله ابرز لنا وأشرف علينا بنفسك فانا قد آمنا بك وصدقناك وملكنا لاجب وكذلك جميع قومنا مقرون بذلك ويقرءون عليك السلام ، ويقولون قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ماقلت وآمنا بك وأجبناك إلى مادعوتنا اليه فهلم الينا فأنت نبينا ورسول ربنا فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا فاننا ننقاد الى ما أمرتنا وننتهى عما نهيتنا وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك وطاعتنا لك فتداركنا وارجع الينا وكل هذا كان مكرا منهم وخديعة ، فلما سمع الياس مقالتهم وقع فى قلبه إيمانهم وخاف الله وأشفق من سخطه ان هو لم يظهر لهم ولم يجبهم بعد الذى سمع منهم ، فلما صمم على البروز اليهم رجع إلى نفسه ، وقال لو أنى دعوت الله تعالى فسألته أن يعلمنى ما فى نفوسهم ويطلعنى على حقيقة أمرهم ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى وتوفيقا له فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فائذن لى فى البروز اليهم وان كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم جميعا فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فأحرقوا أجمعون قال وبلغ لاجب وقومه الخبر فلم يرتدع عن ضمير السوء واحتال ثانيا فى أمر الياس فقيض له فئة أخرى مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن فى الحيلة والرأى فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل وارتقوه متفرقين وجعلوا ينادون يانبى الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا أولئك فرقة نافقوا وخالفوا فصاروا اليك ليمكروا بك من غير رأينا ولو علمنا بهم لقتلناهم والآن قد كفاك الله

أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم. وانتقم لنا ولك منهم ، فلما سمع الياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم نارا فأحرقوا جميعا عن آخرهم كل ذلك وابن الملك فى البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه الياس لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابه ، فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا ازداد غيظا إلى عيظة وأراد أن يخرج فى طلب الياس بنفسه إلا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه فوجه نحو الياس الكاتب المؤمن الذى هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس اليه فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لايريد بالياس سوءا ولا مكروها وانما أظهر له ذلك لما اطلع عليه من إيمانه وكان الملك مع اطلاعه على ايمانه مغضيا عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأى والبصارة بالأمور ، فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه وعهد اليهم دون الكاتب أن يوثقوا الياس ويأتوه به ان أراد التخلف عنهم وان جاء معهم آنسا بالكاتب وواثقا بمكانته لم يوحشوه ولم يروعوه ثم إنه أظهر للكاتب الانابة فقال له انه قد آن لى أن اتوب وأتعظ فقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذى فيه ابنى وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس ولست آمن أن يدعو علىّ وعلى جميع قومى فنهلك بدعوته فكن رسولنا إليه وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا وانه لا يصلحنا فى توبتنا وماتريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون الياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى ربنا ، قال ثم إنه أمر قومه أن يعتزلوا الأصنام وقال له أخبر الياس بأنا قد خلعنا آلهتنا التى كنا نعبد وقد أهملنا أمرها حتى ينزل إلينا فيكون هو الذى يحرقها ويهلكها وكان ذلك كله مكرا من الملك . قال فانطلق الكاتب والفئة معه حتى علوا الجبل الذى فيه إلياس فناداه الكاتب فعرف الياس صوته فتاقت نفسه إليه وانس به وكان مشتاقا إلى لقائه فأوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام ان ابرز الى اخيك الصالح فالقه وجدد منه العهد فبرز اليه وصافحه وسلم عليه ، وقال له ما الخبر ؟ فقال له المؤمن انه قد بعثنى اليك هذا الجبار الطاغى وقومه وقص عليه ما قاله ، وقال له انى لخائف ان رجعت اليه ولست معى ان يقتلنى فأمرنى بما شئت ان أفعله وانتهى اليه إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته وان شئت جاهدته معك وان شئت ارسلتنى اليه بما تحب فأبلغه رسالتك وان شئت دعوت ربك يجعل لنا من امرنا فرجا ومخرجا فأوحى الله تعالى الى الياس ان كل ماجاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك وإن لاجب ان اخبرته رسله أنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك اليه فانه يتهمه ويعرف انه قد داهن فى امرك ولم يأمن ان يقتله فانطلق معه فان انطلاقك معه عذره وبراءته عند لاجب وانى سأشغله عنكما واضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ثم أميته على شر حال فاذا مات هو فارجع أنت ولا تقم عنده قال فانطلق الياس معهم حتى قدموا على لاجب فلما دخلوا عليه شدد الله على ابنه الوجع وأخذ الموت يكظمه فشغل الله بذلك لاجب وأصحابه عن الياس ورجع الياس سالما إلى مكانه ، فلما مات ابن

لاجب وفرغوا من أمره وقر جزعه انتبه لالياس وسأل عنه الـكاتب المؤمن الذى جاء به فقال له ليس لى به علم وذلك انه قد شغلنى عنهموت ابنك والجزع عليه ولم اكن احسبك الاقد استوثقت منه فأطرق عنه لاجب وتركه لما كان به من الحزن على ابنه ، فلما طال الأمر على الياس من المكث فى الجبل والمقام به واشتاق إلى العمران والناس فنزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى اسرائيل وهى أم يونس بن متى ذى النون فاستخفى عندها ستة أشهر ويونس ابنها يومئذ مولود رضيع وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها ، قال ثم ان الياس عليه السلام سئم ضيق البيوت بعدقعوده فى الجبال ودوحها فأحب اللحوق بالجبال فعاد إلى مكانه فى الجبال ، فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ، ثم لم يلبث الا قليلا حتى مات إبنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها به فخرجت فى طلب الياس فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته فسلمت عليه وقالت له إنى فجعت بعدك بموت ابنى وعظمت به مصيبتى واشتد لفقده بلائى وليس لى ولد غيره فارحمنى وادع ربك تعالى أن يحيى لى ابنى ويجبر مصيبتى فانى قد تركته مسجى لم أدفنه وقد أخفيت مكانه ، فقال لها الياس عليه السلام : ليس هذا مما أمرت به ، وانما أنا عبد مأمور أعمل بما أمرنى ربى به ولم يأمرنى بهذا فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب الياس عليها ، فقال لها ومتى مات ابنك ؟ فقالت منذ سبعة أيام فانطلق الياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها فوجد ابنها يونس ميتا منذ أربعة عشر يوما فتوضأ الياس وصلى ودعا فأحيا الله يونس بن متى ، فلما عاش وجلس وثب الياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه . قال : فلما طال عصيان قومه ضاق الياس بذلك ذرعا وأجهده البلاء ، فأوحى الله اليه بعد سبع سنين وهو خائف مذعور مجهود ياالياس ماهذا الحزن والجزع الذى أنت فيه ألست أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فاسألنى أعطك فانى ذوالرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال الياس عليه السلام : تميتنى وتلحقنى بآبائى فانى قد مللت بنى اسرائيل وملونى وأبغضتهم فيك وأبغضونى ، فأوحى الله اليه يا الياس ماهذا اليوم الذى أعرى منك الأرض وأهلها ، وانما قوامها وصلاحها بك وأشباهك ، ولكن سلنى أعطك . قال الياس : فان لم تمتنى يا إلهى فأعطنى ثأرى من بنى اسرائيل فأوحى الله تعالى اليه فأى شىء تريد أن أعطيك يا الياس . قال تمكننى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشىء عليهم سحابة إلا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة الا بشفاعتى فانهم لايذلهم الاذلك قال الله تعالى - يا الياس أنا أرحم بعبادى من ذلك وان كانوا ظالمين . قال فست سنين . قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا ظالمين . قال فخمس سنين ، قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا ظالمين . قال فأربع سنين . قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا ظالمين . ولكننى أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك . قال الياس فبأى شىء أعيش . قال أسخر لك جيشا من الطير تنقل اليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التى لم تقحط

قال الياس : قد رضيت فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت المواشى والدواب والهوام والشجر، وجهد الناس جهدا شديدا والياس على حاله مختف من قومه بموضع ينساق له فيه الرزق ويأتيه حيثما كان وقد عرفه بذلك قومه ، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز فى بيت قالوا لقد دخل الياس هذا المكان فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شرا . قال ابن عباس : أصاب بنى اسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات فمر الياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام فقالت نعم شىء من دقيق وزيت قليل فجاءته بشىء من الدقيق والزيت فدعا فيهما بالبركة ومسهما فبارك الله فى ذلك حتى ملأت جرابها دقيقا وملأت خوابيها زيتا فلما رأى بنو اسرائيل ذلك عندها قالوا لها من أين لك هذا ؟ قالت مر بى رجل من حاله كذا وكذا ووصفته بصفته فعرفوه وقالوا لها ذلك الياس ثم انهم طلبوه فوجدوه فهرب منهم الى الجبال والله أعلم .

قصة اليسع عليه السلام

ثم ان الياس أتى إلى بيت امرأة من بنى اسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن أخطوب وكان به ضر فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفى من الضر الذى كان به واتبع اليسع الياس وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حيثما ذهب ، وكان الياس قد أسن وكبر ، وكان اليسع غلاما شابا ، ثم ان الله تعالى أوحى إلى الياس عليه السلام انك قد أهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعصونى سوى بنى اسرائيل من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات بحبس المطر عن بنى اسرائيل فيزعمون والله أعلم أن الياس قال يارب دعنى أكون الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك ، فقيل له نعم فجاء الياس الى بنى اسرائيل ، وقال لهم ويلكم انكم قد هلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم وانكم على باطل وغرور فان كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التى تدعونها من دون الله لن تغنى عنكم شيئا فاخرجوا بأصنامكم هذه فان استجابت لكم فذلك كما تقولون وان هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل وغرور فنزعتم عنها ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا أنصفت فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ، فقالوا يا الياس إنا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا الله الياس ومعه اليسع عليهما السلام بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون اليها فأقبلت نحوهم وطبقت عليهم الأفق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثتهم وأحيت بلادهم . قال فشكوا الى الياس هدم الجدران وعدم البذر ، وقالوا ليست لنا حبوب فأوحى الله تعالى اليه أن يأمرهم بأن يبذروا الملح فى الأرض ففعلوا فأنبت الله لهم منه الحمص وأمرهم أن يبذروا الرمل فأنبت الله لهم منه الدخن ، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه ، فلما رأى الياس ذلك

دعا ربه أن يريحه منهم ، فقيل له انتظر يوم كذا وكذا فاخرج الى موضع كذا وكذا فاذا جاءك شيء فاركبه ولا تهبه فخرج الياس ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كانا بالموضع الذى أمر بالخروج اليه أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه فوثب عليه الياس فانطلق به الفرس فناداه اليسع يا الياس ما تأمرونى به فقذف اليه كساءه من الجو الأعلى ، فكان ذلك علامة على استخلافه اياه على بنى اسرائيل وذهب الياس فكان ذلك آخر العهد به ورفع الله الياس بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والشرب وكساء الريش وكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا وسلط الله تعالى على لاجب الملك وامرأته وقومه عدوا لهم فقصدهم من حيث لا يشعرون به حتى رهقهم فقتل لاجب الملك وامرأته فى بستان مزدكى فلم تزل جيفتاهما ملقاتين فى تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ونبأ الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام ، وبعثه نبيا ورسولا الى بنى اسرائيل ، وأوحى الله تعالى اليه وأيده بمثل ما أيد به عبده الياس فآمنت به بنو اسرائيل وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره وحكم الله تعالى فيهم قائم الى أن فارقهم اليسع .

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن محمد الحافظ عن عبد العزيز بن أبى دواد ، قال : ان الخضر والياس عليهما السلام يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويوافيان الموسم فى كل عام .

وأخبرنى ابن فتحويه عن رجل من أهل عسقلان أنه كان يمشى بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلا ، فقال ياعبد الله من أنت ، فقال أنا الياس : قال فوقعت على رعدة شديدة فقلت له : ادع الله أن يرفع عنى ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك . قال فدعا لى بثمان دعوات وهن يابر يارحيم ياحنان يامنان ياحى ياقيوم ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما ، وقيل هما باهيا شراهيا فرفع الله عنى ما كنت أجد ووضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين يدى ، فقلت له أيوحى إليك اليوم ، فقال منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فانه لا يوحى إلىّ . قال فقلت له فكم من الأنبياء اليوم أحياء . قال أربعة اثنان فى الأرض واثنان فى السماء ، أما اللذان فى السماء فعيسى وإدريس عليهما السلام ، وأما اللذان فى الأرض فالياس والخضر عليهما السلام ، قلت كم الأبدال . قال ستون رجلا خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطىء الفرات ورجلان بالصيصة ورجل بعسقلان وسبعة فى سائر البلدان كلما أذهب الله واحدا منهم جاء بآخر مكانه وبهم يدفع الله عن الناس البلاء وبهم يمطرون قلت فالخضر أين يكون ؟ قال فى جزائر البحر فقلت : هل تلقاه قال نعم قلت أين قال بالموسم قلت فما يكون حديثكما . قال يأخذ من شعرى . وآخذ من شعره . قال وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال قلت فما تقول فى مروان بن الحكم . قال رجل جبار عات على الله تعالى والقاتل والمقتول والشاهد فى النار قلت فانى قد شهدت ولم أطعن برمح ولا رميت بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبدا قال أحسنت فهكذا فكن . قال فبينما أنا وإياه قاعدان اذ وضع

بين يديه رغيفان أشد بياضا من الثلج فأكلت أنا وهو رغيفا وبعض الآخر ، ثم رفعت رأسى وقد رفع باقى الرغيف الآخر فما رأيت أحـدا وضعه ولا رأيت أحدا رفعه . قال وله ناقة ترعى فى وادى الأردن فرفع رأسه إليها فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها فقلت له إنى أريد أن أصحبك قال انك لاتقدر على صحبتى قال فقلت له انى خلو لازوجة لى ولا عيال . قال تزوج وإياك والنساء الأربع الناشزة والمختلعة والملاعنة والبرزة وتزوج ما بدالك من النساء قال فقلت انى أحب أن ألقاك قال فاذا رأيتنى فقد لقيتنى انى أعتـكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان ، ثم حالت بينى وبينه شجرة فوالله ما أدرى كيف ذهب وهذا آخر القصة .

مجلس فى قصة ذى الـكفل عليه السلام

قال الله تعالى ـ واسمعيل وادريس وذا الـكفل كل من الصابرين ـ قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس ، ثم قال من يتـكفل لى بثلاث استخلفته يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام اليه رجل شاب تزدريه العيون فقال : أنا، فرده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الثانى فسكت الناس فقام ذلك الرجل وقال : أنا أعمل ذلك فاستخلفه . قال فلما رأى ابليس ذلك جعل يقول للشياطين عليـكم بفلان فأعياهم ، فقال دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ كبير فقـير حين أخـذ مضجعه للقائلة وكان لاينام بالليـل والنهار إلا تلك النومة فدق ابليس الباب فقال : من هذا ؟ فقال شيخ كبير مظلوم ففتح الباب فجعل يقص عليه القصة ويقول : ان بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى حضر وقت الرواح وذهبت القائلة ، فقال له اذا رحت فانى آخذ لك بحقك فانطلق وراح الى مجلسه، فلما جلس جعل ينظر ليرى الشيخ فلم يره وقام يتتبعه فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال : من هذا ؟ فقال أنا الشيخ المظلوم ففتح له ، وقال ألم أقل لك اذا قعدت فأتنى ، فقـال إنهم أخبث قوم اذا عرفوا أنك قاعـد يقولون نحن نعطيـك حقك واذا قمت جحدونى . قال فانطلق فاذا رحت فأتنى وفاتته القائلة فراح وأقبل وجعل ينظره فلا يراه فشق عليه النعاس ، فقال لبعض أهله لاتدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أقوم فانه قد شق على عدم النوم ، فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له أحد فلما أعياه نظر فاذا كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت واذا به يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل ، وقال يافلان ألم آمرك أن لاتأذن لأحد على ، فقال أما من قبلى فما أتى فانظر من قبل من أتى فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا الشيخ معه فى البيت ، فقال له أتنام والخصوم ببابك فعرفه ، فقال له يا عدو الله ما ألجأك

الى هـذه الفعال ، فقال له إنك أعييتنى فى كل شىء أردت بك ففعلت معـك ما ترى لأغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الـكفل لأنه تـكفل بأمر فوفى به .

أخبرنا ابن فنجويه : قال حدثنا عمر بن المفضل عن أبى هاشم . أخبرنا ابن الفضل قال : أخبرنا الأعمش عن عبد الله بن عبيد الله الدارى عن سعيد عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين لم أحدث به سمعته منه أكثر من سبع مرات يقول « كان فى بنى اسرائيل رجـل يقـال له ذو الـكفل لا ينزع عن ذنب عمله فاتبـع امرأة فأعطاها ستين دينـارا على أن تعطيه نفسها فلما قعـد منها مقعد الرجـل من المرأة ارتعـدت وبكت ، فقال لهـا ما يبكيك ؟ فقالت من هـذا الفعل فانى ما فعلته قط ، فقال لهـا أكرهتك قالت لا ولـكن حملتنى عليه الحاجة ، فقال لهـا اذهبى فهى لك » ، ثم إنه قال والله لا أعصى الله بعدها قط أبدا فمـات من ليلته ، فقيل مات ذو الـكفل فوجـدوا على باب داره مكتوبا : ان الله تعالى قد غفر لذى الـكفل ، وقال أبو موسى الأشعرى : ان ذا الـكفل لم يكن نبيا ، وإنمـا كان عبدا صالحا تـكفل بعمل رجـل صالح وكان يصلى لله تعالى فى كل يوم مائة صلاة فأحسن الله عليه الثناء ، وقيل هو الياس ، وقيل هو زكريا والله أعلم بالصواب .

مجلس فى قصة عيلى وشمويل وهو اسمعيل بالعبرانية وقصة التابوت

وخبر طالوت وجالوت ، وهذه قصة كبيرة تشتمل على أبواب كثيرة

قال الله تعالى ـ ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل ـ الآية .

[فصل فى سياق الآية ومقدمة القصة] قال وهب بن منبه لمـا نبأ الله تعالى اليسع بعد الياس عليهما السلام واستخلفه على بنى اسرائيل وكان فيهم ماشاء الله أن يكون ، ثم قبضه الله تعالى اليه وخلف فيهم الخلوف عظمت فيهم الخطايا وكان عندهم التابوت يتوارثونه كابرا عن كابر فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون وكانوا لا يلقاهم عدو فيقدموا التابوت ويزحفون به معهم إلا هزم الله تعالى ذلك العدو وكان الله تعالى قد بارك لهم فى أرزاقهم فـكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب على صخرة ، ثم يبذر فيـه الحب فيخرج الله له ما يأكل منـه هو وعياله ويكون لأحـدهم الزيتونة فيعصر منها ما يأكل هو وعياله سنة ، فلما كثرت أحداثهم وعظمت ذنوبهم وتركوا ماعهـد الله اليهم سلط الله عليهم العمالقة وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر ما بين مصر وفلسطين وكان جالوت الملك فيهم فظهروا على بنى اسرائيل وغلبوهم على كثير من أراضيهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية وأخـذوا توراتهم وبقوا على اضطراب من أمرهم واختـلاف من حالهم يتمادون

أحيانا فى غيهم وضلالتهم فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم ليرجعوا الى التوبة أحيانا ويكفيهم الله شرّ من بغى عليهم حتى بعث الله فيهم طالوت ملكا وردّ عليهم توراتهم فانتظم أمرهم واستوثق ملكهم وكان مدة ما بين وفاة يوشع بن نون التى آل أمر بنى اسرائيل فى بعضها الى السآمة منهم ، وفى بعضها الى غيرهم ممن يقهرهم ويتملك عليهم إلى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوّة اليهم بشمويل النبي عليه السلام أربعمائة سنة وستين سنة وكان آخر من ملكهم فى هذه المدة رجل يقال له إيلاف وكان يدبر أمرهم فى ملكه شيخ كبير يقال له عيلى الكاهن كان حبرهم وصاحب قربانهم وكانوا ينتهون الى رأيه ، فلما مضى من وقت قيامه بأمرهم مدة بعث الله شمويل نبيا .

القول فى بدء أمر شمويل وصفة نبوته صلى الله على نبينا وعليه وسلم

قال وهب بن منبة : كان لأبى شمويل امرأتان إحداها عجوز عاقر لم تلد له ولدا وهى أم شمويل ، والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد . قال وكان لبنى اسرائيل عيد من أعيادهم أقاموا فيه شرائطه وقرّبوا القرابين فحضر أبو شمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلما قرّبوا قربانهم أخذ كل واحد منهم نصيبا وكان لأم الأولاد عشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت أم الأولاد للعجوز الحمد لله الذى كثرنى بولدى وقللك فوجمت العجوز وجوما شديدا ، فلما كان عند السحر عمدت الى متعبدها فقالت : اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتى واستطالتها على بنعمك التى أنعمتها عليها وأنت ابتدأتها بالنعمة والاحسان فارحم ضعفى وارزقنى ولدا تقيا رضيا واجعله لك ذخرا فى مسجد من مساجدك يعبدك ولا يكفرك ويطيعك ولايجحدك ، فاذا رحمت ضعفى ومسكنتى وأجبت دعوتى فاجعل لى علامة أعرف بها قبول دعائى ، فلما أصبحت حاضت وكانت قبل ذلك قد يئست من الحيض فجعله الله علامة لما سألته فألم بها زوجها فحملت وكتمت أمرها ولقى بنو اسرائيل فى ذلك الوقت من عدوّهم بلاء وشدّة ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيا يشير عليهم ويجاهدون عدوّهم معه وكان سبط النبوّة قد هلك ولم يبق منه إلا تلك المرأة الحبلى ، فلما علموا بحملها تعجبوا من أمرها ، وقالوا ماحملك هذا إلا نبى لأن اليائسات لايحملن إلا بالأنبياء كسارة امرأة ابراهيم عليه السلام حملت باسحق وإيشاع امرأة زكريا حملت بيحيى عليه السلام فأخذوها وحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى اسرائيل فى ولدها فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولدا ذكرا فولدت غلاما وسمته شمويل تقول سمع الله دعائى ، فلما شب الغلام أسلمته ليتعلم التوراة فكفله عيلى وتبناه ، فلما بلغ الغلام الوقت الذى يبعثه الله فيه نبيا أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم الى جانب الشيخ عيلى الكاهن وكان لا يأمن عليه أحدا فدعاه جبريل بلحن الشيخ ياشمويل فقام الغلام فزعا مرعوبا الى الشيخ ، وقال يا أبتاه أدعوتنى فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام ، فقال يابنى

ارجع فنم فرجع الغلام فنام ، ثم دعاه جبريل ثانيا فانتبه الغلام ، وقال ادعوتنى يا أبتاه ، فقال الشيخ ماشأنك . قال أما دعوتنى ؟ قال لا ، فقال شمويل فانى سمعت صوتا فى البيت وليس فيه غيرنا ، فقال الشيخ ارجع فتوضأ وصل فانك ان دعيت باسمك فأجب وقل لبيك أنا طوعك فأمرنى بما شئت أفعل ما تأمرنى به ففعل ذلك الغلام فنودى ثالثة ، فقال لبيك أناطوعك فأمرنى بأمرك أفعل ماتأمرنى به فظهر له جبريل عليه السلام ، فقال له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله سبحانه عزوجل قد بعثك فيهم نبيا وإن الله قد ذرأك يوم ذرأك للنبوة ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذى تاهت علىها ضرتها فيه فلا أحد اليوم أشد منها عضدا ولاملاذا فانطلق الى عيلى فقل له انك كنت خليفة الله على عباده ودينه فقمت زمانا بأمره حاكما بكتابه محافظا على حدوده، فلما امتدت مدتك ودق عظمك وذهبت قوتك وفنى عمرك وقرب أجلك وصرت أفقر مايكون الى الله تعالى ولم تزل فقيرا اليه عطلت الحدود وجرت بين الخصوم وعملت بالرشا والمصانعات وأضعفت حكم الحق حتى عز الباطل وأهله وذل الحق وحزبه وظهر المنكر وخفى المعروف وفشا الكذب وقل الصدق وما كان الله عاهدك على هذا ولاعليه استخلفك فبئسما ختمت به عملك — والله لايحب الخائنين — بلغه هذه الرسالة وقم بعده بالخلافة ، فلما بلغه شمويل هذه الرسالة فزع وجزع . وكان السبب فيما عاتب الله عبده عيلى ووبخه عليه أنه كان له ابنان شابان فأحدثا شيئا فى القربان لم يكن فيه ، وذلك أنه كان منسواط القربان الذى كانوا يسوطونه به كلابين فما أخرجا كان للكاهن الذى كان يسوطه فجعل ابناه كلاليب فأوحى الله الى شمويل : أن انطلق الى عيلى فقل له منعك حب الولد أن تزجر ابنيك أن يحدثا فى قربانى وأن يعصيانى فلأنزعن الكهانة منك ومن ولديك ولأهلكنك وإياهما ، فأخبر شمويل عيلى ففزع فزعا شديدا وسار اليهم عدوهم ومن حولهم فأمر عيلى ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معها التابوت ، فلما تأهبوا للقتال جعل عيلى يتوقع ماذا صنع القوم فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه فأخبره بأن الناس قد انهزموا وأن ابنيك قد قتلا ؟ قال فما فعل بالتابوت . قال ذهب به العدو . قال فشهق ووقع على قفاه من كرسيه فمات ، فلما بلغ ملكهم إيلاف الخبر أن التابوب قد سلب وأن عيلى قد مات فمات كمدا ، فلما مات الأمير والوزير وأخذ التابوت مرج أمر بنى اسرائيل واختل واجترأ عليهم عدوهم ، فقالوا لشمويل — ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله — وذلك بعد ما دبر شمويل امرهم عشر سنين ، فلما نالهم الذل والهوان والقتل والسبى من عدوهم بشؤم معصيتهم سألوا نبيهم شمويل أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه فى سبيل الله وانما كان قوام أمر بنى اسرإئيل بالاجتماع على الملك وإطاعة الملك للأنبياء ، وكان الملك هو الذى يسير بالجيوش ويقاتل العدو ، وكان النبى منهم هو الذى يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من عند الله تعالى .

قال وهب بن مبه : بعث الله شمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة فى أحسن حال ، ثم كان من أمر

جالوت والعمالقة ما كان فسألوا شمويل عليه السلام أن يبعث لهم ملكا فذلك قوله تعالى ـ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ـ يعنى شمويل ، وهو بالعبرانية اسماعيل بن بالى بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا بن عزريا . وقال مجاهد : هو شمويل بن هلفاقا ولم ينسبه أكثر من ذلك . وقال مقاتل : هو من نسل هرون عليه السلام . فقال لهم نبيهم ـ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ـ فأجابوا بما قص الله فى كتابه ـ قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا ـ الآية ، فلما أخذ شمويل عليهم الميثاق على الطاعة والجماعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا .

ذكر قصة الملك طالوت وإتيان التابوت وحرب جالوت وما يتعلق به

قال الله تعالى ـ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ـ الآية . قال المفسرون : إن شمويل لما قالوا له ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس . وقيل له إن صاحبكم الذى يكون ملكا طوله طول هذه العصا ، وانظر الى القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى اسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم ، ثم انهم قاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا امثالها وكان طالوت بطولها ، واسمه بالسريانية ساول ، وبالعبرانية شاول بن قيس بن أفيل بن صارو بن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام وكان رجلا دباغا يعمل الأدم .

قال وهب بن منبه : كان يدبغ الجلود ، وعكرمة والسدى يقولان كان سقاء يستقى على حمار له من النيل فضل حماره فخرج فى طلبه . قال وهب بن منبه : بل ضاعت حمر لأبى طالوت فأرسله وغلاما له يطلبانها فمرا ببيت شمويل عليه السلام . فقال الغلام لطالوت : لو دخلنا على هذا النبي فسألناه فى أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير . فقال له نعم فدخلا عليه ، فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمر إذ نش الدهن فى القرن ، فقام شمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله ، فقال له شمويل : قرب رأسك الى فدهنه بدهن القدس ، ثم انه قال له : أنت ملك بنى اسرائيل وقد أمرنى ربى أن أملكك عليهم . فقال طالوت أنا فقال نعم . قال أو ما علمت أن سبطى أدنى أسباط بنى اسرائيل قال بلى . قال أو ما علمت أن بيتى أدنى بيت فى بنى اسرائيل قال بلى : قال فبأى آية قال بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك الحمر فكان كذلك ، ثم ان شمويل قال لبنى اسرائيل : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قال مجاهد : أميرا على الجيش ـ فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ـ وانما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى اسرائيل سبطان : سبط نبوة ، وسبط مملكة وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنهم موسى وهرون . وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط المملكة وانما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنبا عظيما

كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا فغضب الله عليهم ونزع النبوة والملك منهم . فلما قال لهم - إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا - أنكروا ذلك لأنه كان من ذلك السبط فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ومع ذلك انه فقير لم يؤت سعة من المال . فقال لهم شمويل - إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم - بالحرب - والجسم - يعني بالطول فى قومه والقوة وانما سمى طالوت لطوله . ولذلك كان يفوق الناس برأسه ومنكبيه . وقال ابن كيسان بالجمال : وكان طالوت أجمل رجل فى بنى اسرائيل وأعلمهم - والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم - قالوا فما آية ذلك - قال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت - الآية .

قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار : إن الله تعالى أهبط تابوتا على آدم عليه السلام من الجنة حين أهبط الى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده وفيه بيوت بعدد الرسل منهم ، وآخر البيوت بيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء واذا هو قائم يصلى وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه : هذا أول من يتبعه من أمته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعن يساره الفاروق ، وعلى جبهته مكتوب قرن من حديد لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ومن ورائه ذو النورين آخذ بحجزته مكتوب على جبهته : بارّ من البررة ، ومن بين يديه على بن أبى طالب كرم الله وجهه شاهر سيفه على عاتقه ، ومكتوب على جبهته : هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله وحوله عمومته والخلفاء والنقباء والكبكبة الخضراء أنصار الله وأنصار رسوله ، نور حوافر دوابهم يوم القيامة مثل نور الشمس فى دار الدنيا وكان التابوت نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين وكان من عود الشمشاذ الذى يتخذ منه الأمشاط مموه بالذهب ، وكان عند آدم عليه السلام الى أن مات ثم عند شيث الى أن مات ثم توارثه أولاد آدم الى أن بلغ الى ابراهيم عليه السلام ، فلما مات كان عند اسماعيل لأنه أكبر ولده فلما مات اسماعيل كان عند ولده قيذار فنازعه فيه ولد اسحق وقالوا له إن النبوة صرفت عنكم وليس لكم الا هذا النور الواحد يعنى نور محمد ﷺ فأعطنا التابوت فكان يمتنع عليهم ويقول انه وصية أبى ولا أعطيه لأحد من العالمين ، قال فذهب ذات يوم ليفتح ذلك التابوت فعسر عليه فتحه فناداه مناد من السماء مهلا يا قيذار فليس لك الى فتح هذا التابوت سبيل انه وصية نبى ولا يفتحه إلا نبى فادفعه الى ابن عمك يعقوب اسرائيل الله ، فحمل قيذار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان وكان بها يعقوب عليه السلام . قال فلما اقترب قيذار صر التابوت صرة سمعها يعقوب عليه السلام . فقال لبنيه أقسم بالله لقد جاءكم قيذار بالتابوت فقوموا نحوه ، فقام يعقوب وأولاده جميعا فلما نظر يعقوب الى قيذار سعى اليه باكيا وقال يا قيذار مالى أرى لونك متغيرا وقوتك ضعيفة أ أرهقك عدوّ أم أتيت بمعصية بعد أبيك اسماعيل ؟ قال ما أرهقنى عدو ولا أتيت بمعصية ولكن أثقل ظهرى نور محمد ﷺ فلذلك تغير لونى وضعف ركنى . قال يعقوب أفى بنات اسحق ؟ قال لا ولكن فى

العربية الجرهمية وهى العامرية ، فقال يعقوب بخ بخ شرفا لمحمد ﷺ لم يكن الله ليخرجه الا فى العربيات الطاهرات ياقيذار وأنا مبشرك ببشارة . قال وماهى ؟ قال علم أن العامرية قد ولدت لك البارحة غلاما . قال قيذار وما أعلمك يا ابن عمى وأنت بأرض الشام وهى بأرض الحرم : قال يعقوب قد علمت ذلك لأنى رأيت أبواب السماء قد فتحت ورأيت نورا كالقمر المدور بين السماء والأرض ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة فعلمت أن ذلك من أجل محمد ﷺ ، ثم ان قيذار دفع التابوت الى ابن عمه يعقوب ورجع الى أهله فوجدها قد ولدت غلاما فسماه حملا وفيه نور محمد ﷺ ، قالوا وكان التابوت فى بنى اسرائيل الى أن وصل الى موسى وكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه وكان عنده الى أن مات ، ثم تداولته أنبياء بنى إسرائيل الى وقت شمويل عليه السلام فوصل الى شمويل وقد تكامل أمر التابوت بما فيه وكان فيه مماذكر الله فى كتابه ـ فيه سكينة من ربكم ـ .

واختلفوا فى السكينة ماهى فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : السكينة ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجهها كوجه الإنسان ، وقال مجاهد لها رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وجناحان . وقال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه عن بعض علماء بنى اسرائيل فى السكينة رأس هرة كانت اذا صرخت فى التابوت صرخة أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح .

وروى السدى عن أبى مالك عن ابن عباس قال : هى طست من ذهب الجنة يغسل فيه قلوب الأنبياء .

وروى بكار بن عبد الرحمن عن وهب بن منبه : هى روح من الله تكلمهم اذا اختلفوا فى شىء فتخبرهم ببيان مايريدون . وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون .

قال المفسرون : فيه عصا موسى ورضاض الألواح وذلك أن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فرفع بعضها وجمع مابقى فجعله فى التابوت وكان فيه أيضا لوحان من التوراة وقفيز من المن الذى كان ينزل على بنى اسرائيل ونعلا موسى وعمامة هرون وعصاه ، قالوا وكان التابوت عند بنى اسرائيل اذا اختلفوا فى شىء تكلم وحكم بينهم ، واذا حضروا القتال أقاموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم ، فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوهم إياه وذلك فى أيام عيلى الكاهن الذى ربى شمويل وقد مضت القصة فيه وكان جالوت يوم سبى قومه التابوت صغيرا ، فلما ذهب التابوت اختل أمر بنى اسرائيل الى أن بعث الله طالوت ملكا فسألوه الآية على ملكه ، فقال لهم شمويل إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .

وكانت قصة ذلك التابوت : أن القوم الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أردن وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم ، فأصبحوا من الغد واذا الصنم تحته فأخذوه وجعلوه فوقه وسمروا قدمى الصنم على التابوت . فأصبحوا من الغد وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وأصبح ملقى تحت التابوت . فأصبحت الأصنام كلها منكسة فأخرجوه من بيت الأصنام

ووضعوه فى ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع فى أعناقهم حتى هلك أكثرهم ، فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بنى اسرائيل لا يقوم له شىء فأخرجوه من مدينتكم قال فأخرجوا إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك القرية فأرا يبيت الرجل صحيحا فيقرضه الفأر فيصبح ميتا وقد أكلت ما فى جوفه ، فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه فى مجرى لهم ، فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فأخرجوه ووضعوه فى بيت فمكث فيهم عشر سنين وسبعة أشهر لا يدنو أحد منه الا احترق وأصابهم فى المدينة الآفات والعاهات وفى مواشيهم الموت وفى نسائهم الطاعون ، فتحيروا وكانت عندهم امرأة من نساء بنى اسرائيل من أولاد الأنبياء فقالت إنكم لا تزالون ترون ماتكرهون مادام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم ، فأتوا بعجلة باشارة تلك المرأة فحملوا عليها التابوت ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسرقونهما فلم يمر التابوت بأرض الا كانت مقدسة فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبنى اسرائيل فكسر برثنهما وقطع حبالهما ووضع التابوت فيها ورجع الثوران إلى أرضهما ، فلم تدر بنو اسرائيل الا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى واجتمعوا على طالوت فذلك قوله تعالى — تحمله الملائكة — أى تسوقه الملائكة .

وقال ابن عباس : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون اليه حتى وضعته فى دار طالوت ، فأقروا بملكه قال الله تعالى — ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين — قال ابن عباس : ان التابوت وعصا موسى فى بحيرة طبرية وانهما يخرجان قبل القيامة والله أعلم .

باب فى قصة شمويل حين أوحى الله اليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت مع بنى اسرائيل وصفة نهر الابتلاء

قال الله تعالى — فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر — الآية ، قال فلما أوحى لله إلى شمويل عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت القدس بالجنود لم يتخلف نه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو ضرير لضره او معذور لعذره ، وذلك أنهم لما رأوا تابوت قالوا قد أتانا التابوت وهو نصر لاشك فيه ، فسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت لاحاجة لى ا أرى لايخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه ن ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها ولا يتبعنى الا الشاب النشط الفارغ ، فاجتمع ثمانون نا على شرطه فخرج بهم وكان فى حر شديد فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم ، وقالوا ان المياه تحملنا فادع الله تعالى أن يجرى لنا نهرا ، فقال لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام — ان الله ليكم بنهر — مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم بكم وهو نهر بين الأردن وبين فلسطين عذبه

يقال له أدمى ، — فمن شرب منه فليس منى — أى من أهل دينى وطاعتى — ومن لم يطعمه — لم يشربه — فانه منى — ثم استثنى فقال — الا من اغترف غرفة بيده — وهو ملء الكف ومن فتح الغين أراد المرة الواحدة فشربوا منه الا قليلا منهم ،

قال السدى : كانوا أربعة آلاف وقال غيره كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح يدل عليه حديث البراء بن عازب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاوز معه الا مؤمن » قال وكانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فمن اغترف غرفه بيده كما أمر الله تعالى قوى قلبه وصح ورجع ايمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه ، وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شاطىء النهر وجبنوا عن لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح ، فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه قالوا يعنى الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى — لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده — وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت وقال الذين يظنون أى يعلمون ويوقنون أنهم ملاقو الله وهم القليل الذين ثبتوا مع طالوت — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله — الآية ومروا قاصدين الجهاد ،

باب فى ذكر أمر داود عليه السلام وخبر جالوت وصفة قتله

قال الله تعالى — ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا — إلى قوله تعالى — وقتل داود جالوت — قال المفسرون والمخبرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود ومعه ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وأحقرهم فأتى ذات يوم أباه فقال ياأبتاه ماقذفت بمقلاعى هذه شيئا الا أصبته وصرعته فقال أبشر يابنى فان الله قد جعل رزقك فى قذافتك يعنى فى مقلاعك ثم أتاه يوما آخر فقال : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا رابضا فركبته وقبضت بأذنيه فلم يهجنى فقبضت على فكيه ، ففطرتهما برأسه وعنقه إلى لبته بيدى من غير سكين ولا ضرب بحديد وتراه هناك مقتولا فقال له أبوه : أبشر يا بنى فان هذا خير أعطاكه الله ، ثم أتاه يوما آخر وقال يا أبتاه : إنى لأمشى بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معى ، قال أبشر يابنى فان هذا خير أعطاكه الله وسيكون لك شأن عظيم . قال فلما وصلت غزاة بنى اسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت أرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز إلى أوأبرز إلى من يقاتلنى ، فان قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى فى عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته مملكتى فهاب الناس قتال جالوت فلم يجبه أحد ، فسأل طالوت نبيهم شمويل عليه السلام فدعا الله تعالى فى ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وشبه تنور من حديد وقيل له إن الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه فيغلى الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل

يكون على رأسه كهيئة الاكليل ويدخل فى هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت أشداء بنى اسرائيل وأقوياءهم فجربهم فلم يوافقه منهم أحد ، فأوحى الله إلى شمويل عليه السلام إن فى ولد ايشا من يقتل جالوت وإنى أريد أن أجعله خليفة فى الأرض من بعدك أعلمه فصل الخطاب وهو راعى الغنم فقل لإيشا يعرض عليك بنيه واحدا واحدا واحدا ، فدعا ايشا وقال له : اعرض على بنيك فأخرج له اثنى عشر ولدا أمثال السوارى وفيهم رجل بارع فجعل يعرضهم على القرن والتنور فلا يرى شيئا ويقول لذلك الجسم ارجع فيردده على التنور ، فأوحى الله تعالى اليه إنا لا نأخذ الرجال على صورهم ولكنا نأخذهم على صلاح هممهم وقلوبهم فقال لا يشا : هل بقى لك ولد غيرهم ؟ قال لا ، قال شمويل : رب قد زعم أنه ليس له ولد غيرهم فقال كذب ، فقال شمويل يا إيشا إن ربى كذبك قال صدق الله يا نبى الله إن لى ابنا صغيرا يقال له داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته وخلفته فى الغنم يرعاها وهو فى شعب كذا وكذا ، وكان داود عليه السلام قصيرا سقيما مصفرا أزرق العينين فدعاه طالوت ويقال خرج اليه فوجد الوادى قد حال بالماء بينه وبين الزريبة التى كان يتروح اليها فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين يعبر بهما السيل ولا يخوض بهما الماء ، فلما رآه شمويل قال : هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو أرحم بالناس ، فدعاه فوضع القرن على رأسه ففاض وأجلسه فى التنور فملأه . فلما رأى طالوت ذلك قال له هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتى وأجرى حكمك فى مملكتى قال نعم . قال فهل لقيت من نفسك شيئا تتقوى به على قتله ؟ قال نعم أنا راعى الغنم فيجيء الأسد والنمر والذئب ليأخذ شيئا فأقوم اليه وأقبضه وأفتح لحييه عنها وأحرفهما إلى قفاه ، فلما سمع طالوت منه ذلك رده إلى عسكره فمر داود عليه السلام فى الطريق بحجر فناداه ياداود احملنى فانى حجر هرون الذى قتل به ملك كذا وكذا فوضعه فى مخلاته ، ثم مر بحجر آخر فناداه ياداود احملنى فانى حجر موسى عليه السلام الذى قتل به ملك كذا وكذ فحمله فى مخلاته ، ثم مر بحجر آخر فقال احملنى فانى حجرك الذى تقتل به جالوت وقد خبأنى الله لك فوضعه فى مخلاته ، فلما تصافوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة فانتدب له داود وكان طالوت أعطاه فرسا ودرعا وسلاحا فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد فى نفسه زهوا فانصرف وعاد سريعا إلى الملك فقال من حوله . جبن الغلام فجاء حتى وقف على الملك فقال له ما شأنك ؟ فقال له داود إن الله تعالى إن لم ينصرنى فما يغنى عنى هذا السلاح شيئا فدعنى أقاتل كما أريد ، فقال له طالوت أفعل ما تريد . فأخذ داود عليه السلام مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة وزنها ثلثمائة رطل حديد وكان له فرس أبلق مثله فى الشدة والقوة وعظم الخلق ، فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز الى ؟ قال نعم وكان جالوت راكبا على

فرس أبلق وعليه السلاح التام فقال له يابنى تأتينى بالحجر بالمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر ؟ قال نعم أنت أشر من الكلب . قال لاجرم لأقسمن لحمك بين سباع الأرض وطير السماء فقال داود باسم الله ويقسم الله لحمك بين السباع وطير السماء وأخذ حجرا منها وقال باسم إله ابراهيم ووضعه فى مقلاعه وأخذ حجرا ثانيا وقال باسم الله إله اسحق ووضعه فى مقلاعه ثم أخرج ثالثا وقال باسم الله إله يعقوب ووضعه فى مقلاعه . قال فصارت الأحجار الثلاث كلها حجرا واحدا وأدار المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا . ويقال إنه من بعد ما خرج من قفاه تكسر وتفتت باذن الله تعالى حتى عم جميع جنود جالوت فلم يبق منهم أحد إلا وقد أصابته منه قطعة . ومثل ذلك صار كرامة للنبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين حثا الحثوة من التراب فانهزم الجيش وخر جالوت قتيلا وأسرع داود عليه السلام اليه فحز رأسه وانتزع من يده خاتمه وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين بحمد الله رب العالمين .

ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت

قالوا لما قتل داود جالوت ذكر الناس داود وعظم فى أنفسهم، فجاء داود إلى طالوت وقال له : أنجز إلى ماوعدتنى وأعطنى امرأتى فقال له طالوت : أتريد ابنة الملك بغير صداق عجل صداق ابنتى وشأنك بها ، فقال داود لطالوت : ما شرطت على صداقا وليس لى شىء فتحكم فى الصداق بما تريد وأفرضنى مهرها وعلى الأداء والوفاء لك به ؛ فقال طالوت أصدقها نصيبك من الملك فقال له بنو اسرائيل لاتظلمه وأنجزله ما وعدته ، فلما رأى طالوت ميل بنى اسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال . لاحاجة لابنتى فى المال ولا أكلفك مالا تطيق أنت رجل جرىء وفى جبالنا أعداء من المشركين فانطلق فجاهدهم فاذا قتلت منهم مائتى رجل وجئتنى برءوسهم زوجتك ابنتى ، فأتاهم دواد عليه السلام وجعل كلما قتل منهم رجلا احتز رأسه ونظمه فى خيط حتى نظم رءوسهم ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له : ادفع إلى امرأتى فزوجه امرأته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال النــاس إلى داود عليه السلام وأحبه بنو إسرائيل وأكثروا من ذكره فوجد طالوت من ذلك فى نفسه فأراد قتله

قال وهب بن منبه : كانت الأنبياء والملوك يومئذ يتوكأون على العصى ويغرزون فى أطراف العصى أزجة من حديد وكان داود عليه السلام جالسا فى ناحية البيت فدخل طالوت فرماه بالعصا بغتة ليقتله بهاصبرا فلما أحس داود بذلك حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه فارتكزت العكازة فى الجدار فقال له داود : أردت قتلى ؟ قال له طالوت لا بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان وربط

جأشك للأقران ، فقال له داود عليه السلام أفلقيته على ماقدرته فيّ قال نعم ولكنك لعلك فزعت ؟ قال معاذ الله أن أخاف الا الله ولا ألجأ إلا إليه ولا يدفع الشر إلا هو ثم إن داود انتزعها من الجدار وهزّها هزّة منكرة ، وقال له اثبت لي كما ثبت لك فأيقن طالوت بالهلاك فقال له : أنشدك بالله وبحرمة المصاهرة التي بيني وبينك وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت ولكن كان مقال تخويف وتحذير، فقال داود لطالوت : إن الله قد كتب في التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة والبادى أظلم ، قال طالوت : أفلا تقول قول هابيل ــ لئن بسطت الىّ يدك لتقتلني ما أنا باسط يدى اليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين ــ فقال داود قد عفوت عنك لوجه الله تعالى ، فلبث طالوت زمانا يريد قتل داود عليه السلام فعزم على أن يأتيه ويقتله فى داره فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود أخبرها رجل يقال له ذو العينين فقالت لداود إنك لمقتول الليلة قال ومن يقتلني ؟ قال أبى قال وهل أجرمت جرما ؟ قالت حدثني من لا يكذب ولا عليك بأس أن تغيب الليلة حتىّ تنظر مصداق ذلك فقال لئن كان أراد ذلك لا أستطيع خروجا ولكن ائتيني بزقّ من خمر فأتته به فوضعه في مضجعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير قال فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فلم يجده ، فقال لابنته أين بعلك ؟ فقالت هو نائم على السرير فضربه بالسيف فسال الخمر ، فلما وجد ريح الخمر قال رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئا فقال إن رجلا طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني ، ثم انه استتر بحجابه وحرّاسه وأغلق دونه الأبواب . قال فأتى داود ذات ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب وفتح الله له الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج فلما استيقظ طالوت وجد السهام فعرفها فقال : رحم الله داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بى فكفّ عني لو شاء لوضع هذا السهم فى حلقي وما أنا بالذى آمنه . فلما كانت الليلة القابلة أتاه داود ثانيا وأعمى الله عنه أعين الحجاب فدخل وهو نائم على فراشه فأخذ إبريق طالوت الذى كان يتوضأ منه وكوزه الذى كان يشرب به وقطع شعرات من لحيته وشيئا من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى ، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وشدّ فى طلبه فلم يقدر عليه ، ثم ان طالوت ركب ذات يوم فوجد داود عليه السلام يمشى فى البرّية فقال طالوت فى نفسه اليوم أقتل داود أنا راكب وهو ماش وكان داود إذا فرّ لم يدرك فركض طالوت فى أثره واشتد داود فى الجرى فدخل غارا فأوحى الله الى العنكبوت فنسجت عليه بيتا فلما انتهى طالوت الى الغار ونظر الى بناء العنكبوت قال : لو كان ههنا لخرق بيت العنكبوت فتركه ومضى فلما مضى خرج داود من الغار وانطلق الى الجبل مع المتعبدين فجعل يتعبد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت فى شأن داود . فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله فجعل يقتل العلماء فلم يكن يقدر فى بنى اسرائيل على عالم ويطيق قتله إلا قتله ولم يكن يحارب جيشا الا هزمه حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم فأمر خبازه بقتلها فرحمها

الخباز وقال : لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ووضع الله فى قلب طالوت التوبة فندم على مافعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج الى القبور فيبكى وينادى أنشد الله عبدا يعلم لى توبة إلا أخبرنى بها فلما كثر عليهم بكاؤه ناداه مناد من القبور ياطالوت أما ترضى أنك قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتا فازداد حزنا وبكاء فرحمه الخباز وقال له مالك أيها الملك . فقال هل تعلم لى فى الأرض عالما أسأله هل لى من توبة فقال له الخباز أيها الملك هل تدرى مامثلك قال لا ؟ قال مامثلك الا كمثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطير منه ، فقال لاتتركوا فى هذه القرية ديكا إلا ذبحتموه ، فلما أراد أن ينام . قال لأصحابه اذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج فقيل له وهل تركت ديكا يسمع صوته ، وأنت هل تركت عالما فى الأرض ، فازداد حزنا وبكاء فلما رأى الخباز ذلك . قال أرأيت ان دللتك على عالم لعلك تقتله قال لا فتوثق منه الخباز بالأيمان فأخبره أن المرأة العالمة عنده ، فقال له انطلق بنا اليها أسألها هل لى من توبة وكانت تعلم الاسم الأعظم وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم فلما بلغ طالوت الباب . قال له الخباز إنها ان رأتك فزعت منك ثم جعله خلفه ودخل عليها الخباز . فقال ألست أعظم الناس عليك منة أنجيتك من القتل وأوثقتك عندى ؟ قالت بلى . قال لى اليك حاجة هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فلما سمعت بذكره غشى عليها من الفرق فلما أفاقت : قال لها إنه لايريد قتلك ولكن يسألك هل من توبة ؟ قالت لا والله ماله من توبة ولكن هل تعلمون قبر شمويل عليه السلام ؟ قالوا نعم قالت فانطلقوا بنا الى قبره ، فلما وصلوا اليه صلت عنده ركعتين ثم انها نادت : ياصاحب القبر ، فخرج شمويل عليه السلام من القبر ينفض التراب عن رأسه ، فلما نظر الى الثلاثة المرأة والخباز والملك . فقال لهم أقامت القيامة ؟ قالوا لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال له شمويل مافعلت ياطالوت بعدى ؟ قال لم أدع شيئا من الشر إلا فعلته ، وقد جئت أطلب التوبة . قال كم لك من ولد ؟ قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك تجاهد فى سبيل الله ، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ، ثم انك تقاتل حتى تقتل آخرهم ، ثم رجع شمويل عليه السلام الى القبر فسقط ميتا ورجع طالوت أحزن ما يكون وخاف أن لايتابعه ولده فبكى حتى ذهبت أشفار عينيه ونحل جسمه فدخل عليه أولاده ، فقال لهم أرأيتم لو دفعت الى النار أكنتم تنقذوننى قالوا نعم ؟ ننقذك بما قدرنا عليه قال فانها النار ان لم تفعلوا ما أقول لكم ، قالوا فاعرض علينا مقالتك فذكر لهم القصة ، فقالوا وإنك لمقتول بعدنا ؟ قال نعم قالوا لاخير لنا فى الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذى سألت فتجهز بأولاده الى الغزو وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل فجاء قاتله الى داود يبشره يقول له قد قتلت عدوك ، فقال داود ما كنت بالذى تحيا بعده فضرب عنقه .

مجلس فى خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها

قال الله تعالى ـ ياداود إناجعلناك خليفة فى الأرض ـ الآية ، قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما استشهدطالوت أتى بنوإسرائيل الىداود فأعطوه خزانةطالوت وملكوه علىأنفسهم وذلك بعد قتل داودجالوت بسبع سنين ولمتجتمع بنوإسرائيل علىملك واحد بعد يوشع بن نون الاعلى داود عليه السلام فذلك قوله عزوجل ـ وقتلداودجالوت وآتاهاللهالملك والحكمة ـ الآية

باب فى ذكر نسبه

هو داود بن ايشا بنعوفيذ بن يوعزبن سلمون بن نحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليلالرحمن صلواتالله عليهم أجمعين .

باب فى ذكر صفته وحليته

أخبرنى الحسن بن محمد الدينورى باسناده عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زرقة العينين يمن » وكان داود عليه السلام أزرق العينين أحمر الوجه دقيق الساقين سبط الشعر أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت والخلق طاهر القلب نقيه .

باب فى ذكر ماخص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل والكرامة حين أعطاه الله النبوة والملك

فمنها أنه أنزل عليه الزبور بالعبرانية مائة وخمسون سورة ، فى خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر وأهلبابل . وفى خمسين منهاذكرمايلقون من الروم من أهلايرون . وفى خمسين منهاموعظة وحكمة ولم يكن فيها حلال ولاحرام . فذلكقولهتعالى ـ وآتيناداودزبورا ـ .

ومنها الصوتالطيب والنغمة الطيبة اللذيذة والترجيع والألحان ولم يعط الله أحدا من خلقهمثل صوته وكان يقرأ الزبور بسبعين لحنا بحيث يعرق المحموم ويفيق المغمى عليه . وكان إذاقرأ الزبور برز الى البرية فيقوم وتقوم معه علماء بنى اسرائيل خلفه وتقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس وتقومالشياطين خلف الجن وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها وتظله الطيور مضحية ويركد الماء الجارى ويسكن الريح وماصنعت المزامير والبرابط والصنوج الاعلى صوته . وذلك أن إبليس لعنهالله حسده واشتدعليه . فقاللعفاريته ألاترون مادهاكم ؟ فقالوا لهمرنا بماشئت . فقال انه لايصرف الناس عنداود إلامايضاده ويحاده فىمثل حاله فهيئوا المزامير والعيدان والأوتار والملاهى على أجناس أصواتداود فسمعها سفهاءالناس فمالوا اليهافاغتروابها ، ويقال إنداود عليه السلام كان إذاقرأ الزبور بعدماقارف الذنب لايقفله الماء . ولاتصغىله الوحوش ولاالبهائم ولاالطيور كما كانت

قبلها ونقصت نغمته ، فقال إلهي ماهذا ؟ فأوحى الله تعالى اليه ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ياداود إن الخطيئة هي التي غيرت صوتك وحالك . فقال إلهي أوليس قد غفرتها لي ؟ قال بلى ، ولكن لم ترتفع الحالة التي بيني وبينك من الود والقرب فلن تدركها أبدا .

أخبرنا أبو سعيد بن أحمد بن حمدون عن وهب بن منبه . قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . « قال خفف الله على داود القرآن فكان يأمر بدوابه أن تسرج فكان يقرأ القرآن قبل أن تسرج دابته وكان لايأكل إلا من عمل يده . قال الأستاذ الامام أراد بالقرآن الزبور .

وبالاسناد أخبرنا أبو بكر الجوزقي عن أبي موسى الأشعري قال . قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود . فقلت أما والله يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا » .

وأخبرنا أبو بكر قال أخبرنا أبو العباس بالاسناد عن البراء بن عازب قال « سمع النبي ﷺ صوت أبي موسى ، فقال كأن صوت هذا من صوت آل داود » .

ومنها تسخير الجبال والطير له يسبحن معه إذا سبح كما قال تعالى — ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد — وقوله تعالى — إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق — ويقال إن داود عليه السلام كان اذا تخلل الجبال فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو مايسبح ، ثم قال في نفسه ليلة من الليالي لأعبدن الله تعالى عبادة لم يعبده أحد بمثلها ، فصعد الجبل فلما كان جوف الليل داخلته وحشة ، فأوحى الله تعالى الى الجبال أن آنسي داود فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل ، فقال داود في نفسه كيف يسمع صوتي مع هذه الأصوات ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وأخذ بعضده حتى انتهى به الى البحر فوكزه برجله فانفرج له البحر فانتهى به الى الأرض فوكزها برجله فانفجرت له الأرض فانتهى به الى الحوت فوكزه برجله فانتهى به الى الصخرة فوكز الصخرة برجله فانفلقت فخرج منها دودة تنش ، فقال له جبريل إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة في هذا الموضع . قوله تعالى — يسبحن بالعشي والاشراق — قال المفسرون يعني صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين العشاءين . قال ابن عباس ، وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر .

ومنها أنه أكرمه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب فالحكمة هي الاصابة في الأمور ، وأما فصل الخطاب فاختلفوا فيه ، فقال ابن عباس بيان الكلام وقال ابن مسعود والحسن المعنى علم الحكم والنظر في القضاء كان لايتتعتع في القضاء بين الناس . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

أخبرنا أبو عبـد الله . قال سمعت زيادا يقول فصل الخطاب الذى أعطى داود عليه السلام . ما أخبرنا أبو حفص عن الأعمش عن أبى صالح عن كعب الأحبار فى قوله وفصـل الخطاب قال الشهود والأيمان . عن الشعبى قال سمعت زيادا يقول فصل الخطاب الذى أعطى داود أما بعد . قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى وهو أول من قالها .

ومنها السلسلة التى أعطاها الله تعالى له ليعرف الحق من البطل فى المحاكمة إليه .

وهو ما روى الضحاك عن ابن عباس قال إن الله تعالى أعطى داود سلسـلة موصولة بالمجرة والفلك ورأسها عند محراب داود عليه السلام حيث يتحاكم الناس إليه وكانت قوتها قوة الحديد ولونها لون النار ، وحلقها مستديرة مفصلة بالجوهر ومدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فلا يحدث فى السماء حاصل إلا صلصت السلسلة فيعلم داود ذلك الحادث ، ولا يمسها ذو عاهة الا برأ ، وكان علامة دخول قومه فى الدين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسـحون بأكفهم على صدورهم وكانوا يتحاكمون إليها فمن اعتدى على صاحبه وأنـكر ماله من حق أتى السلسلة فمن كان صادقاً محقاً مد يده إلى السلسلة فينالهـا ومن كان كاذباً ظالما لم ينلها فـكانت فيهم إلى أن ظهر فيهم المـكر والخديعة .

قال بلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة فلما جاء يستردها أنـكرها فتحاكما إلى السلسلة فعلم الرجل الذى كانت عنده الجوهرة أن يده لا تنال السلسلة فعمد إلى عكازة له فنقرها ثم ضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة فقال صاحب الجوهرة إن لى عندك وديعة فقال خصمه ما أعرف لك وديعة فان كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده ، ثم قيل للمنـكر قم أنت أيضاً فتناولهـا فقال لصاحب الجوهرة الزم أنت عكازتى هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها وقام الرجل وقال اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التى يدعيها قد وصلت إليه فقرب منى السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وتفـكروا فيها فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه إذا اشتبه عليـه الأمر بين الخصمين اللذين يتحاكمان إليه يقول : ما أحوجكما إلى سلسلة بنى إسرائيل كانت تأخـذ بعنق الظالم فتجره إلى الحق جرا .

ومنها القوة فى العبادة وشدة الاجتهاد كما قال الله تعالى ـ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ـ يعنى القوة فى العبادة إنه أواب أى تواب مسبح مطيع وكان يصوم يوما ويفطر يوما يصوم النهـار ويقوم الليل وما مرت به ساعة من الليل إلا وفيها من آل داود قائم يصلى ولا يوم من الأيام إلا وفيه منهم صائم .

ومنها قوة الملـكة كما قال الله تعالى ـ وشددنا ملـكه ـ أى قويناه وقرأ الحسن وشـددنا ملـكه بالتشديد .

وقال ابن عباس : كان أشد ملوك الأرض سلطانا وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل . وقال السدى كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بنى إسرائيل تعدّى على رجل من عظمائهم فاجتمعا على داود عليه السلام . فقال المتعدى إن هذا قد غصبنى بقرتى فسأل داود الرجل عن ذلك فجحد وسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة . فقال لهما داود قوما حتى أنظر فى أمركما فقاما من عنده فأوحى الله تعالى إليه فى منامه أن يقتل الرجل الذى تعدى . فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتبين فأوحى الله تعالى إليه مرة أخرى أن يقتله. فقال هذه رؤيا . فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله . فأرسل داود إلى الرجل فقال له إن الله تعالى قد أوحى إلىّ أن أقتلك . فقال له الرجل تقتلنى بغير ذنب ولا بينة . فقال داود نعم والله لأنفذنّ أمر الله فيك . فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل علىّ حتى أخبرك انى والله ما أخذت بهذا الذنب ولكنى كنت اغتلت ولد هذا فقتلته فأمر به داود فقتل . فاشتدت هيبة بنى إسرائيل عند ذلك لداود واشتد له ملكه فذلك قوله تعالى ــ وشددنا ملكه ــ ، ويقال كان داود إذا جلس للحكم كان على يمينه ألف رجل من الأنبياء ، وعلى يساره ألف رجل من الأجناد .

ومنها شدة البطش فيروى أنه مافر ولا انحاز من عدوّ له قط .

ومنها إلانة الحديد له وكان سبب ذلك ما روى فى الأخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى اسرائل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكراً فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم إليه فيسأله عن داود فيقول له ماتقول فى داود واليكم هذا أى الرجل هو فيثنى عليه ويقول خير فبينما هو كذلك يوماً من الأيام إذ قيض الله له ملكا فى صورة الآدميين فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله فقال له الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك فقال ما هى يا عبد الله ؟ قال إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فينفق منه ويطعم عياله فألان له الحديد فصار فى يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول وكان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد وعلمه الله تعالى صنعة الدروع فكان يتخذ الدروع وهو أول من عملها وكانت قبل ذلك صفائح فيقال إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين فذلك قوله تعالى ــ وعلمناه صنعة لبوس لكم ــ وقوله تعالى ــ وألنا له الحديد أن اعمل سابغات ــ أى دروعا كوامل واسعات ــ وقدّر فى السرد ــ أى لا تجعل المسامير دقاقا فتعلق ولا غلاظا فتكسر الحلق فكان يفعل ذلك حتى اعتد من ذلك مالا .

وروى أن لقمان الحكيم رأى داود عليه السلام وهو يعمل درعا فتعجب من ذلك ولم يدر ماهو أراد أن يسأله فسكت حتى فرغ داود من نسج الدرع فقام فلبسه وقال نعم القميص هذا للرجل المحارب فعلم لقمان ما يراد به فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله .

باب في قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة وما يتصل بذلك

قال الله تعالى ـ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم ـ الآيات .

اختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب امتحان الله تعالى نبيه داود عليه السلام بما امتحنه الله به من الخطيئة. فقال قوم : كان سبب ذلك أنه تمنى يوما من الأيام على ربه تعالى منزلة آبائه ابراهيم وإسحق ويعقوب وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم فروى السدى والكلبى ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه بنسائه ، ويوما لعبادة ربه وقراءة الكتب ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل ابراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام فيقول يا رب أرى الخير قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى فأوحى الله تعالى إليه أنهم ابتلوا بلايا لم يبتل بها أحد فصبروا عليها ، ابتلى ابراهيم عليه السلام بنار النمروذ وبذبح ولده ، وابتلى اسحق بالذبح ، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بصره على يوسف وإنك لم تبتل بشىء من ذلك ، فقال داود عليه السلام يا رب فابتلنى كما ابتليتهم وأعطنى كما أعطيتهم فأوحى الله تعالى إليه إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم كذا فاحترس على الصبر . فلما كان فى اليوم الذى وعده الله دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وتمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فوقعت بين يديه فمد يده ليأخذها .

وفى بعض الروايات ليدفعها إلى ابن له صغير ، فلما أهوى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت فوقعت فى كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث إليها من يصيدها فنظر إلى امرأة فى بستان على شط بركة تغتسل هذا قول الكلبى . وقال السدى رآها تغتسل على سطح لها فرآها امرأة من أحسن النساء خلقا فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظل داود عليه السلام فنشرت شعرها فغطى بدنها كلها فزاد بذلك إعجابا بها فسأل عنها فقيل له هى سابغ بنت شائع امرأة أورياء بن حنان وزوجها فى غزاة البلقاء مع أيوب بن صوريا بن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته أيوب صاحب بعث بلقاء أن ابعث أورياء إلى موضع كذا وكذا وقدمه على التابوت وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد فبعث به ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه داود أيضا أن ابعثه إلى غزوة كذا وكان رئيسها أشد منه بأسا نبعثه فقتل فى المرة الثانية ، فلما انقضت عدتها تزوجها داود فهى أم سليمان عليه السلام .

وقال آخرون . انما سبب امتحانه أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة سيئة

وعن الحسن أخبرنا شعيب بن محمد قال ان داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أجزاء يوما لنسائه ويوما لعبادة ربه ويوما لقضاء حوائج المسلمين ويوما لبني اسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه يسألهم ويسألونه . فلما كان يوم بني اسرائيل ذكروا : فقالوا هل يأتي على الانسان يوم لا يصيب فيه ذنبا فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك فلما كان يوم عبادة ربه غلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وانكب على التوراة فبينما هو يقرأ إذ هو بحمامة من ذهب فيها كل شيء حسن قد وقفت بين يديه فأهوى اليها ليأخذها فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها فلما رأت ظله في الأرض جللت جسدها بشعرها فزاده ذلك اعجابا بها وكان قد بعث زوجها في بعض جيوشه فكتب اليه أن سر إلى مكان كذا وكذا مكانا إذا وصل اليه قتل ولم يرجع ففعل فأصيب فخطبها داود وتزوجها وقال بعضهم في سبب ذلك كما أخبرنا قتادة عن الحسن بن محمد إن داود عليه السلام قال لبني اسرائيل حين ملك والله لأعدلن فيكم ولم يستثن فابتلى .

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر الوراق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة فأعجب بعمله فقال هل في الأرض أحد يعمل عملي فأتاه جبريل عليه السلام فقال ان الله تعالى يقول : أعجبت بعبادتك والعجب يأكل العبادة فان أعجبت ثانيا وكلتك إلى نفسك فقال داود يارب كلني إلى نفسي سنة فقال انها لكثير قال فشهرا قال فانه لكثير قال فأسبوعا فقال انه لكثير قال فيوما قال انه لكثير قال فساعة قال فشأنك بها قال فوكل الحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه فبينما هو في نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان قالوا فلما دخل داود بامرأة أورياء لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله تعالى ملكين في صورة رجلين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحراس أن يدخلا عليه فتسورا المحراب وهو يصلي فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان فذلك قوله تعالى ـ وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم ـ حين هجما عليه في محرابه بغير اذنه ـ قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ـ أي ولا تجر ولا تفرط ـ واهدنا إلى سواء الصراط ـ ارشدنا إلى وسط الطريق المستقيم ـ ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ـ وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء والعرب تفعل ذلك كثيرا تورى عن النساء وتكني عنها بألقاب كالظباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش في أشعارهم فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال الضحاك أعطنيها وتحول لي عنها واجعلها كفلى أي نصيبي وعزني في الخطاب قال الضحاك يقول ان تكلم كان أفصح مني وان حارب كان أبطش مني فقال داود ـ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ـ .

قال السدي باسناده : ان أحدهما لما قال ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة قال داود للآخر

ماتقول قال ان لى تسعا وتسعين نعجة وله نعجة واحدة فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة قال وهو كاره قال نعم ؟ قال إذا لاندعك وان رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا يعنى طرف الأنف وأصل الجبهة فقال الرجل ياداود أنت أحق بضرب هـذا منى حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأورياء الاامرأة واحدة فلم تعرضه للقتال حتى قتل وتزوجت امرأته فهذا وجه الآية ، الا أن داود حكم قبـل أن يسمع كلام الخصم الآخر . قالوا ثم ان داود نظر فلم ير أحدا فعرف ماقد وقع فيه فذلك قوله تعـالى ـ وظن داود أنمـا فتناه ـ أى ابتليناه . وقال سعيد بن جبير : انمـا كانت فتنة داود بالنظر . .

قال الأستاذ رحمه الله تعـالى ولم يتعمد داود عليه السلام النظر الى المرأة ولـكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه وبالا كما قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم « لاتتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الأخيرة » فهذه أقاويل السلف الصالحين من أهل التفسير فى قصة داود عليه السلام .

وقد روى الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من حدث بحـديث داود عليه السـلام على مايرويه القصاص معتقدا صحته جلدته حـدين لعظم ماارتـكب وجليل مااحتقب يعنى ما اكتسب من الوزر والاثم يرمى من قد رفع الله محله وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجتهدين .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين : فى هذه القصة أن لاذنب انمـا كان تمنى أن تـكون له امرأة أورياء حلالا وحدث نفسه بذلك فاتفق له غزوة فأرسل أورياء فقدمه أمام الحرب فاستشهد فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع له كما كان يجزع على غيره من جنده اذا هلك ووافق قتله مراده . ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وان صغرت فهى عظيمة عند الله ، وقال بعضهم : كان ذنب داود أن أورياء كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها . فلمـا غاب فى غزاته خطبها داود فتزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أورياء غما شـديدا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هـذه الواحـد لخاطبها الأول ، وقد كان عنـده تسـع وتسعون امرأة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « لايبـع أحدكم على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » وممـا يصدق ماذكرناه ماقيل عن المفسرين المقدمين ممـا أخبرنا به عقيل بن محمد الفقيـه المغافرى عن زكريا عن أنس بن مالك قال : سمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : إن داود عليـه السلام حين نظر الى المرأة قطع على بنى إسرائيل بعثا وأوصى صاحب البلقاء اذا حضر العدو فقدم فلانا بين يدى التابوت وكان التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يديه لم يرجع حتى يقتل أوينهزم الجيش عنه فقتل زوج المرأة ونزل الملـكان ليقصا عليه قصته ففطن داود وسجد فمكث أربعين ليلة ساجدا يبكى حتى نبت الزرع من دموعه حول رأسه وأكلت الأرض جبينه وهو يقول فى سجوده زل داود زلة هى أبعد ممـا بين المشرق والمغرب رب ان لم ترحم ضعف داود وتغفر له ذنبه جعلته

ذنبه حديثا فى الخلائق من بعده ، فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال ياداود ان الله تعالى قد غفر لك الهم الذى هممت به ، فقال داود قد علمت أن الله قادر على أن يغفر الهمّ الذى هممت به وقد عرفت أن الله عدل لا يحيف فكيف بفلان يعنى أورياء إذا جاء يوم القيامة فقال يارب دمى الذى عند داود فقال جبريل ماسألت ربك عن ذلك ولئن شئت لأفعلن قال نعم ؟ فرجع جبريل عليه السلام وسجد داود فمكث ماشاء الله ثم نزل ، فقال قد سألت الله ياداود عن الذى أرسلتنى فيه ، فقال الله تعالى قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لى دمك الذى عند داود فيقول هو لك يارب فأقول ان لك فى الجنة ماشئت وما اشتهيت عوضا عن دمك .

أخبرنا ابن فتحويه باسناده عن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه ، قالوا جميعا ان داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا فى صورتهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه وعلم داود أنما فتناه فخر ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها أو صلاة مكتوبة ثم يعود فيسجد تمام أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكى حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادى ربه تعالى ويسأله التوبة وكان يقول فى سجوده سبحان الملك الأعظم الذى يبتلى الخلائق بما يشاء ، سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب إلهى خليت بينى وبين عدوى إبليس فلم أتنبه لفتنته إذ زل بى قدمى ، سبحان خالق النور إلهى تبكى الثكلى على ولدها اذا فقدته ويبكى داود على خطيئته ، سبحان خالق النور يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه والخطيئة لازمة لى لا تذهب عنى . سبحان خالق النور إلهى لم أتعظ بما وعظت به غيرى سبحان خالق النور إلهى أمرتنى أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف فنسيت عهدك . سبحان خالق النور إلهى خلقتنى وفى سابق علمك كان ما أنا صائر اليه . سبحان خالق النور إلهى الويل لداود اذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطئ . سبحان خالق النور إلهى بأىّ عين أنظر اليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفىّ . سبحان خالق النور إلهى بأىّ قدم أقوم أمامك يوم تزل أقدام الخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب ، سبحان خالق النور إلهى مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها فتؤنسنى فتركتنى والخطيئة لازمة لى . سبحان خالق النور إلهى أمطرت السماء ولم تمطر حولى وأعشبت الأرض ولم تعشب حولى بخطيئتى . سبحان خالق النور إلهى أنا الذى لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك . سبحان خالق النور إلهى أنا الذى لا أطيق صوت وعدك فكيف أطيق صوت جهنم . سبحان خالق النور إلهى كنت تستر الخاطئين بخطاياهم وأنت شاهد حيث كانوا . سبحان خالق النور إلهى رق القلب وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدى . سبحان خالق النور إلهى الطير تسبح لك وأنا العبد الخاطئ الضعيف الذى لم أرع وصيتك ، سبحان خالق النور إلهى الويل لداود من الذنب العظيم الذى أصاب ولا علم له بذلك . سبحان خالق النور إلهى أنا المستغيث وأنت المغيث فمن يدعو المستغيث الا المغيث . سبحان خالق النور إلهى أسألك بأبى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب أن تعطينى سؤلى ، سبحان خالق النور اللهم برحمتك اغفر لى ذنوبى ولا تباعدنى من رحمتك

لهوانى فانك أرحم الراحمين . سبحان خالق النور إلهى انى أعوذ بك من دعوة لاتستجاب وصلاة لاتقبل وذنب لايغفر وعذاب لايفتر ، سبحان خالق النور إلهى انى أعوذ بك وبنور وجهك الكريم من ذنوبى التى أوبقتنى ، سبحان خالق النور إلهى فررت اليك من ذنوبى واعترفت بخطيئتى فلا تجعلنى من القانطين ولاتخزنى يوم يبعثون . سبحان خالق النور إلهى فرغ الحنين وفرغت الدموع وتناثر الدود من ركبتى وخطيئتى ألزم لى من جلدى . سبحان خالق النور . قالوا فأتاه النداء أجائع أنت فتطعم أوظمآن أنت فتسقى أومظلوم أنت فتنصر ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشىء، فصاح صيحة فهاج منها ماحوله ثم نادى يارب الذنب الذى أصبته فنودى ياداود ارفع رأسك فقد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل عليه السلام فرفعه . قال وهب بن منبه ان داود عليه السلام أتاه نداء انى قد غفرت لك فقال يارب كيف وأنت لاتظلم أحدا فقال اذهب الى قبر أورياء فناده وأنا أسمعه نداءك فتحلل منه قال فانطلق داود عليه السلام حتى أتى قبره وقد لبس المسوح فجلس عند قبره ثم ناداه يا أورياء فقال لبيك من هذا الذى قطع على لذتى وأيقظنى . قال أنا داود قال ماجاء بك يانبى الله قال جئت أتحلل مما كان منى اليك . قال وما كان منك الى" قال عرضتك للقتل قال عرضتنى للجنة وأنت فى حل" ، فأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ألم تعلم أنى حكم عدل لاأقضى الا بالحق ألا أعلمته أنك تزوجت امرأته ، قال فانطلق داود اليه فناداه ياأورياء فأجابه فقال من هذا الذى قطع على" لذتى ؟ قال أنا داود . قال يانبى الله ماحاجتك أليس قد عفوت عنك قال نعم لكن أنا مافعلت بك ذلك الا لمكان امرأتك وانى قد تزوجتها . قال فسكت أورياء ولم يجبه فدعاه فلم يجبه فقام عند قبره وحثا التراب على رأسه ثم نادى الويل ثم الويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له اذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة . سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الدائم له حين يؤخذ برقبته ثم يدفع الى المظلوم . سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين الى النار . سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين الى النار . سبحان خالق النور قال فأتاه النداء من السماء ياداود قد غفرت لك ذنبك ورحمتك ورثيت لطول مكانك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك . قال يارب كيف لى أن تعفو عنى وصاحبى لم يعف عنى قال ياداود وان يعف أولم يعف فأنا أعطيه يوم القيامة مالم ترعيناه ولم تسمع أذناه فأقول له قد رضيت عبدى فيقول يارب من أين هذا ولم يبلغه عملى ؟ فأقول هذا عوض من أجل عبدى داود فأستوهبك منه فيهبك لى ، فقال داود يارب" الآن قد عرفت أنك قد غفرت لى فذلك قوله عز" وجل ــ فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ــ وروى أبو معشر عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس قالا فى قوله تعالى ــ وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ــ ان أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود عليه السلام .

أخبرنا أبو الحسن بن محمد حدثنا على" أخبرنا بكر بن أحمد بن معقل أخبرنا عمر بن محمد الشرقى

قال النصر البكعي قال حدثنا أبو سعيد عبدالله المزنى قال حدثنا محمد بن المنكدر عن محمد بن عبد الرحمن بن عوف حدثني أبوسعيد الخدرى قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله إنى رأيته الليلة فى منامى كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ سورة ص ، فلما بلغت الشجرة الى السجدة سجدت فسمعتها تقول فى سجودها : اللهم اكتب لى بها أجرا واحطط عنى بها وزرا وارزقنى بها شكرا وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام ، فقال له رسول الله ﷺ : أفسجدت أنت يا أباسعيد ؟ قال قلت لا يارسول الله فقال أنت أحق بالسجدة من الشجرة ، ثم قرأ رسول الله ﷺ حتى بلغ السجدة فسجد ثم قال مثل قول الشجرة .

قال وهب بن منبه : ان داود عليه السلام لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دمعة ليلا ولا نهارا وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام يعنى أربعة أيام فجعل يوما للقضاء بين الناس ويوما لنسائه ويوما يسيح فى الفيافى والجبال والقفار والسواحل ويوما يخلو فى داره وفيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع اليه الرهبان فينوح بعضهم على بعض ويساعدونه على ذلك ، فاذا كان يوم سياحته يخرج الى الفيافى فيرفع صوته كالمزامير ويبكى فيبكى معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى يسيل من دموعه مثل الأنهار ، ثم يجيء الى الجبال فيرفع صوته كالمزامير فيبكى وتبكى معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم ثم يجيء الى الساحل فيرفع صوته كالمزامير فيبكى وتبكى معه الحيتان ودواب البحر والطير والماء والسباع فاذا أمسى رجع ، فاذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه ان اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده . قال فيدخل الدار التى فيها المحاريب فيبسط له ثلاث فرش من مسوح حشوها الليف ليجلس عليها وتجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وعليهم المسوح وفى أيديهم العصى ، ثم يجلسون فى تلك المحاريب ثم يرفع صوته بالبكاء والنوح فيرفع الرهبان معه أصواتهم ، فلا يزال يبكى حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه ثم يمسح بها وجهه ويقول يارب اغفرلى ماترى فلو عدل بكاء داود ودموعه بكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها .

أخبرنا ابن فتحويه عن عثمان بن أبى عاتكة أنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام سبحانك إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت علىّ الأرض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الىّ روحى ، إلهى أتيت أطباء عبادك ليداوونى فكلهم عليك دلونى ، وقال صلى الله عليه وسلم « خدّ الدمع فى وجه داود مثل خد الماء فى الأرض » أخبرنا ابن فتحويه عن الحسن بن عبد الله القرشى قال لما أصاب داود الخطيئة فزع إلى العبادة فأتى راهبا فى قلة جبل فناداه بصوت عال فلم يجبه فلما أكثر عليه الصوت قال الراهب من هذا الذى يناديني ؟ قال أنا داود نبى الله . قال صاحب القصور الحسينة والخيول المسومة والنساء والشهوات لئن نلت الجنة بهذا لأنت أنت . قال

داود فمن أنت ؟ قال أنا راهب راغب منزو مترقب . قال فمن أنيسك ومن جليسك ؟ قال اصعد تراه ان كنت تريد ذلك . قال فتخلل دواد الجبل ورقى إلى القلة فاذا هو بميت مسجى ، فقال له هذا أنيسك هذا جليسك ؟ قال نعم قال وما هذا ؟ قال تلك قصته مكتوبة فى لوح من نحاس عند رأسه فقرأ دواد الكتاب فاذا فيه أنا فلان بن فلان ملك الملوك عشت ألف عام وبنيت ألف قصر وألف مدينة وهزمت ألف عسكر وتزوجت ألف امرأة وافتضضت ألف بكر ، فبينما أنا فى ملكى إذ أتانى ملك الموت فأخذنى وأخرجنى مما كنت فيه فهذا التراب فراشى والدود جيرانى . قال فخر دواد عليه السلام مغشيا عليه .

وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان الناس يعودون داود عليه السلام فيظنون أنه مريض وما به الا الحياء والخوف من الله تعالى » .

قال وهب بن منبه : لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا فيستغفر للخاطئين قبل نفسه فيقول : اللهم اغفر للخاطئين فعساك أن تغفر لدواد معهم .

وعن قتادة عن الحسن قال : كان داود بعد الخطيئة لا يجالس الا الخاطئين ثم يقول تعالوا إلى داود الخاطىء ولا يشرب شرابا الا هو ممزوج بدموع عينيه ، وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قصعته ولا يزال يبكى حتى يبتل بدموعه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين . قال وكان داود عليه السلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله .

وقال وهب : ان داود عليه السلام لما تاب الله عليه قال يارب أغفرت لى ؟ قال نعم . قال فكيف لى أن لا أنسى خطيئتى فأستغفر منها لى وللخاطئين إلى يوم القيامة . قال فوسم الله خطيئته فى يده اليمنى فما رفع بها طعاما ولا شرابا الا بكى إذا رآها وما قام خطيبا فى الناس الا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا وسم الخطيئة .

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن ثابت قال : كان دواد عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تعالى تخلعت أوصاله ولا يشدها الا الأنين فاذا ذكر رحمة الله تعالى تراجعت .

وعن أبى عبد الله البجلى قال : ما رفع داود بعد الخطيئة رأسه إلى السماء قط حتى مات ، وصلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

باب فى ذكر خروج ابن داود على أبيه وما كان من أمرهما

قال وهب وغيره من أهل الكتب : ان داود عليه السلام لم يزل قائما بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أورياء ما كان ، فلما واقع الخطيئة واشتغل بالتوبة منها استخفت به بنو اسرائيل واستضعفوه واجتمع أهل الزيغ من بنى اسرائيل وذهبوا إلى ابن لداود من ابنة طالوت يقال له شالون وقيل ايشا وقالوا له قد كبر أبوك واشتغل بخطيئته وتوبته وضاعت

حقوق الناس وضعف أمر الملك ، فلم يزالوا به حتى بايعوه وخلعوا داود وعـدلوا عنه ودعا هـذا الابن إلى نفسه ، فلما رأى ذلك دواد خرج من بين أظهرهم مع ابن أخ له يقال له ثواب وتوغل فى الجبال ، فأشار قومه على ابنه أن يقتل أباه ، فلما بلغ ذلك داود أرسل اليه رفيقه وقال له قل له هل سمعت بابن قتل أباه ؟ فقال له الابن وهل سمعت أنت بنبي أذنب فلم تقبل توبته ؟ فقال له الرسول ان كان الله تعالى قد أذن لك فى هلاكه فلا تباشره أنت فانه لا يجمل فى الآخرة حدوثه منك ، فقبل منه ذلك فكف عن قتل أبيه داود وبقى ابنه ملكا سنتين ، فلما تاب الله على داود صارت الناس تأتيه فحارب ابنه فهزمه ووجه فى طلبه قائدا من قواده وأوصاه أن يتوقى حتفه ويتلطف فى أسره فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فربض بها وكان الغلام ذا جمة فتعلق غصن من أغصانها بشعره فحبسه ولحقه القائد فقتله مخالفا لأمر داود عليه السلام . فحزن عليه داود حزنا شديدا وتنكر للقائد وكان له بأس شديد فى ملاقاة العدو فكره داود أن يقتله فتركه لأجل مجاهدة العدو ، فلما حضر داود الموت أوصى ولده سليمان عليهما السلام بقتل القائد فقتله حين فرغ من دفن أبيه ، وكانت مدة داود من يوم خرج من ملكه وانقطع عنه الوحى إلى أن قبل الله توبته ورد عليه ملكه ورجع إلى قومه سنتين .

باب فى قصة أصحاب السبت

قال الله تعالى ـ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ـ الآية .

قال ابن عباس ووهب بن منبه : ان قوما من بنى اسرائيل سكنوا قرية على شاطىء البحر بين مصر ومدين يقال لها ايلة حرم الله عليهم صيد الحيتان وسائر العمل يوم السبت ، وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته ذلك اليوم وذلك فى زمان داود عليه السلام ، فكان إذا خلا يوم السبت لم يبق حوت فى البحر إلا اجتمع هناك ويخرجن من الماء خراطيمهن حتى لا يرى الماء من كثرتهن ، حتى إذا مضى السبت تفرقن ولزمن مقر البحر لا يرى منهن الا القليل ، فذلك قوله تعالى ـ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم ـ الآية .

سمعت أبا القاسم . قال سمعت أبي يقول سئل الحسن بن الفضيل هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جزافا . قال نعم فى قصة داود عليه السلام وأهل أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، قال فعمد رجال منهم فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا اليها من الأنهار فاذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج منها لبعد عمقها وقلة الماء فاذا كان يوم الأحد أخذوها ، وقيل انهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ، قال وكانت الحيتان تأتيهم

يوم السبت كثيرا وفى غير يوم السبت لايأتيهم حوت واحد ، فأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا ثم ربطه إلى خشبة فى الساحل ثم تركه فى الماء الى يوم الأحد فأخذه فشواه فوجد جار له ريح الحوت فقال له يافلان انى أجد فى بيتك ريح الحوت فأنكره فاطلع الجار فى تنوره فاذا هو فى بيته فقال له انى أرى الله سيعذبك ، فلما رأى العذاب لم يأخذه أخذ فى السبت الآخر حوتين ، فلما رأوا العذاب لاينزل عليهم أخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا فأثروا وكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة فقست قلوبهم وتجبروا وتجرءوا على الذنب وقالوا مانرى السبت الاقد أحل لنا وانما حرم ذلك على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم ، فلما فعلوا ذلك صار أهل تلك القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف . صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه ، وصنف انتهكوا الحرمة ، فكان الذين نهوا اثنى عشر ألفا ، فلما أبى المجرمون قبول النصيحة قال الناهون والمسكون والله لنخرجن من القرية ولا نساكنكم فى قرية واحدة ثم قسموا القرية بينهم بجدار ومكثوا على ذلك سنين ، فلعنهم الله على لسان داود عليه السلام وغضب عليهم لاصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا بابهم ولا خرج منهم أحد ، فلما أبطئوا تسوروا عليهم الحائط فاذا هم جميعهم قد مسخوا قردة فذلك قوله تعالى — فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس — أى شديد — بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين — أى صاغرين نظيره قوله تعالى — لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود — يعنى عصاة أهل أيلة — وعيسى ابن مريم — يعنى كفار أصحاب المائدة — ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون — قالوا فلما دخلوا عليهم ورأوا أنهم قد مسخوا عرفت القردة أنسباءهم من الانس ولم تعرف الانس أنسباءهم من القردة فجعل القرد يأتى نسيبه من الانس فيشم ثيابه ويبكى ، فيقول له الرجل ألم ننهكم فيقول القرد برأسه نعم . قال قتادة صارت الشباب قردة والشيوخ خنازير فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم ، ثم خرج الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيرين ومكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا وكذلك لم يبق قوم مسخوا أكثر من ثلاثة أيام ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ، ثم بعث الله عليهم ريحا ومطرا فقذفهم فى البحر ، فاذا كان يوم القيامة أعادهم الله تعالى إلى صورهم البشرية فيدخلهم النار .

وروى أبو نصر عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة بعذاب من السماء بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التى كانت حاضرة البحر الذين مسخوا قردة ، ألم تسمع قول الله تعالى — ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى — الآية .

باب فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى الحرث

قال الله تعالى — وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين

قال ابن عباس وقتادة : كان الحرث زرعا ، وقال ابن مسعود وشريح : كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده إذ نفشت فيه غنم القوم رعته ليلا فأفسدته ، والنفش بالليل والهمل بالنهار وهما جميعا الرعى بلا راع وكنا لحكمهم شاهدين لايخفى علينا منه شىء . قال ابن عباس وقتادة : إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث ، فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئا . قال له داود اذهب فان الغنم لك فأعطاه رقاب الغنم بالحرث ، فمرا على سليمان فقال لهما ، كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال سليمان لووليت أمركما لقضيت بغير هذا فأخبرا بذلك داود فدعاه فقال : له كيف كنت تصنع فى القضاء بينهما ؟ قال كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم فاذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه .

وقال ابن مسعود وشريح : إن راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم وهو لايشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فسار صاحب الكرم من الغد إلى داود فقضى بالاغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمن الكرم تفاوت . قال فمرا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال لهما ماقضى بينكما داود فقصا عليه القصة فقال سليمان غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود فأخبراه بذلك : فدعا سليمان وقال له بحق النبوة والأبوة الا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين ، فقال سليمان تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيئته ثم يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها ، فقال داود القضاء ماقضيت وحكم بذلك فذلك قوله تعالى — ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما — قال الحسن كان الحكم ماقضى به سليمان ولم يعنف الله داود فى حكمه . قال الأستاذ وهذا يدل على أن كل مجتهد مصيب .

باب فى قصة استخلاف داود ابنه سليمان عليهما السلام وذكر بدء أمر الخاتم

قال أبو هريرة رضى الله عنه : أنزل الله تعالى كتابا من السماء على داود عليه السلام مختوما بخاتم من ذهب فيه ثلاث عشرة مسئلة ، فأوحى الله تعالى اليه أن سل عنها ابنك سليمان فان هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال فدعا داود عليه السلام سبعين قسا وسبعين حبرا وأجلس سليمان بين أيديهم وقال : يا بنى إن الله تعالى أنزل على كتابا من السماء فيه مسائل ، وأمرنى أن

أسألك عنها فان أخرجتها فأنت الخليفة من بعدى ، فقال ، سليمان : ليسأل نبى الله عما بداله وماتوفيقى إلابالله . قال داود يابنى ما أقرب الأشياء وما أبعدها ؟ وما آنس الأشياء وما أوحشها ؟ وما أحسن الأشياء وما أقبحها ؟ وما أقل الأشياء وماأكثرها ؟ وما القائمان وما الساعيان ؟ وما المشتركان وما المتباغضان ؟ وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره ؟ وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فقال سليمان عليه السلام : أما أقرب الأشياء فالآخرة ، وأما أبعد الأشياء فما فاتك من الدنيا ، وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح ، وأما أوحش الأشياء فجسد لاروح فيه ، وأما أحسن الأشياء فالايمان بعد الكفر ، وأما أقبح الأشياء فالكفر بعد الايمان ، وأما أقل الأشياء فاليقين ، وأما أكثر الأشياء فالشك ، وأما القائمان فالسماء والأرض ، وأما الساعيان فالشمس والقمر ، وأما المشتركان فالليل والنهار ، وأما المتباغضان فالموت والحياة ، وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب ، وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فالحدة عند الغضب . قال ففكوا الخاتم فاذا جواب المسائل سواء على مانزل من السماء ، فقال القسيسون والرهبان لانرضى حتى نسأله عن مسئلة فان أخرجها فهو الخليفة من بعدك ، فقال سليمان عليه السلام : سلونى وماتوفيقى إلا بالله ، فقالوا له ما الشىء الذى إذا صلح صلح كل شىء من الانسان وإذا فسد فسد كل شىء من الانسان ؟ فقال هو القلب ، فقام داود فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله تعالى أمرنى أن أستخلف عليكم سليمان قال فضجت بنو اسرائيل وقالوا غلام حدث يستخلف علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم ، فبلغ ذلك داود عليه السلام فدعا رؤساء أسباط بنى اسرائيل وقال لهم . إنه قد بلغنى مقالتكم فأرونى عصيكم فأى عصا أثمرت فان صاحبها ولى هذا الأمر بعدى ، قالوا قد رضينا فجاءوا بعصيهم فقال لهم داود ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه فكتبوا ، ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه ثم أدخلت بيتا وأغلق عليها الباب وسد بالأقفال وحرسه رءوس أسباط بنى اسرائيل ، فلما أصبح صلى بهم الغداة ثم أقبل ففتح الباب فأخرج عصيهم كما هى وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت : قالوا فسلموا الأمر فى ذلك لداود عليه السلام ، فلما رأى ذلك داود حمد الله وحمل سليمان خلفه ثم سار به فى بنى اسرائيل فقال إن هذا خليفتى عليكم من بعدى .

قال وهب بن منبه لما استخلف داود ابنه سليمان عليهما السلام وعظه فقال : يابنى إياك والهزل فان نفعه قليل ويهيج العداوة بين الاخوان وإياك والغضب فان الغضب يستخف بصاحبه وعليك بتقوى الله وطاعته فانهما يغلبان كل شىء وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شىء فان ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا برآء إقطع طمعك عن الناس فان ذلك هو الغنى وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل وعود نفسك ولسانك الصدق والزم الاحسان فإن استطعت أن يكون يومك خيرا من أمسك فافعل وصل صلاة مودع ولاتجالس السفهاء

ولا ترد على عالم ولا تماره فى الدين وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض وتحول من مكانك وارج رحمة الله فانها وسعت كل شيء .

قالوا ثم إن سليمان بعد أن استخلف أخفى أمره وتزوج بامرأة واستتر عن الناس وأقبل على العلم والعبادة ، ثم ان امرأته قالت له ذات يوم بأبى أنت وأمى ما أكمل خصالك وأطيب رائحتك ولا أعلم لك خصلة أكرهها إلا أنك فى مؤنة أبى ، فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله لرجوت أن لا يخيبك الله ،فقال سليمان : إنى ما عملت عملا قط ولا أحسنه ، ثم إنه دخل السوق صبيحة يومه ذلك فلم يقدر على شيء، فرجع فأخبرها فقالت غدا يكون إن شاء الله ، فلما كان اليوم الثانى مضى حتى انتهى إلى ساحل البحر فاذا هو بصياد ، فقال له : هل لك أن أعينك وتعطينى شيئا قال نعم.قال فأعانه فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين فأخذهما وحمد الله تعالى ، ثم إنه شق بطن إحداهما فاذا هو بخاتم فى بطنها ، فأخذه وصره فى ثوبه وحمد الله عز وجل وأخذ السمكتين وجاء بهما إلى منزله ففرحت امرأته بذلك ، فأخرج الخاتم ولبسه فى اصبعه فعكفت عليه الطير والريح ووقع عليه بهاء الملك ، ثم لم يلبث أبوه أن مات فلما مات حمل المرأة وأباها إلى إصطخر والله اعلم .

باب فى ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الشيخ أبو يزيد : سمعت الشيخ أبا عمرو الفارابى يروى أن داود عليه السلام كانت له وصيفة تغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام ويقبل داود على ورده فى العبادة ، فأغلقت ذات ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما فى وسط الدار فقالت له ما أدخلك هذه الدار فان صاحبها رجل غيور فخذ حذرك ، فقال لها أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذنهم . قال فلما سمع داود ذلك وكان فى المحراب واقفا يصلى فزع واضطرب وقال لها على به فأتاه ، فقال له داود ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير إذن ؟ فقال له أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذن ، فقال له اذا فأنت ملك الموت قال نعم قال أفجئت داعيا أم ناعيا ، فقال بل ناعيا ، فقال داود عليه السلام فهلا أرسلت إلى قبل ذلك وآذنتنى لأستعد للموت ، فقال كم أرسلت اليك فلم تنتبه . قال ومن كانت رسلك التى أرسلت إلى ؟ فقال ياداود أين أبوك ايشا وأين أمك أين أخوك وأين جارك أين قهارمتك أين فلان وفلان ، فقال ماتوا كلهم فقال أما علمت أنهم رسلى اليك وأن النوبة تبلغك .

قال الأستاذ رضى الله عنه وفى هذا المعنى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لايزال المرء ينعى أخاه حتى يكونه وقد يرجو الرجاء فيحول الموت دونه ، وقد نظمه بعض الشعراء فقال .

وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

وإذا وليت أمور قوم مدة فاعلم بانك عنهم معزول

وقال أهل التاريخ كان عمر داود عليه السلام مائة سنة وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقد مضى في قصة آدم وما وهب لداود من عمره عليهما السلام .

مجلس في قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق به

قال الله تعالى ــ وورث سليمان داود ــ يعني نبوته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنا .

وقال مقاتل : كان سليمان عليه السلام أعظم ملكا من أبيه داود وأقضى منه ، وكان داود عليه السلام أشد تعبدا من ابنه سليمان ، وكان سليمان حين آتاه الله الملك والحكمة ابن ثلاث عشرة سنة وكان ملكه مابين الشام الى إصطخر وقيل انه ملك الأرض كلها .

وروى مجاهد عن ابن عباس . قال ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين وأما الكافران فالنمروذ بن كنعان وبختنصر .

باب في صفة حليته عليه السلام

قال وهب بن منبه وكعب الاحبار : كان سليمان أبيض جسيما وضيئا جميلا كثير الشعر يلبس من الثياب البيض وكان خاشعا متواضعا يخالط المساكين ويجالسهم ويقول مسكين جالس مسكينا وكان أبوه في أيام ملكه يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه ووفور عقله وعلمه صلى الله على نبينا وعليه وسلم .

باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه من أنواع المناقب والمواهب وغير ذلك

قال الله تعالى ــ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ــ وقال الله تعالى إخبارا عنه ــ رب اغفرلي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي إنك أنت الوهاب ــ ، فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحدا من خلقه قبله ولا بعده فمنها تسخير الله له الريح كما قال عز وجل ــ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ــ أي أراد بلغة حمير .

قال محمد بن اسحق وغيره من أصحاب الأخبار : كان سليمان عليه السلام رجلا غزاء لا يكاد يقعد عن الغزو وكان لا يسمع بملك في ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله ويقهره وكان إذا أراد الغزو أمر بعسكره فيضرب له خشب ثم ينصب له على الخشب سريرا ثم يحمل عليه الناس والدواب

وآلة الحرب كلها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت تلك الخشب فحملتها حتى إذا أقلتها أمر الرخاء فمرت به شهرا فى غدوته وشهرا فى روحته الى حيث أراد كما قال تعالى ــ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ــ وقال ابن اسحق ذكر لى أن رجلا نزل منزلا من ناحية الدجلة فوجد فيه كتابا مكتوبا كتبه بعض أصحاب سليمان إما من الجن أو من الانس نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون ان شاء الله تعالى فبائتون الشام . قال وكان فيما بلغنى تمر بعسكر الريح الرخاء تهوى به الى حيث أراد وإنها لتمر بالمزرعة فلا تحركها ، وأخبرنا الحسن بن محمد بن فتحويه باسناده عن وهب بن منبه عن أبيه . قال ان سليمان عليه السلام ركب الريح يوما فمرت بحراث فنظر اليها الحراث وقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فحملت الريح كلامه وألقته فى أذن سليمان عليه السلام فنزل حتى أتى الحراث وقال له انى سمعت قولك وانما نزلت اليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ، ان تسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود ، فقال له الحراث أذهب الله همك كما أذهبت همى .

وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاث آلاف كرسي من الذهب والفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظلهم الطير بأجنحتها لئلا تقع عليهم الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومسيرة شهر من الرواح الى الصباح .

أخبرنا ابن فتحويه باسناده عن محمد بن كعب القرظى . قال : بلغنى أن عسكر سليمان عليه السلام كان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للانس وخمسة وعشرون منها للجن وخمسة وعشرون منها للوحوش وخمسة وعشرون منها للطيور ، وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيها ثلثمائة سرير وسبعمائة امرأة فيأمر الريح العاصفة فتحمله ويأمر الرخاء فتسير به ، فأوحى الله تعالى اليه وهو سائر بين السماء والأرض انى قد زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح به اليك فأخبرتك به .

ومنها تعليم الله له كلام الطير حتى النمل كما قال الله تعالى ــ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ــ الآية .

قال ابن فتحويه باسناده عن كعب الأحبار قال : صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون مايقول قالوا لا فقال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة عند سليمان فقال أتدرون ماتقول قالوا لا قال انها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون مايقول ؟ قالوا لا قال انه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال انه يقول استغفروا الله يامذنبون فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله قال وصاح الطيطوى فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال انه يقول كل حى ميت وكل جديد بال قال وصاح خطاف فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال انه يقول قدموا خيرا تجدوه

فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله وهدرت حمامة فقال أتدرون ماتقول قالوا لا قال انها تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه وصاح قمرى فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال انه يقول سبحان الحى الذى لايموت أبدا وصاح غراب فقال أتدرون مايقول ؟ قالوا لا قال فانه يلعن العشارين والحدأة تقول كل شيء هالك إلا وجهه والقطا تقول من سكت سلم والعنقاء تقول ويل لمن الدنيا همه والبازى يقول سبحان ربى الأعلى وبحمده والضفدع يقول سبحان ربى القدوس والعصفور يقول سبحان المذكور بكل مكان .

وأخبرنا ابن ميمون باسناده عن مكحول قال صاح دراج عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وباسناده عن صالح المروى عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « الديك اذا صاح يقول اذكروا الله ياغافلون » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على عليهم السلام أنه قال اذا صاح النسر يقول يا ابن آدم عش ماشئت فان آخرك الموت واذا صاح العقاب قال فى البعد عن الناس أنس واذا صاح القنبر قال اللهم العن مبغضى آل محمد واذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القارئ .

وقال فرقد السنجى مر سليمان ببلبل فوق شجرة وهو يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول هـذا البلبل ؟ قالوا الله ورسوله أعـلم . قال انه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء .

وأخبرنا أبو عبد الله بن حامد باسـناده عن ابن مسعود عن أبيه . قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى سفرة فمررنا بشجرة فيها فرخا حمـامة فأخذناهما فجاءت الحمامة وشكت الى النبي صلى الله عليه وسـلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم من فجع هذه الحمامة بفرخيها ؟ فقلنا نحن فقال ردوهما الى موضعهما .

وروى أن قنبرة باضت فى طريق سليمان عليه السـلام فقال الذكر للأنثى ألم أنهك أن تبيضى فى طريق سليمان الملك لو ركب الينا لحطم بيضنا ، فقالت الأنثى ويحك ان نبى الله أرحم بنا من ذلك ، فسمع سليمان قولهما فبعث اليهما جنيا حين أراد أن يركب وقال اجعل بيضهما تحت رجليك واياك أن تصيبه بشىء فلما مر سليمان فى موكبه وجاوزهما قالت الأنثى ألم أقل لك ان نبى الله أرحم بنا من ذلك ، فقال الذكر للأنثى عندى للملك هدية قالت وما عندك ؟ قال عندى جرادة ادخرتها لولدى فقالت الأنثى عندى تمرة ادخرتها لولدى . قال فأخذا التمرة والجرادة ثم طارا حتى وقفا بين يدى سليمان وهو على سريره فى مجلسه فوضعاهما بين يديه وسجدا له فدعا لهما ومسح بيده على رءوسهما ، فيروى أن هذه القشرة التى على رأس القنبر من مسح سليمان عليه السلام إياها .

قال ومر سليمان بموكبه على نملة فقالت النملة سبحان الله العظيم ما أعظم ما أوتى آل داود فتبسم

سليمان من قولها وفسر قولها لجنوده ثم قال ألا أنبئكم بخبر هو أعجب من هذه النملة ؟ قالوا بلى قال تقول اتقوا الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الغضب والرضا .

وروى أن سليمان عليه السلام خرج يوما يستسقى ومعه الانس والجن فمر بنملة عرجاء ناشرة جناحها رافعة يديها وهى تقول : اللهم انا خلق من خلقك لاغنى لنا عن رزقك فلا تؤاخذنا بذنوب بنى آدم واسقنا ، فقال سليمان لمن معه ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وحكى أن نملة دبت على سليمان فحملها ورمى بها فوقعت النملة فقالت ماهـذه الصولة وما هذا البطش أماعلمت أنى أمة من أنت عبده فغشى على سليمان فلما أفاق قال ائتونى بها فأتوه بها فسألها فقالت له جلدى رقيق وبدنى ضعيف وأخذتنى ورميتنى ، فقال لهـا سليمان اجعلينى فى حل فإنى لم أقصد ذلك فقالت بشرط أن لاتنظر الى الدنيا بعين الشهوة ولاتستغرق فى شهواتك وضحكك ولا يستعين أحد بجاهك إلا بذلته له قال قد فعلت ذلك قالت فأنت فى حل .

ومنها قصـة وادى النمل قال الله تعالى ـ وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ـ أى يحبس أولهم على آخرهم ـ حتى اذا أتوا على وادى النمل ـ الآية قال الشعبى وكعب وغيرهما من أهل الكتب : ان سليمان عليه السلام كان اذا ركب حمل أهله وحشمه وخدمه وكتابه فى مركبه الذى هيء له وقد اتخذ فيه مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد وقدورا عظاما يسع كل قدر عشرة من الجزر وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وتجرى الدواب بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى بهم فسار من إصطخر الى اليمن وتوغل فى البادية فسلك على مدينة الرسول ﷺ ، فقال سليمان هذه دار هجرة نبى يبعث فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به واتبعه ، ثم أتى أرض الحرم فرأى حول البيت أصناما تعبد من دون الله فجاوز البيت فلما جاوزه سليمان بكى البيت فأوحى الله تعالى الى البيت مايبكيك ؟ فقال يارب هذا نبى من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا علىّ فلم يهبطوا بى ولم يصلوا عندى ولم يذكروك بحضرتى وهذه الأصنام تعبد حولى من دونك . قال فأوحى الله تعالى اليه لاتبك فانى سوف أملؤك وجوها سجدا لى وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك فى آخر الزمان نبيا هو أحب الأنبياء الىّ وأجعل فيك عبادا من خلقى يعبدوننى وأفرض على عبادى فريضة يزفون بها اليك زفا مثل زفيف النسور إلى أوكارها ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها والحمامة الى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان ، ثم أمر الله سليمان عليه السلام أن ينزل عليه ويصلى فيه ويقرب عنده قربانا ففعل ذلك قال فذبح عند الكعبة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن حضر من أشراف قومه ان هذا المكان يخرج منه نبى عربى ويعطى النصر على جميع من ناوأه ويكون السيف على رقبة من خالفه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء لاتأخـذه فى الله لومة لائم فطوبى لمن أدركه وصدقه قالوا فكم بيننا وبين خروجه يانبى الله ؟ قال قريب من ألف عام . قال ثم ان سليمان مضى

حتى أتى على وادى السدير واد من الطائف فأتى على وادى النمل فقامت نملة تمشى وكانت عرجاء تتكاوس وكانت مثل الذئب العظيم . وقال الشعبي : كانت ذات جناحين .

واختلفوا فى اسمها : فأخبرنى ابن ميمونة باسناده عن الضحاك . قال كان اسم نملة سليمان طاخية وقيل حرمى فنادت لما رأت سليمان فى موكبه — يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون — وكان لايتكلم خلق إلاحملته الريح وألقته فى مسامع سليمان . قال مقاتل: فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال — فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى — الآية .

وفى بعض الأخبار : أن سليمان لما سمع قولها نزل عليها وقال ائتونى بها فأتوه بها . فقال لها لم حذرت النمل هل سمعتم أنى ظالم ؟ أما علمتم أنى نبى عدل ؟ فلم قلت لا يحطمنكم سليمان وجنوده ؟! قالت النملة يا نبى الله أما سمعت قولى وهم لايشعرون مع أنى ما أردت حطم النفوس وانما أردت حطم القلوب خشيت أن يتمنين ما أعطيت فيفتتن ويشتغلن بالنظر اليك عن التسبيح فقال لها عظينى فقالت له النملة هل علمت لم سمى أبوك داود قال لا ؟ قالت لأنه داوى جراحة قلبه ثم قالت وهل تدرى لم سميت سليمان قال لا ؟ قالت لأنك سليم ركنت الى ما أوتيت بسلامة صدرك وحق لك أن تلحق بأبيك داود . ثم قالت أتدرى لم سخر الله تعالى لك الريح ؟ قال لا ، قالت ليخبرك أن الدنيا كلها ريح — فتبسم ضاحكا من قولها — متعجبا — وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى — الآية .

أخبرنى ابن ميمونة باسناده عن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد والصرد والنحلة والنملة .

ومنها قصة العنقاء فى اثبات القضاء والقدر . أخبرنا أبو محمد عبدالله بن حامد باسناده عن محمد بن جعفر الصادق قال : عاتب سليمان الطير فى بعض عتابه فقال لها انك لتأتين كذا وتفعلين كذا فقالت والله رب السماء والثرى انا لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله يأتى إلى منتهى علمه وقدره ، قال صدقت لاحيلة فى القضاء ، فقالت العنقاء لست أومن بهذا فقال لها سليمان ألا أخبرك بأعجب العجب قالت بلى ، قال إنه ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق هذا ولد ملك كبير وهذه ابنة ملك والجارية والولد يجتمعان فى أمنع المواضع بقدرة الله تعالى وأهولها على سفاح فى جزيرة فى وسط البحر ، فقالت العنقاء يانبى الله أوقد ولد هذان الولدان المذكوران قال نعم الليلة ؟ قالت فهل أخبرت بهما من هما وما اسمهما واسم أبيهما ، قال بلى اسمهما كذا وكذا واسم أبيهما كذا وكذا فقالت العنقاء يانبى الله أنا أبطل القدر وأفرق بينهما فقال لها سليمان انك لاتقدرين على ذلك قالت بلى ؟ فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة فمرت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عظما ووجهها وجه انسان ويداها يدا انسان وثدياها ثديا امرأة وأصابعها كذلك فحملت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيا فأبصرت

كل دار ومافيها وكل انسان وأبصرت الجارية وهى فى مهدها وقد أجلسوها فاختلست الجارية من المهد وطارت بها حتى انتهت الى جبل شاهق فى السماء فى جوف البحر وسط جزيرة وفى الجزيرة شجرة عالية لاينالها طائر إلا بجهد طيرانه ولها أغصان عظيمة تزيد على ألف غصن كل غصن كأعظم ما يكون من شجر الأرض كثيرة الورق فاتخذت لها وكرا فى وسط الشجرة نجيبا واسعا مضيئا وطيئا وأرضعتها وحضنت الجارية تحت جناحها وصارت تأتيها بأنواع الطعام والشراب وتحفظها من البرد والحر وتؤنسها بالليل ولاتخبر أحدا بشأنها كى يتم أمرها وهى تغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها فعلم سليمان بذلك ولم يبده لها فبلغ الغلام مبلغ الرجال وصار ملكا من ملوك الدنيا وكان يلهو بالصيد ويحبه ويطلبه فصار لايقر ليلا ولا نهارا وكان أبوه ملكا عظيما فلما رأى الملك ولده لاهيا بالصيد لم يزجره عنه حتى نال منه منالا طويلا وأمرا عظيما فقال يوما لأصحابه كل صيد البر وفلواته ومفازاته قدنلت منه فلو ركبت البحر فأنال من صيده فانه كثير الصيد وكثير العجائب فقال له المشيرون من وزرائه نعم مارأيت وهو أكثر شيء من خلق الله صيدا وعجائب فأمر الغلمان بتجهيز مايحتاجون اليه وهيأ السفن وجعل يأخذ من كل شيء يملكه وأخذ من الوزراء والمشيرين والغلمان والجوارى والطباخين والخبازين والدواب والبزاة والصقور وكلاب الماء وجميع مايحتاجون اليه مما يريده ويشتهيه من الملاهى وركب السفن ومر فى البحر كذلك يتصيد ويتلذذ بالفرح ولايعرف شيئا غير ذلك حتى سار مسيرة شهر فأرسل الله تعالى على سفينته ريحا خفيفة فضربتها وساقتها حتى قربت من جزيرة العنقاء والجارية وهى مسيرة خمسين سنة فى منتهى خمسين ليلة كل ليلة مسيرة سنة ثم ركدت سفينته باذن الله تعالى وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة فأخرج رأسه من ناحية ونظر فاذاهو بجبل شاهق فى وسط جزيرة فى البحر فى لون الزعفران طويلة لا يدرى أين منتهاها ولا عرضها واذاهو بشجرة خضراء فى رأس الجبل ملتفة كثيرة الأغصان والأوراق ورقها فى عرض آذان الفيلة تفوح بريح الأقحوان ليس لها ثمر بيضاء الساق فقال لأصحابه انى أرى عجبا أرى جبلا شاهقا فى وسط جزيرة لم أر مثله ولامثل طوله ولاعرضه وأرى شجرة فيها كل حسن قد أعجبنى منظرها ثم انه حرك سفينته وجاء بها الى الجزيرة التى فيها الجبل وأرساها عندها وقال لأصحابه أقيموا ههنا حتى أمضى وأبصر هذه الجزيرة وهذا الجبل الذى فى وسطها هل عمارة أو أثر آدمى فى تلك الجزيرة وآتيكم بخبرها ثم انه نزل من السفينة هو ورفقته وداروا فى الجزيرة فلم يروا فيها أثر عمارة ولاخبر بها آدمى قبله ثم إنه صعد الى رأس الجبل فرأى أصل الشجرة وكانت الجارية قدنظرت إلى السفينة وهى جارية فلم تعرف ماهى لأنها أخذت صغيرة ولم تدر ما السفن فبقيت متعجبة وليس عندها أحد تسأله عن ذلك ، فبينما هى متفكرة فى أمر السفينة اذاحس حديث الآدميين فأخرجت رأسها من الوكر فنظرت يمينا وشمالا فلم تر أحدا فنظرت فى أصل الشجرة فاذا بالغلام ورفقته فتعجبت منهم لمارأت من حسنهم وجمالهم وكيف وصلوا الى ذلك الموضع وان الغلام لمابلغ أصل الشجرة نظر يمينا وشمالا وبقى متعجبا من عظم تلك الشجرة

ورفعها فى السماء وصار ينظر إلى أغصانها وكانت الجارية قد أخرجت رأسها لتنظر إلى السفينة فحانت منها التفاتة إلى أصل الشجرة فوقعت عينها فى عين الغلام فرأى الغلام صورتها ورأى عجبا من عظم جمالها وكثرة شعرها وذوائبها فقال لها الغلام بلسان فصيح أجنية أنت أم انسية قالت لا والله أنا من خيار الانس فمن أنت فأفهمها لغته فقالت لا أدرى ماتقول وما أنت إلا انى أرى وجهك كوجهى وكلامك ككلامى وانى لا أعرف شيئا غير العنقاء وهى أمى التى ربتنى وحضنتنى وهى تأتينى كل ليلة وتسمينى بنتها فقال لها الغلام وأين العنقاء فقالت هى فى نوبتها فقال الغلام وما نوبتها قالت تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتقيم عنده إلى الليل ثم تجيئنى وتحدثنى بكل مايحكم به سليمان وانه لملك عظيم على ماتصفه لى أمى العنقاء من ملكه وانها تخبرنى أنه أحسن الناس وجها وأتم خلقا منى قال فارتعد الغلام ثم قال عرفته وهو الذى قتل أبى وسبى دولته وانى لمن طلقائه وممن يؤدى اليه الخراج وقد سخر الله له الطير والرياح ثم بكى الغلام ساعة فقالت له الجارية مايبكيك ؟ قال وحدتك فى مثل هذا الموضع الذى لا أنس فيه ولا أحد وان مثلك فى الدنيا عدد الشجر والمدر وكلهم فى مقاصير الذهب والفضة والعيش الهنىء والرغد واللذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعمون ويتوالدون الأولاد مثل خلقك وخلق أرأيت ان هاجت الريح فأزعجتك من وكرك من يمنعك أن تقعى فى البحر وان وقعت فى البحر فمن ذا الذى يخرجك قال ففزعت الجارية من قوله قالت وكيف يكون معى أنسى مثلك يحدثنى بمثل حديثك ويحفظنى مما ذكرت فقال لها الغلام أولا تعلمين أن الله اتخذ سليمان نبيا وسخر له الريح والطير هو الذى رحمك وساقنى اليك لأكون لك إلفا وصاحبا وأنيسا وانى لمن أولاد الملوك فقالت له الجارية وكيف تصيرلى أو أصير اليك وان العنقاء هذه تروح وتجىء وتحضننى الى صدرها بين جناحيها فقال لها الغلام تكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتك هذه فاذا جاءت اليك وقالت لك ماتجيبين وماتريدين وما شأنك فأخبريها بوحدتك فى نهارك ثم انظرى ما يكون من ردها عليك فأخبرينى بذلك ففعلت وان العنقاء رجعت اليها فوجدتها باكية حزينة ، فقالت لها يابنية مالك ؟ فقالت الوحدة والوحشة قتلتنى وانى لمنزعجة على نفسى من ذلك ، فقالت لها يابنية لاتخافى ولا تحزنى فانى أستأمر سليمان عليه السلام أن آتيه يوما ويوما لا آتيه فيكون ذلك أنسا . فلما أصبحت أخبرت الغلام بجوابها ، فقال لها أو تصبرين على ذلك ؟ لا ولكنى سأنحر من دوابى هذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج مافيه وأطيبه بطيب معى وأدخل أنا فى جوفه وألقيه على رأس سفينتى هذه فاذا جاءتك العنقاء تقولين لها أرى عجبا أرى خلقة ملقاة على كوثل هذه السفينة فلو اختطفتيها وحملتيها الى فكانت معى فى وكرى فأنظر اليها وآنس بها كان أحب الى من كونك عندى نهارا وإمساكك عن أخبار سليمان وأخبار المسلمين فلما رجعت العنقاء وجدتها على حالها وكان سليمان قد شغل عنها فلم تصل اليه فى استئذانها إياه فى المقام يوما والغدو يوما ، فقالت لها يابنية ان نبى الله قد اشتغل عنى اليوم بالحكم بين الآدميين فلم أصل اليه قالت لها إنى لا أريد أن تتخلفى عنه نهارا لمكان أخبار سليمان

وأخبار المسلمين ، وإنى أرى عجبا فى البحر أرى شيئا مرتفعا فما هو ؟ قالت لها العنقاء هذه سفينة قوم سيارة راكبين فى البحر قالت فما الذى أراه ملقى على رأس هــذه السفينة ؟ قالت دابة ميتة ألقوها قالت فاحتمليها الىّ لأستأنس بها وأنظر اليها فانقضت العنقاء فاختطفت الفرس وكان الغلام فى بطنها فحملتها الى عشها ، فقالت الجارية يا أماه ما أحسنه وضحكت ففرحت العنقاء بذلك وقالت يابنية لو علمت لكنت أتيتك بمثل هذا منذ حين ، ثم انها طارت الى نوبتها عند سليمان فخرج الغلام من بطن الفرس فلاعبها ولا مسها وافتضها وأحبلها من ساعتها وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به وكان سليمان عليه السلام قد جاءه الخبر باجتماعهما من قبل الريح وأن العنقاء راحت وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير وحكمهم ، فجلس سليمان عليه السلام للطير فى مرتبته ودعا بعرفاء الطير وأمرها أن لا تدع طيرا إلا حشرته اليه فحشرت اليه جميع الطيور ثم أمر عرفاء الجن أن يحشروا قبائل الجن من سكان البحار وسكان الجزائر والهواء والمغارات والفلوات والأمصار فحشروا اليه وأمر الشياطين فأحضرت كذلك ، وكذلك الانس كهيئتهم ثم كل دابة تدب على وجه الأرض فاشتد الخوف وقالوا فى انفسهم نشهد بالله أن نبى الله قد أهمه أمر عظيم فأول سهم قد خرج فى تقديم الطير سهم الحدأة وكانت الطير لا تتقدم الا بالسهام وكذلك الجن والشياطين فتقدمت الحدأة تدعى على زوجها وكان قد جحد ولدها ، فقالت يانبى الله انه سفدنى حتى إذا احتضنت بيضى وأخرجت ولدى جحدنيــه فقال سليمان للذكر ماتقول فقال يانبى الله انها لا تمتنع من الطير وهى تحوم البرارى فلا أدرى هل هو منى أو من غيرى. قال فأمر سليمان بولدها فجىء به فوجد الشبه واحدا فألحقه بالذكر ثم قال لهـا لا تمكنيه من السفاد حتى تشهدى عليه بذلك الطير بالصراخ فانه لا يجحدك بعــدها أبدا إلى يوم القيامة فهى إذا سفدها ذكرها صاحت وقالت ياطيور سفدنى اشهدوا معاشر الطيور اشهدوا ثم خرج سهم العنقاء فتقدمت اليه فقال لهــا سليمان ما قولك فى القدر فقالت يانبى الله لى من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وأفعل الخير فقال لهــا سليمان فأين الشرط الذى كان بينى وبينك زعمت أنك تفرقين بقوتك واستطاعتك بين الجارية والغلام فقالت قد فعلت قال سليمان الله أكبر فائتنى بها الساعة والخلق شهود لأعلم صدق قولك ثم أمر عريف الطير أن يكون معها لا يفارقها حتى تأتى بها فمرت العنقاء حتى قربت من الجارية وكانت الجارية إذا قربت منهــا العنقاء تسمع خفيف أجنحتهــا فيبادر الغلام ويدخل جوف الفرس فلما رأتها البنت قالت لها كالفزعة ان لك شأنا إذ رجعت من ساعتك قالت لهــا أى لعمرى ان لى شأنا . هذا سليمان قد أمر باحضارك الساعة لأمر كان بينى وبينه فى أمرك وإنى لأرجو نصرتى اليوم فيك قالت لها كيف تحمليني قالت على ظهرى قالت وهل أستقر على ظهرك وإنى أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزال فأسقط وأهلك قالت فى منقارى قالت فكيف أصبر فى منقارك قالت لها وكيف أصنع ولا بد لى من احضارك عند سليمان وهذا عريف الطير معى وقد دعا بكفيلى

البومة . فقالت لها أدخل فى جوف هذا الفرس ثم ترفعينه على ظهرك أوفى منقارك فلا أرى شيئا ولا أسقط ولا أفزع من شىء . قالت أصبت. قال فدخلت جوف الفرس واجتمعت مع الغلام ، وحملت العنقاء الفرس فى منقارها وطارت حتى وضعت الفرس بين يدى سليمان عليه السلام . فقالت يانبىّ الله هى الآن فى جوف الفرس فأين الغلام ؟ فتبسم سليمان طويلا ثم قال لها أتؤمنين بقضاء الله وقدره وأنه لا حيلة لأحد فى دفع قضائه وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشر فقالت أو من بالله وأقول إن المشيئة إلى العباد والقوة فمن شاء فليفعل خيرا أو شرا قال سليمان كذبت ما جعل الله من المشيئة للعباد شيئا ، ولكن من شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا ولا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وقدره بحيلة لا بفعل ولا بعلم وان الغلام الذى قد ولد بالمغرب مع الجارية التى ولدت بالمشرق قد اجتمعا الآن فى مكان واحد على سفاح . وقد حملت الجارية من الغلام بولد فقالت العنقاء لاتقل يانبى الله هذا فان الجارية معى فى جوف هذا الفرس فقال سليمان : الله أكبر أين البومة المتكفلة بالعنقاء ؟ قالت ها أنا يانبى الله . قال سليمان أنت على مثل قول العنقاء قالت نعم فقال سليمان قدر الله السابق قبل الخلق أخرجهما على قضائه ومشيئته قال فأمر البومة ففتحت جوف الفرس وأخرجتهما جميعا من جوف الفرس .

فأما العنقاء ففزعت وذهبت وطارت فى السماء فأخذت نحو المغرب واختفت فى بحر من بحاره وآمنت بالقدر وحلفت لا تنظر فى وجه طير أبدا استحياء منه .

وأما البومة فانها لزمت الآجام والجبال وقالت أما بالنهار فلا خروج لى ولا سبيل الى المعاش فهى اذا خرجت نهارا وبختها الطير واجتمعت عليها وقالت لها ياقدرية فهى تخضع لهذا، وهذا ما كان من شأن العنقاء والبومة فى القضاء والقدر والله أعلم بالغيب .

ومنها تخصيص الله تعالى سليمان عليه السلام بالخيل الجياد العراب التى أخرجها له من البحر فى قول أكثر أهل الأثر قال الله تعالى ـ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ـ والصافنات الخيل القائمات على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل والجياد السراع قال الحسن : بلغنى أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة ، وقال الكلبى غزا سليمان أهل نصيبين فأصاب منهم ألف فرس . وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، وكان أبوه أصابها من العمالقة قالوا فصلى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه فعرض عليه منها تسعمائة فاشتغل بحسنها وكثرتها والاعجاب بها حتى غابت الشمس وفاتته صلاة العصر ولم يعلمه أحد بذلك هيبة له ، فاغتم لذلك وقال ردوها على فردوها فعرقبها وعقرها بالسيف وقربها إلى الله تعالى وبقى منها مائة فرس ، فما فى أيدى الناس من الخيل العراب فهى من نسل تلك المائة .

وقال كعب : كانت الأفراس أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها وسوقها بالسيف وقتلها

فسلب الله ملكه أربعة عشر يوما لأنه ظلم الخيل بقتلها . قال الحسن فلما عقر الخيل لأجل الله تعالى أبدله الله تعالى مكانها خيرا منها وأسرع وهى الريح تجرى بأمره رخاء كيف يشاء غدوها شهر ورواحها شهر وكان يغدو من إيلياء فيقيل فى أصطخر ثم يروح منها فيبيت ببابل .

ويروى أن سليمان سار من أرض العراق غاديا فقال بمدينة مرو وصلى العصر بمدينة بلخ تحمله الريح وتظله الطير بخيله وجنوده ، ثم سار من مدينة بلخ متخللا بلاد الترك ، ثم جاوزها إلى أرض الصين ثم عطف يمينه على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض الهند ، ثم خرج منها إلى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما ، ثم غدا منها فقال بكسكر ، ثم رجع إلى الشام وكان مستقره مدينة تدمر وكان قد أمر الشياطين قبل خروجه من الشام إلى العراق أن يبنوا له تدمر فبنوها بالصفائح والعمد والرخام الأبيض والأصفر وفى ذلك يقول الشاعر :

واذكر سليمان إذ قال المليك له   قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيش الجيش انى قد أبحت لهم   بناء تدمر بالأحجار والعمد

قال ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض كسكر أنشأها بعض أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام :

ونحن ولاحول سوى حول ربنا   نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان أمر رواحنا   مسيرة شهر والغدو لآخر
أناس سروا والله طوع نفوسهم   لنصرة دين للنبى المطهر
لهم فى معالى الدين فضل ورأفة   وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى ركبوا الريح المطيعة أسرعت   مبادرة عن شهرها لم تقصر
تظللهم طير صفوفا عليهم   متى رفرفت من فوقهم لم تفتر

[رجعنا إلى القصة] وقال قوم من العلماء : معنى قوله تعالى ـ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ـ حبسها فى سبيل الله وكوى سوقها بميسم الصدقة وقال الزهرى مسح سوقها وأعناقها من الغبار . قال وهى رواية الواقدى عن ابن عباس قال : وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم ان الله أمر الملائكة الموكلين بالشمس حتى ردوها على سليمان وصلى العصر فى وقتها .

حدثنا أبو عبد الله عقيل الأنصارى باسناده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب انى خالق منك خلقا فأجعله عزا لأوليائى ومذلة لأعدائى وجمالا لأهل طاعتى ، فقالت الريح : إلهى وسيدى ومولاى إنى مطيعة فقبض منها قبضة فخلق فرسا وقال له : خلقتك عربيا وجعلت الخير معقودا بناصيتك والغنائم مجموعة على ظهرك وعطفت عليك صاحبك وجعلتك تطير بلا جناح

فأنت للطلب وأنت للهرب ، وسأجعل على ظهرك رجالا يسبحونى ويحمدونى ويكبرونى فتسبحنى إذا سبحوا وتهللنى إذا هللوا وتكبرنى إذا كبروا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن تسبيحة وتحميدة وتمجيدة وتكبيرة يكبرها صاحبها فتسمعها الا تجيبه بمثلها » قال فلما سمعت الملائكة صفتها ونظروا خلقتها قالوا ربنا نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك فماذا لنا ؟ فخلق الله لهم خيلا بلقا أعناقها كأعناق البخت ، فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض واستوت قدماه عليها صهل ، فقيل له بوركت من دابة إذ بصهيلك أذل الله المشركين وأذل بك أعناقهم وملأ بك آذانهم وأرعب بك قلوبهم ، فلما عرض الله تعالى على آدم من كل شىء قال له اختر من خلقى ما شئت فاختار الفرس فقيل له اخترت عزك وعز ولدك خالدا ما خلدوا وباقيا ما بقوا بركتى عليك وعليهم ما خلقت خلقا أحب إلى منك ومنهم .

ومنها قوله تعالى ــ وأسلنا له عين القطر ــ أذبناله عين النحاس أسيلت ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكانت بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرجه الله لسليمان عليه السلام .

ومنها تسخير الله تعالى له الجن والانس والطير والوحوش والشياطين يعملون له مايشاء كما قال الله تعالى ــ ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ــ وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته ، فمما عملت له الشياطين بأمره وأحدثوه له الحمامات والطواحين والقوارير والصابون وأشياء كثيرة واحتفروا له نهر الملك وألقوا ترابه بين خانقين وقصر شيرين ومما عملوا له الغياصة كما قال الله تعالى ــ ومن الشياطين من يغوصون له ــ الآية وقال تعالى ــ والشياطين كل بناء وغواص ــ وكانوا يغوصون فى البحار ويستخرجون أنواع اللآلىء والدر والمرجان وسائر الجواهر البحرية ، وكانوا يستخرجون له اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة من المعادن وهم أول من فعل ذلك .

حديث القبة

قال وهب بن منبه : بينما سليمان عليه السلام على ساحل البحر والريح من تحته والانس عن يمينه والجن عن شماله والطير تظله إذ نظر إلى عظم أمواج البحر فدعته نفسه أن يعلم ما فى قعر البحر فأمر الريح فسكنت من تحته ، ثم قعد على كرسى ملكه ثم دعا رأس الغواصين فقال له : اختر لى من أصحابك مائة رجل فاختار له مائة رجل فقال له اختر لى من المائة ثلاثين فاختار له ثلاثين فقال اختر لى من الثلاثين عشرة فاختار له عشرة فقال اختر لى من العشرة ثلاثة فاختار له ثلاثة فقال لواحد منهم غص حتى تنظر إلى قعر البحر وتأتينى بالخبر فقال له سمعا وطاعة لك يانبى الله فغاص البحر وأبعد ثم خرج فقال له سليمان ما الذى رأيت ؟ قال يانبى الله مارأيت الا أمواجا وحيتانا غير أنى

رأيت ملكا عظيما فقال لى أين تريد فقلت له إن نبي الله سليمان أرسلنى أنظر له قعر هذا البحر فقال ارجع إليه فاقرأ عليه منى السلام وقل له إن قوما ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاما فعاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه فسقط من أحدهم قدوم فهو يتجلجل فى البحر ولم يبلغ قعره بعد فرجع إليه وأخبره بالخبر فتعجب نبي الله سليمان عليه السلام من ذلك ولها عما كان قصد ، قال : فبينما هو على شاطىء البحر إذ رأى قبة من زجاج تضربها الأمواج فى لجة البحر فعارضها وقال للغواصين غوصوا فى أثرها فغاصوا فأخرجوها فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح لها بابان بمصراعين وخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن وكان رأسه تقطر ماء فجاء حتى وقف بين يدى سليمان فقال له سليمان يافتى أمن الجن أنت أم من الانس ؟ قال بل من الانس قال فتعجب سليمان منه ومن زيه ثم قال له مابلغ بك ما أرى فقال يانبى الله كانت لى والدة وكنت من أبر الناس بها أطعمها وأسقيها بيدى ولا أترك شيئا من صنائع البر الاصنعته بها فلما حضرتها الوفاة سألتها أن تدعولى فرفعت رأسها إلى السماء وقالت يارب قدعرفت بر ولدى بى فارزقه العبادة فى موضع لا يكون لإبليس وجنوده عليه سبيل ثم ماتت فدفنتها فخرجت يوما إلى ساحل البحر فاذا أنا بهذه القبة فدعتنى نفسى أن أدخلها فلما دخلتها انطبقت على أبوابها وتزاخرت الأمواج بها وكان هذا آخر عهدى يانبى الله فقال له سليمان فمن أين مطعمك ومشربك ؟ فقال يانبى الله إذا كان الليل جاءنى طائر أبيض فى منقاره شىء أبيض فيدفعه إلى فآكله فهو يقيتنى من الطعام والشراب فقال له سليمان فمن أين تعرف الليل والنهار وأنت فى ظلمة هذا البحر قال يانبى الله فى القبة خيطان خيط أبيض وخيط أسود فاذا رأيت الخيط الأبيض زائدا علمت أنه النهار وإذا رأيت الخيط الأسود زائدا علمت أنه الليل فقال له سليمان هل لك فى صحبتنا رغبة ؟ قال لا يانبى الله إن تشأ تأذن لى أن أعود إلى قبتى فأذن له فانطلق ودخلها وانطبق عليه بابها وتزاخرت به الأمواج فكان آخر العهد به .

ومنها قوله تعالى ـ يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ـ يقال إنها الحياض كانت تسع الجفنة الواحدة طعام ألف رجل فيجتمعون عليها يأكلون بين يديه ـ وقدور راسيات ـ ثابتات لا تزول يسع القدر الواحدة عشرة جزر .

قصة مدينة سليمان عليه السلام التى كان يسافر بها فى الهواء

ومما عملوا له مدينة من قوارير عشرة آلاف ذراع فى عشرة آلاف ذراع فيها ألف سقف مابين كل سقفين عشرة أذرع فى كل سقف جميع ما يحتاج اليه من المساكن والقباب والمرافق أسفلها أغلظ من الحديد وأعلاها أرق من الماء يرى من داخلها ما وراء خارجها من صفائه ونقائه والشمس بالنهار والقمر بالليل وعلى السقف الأعلى قبة بيضاء عليها علم أبيض يستضىء به فى الليل الداجى العسكر كله يتلألأ شعاعه مد البصر وبها من الأركان ألف ركن على مناكب الشياطين تحت كل ركن منها

عشرة من الشياطين تسع سليمان وجنوده وحشمه وأولياءه علوا وسفلا تحملها الريح إلى حيث يشاء وكانت تلك المدينة له مستقرا يأكل ويشرب وينام ويتمتع بها وفى أسفلها مرابط وإصطبلات وأوارى وأواخي لخيله ودوابه . ومما عملوا له كرسى ملكه .

صفة كرسى سليمان عليه السلام

قال الله تعالى - وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب - يروى أن نبي الله سليمان عليه السلام أمر الشياطين باتخاذ كرسى يقعد عليه للقضاء وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت قال فعملوا له كرسيا من أنياب الفيلة وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر وحفوه بأربع نخلات من الذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر على رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب بعضها مقابل بعض وجعلوا من جانب الكرسى أسدين من ذهب على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش الكروم والنخل الكرسى قالوا وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسى ورجله فيها ويدور دوران الرحى المسرعة وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وكذلك يفعل فى كل درجة يصعدها سليمان فاذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين المسك والعنبر يفتانهما عليه ثم تتناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسى التوراة فتفتحها لسليمان فيقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء، قال وتجلس عظماء بنى اسرائيل على كراسى الذهب والفضة المفصصة بالجواهر وهى ألف كرسى على يمينه وتجىء عظماء الجن فيجلسون على كراسى الفضة عن يساره وهى ألف كرسى حافين به جميعا ثم تظلهم الطير وتتقدم الناس إليه للقضاء فاذا دعا بالبينات وتقدمت الشهود لاقامة الشهادات دار الكرسى بجميع مافيه وما حوله دوران الرحى المسرعة . قال معاوية لوهب بن منبه ماالذى كان يدير ذلك الكرسى ؟ قال بلبلان من ذهب وذلك الكرسى مما عمله صخر الجنى قالوا فاذا دار الكرسى يبسط الأسدان أيديهما ويضربان الارض بأذنابهما وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما فتفزع منه الشهود ويداخلهم من ذلك رعب شديد فلا يشهدون إلا بالحق ، فهذا شأن كرسى سليمان عليه السلام وعجائب ما كان فيه ، فلما توفى سليمان عليه السلام بعث بختنصر فأخذ ذلك الكرسى وحمله الى أنطاكية فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله فلما وضع قدميه على الدرجة السفلى رفع الأسد يده اليمنى فضرب ساقه ضربة شديدة دقها ورماه فحمل بختنصر فلم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات وبقى الكرسى بأنطاكية حتى غزاهم ملك من الملوك يسمى كداش بن سداس فهزم خليفة بختنصر ورد الكرسى إلى بيت المقدس فلم يستطع أحد من الملوك الجلوس عليه ولا الاستمتاع به

موضع تحت الصخرة فغاب ولم يعرف خبره ولا يدرى أين هو والله أعلم . ومنها بيت المقدس .

صفة بنيانه وبدء أمره

قال الله تعالى ـ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ الآية وقال تعالى ـ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ـ قيل بالمياه والأشجار والثمار وقيل إن كل ماء عذب يخرج من تحت أصل الصخرة التى ببيت المقدس يهبط من السماء إليها ثم يتفرق فى الأرض وذلك قوله تعالى ـ باركنا فيها للعالمين ـ :

وروى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صخرة بيت المقدس على نخلة من نخيل الجنة وتلك النخلة على نهر من أنهار الجنة على ذلك النهر آسية بنت مزاحم ومريم ابنة عمران رضى الله عنهما ينظمان حلى أهل الجنة إلى القيامة » وأما بدء بناء بيت المقدس ، وصفة بنائه على ما ذكره أهل البصيرة بالسير هو أن الله تعالى بارك فى نسل ابراهيم حتى جعلهم فى الكثرة غاية لا يحصون ، فلما كان زمان داود عليه السلام لبث فيهم مدة مديدة بأرض فلسطين وهم يزدادون كل يوم كثرة فأعجب داود بكثرتهم وأراد أن يعلم عدد بنى اسرائيل كم هم فأمر بعدهم وبعث بذلك عرفاء ونقباء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما يبلغ من عددهم فكانوا يعدون زمانا من الدهر حتى عجزوا فبعث الله جبريل عليه السلام وأوحى إليه ياداود قد علمت أنى وعدت أباك ابراهيم يوم أمرته بذبح ولده فصبر وأتم أمرى بأن أبارك له فى ذريته حتى يصيروا بعدد نجوم السماء وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم فأردت أن تعلم عددهم إنه لا يحصى عددهم غيرى وإنى قد أقسمت لأبتلينهم ببلية يقل منها عددهم ويذهب عنك إعجابك بهم وبكثرتهم فاختاروا إما أن أبتليكم بالجوع والقحط ثلاث سنين أو أسلط عليكم عدوكم ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام فجمع داود بنى اسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيرهم فيه فقالوا أنت أعلم بما هو أيسر لنا وأنت نبينا فانظر لنا غير أن الجوع لا صبر لنا عليه وتسليط العدو أمر فاضح فان كان ولا بد فالموت لأنه بيده لا بيد غيره فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت فاغتسلوا وتحنطوا ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد بالذرارى والأهلين وأمرهم أن يضجوا إلى الله تعالى ويتضرعوا إليه لعله أن يرحمهم فأرسل الله إليهم الطاعون فأهلك منهم فى يوم وليلة ألوفا كثيرة لا يدرى عددهم ولم يفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر فلما أصبحوا فى اليوم الثانى خر داود عليه السلام ساجدا لله تعالى يبتهل إلى الله تعالى ويقول : يارب أنا آكل الخل الحامض وبنو اسرائيل يضرسون يعنى أذنبت وبنو اسرائيل يعاقبون فما كان من شىء فنى أنزله واعف عن بنى اسرائيل فاستجاب الله دعاءه وكشف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت فرأى داود عليه السلام الملائكة سالين سيوفهم فغمدوها وارتقوا فى سلم من ذهب فى

صخرة بيت المقدس إلى السماء ، فقال داود لبنى إسرائيل ان الله تعالى قد من عليكم ورحمكم فجددوا له شكرا قالوا فكيف تأمرنا قال آمركم أن تتخذوا فى هذا الصعيد الذى رحمكم الله فيه مسجدا لايزال فيه منكم ومن بعدكم ذاكر لله تعالى فأخذ داود فى بنائه فلما أرادوا أن يبتدئوا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف اخلاصهم فى بنائهم فقال لبنى اسرائيل إن لى فيه موضعا أنا محتاج إليه ولا يحل لكم أن تحجبونى عن حقى فقالوا ياهذا مامن أحد من بنى اسرائيل إلا وله فى هذا الصعيد حق مثل حقك فلا تكن أبخل الناس ولا تضايقنا فيه فقال أنا أعرف حقى وأنتم لاتعرفون حقكم فقالوا له أما ترضى وتطيب نفسك وإلاأخذناه منك كرها فقال لهم أتجدون هذا فى حكم لله وحكم داود ، قال فرفع خبره الى داود عليه السلام فقال أرضوه فقالوا بكم نأخذه منه يانبى الله قال خذوه بمائة شاة فقال الرجل زدنى يانبى الله قال داود خذوه بمائة بقرة قال زدنى قال بمائة بعير قال زدنى يانبى الله فانما تشتريه لله تعالى والله كريم لايبخل فقال داود حيث قلت هذا فاحتكم أعطكه قال تشتريه بحائط مثله زيتونا ونخلا وعنبا قال نعم فقال الرجل أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخل قال سل ماشئت قال أنت أكرم على الله منى ولكن ابن لى حوله جدارا مشرفا ثم تملؤه ذهبا وإن شئت ورقا قال داود هذا هين فالتفت الرجل الى بنى اسرائيل وقال لهم هذا هو التائب المخلص ثم قال لداود يانبى الله لأن يغفر الله لى ذنبا واحدا أحب الى من كل شىء وهبت لى ولكنى كنت اختبرتكم فجدوا فى بناء بيت المقدس وكان ذلك فيما قيل لاحدى عشرة سنة مضت من ملك داود ، وكان داود ينقل الحجارة على ظهره وكذلك أخيار بنى اسرائيل حتى رفعوه قامة وعجزوا فأوحى الله تعالى اليه ان هذا بيت مقدس وانك رجل سفاك الدماء ولست بانيه ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أسلمه من سفك الدماء وأقضى اتمامه على يديه ويكون صيته وذكره وأجره لك باقيا فصلوا فيه زمانا إلى أن توفى داود عليه السلام واستخلف سليمان فأمره الله تعالى باتمام بيت المقدس فجمع سليمان الجن والانس والشياطين وقسم عليهم الأعمال وخص كل طائفة بعمل يصلح لها وأرسل الجن والشياطين فى تحصيل عمل الرخام والبلور الأبيض الصافى من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثنى عشر ربضا لكل ربض منها سبط من الأسباط وكانوا اثنى عشر سبطا فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا فريق منها يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنه وفريق يغوصون فى البحر ويستخرجون أنواع الدر وفريق يقطعون أنواع الرخام وفريق يغوصون على الجواهر وفريق يأتون بالمسك والعنبر وأنواع الطيب من أماكنها فأتى بشىء من ذلك لايحصيه إلا الله تعالى ، ثم إنه أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحا واصلاح تلك الجواهر ونقشها فكانوا يعالجونها فتصوت صوتا شديدا لصلابتها فكره سليمان تلك الأصوات فدعا الجن وقال لهم هل عندكم حيلة فى نحت هذه الجواهر من غير تصويت فقالوا

يانبي الله ليس فى الجن أكثر تجارب ولا أكثر علما من صخر العفريت فأرسل اليه من يأتيك به فطبع سليمان بخاتمه طابعا وكان يطبع للشياطين بالنحاس ولسائر الجن بالحديد وكان إذا طبع بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف فكان لايراه أحد من جن ولا شيطان إلا انقاد إليه باذن الله تعالى فأرسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه به وهو فى بعض جزائر البحر فأروه الطابع فلما نظر إليه كاد أن يصعق خوفا فأقبل مسرعا مع الرسل حتى دخل على سليمان فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت فى طريقه فقالوا يانبي الله إنه كان يضحك فى بعض الأحايين من الناس فقال له سليمان مارضيت بتمردك على وتركك المجيء إلى طاعتى حتى صرت تسخر من الناس فقال يانبي الله إنى لست أسخر منهم غير أن ضحكي كان تعجبا مما كنت أسمع وأرى فى طريقى فقال له سليمان وما ذاك قال مررت على شط نهر فوجدت رجلا ومعه بغلة يريد أن يسقيها وجرة يريد أن يستقى بهافسقى البغلة وملأ الجرة ثم أراد أن يقضى حاجته فشد البغلة بأذن الجرة فنفرت البغلة وكسرت الجرة فضحكت من حمق الرجل حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة ومررت أيضا برجل آخر وهو جالس عند إسكاف يستعمله فى اصلاح خف له فسمعته يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين ونسى نزول ملك الموت اليه من قبله فضحكت من قلة عقله وجهله ومررت بعجوز تتكهن وتخبر الناس بما لا يعلمون من أمور السماء وقد كنت عهدت رجلا دفن فى موضع فراشها ذهبا كثيرا فى الدهور الخالية فرأيتها تموت جوعا وتحت رأسها ذهب كثير وهى لاتعلم بمكانه ثم تخبر الناس بأمر السماء فضحكت منها ومررت برجل فى بعض المدن وقد كان به داء فيما قيل فأكل البصل فبرأ من دائه فصار يطلب الناس وكان لا يأتيه أحد يسأله عن علة إلا أمره بأكل البصل وإنه لأضر شيء حتى ان ضرره يصل الى الدماغ فضحكت منه ومررت فى بعض الأسواق فرأيت الثوم وهو أفضل الأدوية يكال كيلا ورأيت الفلفل وهو من السموم القاتلة يوزن وزنا فضحكت ومررت بناس قد جلسوا يبتهلون إلى الله ويسألونه الرحمة والمغفرة ثم قام منهم قوم فقاموا وجاء آخرون فجلسوا فرأيت الرحمة قد نزلت عليهم وأخطأت الذين كانوا من قبل وغشيت الذين جاءوا فضحكت تعجبا للقضاء والقدر، فقال له سليمان هل علمت من كثرة تجاربك وجولانك فى البحار شيئا ينحت لى هذه الجواهر فتلين ويسهل نحتها وثقبها بلا صوت ؟ قال نعم يانبي الله أعرف حجرا أبيض كاللبن يقال له السامور غير أنى لا أعرف معدنه الذى هو فيه وليس فى الطير شيء أحيل ولا أهدى من العقاب فأمر بفراخه أن تجعل فى صندوق من تلك الجواهر فانه يأتى بذلك الحجر فيضرب به الصندوق حتى يثقبه ليصل الى أولاده قال فأمر سليمان بفراخ العقاب أن تضم فى صندوق من حجر منها يوما وليلة فحجب عن أفراخه فمر مسرعا وجاء بالحجر بعد يوم وليلة فثقب به الصندوق حتى وصل الى أفراخه فوجه سليمان مع العقاب نفرا من الجن حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه الكفاية واستعمل ذلك فى أدوات الصناع فسهل عليهم نحتها من

غير صوت وهو حجر يستعمل فى نقش الخواتيم وثقب الجواهر الى اليوم وهو ثمين عزيز قالوا فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده من المها الصافى وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وأنواع الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يوجد يومئذ فى الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضىء فى الليل كالقمر فى ليلة البدر ، فلما فرغ منه جمع اليه أحبار بنى اسرائيل وأعلمهم أنه بناه لله تعالى وكل شىء منه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيدا لم يتخذ فى الأرض قط أعظم عيد من ذلك اليوم ولا أطعمة أكثر منه فذبح فيه من الجزر ألف جزور ومن البقر خمسة وعشرين ألفا معلوفة ومن الغنم أربعمائة ألف شاة . قالوا ومن عجائب ما اتخذه سليمان ببيت المقدس أنه بنى بيتا وطين حائطه بالجص وصقله فكان إذا دخله البار استبان خياله فى ذلك الحائط أبيض واذا دخله الفاجر استبان خياله فى ذلك الحائط أسود فارتدع من ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره منها شىء ومن مسها من غيرهم احترقت يده ، فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس قرب قربانا على الصخرة ثم قال اللهم أنت وهبت لى هذا الملك منامنك على وجعلتنى خليفتك على أرضك وأكرمتنى به من قبل أن أكون شيئا فلك الحمد ، اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خصالا أن لا يدخله أحد يصلى فيه ركعتين مخلصا فيهما الا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ولا يدخله مذنب إلا تبت عليه ولا خائف الا أمنته ولا سقيم الا شفيته ولا مجدب الا أخصبته وأغنيته ، واذا أجبت دعوتى وأعطيتنى طلبتى فاجعل علامته أن تتقبل قربانى . قال : فنزلت نار من السماء فسدت ما بين الخافقين ثم امتد منها عنق فاحتمل القربان وصعد به إلى السماء وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام إلى أن غزا بختنصر بنى اسرائيل فخرب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وكبسه بالتراب ونقل جميع ما فيه من الذهب والفضة والجواهر والآنية الى أرض بابل ، وكان بيت المقدس خرابا إلى أن بناه المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره والله أعلم .

باب قصة بلقيس ملكة سبأ والهدهد وما يتصل به

قال الله تعالى ـ وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ـ الآية ، قالت العلماء بأخبار القدماء : إن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واصطحب معه من الناس والجن والشياطين والطيور والوحش ما بلغ عسكره مائة فرسخ وأمر الريح الرخاء فحملتهم فلما وافوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وقرب القرابين وقضى المناسك وبشر أهله بخروج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرهم انه سيد الأنبياء وخاتم النبيين وأن ذلك مثبت فى زبورهم ، ثم أحب أن يسير الى أرض اليمن فخرج من مكة صباحا وسار نحو اليمن يؤم نجم

سهيل فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغدى فطلبوا الماء فلم يجدوه وكان الهدهد دليله وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده ، فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الاهاب يستخرجون الماء . قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ اذا غطي له بقدر أصبع من تراب ؟ قال ويحك إذا جاء القدر عمي البصر . وروى قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « أنهاكم عن قتل الهدهد فانه كان دليل سليمان على الماء » فطلب سليمان الهدهد فلم يجده فتوعده ، ثم إن الهدهد لما جاء قال ـ وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم ـ الآية وذلك أنه لما نزل سليمان قال الهدهد في نفسه إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع إلى نحو السماء لو نظر إلى طول الدنيا وعرضها ونظر يمينا وشمالا فرأى بستان بلقيس فمال إلى الخضرة فوقع فيها فاذا هو بهدهد اليمن فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عفير فقال عفير ليعفور من أين أقبلت والى أين تريد ؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام فقال له الهدهد ومن سليمان ابن داود ؟ قال ملك الجن والانس والشياطين والوحوش والرياح فمن أين أنت قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة قال فما اسمها قال يقال لها بلقيس وان لصاحبكم سليمان ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها ملكة اليمن كله وتحت يدها اثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف مقاتل والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها قال فاني أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء فقال الهدهد اليماني إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها وما رجع إلى سليمان إلا وقت صلاة العصر قال فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد ، وذلك أنه نزل على غير ماء فسأل الانس عن الماء فقالوا لا نعلم ههنا ماء فسأل الجن والشياطين فقالوا لا نعلم فتفقد عند ذلك الهدهد فلم يجده فتوعده .

قال ابن عباس في بعض الروايات عنه : وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته الى موضع فغضب عند ذلك سليمان وقال ـ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ـ واختلف العلماء في العذاب الشديد ما هو ؟ فقال أكثر المفسرين : كان عذابه أن ينتف ريشه وذنبه ويدعه ممعطا ثم يلقيه في بيت النمل فتلدغه . وقال الضحاك : لأنتفنه ولأشدن رجليه ولأشمسنه وقال مقاتل : لأطلينه بالقطران ولأشمسنه ، وقيل لأودعنه القفص ، وقيل لأفرقن بينه وبين الفه . وقيل لأمنعنه من خدمتي ـ أو ليأتيني بسلطان مبين ـ أي حجة واضحة .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان في القرآن حجة ، قال ثم دعا العقاب سيد الطيور

فقال له عليّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم فنظر يمينا وشمالا ، فاذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد أن العقاب يريده بسوء ناشده الله وقال بحق الذى قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتني ولا تتعرض لي بسوء ، قال فولى العقاب عنه وقال له ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهيا إلى العسكر تلقاهم النسر والطير كله وقالوا له أين غبت فى يومك هذا فلقد توعدك نبي الله سليمان وأخبروه بما قال ، فقال الهدهد وما استثنى نبيّ الله قالوا بلى إنه قال — أو ليأتيني بسلطان مبين — فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه ، فقال العقاب قد أتيتك به يانبي الله ، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وألقى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا لسليمان فمد سليمان يده إلى رأسه فجبذها وقال أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا فقال له الهدهد يانبيّ الله اذكر وقوفك بين يدى الله ، فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه .

أخبرنى الحسين بن محمد الثقفى باسناده عن عكرمة فقال : انما صرف سليمان عن ذبح الهدهد بره بوالديه ثم سأله ما الذى أبطأك عنى قال الهدهد ما أخبرالله به — أحطت بما لم تحط به — أى علمت مالم تعلم به — وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء — واسمها بلقيس بنت البشرخ وهو الهذهاذ ، وقيل هى بلعمة بنت شراحيل بن ذى جدن بن البشرخ بن الحارث ابن قيس بن صنعاء بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبو بلقيس الذى يسمى البشرخ ويلقب بالهذهاذ ملكا عظيم الشأن وكان ملك أرض اليمن كلها وكان يقول للملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤا لى وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر وكانت الانس اذ ذاك ترى الجن وتخالطهم فولدت له بلعمة وهى بلقيس ولم يكن له ولد غيرها وتصديق هذا ما أخبر به ابن ميمونة باسناده عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان أحد أبوى بلقيس جنيا » قالوا فلما مات أبو بلقيس ولم يخلف ولدا غيرها طمعت فى الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون فاختاروا عليها رجلا فملكوه عليهم وافترقوا فرقتين كل فرقة منهم استولت على طرف من أرض اليمن ، ثم ان هذا الرجل الذى ملكوه أساء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمدّ يده الى حرم رعيته يفجر بهنّ فأراد أصحابه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت اليه وعرضت نفسها عليه فأجابها الملك الى ذلك ، وقال مامنعنى أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك فانك كفؤ كريم فاجمع رجالى وقومى واخطبنى منهم فجمعهم وخطبها منهم ، فقالوا لا نراها تفعل هذا . فقال إنما هى التى ابتدأتنى وانى أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها ، فلما جاءوها وذكروا لها ذلك قالت نعم إنى أحببت الولد ولم أجبه منذ كنت أرغب عن هذا والساعة قد رضيت له

فزوجوها منه ، فلما زفت اليه خرجت فى أناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصت منازله ودوره بهم ، فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل الى منزلها ، فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب على باب داره علموا أن تلك المناكحة كانت مكرا وخديعة منها فاجتمعوا اليها وقالوا لها: أنت أحق بهذا الملك من غيرك فقالت لولا العار والنار ماقتلته ولكن رأيته قد عم فساده فأخذتنى الحمية ففعلت به ما فعلت فملكوها واستثبت أمرها فى المملكة . وروى ابن ميمونة باسناده عن الحسن بن على عن أبى بكر . قال ذكرت بلقيس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » قالوا فلما ملكت بلقيس اتخذت قصرا وعرشا .

صفة القصر الذى بنته بلقيس

قال الشعبى : روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل اليها خمسمائة أسطوانة من رخام طول كل أسطوانة خمسون ذراعا فأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت فيها سقفا منظومة بألواح الرخام وألحم بعضها الى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد ، ثم بنت فوق ذلك قصرا مربعا من آجر وجص فى كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة فى الهواء وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة مرصعة بألوان الجواهر المربعة وجعلت فيه : أى فى باب ذلك القصر مما يلى المدينة برجا من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر ، وفى جوانبه حجر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

صفة عرشها

كان مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت الحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر ، وله أربع قوائم ، قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من در أصفر وصفائح السرير من الذهب وعليه سبعون بيتا وعلى كل بيت باب مغلق ، وكان طوله ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراع فى الهواء فذلك قوله عز وجل — وأوتيت من كل شىء — أى مما تحتاج اليه فى الملك من الآلة والعدة — ولها عرش عظيم — أى سرير ضخم حسن — وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله — وذلك أنها قالت لوزرائها ما كان يعبد آبائى الماضون ، قالوا كانوا يعبدون إله السماء ، قالت وأين هو ؟ قالوا هو فى السماء وعلمه فى الأرض ، قالت فكيف أعبده وأنا لا أراه ولست أعرف شيئا أشد من نور الشمس فهى أولى ما ينبغى لنا عبادته فعبدت الشمس من دون الله تعالى وحملت قومها على عبادتها وكانوا يسجدون لها اذا طلعت واذا غربت .

قال : فلما قال ذلك الهدهد لسليمان . قال له سليمان ـ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ثم ان الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وهى الآبار التى لم تطو يبطن كل واد فروى الناس والدواب وكانوا قد عطشوا ، ثم كتب سليمان كتابا من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم ـ السلام على من اتبع الهدى ـ أما بعد ـ أن لا تعلوا علىّ واتونى مسلمين ـ قال ابن جريج وغيره ولم يزد سليمان على ماقصّ الله تعالى فى كتابه شيئا وكان أبلغ الناس فى كتابه وأقله إملاء ، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة السلام كانوا يكتبون جملا ولا يطيلون كتابا ولا يكثرون ، قالوا فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ، وقال للهدهد ـ اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم ـ وكن قريبا منهم ـ فانظر ماذا يرجعون ـ أى يردون من الجواب فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به الى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام فوافاها فى قصرها وقد غلقت الأبواب وكانت اذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ومضت الى فراشها فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على ظهرها فألقى الكتاب على نحرها هذا قول قتادة ، وقال مقاتل ، حمل الهدهد الكتاب بمنقاره وطار حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب فى حجرها ، وقال وهب بن منبه : كانت لها كوة ، يعنى طاقة مستقبلة للشمس تقع الشمس فيها حين تطلع ، فاذا نظرت اليها سجدت لها ، فجاء الهدهد الى تلك الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فاستبطأت الشمس فقامت تنظرها فرمى الصحيفة فى وجهها قالوا فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة كاتبة عربية من قوم تبع بن شراحيل الحميرى ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت أن الذى أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها ، وقالت إن ملكا تكون رسله الطير لملك عظيم فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد ، ثم إنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قيل تحت يد كل قيل منهم مائة مقاتل وكانت تكلمهم من وراء الحجاب ، فاذا حزبها أمر أسفرت عن وجهها ، فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم ، قالت لهم بلقيس : إنى ألقى الىّ كتاب كريم : أى شريف لشرف صاحبه ، وقال الضحاك : سمته كريما لأنه كان مختوما يدلّ عليه ما أخبرنى به أبو حامد الوراق باسناده عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كرم الكتاب ختمه » وقيل سمته كريما لأنه مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم ، فذلك قوله تعالى ـ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على واتونى مسلمين ـ ثم قالت ـ ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ـ أوأشيروا على فيما عرض لى ـ ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ـ أى تحضرون ، فقالوا مجيبين لها ـ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ـ عند الحرب ـ والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ـ تجدينا لأمرك طائعين ، فقالت لهم بلقيس حين عرضوا أنفسهم للحرب

ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أدلة ـ أى أهانوا أشرافها وكبراءها لكى يستقيم لهم الأمر فصدق الله قولها ، فقال ـ وكذلك يفعلون ـ أنشدنى أبو القاسم الجنيد فى هذا المعنى . قال أنشدنى أبى فى معناه :

ان الملوك بلاء حيثما حلوا . فلا يكن لك فى أكنافهم ظل
ماذا تأمل من قوم اذا غضبوا جاروا عليك وان أرضيتهم ملوا
وان مدحتهم خالوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما ان الوقوف على أبوابهم ذل

قال الله تعالى مخبرا عنها ـ وإنى مرسلة اليهم بهدية ـ وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الملأ من قومها وجربت الأمر وساسته ـ إنى مرسلة اليهم ـ الى سليمان وقومه بهدية أصانعه عن ملكى وأختبره بها أملك أم نبى ، فان يك ملكا قبل الهدية وانصرف ، وان يك نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه ، ثم إنها أهدت اليه وصفاء ووصائف . قال ابن عباس : ألبستهم لباسا واحدا حتى لا يكون يعرف الذكر من الأنثى ، وقال مجاهد : ألبست الغلمان لباس الجوارى وألبست الجوارى لباس الغلمان . واختلفوا فى عددهم ، فقال الكلبى عشرة جوار وعشر غلمان ، وقال مقاتل مائة وضيف ومائة وصيفة ، وقال مجاهد مائتا غلام ومائة جارية ، وقال وهب خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ، وأرسلت اليه أيضا بصفائح الذهب واختلفوا فى كيفيتها وعددها .

أخبرنى ابن ميمونة أيضا باسناده عن ثابت البنانى فى قوله تعالى ـ وإنى مرسلة اليهم بهدية ـ قالت أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموهوا له الآجر بالذهب، ثم أمر به فألقى فى الطريق فى كل مكان فلما جاءوا رأوه ملقى فى الطريق فى كل مكان ، قالوا قد جئنا نحمل شيئا نراه ههنا ملقى لا يلتفت اليه فصغر فى أعينهم ما جاءوا به ، وقيل كانت أربع لبنات من ذهب

وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتب عمدت بلقيس الى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام ، فألبست الجوارى لباس الغلمان الأقبية والمناطق ، وألبست الغلمان لباس الجوارى ، وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقا من ذهب ، وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر ، وحملت الجوارى على خمسمائة فرس والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من الديباج الملون ، وبعثت اليه أيضا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت اليه أيضا بالمسك والعنبر والعود والألنجوج وعمدت الى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزع خرزة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية ، وقالت

فى الكتاب : إن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء وأخبرنا بما فى الحقة قبل أن تفتحها واثقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل خيطا فى الخرزة ، ثم أمرت بلقيس الغلمان ، فقالت لهم : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجوارى أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم انها قالت للرسول : انظر الى الرجل اذا دخلت عليه ، فان نظر اليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيته رجلا بشاشا لطيفا فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم كلامه ورد الجواب فانطلق الرسل بالهدايا ، فلما رأى الهدهد ذلك أقبل مسرعا الى سليمان وأخبره بالخبر كله فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنا من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ، ثم أمرهم أن يبسطوا له من موضعه الذى هو فيه الى تسع فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة ، وأن يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ، فقال لهم : أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر فقالوا : يانبى الله إنا رأينا فى بحر كذا دواب مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواص ، فقال : سليمان : علىّ بها الساعة فأتوه بها ، فقال : شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفة فيها ، ثم قال للجن . على بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره ، ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسى عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره ، فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا الى ملك سليمان ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت اليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا .

وفى بعض الروايات أن سليمان عليه السلام لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة وأمرهم أن يتركوا فى طريقهم على قدر اللبنات التى معهم ، فلما رأت الرسل موضع اللبنات خاليا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يتهموهم بذلك فطرحوا مامعهم فى ذلك المكان .

قال : فلما جاءوا إلى الميدان ورأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا منهم ، فقيل لهم : جوزوا فلا خوف عليكم . قال : فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان عليه السلام فنظر اليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق ، وقال : ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطوه كتاب الملكة ، فلما نظر اليه وقرأه ؟ قال لهم : أين الحقة فأتى بها فحركها ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما فى الحقة . فقال : إن فيها درة ثمينة بلا ثقب وخرزة مثقوبة معوجة الثقب . فقال له الرسول : صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرزة ، فقال سليمان عليه السلام : من لى بثقبها فسأل الإنس فلم

يكن عندهم علم ذلك . ثم سأل الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الشياطين ، فقالوا له : أرسل الى الأرضة فأرسل اليها ، فلما أتت أخذت شعرة فى فيها ومرت فى الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : سلى حاجتك . قالت : أن تصير رزقى فى الشجر ، قال لك ذلك ، ثم قال : من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط ؟ فقالت : دودة بيضاء أنالها يانبى الله ، فأخذت الدودة خيطا فى فيها ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان ماحاجتك ؟ فقالت أن تصير رزقى فى الفواكه . قال لها لك ذلك ، ثم انه ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية باحدى يديها ثم تجعله فى اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه والغلام يأخذه من الإناء بيديه ويضرب به وجهه ، وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد ، وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرا فميز بينهم بذلك ، ثم رد سليمان الهدية كلها ، وقال — أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون — لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة فى الدنيا ولا تعرفون غير ذلك ، وليست الدنيا من حاجتى لأن الله تعالى قد مكننى منها وأعطانى مالم يعط أحدا من العالمين فيها ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمنى بالنبوة والحكمة ، ثم انه قال للمنذر بن عمرو أمير القوم — ارجع إليهم بالهدية فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون — إن لم يأتونى مسلمين . قالوا فلما رجعت رسل بلقيس اليها من عند سليمان وأخبروها . قالت : والله ماهذا بملك ومالنا به من طاقة ، فبعثت الى سليمان عليه السلام إنى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ماأمرك وما تدعو اليه من دينك ، ثم ان بلقيس أمرت بعرشها فجعل فى سبعة أبيات : بعضها داخل بعض فى آخر قصر من قصورها ، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم انها قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكى فلا تخلص إليه أحدا ولا يراه حتى آتيك ، ثم إنها أمرت مناديا ينادى فى أهل مملكتها ليؤذنهم بالرحيل ، ثم شخصت الى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يد كل قيل مائة ألف مقاتل . قال ابن عباس . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا لايبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه ، فخرج يوما فجلس على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه ، فقال ماهذا ؟ قالوا بلقيس يارسول الله . قال : أو قد نزلت منا بهذا المكان ؟ قالوا نعم .

قال ابن عباس : وكان مابين الكوفة والحيرة قدر فرسخ فأقبل سليمان على جنوده وقال : — أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين — أى طائعين خاضعين .

واختلف العلماء فى السبب الذى لأجله أمر سليمان باحضار العرش ، فقال أكثرهم لأن سليمان علم أنها اذا أسلمت حرم عليه مالها ، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه باسلامها.

وقال قتادة : لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد فأراد أن يراه قبل أن يراها ، وقيل ليريها قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه فى معجزة يأتى بها فى عرشها — قال عفريت من الجن — وهو المارد القوى — أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك — أى مجلسك الذى تقضى فيه . قال ابن عباس : كان له غداة كل يوم مجلس يقضى فيه الى نصف النهار .

واختلفوا فى اسمه ، فقال وهب : انه كودى ، وقال شعيب : انه كوذان — وإنى عليه لقوى — أى قوى على حمله — أمين — على مافيه من الجواهر . فقال سليمان : أريد أسرع من هذا ، — فقال الذى عنده علم من الكتاب — . واختلفوا فيه ، فقال بعضهم : هو جبريل عليه السلام ، وقال آخرون : ملك من الملائكة أيد الله به نبيه عليه السلام . وقال آخرون : بل كان رجلا من بنى آدم . ثم اختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا بن شمعيا بن ملكيا وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى .

أخبرنا ابن ميمونة باسناده عن ابن عباس قال ان آصف قال لسليمان حين صلى ودعا الله تعالى مد عينيك حتى ينتهى طرفك ، قال فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون الأرض خدا حتى انخرقت الأرض بالسرير فنبع بين يدى سليمان .

واختلف العلماء فى الدعاء الذى دعا به آصف بن برخيا عند الاتيان بالعرش ، فروى عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها أن الاسم الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا : ياحى ياقيوم ، وروى عن الزهرى قال : دعاء الذى عنده علم من الكتاب يا إلهنا وإله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . وقال مجاهد : ياذا الجلال والإكرام .

حدثنا ابن ميمونة باسناده عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح ، وكان فى جزيرة من جزائر البحر فخرج ذلك اليوم ينظر مساكن الأرض وهل يعبد الله أو لا يعبد فوجد سليمان فدعا باسم من أسماء الله تعالى فاذا هو بالعرش قد حمل فأتى به سليمان عليه السلام من قبل أن يرتد اليه طرفه ، وباسناده عن مجاهد قال : حدثنا سهيل بن حرب قال زعم ابن أبى بردة أن اسم الذى عنده علم من الكتاب أسطوم . وقال قتادة : اسمه مليخا ، وقال محمد بن المنكدر : انما هو سليمان آتاه الله علما وفقها قال له عالم من بنى اسرائيل — أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك — فقال سليمان هات ، قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد عند الله أوجه منك ، فان دعوت الله وطلبت منه كان عندك . قال صدقت ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت ، فلما رأى سليمان العرش مستقرا عنده محمولا من اليه من مأرب الى الشام فى قدر ارتداد الطرف وهو مدة يسيرة — قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه — أى لم ينفع بذلك الا نفسه حيث استوجبه

شكره لتمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ـ ومن كفر فان ربى غنى ـ عن شكره ـ كريم ـ الافضال عمن يكفر نعمته ، فقال سليمان عليه السلام ـ نكروا لها عرشها ـ أى زيدوا فيه وانقصوا منه واجعلوا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ـ ننظر أتهتدى ـ الى عرشها فتعرفه ـ أم تكون من الجاهلين ـ الذين لايهتدون اليه أراد أن يختبر عقلها ، وانما حمل سليمان على ذلك ماذكره وهب بن منبه ومحمد بن كعب وغيرهما من أهل العلم أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان ويستولدها فتفشى اليه أسرار الجن فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأرادوا أن يزهدوه فيها فأساءوا الثناء عليها وقالوا له ان فى عقلها شيئا وان رجليها كحافر حمار فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر الى قدميها ببناء الصرح ، فلما جاءت بلقيس ـ قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو ـ فشبهته به وكانت قد تركته خلفها فى بيت سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها .

قال الحسين بن الفضل : شبهوا عليها فشبهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم ، ولو قالوا لها هذا عرشك لقالت نعم ، فقال سليمان : وأوتينا العلم بابتلائها ومجيئها طائعة من قبلها : أى من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين خاضعين لله تعالى هذا قول مجاهد وغيره ، وقال بعضهم هو من قول بلقيس لما رأت عرشها عند سليمان قالت قد عرفت هذا وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان عليه السلام بالآيات المتقدمة من قبلها : أى من قبل هذه الآية ـ وكنا مسلمين ـ أى منقادين لك مطيعين لأمرك من قبل أن جئناك ، فلما وافت سليمان عليه السلام قيل لها ادخلى الصرح وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس تريده أمر الشياطين فبنوا له صرحا : أى قصرا من زجاج كأنه الماء بياضا وأجروا من تحته الماء وألقى فيه السمك ، ثم وضع سريره فى صدره ، وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وانما أمر ببناء الصرح لأن الشياطين قال بعضهم لبعض قد سخر الله لسليمان ماسخر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلاما فلا تنفك من العبودية والسخرة أبدا ، فأرادوا أن يزهدوه فيها . فقالوا ان رجلها رجل حمار وانها شعراء الساقين لأن أمها كانت جنية فأراد سليمان أن يعلم حقيقة ذلك وينظر قدميها وساقيها فأمر ببناء الصرح.

وقال وهب بن منبه : انما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها يعاييها بذلك كما فعلت هى بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء لتميز بين الذكر والأنثى فلما جاءت بلقيس ، قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وهى معظم الماء فكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان عليه السلام : فاذا هى أحسن الناس ساقا وقدما إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها انه صرح ممرد من قوارير وليس بماء ، فلما جلست قالت له ياسليمان إنى أريد أن أسألك عن شىء قال سلى قالت أسألك عن ماء ليس من الأرض ولا من السماء ، وكان سليمان إذا جاءه شىء لا يعلمه سأل عنه الإنس ، فان كان عندهم علم ذلك وإلا سأل الجن

فإن علموا والا سأل الشياطين فسأل الشياطين عن ذلك ، فقالوا ما أهون ذلك أؤمر بالخيل أن تجرى ثم املأ الآنية من عرقها. فقال لها سليمان عرق الخيل ، فقالت صدقت ، ثم قالت أخبرني عن كون ربك فوثب سليمان عن سريره وخرّ ساجدا وصعق فقامت عنه وتفرقت جنوده فجاءه جبريل عليه السلام ، وقال له ياسليمان يقول لك ربك ماشأنك قال ياجبريل ربى أعلم بما قالت ، قال فان الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فترسل اليها والى من حضرها من جنودك وجنودها فتسألها وتسألهم عمّا سألتك عنه ففعل ذلك سليمان فلما دخلوا عليه واستقروا . قال لها عماذا سألتيني قالت عن ماء ليس من أرض ولا من سماء فأجبت . قال : وعن أى شيء سألتيني أيضا ، قالت ماسألتك عن شيء إلا هذا فسأل الجنود ، فقالوا مثل قولها وأنساهم الله تعالى ذلك وكفى الله سليمان الجواب ، ثم إن سليمان دعاها الى الاسلام وكانت قد رأت حال الهدهد والهدية والرسل والعرش والصرح فأجابت وقالت ربّ إنى ظلمت نفسى بالكفر وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

واختلف العلماء : فى أمرها بعد الاسلام ، فقال أكثرهم لما أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوجها فلما همّ بذلك كره لما رأى من شدة كثرة شعرساقها وقال ما أقبح هذا فسأل الإنس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى ، فقالت المرأة مالمسنى حديد قط فكره سليمان الموسى ، وقال إنها تقطع ساقها فسأل الجن ؟ فقالوا لاندرى ، ثم سأل الشياطين فتنكروا عليه وقالوا لاندرى ، فلما ألح عليهم قالوا نحن نحتال لك عليه حتى يكون كالفضة البيضاء فاتخذوا لها النورة والحمام .

قال ابن عباس : انه أول يوم رؤيت فيه النورة فاستنكحها سليمان عليه السلام .

أخبرنى ابن ميمونة بسنده عن أبى موسى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول من اتخذ الحمامات سليمان عليه السلام . فلما التصق ظهره بالجدار . قال أوّاه من عذاب الله تعالى ، قالوا فلما تزوّجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجنّ فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهى سلحين وغمدان وبنيون ، ثم ان سليمان كان يزورها فى كل شهر مرة بعد أن ردّها إلى ملكها ويقيم عندها ثلاثة أيام ثم يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام .

وروى محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه ؛ قال سليمان لبلقيس : لما أسلمت وفرغ من أمرها اختارى رجلا من قومك حتى أزوجك إياه ، قالت ومثلى ينكح الرجال يانبي الله ، وقد كان لى فى ملكى وقومى من السلطان ما كان . قال نعم انه لا يكون فى الاسلام إلا ذاك ، ولا ينبغى لك أن تحرمى ما أحلّ الله لك ، قالت زوجني ان كان ولابد من تبع الأكبر ملك همدان فزوجه إياها ، ثم ردها الى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن فقال له اعمل لذى تبع ما استعملك فيه قال فصنع لذى تبع المصانع باليمن ، ثم لم يزل

بها ملكا يعمل فيها ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام . قال فلما حال الحول وبلغ الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى اذا كان فى جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يامعشر الجن ان سليمان نبى الله قد مات فارفعوا أيديكم قال فعمدت الشياطين الى حجرين عظيمين فكتبوا فيهما كتابا بالمسند يعنى خط الحميرية نحن بنينا سلحين وابنيين وبنينا صرواح ومرواح وفنقون وهندة وهنيدة ودلوم ، وهذه الحصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذى تبع ولولا صارخ بتهامة لما رفعوا أيديهم فانطلقوا وتفرقوا وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام والله أعلم .

باب فى ذكر غزوة سليمان عليه السلام أبا زوجته الجرادة وخبر الشيطان الذى أخذ خاتمه من يده وسبب زوال ملكه

قال الله تعالى — وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب — وروى محمد بن اسحق عن بعض العلماء أن سليمان أخبر أن فى جزيرة من جزائر البحر رجلا يقال له صيدون ملك عظيم الشأن لم يكن للناس اليه سبيل لمكانه فى البحر ، وكان الله قد آتى سليمان فى ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شىء فى بر ولابحر فخرج الى تلك المدينة فحملته الريح على ظهرها حتى نزل عليها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وسبى مافيها فأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها الى الاسلام فأسلمت على يده فى الظاهر على خيفة منه وقلة ثقة فأحبها حبا شديدا لم يحبه أحدا من نسائه وكانت منزلتها عنده منزلة عظيمة وكانت على منزلتها عنده لايذهب حزنها ولم يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان ، فقال لها ويحك ماهذا الحزن الذى لايذهب والدمع الذى لايرقأ ؟ فقالت إنى أذكر أبى وأذكر ملكه وسلطانه وما كان فيه فيحزننى ذلك ؟ فقال لها سليمان قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه وسلطانا هو أعظم من سلطانه وهداك الله الى الاسلام وهو خير لك من ذلك كله ، قالت ان ذلك كذلك ولكنى اذا ذكرته أصابنى ماترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين يصورون لى صورته فى دارى التى أنا فيها أراه بكرة وعشية لرجوت أن يذهب ذلك حزنى ويسلينى عن بعض ما أجد فى نفسى ، فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها فى دارها حتى لاتنكر منه شيئا فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت اليه حين صنعوه فأزرته وقمصته وعممته وردته بمثل ثيابه التى كان يلبسها ، ثم إنها كانت اذا خرج سليمان من دارها تغدو اليه فى ولائدها فتسجد له ويسجدن له معها كما كانت تصنع معه فى ملكه وتروح اليه كل عشية تفعل معه مثل ذلك وسليمان لايعلم بشىء من ذلك أربعين صباحا فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقا وكان لايرد عن باب سليمان أى ساعة أراد دخول بيته دخل حاضرا أم غائبا فأتاه ، فقال يانبى الله كبرسنى ودق عظمى ونفد عمرى

وقد حان الذهاب مني ، وقد أحببت أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض مايجهلون من كثير من أمورهم ، فقال افعل فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيبا فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر مافضلهم الله به حتى انتهى الى سليمان فقال له ما كان أحكمك فى صغرك وأورعك فى صغرك وأفضلك فى صغرك وأحكم أمرك فى صغرك وأبعدك من كل ما يكره فى صغرك ثم انصرف فوجد سليمان فى نفسه من ذلك حتى امتلأ غيظا فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فلما أتاه قال له يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيرا فى كل أزمانهم وعلى كل حال من أمورهم فلما ذكرتني أثنيت علىّ بخير فى صغرى وسكت عما سوى ذلك من أمرى فى كبرى فما الذى أحدثت فى آخر عمرى ؟ فقال له إن غير الله يعبد فى دارك أربعين صباحا فى هوى امرأة ، فقال سليمان فى دارى قال نعم فى دارك ، فقال إنا لله وإنا اليه راجعون لقد علمت أنك ماقلت ماقلت إلا عن شيء بلغك ، ثم ان سليمان رجع الى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها ، ثم انه أمر بثياب الطهر فأتى بها وهى ثياب لايغزلها إلا الأبكار ولا تمسها امرأة ذات دم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش ، ثم أقبل تائبا الى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللا لله تعالى وتضرعا اليه يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره ، ويقول فيما يقول رب ما كان ينبغى لآل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقروا فى دورهم وأهاليهم عبادة غيرك فلم يزل كذا يومه حتى أمسي ، ثم رجع الى داره وكانت له وليدة يقال لها أمينة كان اذا دخل مذهبه أو أراد قضاء حاجة أو أراد اصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر ، وكان لايمس خاتمه إلا وهو متطهر لأن خاتمه كان من ياقوتة خضراء أتاه بها جبريل عليه السلام مكتوب عليه لا إله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ملكه فى خاتمه فوضعه يوما من الأيام عندها كما كان يضعه عند دخول مذهبه ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وكان اسمه صخرا فظنته سليمان لأنها لم تنكر منه شيئا فقال يا أمينة خاتمى فناولته إياه فجعله فى يده ، ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين ، فخرج سليمان فأتى الى أمينة وقد تغير من حاله ونفسه ما كان معهودا منه عند كل من رآه فقال يا أمينة خاتمى فقالت ومن أنت ؟ . قال سليمان بن داود فقالت كذبت لست سليمان فقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وها هو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته فخرج سليمان وجعل يقف على الدار من دور بنى اسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون انظروا الى هذا المجنون وأى شيء يزعم يقول إنه سليمان ، فلما رأى سليمان ذلك خرج متوجها الى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر من البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فاذا أمسى باع إحدى السمكتين بأرغفة ويشوى الأخرى فيأكلها فمكث كذلك أربعين صباحا

عدة ما كان ذلك الوثن يعبد فى داره ، فأنكر آصف بن برخيا وعلماء بنى اسرائيل حكم عدو الله الشيطان فى تلك الأربعين يوما فقال آصف يامعشر بنى اسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان مارأيت ؟ قالوا نعم فقال أمهلونى حتى أدخل على نسائه فأسألهن هل أنكرن منه فى خاصة أمره ما أنكرناه من عامة أمر الناس وعلانيته فدخل على نسائه فقال لهن ويحكن هل أنكرتن من أمر سليمان بن داود ماأنكرناه فقلنا أشد مايدع امرأة منا فى دمها ولايغتسل من جنابة فقال آصف إنا لله وإنا اليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين ، ثم إنه خرج الى بنى اسرائيل فقال مافى الخاصة أعظم مما فى العامة ، فلما مضت أربعون صباحا زال الشيطان عن مجلسه ثم مر فى البحر فقذف الخاتم فيه فابتلعته سمكة فاصطادها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشاء أعطاه السمكتين وكان من جملتهما السمكة التى ابتلعت الخاتم فحمل سليمان سمكتيه فباع التى ليس فى بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد الى السمكة الأخرى فشقها ليشويها فوجد خاتمه فى جوفها فأخذه فجعله فى يده ووقع ساجدا فعكفت عليه الطير والجن والانس والشياطين وأقبل على الناس وعلم أن الذى دخل عليه لما أحدث فى داره من عبادة الوثن فرجع الى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه ثم أمر الشياطين وقال ائتونى بصخر المارد فطلبته الشياطين حتى أتت به فنحت له صخرة فأدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف فى البحر فهذا حديث وهب بن منبه .

وقال السدى : فى سبب ذلك كان لسليمان مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهى آثر نسائه وآمنهن عنده وكان إذا أراد أن يأتى حاجته أودخل مذهبه نزع الخاتم ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها فجاءته يوما من الأيام وقالت له إن أخى بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقتضى له إذا جاءك فقال نعم ولم يفعل فابتلى بقوله فأعطاها خاتمه ودخل المخدع فخرج الشيطان فى صورته فقال لها هات الخاتم فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعده فسألها أن تعطيه خاتمه فقالت له ألم تأخذه ؟ فقال لا ، فخرج من مكانه تائبا ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما فأنكر الناس حكمه واجتمع قراء بنى اسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فذكروا لهن ما أنكروا فقلن ونحن قد أنكرنا هذا فان كان سليمان قد ذهب عقله وأساء أحكامه فليس لناصبر على ذلك وبكى النساء عند ذلك ، قال فأقبلوا يمشون حتى أتوه وأحدقوا به وأخذوا مجالسهم ثم إنهم نشروا التوراة فقرءوها فلما قرءوا التوراة طار من بين أيديهم حتى ذهب الى البحر فوقع الخاتم منه فى البحر فابتلعه الحوت ، قال وأقبل سليمان على حالته التى كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادين وهو جائع وقد اشتد جوعه فاستطعمهم من صيدهم ، وقال إنى سليمان بن داود فقام اليه بعضهم فضربه بعصاه فشجه فسال دمه وهو على شاطىء البحر

فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه وقالوا له بئسما صنعت حيث ضربته ، فقال إنه زعم أنه سليمان ابن داود فأعطوه سمكتين ممن ضرب عندهم فلم يشغله ما كان فيه من ألم الضرب حتى قام الى شاطىء البحر فشق بطنهما وجعل يغسلهما فوجد خاتمه فى بطن إحداهما فأخذه ولبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرفه القوم فجاءوا يعتذرون اليه مما صنعوا ، فقال ماأؤاخذكم على عدوانكم ولاألومكم على ما كان منكم هذا ما كان لابد منه ثم جاء حتى أتى ملكه وأمر أن يأتوا بالشيطان الذى أخذ خاتمه فأتى به فجعله فى صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختمه بخاتمه ثم أمر به فألقى فى البحر وهو فيه كذلك إلى الساعة .

وفى بعض الروايات : أن سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأخذه سليمان وأعاده عليه فسقط من يده فلما رآه سليمان لايثبت فى يده أيقن بالفتنة ، فقال آصف لسليمان إنك مفتون بذنبك والخاتم لايتماسك أربعة عشر يوما ففر الى الله تائبا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير فى عملك وأهل بيوتك بسيرك إلى أن يتوب الله عليك ويردك الى ملكك ففر سليمان هاربا إلى ربه وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت وان الجسد الذى قال الله تعالى ـ وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ـ هو آصف كاتب سليمان ، وكان عنده علم من الكتاب فأقام آصف فى ملك سليمان وعاله يسير بسيرته ويعمل بعمله أربعة عشر يوما الى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا الى الله تعالى ورد الله عليه ملكه فأقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيه وأعاد الخاتم فى يده فثبت

وقيل سبب ذلك ما أخبرنا شعيب بن محمد العجلى باسناده عن سعيد بن المسيب : أن سليمان ابن داود احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله اليه ان يا سليمان احتجبت عن عبادى ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمورهم ولم تنصف مظلوما من ظالم ، وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما رويناه ، وقال فى آخره قال على كرم الله وجهه ذكرت ذلك للحسن فقال ما كان الله تعالى ليسلط على نسائه ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة وكيف يعتقد ذلك أحد ، وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح ، وهذا القول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب الى التقوى . وقال بعض المفسرين : كان سبب فتنة سليمان أنه أمر أن لايتزوج امرأة الامن بنى اسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم فعوقب على ذلك .

وقيل إن سليمان عليه السلام لما أصاب بنت الملك صيدون أعجب بها وعرض عليها الاسلام فامتنعت فخوفها سليمان فقالت له إن أكرهتنى على الاسلام قتلت نفسى فخاف سليمان أن تقتل نفسها فتزوج بها مشركة فكانت تعبد صنما لها من ياقوتة أربعين صباحا فى خفية من سليمان الى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما .

وقال الشعبى فى سبب زوال ذلك ولد لسليمان ابن فاجتمعت الشياطين فقال بعضهم لبعض

إن عاش له ولد لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة فسبيلنا أن نقتل ولده أونخبله فعلم سليمان ذلك فأمر السحاب أن تأخذ ابنه وأمر الريح فحملته وغدا ابنه فى السحاب فأمن مضرة الشياطين فعاتبه الله لتخوفه من الشياطين ومات الولد فألقى على كرسيه وهو الجسد الذى قصه الله علينا بقوله وألقينا على كرسيه جسدا له ثم أناب والله تعالى أعلم.

باب فى ذكر وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى فلما قضينا عليه الموت الآية . قال أهل التاريخ : لبث سليمان فى ملكه بعد أن رده الله تعالى عليه تعمل له الجن والشياطين ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك ويعذب من الشياطين من يشاء ويطلق من يشاء ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحب . قال فتزيالهم إبليس وهم دائبون فى العمل فقال كيف أنتم ؟ قالوا مالنا طاقة لما نحن فيه ، فقال إبليس تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فراغا لا تحملون شيئا قالوا نعم ، قال فأنتم فى راحة ، قال فأبلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين فجاءهم إبليس ، فقال كيف أنتم ؟ فشكوا اليه وأخبروه أنهم يحملون ذاهبين وراجعين فقال لهم إبليس أتنامون بالليل ؟ قالوا نعم قال فأنتم فى راحة ، قال فأبلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار فتزيالهم إبليس فشكوا اليه أنهم يعملون بالليل والنهار وأنهم دائبون فى العمل فقال كيف أنتم ؟ قالوا لا طاقة لنا فيما نحن فيه فقال لهم إبليس وما يشاء فعله قالوا نعم قال فتوقعوا الفرج وقد بلغ الأمر منتهاه فلم يلبثوا الا قليلا وقد مات سليمان عليه السلام .

قال ابن عباس وغيره : كان سليمان عليه السلام يحتجب فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل فيه بطعامه وشرابه فدخله فى المرة التى مات فيها وكان بدء أمره فى ذلك أنه لم يكن يوما يصبح فيه الانبتت له ببيت المقدس شجرة فيسألها سليمان ما اسمك فتقول الشجرة اسمى كذا وكذا فيقول لأى شىء أنت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فان كانت تنبت لغرس كتب عليها غرسها فى مكان كذا وكذا وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا فبينما هو يصلى يوما إذ رأى شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما اسمك قالت الخرنوبة قال ولأى شىء نبتك قالت لخراب هذا المسجد فقال سليمان بن داود ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائط له ، ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب ، وكانت الجن تخبر الانس أنهم يعلمون من الغيب أشياء وأنهم يعلمون ما يكون فى غد ، ثم إن سليمان دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه فمات ثم بقى على تلك الحالة ولم يعلم بذلك من الشياطين أحد وهم مع ذلك يعملون ويخافون أن يخرج فيعاقبهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بى فأعلمنى . قال فأتاه فقال ياسليمان قد أمرت بك وقد بقى لك سويعة فدعا

الشياطين فبنوا له صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى واتكأ على عصاه فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه .

وفى رواية أخرى أن سليمان عليه السلام ، قال ذات يوم لأصحابه : إن الله تعالى آتانى من الملك ماترون ومامر على يوم فى ملكى صاف من الكدر ، وقد أحببت أن يكون لى يوم واحد يصفو لى الى الليل ولا أغتم فيه ولكن ذلك اليوم غدا ، فلما كان من الغد دخل قصرا له وأمر باغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ومنع من رفع الأخبار اليه لئلا يسمع شيئا يسوؤه ، ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى مماليكه إذ نظر شابا حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب القصر فقال له السلام عليك ياسليمان فقال وعليك السلام فكيف دخلت علىّ هذا القصر بغير إذنى ، وقد منعت من دخوله أما منعك البوّابة والحجاب أما هبتنى حين دخلت قصرى بغير إذنى ، فقال أنا الذى لا يحجبنى حاجب ولا يدفعنى البواب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرشا وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن ، فقال له سليمان فمن أذن لك فى دخوله فقال له ربى ، قال فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت ، فقال له أنت ملك الموت ؟ قال نعم ، قال فيم جئت ؟ قال لأقبض روحك قال ياملك الموت هذا يوم أردت أن يصفولى ولا أسمع فيه ما يغمنى ، فقال ياسليمان إنك أردت يوما يصفولك فيه عيشك حتى لا يغمك فيه شيء وذلك يوم لم يخلق فى الدنيا فارض بقضاء ربك فانه لامرد له . قال فاقبض كما أمرت فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على عصاه قالوا وكانت الشياطين تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان ، وكان للمحراب بابان باب بين يديه وباب خلفه ، فقال بعض الشياطين لصاحبه ان كنت جليدا فادخل من الباب الذى بين يديه واخرج من الباب الذى خلفه فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر الى سليمان فى المحراب إلا احترق فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع فوقف بالبيت فلم يحترق فنظر الى سليمان وقد سقط ميتا فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهى العصا بلغة الحبشة قد اكلتها الأرضة فلم يعلموا منذكم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه وينظرون اليه ويحسبون انه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته قبل ذلك .

وفى رواية ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى ادعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ولم يلبثوا فى العناء والعذاب سنة يعملون له ، ثم إن الشياطين قالوا للارضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الماء لسقيناك أعذب الشراب ، ولكنا ننقل اليك الماء والطين شكرا لك فالذى يكون فى جوف الخشب فهو ما تأتيها به الشياطين والشياطين تسكن إليها ، فذلك قوله

تعالى ـ فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ـ الآية .

قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثا وخمسين سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة وذلك أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ فى بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه . ثم ملك من بعد سليمان ابن له يقال له رحبعم وكان قد استخلفه فنبأه الله وكان نبيا ولم يكن رسولا ثم قبض وكان ملكه سبع عشرة سنة . ثم ملكهم بعده ابنه آفيا بن رحبعم وكان ملكه ثلاثا وستين سنة : ثم ملك بعده ابنه أسابن آفيا وكان رجلا صالحا وكان أعرج يعتريه عرق النسا فطمع فيه الملوك لضعفه وافترقت ملوك بنى اسرائيل فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له روح الهند فى جمع كثير وقبيلة كبيرة فبعث الله عليهم الملائكة فهزمتهم فقصدوا البحر حتى إذا ركبوا جميعا بعث الله عليهم الرياح والأمواج فضربت سفنهم بعضها فى بعض فتكسرت وغرق روح الهند ومن كان معه واضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى محلة بنى اسرائيل ونودوا أن خذوا ماغنمكم الله تعالى وكونوا له من الشاكرين ثم لم تزل تغزوهم الملوك ملك بعد ملك من ملوك العراق وغيرهم فيهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد وفشت فيهم المعاصى وعبد بعض ملوك بنى اسرائيل الأصنام من دون الله تعالى فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم وسلط عليهم بختنصر .

مجلس فى قصة بختنصر وما يتصل به

وخبر شعياء وأرمياء ودانيال وعزير عليهم وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام

قال الله تعالى ـ وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب ـ إلى قوله عز وجل ـ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ـ .

قصة شعياء عليه السلام

قال محمد بن اسحق وغيره من أهل السير والأخبار : كان مما أنزل الله تعالى على موسى خبر بنى اسرائيل من احداثهم وماهم فاعلون بعده كما قال الله تعالى ـ وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ـ الى قوله ـ حصيرا ـ فكانت بنو إسرائيل يركبون الأحداث والذنوب وكان الله تعالى يتجاوز عنهم تعطفا عليهم واحسانا إليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام أن ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله تعالى اذا ملك ملكا من ملوك بعث له نبيا يسدده ويرشده ويكون واسطة فيما بينه وبين الله تعالى فيما يحدث من أمورهم ولا ينزل عليهم كتابا وإنما يأمرهم أن يأمروهم بأحكام التوراة والنهى عن المعاصى والمنكرات والدعاء إلى ماتركوا من الطاعات فلما ملك ذلك الملك بعث الله تعالى شعياء بن أمضياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيي وعيسى وشعياء هو

الذى بشر بيت المقدس حين شكا إليه الخراب فقال أبشر فانه يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك بنى اسرائيل وبيت المقدس زمانا ، فلما انقضى ملكه فيهم عظمت الأحداث الرديئة وشعياء معه فبعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل فنزل هو وجنوده فى ستمائة ألف راية فأقبل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض فى ساقه قرحة شديدة فجاء اليه شعياء فقال ياملك بنى اسرائيل ان سنجاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده فىستمائة ألف راية وأقبل سائرا حتى نزل بيت المقدس وقد هابهم الناس وتفرقوا عنهم فكبر ذلك على الملك وقال يانبى الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبعدونا سنجاريب وجنوده فقال النبى لم يأت وحى ، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى شعياء عليه السلام أن ائت ملك بنى اسرائيل فأمره أن يوصى بوصيته ويستخلف على مملكته من يشاء من أهل بيته وعترته فأتى شعياء صديقة فقال ان ربك قد أوحى إلى أن آمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت ، فلما قال ذلك شعياء لصديقة أقبل على الله تعالى وصلى ودعا وبكى وقال فى دعائه وهو يبكى ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص وظن صادق اللهم رب الأرباب وإله الآلهة القدوس المقدس يارحمن يارحيم يارءوف يامن لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بنيتى وفعلى وحسن قضائى فى بنى اسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى سرى وعلانيتى لك ، ثم ان الله استجاب دعاءه ورحمه وكان عبدا صالحا فأوحى الله تعالى إلى شعياء وأمره أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وقبل منه وقد أخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه الله من عدوه سنجاريب ملك بابل وجنوده فأتى شعياء إليه وأخبره بذلك ، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الهزال وخر ساجدا لله تعالى وقال ياإلهى وإله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى الى شعياء أن قل للملك صديقة أن يأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ففعل ذلك فبرأ فقال الملك لشعياء سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا فقال الله لشعياء قل له إنى كفيتك عدوك هذا وأنجيتك منه وأنهم سيصبحون موتى كلهم الاسنجاريب وخمسة نفر من كبرائه وكتابه فلما أصبحوا جاءهم صارخ يصرخ على باب المدينة ياملك بنى اسرائيل قد كفاك الله عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه قد هلكوا فلما خرج الملك التمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب هو ومن معه فى خمسة نفر من كبرائه فى مغارة أحدهم بختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم ملك بنى اسرائيل فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال ياسنجاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله

وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال له سنجاريب قد أتانى خبر ربكم ونصرته اياكم من قبل أن أخرج من بلادى فلم أطع مرشدا ولم يلقنى فى الشقوة إلا قلة عقلى فلو سمعت وعقلت ما غزوتكم ولكن الشقوة غلبت على وعلى من معى قال: فقال صديقة الحمد لله رب العالمين الذى كفاناكم بما شاء ان ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ولكن إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقاوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة وتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم وبمن معكم ولدمك ومن معك أهون عند الله من دم قرادة لو قتلت . ثم ان ملك بنى اسرائيل أمر أمير جيشه فقذف فى رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء وكان يطعمهم كل يوم رغيفين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب لملك بنى اسرائيل القتل خير مما تفعل بنا فافعل ماأردت فأمر بهم الملك إلى سجن القتل فأوحى الله الى شعياء أن قل للملك يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرموا وليحملوا حتى يبلغوا بلادهم فبلغ شعياء الملك ذلك ففعل فخرج سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم حتى قدموا بابل فلما قدموا جمع سنجاريب الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده فقال له كهانه وسحرته ياملك قد كنا نقص عليك خبرهم وخبر نبيهم ووحى الله إليه فلم تطعنا وهى أمة لايستطيعها أحد وكان فى أمر سنجاريب مما خوفوا به ثم كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف من بعده بختنصر وكان ابن ابنه وكان بختنصر يعمل كما يعمل جده ويقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله تعالى ملك بنى اسرائيل صديقة فمرج أمر بنى اسرائيل وتنافسوا فى الملك حتى قتل بعضهم بعضا وظهر فيهم البغى والفساد ونبيهم شعياء فيهم لايرجعون إليه ولايقبلون. قوله فلما فعلوا ذلك قال الله تعالى لشعياء عليه السلام قم فى قومك يوح على لسانك فلما قام النبى أطلق الله لسانه بالوحى فقال ياسماء اسمعى ويأرض أنصتى فان الله أراد أن يقضى شأن بنى اسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة التى لاراعى لها فآوى شاردها وجمع ضالها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن هزيلها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضهم بعضا حتى لم يبق منهم عظم صحيح يجبر إليه كسير فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لايدرون أجاءهم الخير أم الشروان البعير يذكر وطنه فينتابه وان الحمار يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه وان الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فينتابه وان هؤلاء القوم لايدرون من أين جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا يبقر ولا حمير انى ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل لهم كيف ترون فى أرض كانت خرابا مواتا فبقيت خرابا زمانا طويلا لاعمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأجرى نهرا وأنبت عليها غرسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه إذا رأى حفيظا

قويا أمينــا فانتظرها فلما أطلعت جاء طلعها خرنوبا فقال بئست الأرض هــذه نرى أن يهدم جدرها وقصرها ويغيض ماء نهرها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت خرابا أول مرة مواتا لاعمران فيها فقــال الله تعالى قل لهم ان الجــدار ذمتى وان القصر شريعتى وإن النهر كتابى وان القيم نبيى والغراس هم وان الخرنوب الذى أطلع الغراس أعمــالهم الخبيثة وانى قضيت عليهم قضــاءهم على أنفسهم وانه مثــل ضربه الله لهم فمرهم يتقربوا إلى بذبح البقر والغــنم وليس ينــالنى اللحم ولا آكله ولــكن يتقربون إلى بالتقوى والــكف عن ذبح النفس التى حرمتها فأيديهم مخضوبة منها وبنــانهم مزملة بدمائها ، ويشيدون لى البيوت والمساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها فأى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى إلى تزويق المساجد ولست أدخلها وانما أمرت برفعها لأذكر فيها وأسبح ، ولتــكن معلما لمن أراد أن يصلى فيها ويقولون لوكان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا لجمعها ، ولوكان الله يقــدر أن يفقه قلوبنا لفقهها فاعمد إلى عودين يابسين ثم أبنهما وهم فى أجمع مايكون فقل للعودين إن الله يأمركما أن تكونا عودا واحدا ، فلما قال لهما ذلك اختلطا فصارا عودا واحدا فقال الله تعالى قل لهم انى قدرت على أن أؤلف بين العودين اليابسين ، فــكيف لاأقدر على ألفتهم ان شئت أم كيف لاأقدر على أن أفقه قلوبهم وأنا الذى صورتهم يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور قلوبنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا وان دعونا بمثل حنين الجمال وبكينا بمثل عواء الذئاب فى ذلك لايسمع ولا يستجاب لنا قال الله تعالى فسلهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين أذات يدى قلت ، كيف ويداى مبسوطتان بالخير أنفق كيف أشاء مفاتيح الخزائن عندى لايفتحها غيرى أم يقولون رحمتى ضاقت فــكيف ورحمتى وسعت كل شىء انما يتراحم المتراحمون بفضلى ، أم يقولون البخل يعترينى ، أولست أكرم الأكرمين وأنا الفتاح بالخيرات ، ألست أجود من أعطى وأكرم من سئل ؟ ولو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحــكمة التى نورت فى قلوبهم فتدبروها ولم يشتروا بها الدنيــا لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم ، فــكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بالزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام ، أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم طاغية تركن إلى من يحاربنى وينتهك محارمى ، أم كيف تزكو عندى صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم وانما أجزى عليها أهلها المغصوبين ، أم كيف أستجيب لهم دعاء وانما هو قول بألسنتهم والعقل من ذلك بعيد انمــا أستجيب قول المستضعف المسكين ، وان من علامة رضاى رضا المسكين ولورحموا المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المغصوب وعالوا الغائب وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه ، ولو كان ينبغى لى أن أكلم البشر إذا لــكلمتهم وكففت أذاهم وكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وأعمرت أركانهم وكنت قوة أيديهم وأرجلهم وكنت ألسنتهم الا أنهم يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى إنها أقاويل

منقولة وأحاديث متواترة وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة ، وزعموا أن لو يشاءوا أن يأتوا بحديث مثله لفعلوا وأن يطلعوا على علم الغيب بما توحى اليهم الشياطين إذا طلعوا ، وكلهم يستخفى بالذى يقول ويسر وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم مايبدون وما يكتمون وانى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء بينته على نفسى وجعلت له أجلا مؤجلا لابد أنه واقع ، فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه وفى أى زمان يكون وان كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أقضى فانى مظهره على الدين كله ولوكاره المشركون وان كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه الحكمة التى أدبر بها أمر ذلك القضاء ان كانوا صادقين فانى قضيت يوم خلقت السموات والأرض بأن أجعل النبوة فى الأحرار وأجعل الملك فى الرعاء وأجعل العز فى الأذلاء والقوة فى الضعفاء والغنى فى الفقراء والثروة فى الأقلاء والمدائن فى الفلوات والآجام فى المفاوز والثرى فى الغيطان والعلم فى الجهلة والحكم فى الأميين فسلهم ممن هذا ومن القيم بهذا وعلى يد من أنشئه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره ، فانى باعث لذلك نبيا أميا لا أعمى من العميان ولا ضالا من الضالين ليس بفظ ولا غليظ ولا بصخاب فى الأسواق ولا متزىّ بالفحش ولا قوالا بالخنا ، أسدده بكل جميل وأهب له كلّ خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه والبرّ شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد الفقر وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به قلوبا مختلفة وأهواء مشتتة وأمما متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآياتى وتوحيدى ، يصلون قياما وقعودا وركوعا وسجودا ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله ، ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف ويطهرون لى الوجوه والأطراف ويعقدون الثياب فى الأنصاف قربانهم دماؤهم وقرآنهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ــ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ــ فلما فرغ نبيهم شعياء من مقالته غــــدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخلها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه وهو فى وسطها والله أعلم .

قصة أرمياء عليه السلام

فاستخلف الله على بنى اسرائيل بعد قتلهم شعياء رجلا منهم يقال له ناشئة بن أموص وبعث الله

اليهم الخضر نبيا ليسـدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى واسم الخضر أرمياء بن خلفياء ، وكان من سبط هرون بن عمران ، وانمـا سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تزهر خضراء فقال الله تعالى لأرمياء حين بعثه الى بنى اسرائيل : يا أرمياء من قبل أن أخلقك اخترتك ومن قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ السعى نبأتك ولأمر عظيم اجتبيتك فذكر قومك نعمى وعرفهم أحـداثهم وادعهم الى . فقال أرمياء إنى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تنصرنى ، فقال الله تعالى أنا ألهمك فقام أرمياء فيهم خطيبا ولم يدر ما يقول ، فألهمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية . وقال لهم فى آخرها إن الله قال : فانى أحلف بعزتى وجلالى إن لم ينتهوا لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم . ثم أوحى الله تعالى الى أرمياء عليه السلام إنى مهلك بنى اسرائيل بيافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح ، فلما سمع أرمياء بكى وصاح وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسـه ، فلما سمع الله تضرع أرمياء وبكاءه ناداه يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت اليك قال نعم يارب أهلكنى قبل أن أرى فى بنى اسرائيل مالا أسربه ، فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لاأهلك أحدا من بنى اسرائيل حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك ، ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال والذى بعث موسى بالحق لاأرضى بهلاك بنى اسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا ففرح واستبشر وقال : إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وان يرحمنا فبرحمته ، ثم انهم لبثوا بعد الوحى ثلاث سـنين لم يزدادوا فيها الا معصية وتماديا فى الشر وذلك حين اقترب هلاكهم وقل الوحى ودعاهم الملك الى التوبة فلم يفعلوا ، فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس ، فلما فصل بختنصر سائرا إلى الملك أتى الملك الخبر فقال الملك لأرمياء أنت زعمت أن الله أوحى اليك ، فقال أرمياء ان الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق ، فلما قرب الأجل وأراد الله هلاكهم بعث الله إلى أرمياء ملكا قد تمثل له فى صورة رجل من بنى اسرائيل ، فقال له يانبى الله انى أستفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم أزل اليهم محسنا ولا يزيد اكرامى إياهم إلا استخفافا بى فأفتنى فيهم ، فقال له أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك ، فما مكث الا أياما ثم أقبل عليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء أو ما ظهرت أخلاقهم لك بعد ؟ قال يانبى الله والذى بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس الى أهل رحمه الا قدمتها اليهم وأفضل . قال أرمياء عليه السلام ارجع الى أهلك فأحسن اليهم وسل الله الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو اسرائيل وشق عليهم فقال ملكهم لأرمياء يانبى الله أين ما وعدك الله به ؟ قال انى بربى لواثق ثم أقبل الملك على أرمياء

وهو قاعد على جـــدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذى وعده فقعد بين يديه وقال له أنا الذى أتيتك فى شأن أهلى مرتين فقال له أرمياء عليه السلام ألم يأن لهم أن ينتهوا من الذى هم فيه فقال له يانبى الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه واليوم رأيتهم فى عمل لا يرضى الله تعالى فقال أرمياء عليه السلام على أى عمل رأيتهم ؟ قال على عمل عظيم من سخط الله تعالى فغضبت لذلك وأتيتك لأخبرك ، وانى أسألك بالله الذى بعثك بالحق نبيا الا مادعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم ، فقال أرمياء يامالك السموات والأرض ان كانوا على حقّ وصواب فأبقهم وان كانوا على سخطك وعمل لاترضاه فأهلكهم . قال فما خرجت الكلمة من فم أرمياء تماما حتى أرسل الله صاعقة من السماء فى بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابه فلما رأى ذلك أرمياء صاح وبكى وشقّ ثيابه وحثا الرماد على رأســـه وقال : يا ملك السموات والأرض أين ميعادك الذى وعدتنى ؟ فنودى إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك ودعائك فاستيقن أرمياء عليه الســلام أنها فتياه وان ذلك السائل كان رسول ربه فسار أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ثم امر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتى ملئوه ثم انصرفوا إلى بابل واحتمل معه سبايا بنى اسرائيل وأمرهم ان يجمعوا ما كان فى بيت المقــدس فجمعوا كلّ صغير وكبير من بنى اسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى ، فلما أراد ان يقسم الغنائم فى جنــده . قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى اسرائيل ففعل ذلك فأصاب كل واحـد منهم أربعة غلمان وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزازيا وميشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحـد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمـانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب واربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعـقوب وأربعة آلاف من سبط رويبل ولاوى ابنى يعقوب ومن بقى من بنى اسرائيل جعلهم بختنصر ثلاث فرق فثلثا أقرّه بالشام وثلثا سبى وثلثا قتل وذهب بأوانى بيت المقــدس حتى أقدمها بابل وذهب بالغلمان السبعين ألفا وسائر السبايا حتى قدم بهم بابل وكانت هذه الوقعة الأولى التى أنزلها الله على بنى اسرائيل بأحداثهم وظلمهم وذلك قوله تعالى ــ فاذاجاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ــ يعنى بختنصر وجنوده . وكان بدء أمر بختنصر على ماروى حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مســلم عن سعيد بن جبير قال كان رجل من بنى اسرائيل يقرأ التوراة حتى اذا بلغ بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد بكى وفاضت عيناه وأطبق المصحف ثم انطلق الى المسجد ، وقال ياربّ أرنى هذا الرجل الذى جعلت هلاك بنى اسرائيل على يديه فأرى فى المنام انه مسكين ببابل يقال له بختنصر فانطلق بمال وأعبد له وكان رجلا موسرا ، فقيل له أين تريد ؟ قال أريد التجارة ، ثم ذهب حتى نزل دارا ببابل فاستكراها ليس فيها أحد غيره فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى

لا يأتيه أحد مسكين الا أعطاه ، فقال هل بقى مساكين غيركم قالوا نعم مسكين بفج آل فلان مريض يقال له بختنصر ، فقال لغلمانه انطلقوا وانطلق معهم حتى أتاه ، فقال له ما اسمك ؟ قال بختنصر فقال لغلمانه احملوه فنقله اليه ومرضه حتى برئ فكساه واعطاه نفقة ، ثم أذن الاسرائيلى فى الرحيل فبكى بختنصر ، فقال الاسرائيلى مايبكيك ، فقال أبكى لأنك فعلت معى مافعلت ولا أجد شيئا أجازيك به ، فقال جزائى شيء يسير قال وماهو قال له ان صرت ملكا وملكت بيت المقدس أتعطينى ماأطلبه فجعل يتبعه ويقول له أتستهزئ بى ولا يمنعه ان يعطيه ماسأله إلا انه يرى انه يستهزئ به قال فبكى الاسرائيلى ، وقال قد علمت مايمنعك ان تعطينى ماسألتك إلا الله تعالى يريد ان ينفذ قضاءه فكتب له كتابا وضرب الدهر ضرباته ، فقال يوما صيحون وهو ملك بابل لو أنا أرسلنا طليعة الى الشام قالوا ماضرك لو فعلت قال فمن ترون قالوا فلانا فبعث رجلا وأعطاه مائة الف فخرج بختنصر فى مطبخه لم يخرج إلا ليأكل فى مطبخه ، فلما قدم الى الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أهل الأرض فرسانا ورجالا جلدا فكبر ذلك فى عينه فلم يصل ولم يسألهم عن شيء وكان بختنصر دخل الشام ولم يزل يجلس مجلس اهل الشام ويسألهم ويقول لهم ما منعكم ان تغزوا بابل فلو غزوتموها لنلتم منها شيئا كثيرا فقالوا إنا لانحسن القتال ولانقاتل حتى انتقد مجالس اهل الشام وتعرف سرائرهم ثم إن الطليعة رجعوا فأخبروا ملكهم بما رأوا وكان بختنصر رجع معهم فجعل يقول لفراش الملك لودعانى الملك لأخبرته غير الخبر الذى أخبره فلان وفلان فرفع ذلك إلى الملك فدعاه فأخبره الخبر ، وقال إن فلانا لما رأى أكثر أهل الأرض كراعا ورجالا جلدا كبر ذلك فى عينه ولم يسألهم عن شيء وانى لم ادع مجلسا بالشام الاجلست فيه اسأل اهله فقلت لهم كذا وكذا وقالوا كذا وكذا . قال سعيد بن جبير ، قال صاحب الطليعة لبختنصر فضحتنى لك مائة الف دينار وترجع عما قلت ، فقال له لو أعطيتنى بيت مال بابل مارجعت عما قلت ثم ضرب الدهر ضرباته ؟ فقال الملك لو بعثنا جريدة خيل الى الشام فان وجدوا مساغا ساغوا والا أمسكوا ما قدروا عليه ؟ فقالوا ماضرك لو فعلت ذلك قال فمن ترون قالوا فلانا قال بل الرجل الذى أخبرنى بما أخبرنى فدعا بختنصر فبعثه ، ثم انتخب معه أربعة آلاف من فرسانهم فانطلقوا فجاسوا خلال الديار فسبوا ماشاء الله تعالى ولم يخربوا ولم يقتلوا ومات صيحون الملك فقالوا استخلفوا ملكا قالوا على رسلكم حتى تأتى أصحابكم فانهم فرسانكم فأمهلوا حتى جاء بختنصر بالسبي وما معه فقسمه بين الناس ، فقالوا ما رأينا أحدا أحق بالملك منه ، فهذه القصة الأولى فملكوه على أنفسهم .

وقال السدى باسناده ان رجلا من بنى اسرائيل رأى فى المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك بنى اسرائيل على يد غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بختنصر ، وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم فأقبل يسأل عنه حتى نزل فى بيت أمه وكان قد ذهب يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ثم قعد فى جانب البيت فكلمه ، ثم أعطاه ثلاثة دراهم وقال له اشتر بها طعاما

وشرابا فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا وبدرهم خمرا وجاء به فأكلوا وشربوا حتى اذا كان اليوم الثانى فعل به مثل ذلك واليوم الثالث فعل كذلك ثم قال له الاسرائيلى إنى أحب ان تكتب لى أمانا إذا أنت ملكت يوما من الدهر ، فقال بختنصر أتسخر منى قال لا أسخر منك ، ولكن ما عليك أن تجعل عندى لك يدا فكلمته أمه ، فقالت ما عليك ان كان وإلا لم ينقصك شيئا فكتب له أمانا ، فقال أرأيت ان جئتك والناس حولك قد حالوا بينى وبينك فاجعل لى علامة تعرفنى بها قال ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك بها فكتب له أمانا وأعطاه إياه ، ثم ان ملك بنى اسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرا دونه وان الملك هوى أن يتزوج بنت امرأة له هذا قول السدى . وقيل كانت بنت أخته لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا عليهم السلام فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس وكان فيما نهاهم عنه نكاح بنت الأخت قال ، وكان لملكهم ابنة أخت تعجبه ويريد أن يتزوجها وكان لها فى كل يوم حاجة يقضيها لها وذكر الحديث فى مقتل يحيى ابن زكريا عليهما السلام .

رجعنا الى حديث السدى : قال فسأل يحيى عن نكاحها ، فقال لست أرضاها لك فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها فعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا فاخرة وطيبتها وألبستها من الحلى شيئا لاقيمة له من غايته وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها الى الملك وأمرتها ان تسقيه الخمر وان تتعرض له فان راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته ويكون الذى تسأله ان يأتى برأس يحيى بن زكريا فى طشت ففعلت ذلك وجعلت تسقيه الخمر وتتعرض له فلما أخذ من يدها الشراب راودها عن نفسها فقالت لاأفعل حتى تعطينى ما أسألك قال وماتسألينى ؟ قالت اسألك ان تبعث الى يحيى بن زكريا فتأتينى برأسه فى طشت فقال ويحك سلينى غير هذا قالت ما أريد غير هذا فلما أبت عليه بعث الى يحيى فأتى برأسة فجعلت الرأس تتكلم حتى وضعت بين يديه وهى تقول إنها لاتحل لك ، فلما أصبح الملك واذا دم يحيى يغلى فأمر بالتراب فألقى عليه فرقى الدم فوق التراب يغلى فألقى عليه أيضا وارتفع الدم فوقه فلم يزل يلقى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى فبلغ سنجاريب ملك بابل ذلك فنادى فى الناس وأراد ان يبعث لهم جيشا ويؤمر عليهم رجلا فأتاه بختنصر وكلمه ، وقال إن الذى أرسلت تلك المرة ضعيف وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعثنى فبعث بختنصر حتى اذا بلغوا ذلك المكان ورآهم أهله تحصنوا فى مدائنهم فلم يطقهم ، فلما اشتد عليهم المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع فخرجت اليهم عجوز من عجائز بنى اسرائيل وقالت أين أمير الجند فأتى بها اليه فقالت له بلغنى انك تريد الرجوع بجندك قبل ان تفتح هذه المدينة . قال نعم قد طال مقامى وجاع أصحابى فلست أستطيع المقام فوق الذى كان منى قالت أرأيتك ان دللتك على فتح المدينة تعطينى ما أسألك وتقتل

من آمرك بقتله وتكف عمن آمرك بالكف عنه ؟ . قال لها نعم قالت اذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أقسام ثم اقسم على كل زاوية ربعا ثم ارفعوا أيديكم الى السماء ونادوا ياربنا دلنا على من قتله يحيى بن زكريا عليهما السلام فانهم اذا فعلوا ذلك تساقط سور المدينة ففعلوا ذلك فتساقط سور المدينة ودخلوا من جوانبها فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا عليهما السلام وقالت له اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل عليه سبعين الفا حتى سكن ، فلما سكن الدم قالت له كف يدك فان الله تعالى اذا قتل نبي لايرضى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله ، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته وخرب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف ، وقال من طرح عليه جيفة فله جزيته فى تلك السنة وأعانه على خرابه الروم من أجل ان بنى اسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بنى اسرائيل وسراياهم .

قصة دانيال عليه الصلاة والسلام

وذهب دانيال وقوم من اولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت ، فلما قدم بختنصر ارض بابل وجد سنجاريب قدمات فملك مكانه واستقام له الأمر وثبت على ذلك مدة ، ثم ان بختنصر رأى رؤيا عجيبة فأفزعته فسأل عنها السحرة والكهنة فعجزوا عن تفسيرها فبلغ ذلك دانيال وكان فى السجن مع اصحابه وقد احبه صاحب السجن وأعجب به لما رأى من حسن سمته وهدايته ، فقال دانيال لصاحب السجن إنك قد أحسنت إلىّ وإن صاحبكم قد رأى رؤيا فدله على لأعبرها له فجاء السجان وأخبر بختنصر بقصة دانيال فقال علىّ به وكان لايقف بين يديه احد إلاسجد له فأتوا به فقام بين يديه . ولم يسجد له ، فقال له ما الذى منعك من السجود لى فقال له إن لى ربا آتانى العلم والحكمة وامرنى ان لا اسجد إلا له فخشيت إن سجدت لغيره ان ينزع منى العلم الذى آتانى ويهلكنى فأعجب به وقال نعم مافعلت وقد احسنت حيث وفيت بعهده واجللت علمه ، ثم قال هل عندك علم بهذه الرؤيا وهل لك فى تعبيرها قال نعم قال فأخبرنى فأخبره برؤياه التى رآها قبل ان يخبره بها ثم عبرها وكانت الرؤيا ما اخبرنا عبد الله بن حامد باسناده عن وهب بن منبه يقول : ان بختنصر رأى فى منامه صنما رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذه من حديد وساقه من فخار ، ثم رأى حجرا من السماء قد وقع عليه فدقه ، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة اصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ، ثم رأى رجلا بيده فاس وسمع مناديا ينادى اضرب جذعها ليتفرق الطير من فروعها وتتفرق الدواب والسباع من تحتها واترك أصلها قائما فعبرها له دانيال عليه السلام ، فقال : اما الصنم الذى رأيت راسه من ذهب فأنت الراس الذهب وانت افضل الملوك ، وأما الصدر الذى رايت من فضة فهو ابنك يملك من بعدك ، واما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون بعد ابنك ، وأما ما رأيت من الفخذ الذى من حديد فتتفرق فرقتان فى فارس تكونان أشد الملوك ، وأما الفخار فآخر ملكهم يكون دون الحديد ، وأما الحجر الذى رأيت

قد وقع من السماء وربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبي يبعثه الله فى آخر الزمان فيفرق ملكهم كلهم ويربو ملكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وأما الشجرة التى رأيت والطير الذى عليها والسباع والدواب التى تحتها وما أمر بقطعها فيذهب ملكك ويردك الله طائرا نسرا عظيما فتملك الطيور ، ثم يردك الله ثورا فتملك الدواب ، ثم يردك الله أسدا فتملك السباع والوحوش وتكون منذ مسخك الله على ما ذكرنا سبع سنين فى ذلك كله وقلبك قلب انسان حتى تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وهو يقدر على الأرض ومن عليها ، وأما ما رأيت من ان أصلها قائم فان ملكك قائم ، فسئل وهب بن منبه أكان مؤمنا أم لا ، فقال وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فى ذلك ، فمنهم من قال مات مؤمنا ، ومنهم من قال مات كافرا لأنه حرق بيت المقدس والكتب التى فيه وقتل الأنبياء وغضب الله عليه غضبا شديدا فلم يقبل منه يومئذ توبته ، قالوا فلما عبر دانيال لبختنصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه وجعل يقبل عليه ويستشيره فى أموره حتى كان أكرم الناس عليه وأحبهم اليه فحسده المجوس على ذلك فوشوا به وبأصحابه الى بختنصر فقالوا له ان دانيال وأصحابه مايعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك فدعاهم وسألهم فقالوا أجل ان لنا ربا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم فأمر بأخدود فخدّ لهم والقوا فيه وهم ستة والقى معهم سبع ضار ليأكلهم ، ثم قال انطلقوا لنأكل ونشرب فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم إنهم رجعوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدش منهم أحدا ولم ينكهم بشىء ووجدوا معهم رجلا زائدا فعدوهم فوجدوهم سبعة ، فقالوا مابال هذا السابع ، وانما كانوا ستة فخرج اليهم السابع وكان ملكا من الملائكة فلطم بختنصر لطمة فصار فى الوحوش والسباع ومسخه الله سبع سنين ، ثم رده الى صورته ورد عليه ملكه . قال السدى : فلما رد الله عليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس أيضا ووشوا بهم ثانية وقالوا لبختنصر ان دانيال اذا شرب الخمر لم يملك نفسه ان يبول وكان ذلك فيهم عارا فجعل لهم بختنصر طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا منه ، ثم قال للبواب انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرزان فان قال أنا بختنصر فقل له كذبت ان بختنصر أمرنى فحبس الله عن دانيال وأصحابه البول فكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر فقام مدلا وكان ذلك ليلا فقام يسحب ثيابه فلما رآه البواب شد عليه ، فقال له أنا بختنصر ، فقال كذبت ان بختنصر أمرنى أن أقتل كل من يخرج أولا ثم ضربه فقتله .
وأما محمد بن اسحق فانه قال فى هلاك بختنصر غير ماقال السدى ، وذلك أنه قال باسناده : لما أراد الله هلاك بختنصر . قال لمن كان فى يده من بنى اسرائيل أرأيتم هذا البيت الذى خربت وهؤلاء الناس الذين قتلت من هم وماهذا البيت ؟ فقالوا هذا بيت الله تعالى ومسجد من مساجده وهؤلاء أهله كانوا من ذرارى الأنبياء فظلموا وتعدوا وعصوا فسلط الله عليهم عدوهم بذنوبهم . قال فأخبرونى ما الذى يطلع بى الى السماء وأطلع عليها فأقتل من فيها وأتخذها ملكا فانى قد فرغت من

الأرض ومافيها ، قالوا ما يقدر عليها أحد من الخلق ، فقال لتفعلن أولأقتلنكم عن آخركم فشكوا الى الله تعالى وتضرعوا فبعث الله تعالى عليه بقدرته ليريه ضعفه وهو أنه بعوضة دخلت فى منخره ثم ساخت فيه حتى عضت بأم دماغه ، فما كان يقر ولايسكن حتى يضرب على أم دماغه ، فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله اذا أنا مت فشقوا رأسى وانظروا ما الذى قتلنى ، فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه ليرى الله العباد قدرته وسلطانه ونجى الله تعالى من كان بقى فى يده من بنى اسرائيل ورحمهم وردهم الى إيلياء والشام فبنوا فيها وربوا وكثروا حتى كانوا على أحسن ماكانوا عليه ، فيزعمون أن الله أحيا المؤمنين الذين قتلوا ولحقوا بهم ، ثم أنهم لما رجعوا الى الشام وجدوا بختنصر قد أحرق التوراة وليس معهم عهد من الله فجدد الله توراتهم وردها اليهم على لسان عزير وسنذكر القصة فيه ان شاء الله تعالى ، وكان عمر بختنصر أيام مسخه نيفا وخمسمائة عام وخمسين يوما ، فلما مات بختنصر استخلف ابنه فلسطاس وكانت آنية بيت المقدس التى حملها بختنصر الى بابل عنده وكان نجسها بلحوم الخنازير وشرب فيها الخمر وأقصى دانيال فلم يقبل منه فاعتزل دانيال ، فبينما فلسطاس قاعد ذات يوم إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد فكتبت ثلاثة أحرف بمشهده ، ثم غابت فعجب من ذلك وتحير ولم يدر ماهى فدعا دانيال عليه السلام واعتذر اليه وسأله أن يقرأ له ذلك الكتاب ويخبره بتأويله ، فقال دانيال — بسم الله الرحمن الرحيم — وزن فخف ووعد فأنجز وجمع ففرق ، فقال أماقوله وزن فخف ، أى وزن عملك فى الميزان فخف ، ووعد فأنجز : أى وعد ملكك بالخراب فأنجز اليوم ، وجمع ففرق : أى جمع لك ولوالدك من قبلك ملكا عظيما ، ثم فرق اليوم فلا يجتمع الى يوم القيامة فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكه الله تعالى وضعف ملكهم وبقى دانيال عليه السلام بأرض بابل الى أن مات بالسوس والله أعلم .

خبر وفاة دانيال عليه السلام

قال أهل الأخبار : لما فتح الله السوس على يد أبى موسى الأشعرى فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل أبو موسى ملكها سابور واحتوى على المدينة فغنم مافيها وأخذ أموال سابور وملكها وجعل يدور فى الخزائن فيأخذ مافيها حتى أفضى الى خزانة مقفلة وقد ختم على قفلها بالرصاص ، فقال أبوموسى الأشعرى لأهل السوس مافى هذه الخزانة فانى أراها مختومة بالرصاص ؟ فقالوا له أيها الأمير ليس فيها شىء من حاجتك ، فقال لابد لى أن أعلم مافيها فافتحوا بابها حتى أنظر مافيها فكسروا القفل وفتحوا الباب فدخل أبو موسى الخزانة فنظر فاذا هو بحجر طويل محفور على مثال الحوض وفيه رجل ميت وقد كفن بأكفان منسوجة بالذهب ورأسه مكشوفة . قال فتعجب أبوموسى من طوله وكل من كان معه ، ثم إنهم شبروا أنفه فاذا هو يزيد على شبر ، فقال أبو موسى لأهل السوس ويحكم من هذا الرجل ، قالوا ان هذا الرجل كان بالعراق وكان أهل العراق اذا حبس

عنهم المطر استسقوا به فيسقون فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق فأرسلنا اليهم وسألناهم أن يدفعوه الينا حتى نستسقى به فأبوا علينا فرهنا عليه عندهم خمسين رجلا وحملناه الى بلدنا هذا ، ثم استسقينا به فسقينا فرأينا من الرأى أن لا نرده اليهم فلم يزل مقيما عندنا الى أن أدركه الموت فمات فهذه قصته وحاله . قال فأقام أبو موسى الأشعرى بالسوس وكتب إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليهم من مدينة السوس وما والاها وكتب فى كتابه أمر ذلك الرجل الميت ، فلما وصل الكتاب وقرأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن ذلك فما وجد عند واحد منهم علمه ، فقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . ان هذا الرجل دانيال الحكيم وهو نبى غير مرسل كان فى قديم الزمان مع بختنصر ومن كان بعده من الملوك وجعل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قصة دانيال من أولها الى آخرها الى وقت وفاته ، ثم قال اكتب الى صاحبك وأمره أن يصلى عليه ويدفنه فى موضع لايقدر عليه أهل السوس ، فكتب عمر الى أبى موسى بذلك ، فلما قرأ أبو موسى كتاب عمر أمر أهل السوس أن يكفوا نهرهم الى موضع آخر ، ثم أمر بدانيال فكفن بأكفان غير التى كانت عليه ، ثم صلى عليه هو وجميع من كان معه من المسلمين ، ثم أمر بقبر فحفر له فى وسط النهر ؛ ثم دفنه وأجرى عليه النهر ، فيقال ان دانيال عليه السلام فى نهر السوس والماء يجرى عليه الى يومنا هذا والله أعلم .

قال الأستاذ رضى الله عنه : فهذا الذى ذكرت جميع أمر بختنصر الذى جاء فى التفسير إلا أن رواية من يروى أن بختنصر هو الذى غزا بنى اسرائيل عند قتلهم يحيى غلط عند أهل السير والأخبار والعلماء بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين وذلك أنهم مجمعون على أن بختنصر انما غزا بنى اسرائيل عند قتلهم نبيهم شعياء وفى عهد أرمياء عليه السلام وهى الواقعة الأولى التى قال الله تعالى فيها فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ـ الآية ، يعنى بختنصر وجنوده ، قالوا ومن عهد أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس الى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس الى آخر عمرانه فى عهد كربن بن حرسوبن شير بن أصهيل ببابل من قبل بهمن اسفنديار بن يستاسف سبعين سنة ، ثم من بعد عمرانه الى ظهور الاسكندر على بيت المقدس واحصاره ملكها وضمها الى مملكته ثمان وثمانون سنة ، ثم من بعد ملكه بيت المقدس الى مولد يحيى بن زكريا ثلثمائة وثلاثون سنة ، وانما الصحيح فى ذلك ماذكره محمد بن اسحق بن يسار . قال عمرت بنو اسرائيل بيت المقدس بعد ماعمرت الشام وعاد اليها ملكها بعد اخراب بختنصر إياها وسبيهم منها فجعلوا يحدثون الأحداث بعد مهلك عزير عليه السلام ، فبعث الله فيهم الأنبياء ، ففريقا يكذبون

وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث الله اليهم من أنبيائهم زكريا ويحيي وعيسى عليهم السلام وكانوا من آل داود عليه السلام فمات زكريا وقتل يحيي بسبب نهيه الملك عن نكاح تلك المرأة فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيي بن زكريا عليهم السلام بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له [كردوس] فسار اليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام ، فلما دخل عليهم أمر رئيسا من رءوس جنوده يقال له [بنورازادان] صاحب القتل ، فقال له : إنى قد حلفت بالهم لئن أنا ظهرت وظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى إلا أن لا أجد أحدا أقتله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، ثم ان بنورازادان دخل بيت المقدس فأقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلى فسألهم عنه ، فقالوا : هذا دم قربان قرّبناه فلم يقبل منا فلذلك هو يغلى كما تراه ، ولقد قرّبنا منذ ثمانمائة سنة القربان فقبل منا الا هذا . قال : ماصدقتمونى الخبر ، فقالوا له لو كان أوّل دمائنا لقبل منا ولكنه قد انقطعت منا الملوك والأنبياء والوحى فلذلك لم يقبل فذبح منهم بنورازادان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رئيسا من رءوسهم ، فلم يهدإ الدم فأمر بسبعة آلاف من بنيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فلما رأى بنورازادان الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يابنى اسرائيل اصدقونى قبل أن أفنيكم واصبروا على أمر ربكم ، فلقد طالما ملكتم فى الأرض تفعلون فيها ما شئتم ؟ اصدقونى قبل أن لا أترك منكم نافخ نار لا أنثى ولا ذكرا إلا قتلته ، فلما رأوا الجد وشدة القتل صدقوه الخبر ، وقالوا : إن هذا دم نبى منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله ، فلو أننا أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه وقتلناه فهذا دمه يغلى فقال بنورازادان : ما كان اسمه ، قالوا يحيي بن زكريا : قال : الآن صدقتمونى بمثل هذا ينتقم منكم ربكم ، فلما رأى بنورازادان أنهم صدقوه خرّ ساجدا ، وقال لمن حوله : أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش كردوس وأبقوا من بقى من بنى اسرائيل ، ثم قال : يايحيي بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحدا من قومك فهدأ دم يحيي بن زكريا باذن الله تعالى ورفع بنورازادان عنهم القتل ، ثم قال آمنت بالذى آمنت به بنو اسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لارب غيره ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رءوس بقية الأنبياء أن بنورازادان حنون صدوق ، وحنون بالعبرانية : حديث الايمان ، ثم ان بنورازادان قال لبنى اسرائيل : إن عدو الله كردوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره وإنى لست أستطيع أن أعصيه ، فقالوا له افعل ما أمرت به فأمرهم فحفروا خندقا ، ثم أمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم فى العسكر ، وأمر بنقل الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ماقتل من مواشيهم وكانوا فوقهم فلم يظن كردوس

الا أن مافي الخندق من بني اسرائيل، فلما بلغ الدم الى عسكره أرسل إلى بنورازادان: أن ارفع عنهم القتل فقد بلغتني دماؤهم ،ثم انه انصرف عنهم الى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أوكاد أن يفنيهم وهي الوقعة الأخيرة التي أنزل الله تعالى فيها قوله تعالى ـ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ـ الآيات فكانت الوقعة الأولى لبختنصر وجنوده ، ثم رد الله لهم الكرة ، وكانت لهم الديانة والرياسة ، وكانت الوقعة الأخيرة لكردوس وجنوده ، فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة ولا راية وانتقل عن الشام ونواحيها الى الروم واليونانية الى أن تناسل بنو إسرائيل وكثروا وانتشروا بعد ذلك ، وأحدثوا الأحداث ، واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود ، فسلط الله عليهم بلطوس ابن اسنابوس فخرب بلادهم وطردهم عنها ، ونزع الله تعالى منهم الملك والرياسة ، وضرب عليهم الذلة ، فليسوا فى أمة من الأمم إلا وعليهم الصغار والذلة والجزية والملك فى غيرهم ، وبقى بيت المقدس خرابا الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره ، والله أعلم .

باب فى ذكر الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها

قال الله تعالى ـ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ـ الآية . واختلفوا فى ذلك المار من كان فقال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسدى : هو عزير بن شرحياء وقال وهب بن منبه وعبد الله بن حميد وعبيد بن عمير : هو أرمياء بن خلقياء ، وكان من سبط هرون بن عمران ، وهو الخضر . واختلفوا أيضا فى القرية التى مر عليها ، فقال عكرمة ووهب وقتادة والربيع : هى بيت المقدس . وقال الضحاك . هى الأرض المقدسة . وقال السدى : هى سلماباد . وقال الكلبي : هى دير سايراباذ ، وقيل دير هرقل ، وقيل هى قرية العنب ، وهى على فرسخين من بيت المقدس ، وكان السبب فى ذلك ماروى محمد بن اسحق بن يسار عن وهب ابن منبه أن بختنصر لما وطىء الشام وخرب بيت المقدس وقتل بنى اسرائيل وسباهم طار أرمياء حتى خالط الوحوش ، فلما ولى بختنصر عنهم راجعا إلى بابل ومعه سبايا بنى اسرائيل أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب فى ركوة وسلة تين حتى غشى إيلياء ، فلما وقف عليها وعاين خرابها قال ـ أنى يحيى هذه الله بعد موتها ـ ، ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد ، وألقى الله تعالى عليه النوم ، فلما نام نزع منه الروح مائة عام ، ومات حماره وعصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد ، وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير عن لحمه ، فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له [يوشك] فقال له ان الله يأمرك أن تنفر بقومك وتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضهما حتى يعودا أعمر ما كانا فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف (١) عامل وجعلوا يعمرونها وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة

---

(١) قوله مع كل قهرمان ثلثمائة ألف الخ، كذا بالأصل وهو مما لا يمكن عادة كما لا يخفى اه مصححه

بخلت في دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى اسرائيل ولم يمت منهم جميعا أحد ببابل وردّهم الله تعالى الى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنة وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه ، فلما مضت المائة عام على عزير أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره فاذا عظامه متفرقة بيض تلوح وسمع صوتا من السماء : أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع بعضها الى بعض واتصل بعضها ببعض ، ثم نادى ثانية : إن الله يأمرك أن تكتسى لحما ودما وجلدا فكان كذلك ، ثم نادى إن الله يأمرك أن تحيا فقام حماره ينهض باذن الله تعالى ، وعمر الله أرمياء فهو الذى يوجد فى الفلوات .

أخبرنى ابن فتحويه الحافظ باسناده عن وهب قال : ليس فى الجنة كلب ولا حمار الا كلب أهل الكهف وحمار أرمياء الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . وقال الذين قالوا ان المار كان عزيرا : إن بختنصر لما خرب بيت المقدس قتل أربعين ألف رجل من قراء التوراة والعلماء بها وقتل فيهم أبا عزير وجده ، وكان عزير يومئذ غلاما قد قرأ التوراة وتقدم فى العلم فأقدمه مع سبايا بنى اسرائيل الى أرض بابل وهو من ولد هرون وكان معه سبعة آلاف من أهل بيت داود ، فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل على دير هرقل على شاطىء دجلة فطاف فى القرية فلم ير فيها أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة فى سلة وفضل العصير فى زق فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال — أنى يحيي هذه الله بعد موتها — لم يشك فى البعث ولكن قالها تعجبا ثم ربط حماره بحبل جديد ونام — فأماته الله مائة عام ثم بعثه — فأتاه جبريل عليه السلام فقال له كم لبثت — قال لبثت يوما أو بعض يوم — وذلك أن الله تعالى أماته ضحى وأحياه آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال لبثت يوم وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم التفت فرأى بقية الشمس ، فقال أو بعض يوم ، فقال له جبريل عليه السلام : بل لبثت مائة عام — فانظر إلى طعامك — يعنى التين وشرابك — يعنى عصير العنب — لم يتسنه — يعنى لم يتغير — وانظر إلى حمارك — . قال قوم وذلك أن الله تعالى لم يمت حماره فأحيا له الله تعالى رأسه وسائر جسده ميت ثم قال له انظر الى حمارك فنظر فرأى حماره قائما كهيئة يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرسن فى عنقه جديدا لم يتغير وهذا قول الضحاك وقتادة ، وتقدير الآية على هذا القول وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها وقال آخرون أراد به عظام حماره كما قدمنا ذكره فذلك قوله تعالى — ولنجعلك آية للناس — أى عبرة ودلالة على البعث بعد الموت . وقال الضحاك هو أنه عاد إلى قريته وأولاده وأولاد أولاده فوجدهم شيوخا وعجائز وهو أسود الرأس واللحية .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ باسناده عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر منازله فانطلق على وهم منه

حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة وكانت أمة له فخرج عنهم عزير ، وهى بنت عشرين سنة وكانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة فقال لها عزير : ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير ما رأيت كذا وكذا سنة أحدا يذكر عزيرا وقد نسيه الناس . قال فانى أنا عزير ؟ قالت سبحان الله فان عزيرا قد فقدناه منذ مائة سنة ولم نسمع له بذكر ، قال فانى أنا عزير كان الله قد أماتنى مائة سنة ثم بعثنى . قالت فان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيعافيه الله تعالى ويشفيه فادع الله تعالى أن يرد علىّ بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك . قال فدعا ربه ومسح بيده على وجهها وعينيها فاستجاب الله له فعوفيت ورد الله عليها بصرها ، ثم أخذ بيدها وقال لها قومى باذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت الى عزير فعرفته ، فقالت أشهد أنك عزير . ثم انها انطلقت الى محلة بنى اسرائيل وهم فى أفنيتهم ومجالسهم وابن عزير شيخ ابن مائة سنة وثمان عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فى المجلس فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها ، فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فردّ علىّ بصرى وأطلق رجلى وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه . قال فنهض الناس وأقبلوا اليه فقال ابنه : كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفه فاذا هى بحالها فعرف عند ذلك أنه عزير عليه الصلاة والسلام

باب فى ذكر تمام قصة عزير عليه السلام وحاله بعد ما رجع الى قومه

قال الله تعالى ــ وقالت اليهود عزير ابن الله ــ . روى عطية العوفى عن ابن عباس قال : قال كان عزير من أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت فيهم ، فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوها وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فأرسل الله عليهم مرضا فاستطلقت بطونهم حتى كان الرجل يمس كبده حتى نسوا التوراة وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم ، وكان عزير قد أمر علماءهم أن يدعوا الله تعالى فدعا الله هو وإياهم وابتهل أن يرد اليه ما نسخ من صدره ، فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعاد إليه الذى كان ذهب من صدره من التوراة فأذن فى قومه ، وقال : ياقوم قد آتانى الله التوراة وردّها إلى فطفق يعلمهم فمكثوا ماشاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم التوراة ، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك بعد ذهابه منهم ، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله ، فقالوا والله ما أوتى عزير هذا الا لأنه ابن الله .

قال السدى وابن عباس فى رواية عمار : انما قالت اليهود هذا لأن العمالقة ظهروا عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهرب علماؤهم الذين بقوا ودفنوا التوراة فى الجبال وغيرها ولحق عزير بالجبال

والوحوش ، وجعل يتعبد فى رءوس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل الا يوم عيد ، وجعل يبكى ويقول يارب تركت بنى اسرائيل بغير عالم وجعل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه فنزل مرة الى العيد فلما رجع فاذا هو بامرأة قد تمثلت له عند قبر من تلك القبور وهى تبكى وتقول : يامطعماه يامكسياه فقال لها عزير : ياهذه اتقى الله واصبرى واحتسبى ، أماعلمت أن الموت سبيل الناس ، ثم قال لها ويحك من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل يعنى زوجها الذى كانت تندبه ، فقالت الله تعالى . قال فان الله عز وجل حى لا يموت أبدا . قالت ياعزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى اسرائيل قال الله تعالى . قالت فلم تبكى عليهم وقد علمت أن الموت حق وأن الله حى لا يموت ، فلما علم عزير أنه قد خصم ولى مدبرا ، فقالت له : ياعزير إنى لست امرأة ولكنى الدنيا ، أما إنه سينبع لك فى مصلاك عين وتنبت شجرة فكل من تلك الشجرة واشرب من ماء تلك العين واغتسل وصل ركعتين فانه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئا فما أعطاك فخذمنه، فلما أصبح نبعت العين فى مصلاه ونبتت شجرة ففعل ما أمر به فجاء شيخ وقال له افتح فاك ففتح فاه فألقى فيه شيئا كهيئة القوارير ثلاث مرات ، ثم قال له ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك . قال فدخل وجعل لايرقع قدمه الازيد فى علمه فرجع اليهم وهو من أعلم الناس بالتوراة ثم قال يابنى اسرائيل قد جئتكم بالتوراة ، قالوا ياعزير ما كنت كذابا فربط على كل اصبع له قلما وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة كلها عن ظهر قلبه فأحيا لهم التوراة والسنة فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التى دفنوها وقابلوها بتوراة عزير فوجدوها مثلها ، فقالوا ما أعطى الله له هذا إلا لأنه ابنه ، وقال الكلبى : ان بختنصر لما ظهر على بنى اسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة وكان عزير إذ ذاك غلاما صغيرا فاستصغره فلم يقتله ولم يدر أنه قد قرأ التوراة ، فلما مات مائة سنة ورجعت بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى فيهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية فأتاهم عزير وقال أنا عزير فكذبوه، وقالوا ان كنت عزيرا كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها ، وقال هذه التوراة ، ثم ان رجلا قال : إن أبى حدثنى عن جدى أن التوراة جعلت فى خابية دفنت فى كرم فلان فى موضع كذا فانطلقوا معه حتى احتفروا وأخرجوا الخابية والتوراة فيها فأخذوها وقابلوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منها آية ولاحرفا فعجبوا ، وقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل واحد منا بعد ماذهبت من قلوبنا إلاأنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله .

مجلس فى ذكر غزوة بختنصر العرب وقصة يوحنا وخراب حضور

قال الله تعالى ـ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ـ الى قوله ـ حصيدا خامدين ـ قال هشام محمد بن الكلبى وغيره . كان بدء نزول العرب أرض العراق واتخاذهم الحيرة

والأنبار منزلا أن الله تعالى أوحى الى يوحنا بن برخيا بن رزيابيل بن سنسبل وسنبسل هذا هو أول من اتخذ الطفيشل كان من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر وأمره أن يغزو العرب الذين لاأغلاق لبيوتهم ولاأبواب ويطأ بلادهم ويقتل مقاتلهم ويستبيح أموالهم لكفرهم بى واتخاذ الآلهة دونى وتكذيبهم أنبيائى ورسلى وذلك بعد قتل أهل حضور وهى بلدة باليمن بعث الله فيهم نبيا فأقبل يوحنا حتى قدم على بختنصر ببابل فأخبره بما أوحى الله تعالى اليه وقص عليه ماأمره به وذلك فى زمن معد بن عدنان فأوحى الله تعالى إلى يوحنا إنى قد سلطت بختنصر على أهل قرية عربة لأنتقم به منهم فعليك بمعد بن عدنان الذى من ولده النبى محمد صلى الله عليه وسلم الذى أخرجه فى آخر الزمان وأختم به النبوّة وأرفع به من أطاعه فخرج تطوى له الأرض حتى سبق بختنصر فلقى عدنان وقد تلقاه فنظر الى معد ولمعد يومئذ اثنتا عشرة سنة فحمله يوحنا على البراق وأردفه خلفه فانتهيا الى أرض نجران من ساعتهما ، قالوا ووثب بختنصر على من كان فى بلاده من تجار العرب وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والامتيار فجمع من ظفر به منهم فبنى لهم ديرا على نجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه فقيدوا ووكل بهم حرسا وحفظة ، ثم نادى فى الناس بالغزو فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت اليه الطوائف منهم مسالمين مستأمنين فاستشار بختنصر فيهم يوحنا ، فقال ان خروجهم اليك من بلادهم قبل نهوضك اليهم رجوع منهم عما كانوا عليه فأقبل منهم وأحسن اليهم . قال فأنزلهم بختنصر السواد على شاطئ الفرات والتقى بختنصر مع العرب فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر وسار حتى بلغ الحجاز والتقى عدنان فى قومه من العرب وبختنصر بذات عرق فهزمهم ونادى منـاد من جوف السماء يا لثارات الأنبياء فأخذتهم السيوف من خلفهم ومن بين أيديهم فندموا على ذنوبهم ونادوا بالويل فذلك قوله تعالى ــ فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون ــ أى يسرعون هاربين فأخذتهم السيوف ، وقالت لهم الملائكة ــ لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم ــ الآية ، فلما عرفوا أنه واقع بهم أقروا بالذنوب ــ قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم ــ فما زالوا يدعون بها حتى هلكوا فذلك قوله تعالى ــ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين ــ ثم رجع بختنصر الى بابل بما جمع من سبايا العرب فألقاهم فى الأنبار فقيل أنبار العرب وانضم اليه المستأمنون من العرب وخلى بختنصر أهل الدير بعد فراغه من غزو العرب وابتنوا لأنفسهم بلدين فسموا إحداهما الأنبار والأخرى الحيرة وخالطهم بعد ذلك النبط ومات عدنان وبقيت بلاد العرب خرابا فى حياة بختنصر ، فلما مات بختنصر رجع معد بن عدنان ومعه أنبياء بنى اسرائيل حتى أتى مكة فأقام أعلامها وحج الأنبياء معه .

مجلس فى ذكر لقمان الحكيم عليه السلام

وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لابنه

قال الله تعالى ـ ولقد آتينا لقمان الحكمة ـ يعنى العقل والعلم والعمل به والاصابة فى الأمور . واختلفوا فى نسبه فقال محمد بن اسحق بن يسار هو لقمان بن باعور بن ناخور بن تارخ وهو آزر أبو ابراهيم عليه السلام ، وقال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام ، وقال مقاتل كان ابن خالة أيوب ، وقال الواقدى كان قاضى بنى اسرائيل ، وقال آخرون كان عبدا ، وقال مجاهد كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وروى الأوزاعى عن عبد الرحمن بن حرملة قال جاء أسود الى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب لاتحزن من أجل أنك أسود فانه قدكان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا من سودان مصر ذا مشافر .

حدثنا الامام أبو منصور الحمشاوى لفظا باسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان عبدا حبشيا نجارا .

وأخبرنى ابن فتحويه . باسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان خياطا ، واتفق العلماء أنه كان حكيما ولم يكن نبيا إلاعكرمة فانه كان يقول : ان لقمان كان نبيا تفرد بهذا القول .

حدثنا أبو منصور الحمشاوى عنه باسناده أنه قال كان نبيا . قال بعضهم خير لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة .

وروى نافع عن عبد الله بن عمر . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «حقاأقول لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا عصمه الله تعالى كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه الله فمن عليه بالحكمة » وذلك أنه كان نائما نصف النهار فجاءه النداء يالقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض تحكم بين الناس بالحق ، فأجاب الصوت فقال . ان خيرنى ربى قبلت العافية ولم أقبل البلوى وان عزم على فسمعا وطاعة فانى أعلم انه إن فعل بى أعاننى وعصمنى ، فقالت الملائكة لم يالقمان ؟ قال لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب ، فأرجو ان ينجو وان أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من ان يكون شريفا ، ومن تخير الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولاتبقى له الآخرة ، فتعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه فتكلم بها ، ثم نودى داود بعده فقبلها ولم يشترط بها ما اشترط لقمان فهم بالخطيئة غير مرة كل ذلك ويعفو الله عنه ، وكان لقمان يوازره بحكمته ، فقال له داود طوبى لك يالقمان أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وابتلى بالبلية والفتنة .

باب فى ذكر بعض ماروى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة فى القرآن

قال الله تعالى ــ ولقد آتينا لقمان الحكمة ، وقال أيضا ــ وإذقال لقمان لابنه وهو يعظه يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ــ الآيات .

أخبرنا أبوعبدالله الحسين الدينورى عن عكرمة قال كان لقمان من أهون مملوك على سيده ، قال فبعثه مولاه مع رفقة له إلى بستان له ليأتوه بشىء من ثمره فجاءوا وليس معهم شىء وقد أكلوا الثمرة وأحالوا على لقمان ، فقال لمولاه إن ذا الوجهين لا يكون عندالله أمينا فاسقنى وإياهم ماء جميعا ، ثم أرسلنا لتقذفه ففعل فجعلوا يتقايئون الفاكهة وجعل لقمان يتقايأ ماء نقيا فعرف صدقه من كذبهم ، قال فأول ماروى من حكمته انه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان إن طول الجلوس على الخلاء يتجع منه الكبد ويورث الباسور وتصعد الحرارة الى الرأس فاجلس هوينا وقم قال فخرج وكتب حكمته على باب الحش ، قال وسكر مولاه يوما فخاطر أقواما على ان يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ماوقع فيه فدعا لقمان ثم قال له لمثل هذا اليوم كنت خبأتك قال أخرج كرسيك وأباريقك ثم اجمعهم فلما اجتمعوا قال لهم على أى شىء خاطرتمونى قالوا على ماء هذه البحيرة فقال لهم لقمان إن لها مواد فاحبسوا عنها موادها حتى يشربها قالوا وكيف نستطيع ان نحبس موادها فقال لقمان وكيف يستطيع شربها ولها مواد

أخبرنا ابن فتحويه باسناده عن خالد الربعى قال : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له سيده اذبح لنا شاة فذبح له شاة ، فقال ائتنى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ، فقال له أما كان فيها شىء أطيب من هذا قال لا فسكت عنه ، ثم قال له اذبح لنا شاة فقال ائتنى بأخبث مضغتين منها فجاءه باللسان والقلب ، فقال له أمرتك ان تأتينى بأطيبها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب وأمرتك ان تاتينى بأخبثها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب ، فقال له إنه ليس باطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وأخبرنا عبدالله بن حامد باسناده عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان الحكيم ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس .

وأخبرنا عبدالله باسناده عن أبى هريرة قال : مرّ رجل بلقمان والناس مجتمعون عليه فقال له ألست العبد الأسود الذى كنت راعيا بموضع كذا وكذا ؟ قال بلى . قال فمابلغ بك ما أرى ؟ قال صدق الحديث وأداء الأمانة وترك مالايعنينى .

أخبرنى الحسين بن محمد عن أبيه ، قال قال لقمان ضرب الوالد لولده كالماء للزرع . وعن عبدالله ابن دينار أن لقمان قدم من سفر فتلقاه غلامه فى الطريق فقال له مافعل أبى ؟ قال مات . قال الحمدلله

ملكت أمري . قال فما فعلت امرأتي ؟ قال ماتت . قال جدد فراشي . قال مافعلت أختي ؟ قال ماتت ، قال سترت عورتي . قال مافعل أخي ؟ قال مات قال انقطع ظهري .

أخبرنا الحسين بن الحسن بن محمد باسناده عن شقيق قال قيل للقمان أي الناس أشر ؟ قاله الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا . وقيل للقمان ما أقبح وجهك . قال تعيب بهذا على النقش أو على الناقش .

وروى المحاربي عن سفيان الثوري قال : قال لقمان لابنه إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثيرون فلتكن سفينتك فيها تقوى الله وليكن حشوها إيمانك بالله وشراعها التوكل على الله فلعلك تنجو وما أظنك ناجيا . يابني كيف لايخاف الناس ما يوعدون وهم في كل يوم ينقصون يابني خذ من الدنيا بلغة ولا تدخلن فيها دخولا فتضر فيها بآخرتك . ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس وصم صياما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك عن الصلاة فان الصلاة عند الله أعظم من الصوم . يابني لاتتعلم العلم لتباهي به العلماء وتماري به السفهاء أو ترائي به في المجالس ولا تترك العلم زهادة فيه ورغبة في الجهالة . يابني اختر المجالس على عينك فان رأيت قوما يذكرون الله فاجلس اليهم فانك إن تك عالما ينفعك علمك ويزيدك علما وإن تكن مستأهلا يعلموك ولعل الله أن يطالعهم برحمته فتعمك معهم وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس اليهم فانك إن تكن عالما لا ينفعهم علمك وان تكن جاهلا يزيدوك جهلا فلعل الله يطالعهم بالعقوبة فتعمك . يابني لا تضع برك إلا عند راعيه كما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة . ومن يحب المراء يشتم ومن يدخل مداخل السوء يتهم ومن يقارن قرين السوء لايسلم ومن لايملك لسانه يندم . يابني كن عبدا للأخيار ولا تكن خليلا للاشرار . يابني كن أمينا تكن غنيا ولا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر . يابني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم ، والطف بهم في السؤال إذا تركوك ولا تعجزهم فيملوك ، يابني لا تطلب من الأمر مدبرا ولا ترفض منه مقبلا فان ذلك يقل الرأي ويزري بالعقل ، يابني إن تأدبت صغيرا انتفعت كبيرا . يابني إذا سافرت فلا تأمن على دابتك فان ذلك سريع في إدبارها وليس ذلك من فعل الحكماء إلا أن تكون في محل يمكنك فيه التمدد واذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وسر ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك وإياك والسفر في أول الليل ، وعليك بالتعريس والادلاج من نصف الليل إلى آخره . وسافر بسيفك وخفك وعمامتك وكسائك وسقائك وإبرتك وخيوطك ومخرزك وتزود من الأدوية ماتنتفع به أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقا موافيا إلا في معصية الله ، يابني إياك والتقنع فانه بالنهار شهرة وبالليل ريبة . يابني لاتأمر الناس بالبر وتنسى نفسك فيكون مثلك مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه . يابني لاتحقرن من الأمور صغارها إن الصغار غدا تصير كبارا . يابني إياك والكذب فانه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك فعند ذلك يذهب

حياؤك وبهاؤك وجاهك وتهان ولايسمع منك إذا حدثت ولاتصدق إذا قلت ولاخير فى العيش اذا كان هكذا . يابنى إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر فلايستقيم لك على هذه الخصال صاحب ولا يزال لك من الناس عليها مجانب وألزم نفسك التودد فى أمورك والصبر على مرارات الأحوال وحسن مع جميع الناس خلقك فان من حسن خلقه وأظهر بشره وبسطه حظى عند الأبرار وأحبه الأخيار وجانبه الفجار . يابنى لاتعلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالأحزان وإياك والطمع وارض بالقضاء واقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسر نفسك وتستلذ حياتك وان أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك عما فى أيدى الناس فان ما بلغ الأنبياء الصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم عما فى أيدى الناس . يابنى ان الدنيا قليل وعمرك فيها قليل من قليل وقدبقى قليل من قليل القليل يابنى اجعل معروفك فى أهله ولا تضعه فى غير أهله فتخسره فى الدنيا وتحرم ثوابه فى الآخرة وكن مقتصدا ولا تكن مبذرا ولا تمسك المال تقتيرا ولا تعطه تبذيرا . يابنى الزم الحكمة تكرم بها وأعزها تعزبها وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل . يابنى للحاسد ثلاث علامات يغتاب صاحبه إن غاب ويتملق إذا شهد ويشمت فيه بالمصيبة . تم خبر لقمان الحكيم وما وصى لابنه أنعم والله أعلم .

مجلس فى قصة بلوقيا

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجزرقى باسناده عن عبد الله بن سلام الاسرائيلى قال كان فى بنى اسرائيل رجل يقال له أوشيا وكان من علمائهم وكان كثير المال وكان إماما لبنى اسرائيل وكان قد عرف نعت النبى عليه السلام وأمته فى التوراة فخبأه وكتم عنهم وكان له ابن يقال له بلوقيا خليفة أبيه فى بنى اسرائيل وكان ذلك بعد سليمان فلما مات والده أوشيا وبقى بلوقيا والإمامة والقضاء فى يده فتش يوما خزائن والده فوجد فيها تابوتا من حديد مقفلا بقفل من حديد فسأل الخزان عن ذلك فقالوا لاندرى فاحتال على القفل حتى فكه فاذا فيه صندوق من خشب الساج ففكه فاذا فيه أوراق فيها نعت النبى صلى الله عليه وسلم وأمته مختومة بالمسك ففكها وقرأ مافيها على بنى اسرائيل ثم انه قال الويل لك يا أبت من الله فيما كتبت وكتمت من الحق عن بنى اسرائيل فرده إلى أهله فقال بنواسرائيل يابلوقيا لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار فقال ياقوم لاضير إنما تبع حظ نفسه وخسر دينه ودنياه فألحقوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم وأمته بالتوراة قال وكانت أم فلوقيا من الأحياء فاستأذنها فى الخروج إلى بلاد الشام وكانوا يومئذ ببلاد مصر فقالت لهوما تصنع بالشام ؟ فقال أسأل عن محمد وأمته فلعل الله تعالى أن يرزقنى الدخول فى دينه فأذنت له فبرز بلوقيا ليدخل بلاد الشام فبينما هو يسير اذ انتهى الى جزيرة من جزائر البحر فاذا هو بحيات كأمثال الابل عظما وفى الطول ماشاء الله وهن يقلن

لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما رأينه قلن له أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك ؟ فقال اسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل فقلن وما اسرائيل قال من ولد آدم فقلن سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم اسرائيل . قال فقال لهم بلوقيا أيتها الحيات من أنتن فقلن نحن من حيات جهنم ونحن نعذب الكفار فيها يوم القيامة قال بلوقيا وما تصنعن ههنا وكيف تعرفن محمدا فقلن إن جهنم تفور وتزفر فى كل سنة مرتين فتلقينا إلى ههنا ثم نعود اليها فشدة الحر من حرها فى الصيف وشدة البرد من بردها فى الشتاء وليس فى جهنم درك من دركاتها ولا باب من أبوابها ولا سرادق من سرادقاتها إلا وقد كتب الله عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك عرفنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، قال بلوقيا أيتها الحيات هل فى جهنم مثلكن أو أكبر منكن فقلن إن فى جهنم حيات تدخل إحدانا فى أنف إحداهن وتخرج من فيها ولا تشعر بها لعظمها قال فسلم بلوقيا عليهن ومضى حتى أتى جزيرة أخرى فاذا هو بحيات كأمثال الجذوع والسوارى وعلى متن إحداهن حية صغيرة صفراء كلما مشت اجتمعت الحيات حولها فاذا نفخت صرن تحت الأرض خوفا منها قال فلما رأيتها ورأتنى قالت أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك قلت اسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل من ولد ابراهيم الخليل فأخبرينى أيتها الحية من أنت قالت أنا موكلة بالحيات واسمى تمليخا ولولا أنى موكلة بهن لقتلن بنى آدم كلهم فى يوم واحد ولكنى إذا صفرت صفرة واحدة وسمعن صوتى دخلن تحت الأرض ولكن يابلوقيا ان لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فأقرئه منى السلام ثم مضى بلوقيا الى بلاد الشام فأتى بيت المقدس وكان بها حبر من أحبارهم يسمى عفان الحبر فأتاه فسلم عليه فقال له يابلوقيا ليس هذا زمان محمد ولا زمان أمته بينك وبينه قرون وسنون ثم قال عفان الحبر يابلوقيا أرنى موضع الحية التى اسمها تمليخا فان قدرت أن أصيدها رجوت أن أنال معك ملكا عظيما ونحيا حياة طيبة إلى أن يبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فندخل فى دينه ، فمن حرص بلوقيا على الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم قال أنا أريك المكان فقام عفان وأخذ تابوتا من حديد وعمل فيه قدحين من فضة فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ثم سارا جميعا حتى انتهيا الى موضع الحية ففتحا باب التابوت وتنحيا فجاءت الحية تبغى الرائحة فدخلت التابوت فشربت اللبن والخمر فسكرت ونامت ، فقام عفان ودب إلى التابوت دبيبا خفيفا فأغلق عليها باب التابوت وحصنه وأخذها ومرا جميعا فلم يمرا بشجرة ولا نبت إلا كلمهما باذن الله تعالى فمرا بشجرة يقال لها القرمل فقالت ياعفان من يأخذنى ويقطعنى ويدقنى ويعصر مائى ودهنى ويطلى به قدميه فانه يخوض البحار السبعة فلا تبتل قدماه ولا يغرق ، فقال عفان إياك له طلبت ثم انه قطع تلك الشجرة فدقها وعصر ماءها وأخرج دهنها وجعله فى كوز ثم خلى عن الحية فطارت بين السماء والأرض وهى تقول يابنى آدم ما أجرأكم على ربكم ولن تصلوا الى ما تريدون قال فذهبت الحية وسار عفان وبلوقيا الى البحر فطليا أقدامهما ثم دخلا فى اليم ومشيا فى الماء كأنما كانا يمشيان

على الأرض حتى قطعا البحر الأول ثم الثانى فاذاهما بجبل فى وسط البحر ليس بعال ولا متدان ترابه كالمسك عليه غمام أبيض وفيه كهف وفى الكهف سرير من ذهب وعلى السرير شاب مستلق على قفاه ذو وفرة واضع يده اليمنى على صدره والشمال على بطنه كالنائم وليس بنائم وهو ميت وعلى رأسه تنين وخاتمه بالشمال وكان هذا سليمان بن داود عليه السلام وكان ملكه فى خاتمه وكان خاتمه من ذهب وفصه من ياقوت أحمر مربع مكتوب عليه أربعة أسطر فى كلّ سطر اسم الله الأعظم وكان عند عفان علم من الكتاب ، فقال بلوقيا من هذا الميت ياعفان ؟ فقال هذا سليمان بن داود نريد أن نأخذ خاتمه ونملك ملكه ونرجو الحياة الى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقال بلوقيا أليس قد سأل ربه فقال ربّ هب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى فأعطاه إياه على ما سأل ولا ينال ملك سليمان الى يوم القيامة لدعائه ؟ فقال عفان يابلوقيا اسكت إن الله معنا ومعنا اسم الله الأعظم ولكن أنت يابلوقيا اقرإ التوراة فتقدم عفان لينزع الخاتم من يد سليمان من اصبعه فقال التنين ما أجرأك على ربك إن غلبتنا بأسماء الله تعالى فنحن نغلبك بقدرة الله تعالى ، قال فكلما نفخ التنين ذكر بلوقيا اسم الله تعالى فلم تعمل نفخات التنين فيهما شيئا ودنا عفان من السرير لينزع الخاتم من اصبعه فاشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل عليه السلام من السماء ، فلما نزل صاح بهما صيحة ارتجت الأرض والجبال وتزلزلت منها فاختلطت مياه البحار وهاجت والتطمت حتى صار كل عذب مالحا من شدة صيحته وسقط عفان على وجهه وسقط بلوقيا على وجهه ونفخ التنين فخرج من بطنه شعلة كأنها البرق الخاطف واحترق عفان وعادت نفخته فى البحر فما مرت النفخة بشىء إلا أحرقته ولا بماء الا سخنته وأغلته ، وإن بلوقيا لما رأى العذاب ذكر اسم الله الأعظم فلم ينله مكروه . ثم تراءى جبريل عليه السلام فى صورة رجل فقال له يا ابن آدم ما أجرأك على الله ، فقال له بلوقيا من أنت يرحمك الله ؟ فقال له أنا جبريل أمين رب العالمين ، فقال بلوقيا ياجبريل إنما خرجت حبا لمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمده . قال فبذلك نجوت . ثم صعد جبريل عليه السلام الى السماء ومضى بلوقيا فطلى قدميه بذلك الدهن فضلّ الطريق الذى جاء منه وأخذ فى طريق أخرى فسار ومضى ستة أبحر ووقع فى السابع فاذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الورس والزعفران وأشجارها الزيتون والنخل والرمان . فقال بلوقيا ما أشبه هذا المكان بالجنة على ما وصفت . قال فدنا بلوقيا من بعض الشجر فتناول من ثمرها ، فقالت الشجرة ياخاطىء يا ابن الخاطىء لاتأخذ منى شيئا فبقى متعجبا ، واذا بحذاء الشجرة قوم يترا كضون وبأيديهم سيوف مسلولة وهم يتناوشون بعضهم بعضا بالضرب والطعن فلما رأوا بلوقيا أحاطوا به وأحدقوا من ورائه وهموا به سوءا، فذكر بلوقيا اسم الله فتعجبوا منه وهابوه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم لااله الا الله محمد رسول الله ثم قالوا له من أنت ياعبدالله فقال أنا من بنى آدم فقالوا ما اسمك ؟ قال اسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل ، فقالوا نعرف آدم ولا نعرف إسرائيل

فما الذى أوقعك الينا ، فقال إنى خرجت فى طلب نبي يسمى محمدا صلى‌الله‌عليه‌وسلم وانى قد ضللت الطريق الذى أردته ورأيت من الأهوال كذاوكذا ، فقالوا يابلوقيا نحن من الجن المؤمنين ونحن مع ملائكة الله فى السماء ، ثم نزلنا الى الأرض وقاتلنا كفرة الجن ونحن ههنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم الى يوم القيامة ولسنا نموت الى يوم القيامة وأنت تصير معنا ، فقال بلوقيا لملك الجن وكان اسمه صخرا ياصخر أخبرنى عن خلق الجن كيف كان ؟ قال لما خلق الله تعالى جهنم خلق لهاسبعة أبواب وسبعة ألسنة وخلق منها خلقين خلقا فى سمائه سماه جبليت وخلقا فى أرضه سماه تمليت ، فأما جبليت فانه خلق فى صورة أسد وتمليت فى صورة ذئب ، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى وجعل طول كلّ واحدمنهما مسيرة خمسمائة عام وجعل ذنب الذئب بمنزلة ذنب العقرب وذنب الأسد بمنزلة ذنب الحية ، وأمرهما أن ينتفضا فى النار انتفاضة فسقط من ذنب الذئت عقرب ومن ذنب الأسد حية فحيات جهنم وعقاربها من ذلك ، ثم أمرهما أن يتنا كحا فحملت الذئب من الأسد فولدت سبع بنين وسبع بنات فأوحى الله اليهم أن يزوجوا البنين من البنات كما أمر آدم فستة من البنين أطاعوا وواحد لم يطع ولم يتزوج فلعنه أبوه وهو إبليس وكان اسمه الحارث وكنيته أبومرة فهذا أول خلق الجان يابلوقيا ، وان دوابنا لاتثبت مع الانس ولكننى أجلل فرسى وأبرقعه حتى لايعرف من راكبه وأركب عليه على اسم الله تعالى فاذا انتهيت الى أقصى أعمالى على ساحل بحر كذا وكذا فاذا أنت بشيخ وشاب ومشايخ معهما فانك ستلقاها هناك فادفع الفرس اليهما وامش فى حفظ الله راشدا فوركب بلوقيا على ذلك الفرس حتى انتهى اليهم فسلم على الشيخ والشاب ونزل عن الفرس ودفعها اليهما ، وكان قد فصل من عند ملك الجن عند الغداة وبلغ اليهما نصف النهار فقالا له يابلوقيا منذكم فارقت الملك ؟ قال فارقته من غدوة قالا ما أسرع ماجئت قد أتعبت فرسنا فقال بلوقيا ما مددت اليه يدا ولا حركت عليه رجلا ولم أركضه ركضا. قالا بلى ولكن فرسنا أحس بك وبمنزلتك وثقلك فطار مابين السماء والأرض ليريح نفسه منك فكم تراه جاب بك ؟ قال خمس فراسخ أو أكثر قالا بل جاب بك فى هذه المدة مسيرة مائة وعشرين سنة ، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون قاف وأنت لا تعلم . قال فحلوا عنه السرج واللجام والبرقع فاذا العرق يقطر ويسيل من كل شعرة منه وله جناحان انقضا وتكسرا من كثرة الطيران والدوران والأعياء والكلال ، قال بلوقيا هذا والله لعجيب فقالوا عجائب الله لا تنقضى ثم سلم عليهما فمضى فركب اليم فبينماهو يسير إذرأى ملكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول لاإله‌الاالله محمد رسول الله فسلم عليه بلوقيا فقال له الملك من أنت أيها الخلق المخلوق ؟ قال أنا بلوقيا وأنامن بنى اسرائيل من‌ولد آدم ثم قال‌له بلوقيا أيها الملك ماسمك ؟ قال‌اسمى يوحاييل وأنا ملك موكل بظلمة الليل وضوء النهار قال فما بال يديك مبسوطتين ؟ قال فى يدى اليمنى ضوء النهار وفى اليداليسرى ظلمة الليل ، ولو سبق‌النهار الليل أضاءت السموات والأرض ولم‌يكن الليل أبدا ، ولو سبقت الظلمة

النور لأظلمت السموات والأرض ولم يكن ضوء أبدا وبين يدىّ لوح معلق فيه سطران سطر أبيض وسطر اسود ، فاذا رأيت السواد ينقص نقصت الظلمة وإذا رأيت السواد يزداد زدت الظلمة واذا رأيت السطر الأبيض يزداد زدت النهار واذا انتقص نقصت فلذلك الليل فى الشتاء أطول من النهار والنهار أقصر وفى الصيف النهار أطول والليل أقصر ، ثم سلم بلوقيا ومضى فاذا هو بملك آخر قائم يده اليمنى فى السماء ويده اليسرى فى الأرض وقدماه تحت الثرى وهو يقول لاإله إلا الله محمد رسول الله فسلم عليه بلوقيا فقال له الملك ممن أنت وما اسمك ؟ قال اسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل واسرائيل من ولد آدم ، ثم قال بلوقيا أيها الملك مااسمك قال مخاييل قال فما بالى أرى يمينك فى السماء وشمالك فى الماء ؟ قال أحبس الريح بيمينى والماء بشمالى ولو رفعت شمالى عن الماء لزخرت البحار كلها فى ساعة واحدة وتلاطمت باذن الله وأغرقت الدنيا ومن عليها ويدى اليمنى فى الهواء أحبس الريح عن ولد آدم لأن فى السماء ريحا تسمى الهائمة ولو أرسلتها لنسفت من فى السماء ومن فى الأرض . قال فسلم بلوقيا ومضى فاذا هو بأربعة من الملائكة أحدهم رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس النسر والثالث رأسه كرأس الأسد والرابع رأسه كرأس الانسان ، فأما الملك الذى رأسه كرأس الثور ،فانه يقول اللهم ارحم البهائم ولا تعذبها وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف واجعل فى قلوب بنى آدم لها الرأفة والرحمة كيلا يكيدوهن ولا يكلفوهن فوق طاقتهن ، واجعلنى من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وأما الذى رأسه كرأس النسر ، فيقول اللهم ارحم الطيور وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وأما الذى رأسه كرأس الأسد فيقول اللهم ارحم السباع ولاتعذبها وادفع عنها حر الصيف وبرد الشتاء واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وأما الذى رأسه كرأس الانسان ، فانه يقول لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم ارحم المسلمين ولا تعذبهم وادفع عنهم النار واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامه ، ومضى بلوقيا حتى انتهى الى جبل قاف فاذا هو بملك قائم على جبل قاف وإن جبل قاف محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء وذلك قوله تعالى ــ قٓ والقرآن المجيد ــ فسلم بلوقيا على الملك فقال له الملك من أنت ؟ قال أنا بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل من ولد آدم فقال له الملك وأين تريد ؟ قال خرجت فى طلب نبى من العرب يقال له محمد ولست أرى أثره ولا أدرى بأى بلاد أنا فقال له الملك لاإله إلا الله محمد رسول الله قد أمرنا بالصلاة على محمد فقال بلوقيا أيها الملك مااسمك قال اسمى خزقيائيل قال وماتصنع ههنا قال أنا أمين الله على جبل قاف وفى يده وتر مرة يعقده ومرة يحله وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر فى كفه قال فاذا أراد الله أن يضيق على عباده أمرنى أن أمد الوتر وأعقده وأوثق عروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد وإذا أراد الله أن يوسع عليهم أمرنى أن أرخى الوتر فأفتق عروق الأرض فتتسع الدنيا على العباد وإذا أراد الله أن يخوف قوما أمرنى أن أحرك عروق تلك الأرض فمن

أجل ذلك موضع يهتز وموضع لا يهتز وموضع يتزلزل وموضع لا يتزلزل قال بلوقيا أيها الملك ماوراء قاف قال وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التى جئت منها فى كلّ دنيا أربعمائة ألف باب فى كلّ باب أربعمائة ألف ضعف مثل الدنيا التى جئت منها وليست فيها ظلمة بل كلها نور أرضها ذهب عليها حجب من نور وسكانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم وهم يقولون لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ألهموا ولذلك خلقوا وبه أمروا الى يوم القيامة قال بلوقيا فما وراءهم أيها الملك قال حجب ووراء الحجب علم الله وقدرته قال بلوقيا أخبرنى أيها الملك على أى شىء هذا الجبل موضوع قال بين قرنى ثور واسمه بهموت وهو أبيض رأسه بالمشرق ومؤخره بالمغرب بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربه تعالى على صخرة بيضاء قال بلوقيا أيها الملك كم الأرضون وكم البحار ؟ قال الأرضون سبع والبحار سبع قال فجهنم أين هى ؟ قال تحت الأرض السابعة ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى حجاب طرفه فى السماء وأسفله فى الماء عليه باب مقفل وعلى القفل خاتم من نور وعلى الباب ملكان أحدهما رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور وهما يقولان لاإله إلا الله محمد رسول الله فسلم عليهما بلوقيا فردا عليه السلام وقالا لبلوقيا أيها الخلق المخلوق ممن أنت وما اسمك ؟ قال اسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل من ولد آدم فقالا لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسماء ماعرفناها . قال كيف تعرفون محمداً وماتعرفون آدم ومحمد من نسله فقالا هكذا خلقنا وبهذا أمرنا ولم نسمع باسم آدم واسرائيل ، فقال بلوقيا افتحا لى الباب حتى أجوز فقالا لانحسن فتحه وان لله ملكا فى السماء اسمه جبريل عسى أن يقدر على فتحه فدعا بلوقيا ربه . قال فأمر الله تعالى جبريل فنزل إليه وفتح له ، ثم قال له ياابن آدم ما أجرأك على الله ، ثم جاز بلوقيا حتى انتهى إلى بحرين بحر مالح وبحر عذب فرأى بينهما حاجزا وفى البحر المالح جبلا من ذهب وفى البحر العذب جبلا من فضة وبينهما ملك على صورة النملة ومعه ملائكة على تلك الصورة فسلم عليهم بلوقيا فردوا عليه السلام ، وقالوا من أنت فأخبرهم بقصته ، ثم قال لهم بلوقيا من أنتم : قالوا نحن أمناء الله على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان ، فقال لهم بلوقيا ماهذا الجبل الأحمر ؟ قالوا هذا كنز الله فى الأرض فكل ذهب يظهر فى الأرض من هذا الجبل الأحمر وكل ماء فى الدنيا من ماء عذب أو ملح انما هو من ماء هذين البحرين وماؤهما انما يجىء من تحت العرش من قبل أن يخلق الله الملائكة والجبل الأبيض من فضة وهو كنز الله ، وكل فضة فى الدنيا ومعدن من فضة فمن عروق هذا الجبل ، ثم سلم بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى بحر عظيم ، فاذا هو بحيتان كثيرة عظيمة قد اجتمعت وحوت عظيم يقضى بين الحيتان . فلما نظر إلى بلوقيا ، قال لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فسلم عليه بلوقيا ، ثم قال له من أنت فأخبره بحاله وأنه خرج يطلب النبى صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، ثم قال له يابلوقيا ان لقيت محمداً

فأقرئه منى السلام ، فقال بلوقيا نعم ان شاء الله تعالى ثم إنه قال : أيتها الحيتان إنى جائع عطشان وماء هـذا البحر مالح وما أجد ما آكل وماأشرب . قال : فقال الحوت الأعظم يابلوقيا سأطعمك طعاما إذا أكلته تسير أربعين سـنة لا تعيا ولاتنـام ولاتجوع ولاتعطش فأطعمه ذلك الحوت قرصا أبيض فأكله ومضى حتى بلغ العمران ، ومن قبل أن يبلغه رأى شابا يجرى على الماء كأنه البـدر ، فقال له بلوقيا ، من انت فقال ؟ سل الذى خلقنى فسار بلوقيا يوما وليلة فاذا هو بآخر يمر على المـاء ضوؤه كضوء القمر ، فقال له بلوقيا من أنت ؟ قال سـل الذى خلقنى فسار بلوقيا يوما وليلة فاذا هو بثالث كأنه القمر يلوح فى آخر الشمس ، فقال له بلوقيا أنشدك الله إلا ماوقفت علىّ فوقف ، وقال لبلوقيا لماذا تستحلفنى . قال خشيت أن تفوتنى كما صدر من أصحابك الماضين ثم قال له من كان الأول . قال اسرافيل صاحب الصور . والثانى ميكائيل صاحب المطر وأرزاق العباد والثالث جبريل أمين الله تعالى . فقال له بلوقيا فماذا تصنعون فى هذا اليم . قال حية من حيات البحر قد آذت سكانه فدعوا عليها فاستجاب الله دعاءهم وإنا أمرنا أن نسوقها إلى جهنم ليعذب الله بها الـكفار يوم القيامة . قال بلوقيا كم طولها وكم عرضها ؟ قال طولها مسيرة ثلاثين سنة وعرضها مسيرة عشرين سنة ، فقال بلوقيا أيكون فى جهنم مثل هـذه الحية أوأكبر منها قال نعم ان فى جهنم من الحيات ما تدخل هـذه الحية فى أنف إحداهن ولا تشعر بها وتخرج من فيها ولا تشعر بها من عظم خلقها قال فسلم بلوقيا ومضى إلى جزيرة أخرى فاذا هو بغلام أبيض أمرد بين قبرين فسلم عليه بلوقيا ، وقال له ياشاب من أنت وما اسمك ؟ قال اسمى صالح . قال فمـا هذان القبران . قال أحدهما قبر أبى ، والآخر قبر أمى ، وكانا صالحين فمـاتا ههنا وأنا عند قبرهما حتى أموت فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى جزيرة ، فاذا هو بشجرة عظيمة عليها طائر واقف رأسه من ذهب وعيناه من ياقوت ومنقاره من لؤلؤ ويداه من زعفران وقوائمه من زمرد وإذا مائدة موضوعة تحت الشجرة وعليها طعام وحوت مشوى فسلم عليه بلوقيا فرد الطائر عليه السلام فقال له بلوقيا من أنت أيها الطائر ؟ قال أنا من طيور الجنة وان الله تعالى قد بعثنى إلى آدم بهذه المائدة لما أهبط من الجنة وإنى كنت معه حين لقى حواء وأباح الله له الأكل وأنا ههنا من لدن ذلك الوقت فـكل غريب وعابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة ، فقال بلوقيا ولا تتغير ولا تنقص ، فقال طعام الجنة لا يتغير ولا ينقص قال بلوقيا أفآكل منها قال كل فأكل حاجته ثم قال له أيها الطائر وهل معك أحد ؟ فقال معى أبو العباس يأتينى أحيانا قال ومن أبو العباس . قال الخضر عليـه السلام ، فلما ذكر الخضر إذا به أقبـل وعليه ثياب بيض فما خطا خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه . قال فسلم على بلوقيا وسأله عن حاله ، فقال بلوقيا طالت غيبتى وأريد الرجوع إلى أمى . فقال الخضر بينك

وبين أمك مسيرة خمسمائة عام وأنا أردك إليها فى مسيرة خمسمائة شهر ، فقال الطائر إن كان بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة فأنا أردك إليها فى مسيرة خمسمائة يوم ، فقال الخضر عليه السلام فأنا أردك إليها فى ساعة واحـدة . ثم قال غمض عينيك فعمضهما ثم قال له افتح عينيك ففتحهما فاذا هو جالس عند أمه فسألهامن جاء بى إليك قالت طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قـدامى ثم إن بلوقيا حـدث بنى اسرائيل بمـا رأى من العجائب والأخبار فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هـذا فهذا ما كان من حـديث بلوقيا وما رأى من العجائب فى البحر والبر سهلا وجبلا والله أعلم .

مجلس فى ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام

قال الله تعالى ـ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ـ .

باب فى نسبه ولقبه

قال أكثر أهل السير هو الاسكندر بن فيليش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومى بن لطين بن يونان بن يافث ، ويقال نسبه ينتهى إلى العيص بن اسحق ابن ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وزعم بعض القدماء أن الاسكندر هو أخو دارا بن دارا ، وذلك أن دارا الأكبر بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف كان تزوج أم اسكندر وكانت بنت ملك الروم وكان اسمها هلانه وانها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة فأمر أن يحتال فى زوال ذلك منها فاجتمع رأى أهل المعرفة فى مداواتها على شجرة يقال لهـا سندروس فطبخت لهـا وغسلت بمائها فأذهب ذلك كثيرا من نتنها ومن عرقها ولم يذهب ذلك كله ، فانتهت نفسه عنها لبقية نتنها وعافها فردها على أهلها وقد علقت منه فولدت له فى أهلها غلاما فسمته باسمه واسم الشجرة التى غسلت بمـائها سكندروس فهذا أصل اسمه ، ثم خففت فقيل اسكندر وكنى بذى القرنين واختلفوا فى سبب تسميته بذلك فقال بعضهم سمى بذلك لأنه ملك الروم وفارس وقيل لأنه كان فى مقـدم رأسه شبه القرنين من لحم ، وقيل لأنه رأى فى النام كأنه أخذ بقرنى الشمس وكان تأويل رؤياه أنه طاف الشرق والمغرب ، وقيل لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان والذؤابة تسمى قرنا ، وقيل لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه وقيل لأنه كان انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حىّ ، وقيل لأنه كان إذا حارب قاتل بيديه وركابه جميعا وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن وقيل لأنه دخل النور والظلمة والله أعلم .

باب فى قصة ذكر أمره وسبب استكمال ملكه

قال الله تعالى — إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا — وقال قوم كان فيليش اليونانى أبو الاسكندر ملك اليونانيين ، فلما مات ملك بعده الاسكندر وقال آخرون ان الاسكندر أخو دارا الأصغر وكان ابو هلانة جد الاسكندر لأمه ملكا من ملوك الروم فلما مات صار الملك لابن بنته الاسكندر وكانت ملوك الروم يؤدون الاتاوة جميعا إلى ملوك الفرس وكانت الاتاوة التى كان أبو الاسكندر يؤديها إلى ملوك الفرس بيضة من ذهب ، فلما ملك الاسكندر وكان رجلا ذا عزيمة وقوة وملك غزا ملوك الروم فقهرهم واستجمع له ملك الروم ، ثم غزا بعض ملوك العرب فظفر بهم فآنس بذلك من نفسه القوة فاستعصى على دارا الأصغر ملك فارس فامتنع من حمل ما كان أبوه يحمله اليه من الخراج والاتاوة عن نفسه وعن ملك الروم ، فكتب اليه دارا بن دارا بقصة الخراج والاتاوة عن نفسه وعن ملك الروم فأجابه الاسكندر إنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى قد كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها ، فلما وصل اليه الكتاب بذلك سخط عليه وكتب اليه يؤنبه بسوء صنيعه فى امتناعه عن حمل الخراج اليه وبعث اليه بصولجان وكرة وقفيزى سمسم ، وأعلمه فيما كتب به اليه أنك صبي وأنه ينبغى لك أن تلعب بالصولجان والكرة التى بعثت بهما اليك ولا تتقلد الملك ولا تتلبس به ولا تستعصى والا بعثت اليك من يأتى بك فى وثاق ولو كانت جنودك بعدد حب السمسم الذى بعثت به اليك ، فبعث اليه الاسكندر فى جواب ذلك : انى قد فهمت ما كتبت وقد نظرت ما ذكرت فى كتابك من ارسال الصولجان والكرة وضممت الكرة إلى الصولجان وشبهت الكرة بأرض وانى محتو على ملكك وأضيفه إلى ملكى وأضيف بلادك إلى بلادى ، وإنى نظرت إلى السمسم الذى بعثته إلى كنظرى إلى الصولجان والكرة وبعث إلى دارا مع كتابه صرة من خردل وأعلمه فى الجواب انما بعثت اليك بذلك لأن جنودى مثل ذلك ، فلما وصل إلى دارا بن دارا جواب الاسكندر جمع جنوده وتأهب لمحاربة الاسكندر وان الاسكندر أيضا تأهب للقائه ونادى فى عسكره بالرحيل وسار نحو بلاد دارا فالتقيا بناحية خراسان مما يلى الخزر واقتتلا أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا فعرض له فارسان من قرابته وأهل بيته وثقته ، وقيل ان أحدهما كان صنيعته ، فطعناه فأردياه عن مركبه وأرادا بطعنهما إياه الحظوة عند الاسكندر والوسيلة اليه وان الاسكندر نادى أن يؤخذ دارا أسيرا ولا يقتل ، فأخبر بشأن دارا فأسرع حتى وقف عليه فرآه يجود بنفسه فنزل اليه وجلس عند رأسه وأخبره أنه لم يهم قط بقتله وأن الذى أصابه لم يكن قط برأيه وانما غدر به ثقاته ، ثم قال له سلنى عما بدا لك فأسعفك به فقال له دارا إن لى اليك حاجتين : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكا بى وسماهما وبلادهما . والثانية أن تتزوج ابنتى روشنك ، فأجابه إلى الحاجتين وأمر بصلب الرجلين وأن ينادى عليهما هذا جزاء من اجترأ على

ملكموغش اهل بلده ، وتزوج ابنته روشنك ، وكان ملك دارا أربع عشرة سنة ، فلما قتله اجتمع ملك الروم وكان قبل الاسكندر متفرقا ، وتفرق ملك فارس وكان قبل الاسكندر مجتمعا .

باب فى ذكر الحوادث التى كانت فى أيام ذى القرنين بعد قتل دارا ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق

قالت العلماء بأخبار القدماء : لما قتل الاسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد ، فهدم ما كان فى بلاد الفرس من بيوت النيران وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان وقتل الموابذة وأحرق كتبهم ودعا الناس إلى الاسلام والتوحيد .

قال المرتضى فى سبب احراق كتبهم . ان المجوس جعلوا حروف كتبهم من الذهب المضروب بمسامير الذهب على جلود الثيران فبلغ عددها اثنى عشر ألفا فأحرقوها لحصول ذلك الذهب وبنى اثنتى عشرة مدينة منها ثلاث مدائن بخراسان هراة ومرو وسمرقند ، ومدينة بأرض أصفهان بنيت على مثال الجنة ، ومدينة بأرض اليونان يقال لها هيلاقوس ، ومدينة بأرض بابل لزوجته روشنك بنت دارا ومدينة الاسكندرية . ثم إنه رأى فى منامه أنه أخذ بقرنى الشمس ورأى فى منامه أنه يسير إلى آفاق الأرض شرقا وغربا

واختلف العلماء فى نبوته فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا أدرى أكان ذو القرنين نبيا أم لا » فلو صح الحديث لكان الخوض فى هذه المسئلة تكلفا ، ثم اختلفوا بعد فيه فقال قوم لم يكن نبيا وانما كان عبدا صالحا وملكا عادلا فاضلا ، وقال آخرون بل كان نبيا غير مرسل ، والصحيح ان شاء الله أنه كان نبيا غير مرسل ، لما روى وهب وغيره من أهل الكتب قالوا كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الاسكندر . ويقال كان اسمه عباسا وكان عبدا صالحا ، فلما استحكم ملكه واجتمع أمره أوحى الله تعالى اليه ياذا القرنين انى قد بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقين وجعلتك حجتى عليهم وهذا تأويل رؤياك وانى باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهم سبع أمم مختلفة ألسنتهم . منهم أمتان بينهما عرض الأرض وأمتان بينهما طول الأرض وثلاث أمم فى وسط الأرض وهم الانس والجن ويأجوج ومأجوج ، فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك وأمة أخرى بحيالها يقال لها منسك وهى عند مطلع الشمس ، وأما الأمتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل والأخرى بحيالها فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل ، فلما قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين إلهى انك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر عليه الا أنت فأخبرنى عن هذه الأمم التى قد بعثتنى اليها بأى قوة أكابرهم ، وبأى جمع وحيلة أكاثرهم وبأى صبر أقاسيهم وبأى لسان

أناطقهم ، وكيف لى بأن أفقه لغاتهم وبأى سمع أسمع أقوالهم ، وبأى بصر أنقدهم وبأى حجة أخاصمهم وبأى عقل أعقل عنهم وبأى قلب وحكمة أدبر أمرهم ، وبأى قسط أعدل بينهم وبأى حلم أصابرهم وبأى معرفة أفصل بينهم وبأى علم أتقن أمورهم وبأى يد أسطو عليهم وبأى رجل أطؤهم وبأى طاقة أحصيهم وبأى جند أقاتلهم وبأى رفق أؤلفهم وليس عندى يا إلهى شىء مما ذكرت يقوم لهم ويقوينى عليهم وأنت الرءوف الرحيم لا تكلف نفسا الا وسعها ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقها بل أنت ترحمها ، فقال الله تعالى سأطوقك ما حملتك وأشرح لك سمعك وصدرك فتسمع وتعى كل شىء ، وأشرح لك فهمك فتفقه كل شىء ، وأبسط لك لسانك فتنطق بكل شىء وأفتح لك بصرك فتنقد كل شىء وأحصى لك قوتك فلا يفوتك شىء وأشد لك عضدك فلا يهولنك شىء وأشد لك ركنك فلا يغلبك شىء وأشد لك قلبك فلا يفزعك شىء وأشد لك يديك فتسطو على كل شىء وأشد لك وطأك فتهلك كل شىء وألبسك الهيبة فلا يروعنك شىء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك يهديك النور أمامك وتحوط بك الظلمة من ورائك . فلما قيل له ذلك حدثته نفسه بالمسير وألح عليه قومه بالمقام فلم يفعل وقال لابد من طاعة الله تعالى ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا وأن يجعلوا طول المسجد أربعمائة ذراع وعرضه مائتى ذراع وعرض أساس حائطه أربعة وعشرين ذراعا وطوله فى السماء مائة ذراع وأمرهم أن ينصبوا فيه السوارى . قالوا كيف نصنع ؟ قال إذا فرغتم من شأن الحيطان فاكبسوها بالتراب حتى يستوى الكبس مع حائط المسجد ، فاذا فرغتم فرضتم من الذهب على الموسر قدره وعلى المقتر قدره وقطعتموه مثل قلامة الظفر ثم خلطتموه بذلك الكبس وجعلتم خشبا من نحاس ووتدا من نحاس وصفائح من نحاس تذيبون ذلك وأنتم ممكنون من العمل كيف شئتم على أرض مستوية وجعلتم طول كل خشبة مائة ذراع وأربعة وعشرين ذراعا ومائتى ذراع فيما بين الحيطان لكل حائط اثنا عشر ذراعا ، ثم تدعون المساكين لنقل التراب فيسارعون اليه لما فيه من الذهب والفضة فمن حمل شيئا فهو له ، ففعلوا ذلك فأخرج المساكين ذلك التراب واستقر السقف بما عليه واستغنى المساكين ، فكان جندهم أربعين ألفا فجعلهم أربعة أجناد فى كل جند عشرة آلاف ، ثم عرض جنده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف منهم من جنده ثمانمائة ألف ومن حند دارا ستمائة ألف ، ومن المساكين أربعون ألفا ، ثم انطلق يؤم الأمة التى عند مغرب الشمس فذلك قوله تعالى — حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة — أى ذات حمأ ، ومن قرأ حامية بألف من غير همز فمعناه حارة .

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهانى باسناده عن ابن عباس قال : أقرأنيها أبىّ بن كعب كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عين حمئة ، وقال ابن عباس كنت جالسا عند معاوية

إذ قرأ هذه الآية وجدها تغرب فى عين حامية فقلت ماتقرؤها الاحمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرؤها ؟ قال أقرؤها كما قرأتها يا أمير المؤمنين . قال ابن عباس فأطلت الجدال معهما فأرسل معاوية إلى كعب فجاءه فقال له . أين تجد الشمس تغرب فى التوارة يا كعب . قال أما العربية فأنتم أعلم بها منى ، وأما الشمس فانى أجدها فى التوراة تغرب فى ماء وطين ، وأنشدك ماتزداد به تبصرا وهوقول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما   ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى   أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عندغروبها   فى عين ذى خلب وثأط حرمد

فقال معاوية ما الخلب يا كعب ؟ فقلت الطين بكلامهم قال فما الثأط قلت الحمأة قال وما الحرمد قلت الأسود فدعا رجلا فقال اكتب مايقول .

فلما بلغ مغرب الشمس وجد عندها جمعا وعددا لايحصيه الا الله تعالى وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله تعالى ورأى ألسنة مختلفة وأهواء مشتبهة فذلك قوله تعالى — وجد عندها قوما — يعنى ناسا فلما رأى ذلك كاثرهم بالظلمة فضرب حولهم ثلاث عساكر منها فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم فى مكان واحد ثم أخذ عليهم بالنور ودعاهم إلى الله تعالى والى عبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت فى أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ودخلت فى بيوتهم ودورهم وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب ، فلما خوفوا صاحوا وتحيروا فلما أشفقوا أن يهلكوا فيها ضجوا بصوت واحد فكشفها عنهم وأخذهم عنوة فدخلوا فى دعوته فجاء من أهل المغرب أمم عظيمة فجعلهم جندا واحدا ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم من خلفهم وتحرسهم والنور أمامه يقوده ويدله وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأمة التى فى قطر الأرض اليمين التى يقال لها هاويل ، وسخر الله له قلبه ويده ورأيه وعقله ونظره فلا يخطىء إذا عمل عملا فانطلق يقود تلك الأمم وهى تتبعه حتى إذا انتهى إلى بحر أو مخاضة هيأ سفنا من ألواح صغار مثل النعال فيلحمها فى ساعة ثم يحمل فيها جميع ما معه من تلك الأمم وتلك الجنود وإذا بلغ البحار والأنهار فتقها ثم يدفع إلى كل رجل منهم لوحا فلا يكترث بحمله فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل فيها كفعله فى ناسك فلما فرغ منها مضى على وجهه فى ناحية الأرض اليمنى حتى انتهى إلى منسك عند طلوع الشمس وجدها تطلع على قوم فعمل فيها وجند فيها جنودا كفعله فى الأمتين اللتين قبلها ثم كرّ مقبلا حتى أتى ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تاويل وهى الأمة التى بحيال هاويل وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كله فلما بلغها عمل فيها وجند جنودا كفعله فيما قبلها فذلك قوله تعالى — حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا — وذلك أنهم كانوا فى مكان لايستقرّ عليه بناء

وكانوا يكنون فى أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم .

وقال الحسن كانت أرضهم أرضا لاتحتمل البناء وكانوا إذا طلعت الشمس عليهم دخلوا الماء فاذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كما ترعى البهائم . وقال ابن جريج جاءهم مرة جيش للتفرج على طلوع الشمس فنهاه أهلها فقالوا مانبرح حتى تطلع الشمس فنراها ، ثم إنهم قالوا ما هـذه العظام فقالوا هـذه جيف قوم طلعت عليهـم الشمس فمـاتوا ههنا . قال فذهبوا هاربين فى الأرض . وقال الـكلبى هم أمة يقال لهـا منسك حفاة عراة عماة عن الحق . قال وحدثنا عمرو بن مالك بن أمية قال وجدت رجلا بسمرقند يحدث الناس وهم حوله مستمعون له مجتمون ، فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرنى أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس . قال خرجت حتى جاوزت الصين ثم سألت عنهم ، فقيل لى إن بينك وبينهم يوما وليلة فاستأجرت رجلا ثم سرت بقية يومى وليلتى حتى صبحتهم فاذا أحـدهم يفرش أذنه ويلتحف الأخرى ، وكان صاحبى يحسن لسانهم فسألهم فقالوا له إذا تنظر كيف تطلع الشمس . قال فبينما نحن كذلك إذ سمعنـا كهيئة الصلصلة فغشى علىّ فوقعت ، فلما أفقت قمت وهم يمسحون علىّ بالدهن ، فلما طلعت الشمس على المـاء إذا هى على المـاء كهيئة الزيت وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط فلما ارتفعت أدخلونى سربا لهم أنا وصاحبى ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج والله أعلم .

باب فى صفة سد ذى القرنين وما يتعلق به

قال الله تعالى ـ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا ـ قالت العلماء بأخبار القدماء : لما فرغ ذو القرنين من أمر الأمم الذين هم فى أطراف الأرض ، وطاف المشرق والمغرب عطف منها على الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والأنس ويأجوج ومأجوج فلما كان فى بعض الطريق ممـا يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الانس : ياذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله ليس فيهم مشابهة من الانس وهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض ، وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم ، فان أنت اطلعت على ماينمو من نمائهم وزيادتهم فلا تشك أنهم سيملأون الأرض ويخرجون أهلها منها ويظهرون عليها ويفسدون فيها وليست تمرّ بنا سـنة منذ جاورناهم الا ونحن نتوقع أن يطلع علينا أولهم من بين هذين الجبلين فهل نجعل لك خرجا أى جعلا وأجرا على أن تجعل بيننا وبينهم سـدا حاجزا فلا يصلون الينا ، فقال لهم ذو القرنين ما مكنى فيـه ربى أى قوانى عليه خير من خراجكم فأعينونى بقوة أجعل بينـكم وبينهم ردما حاجزا كالحائط ، قالوا

وما تلك القوة ؟ قال فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة . قالوا وماتلك الآلة ؟ قال آتونى زبر الحديد أى قطعه واحدتها زبرة وآتونى النحاس ، فقالوا من أين لنا من الحديد والنحاس مايسع هذا العمل ؟ قال سأدلكم على معادنهما . قالوا فبأى قوة نقطع الحديد والنحاس ؟ فاستخرج لهم معدنا آخر يقال له الساهون ، وهو أشد ماخلق الله فى الأرض بياضا وهو الذى قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره ، ثم انه قاس مابين الجبلين ثم أوقد على ماجمع من الحديد والنحاس النار وصنع منها زبرا مثل الصخور العظام ثم أذاب النحاس فجعله كالطين واللاط لتلك الصخور التى هى من الحديد ثم بنى ، وكيفية بنائه على ماذكر أهل السير انه لما قاس مابين الجبلين وجد مابينهما مائة فرسخ ، فلما أنشأ فى عمله حفر له الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخا ثم وضع الحطب بين الجبلين ثم نسج عليه الحديد ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب حتى ساوى بين الصدفين وهما الجبلان ثم أمر بالنار فأرسلت فيه . قال انفخوا حتى جعل يفرغ القطر فيه وهو النحاس المذاب فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس فصار كأنه بردحبرة من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد وغبرته ، فصار سدا طويلا عظيما حصينا قال تعالى — فما اسطاعوا أن يظهروه — أى يعلوه — وما استطاعوا له نقبا — .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال يانبى الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لى ، قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء فقال له قد رأيته ، ويقال إن موضع السد وراء زخرد بقرب مشرق الأرض بينه وبين الخزر مسيرة اثنين وسبعين يوما ، وذكر أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى فى المنام ان السد مفتوح فوجه سلاما الترجمان فى خمسين رجلا وأعطاه خمسة آلاف دينار وأعطى كل رجل من الخمسين خمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأعطاه مائتى بغلة تحمل الزاد والماء وخرج من سرّ من رأى بكتاب الواثق بالله الى اسحق بن اسماعيل صاحب أرمينية وكان بتفليس وكتب له اسحق الى صاحب السرير وكتب له صاحب السرير الى ملك اللان وكتب له ملك اللان الى الأزالى طلجند فى بلاد شاه ملك الخزر ، فأقام عنده حتى أخذ معه خمسين رجلا أدلاء فساروا خمسة وعشرين يوما حتى انتهوا الى أرض سوداء منتنة الريح ، وكانوا قد حملوا معهم شيئا يشمونه من الرائحة الذكية ، فساروا تسعة وعشرين يوما ثم سألوا عن سبب نتن الريح ما هو ؟ فقالوا مات ههنا قوم ، ثم ساروا فى مدن خراب عشرين يوما فسألوا عن تلك المدن فقالوا قد ظهر فيها يأجوج ومأجوج فخرّبوها ، ثم ساروا الى حصون بالقرب من الجبل يتكلمون بالعربية والفارسية يقرءون القرآن ولهم مكاتب ومساجد ، فقالوا لنا من هؤلاء القوم ؟ قلنا رسل أمير المؤمنين ، فقالوا ومن هو أمير المؤمنين ؟ قلنا من أولاد العباس ملك بالعراق فتعجبوا منه وقالوا : شيخ أوشاب وزعموا أنهم لم يبلغهم خبره ، ثم فارقوهم وساروا إلى جبل أملس

ليس عليه خضرة واذا جبل مقطوع بواد عرضه مائةوخمسون ذراعا وعضادتاه مبنيتان مقابلتا الجبل عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلبن من حديد مركبة فى نحاس فى سمك خمسين ذراعا واذا وتد من حديد طرفاه على عضادتين طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين علو كل واحدة مقدار عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع فوق ذلك اللبن الحديد المغيب فى النحاس الى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر ، وفوق ذلك شرف من حديد فى طرف كل شراقة قرنان مبنى بعضها الى بعض منظومة كل واحدة فى صاحبتها فاذا باب له مصراعان منصوبان من حديد عرض كل باب خمسون ذراعا فى ارتفاع خمسين ذراعا قائمتاهما فى دورهما على قدر الدربند ، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ ذراع وارتفاع القفل من الأرض خمسة وخمسون ذراعا وفوق القفل مقدار خمسة أذرع غلق وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف معلق فى سلسلة طولها ثمانية أذرع فى استدارة أربعة أشبار والحلقة التى فى السلسلة مثل حلقة المنجنيق وعرض عتبة الباب عشرة أذرع فى طول مائة ذراع سوى مافى العضادتين والظاهر منها خمسة أذرع . وهذا كله بذراع السواد ، ورئيس تلك الحصون يركب كل جمعة فى عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد وزن كل واحدة خمسون منا فيضرب القفل بالمرزبات كل يوم ثلاث ضربات ليسمع من وراء الباب الصوت فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا فى الباب حدثا ، فاذا ضربوا أصغوا اليه بآذانهم فيسمعون من داخل دويا ، وبالقرب من هذا الجبل حصن كبير عظيم عشرة فراسخ فى مسيرة مائة فرسخ لأنها عشرة فى عشرة ومع الباب حصنان طول كل واحد منهما مائتا ذراع فى مائتى ذراع وعلى باب هذين الحصنين صخرتان وبين الحصنين ماء عين عذب فى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من قدور الحديد ومغارف من حديد وهناك بعض اللبن من الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدإ واللبنة ذراع ونصف فى عرض شبر ، وسألنا هل وراء ذلك أحد من أهل يأجوج ومأجوج ؟ فذكروا أنهم رأوا منهم عدة فوق الشرف فهبت ريح سوداء فألقتهم الى جانبهم وكان مقدار الرجل فى رأى العين شبرا ونصفا . قال فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاء على نواحى خراسان فعدلنا اليها فوقعنا الى القرب من سمرقند على سبعة فراسخ وكان أصحاب الحصن ثم زودونا الطعام ، ثم سرنا الى عبدالله بن طاهر فوصلنا بمائة ألف درهم ووصل كل رجل كان معى بخمسمائة درهم ، وأجرى على كل فارس خمسة دراهم وعلى كل راجل ثلاثة دراهم كل يوم حتى صرنا الى الرى ورجعنا الى سر من رأى بعد ثمانية وعشرين شهرا والله أعلم .

باب فى دخول ذى القرنين الظلمات مما يلى القطب الشمالى لطلب عين الحياة

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : كان ذو القرنين قد ملك مابين المشرق والمغرب وكان له خليل من الملائكة اسمه رفائيل يأتيه ويزوره ، فبينما هما ذات يوم يتحدثان

إذ قال له ذو القرنين يارفائيل حدثني عن عبادتكم في السماء فبكى وقال ياذا القرنين وما عبادتكم عند عبادتنا إن في السماء من الملائكة من هو قائم لايجلس أبدا ، ومن هو ساجد لايرفع رأسه أبدا ، ومن هو راكع لايستوى قائما أبدا يقول سبحان القدوس رب الملائكة والروح ربنا ماعبدناك حق عبادتك ، فبكى ذوالقرنين بكاء شديدا ، ثم قال إني أحب أن أعيش فأبلغ من عبادة ربى حق عبادته ، فقال رفائيل أوتحب ذلك ياذا القرنين ؟ قال نعم . قال رفائيل فان لله عينا فى الأرض تسمى عين الحياة فما من الله عز وجل أن من يشرب منها شربة لايموت أبدا حتى يكون هوالذى يسأل ربه الموت ، فقال له ذوالقرنين هل تعلمون أنتم موضع تلك العين ؟ فقال لاغير أنا نتحدث فى السماء أن لله فى الأرض ظلمة لايطؤها إنس ولاجان فنحن نظن أن تلك العين فى تلك الظلمة فجمع ذوالقرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة فقال لهم أخبرونى هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله تعالى وما جاءكم من الأحاديث وسألتم من كان قبلكم من العلماء أن الله وضع فى الأرض عينا سماها عين الحياة ، فقالت العلماء لا ، فقال عالم من العلماء انى قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها أن الله خلق فى الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان ووضع فيها عين الخلد ، فقال ذوالقرنين أين وجدتها ؟ قال وجدتها فى الأرض التى على قرن الشمس فبعث اليها ذوالقرنين وحشد اليها الفقهاء والأشراف من الناس والملوك ، ثم صار يطلب مغرب الشمس فسار اثنتى عشرة سنة الى أن بلغ طرف الظلمة فاذا هى مثل الدخان وليست كظلمة الليل فعسكر هنالك ثم جمع علماء عسكره ، فقال انى أريد أن أسألك هذه الظلمة ، فقالت العلماء أيها الملك ان من كان قبلك من الملوك والأنبياء لم يطئوا هذه الأرض فلا تطأها فانا نخاف أن ينفتح عليك أمر تكرهه ويكون فيه فساد الأرض ومن عليها ، فقال لابد من أن أسلكها فقالوا أيها الملك كف عن هذه الظلمة ولا تطلبها فانا لو نعلم أنك ان طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط الله علينا لاتبعناك ولكنا نخاف من الله تعالى فسادا فى الأرض ومن عليها ، فقال ذوالقرنين لابد من أن أسلكها فقالت العلماء شأنك بها فقال ذوالقرنين أى الدواب بالليل أبصر ؟ قالوا الخيل قال وأى الخيل بالليل أبصر ؟ قالوا الاناث قال وأى الاناث أبصر قالوا البكارى قال فأرسل ذوالقرنين فجمع له ستة آلاف فرس أنثى أبكارا ثم انتخب من عسكره أهل الجلد والعقل ستة آلاف رجل فدفع لكل رجل منهم فرسا وعقد راية للخضر عليه السلام وجعله مقدمته فى ألفين وبقى ذوالقرنين فى أربعة آلاف رجل وقال ذوالقرنين لبقية عسكره لاتبرحوا من معسكركم هذا الى اثنتى عشرة سنة فان نحن رجعنا اليكم والا فارجعوا الى بلادكم فقال الخضر أيها الملك إنا نسلك الظلمة ولا ندرى كم السير فيها ولا يبصر بعضنا بعضا وكيف نصنع بالضلال اذا أصابنا فدفع ذوالقرنين الى الخضر عليه السلام خرزة حمراء وقال له حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه فى الأرض فاذا صاحت فليرجع اليها أهل الضلال أين صاحت قال فسار الخضر بين يدى ذى القرنين يرتحل الخضر ويحط ذوالقرنين

فبينما الخضر عليه السلام يسير إذ عرض له واد فظن الخضر أن العين فى الوادى وألقى فى قلبه ذلك ، فقام على شفير الوادى ومكث طويلا ثم أجابته الخرزة فطلب صوتها فانتهى اليها فاذاهى على جانب العين فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين فاذا ماؤها أشد بياضا من اللبن وأحلى من الشهد فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه ثم انه رمى الخرزة نحو أصحابه فوقعت وصاحت فرجع الخضر الى صوتهاوالى أصحابه فركب وقال لأصحابه سيرواعلى اسم الله ، وان ذا القرنين مر فأخطأ الوادى فسلكوا تلك الظلمة فى أربعين يوما ثم انهم خرجوا الى ضوء ليس كضوء شمس ولا قمر والأرض حمراء رملة خشخاشية فاذاهم بقصرمبنى فى تلك الأرض طوله فرسخ فى فرسخ عليه باب فنزل ذو القرنين بعسكره ثم انه خرج وحده حتى دخل القصر فاذا حديدة قد وضع طرفاها على جانب القصر من ههنا وههنا وإذا طائر أسود يشبه الخطاف مزموما بأنفه الى الحديدة معلقا بين السماء والأرض فلما سمع الطائر خشخشة ذى القرنين . قال من هذا ؟ قال أنا ذوالقرنين ، فقال الطائر ياذا القرنين ما كفاك ما ورائى حتى وصلت الى" ، ثم قال ياذا القرنين حدثنى فقال سل ، فقال هل كثر بناء الجص والآجر فى الأرض قال نعم فانتفض الطائر انتفاضة ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة ، ثم قال ياذا القرنين هل كثرت شهادة الزور فى الأرض ؟ قال نعم قال فانتفض الطائر ثم انتفخ حتى ملأ الحديدة وسد ما بين جدران القصر بحيث رأى ذوالقرنين ذلك ففرق فرقا شديدا ، فقال الطائر لاتخف حدثنى . قال سل قال هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله بعد ؟ قال لا فانضم الطائر الى ثلثه ، ثم قال ياذا القرنين هل ترك الناس غسل الجنابة بعد ؟ قال لا ، فعاد الطائر كما كان ثم قال ياذا القرنين اسلك هذه الدرج درجة درجة الى أعلى القصر فسلكها ذوالقرنين وهو خائف وجل لا يدرى على ما يهجم حتى استوى على صدر الدرج فاذا سطح ممدود عليه صورة رجل شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعا وجهه الى السماء واضعا يده على فيه ، فلما سمع خشخشة ذى القرنين قال من هذا ؟ قال أنا ذوالقرنين قال ياذا القرنين ان الساعة قد قربت وإنى منتظر أمر ربى يأمرنى أن أنفخ فى الصور ، ثم ان صاحب الصور أخذ شيئا من بين يديه كأنه حجر فقال ياذا القرنين خذ هذا فان شبع هذا شبعت وان جاع هذا جعت فأخذ ذوالقرنين الحجر ونزل حتى أتى الى أصحابه فحدثهم بأمر الطائر وما قاله له وما أورده عليه ، وما قال له صاحب الصور ، ثم جمع علماء عسكره وقال أخبرونى ماهذا الحجر وما أمره ؟ فقالوا أيها الملك أخبرنا ماقال لك صاحب الصور ؟ فقال ذوالقرنين انه قال ان شبع هذا شبعت وان جاع جعت ، فوضعت العلماء ذلك الحجر فى كفة الميزان وأخذوا حجرا مثله ووضعوه فى الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فاذا الذى جاء به ذوالقرنين أثقل فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان فاذا الذى جاء به ذوالقرنين أثقل فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان فاذا الذى جاء به ذوالقرنين أثقل فلم يزالوا يضعون حجرا بعد حجر حتى وضعوا ألف حجر ثم رفعوا الميزان فمال بالألف جميعا فقالت العلماء انقطع علمنا دون هذا لانعرف أسحر هذا أم علم لانعلمه ، فقال الخضر عليه السلام

وكان واقفا أنا أعلم علمه فأخذ الخضر عليه السلام الميزان بيده ثم أخذ الحجر الذى جاء به ذوالقرنين فوضعه فى احدى الكفتين وأخذ حجرا من تلك الحجارة فوضعه فى الكفة الأخرى ثم أخذ كفا من تراب فوضعه على الحجر الذى جاء به ذوالقرنين ثم رفع الميزان فاستوى فخرت العلماء سجدا لله تعالى وقالوا سبحان الله هذا علم لم يبلغه علمنا والله لقد وضعنا معه ألف حجر فما استقل به ، فقال الخضر عليه السلام : أيها الملك إن سلطان الله عزوجل قاهر لخلقه وأمره نافذ فيهم وحكمه جار عليهم وان الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض فابتلى العالم بالعالم والجاهل بالجاهل والجاهل بالعالم والعالم بالجاهل وانه ابتلانى بك وابتلاك بى ، فقال ذوالقرنين صدقت فأخبرنى ماهذا الحجر ؟ فقال الخضر أيها الملك هذا مثل ضربه لك صاحب الصور ان الله تعالى مكن لك فى الأرض فأعطاك منها مالم يعط أحدا من خلقه وأوطأك منها مالم يوطئ لأحد من خلقه فلم تشبع وآتيت نفسك شرهها حتى بلغت من سلطان الله مالم يطأه إنس ولاجان فهذا مثل ضربه لك صاحب الصور ابن آدم لايشبع أبدا حتى يحثى عليه التراب ولا يملأ جوفه إلا التراب فبكى ذو القرنين ، ثم قال صدقت ياخضر فى ضرب هذا المثل لاجرم لاطلبت أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ، ثم انه انصرف راجعا حتى إذا كان فى وسط الظلمة وطئ الوادى الذى فيه الزبرجد ، فقال من معه لما سمعوا خشخشة تحت حوافر دوابهم ما هذا الذى تحتنا أيها الملك ؟ فقال ذوالقرنين خذوا منه فان من أخذ منه ندم ومن تركه ندم فمنهم من أخذ منه شيئا ومنهم من تركه ، فلما خرجوا من الظلمة ونظروه إذا هو زبرجد فندم الآخذ والتارك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أخى ذا القرنين لوظفر بوادى الزبرجد فى مبدإ أمره ماترك منه شيئا حتى كان يخرجه الى الناس لأنه كان راغبا فى الدنيا ولكنه ظفر وهو زاهد فى الدنيا لاحاجة له فيها » ثم انه رجع الى العراق وملك ملوك الطوائف كلها ومات فى طريقه قبل وصوله بشهر .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه انه رجع الى دومة الجندل وكانت منزله فأقام بها حتى مات ، قالوا وكان عمره ستا وثلاثين سنة وكان ملكه سبع عشرة سنة وكان قبل دارا فى أول السنة الثالثة من ملكه فلما مات حمل الى أمه بالاسكندرية ودفن هناك ، قالوا فلما مات الاسكندر عرض الملك على ابنه اسكندروس من بعده فأبى واختار النسك والعبادة فملكت اليونانية عليهم فيما قيل بطليموس بن لوسوع وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة ، وكانت المملكة فى حياة الاسكندر وبعد وفاته الى أن تحول الملك الى الروم والمضاض واليونانية ولبنى اسرائيل بيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك الى أن خرب بلادهم الفرس والروم وطردوهم عنها بعد قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام والله أعلم .

مجلس فى قصة زكريا وابنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

وهو مجلس يشتمل على أبواب كثيرة . قال محمد بن إسحق وغيره من أهل الأخبار : عبرت بنو اسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل الى بيت المقدس وبلاد الشام وانتظام أمورهم ولم يزالوا يحدثون الاحداث ويعود الله عليهم بفضله ورحمته ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون كما قال الله تعالى حتى كان ممن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى وكانوا من آل بيت داود عليه السلام .

نسب زكريا عليه السلام

هو زكريا بن يوحيا بن ادن بن مسلم بن صدوق بن يحسان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن ناخور بن سلوم بن شهفاساط بن أبيا بن رحيم بن سليمان بن داود عليه السلام .

باب فى ذكر مولد مريم عليها السلام وخبر تحريرها

قال الله تعالى — إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا — الآيات ، قال المفسرون هى حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام ، وعمران . قال ابن عباس هو عمران بن ماثان وليس بعمران أبى موسى إذ بينهما ألف وثمانمائة سنة ، وكانت بنوماثان رءوس بنى اسرائيل وأحبارهم وملوكهم . وقال ابن اسحق هو عمران بن ساهم بن أمور بن ميشان بن حزقيل بن أحريف بن بؤم بن عزازيا بن امصيا بن ناوس بن نوثا بن بارض بن يهوشافاط بن رادم بن أبيا ابن رحيم بن سليمان بن داود عليه السلام . وكانت القصة فى ذلك أن زكريا بن يوحيا وعمران ابن ماثان كانا متزوجين بأختين إحداهما عند زكريا بن يوحيا وهى ايشاع بنت فاقوذ أم يحيى وكانت الأخرى عند عمران وهى حنة بنت فاقوذ أم مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وعجزت وكانوا أهل بيت من الله بمكان فبينماهى فى ظل شجرة إذ نظرت طائرا يطعم فرخا فتحركت عند ذلك شهوتها للولد ودعت الله تعالى أن يهب لها ولدا وقالت اللهم لك علىّ إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه نذرا وشكرا فحملت بمريم عليها السلام فحررت مافى بطنها ولم تعلم ماهو . فقالت — رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا — أى عتيقا عن الدنيا وأشغالها خالصا لله تعالى وخادما لبيتك القدس حبسا عليه مفرغا لعبادة الله ولخدمته فتقبل منى الكائن إنك أنت السميع العليم . قالوا وكان المحرر اذا حرر ونذر جعل المحرر والمنذور فى الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرح عنها حتى يبلغ الحلم فاذا بلغ خير بين أن يقيم وبين أن يذهب حيث شاء ، وان أراد أن يخرج بعد التخيير استأذن رفقاءه من السدنة ليكون خروجه على علم منهم ولم يكن أحد من بنى اسرائيل وعلمائهم إلا من فى نسله محرر لبيت المقدس ولم يكن محررا إلا الغلمان ، وكانت الجارية لا تكلف ذلك ولا تصلح لما يصيبها

من الحيض والأذى فحررت أم مريم مافى بطنها . فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران : ويحك ماذا صنعت ؟ أرأيت ان كان مافى بطنك أنثى والأنثى عورة لاتصلح لذلك فوقعا جميعا فى هم من ذلك فهلك عمران وحنة حامل بمريم . فلما وضعتها اذاهى جارية . فقالت حنة وكانت ترجو أن يكون غلاما اعتذارا الى الله تعالى ـ رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بماوضعت وليس الذكر كالأنثى ـ أى فى خدمة الكنيسة والعبادة فيها لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس والأذى ـ وانى سميتها مريم ـ وهى بلغتهم العابدة والخادمة وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن فى وقتها .

أخبرنى الحسن بن محمد باسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم » ـ وانى أعيذها ـ أى أجيرها وأمنعها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ـ . أخبرنا عبدالله بن حامد باسناده وأخبرنا أبوسهيل أحمد بن محمد بن هرون باسناده عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مامن مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم يقول أبوهريرة اقرءوا ان شئتم ـ وانى أعيذها بك وذريتهامن الشيطان الرجيم ـ .

وأخبرنا شعيب بن محمد باسناده عن قتادة قال : كل آدمى يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلاعيسى وأمه عليهما السلام جعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ اليهما منه شئ ، قال وذكروا لنا أنهما كانا لايصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بنى آدم قال الله تعالى ـ فتقبلها ربها بقبول حسن ـ الهاء راجعة إلى النذيرة أى فتقبل الله النذيرة أى مريم من حنة ـ وأنبتها نباتا حسنا ـ يعنى سوى خلقها من غير زيادة ولانقصان فكانت تنبت فى المدة اليسيرة كما ينبت المولود فى المدة الطويلة . وقال ابن جريج : وأنبتها ربها فى غذائها ورزقها نباتا حسنا حتى تمت امرأة بالغة . . قالوا فلما ولدت مريم أخذتها أمها حنة فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم يومئذ ثلاثون فى بيت المقدس كما يلى الحجبة أمر الكعبة . فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها منكم لأن عندى خالتها فقالت له الأحبار لاتفعل ذلك فانها لوتركت لأحق للناس وأقربهم اليها لتركت لأمها التى ولدتها ، ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه فاتفقوا على ذلك ثم انطلقوا وكانوا تسعة عشر رجلا إلى نهر جار . قال السدى هو نهر الأردن فألقوا أقلامهم أى سهامهم وقيل أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة فى الماء فارتفع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت فى الماء قاله ابن اسحق وجماعة . وقال السدى : بل ثبت قلم زكريا فوق الماء كأنه فى طين وجرت أقلامهم مع جريان الماء فذهب الماء بها فسهمهم وقرعهم زكريا عليه

السلام ، وكان رأس الأحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى ـ وكفلها زكريا ـ ضمها الى نفسه وقام بأمرها ، وقال ابن اسحق : فلما كفلها زكريا ضمها إلى خالتها أم يحيى ، واسترضع لها حتى اذا نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابا اى غرفة فى المسجد وجعل بابه إلى وسطها لايرقى اليها إلا بسلم مثل باب الكعبة فلا يصعد اليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها فى كل يوم ، وكان زكريا عليه السلام اذا خرج أغلق عليها بابها فاذا دخل عليها غرفتها وجد عندها رزقاً أى فاكهة فى غير حينها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيقول لها ـ أنى لك هذا ـ فتقول هو من عند الله من قطف الجنة قال الحسن يجد عندها قوتها وكان رزقها يأتيها من الجنة فيقول لها زكريا من أين لك هذا ؟ : فتقول هو من عند الله . قال الحسن : وكانت وهى صغيرة يأتيها رزقها .

وقال محمد بن اسحق : ثم أصابت بنى اسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها . ثم ضعف زكريا عن حملها فخرج إلى بنى اسرائيل وقال يابنى اسرائيل تعلمون والله انى لقد كبرت وضعفت عن حمل ابنة عمران فأيكم يكفلها بعدى ؟ . فقالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من الجهد ماترى فتدافعوها بينهم ثم لايجدون من يحملها فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم على رجل صالح نجار من بنى اسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب بن ماتان وكان ابن عم مريم فحملها . قال فعرفت مريم فى وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له يايوسف أحسن الظن بالله فان الله سيرزقنا فجعل يوسف يرزق لمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فاذا أدخله عليها وهى فى الكنيسة أنماه الله تعالى وكثره فيدخل اليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر مايأتيها به يوسف فيقول لها ـ يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ـ .

أخبرنا عبد الله بن حامد باسناده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئا فأتى فاطمة رضى الله عنها فقال يابنية هل عندك شىء آكل فانى جائع ؟ فقالت لا والله بأبى أنت وأمى . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها بعثت اليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم فأخذته منها ووضعته فى جفنة وغطت عليه وقالت لأوثرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ومن عندى وكانوا جميعا محتاجين الى شبعة من طعام فبعثت حسنا وحسينا الى جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع اليها فقالت بأبى أنت وأمى يارسول الله قد أتانا الله بشىء فخبأته لك قال فهلمى به فأتى به فكشف عن الجفنة فاذاهى مملوءة خبزا ولحما فلما نظرت اليه بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام من أين لك هذا يابنية ـ قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ـ فحمد الله رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فانها كانت إذا رزقها الله رزقا حسنا فسئلت عنه ؟ ـ قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ـ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى على رضى الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم جميعا حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هى قالت فاطمة رضى الله عنها وأوسعت منها على جميع جيرانى وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا ، وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم والباقى بركة من الله تعالى :

باب فى مولد يحي بن زكريا عليه السلام

قال الله تعالى ـ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ـ قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم الفاكهة فى غير حينها قال ان الذى قدر على أن يؤتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولدا على الكبر فطمع فى الولد وكان أهل بيته قد انقرضو وزكريا قد شاخ وأيس من الولد فهنالك أى فعند ذلك دعا زكريا ربه ـ قال رب هب لى ـ أى أعطنى ـ من لدنك ذرية طيبة ـ نسلا تقيا صالحا رضيا ـ إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة ـ يعنى جبريل وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول فبينما هو فى محرابه عند المذبح قائم يصلى والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه وهو جبريل عليه السلام ـ يازكريا إن الله يبشرك بيحي ـ ، واختلفوا لم سمى يحي . قال ابن عباس لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه ، وقال قتادة وغيره لأن الله تعالى أحيا قلبه بالايمان والنبوّة ، وقال الحسن بن الفضل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية دليله ما أخبرنى به الحسن بن فتحويه باسناده عن عكرمة عن ابن عباس . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يلقى الله عز وجل إلا قدمّ بخطيئة أوعملها إلا يحي بن زكريا فانه لم يهم ولم يعمل » . قال الأستاذ وكان شيخنا أبو القاسم الجنيد يقول سمى بذلك لأنه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . قال النبى صلى الله عليه وسلم « من هوان الدنيا على الله أن يحي بن زكريا قتلته امرأة » . قال وسمعت أبا منصور الحمشاوى يقول . قال عمر بن عبدالله المقدسى أوحى الله الى ابراهيم الخليل عليه السلام أن قل ليسارة وكان اسمها كذلك انى مخرج منكما عبدا لا يهم بمعصيتى اسمه حى فهبى له من اسمك حرفا فوهبت له أوّل حرف من حروف اسمها الياء فصار يحي وصار اسمها سارة مصدقا بكلمة من الله يعنى عيسى عليه السلام فسمى كلمة لأن الله تعالى . قال له من غير أب كن فكان فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها وجد ويحي أوّل من آمن بعيسى وصدقه ، وذلك أن أمه كانت حاملة

به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، فقالت لها أم يحي يامريم أحامل أنت ؟ فقالت لماذا تقولين هذا ؟ قالت إني أرى مافي بطني يسجد لما في بطنك فذلك تصديقه له وإيمانه به ، وكان يحي أكبر من عيسى بستة أشهر وذلك أن مولد يحي كان قبل مولد عيسى بستة أشهر ، ثم قتل يحي قبل أن يرفع عيسى الى السماء وسنذكره . قال سعيد بن المسيب ـ وسيدا ـ : السيد الفقيه العالم ، وقال سعيد بن جبير السيد الذى يطيع ربه عزّ وجل ، وقال الضحاك السيد الحسن الخلق ، وقال عكرمة الذى لايغضب ، وقال سفيان الذى لايحسد ـ وحصورا ـ قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما هو الذى لايأتى النساء ولا يقربهنّ فعول بمعنى فاعل يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات ، وقال ابن المسيب والضحاك هو العنين الذى لاباءة له ، ودليل هذا التأويل ماأخبرنى به ابن فتحويه باسناده عن أبى صالح عن أبى هريرة . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحي بن زكريا فانه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ، ثم أومأ النبيصلى الله عليه وسلم الى قذاة من الأرض فأخذها قال وكان ذكره مثل هذه القذاة » وقال المدنى الحصور الذى لايدخل فى اللعب ولا الأباطيل ، قالوا فلما نادى جبريل زكريا بالبشارة قال رب أنى ياسيدى ؟ قاله لجبريل هذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن بن الفضل إنما قال زكريا يارب‌لله لا لجبريل أنى يكون لى غلام من أين يكون لى ولد وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر لاتلد عقيم قال الكلبى كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة وقيل تسع وتسعين سنة وروى الضحاك عن ابن عباس قال كان زكريا ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فأجيب ـ كذلك الله يفعل ما يشاء ـ فان قيل لم أنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعد مابشرته الملائكة أكان ذلك شكا فى وحيه أم إنكارا لقدرته وهذالايجوزأن يوصف به أهل الايمان فكيف الأنبياء فالجواب عنه ماقاله عكرمة والسدى أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان ، فقال يازكريا ان الصوت الذى سمعت ليس من الله وإنما هو صوت الشيطان يسخر بك ولوكان من الله لأوحاه اليك خفية كما ناديته خفية وكما يوحى اليك فى سائر الأمور فقال ذلك دفعا للوسوسة ، وفيه جواب آخر وهو أنه لم يشك فى الولد وإنما شك فى كيفيته والوجه الذى يكون منه الولد فقال أنى يكون لى ولد : أى كيف يكون لى ولد أتجعلنى وامرأتى شابين أم ترزقه كذا على كبرنا أم ترزقنى من امرأة غيرها من النساء ، فقال ذلك متخبرا لا منكرا وهذا قول الحسن ـ قال ربّ اجعل لى آية قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام ـ وتقبل بكليتك على عبادتى وطاعتى لا أنه حبس لسانه عن الكلام ولكنه نهى عنه يدلّ عليه قوله تعالى ـ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشىّ والابكار ـ هذا قول قوم من أهل العلم . وقال آخرون عقل لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، ولم يقدر على

الـكلام ثلاثة أيام إلا رمزا أى إشارة وعلى هـذا أكثر المفسرين . قال عطاء : أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتـكلموا الا رمزا ، فولد يحي بن زكريا عليه السلام ، وفى بعض الأخبار أنه لما ولد يحي رفع إلى السماء فتغذى بأنهار الجنة حتى فطم ثم أنزل إلى أبيه وكان يضىء البيت لنوره وحسن وجهه وجمـاله .

باب فى صفته وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان يحي بن زكريا نبيا حسن الوجه والصورة لين الجناح قليل الشعر قصير الأصابع طويل الأنف مقرون الحاجبين رقيق الصوت كثير الغيرة قويا فى طاعة الله تعالى ، وقد ساد الناس فى عبادة الله وطاعته .

[فصل فى نبوّته وسيرته وذكر زهده وجهده] قال الله تعالى ـ يا يحي خذ الـكتاب بقوّة وآتيناه الحـكم صبيا ـ . قيل إن يحي قال له أترابه من الصبيان يا يحي اذهب بنا نلعب ، فقال لهم ما للعب خلقت . وقال آخرون إنه نبىء صغيرا فـكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس ولما بعثه الله تعالى إلى بنى اسرائيل وأمره أن يأمرهم بخمس خصال ، وضرب لـكلّ خصلة منها مثلا أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وقال مثل الشرك كمثل رجل اشترى عبيدا من خالص ماله ثم أسكنهم دارا له ودفع لهم مالا يتجرون فيه ويأكل كل واحد منه ما يكفيه ثم يؤدون اليه فضل الربح ، فعمد العبيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم ، وأمرهم بالصلاة فقال ان مثل المصلى كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له ودخل عليه فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضى حاجته فلما دخل عليه الرجل التفت يمينا وشمالا ولم يهتم بحاجته فأعرض الملك عنه ولم يقض حاجته ، وأمرهم بالصدقة وقال مثلها كمثل رجل أسره العدو فاشترى منه نفسـه بثمن معلوم فجعل يعمل فى بلادهم ويؤدى اليهم من كسبه القليل والـكثير حتى أوفى ثمنه فاعتق ، وأمرهم بذكره عزّ وجلّ وقال مثل الذكر مثل قوم لهم حصن ولهم عـدوّ فاذا أقبل عليهم عدوهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم كذلك من ذكر الله تعـالى لا يقدر عليه الشيطان ، وأمرهم بالصيام وقال مثله كمثل الجنة لا تدع عدوه يصل اليه وتستره .

وأما سيرته فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان من زهد يحي أنه أتى بيت المقدس، فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والراهبان وعليهم مدارع الشعر والصوف وبرانس الصوف واذاهم قد خرقوا تراقيهم وسلـكوا فيها السلاسل وشدوا بها إلى سوارى المسجد فلما نظر إلى ذلك أتى أمه فقال يا أماه انسجى لى مدرعة من شعر وبرنسا من صوف حتى آتى الى بيت المقدس وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان ، فقالت له أمه حتى يأتى نبىّ الله زكريا عليه السلام فأؤامره فى ذلك فلما دخل زكريا أخبرته بما قال لها يحي فقال له زكريا يا بنىّ ما يدعوك إلى هذا وانما أنت

صبي صغير فقال له ياأبت أما رأيت من هو أصغر مني ذاق الموت قال بلى فقال لأمه انسجي لنا مدرعة من الشعر وبرنسا من الصوف ففعلت فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس وأقبل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم إلى ماقد نحل من جسمه فبكى فأوحى الله تعالى اليه يايحيي أتبكي على ماقد نحل من جسمك وعزتي وجلالي لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدراع الحديد فضلا عن المسوح فبكى يحي حتى أكل الدمع لحم خديه وبدت للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبل زكريا واجتمع الأحبار والرهبان فقال زكريا لابنه يحي مايدعوك لهذا يابني انما سألت ربي أن يهبك لي لتقر بك عيني ، قال أنت أمرتني بذلك يا أبت ، قال ومتى قال ألست القائل إن بين الجنة والنار عقبة كئودا لايقطعها الا البا كون من خشية الله تعالى قال بلى قال فجد واجتهد وقام فنفض مدرعته فأخذته أمه فقالت أتأذن لي يابني أن أتخذ لك قطعتين من لبد يواريان اضراسك وينشفان دموعك فقال لها شأنك فاتخذت له قطعتي لبد يواريان أضراسه وينشفان دموعه فبكى حتى ابتلتا من دموع عينيه ثم أخذهما فعصرهما فتحدرت الدموع من بين أصابعه فنظر زكريا الى ابنه والى دموعه فرفع رأسه الى السماء وقال اللهم ان هذا ابني وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين ، وكان زكريا اذا أراد أن يعظ بني اسرائيل التفت يمينا وشمالا فاذا رأى يحي لم يذكر جنة ولا نارا فجلس يوما يعظ بني اسرائيل وأقبل يحي قد لف رأسه بعباءة وجلس في غمار القوم فالتفت زكريا يمينا وشمالا فلم ير يحي فأنشأ يقول حدثني حبيبي جبريل عن الله عز وجل أن في جهنم جبلا يقال له السكران في أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان خلق لغضب الرحمن تبارك وتعالى في ذلك الوادي جب قامته مائة عام في ذلك الجب توابيت من نار في تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وأغلال من نار فرفع يحي رأسه وقال واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن ثم خرج هائما على وجهه فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحي فقال لها يا أم يحي قومي فاطلبي يحي فاني قد تخوفت أن لا أراه الا وقد ذاق الموت فقامت وخرجت في طلبه فمرت بفتيان من بني اسرائيل فقالوا لها ياأم يحي أين تريدين ؟ قالت أطلب ولدي يحي ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه فمضت أم يحي والفتية معها حتى مرت براعي غنم فقالت ياراعي هل رأيت شابا من صفته كذا وكذا قال لعلك تطلبين يحي بن زكريا قالت نعم : ذلك ولدي ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه ، قال تركته الساعة على عقبة كذا ناقعا قدميه في الماء رافعا بصره الى السماء يقول وعزتك يامولاي لاأذوق بارد الشراب حتى أنظر الى منزلتي منك فأقبلت أمه فلما رأته دنت منه فأخذت برأسه فوضعته بين يديه وناشدته بالله أن ينطلق معها الى المنزل فانطلق معها الى المنزل فقالت له هل لك أن تخلع مدرعتك الشعر وتلبس مدرعتك الصوف فانه ألين ففعل ثم انها طبخت له عدسا فأكل واستوفى فذهب به النوم فلم يقم لصلاته فنودي في منامه يايحيي أردت دارا خيرا من داري وجوارا

خيرا من جوارى ، فاستيقظ وقام وقال رب أقل عثرتى وعزتك لاأستظل بظل سوى بيت المقدس ، ثم قال لأمه ناولينى مدرعة الشعر فقد علمت أنكما ستوردانى المهالك ، فتقدمت اليه أمه ودفعت اليه المدرعة وتعلقت به ، فقال لها زكريا يا أم يحيى دعيه فان ولدى قد كشف له عن قناع غفلته ولن ينتفع بالعيش ، فقام يحيى فلبس مدرعته ووضع البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس فجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان والله أعلم .

باب مقتله عليه السلام

اختلف العلماء فى سبب قتله فقال كان يحيى عليه السلام فى زمن ملك من ملوك بنى اسرائيل وكان له امرأة وهى ابنة ملك صيدا وكانت قتالة للأنبياء والصالحين وكانت عاهرة تبرز للناس ، وكان يحيى يزجرها عن ذلك ويقول لها لاتبرزى كاشفة وجهك ، وكان كثيرا مايقول لها مكتوب فى التوراة إن الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف فأمرت بيحيى فسجن وكان قد حبس رجل من أبناء الملوك وكان كثيرا مايختلف اليها بالليل ، فعلم بها وبه يحيى فزجره فبلغ ذلك امرأة الملك فجملت بنتا لها واستقبلت بها زوجها فقال لها لم فعلت ذلك ؟ فقالت وجب لها عليك حق ، فقال سلى ماشئت ، فقالت البنت استوهبت منك أهل الحبس أصنع بهم ماشئت فظن أبوها أنها ترحمهم وتستروحهم ، فقال أبوها قد فعلت فأمرت أمها بأهل السجن فعرضوا عليها ، فلما مر بها يحيى أمرت به فذبح وأخذت رأسه فى طشت ثم حملت الطشت إلى أبيها بأمر أمها وقالت أيها الملك انى قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ماوجدته ولو كان مثله ألف لذبحتهم لك قال وماهو ؟ قالت يحيى بن زكريا ، فقال هلكت وأهلكت أبويك ، فغير الله مابهم من النعم ، وسلط عليهم عدوا فذبح البنت وأبويها وسلط عليهم الكلاب والسباع حتى أكلتهم .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، قال وكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ ، وكان لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها وكان لها فى كل يوم حاجة عنده يقضيها لها ، فلما بلغ أمها أنه ينهى عن نكاح بنت الأخ قالت لابنتها اذا دخلت على الملك فسألك عن حاجتك فقولى حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا ، فلما دخلت عليه سألها عن حاجتها فقالت حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا ، فقال سلى غير هذا . فقالت ما أسألك الا هذا . فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت فذبحه فيه فنبذت من دمه قطرة فلم تزل تغلى حتى بعث الله عزوجل بختنصر عليهم . فجاءت عجوز من بنى اسرائيل فدلته على ذلك الدم فألقى الله فى قلبه أن يقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم على سن واحد ليسكن فقتلهم فسكن .

وقال السدى باسناده : كان ملك بنى اسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويدنى مجلسه ويستشيره

فى أمره ولا يقطع أمرا دونه وانه هوى أن يتزوج ابنـة امرأة له فسأل عن ذلك يحي فنهاه عنه وقال لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحي حين نهاه أن يتزوج ابنتها فعمدت إلى ابنتها حـين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها من الحلى وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسـقيه وأن تتعرض له فاذا راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ماتسأله ، فاذا أعطاها ذلك سألته أن يأتيها برأس يحي بن زكريا فى طشت ، ففعلت ذلك وجعلت تسقيه وتتعرض له فلما أخـذ منـه الشراب راودها عن نفسها فقالت لا أفعل حتى تعطينى ماأسألك قال وما تسألينى ؟ قالت أن تبعث إلىّ برأس يحي بن زكريا فى هذا الطشت . قال ويحك سلينى غير هـذا قالت ما أسألك الا هـذا ، فلما أبت عليه بعث اليه فأتى برأسـه والرأس يتـكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول لا تحل لك ، فلما أصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فارتفع الدم فوقه فلم يزل يغلى ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى ، وذكر الحديث الطويل الذى فى قصـة سنجاريب وبختنصر كما قدمنا ذكره فى أخبار بختنصر .

وقالت علماء النصارى : الذى قتـل يحي ملك من ملوك بنى اسرائيـل يقال له هيردوس بسبب امرأة يقال لهـا هردويا كانت امرأة أخ له يقال له فيلقوس عشقها فوافقته على الفجور فنهاه يحي وأعلمه أنها لاتحل له ، فسألت المرأة هيردوس أن يأتيها برأس يحي فلما فعل ذلك سقط فى يديه وجزع جزعا شديدا .

قال كعب الأحبار : كان يحيى من أجمل الناس وجها وأحسنهم فى زمانه فأحبته امرأة الملك الذى كان فى زمانه حبا شديدا فأرسلت اليه تراوده عن نفسه فأرسل اليها إنه لاعلم له بالنساء والملك أحق أن يطأ فراشه ، فلما انتهى اليها الرسول غضبت غضبا شديدا وقالت كيف لى أن أقتله ولايخبر الناس أنى قد راودته فلم تزل بالملك حتى وهب لهـا يحيى بن زكريا ، فأرسلت اليه وهو قائم يصلى فى بيت المقدس فى محراب داود من يضرب عنقه ويأخذ رأسه ، فلما أخذوا رأس يحيى خسف الله بها وبأهلها الأرض عقوبة لهـا بقتلها يحيى عليه السلام .

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

قال كعب الأحبار : فلما سمع زكريا ان ابنه يحيى قتل وخسف بالقوم انطلق هاربا فى الأرض حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه الأشجار فنادته شجرة يانبى الله الى ههنا فلما أتاها انفتقت له الشجرة ودخـل زكريا فى وسطها فانطلق ابليس لعنه الله حتى أخـذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه اذا أخبرهم ، فلذلك تصنع اليهود الخيوط فى أطراف أرديتهم لايدرون لما أمروا بذلك وأخـذ الملك وأهله يلتمسون زكريا فاستقبلهم ابليس لعنه الله تعالى فقال لهم ماتلتمسون ؟

قالوا نلتمس زكريا فقال ابليس انه دخل فى هذه الشجرة ، قالوا لا نصدقك قال فانى إن أريتكم علامة تصدقونى بها ؟ قالوا فأرنا اياها فأراهم طرف ردائه فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة فنشروها نصفين فسلط عليهم أخبث أهل الأرض علجا مجوسيا فانتقم الله به من بنى اسرائيل بدم يحيى وزكريا فقتل عظماء بنى اسرائيل وسبى منهم مائة وسبعين ألفا .

وقيل ان السبب فى قتل زكريا أن إبليس جاء الى مجالس بنى اسرائيل فقذف بمريم زكريا وقال ما أحبلها أحد غير زكريا وهو الذى كان يدخل عليها فطلبوا زكريا فهرب واتبعه سفاؤهم وأشرارهم فسلك واديا كثير الأشجار فتشبه له الشيطان فى صورة راع فقال يازكريا قد أدركوك فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة ففعل ذلك فانفتحت له فدخل فيها وأخرج ابليس هدب ردائه منها فمرت بنواسرائيل بالشيطان فقالوا ياراعى هل رأيت رجلا ههنا من صفته كذا وكذا قال نعم سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها وهذا هدب ردائه ، فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقتين بالمنشار طولا فبعث الله الملائكة فغسلوا زكريا وصلوا عليه ودفنوه ، وفى الخبر أن الشمس بكت على يحيى أربعين صباحا وكان بكاؤها ان طلعت وغربت حمراء ، ويروى أن يحيى سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة والله أعلم .

مجلس فى مولد عيسى عليه السلام وفى حمل مريم بعيسى عليهما السلام وما يتصل به

قال الله تعالى — واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا — قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاثة أيام ومريم يومئذ بنت خمس عشرة سنة وقيل بنت ثلاث عشرة سنة وكان مع مريم فى المسجد من المحررين ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكان رجلا حليما نجارا يتصدّق بعمل يديه وكان يوسف ومريم يليان خدمة الكنيسة وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف أخذ كل واحد منهما قلته وانطلق إلى المغارة التى فيها الماء فيستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة ، فلما كان اليوم الذى لقيها فيه جبريل عليه السلام وكان أطول يوم فى السنة وأشده حرا نفد ماؤها ، فقالت ألا تذهب بنا يايوسف فنستقى فقال إن عندى لفضلا من ماء أكتفى به يومى هذا إلى غد قالت ولكنى والله ما عندى ماء . فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت عندها جبريل عليه السلام قد مثله الله لها بشرا سويا فقال لها يامريم ان الله قد بعثنى اليك لأهب لك غلاما زكيا قالت — انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا — أى مؤمنا مطيعا ، قال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه علمت أن التقى ذو رحمة وخشية وهى تحسبه رجلا من بنى آدم . قال عكرمة وكان جبريل عرض لها فى صورة رجل شاب أمرد مضىء الوجه جعد الشعر سوى الخلق . قالت الحكماء انما أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبت مريم عليها وتقدر على استماع كلامه ولو نزل على صورته التى هو عليها لفزعت

ونفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه ، فلما استعاذت منه مريم ـ قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ـ الآية ، فلما قال لها ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ فى جيب درعها وكانت قد وضعته عنها ، فلما انصرف عنها لبست مريم درعها وحملت بعيسى عليه السلام ، ثم ملأت قلتها وانصرفت إلى المسجد .

وقال السدى وعكرمة : ان مريم عليها السلام كانت تكون فى المسجد مادامت طاهرة فاذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هى تغتسل من الحيض وقد اتخذت مكانا شرقيا أى مشرقا لأنه كان فى الشتاء فى أقصر يوم فى السنة .

قال الحسن انما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأن مريم انتبذت مكانا شرقيا فاتخذت فضربت من دونهم حجابا أى سترا ، وقال مقاتل جلعت الجبل بينها وبين قومها فبينما هى كذلك فى تلك الحالة إذ عرض لها جبريل وبشرها بعيسى ونفخ فى جيب درعها . قال وهب فلما اشتملت على عيسى كان معها ذو قرابة لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذى عند جبل صهيون وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد وكان لخدمته فضل عظيم وكانا يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وتطهيره وكان لا يعلم فى زمانهما أشد اجتهادا وعبادة منهما وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار ، فلما رأى الذى بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة واذا أراد أن يبرئها رأى الذى ظهر بها من الحمل فلما اشتد ذلك عليه كلمها فكان أول كلامه اياها أن قال لها انه قد وقع فى نفسى من أمرك شىء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبنى ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى ، فقالت له قل قولا جميلا قال لها أخبرينى يامريم هل نبت زرع بغير بذر ؟ قالت نعم . قال فهل نبتت شجرة بغير غيث ؟ قالت نعم . قال فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت ألم تعلم أن الله عزّ وجلّ أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر انما يكون من الزرع الذى أنبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق الله كل واحد منهما على حدة أو تقول ان الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى إستعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته ، قال يوسف لها لا أقول هذا ولكنى أقول ان الله تعالى يقدر على مايشاء يقول للشىء كن فيكون ، فقالت له مريم ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى . قال بلى . فلما قالت له ذلك وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من أمر الله وأنه لا يسعه أن يسألها عنه وذلك لما رأى من كتمانها لذلك ، ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها

ونتوّ بطنها وضعف قوتها وكان جبل صهيون على باب بيت المقدس .

وسمعت من الثقات : أن قبرداود عليه السلام فيه وثم كنيسة مشرفة على عين السلوان ، وسألت بعض الرهبان فقال هذا صهيون والكنيسة التى خدمت فيها مريم ويوسف هذه وقد أفصح فيها عيسى ودعا الخلق إلى الله تعالى ، ثم نقل من هذه إلى القمامة وهى كنيسة عظيمة داخل بيت المقدس يدّعون أن عيسى عليه السلام لما قتل دفن فيها ، وبعد ثلاثة أيام عرج به إلى السماء فلا ينقطع أبد الدهر منها وأنه ينزل فيها والله أعلم .

باب فى ذكر ميلاده عليه السلام

قالوا : فلما أثقلت مريم ودنا نفاسها أوحى الله تعالى اليها ان مسجد بيت المقدس بيت من بيوت الله تعالى الذى طهر ورفع ليذكر فيه اسمه فابرزى إلى موضع تأوين فيه ، فتحوّلت مريم إن بيت خالتها أخت أمها أم يحي فلما دخلت عليها قامت أم يحي واستقبلتهافالتزمتها ، فقالت امرأة زكريا يامريم أشعرت أنى حبلى قالت مريم وأنت أيضا شعرت أنى حبلى ؟ قالت امرأة زكريا فانى أجد مافى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى ـ مصدقا بكلمة من الله ـ فلما وافت بيت خالتها أوحى الله اليها إنك إن ولدت بين أظهر قومك عيروك وقذفوك وقتلوك وولدك فاظعنى من عندهم أى فاخرجى . وقال الكلبى قيل لابن عمها يوسف إن مريم حملت من الزنا الآن يقتلها الملك وكانت قد سميت له فهرب بها يوسف فاحتملها على حمار له ليس بينها وبين الاكاف شىء ، فانطلق بها يوسف حتى إذاكان قريبا من أرض مصر فى منقطع بلاد قومها أدرك مريم النفاس فألجأها إلى أصل نخلة يابسة وذلك فى زمان الشتاء .

قال الكلبى لما كان يوسف ببعض الطريق أراد قتلها فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إنه من روح القدس فلا تقتلها . واختلف العلماء فى مدة حمل مريم عليها السلام ووقت وضعها عيسى عليه السلام ، فقال بعضهم كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل ثمانية أشهر وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل ستة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة . وقال ابن عباس : ماهو إلا أن حملت ووضعت ولم يكن بين الحمل والوضع والانتباذ إلا ساعة واحدة ، لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا قال الله عزّ وجلّ ـ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ـ أى بعيدا من قومها . وقال مقاتل حملته أمه فى ساعة وصوّر فى ساعة ووضع فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشرين سنة ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى قالوا فلما اشتد بها المخاض التجأت إلى النخلة وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف ولا كرانيف ولاعروق ، فاحتوشتها الملائكة وكانوا صفوفا محدقين بها أى محيطين بها وكانت تلك النخلة فى موضع يقال له بيت لحم فقالت حين اشتدّ الأمر ـ ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ـ أى جيفة ملقاة فنوديت ـ أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك

سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ــ فذلك قوله تعالى ــ فناداها من تحتها أن لا تحزنى ــ من قرأ بكسر الميم والتاء فهو جبريل عليه السلام ناداها من سفح الجبل ومن قرأ بفتح الميم والتاء فهو عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه ناداها وكلمها باذن الله تعالى . قالوا فلما ولدت عيسى أجرى الله لها نهرا من ماء عذب بارد إذا شربت منه وفاترا إذا استعملته فذلك قوله تعالى ــ قد جعل ربك تحتك سريا ــ وهو النهر الصغير . قال ابن عباس ضرب عيسى وقيل جبريل عليه السلام برجله الأرض ، فظهر الماء وحييت تلك النخلة بعد يبسها فتدلت غصونها وأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل لها هزى اليك بجذع النخلة أى حركيه تساقط عليك رطبا جنيا غضا طريا قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ، وقال عمرو بن ميمون ما أدرى للمرأه إذا عسرت عليها ولادتها خيرا من الرطب وقرأ هذه الآية . قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضغ التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون . وقال بعض البلغاء فى وصف التمر علة الصغير ونهلة الكبير ، قالوا ثم إن يوسف النجار عمد الى حطب فجعله كالحظيرة حوالها بالقرب منها إذ قد أضر بها البرد ، ثم أشعل لها نارا لتصطلى بها ثم كسر لها سبع جوزات كانت فى خرجه فأطعمها إياها ، فمن أجل ذلك توقد النصارى النار ليلة الميلاد وتلعب بالجوز .

قال وهب : فلما ولد عليه السلام أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رءوسها ، ففزعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إلى ابليس لعنه الله وغضب عليه وهو على عرش له فى لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ، فأتوه وقد خلت ست ساعة ، من النهار فلما رأى ابليس اجتماعهم فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة ، وانما كان يراهم أشتاتا فسألهم فأخبروه أنه حدث فى الأرض حدث فأصبحت الأصنام كلها منكوسة على رءوسها ولم يكن شىء أعون على هلاك بنى آدم منها لأنهم كانوا يدخلون فى أجوافها فتكلمهم وتدبر أمرهم فيظنون أنها هى التى تكلمهم ، فلما أصابها هذا الحدث صغرها فى أعين الناس وأذلها وقد خشينا أن لا يعبدوها بعد هذا . واعلم أنا لم نكن نأتيك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شىء فلم نزدد بما أردنا إلا جهلا ، فقال لهم ابليس فما يكون إلا أمر عظيم فكونوا مكانكم فطار ابليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات فمر فيهن بالمكان الذى ولد فيه عيسى فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه فأراد ابليس لعنه الله أن يأتيه من فوقه . قال فاذا رءوس الملائكة ومناكبهم إلى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فاذا أقدام الملائكة راسية ، فأراد أن يدخل من بينهم فمنعوه عن ذلك يدل عليه حديث النبى صلى الله عليه وسلم « كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد إلا عيسى بن مريم عليه السلام حجبه الله تعالى عنه فذهب يطعن فطعن فى الحجاب » . قال وهب فذهب ابليس

لعنه الله إلى أصحابه ، فقال لهم . ماجئتكم حتى أحصيت الأرض كلها مشرقها ومغربها وبرّها وبحرها والخافقين والجو الأعلى وكل هذا بلغته فى ثلاث ساعات ، ثم أخبرهم بمولد عيسى وقال : مااشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمى ولا وضعته الا وأنا حاضرها وإنى لأرجو أن يضل به أكثر ممن يهتدى به ، وماكان نبى أشد علىّ وعليكم من هذا المولود،ثم إنه خرج قوم فى تلك الليلة يؤمونه من أجل نجم طلع كانوا من قبل يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود فى كتاب دانيال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبان فمرّوا بملك من ملوك الشام فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بذلك ، قال فما بال المر والذهب واللبان أهديتموه بهذه الأشياء ؟ قالوا تلك أمثاله لأن الذهب سيد المتاع كله وكذلك هذا النبىّ صلى الله عليه وسلم سيد أهل زمانه ولأن المرّ يجبر به الكسر والجرح وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم يشفى الله به كلّ سقيم ومريض ، ولأن اللبان دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره ، وكذلك هذا النبى صلى الله عليه وسلم يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع فى زمانه أحد غيره ، فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدث نفسه بقتله فقال لهم اذهبوا فاذا علمتم بمكانه فأعلمونى بذلك فانى راغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره ، فانطلقوا حتى قدموا على مريم ودفعوا ما كان معهم من الهدية اليها عليها السلام ، وأرادوا ان يرجعوا إلى ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقيهم ملك وقال لهم لاترجعوا اليه ولا تعلموه بمكانه فانه إنما أراد قتله فانصرفوا فى طريق آخر . وقال مجاهد قالت مريم عليها السلام كنت إذا خلوت مع عيسى عليه السلام حدثنى وحدثته فاذا شغلنى عنه انسان سبح فى بطنى وأنا أسمع والله أعلم .

باب فى رجوع مريم بابنها عيسى بعد ولادتها إياه إلى جماعة قومها من بيت لحم

قال ثم ان جماعة من قومها لما هيأ الله تعالى لأمته مريم عليها السلام أمرها ويسر الله لها أسباب ولادتها ، قال كلى يامريم من الرطب واشربى من الماء العذب وقرى عينا وطيبى نفسا فإما ترين من البشر أحدا فسألك عن ولدك أو لامك عليه فقولى — إنى نذرت للرحمن صوما — أى صمتا ، وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود وأنس وذلك أنهم كانوا إذا صاموا أمسكوا عن الطعام والشراب والكلام — فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله — . قال الكلبى احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تعالت من نفاسها ، ثم جاء بها فأتت مريم تحمله بعد أربعين يوما فكلمها عيسى فى الطريق فقال ياأماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين فقالوا — يامريم لقد جئت شيئا فريا — فظيعا عظيما — يا أخت هرون — قال قتادة كان هرون رجلا صالحا من أتقياء بنى اسرائيل وليس بهرون أخى موسى ، وذكروا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بنى اسرائيل كلهم يسمى هرون . وقال وهب : كان هرون من أفسق بنى اسرائيل وأظهرهم فسادا

فشبهوها به ــ ما كان أبوك ــ عمران ــ امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ــ : أى زانية فمن أين لك هذا الولد فأشارت لهم مريم إلى عيسى أن كلموه ، فغضبوا وقالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال وهب : فأتاها زكريا عليه السلام عند مناظرتها اليهود وقال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوما ــ إنى عبد الله آتانى الكتاب ــ الأية ، فأقر على نفسه بالعبوديه أول ماتكلم تكذيبا للنصارى وإلزاما للحجة عليهم . قال عمرو ابن ميمون إن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرجموها ، فلما تكلم عيسى تركوها ، قالوا ثم لم يتكلم بشىء بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان والله أعلم .

باب فى ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

قال الله تعالى ــ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ــ قالوا كان مولد عيسى بعد مضى اثنتين وأربعين سنة من ملك أغسطوس واحدى وخمسين سنة مضت من ملك الاشكانيين ملوك الطوائف وكانت المملكة فى ذلك الوقت لملوك الطوائف وكانت الرياسة فى الشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وكان الملك عليها من قبل قيصر هردوس ، فلما عرف هردوس ملك بنى اسرائيل خبر المسيح قصد قتله وذلك أنهم نظروا إلى نجم قد طلع فعرفوا ذلك بحساب عندهم فى كتاب لهم فبعث الله ملكا الى يوسف النجار وأخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالغلام وأمه الى مصر ، وأوحى الله الى مريم أن الحقى بمصر فان هردوس ان ظفر بابنك قتله فاذا مات هردوس فارجعى الى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها على حمار له حتى ورد أرض مصر وهى الربوة التى قال الله تعالى ــ وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ــ .

ذكر أبو إسحق الثعلبى فى التفسير ــ ذات قرار ومعين ــ ، قال عبد الله بن سلام هى دمشق وقال أبو هريرة هى الرملة وقال قتادة وكعب هى بيت المقدس وقال كعب هى أقرب الأرض الى السماء وقال أبو زيد هى مصر ، وقال الضحاك هى عرصة دمشق وقال أبو العالية هى ايلياء وقال القزاز الأرض المستوية والمعين الماء الطاهر فأقامت مريم بمصر اثنتى عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين وكانت تلتقط السنبل والمهد فى منكبها والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر حتى تمّ لعيسى اثنتا عشرة سنة .

وروى عن محمد بن على الباقر رضى الله عنه أنه قال: لما ولد عيسى كان ابن يوم كأنه ابن شهر ، فلما كان ابن تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب ، فقال له المؤدب قل بسم الله الرحمن الرحيم فقالها عيسى ، فقال المؤدب قل أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال له هل تدرى ما أبجد فعلاه بالقضيب ليضربه ، فقال يامؤدب لاتضربنى ان كنت تدرى وإلا فاسألنى حتى أفسر لك ، فقال له المؤدب فسره لى ، فقال عيسى الألف لاإله

إلا الله والباء بهجة الله والجيم جلال الله والدال دين الله هوّز الهاء هى جهنم وهى الهاوية والواو ويل لأهل النار والزاى زفير أهل جهنم حطى حطت الخطايا عن المستغفرين كلمن كلام الله غير مخلوق ولامبدل لكلماته سعفص صاع بصاع والجزاء بالجزاء قرشت تقرشهم حين تحشرهم أى تجمعهم ، فقال المؤدب لأمه أيتها المرأة خذى ابنك فقد علم ولاحاجة له الى المؤدب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين المفسر باسناده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان عيسى أرسلته أمه ليتعلم ، فقال له المعلم قل باسم الله ، فقال عيسى وماباسم الله ؟ قال المعلم ما أدرى . قال عيسى الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته جل وعلا » والله أعلم .

باب فى صفة عيسى وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان عيسى بن مريم رجلا أحمر مائلا الى البياض ماهو سبط الرأس ولم يدهن رأسه قط وكان عيسى يمشى حافيا ولم يتخذ بيتا ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا ولا رزقا إلا قوت يومه وكان حيثما غابت الشمس صف قدمية وصلى حتى يصبح وكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحى الموتى باذن الله وكان يخبر قومه بما يأكلون فى بيوتهم وما يدخرون لغد وكان يمشى على وجه الماء فى البحر وكان أشعث الرأس صغير الوجه زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة حريصا على عبادة الله وكان سياحا فى الأرض حتى طلبته اليهود وأرادوا قتله فرفعه الله إلى السماء والله أعلم .

باب فى ذكر الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام فى صباه الى أن نبىء

قال وهب : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر أنزلها بها يوسف النجار حين ذهب بها الى مصر ، وكانت دار ذلك الدهقان تأوى اليها المساكين فسرق للدهقان مال من خزانته فلم يتهم المساكين فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان ، فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها . قال لها ياأماه أتحبين أن أدله على ماله ؟ قالت نعم يابنى . قال لها قولى له يجمع لى المساكين فى داره ، فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع له المساكين فلما اجتمعوا عمد الى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له قم به ، فقال الأعمى أنا أضعف عن ذلك ، فقال له عيسى كيف قويت على ذلك البارحة ؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام فلما استقل قائما هوى المقعد الى كوة الخزانة ، فقال عيسى للدهقان هكذا احتالا على مالك البارحة لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينيه ، فقال الأعمى والمقعد صدق والله فردا على الدهقان ماله كله فأخذه الدهقان ووضعه فى خزانته . وقال يامريم خذى نصفة ، فقالت إنى لم أخلق لذلك . قال الدهقان فأعطيه لابنك ، قالت هو أعظم منى شأنا ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس لابن له فصنع له عيدا فجمع عليه أهل مصر كلهم فكان يطعمهم شهرين فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده

يومئذ شراب ، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه صفان من جرار فأمر عيسى يده على أفواهها وهو يمشى فكلما أمر يده على جرة امتلأت شرابا حتى أتى عيسى على آخرها وهو يومئذ ابن اثنتى عشرة سنة .

آية أخرى . قال السدى كان عيسى عليه السلام إذا كان فى الكتاب يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذاوكذا وهم يأكلون كذا وكذا فينطلق الصبي الى أهله فيبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون له من أخبرك بهذا ؟ فيقول عيسى فحبسوا عنه صبيانهم وقالوا لاتلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت فجاء عيسى يطلبهم ؟ فقالوا له ليسوا ههنا ، فقال لهم فما فى هذا البيت ؟ قالوا خنازير . قال كذلك يكونون ففتح عنهم فاذاهم خنازير ففشا ذلك فى الناس فهمت به بنو إسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة الى مصر .

آية أخرى ، قال السدى لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسيحان فى الأرض اذ تركا بنى إسرائيل ونزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن اليهما وكان ملك ذلك الوقت جبارا عنيدا فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ماشأن زوجك أراه حزينا ؟ فقالت لها لاتسأليني ، فقالت أخبريني لعل الله يفرج كربته على يدى ، فقالت ان لنا ملكا يجعل على كل رجل منا نوبة يطعمه ويسقيه الخمر هو وجنوده فان لم يفعل عاقبه واليوم يومنا ولبس عندنا سعة ؟ قالت فقولى له لا يهتم بشيء فانه قد أحسن الينا وانى آمر ابنى أن يدعو له فيكفى ذلك ، ثم قالت مريم لعيسى فقال ان فعلت ذلك يقع شر قالت فلانبالى لأنه أحسن الينا وأكرمنا . قال عيسى فقولى له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمنى ففعل ذلك فدعا عيسى فتحول ماء القدور لحما ومرقا وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قط ، فلما جاء الملك أكل فلما شرب سأل من أين هذا الخمر ؟ قال له من أرض كذا وكذا . قال الملك فان خمرى قد أتى بها من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال له من أرض أخرى فلما خلط على الملك وشبه عليه ، قال أخبرنى عن الحق . قال فأنا أخبرك عندى غلام ما سأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق اليه ، فقال الملك ان رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرا ليستجاب له حتى يحيى ابنى فدعا عيسى وكلمه فى ذلك ، فقال له عيسى لاتفعل لأنه ان عاش وقع شر ، فقال الملك لا أبالى بعد ان أراه . قال عيسى ان أحييته تتركونى أناوأمى نذهب حيث نشاء ؟ قال نعم ، فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريدأن يستخلف ابنه علينا فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه .

آية أخرى . قال وهب بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبيّ فوكزه برجله

فقتله فألقاه بين يدى عيسى وهو ملطخ بالدم فاطلع الناس عليه فاتهموه به فأخذوه وانطلقوا به الى قاضى مصر فقالوا له هذا قتل هذا فسأله القاضى فقال عيسى لا أدرى من قتله وما أنا بصاحبه ؟ فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام ، فقال لهم ائتونى بالغلام فقالوا له ما تريد منه ؟ قال أريد أن أسأله من قتله ، قالوا وكيف يكلمك وهو ميت فأخذوه وأتوا به الى مقتل الغلام فأقبل عيسى على الدعاء فأحياه الله تعالى فقال له عيسى من قتلك ؟ . قال قتلنى فلان على الذى قتله ، فقال بنو إسرائيل من هذا ؟ قال هذا عيسى بن مريم قالوا فمن هذا الذى معه ؟ قال قاضى بنى إسرائيل ثم مات الغلام من ساعته فرجع عيسى الى أمه وتبعه خلق كثير من الناس ، فقالت له أمه يابنى ألم أنهك عن هذا فقال لها ان الله حافظنا وهو أرحم الراحمين .

آيه أخرى . قال عطاء سلمت مريم عيسى بعد ما أخرجته من الكتاب الى أعمال شتى فكان آخر مادفعته الى الصباغين فدفعته الى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب مختلفات فعرض للرجل سفر فقال لعيسى انك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفر لا أرجع الى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفات الألوان وقد علمت كل واحد منها على اللون الذى يصبغ به فأحب أن تكون فارغا منها وقت قدومى ، ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام جبا واحدا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال لها كونى باذن الله تعالى على ما أريد منك فقدم الصباغ والثياب كلها فى جب واحد فقال ياعيسى ما فعلت ؟ قال فرغت منها . قال أين هى ؟ قال فى الجب فقال كلها ، قال نعم ؟ قال كيف تكون كلها فى جب واحد لقد أفسدت تلك الثياب ؟ قال قم فانظر فقام فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر الى أن أخرجها على الألوان التى أرادها ، فجعل الصباغ يتعجب وعلم أن ذلك من الله عز وجل فقال الصباغ للناس تعالوا انظروا إلى مافعل عيسى عليه السلام فآمن به هو واصحابه وهم الحواريون والله عز وجل أعلم .

باب فى ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلادهما بعد موت هردوس

قال وهب . لما مات هردوس الملك بعد اثنتى عشرة سنة من مولد عيسى عليه السلام أوحى الله تعالى الى مريم يخبرها بموت هردوس ويأمرها بالرجوع مع ابن عمها يوسف النجار الى الشام فرجع عيسى وأمه عليهما السلام وسكنا فى جبل الخليل فى قرية يقال لها ناصرة وبها سميت النصارى ، وكان عيسى يتعلم فى الساعة علم يوم وفى اليوم علم شهر وفى الشهر علم سنة ، فلما تم له ثلاثون سنة أوحى الله تعالى اليه أن يبرز للناس ويدعوهم الى الله ويضرب لهم الأمثال ويداوى المرضى والزمنى والعميان والمجانين ويقمع الشياطين ويزجرهم ويذلهم وكانوا يموتون من خوفه ففعل ما أمره به فأحبه الناس ومالوا اليه واستأنسوا به وكثرت أتباعه وعلا ذكره وربما اجتمع عليه من المرضى والزمنى فى الساعة الواحدة خمسون ألفا فمن أطاق منهم أن يمشى اليه مشى اليه ومن لم يطق وصل اليه عيسى عليه السلام وانما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ،

ودعاؤه الذى كان يشفى به المرضى ويحيي به الموتى : اللهم أنت إله من فى السماء وإله من فى الأرض لاإله فيهما غيرك وأنت جبار من فى السموات وجبار من فى الأرض لا جبار فيهما غيرك وأنت ملك من فى السموات وملك من فى الأرض لا ملك فيهما غيرك وأنت حكم من فى السموات وحكم من فى الأرض لا حكم فيهما غيرك قدرتك فى الأرض كقدرتك فى السماء وسلطانك فى الأرض كسلطانك فى السماء أسألك بأسمائك الكرام إنك على كل شيء قدير .

باب فى قصة الحواريين عليهم السلام

قال الله تعالى ـ فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ـ وقال الله عز وجلّ ـ وإذ أوحيت إلى الحواريين ـ أى ألهمتهم ووفقتهم ـ أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ـ اعلم أن الحواريين كانوا أصفياء عيسى بن مريم وأولياءه وأرضياءه وأنصاره ووزراءه وكانوا اثنى عشر رجلا وأسماؤهم شمعون الصفار المسمى بطرس واندرواس أخوه ويعقوب بن زبدى ويحي أخوه وفيلبس وبرتولوماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وليا الذى يدعى تداوس وشمعون القنانى ويهوذا الاسخريوطى عليهم السلام .

واختلف العلماء فيهم لم سموا بذلك ؟ . قال ابن عباس : كانوا صيادين يصطادون السمك فمر بهم عيسى فقال لهم ماتصنعون ؟ فقالوا نصطاد السمك. فقال لهم ألا تمشون معى حتى نصطاد الناس قالوا وكيف ذلك ؟ قال ندعو الى الله . قالوا ومن أنت قال أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله . قالوا فهل يكون أحد من الأنبياء فوقك ؟ قال نعم النبي العربى فاتبعه أولئك وآمنو به وانطلقوا معه . وقال السدى كانوا ملاحين . وقال ابن أرطاة . كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب : أى يبيضونها .

أخبرنا ابن فنحويه باسناده عن مصعب قال : الحواريون اثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى فكانوا اذا جاعوا قالوا ياروح الله جعنا فيضرب بيده إلى الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج لكل انسان رغيفان فيأكلهما واذا عطشوا قالوا ياروح الله عطشنا فيضرب الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج الماء فيشربون . فقالوا ياروح الله من أفضل منا اذا شئنا أطعمتنا واذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعناك ؟ قال أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه . قال فصاروا يعملون الثياب بالكراء . قال ابن عون صنع ملك من الملوك طعاما فدعا الناس اليه ، وكان عيسى على قصعة فكانت القصعة لاتنقص . فقال له الملك من أنت ؟ . قال أنا عيسى بن مريم . قال الملك انى أترك ملكى وأتبعك فانطلق بمن اتبعه منهم وهم الحواريون ، وقيل هو الصباغ وأصحابه ، وقد مضت القصة .

قال الضحاك : سموا حواريين لصفاء قلوبهم ، وقال عبـد الله بن المبارك سموا حواريين لأنهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها . وأصل الحور عندالعرب شدة البياض ومنه الأحور والحور . وقال الحسن : الحواريون الأنصار . وقال قتادة هم الذين تصلح لهـم الخلافة وقال النضر بن شميل الحوارى خاصـة الرجل ومن يستعين به فيما ينوبه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « لـكل نبي حوارى وحوارى الزبير » فهؤلاء حواريو عيسى بن مريم عليه السلام فأما حواريو هذه الأمة فأخبرنا الحسين بن محمد الدينورى باسناده عن سفيان بن معمر أن قتادة قال ان الحواريين كلهم من قريش وهم أبوبكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وجعفر وأبوعبيدة ابن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله والزبير ابن العوام رضي الله عنهم أجمعين .

ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التي ظهرت على يديه بعد مبعثه إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه

منها تأييد الله إياه بروح القـدس . قال عز من قائل ـ وأيدناه بروح القدس ـ ونظيرها في سورة المـائدة ـ إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليـك وعـلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ـ .

واختلفوا فيه فقال الربيع بن أنس هو الروح الذى نفخ فيه الروح أضافه سبحانه الى نفسه تـكريمـا وتخصيصا نحو بيت الله وناقة الله والقدس هو الله تعالى يدل عليه قوله تعالى ـ وروح منه ـ فنفخنا فيه من روحنا ـ ، وقال آخرون أراد بالقدس الطهارة أى الروح الطاهرة وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث انما كان أمرا من الله تعالى . قال السدى وكعب روح القدس جبريل وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هوأنه كان قرينه ورفيقه يعينه ويسير معه حيثما سار إلى أن صعد به إلى السماء . وقال سعيد بن جبير وعبيد بن عمير هواسم الله الأعظم وبه كان يحيى الموتى ويرى الناس تلك العجائب .

ومنها تعليم الله إياه الانجيل والتوراة وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى ـ وإذ علمتك الـكتاب ـ أى الخط ، قيل الخط عشرة أجزاء فتسعة منها لعيسى والحـكمة والتوراة والانجيل .

ومنها خلقه الطير من الطين كما قال الله تعالى مخبرا عنه ـ أنى قدجئتـكم بآية من ربكم أنى أخلق لـكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيـكون طيرا باذن الله ـ وقال تعالى ـ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى ـ فـكان يصور من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيـكون طيرا باذن الله ولم يخلق غير الخفاش ، وانما خص بالخفاش لأنه أكمل الطير خلقا فيكون أبلغ فى القدرة لأن له ثديا وأسنانا ويلد ويحيض ويطير .

قال وهب : كان يطيرمادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عنهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق عن فعل الله تعالى ، وليعلم أن الكمال لله عزوجل .

ومنها ابراء الأكمه والأبرص كما قال الله ـ وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ـ والأبرص الذى به وضح والأكمه الذى ولد أعمى ولم يرضوءا قط ولم يكن فى الاسلام أكمه غير قتادة وانما خص هذين لأنهما أعييا الأطباء ، وكان الغالب على زمان عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك .

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عميان . فقال ماهؤلاء ؟ فقيل هؤلاء قوم طلبوا القضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم فقال لهم مادعاكم الى هذا ؟ قالوا خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ماترى . فقال أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ففعلوا ذلك فاذاهم جميعا قيام ينظرون .

ومنها احياؤه الموتى باذن الله قال الله تعالى ـ وإذ تخرج الموتى باذنى ـ . وأحيا منهم أمواتا منهم العاذر، وكان صديقا له فأرسلت أخته الى عيسى ان أخاك العاذر يموت فأته وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قدمات منذ ثلاثة أيام فقالوا لأخته انطلقى بنا الى قبره فانطلقت معهم الى قبره وهو فى صخرة مطبقة . فقال عيسى : اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتنى الى بنى اسرائيل أدعوهم الى دينك وأخبرتهم إنى أحيى الموتى باذنك فأحى العاذر فقام العاذر وخرج من قبره وبقى وولد له .

ومنها ابن العجوز ، وكانت القصة فيه أن عيسى مر فى سياحته ومعه الحواريون بمدينة فقال ان فى هذه المدينة كنزا فمن يذهب يستخرجه لنا ، فقالوا ياروح الله لايدخل هذه القرية أحد غريب إلا قتلوه فقال لهم عيسى مكانكم حتى أعود اليكم فمضى حتى دخل المدينة فوقف على باب فقال السلام عليكم يا أهل الدار غريب أطعموه ، فقالت له امرأة عجوز أماترضى أن أدعك لاأذهب بك الى الوالى حتى تقول أطعمونى فبينما عيسى بالباب إذ أقبل الفتى ابن العجوز فقال له عيسى أضفنى ليلتك هذه فقال له الفتى مثل مقالة العجوز فقال له عيسى أما انك لوفعلت ذلك زوجتك بنت الملك ، فقال له الفتى إما أن تكون مجنونا واما أن تكون عيسى بن مريم قال أنا عيسى فأضافه وبات عنده فلما أصبح قال له اغد وادخل على الملك وقل له جئت أخطب ابنتك فانه سيأمر بضربك واخراجك فمضى الفتى حتى دخل على الملك فقال له جئت اليك أخطب ابنتك فأمر بضربه فضرب وأخرج فرجع الفتى الى عيسى فأخبره الخبر ، فقال اذا كان غد فاذهب اليه واخطب ابنته فانه ينالك بدون ذلك ففعل الفتى ما أمره عيسى فضربه دون ذلك الضرب الأول فرجع الى عيسى فأخبره فقال ارجع اليه فانه سوف يقول لك أنا أزوجك إياها على حكمى وحكمى قصر من ذهب وفضة ومافيه من ذهب وفضة وزبرجد فقل له أفعل ذلك فاذا بعث معك أحدا فاخرج به فانك سوف تجده فلا تحدث فيه شيئا ثم انه دخل على الملك فخطب فقال تصدقها بحكمى . فقال وما حكمك ؟

فحكم بالذى سماه عيسى . فقال نعم رضيت : ابعث من يقبض ذلك فبعث معه رجالا فسلم اليهم ماسأله الملك فتعجب الناس من ذلك فسلم اليه الملك ابنته فتعجب الفتى من ذلك وقال ياروح الله تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحالة، فقال له عيسى إنى آثرت ما يبقى على مايفنى ، فقال الفتى أنا أيضا أدعه وأصحبك ، فتخلى عن الدنيا واتبع عيسى ، فأخذ عيسى ، بيده وأتى به أصحابه وقال لهم هـذا الكنز الذى قلت لكم فكان معه ابن العجوز إلى أن مات ومرّ به وهوميت على سريره فدعا الله عيسى فجلس على سريره ، ونزل من على أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقى وولد له .

ومنها ابنة العشار رجل كان يأخذ العشر قيل له أحيها وقد ماتت بالأمس ، فدعا الله عز وجل فعاشت وبقيت وولد لها .

ومنها سام بن نوح قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح . لو بعثت لنا من شهد السفينة فينعت لنا ذلك ، فقام وأتى تلا فضرب بيده وأخذ قبضة من تراب ، وقال هـذا قبر سام بن نوح إن شئتم أحييته لكم ، قالوا نعم ، فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التلّ بعصاه وقال احي باذن الله فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه ، فقال أقد أقامت القيامة ؟ قال لا ، ولكنى دعوتك باسم الله الأعظم . قال ولم يكونوا يشيبون فى ذلك الزمان ، وكان سام قـد عاش خمسمائة سنة وهوشاب ، ثم أخبرهم بخبر السفينة ، فقال له عيسى مت ، قال بشرط أن يعيذنى الله من سكرات الموت ، فدعا الله عيسى عليه السلام ففعل ذلك ، وقد ذكر هذا الخبر فى قصة نوح عليه السلام .

ومنها عزير عليه السلام ، قالوا لعيسى عليه السلام أحيه والا أحرقناك بالنار ، وجمعوا له حطبا كثيرا من حطب الكرم ، وكانوا فى ذلك الوقت يدفنون موتاهم فى صناديق من حجارة مطبقة فوجدوا قبر عزير مكتوبا على ظهره اسمه ، فعالجوه ليفتحوه فلم يقدروا أن يخرجوه من قبره ، فرجعوا إلى عيسى فأخبروه ، فناولهم إناء فيه ماء وقال لهم انضحوا قبره بهذا الماء ففعلوا فانفتح الطبق فأتوا به عيسى وهو فى أكفانه والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ثم إنه نزع ثيابه عنه ، ثم جعل ينضح على جسده الماء ولحمه وشعره ينبت ، ثم قال احي ياعزير باذن الله تعالى فاذاهو جالس وكل ذلك تراه أعينهم ، فقالوا ياعزير ماتشهد لهـذا الرجل ؟ يعنون عيسى ، فقال أشهد أنه عبدالله ورسوله ، فقالوا ياعيسى ادع لنا ربك يبقه لنا ليكون بين أظهرنا حيا ، فقال عيسى ردوه الى قبره فردوه الى قبره فعاد ميتا ، فآمن بعيسى بن مريم من آمن وعاند من عاند . قال الكلبى كان عيسى يحيى الموتى بياحىّ ياقيوم .

ومنها اخباره عليه السلام عن الغيوب . قال الله عزوجل اخبارا عنه — وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم — . قال الكلبى لما أبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ، قالوا هذا

ساحر ، ولكن أخبرنا بما نأكل وبما ندّخر ، فكان يخبر الرجل بما يأكل فى غدائه وبما يأكل فى عشائه .

ومنها مشيه عليه السلام على الماء . يروى أنه خرج فى بعض سياحته ومعه رجل من أصحابه قصير وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى الى البحر قال : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء ، فقال الرجل القصير : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء فداخله العجب فقال هذا عيسى روح الله يمشى على الماء وأنا أمشى على الماء قال فانغمس فى الماء فاستغاث بعيسى فتناوله عيسى من الماء وأخرجه وقال له ماقلت ياقصير فأخبره بما خامر خاطره فقال له عيسى لقد وضعت نفسك فى غير الموضع الذى وضعك الله فيه فمقتك الله على ماقلت فتب إلى الله مما قلت فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التى وضعه الله فيها فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضا ، وحدثنا الامام أبو منصور الحمشاوى باسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذى ليس بعده جهل ، ومابلغ ذلك أحد قط . قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا . قالوا يارسول الله قد بلغنا أن عيسى بن مريم مشى على الماء . قال نعم : ولو ازداد خوفا ويقينا لمشى على الهواء . قالوا يارسول الله ما كنا نرى أن الرسل تقصر . فقال ان الله تعالى أبلغ شأنا من أن يبلغ أحد شأنه » .

ذكر حديث جامع فى هذا الباب

قال وهب : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض فصحبه يهودى وكان مع ذلك اليهودى رغيفان ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى تشاركنى فى طعامك . قال اليهودى نعم فلما رأى أنه ليس مع عيسى الا رغيف واحد ندم فقام عيسى الى الصلاة فذهب صاحبه وأكل رغيفا فلما قضى عيسى صلاته قدما طعامهما فقال لصاحبه أين الرغيف الآخر فقال ما كان الا رغيف واحد فأكل عيسى رغيفا وصاحبه رغيفا ثم انطلقا فجاءا الى شجرة فقال عيسى لصاحبه لو أنا بتنا تحت هذه الشجرة حتى نصبح فقال افعل فباتا ثم أصبحا منطلقين فلقيا أعمى فقال له أرأيت ان أنا عالجتك حتى يرد الله عليك بصرك فهل تشكره ؟ قال نعم فمس عيسى بصره ودعا الله له فاذا هو صحيح فقال عيسى لليهودى بالذى أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف . فقال والله ما كان الا رغيف واحد فسكت عيسى عنه ومرا فاذاهما بمقعد فقال له عيسى أرأيت إن عالجتك فعافاك الله فهل تشكره ؟ قال نعم ، قال فدعا الله تعالى عيسى فاذا هو صحيح قائم على رجليه . فقال صاحب عيسى مارأيت مثل هذا قط . فقال له عيسى بالذى أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا من صاحب الرغيف الثالث فحلف له ما كان معه إلا رغيف واحد فسكت عيسى عنه فانطلقا حتى انتهيا الى نهر عجاج . فقال عيسى لاأرى جسرا ولا سفينة فخذ بحجزتى من ورائى وضع قدمك بموضع قدمى ففعل فمشيا على الماء . فقال له عيسى بالذى أراك أمر الأعمى والمقعد وسخر لك الماء

من صاحب الرغيف الثالث . فقال والله ما كان إلا رغيف واحد فسكت عيسى ، ثم انطلقا فاذا هما بظباء ترعى فدعا عيسى بظبي فذبحه وشوى منه بعضا وأكلاه . ثم ضرب عيسى بقية الظبي بعصاه وقال قم باذن الله عزوجل فاذا الظبي يعدو . فقال الرجل سبحان الله ، فقال عيسى بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الآخر ؟ . فقال ما كان الا رغيف واحد فمرا بصاحب بقر فنادى عيسى ياصاحب البقر اجزر لنا من بقرك هذه عجلا . فقال ابعث صاحبك اليهودى يأخذه فانطلق اليهودى فجاء به وذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر اليه . فقال عيسى كل ولا تكسر عظما . فلما فرغوا قذف بعظامه فى جلده ثم ضربه بعصاه وقال له قم باذن الله فقام العجل وله خوار . فقال له عيسى ياصاحب البقر خذ عجلك قال ويحك من أنت ؟ قال أنا عيسى بن مريم قال عيسى السحار. ثم فر منه ، فقال عيسى لصاحبه بالذى أحيا العجل كم كان معك من رغيف . فقال ما كان معى الا رغيف واحد فسكت ومضيا حتى دخلا قرية فنزل عيسى فى أسفلها واليهودى فى أعلاها فأخذ اليهودى عصا عيسى وقال أنا الآن أبرئ المرضى وأحيي الموتى ، قال وكان ملك تلك القرية مريضا مدنفا فانطلق اليهودى ونادى من يبتغى طبيبا حتى أتى باب الملك فأخبر بوجعه فقال أدخلونى عليه فأنا أبرئه ، وان رأيتموه قدمات فأنا أحييه . فقيل له إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ، وليس من طبيب يداويه ولا يشفيه إلا صلبه فقال أدخلونى عليه فأدخل عليه فضرب الملك بعصاه فمات فجعل يضرب الملك بالعصا وهو ميت ويقول قم باذن الله فلم يقم فأخذ ليصلب فبلغ ذلك عيسى فأقبل عليه ، وقد رفع على الخشبة فقال لهم عيسى أرأيتم لو أحييت لكم الملك هل تتركون لى صاحبي ؟ قالوا نعم فدعا الله عز وجل فأحياه وقام فأنزل اليهودى من الخشبة فقال ياعيسى أنت أعظم الناس على منة والله لا أفارقك أبدا . فقال له عيسى أنشدك الله الذى أحيا الظبي والعجل بعد ما أكلناها وأحيا هذا بعد مامات وأنزلك من على الجذع بعد ماصلبك كم كان معك من رغيف . قال فحلف بهذا كله وقال والله ما كان معى إلا رغيف واحد ، فقال عيسى لا بأس فانطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خربة فيها كنز ثلاث لبنات من ذهب قد حفرتها السباع والدواب فقال الرجل لعيسى هذا المال لك فقال عيسى أجل واحدة لى وواحدة لك وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث فقال اليهودى لعيسى أناصاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلى فقال عيسى هى لك كلها فانطلق عيسى وتركه ينظر وهو لايستطيع أن يحمل منهن واحدة لثقلها عليه فقال له عيسى دعه فان له أهلا يهلكون عليه فجعلت نفس اليهودى تتطلع الى المال ، ويكره أن يعصى عيسى ويعجزه حمل المال فانطلق مع عيسى فبينما هو كذلك إذ مر بالمال ثلاثة نفر فأتوا عليه فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث انطلق إلى بعض هذه القرى فأتنا بطعام وشراب ودواب نحمل عليها هذا المال فلما ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال بيننا قال نعم وقال الذي ذهب فى نفسه أنا أجعل فى الطعام سما فاذا أكلاه ماتا ويصير المال كله لى ففعل ذلك فلما رجع اليهما ووصل

قتلاه ثم أكلا الطعام الذى جاءبه اليهما فماتا وان عيسى عليه السلام مر به وهم حوله مقتولون فقال لاإله الاالله هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، ثم ان عيسى أحياهم باذن الله فاعتبروا ومروا ولم يأخذوا من المال شيئا فتطلعت نفس اليهودى صاحب عيسى إلى المال فقال أعطنى المال فقال عيسى خذه لك فهو حظك فى الدنيا والآخرة فلما ذهب ليحمله خسف به الأرض فانطلق عيسى عليه السلام .

ومنها نزول المائدة ، قال الله تعالى ــ إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ــ قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ــ الآية .

واختلف العلماء فى صفة نزول المائدة وكيفيتها وما كان عليها فروى قتادة عن جابر عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال : نزلت المائدة عليها خبز ولحم وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه ولا ينفد قال: فقال لهم انى فاعل ذلك وانها مقيمة لكم مالم تخبئوا أو تخونوا فان فعلتم ذلك عذبتم قال فما مضى يومهم حتى خانوا وخبئوا ، وفى بعض الروايات أن بعضهم سرق منها وقال لعلها لاتنزل أبدا فرفعت ومسخوا قردة وخنازير ، وقال ابن عباس قال عيسى لبنى اسرائيل صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ماشئتم يعطيكموه فصاموا ثلاثين يوما ، فلما فرغوا قالوا ياعيسى انا ان عملنا لأحد فقضينا عمله أطعمنا طعاما وانا إن صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فلبس عيسى المسوح وافترش الرماد ثم دعا الله تعالى فقال ــ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ــ الآية ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ووضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم ، وروى عطاء بن السائب وغيره أنه كانت المائدة إذا وضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليها الأيدى فيها كل الطعام إلا اللحم ، وقال عطية العوفى نزلت سمكة من السماء فيها طعم كل شىء ، وقال قتادة كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة وكانت تنزل عليهم بكرة وعشية حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى اسرائيل ، وقال وهب أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانا فقيل لوهب ما كان ذلك يغنى عنهم من شىء . قال بلى ولكن الله ضاعف لهم البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجىء آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وفضل ، وقال كعب الأحبار نزلت مائدة من السماء منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم . وقال مقاتل والكلبى استجاب الله لعيسى عليه السلام فقال إنى منزلها عليكم كما سألتنى ، فمن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة وعبرة لمن بعدهم قالوا قد رضينا ، فدعا شمعون الصفار وكان أفضل الحواريين ، فقال هل معك طعام ؟ فقال معى سمكتان صغيرتان وستة أرغفة فقال علىّ بها فقطعها عيسى قطعا صغارا وقال اقعدوا فى روضة وترافقوا رفاقا كل رفقة عشرة ، ثم قام عيسى ودعا الله تعالى فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزا صحاحا وسمكا صحاحا ، ثم قام عيسى يمشى فجعل يلقى فى كل رفقة ماحملت أصابعه ، ثم قال كلوا باسم الله فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا ماشاء الله وفضل والناس خمسة آلاف

ونيف ، وقال الناس جميعا : شهدنا أنك عبد الله ورسوله . ثم سألوه مرة أخرى . فأنزل الله خمسة أرغفة وسمكتين فصنع بها ماصنع فى المرة الأولى ، فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقال ويحكم انما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا قردة وخنازير ليس منهم صبى ولا امرأة ، فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ويشربوا ، وكذلك كل ممسوخ . ويروى عن عطاء بن أبى رباح عن سلمان الفارسى أنه قال : والله ماتبع عيسى من المساوى ولا انتهر يتيما ولا قهقه ضحكا ولا ذب ذبابا عن وجهه ولا أخذ على أنفه مرتين شيئا قط ولا عبث قط . ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم الموائد صنوفا . قال — اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء — الآية وارزقنا عليها طعاما نأكل — وأنت خير الرازقين — فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها وهى تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة وهم ينظرون اليها فنظروا الى شىء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من رائحة ذلك . فقال عيسى لهم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها . فقال شمعون الصفار رأس الحواريين أنت أولى بذلك منا ، فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيرا ، ثم كشف المنديل عنها وقال : باسم الله خير الرازقين فاذا هو بسمكة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك فيها تسيل سيلانا من الدسم ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ، وحواليها من أنواع البقول ما خلا الكراث ، واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون ياروح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام ليس ماترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكن افتعله الله بالقدرة الغالبة كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله ، قالوا ياروح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال عيسى ياسمكة احيي باذن الله فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ، ففزعوا منها فقال عيسى مالكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ، ثم قال فما أخوفنى عليكم أن تعذبوا ياسمكة عودى كما كنت باذن الله ، فعادت السمكة مشوية كما كانت . قالوا ياروح الله كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن ، فقال عيسى معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها ، فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلين وقال كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلى كلهم شبعان يتجشأ ، ثم نظر عيسى إلى السمكة ، فاذا هى كهيئتها حين نزلت من السماء، ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون اليها حتى توارت منهم فلم يأكل منها يومئذ مريض إلا برىء ولا زمن إلا صح ولا مبتلى إلا عوفى ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيا حتى مات ، وندم الحواريون ومن لم يأكل ، وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فلا تزال منصوبة

يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعدا وهم ينظرون حتى تغيب عنهم ، وكانت تنزل غبا تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود، فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتى ورزقى للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، فقالوا أترون المائدة تنزل من السماء حقا ، ، فقال لهم عيسى هلكتم فشمروا لعذاب الله فأوحى الله تعالى إلى عيسى إنى شرطت على المكذبين شرطين أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، فقال عيسى عليه السلام — إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم — فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على الفرش مع نسائهم فى ديارهم ، فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات، ويأكلون القاذورات فى الحشوش ، فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى بن مريم ، فبكوا وبكى على الممسوخين أهلوهم ، فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به ، فجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام ، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا .

ومنها ماروى أن عيسى عليه السلام مر على رجل جالس عند قبر وكان يكثر المرور به فيجده جالسا ، فقال ياعبدالله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر فقال ياروح الله هذه امرأة كان لى من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولى عندها وديعة ، قال أفتحب أن أدعو الله فيحييها لك ؟ قال نعم فتوضا عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عزّ وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جذع محترق ، فقال له من أنت ؟ فقال يارسول الله أنا رجل فى عذاب منذ أربعين سنة ، فلما كنت فى هذه الساعة قيل لى أجب فأجبت ، ثم قال يارسول الله قد مرّ علىّ من أليم العذاب ما إن ردّنى الله إلى الدنيا أعطيته عهدا أن لا أعصيه أبدا ، فادع الله لى ، فرق له قلب عيسى عليه السلام ودعا الله عز وجل ، ثم قال له امض فمضى ، فقال صاحب القبر يارسول الله لقد غلطت بالقبر انما قبرها هذا ، فدعا الله عيسى عليه السلام، فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة فقال له عيسى أتعرفها قال نعم هذه امرأتى ، فدعا الله عيسى حتى ردها عليه فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة ، فنام تحتها ووضع رأسه فى حجرها ، فمر بها ابن الملك فنظرها ونظرت اليه وأعجب كل واحد منهما بصاحبه ، فأشار اليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعت الفتى فاستيقظ زوجها فتفقدها فلم يجدها ، فطلبها فدلّ عليها فتعلق بها وقال امرأتى ، فقال الفتى هى جاريتى ، فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى عليه السلام ، فقال الرجل هذا عيسى ثم قص عليه القصة ، فقال لها عيسى ماتقولين ؟ قالت أنا جارية هذا ولا أعرف هذا ، فقال لها عيسى : ردى علينا ما أعطيناك قالت قد فعلت فسقطت مكانها ميتة ، فقال عيسى هل رأيتم أعجب من هذا ! رجل أماته الله كافرا ثم بعثه فآمن ، وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت .

ومنها رفعه إلى السماء إذ قال الله — ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين

كفروا ـ الآية ـ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ـ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم ـ إلى قوله تعالى ـ بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما ـ .

روى الـكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة الفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه ، فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم فقال : اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقت ولم آتهم من تلقاء نفسي اللهم العن من سبني وسب أمي فاستجاب الله دعاءه ومسخ الذين سبوه وأمه خنازير ، فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتـل عيسى ، فاجتمعوا عليه ذات يوم وجعلوا يسألونه ، فقال يامعاشر اليهود إن الله يبغضكم فغضبوا من مقالته غضبا شديدا وثاروا عليه ليقتلوه ، فبعث الله تعالى اليه جبريل عليه السلام فأدخله خوخة ووراه في سقفها ورفعه الله تعـالى من روزنته ، فأمر رأس اليهود رجـلا من أصحابه يقال له فلطيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله ، فلما دخل فلطيانوس لم ير عيسى ، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، فألقى الله عليه شبه عيسى ، فلمـا خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه . وقال وهب : ان عيسى لمـا أعلمه الله تعالى أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما ، وقال احضروني الليلة فلي اليكم حاجة فلمـا اجتمعوا إليه من الليل غشاهم وقام بخدمتهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضيهم ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال ألا من رد على شيئا ممـا أصنع فليس مني ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال لهم : أنا ماصنعت بكم الليلة ممـا خدمتـكم على الطعام وغسلت أيديكم بيـدي إلا ليـكون لـكم بي أسوة ، وانـكم ترون أني خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليذلن بعضـكم نفسه لبعض كما بذلت نفسي لـكم ، أما الحاجة التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهـدون في الدعاء أن يؤخر أجلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أرسل الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول . سبحان الله ماتصبرون في ليلة واحدة وتعينونني فيها ، فقالوا والله ماندري مالنا لقد كنا نسهر فنـكثر السهر وما نطيق الليلة سهرا ومانريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه ، فقال يذهب الراعي وتبقى الغنم وجعل يأتي بكلام مثل هذا يعني نفسه ، ثم قال ليـكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجو وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحابه فجحد وقال ماأنا من أصحابه فتركوه ، ثم أخذ آخر فجحده كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ذلك ، فلما أصبح أتى أحد الحواريين أولئك اليهود فقال لهم ماتجعلون لي إن دللتـكم عليه ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخـذها ودلهم عليه ، وكان شبه لهم قبـل ذلك فأخـذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحيي الموتى وتبرىء الأكمه والأبرص أفلاتفك نفسك من

هـذا الجبل ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ثم إنهم نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فلما أتوا به إلى الخشبة ليصلبوه أظلمت الأرض ، وأرسـل الله الملائكة فحالوا بينهم وبين عيسى وألقى شبه عيسى على الذى دلهم عليه واسمـه يهوذا فصلبوه مـكانه وهم يظنون أنه عيسى وتوفى الله عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء فذلك قوله تعالى ـ إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ـ فلما صلب الذى هو شبه عيسى جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعالها وأبرأها من الجنون يبكيان عند المصلوب فأتاهما عيسى وقال على من تبكيان ؟ فقالتا عليك ، فقال إن الله تعالى رفعنى فلم يصبنى إلا خير وان هذا شخص شبه لهم .

وقال مقاتل : إن اليهود وكلوا بعيسى رجلا يكون عليه رقيبا يدور معه حيثما دار فصعد عيسى الجبل ، فجاءه الملك فرفعه إلى السماء وألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب فظن اليهود أنه عيسى فأخذوه وكان يقول لهم إنى لست عيسى إنى فلان بن فلان فلم يصدقوه وقتلوه وصلبوه . قال قتادة ذكر لنا أن نبى الله عيسى قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهى فانه مقتول ، فقال رجل من القوم أنا يانبى الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه اليه ، وقيل إن الذى شبه بعيسى وصلب مكانه رجل اسرائيلى يسمى أشيوع بن قيديرا والله أعلم .

ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام

قال وهب وغيره من أهل الـكتاب : لمـا رفع الله عيسى عليه السلام لبث فى السماء سبعة أيام ثم قال الله له إن أعداءك اليهود أعجلوك عن العهد إلى أصحابك ، فانزل عليهم وأوصهم واهبط على مريم المجدلانية ، فانه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها فانزل عليها وأخبرها أنها أول من تلحق بك وأمرها أن تجمع لك الحـواريين فتبثهم فى الأرض دعاة إلى الله تعـالى

وكانت قصة مريم المجدلانية أنها كانت من بنى اسرائيل فى قرية من قرى أنطاكية يقال لهـا مجدلان ، وكانت امرأة صالحة وكانت تستحاض فلا تطهر ، فخطبها أشراف بنى اسرائيل فامتنعت فظنوا أنها ترفعت بنفسها عنهم ولم يكن ذلك ترفعا وانمـا أرادت اخفاء علتها عنهم ، فلما سمـعت بمجىء عيسى عليه السلام وبمـا كان يشفى الله على يديه من المرضى الزمنى أقبلت اليـه رجاء الشفاء ، فلما رأت عيسى وما ألبسه الله من الهيبة استحيت وانصرفت إلى ورائه ووضـعت يدها على ظهره ، فقال عيسى لقد مسنى ذو عاهة بنية حسـنة ولقد أعطاه الله ما رجاه وطهره بطهارتى فأذهب الله عنها مابها وبرأت وطهرت ، فلما أمر الله عيسى بالنزول عليها بعـد سـبعة أيام من رفعه هبط عليها فاشتعل الجبل حين هبط نورا فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله، ثم رفعه الله وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب ، فهو يطير مع الملائـكة حـول العرش فـكان إنسيا ملـكيا أرضيا سماويا وتفرق الحواريون حيث أمرهم ، فتلك الليلة

التى أهبط فيها هى الليلة التى تزخرفها النصارى . قالوا فوجه بطرس إلى رومية وأندراوس ومتى إلى الأرض التى يأكل أهلها الناس وتوما وليا إلى أرض الشرق وفيلبس ويهوذا إلى القيروان وأفريقية ويحي إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف واليعقوبيين إلى أورشليم وهى إيلياء أرض بيت المقدس وبرتولوماوس إلى الاعرابية وهى أرض الحجاز وشمعون إلى أرض بربر ، فأصبح كل واحد من الحواريين الذين بعثهم يحدث بلغة من أرسله عيسى اليهم .

قال ابن اسحق : ثم عمد اليهود إلى بقية الحواريين أصحاب عيسى يشمسونهم ويعذبونهم ويطوفون بهم ، فسمع ذلك ملك الروم وكان صاحب وثن فقيل له ان رجلا كان فى هؤلاء الناس الذين تحت يدك من بنى اسرائيل عدوا عليه فقتلوه ، وكان يخبرهم أنه رسول الله وقد أحيا لهم الموتى وأبرأ لهم الأسقام ، وخلق لهم من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طائرا باذن الله ، وأخبرهم بالغيب وأراهم العجائب ، فقال ملك الروم فما منعكم أن تذكروا لى من أمره فوالله لو علمت لخليت بينه وبينهم ، ثم إنه بعث الى الحواريين فانتزعهم من أيديهم ، فلما أتوه سألهم عن دين عيسى فأخبروه خبره ، فبايعهم على دينه واستنزل شبه عيسى والخشبة التى صلب عليها فأكرمها وصانها لما مسهامنه ، وغزا بنى اسرائيل فقتل منهم خلقا كثيرا فمن هناك كانت أصل النصرانية فى الروم .

وقال أهل التوراة : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورشليم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على بابل ولاحدى وخمسين سنة مضت من ملك الاسكانيين وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه من بيت المقدس اليه ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين والله أعلم .

ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما السلام

قال وهب : لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريين فأمر رجلين منهم يقال لأحدهما شمعون الصفار والأخر يحي أن يلتزما أمه ولايفارقاها ، فانطلقا ومعهما مريم الى ماروت ملك الروم يدعونه الى الله تعالى وقد بعث الله تعالى اليه قبل ذلك يونس عليه السلام فلما أتوه أمر بشمعون وأندراوس فقتلا وصلبا منكسين وهربت مريم ويحي حتى اذا كانا فى بعض الطريق لحقهما الطلب فخافا فانشقت لهما الأرض فغابافيها وأقبل ماروت ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا فردوا التراب على حاله وعلموا أنه أمر من الله تعالى ، فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأخبروه به فأسلم كما ذكرنا والله أعلم .

ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء فى المرة الثانية فى آخر الزمان

قال الله تعالى ـ وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها ـ الآية وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول عيسى عليه السلام فى القرآن ؟ قال نعم . قوله ـ وكهلا ـ وهو لم يكن بكهل فى الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمد البيهقى باسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وانى أولى الناس بعيسى بن مريم عليهما السلام لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ويوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وانه نازل على أمتى وخليفتى عليهم ، فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه تقطر ولم يصبه بلل ينزل بين مخصرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ويهل من الروحاء حاجا أومعتمرا أو ملبيا بهما جميعا ويقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك فى زمانه الملل كلها غير الاسلام ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله فى زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الابل والنمورمع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات فلايضر بعضهم بعضا ، ثم يلبث فى الأرض أربعين سنة ويتزوج ويولد له ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه فى المدينة بجنب عمر اقرءوا ان شئتم ـ وأن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ـ أى قبل موت عيسى يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات » .

وأخبرنا محمد بن القاسم الفارسى باسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا أهبط الله المسيح عيسى يعيش فى هذه الأمة مايعيش ثم يموت فى مدينتى هذه ويدفن إلى جانب قبر عمر فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبيين » .

وأخبرنى أبى قال حدثنى الحسين بن أحمد بن محمد بن على باسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف يهلك الله أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى وسطها » .

باب فى قصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليهم السلام الى أنطاكية

وذلك فى أيام ملوك الطوائف

قال الله تعالى ـ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ـ يعنى رسل عيسى عليه السلام ـ إذ أرسلنا اليهم اثنين ـ واختلفوا فى اسميهما فقال ابن إسحق فاروض وروماض وقال وهب يحيى ويونس ، وقال مقاتل يومان ومالوس ، وقال كعب صادق وصدوق ـ فكذبوهما

فعززنا بثالث ـ أى فقوينا برسول ثالث وهو شمعون الصفار رأس الحواريين فى قول أكثر المفسرين ، وقال كعب اسمه شلوم ، وقال مقاتل سمعان .

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية ، فلما قربا من المدينة أتيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسلما عليه فقال من أنتما ؟ قالا رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن . قال أمعكما آية ؟ قالا نعم نحن نبرئ المريض ونشفى الأكمه والأبرص باذن الله ، فقال الشيخ ان لى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين ، قالا فانطلق بنا إلى منزلك فنطلع على حاله فأتى بهما إلى منزله ، فلما نظرا إلى ولد الشيخ وهو فى تلك الحالة قربا اليه ودعوا له ومسحاه بيديهما ، فقام فى الوقت باذن الله صحيحا ففشا الخبر فى المدينة وشفى الله على يديهما كثيرا من المرضى وكان فى مدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يعبد الأصنام يقال له سلاحين .

وقال وهب : اسمه ابطيحيس وكان من ملوك الروم قالوا فانتهى الخبر إلى الملك فدعاهما اليه وقال لهما من أنتما ؟ قالا رسولا عيسى . قال وما آيتكما ؟ قالا نبرئ الأكمه والأبرص ونشفى المرضى باذن الله تعالى : قال وفيم جئتما ؟ قالا جئناك ندعوك من عبادة مالا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر ، قال الملك أولنا إله سوى آلهتنا . قالا نعم . قال من ؟ قالا من أوجدك بعد عدمك وآلهتك ، قال قوما حتى أنظر فى أمركما ، فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما فى السوق .

وقال وهب : بعث عيسى بهذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما ، فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله تعالى ، فغضب الملك فأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة ، قالوا فلما كذب الرسولان وضربا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفار على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضى عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك انه بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال حال الغضب بينى وبين ذلك . قال فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ماعندهما ، فدعاهما الملك فلما حضرا بين يديه ، قال لشمعون استخبرهما فقال شمعون لهم من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالا الذى خلق كل شىء فقال لهما شمعون فصفاه وأوجزا فقالا انه يفعل مايشاء ويحكم مايريد . قال شمعون وماآيتكما ؟ قالا ماتتمناه نبرئ الأكمة والأبرص ونشفى المرضى والزمنى باذن الله . قال فأمر الملك فجىء بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فمازالا يدعوان الله تعالى حتى انشق موضع البصر فأخذا ببندقتين من الطين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما ، فعجب الملك فقال شمعون للملك ان أنت

سألت الهـك حتى يصنع لك صنيعا مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهـك ، فقال الملك ليس لى عنك سر اعلم أن إلهنا الذى نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل لدخوله ويصلى كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ، فقال الملك للرسولين ان إلهكما الذى تعبدانه يقدر على إحياء الميت ؟ قالا إلهنا يقدر على كل شىء فقال الملك ان ههنا ميتا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن الدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان أبوه غائبا ، فجاءوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو سرا فقام الميت وقال لهم انى قدمت منذ سبعة أيام مشركا فأدخلت فى سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ، ثم قال ان أبواب السماء فتحت لى فرأيت شابا حسن الوجه يتشفع لهؤلاء الثلاثة ، فقال الملك ومن الثلاثة فقال شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قولهم قد أثر فى الملك أخبر بالحال ودعاه فآمن قوم وكان الملك ممن آمن وكفر آخرون

وقال كعب ووهب : بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل ، فبلغ ذلك حبيب ابن مرى صاحب يس.

وقال ابن عباس ومقاتل : اسمه حبيب بن اسرائيل النجار ، قال وهب وكان سقما قد أثر فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب من أبواب مدينة أنطاكية وكان مؤمنا ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمضى فيقسمه نصفين يطعم عياله نصفا ويتصدق بالنصف الآخر ، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرسل جاءهم وكان قبل ذلك يكتم إيمانه ويعبد ربه فى غار ، فلما أتاه خبر الرسل أظهر دينه وذكر قومه ودعاهم إلى طاعة المرسلين كما أخبر الله تعالى فى كتابه وذلك قوله تعالى — وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى — إلى قوله — مهتدون — فقال له قومه أو أنت مخالف لدينا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم ؟ فقال — ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون — إلى قوله — انى آمنت بربكم فاسمعون — فلما قال لهم ذلك وثبوا اليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه ، وقال عبد الله بن مسعود وطئوا بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره ، وقال السدى كانو يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومى حتى قطعوه وقتلوه .

وقال الحسن : خرقوا خرقا فى حلقه وعلقوه فى سور المدينة ودفنوه فى سوق أنطاكية فأوجب الله له الجنة فذلك قوله تعالى — قيل ادخل الجنة — فلما أفضى إلى جنة الله وكرامته — قال ياليت قومى يعلمون بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرمين — قالوا فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة وأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى — وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين — على غيرهم من كفار الأمم ان كانت الا صيحة واحدة فاذاهم خامدون — أى ميتون .

أخبرنا أبو بكر الجشاوى باسناده عن ابن أبى ليلى عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار مؤمن آل يس وعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم »

قصة يونس بن متى عليه السلام

قيل متى أمه ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه الا عيسى بن مريم ويونس بن متى عليهما السلام وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » قال الله تعالى — وذا النون إذ ذهب مغاضبا — الآيات ، قالت العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلا صالحا يتعبد فى جبل وكان فى قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث الله اليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهى عن الكفر والأمر بالتوحيد ، وكان يونس عليه السلام رجلا صالحا لايصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد الله تعالى فيه وكان حسن القراءة يستمع إلى قراءته الوحش كما كان لداود فى زمانه ، وكان يعتريه حدّة ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت منه ، قال الله تعالى — فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل — وقال تعالى — ولا تكن كصاحب الحوت — لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة فلما حمل أعباء النبوّة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ولذلك السبب ذهب مغاضبا ».

واختلف العلماء فى صفة مغاضبته وسبب ذلك ووقته ، فقال قوم ذهب مغاضبا لقومه وهى رواية الضحاك والعوفى عن ابن عباس قال : كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف وكانوا اثنى عشر سبطا فيهم النبوّة والملك فأوحى الله تعالى إلى شعياء النبى أن سر الى حزقيا الملك وقل له يوجه نبيا قويا أمينا فانى ألقى الخوف فى قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل ، فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء ؟ فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال له يونس هل أمرك الله باخراجى ؟ قال لا ، قال هل سمانى لك قال لا فقال ههنا غيرى أنبياء أقوياء أمناء ، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان . وقال الحسن البصرى انما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير الى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم اليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص اليهم ، فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها فقيل له نحو القول الأوّل وكان رجلا فى خلقه ضيق ، فقال أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضبا ، وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال له انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ان لم يتوبوا . قال له ألتمس دابة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق

إلى البحر فركب سفينة فكان من امرهما كان فعلى هذه الأقوال كانت رسالة يونس بعد نجاته من بطن الحوت ، قال ابن عباس انما كانت رسالة يونس بعد ان نبذه الحوت ودليل هذا القول أن الله تعالى ذكر قصة يونس فى سورة الصافات ثم عقبها بقوله ـ وأرسلناه الى مائه ألف أو يزيدون ـ وقال آخرون بل كانت قصة الحوت بعد دعاء قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه مغاضبا لربه إذ كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم به وذلك أنه كره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب والخلف فيما أوعدهم ولم يعلم السبب الذى رفع به عنهم العذاب والهلاك فخرج مغاضبا قال والله لا أرجع اليهم كذابا أبدا أوعدتهم العذاب فى يوم ولم يأتهم ، وفى بعض الأخبار أن قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فلما لم يأتهم العذاب للميعاد الذى أوعدهم خشى أن يقتلوه فغضب، وقال كيف أرجع الى قومى وقد أخلفتهم الوعد ولم يعلم سبب صرف العذاب عنهم لأنه قد كان خرج من بين أظهرهم لنزول العذاب . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: بعث الله يونس بن متى الى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، فأقام فيهم يدعوهم الى الله تعالى ثلاثا وثلاثين سنة فلم يؤمن به الا رجلان أحدهما روبيل وكان عالما حكيما والآخر تنوخا وكان عابدا زاهدا .

قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم فقيل له ما أسرع مادعوت على قومك ارجع اليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى فان أجابوك والا فانى مرسل عليهم العذاب فرجع ودعاهم سبعا وثلاثين ليلة فلم يجيبوه فقام خطيبا فيهم وقال إنى محذركم العذاب الى ثلاثة أيام ان لم تؤمنوا ، ثم قال لهم ان آية ذلك أن تتغير ألوانكم فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم ، فقالوا لبعضهم قد نزل بكم ماقال يونس وانا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فان بات فيكم الليلة فأمنوا من العذاب وان لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، فلما كان ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب

قال سعيد بن جبير كما يغشى التراب القبر اذا دخل فيه صاحبه ، وقال مقاتل كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل ، وقال ابن عباس قدر ثلثى ميل ، وقال وهب أغيمت السماء غيما أسود هائلا تدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحتهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه فقذف الله فى قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع اليه فخرجوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح ، وأظهروا الإيمان والتوبة لله وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام فحن بعضها الى بعض، وعلت أصواتهم واختلط حنينهم وعجوا وتضرعوا الى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم وذلك يوم عاشوراء . وقيل كان يوم الأربعاء للنصف من شوال . قال ابن مسعود وبلغ من توبة أهل نينوى أن ترادوا المظالم بينهم حتى ان الرجل ليأتى الى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده .

وروى صالح المرّى عن عمران الجونى عن أبى خالد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ قال قولوا ياحى حين لاحى ياحىّ حين تحيى الموتى لاإله إلاأنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا الى حين كما قال تعالى ــ فلولا كانت قرية آمنت ــ أى فلم تكن قرية آمنت وضع التحضيض موضع النفى لأن فيه ضربا من الجحد ــ فنفعها إيمانها ــ فى وقت اليأس عند معاينة العذاب ــ إلا قوم يونس لما آمنوا ــ نفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت لما علم الله من صدقهم ــ كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ــ . قالوا وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم وقام ينتظر العذاب والهلاك لقومه فلم ير شيئا وكان من كذب ولم يكن له بينه قتل . قال يونس كيف أرجع الى قومى وقد كذبتهم فانطلق معاتبا ربه مغاضبا قومه فأتى البحر . كما قال تعالى ــ وذاالنون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ــ أى أن لن نقضى عليه العقوبة تقول العرب قدر الله الشىء يقدره تقديرا وقدره يقدره قدرا وقدقرئ بهما جميعا فى قوله تعالى ــ نحن قدرنا بينكم الموت ــ وقوله تعالى ــ والذى قدر فهدى ــ هذا قول أكثر المفسرين ، وقال عطاء معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس من قول الله تعالى ــ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ــ أى ويضيق وقوله تعالى ــ ومن قدر عليه رزقه ــ .

قال ابن زيد : هو استفهام معناه أفظن أن لن نقدر عليه ، وقال الحسن معناه فظن أن يعجز ربه فلا يقدر عليه . قال وبلغنى أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبا ربه فاستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه . وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير أجرة ، فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت والسفن تسير يمينا وشمالا فقال اللاحون ان فيها عبدا آبقا من سيده وهذا رسم السفينة اذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال أنا الآبق فقالوا تلقى فى الماء ، فاقترعوا ثانيا وثالثا فخرجت القرعة على يونس فزج نفسه فى الماء فذلك قوله تعالى ــ فساهم فكان من المدحضين ــ فلما وقع فى الماء وكل الله به حوتا فابتلعه وأوحى الله تعالى إلى الحوت انى لم أجعله لك رزقا بل جعلناك له حرزا ومسكنا فخذه ولا تكسر له عظما ولا تخدش له لحما وابتلع الحوت حوت آخر فأهوى به الى مسكنه فى البحر فالتقمه حوت آخر وانطلق به من ذلك المكان حتى مرّ به على الأبلة ثم مر به على دجلة ، ثم انطلق به الى نينوى ويقال ان الله تعالى رقق له جلد الحوت حتى كان يرى جميع مافى البحر ، فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا فأوحى الله تعالى اليه وهو فى بطن الحوت ان هذا تسبيح دواب البحر فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه . فقالوا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا معروفا بأرض مجهولة ؟ قال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد لك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، قال فشفعوا له عند ذلك وهو قوله ــ فنادى فى الظلمات أن لا إله الا أنت ــ . قال ابن عباس ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ــ سبحانك إنى كنت من الظالمين ــ .

وروى سعيد بن المسيب عن سعد بن مالك . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اسم الله الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى . فقلت يارسول الله هى ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ فقال هى ليونس خاصة ولجماعة المسلمين عامة اذا دعوا بها ألم تسمع قوله تعالى ــ فنادى فى الظلمات ــ الى قوله ــ وكذلك ننجى المؤمنين ــ » فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله الحوت فقذفه الى ساحل نينوى كما قال الله تعالى ــ فنبذناه بالعراء ــ أى بوجه الأرض ــ وهو سقيم ــ أى عليل ضعيف كالفرخ الممعط .

واختلفوا فى مدّة مكث يونس فى بطن الحوت ، فقال مقاتل ثلاثة أيام ، وقال عطاء سبعة أيام ، وقال الضحاك عشرين يوما ، وقال السدى والكلبي أربعين يوما ، فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين وهو القرع فجعل يستظل بها ووكل الله به وعلة تختلف اليه فيشرب منها لبنا فذلك قوله تعالى ــ وأنبتنا عليه ــ أى عنده ــ شجرة من يقطين ــ قالوا فيبست الشجرة فبكى عليها ، فأوحى الله اليه أتبكى على شجرة يبست ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم ، ثم ذهب يونس فاذا هو بغلام يرعى غنما ، فقال من أين أنت ياغلام ؟ قال أنا من قوم يونس ، فقال له إذا رجعت اليهم فقل لهم انك لقيت يونس ، فقال الغلام ان كنت يونس فأنت تعلم أنه ان لم يكن لى بينة قتلت فمن يشهد لى ؟ فقال يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة وهذه الشاة ، وأشار الى شاة من غنمه ، فقال له الغلام فمرهم . قال لهم يونس إذا جاءكم هذا الغلام فاشهدوا له قالوا نعم ، فرجع الغلام الى قومه ، ثم قال للملك انى قد لقيت يونس وانه يقرأ عليكم السلام فأمر الملك بقتله ، وقال كذبت ، فقال ان لى بينة فأرسلوا معى أحدا يشهد فأرسلوا معه رجالا ، فأتى البقعة والشجرة والشاة ، وقال أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس ؟ قالوا نعم فرجع القوم مذعورين ، وقالوا للملك شهدت له الشجرة والأرض والشاة ، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه فى مجلسه ، وقال أنت أحق بهذا المكان منى . قال فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة . ثم إنهم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه ففرحوا به وآمنوا به فأقام لهم أمرهم .

يروى أن يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قرية ليلا فأضافه رجل . وكان ذلك الرجل قد عمل كثيرا من الفخار . فأوحى الله اليه يايونس مر صاحب هذا الفخار أن يكسر تلك الفخارات . فقال له يونس ذلك ، فلما سمع منه ذلك شتمه وقال شىء عملته بيدى أعيش منه وأتمتع بثمنه أنا وعيالى تأمرنى بكسره . فبكى يونس . فأوحى الله اليه هذا عمل فخارا من طين لم تطب نفسه بكسره وأنت طبت نفسا ووطنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادى فمضى يونس وهبط واديا .

قال فلما شهدت الشجرة والأرض والشاة للغــلام . وكانت الشاة التى كانت مع الغلام قالت لهم ان أردتم يونس فاهبطوا الوادى فهبطوا فاذاهم بيونس فانـكبوا على رجليه يقبلونهما وسألوه أن يدخل معهم المدينة . فقال لا حاجة لى فى مدينتـكم فبكوا وألحوا عليه فاجابهم للدخول فاتى بعجلة من فضــة وأجلس عليها فتمثل له جبريل عليه الســلام عاضا على ســبابته وهو ينادى هذا مجلس الجبارين فوثب يونس عن العجلة وجعــل يمشى حتى دخل معهم المدينة فمـكث مع أهــله وولده أربعين ليلة ثم خرج سائحا وخرج الملك معه وصــير الغلام الراعى ملـكا لتلك المدينة كما ذكرنا فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى حتى ماتا عليهما الســلام . وكانت نبوّة يونس فى زمان ملوك الطوئف والله أعلم .

باب فى قصة أصحاب الـكهف

قال الله تعالى ــ أم حسبت أن أصحاب الـكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ــ اختلف العلماء فى الرقيم . قال النعمان بن بشير الأنصارى . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرقيم . قال « إن ثلاثة نفرخرجوا يرتادون لأهليهم فبينماهم يمشون إذ أصابتهم السماء فأووا الى الـكهف فانحطت صخرة من الجبل عليهم فانطبقت على باب الـكهف فأوصــدته عليهم . فقال قائل منهم كل منـكم يذكر أحسن عمل عمله فلعل الله يرحمنا ، فقال رجل منهم قد عملت مرة حســنة . كان لى أجراءيعملون عملالى فاستأجرت كل رجل منهم بأجرة معلومة فجاءرجل منهم ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشطر أصحابه فعمل فى بقية نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله فرأيت علىّ من الاكرام أن لاأنقصه شيئا مما استأجرت به أصحابه لما اجتهدفى عمله ، فقال رجل منهم أتعطى هذا مثل ماأعطيتنى ولم يعمل إلا نصف النهار ؟ فقلت له : ياعبدالله لم أبخسك شيئا من شرطك إنما هو مالى أحكم فيــه بما شئت . قال فغضب وذهب وترك أجرته فوضعت حقه فى جانب من البيت ماشاء الله ، ثم مر بى بعد ذلك بقر فاشــتريت به فنميته فبلغت ماشاء الله فمرّبى بعد ذلك شيخ ضعيف لاأعرفه ، فقال لى إن لى عندك حقا ، فقلت له اذكره لى حتى أعرفه ، قال فذكره ، فقلت له إياك أبغى وهذا حقك وعرضتها عليه ، فقال ياعبدالله لاتسخربى ان لم تتصدق علىّ فأعطنى حقى ، فقلت والله ما أسخر ان هذا لحقك ومالى فيه شىء فدفعتها اليه . اللهم ان كنت فعلت هــذا لوجهك الـكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء ، وقال الآخر قد عملت حسنة مرة كان لى فضــل مال وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا . فقلت والله ما هو دون نفسك فأبت على وذهبت ثم انها رجعت فذكرتنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ماهو دون نفسك فأبت على وذهبت وذكرت ذلك لزوجها فقال لها زوجها أعطيه نفسك وأغيثى عيالك فرجعت الى تنشــدنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ماهو دون نفسك . فلما رأت ذلك أسلمت الىّ نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت من

تحتى فقلت لها ما شأنك ؟ فقالت إنى أخاف الله رب العالمين ، فقلت لها خفتيه فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء فتركتها وأعطيتها ماتحب بما كشفتها اللهم ان كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى تعارفنا ، وقال الآخر قدعملت حسنة مرة كان لى أبوان كبيران ، وكان لى غنم فكنت أطعم أبوى وأسقيهما ثم أرجع الى غنمى . قال فأصابنى يوماغيث فحبسنى حتى أمسيت فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت غنمى وتركتها قائمة مكانها ومضيت الى أبوى فوجدتهما قدناما فشق على أن أوقظهما وشق على أن أترك غنمى فابرحت جالسا ومحلبى فى يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما . اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا مانحن فيه . قال النعمان لكأنى أسمع من رسول الله ﷺ قال « كأن الجبل طبق ففرج الله عنهم فخرجوا » .

وقال ابن عباس : الرقيم واد بين غطفان وأيلة دون فلسطين وهو الوادى الذى فيه أصحاب الكهف . قال كعب هى قريتهم ، وقال سعيد بن جبير وغيره من أئمة الأخبار الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتبوا فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم جعلوه فى صندوق ووضعوه على باب الكهف . ثم ذكر الله خبر أصحاب الكهف فقال — إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة — . قال أهل التفسير وأصحاب التواريخ : كان أمر أصحاب الكهف فى أيام ملوك الطوائف بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وأما قصتهم ، فيقال لما ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة أتاه قوم من أحبار اليهود . فقالوا يا عمر : أنت ولى الأمر بعد محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه وانا نريد أن نسألك عن خصال ان أخبرتنا بها علمنا أن الاسلام حق وأن محمدا كان نبيا وان لم تخبرنا علمنا أن الاسلام باطل وأن محمدا لم يكن نبيا. فقال عمر سلوا عما بدالكم . قالوا أخبرنا عن أقفال السموات ماهى ، وعن مفاتيح السموات ماهى ، وأخبرنا عن قبر سار بصاحبه ماهو ، وأخبرنا عمن أنذر قومه لاهو من الجن ولا هو من الانس ، وأخبرنا عن خمسة أشياء مشوا على وجه الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام ، وأخبرنا ما يقول الدراج فى صياحه ، وما يقول الديك فى صراخه ، وما يقول الفرس فى صهيله، وما يقول الضفدع فى نقيقه ، وما يقول الحمار فى نهيقه ، وما يقول القنبر فى صفيره ؟ قال فنكس عمر رأسه فى الأرض ثم قال. لاعيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم وأن يسأل عما لا يعلم ، فوثبت اليهود وقالوا نشهد أن محمدا لم يكن نبيا وأن الاسلام باطل ، فوثب سلمان الفارسى وقال لليهود قفوا قليلا . ثم توجه نحو على بن أبى طالب كرم الله وجهه حتى دخل عليه . فقال ياأبا الحسن أغث الاسلام. فقال وماذاك ؟ فأخبره الخبر ، فأقبل يرفل فى بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر اليه عمر وثب قائما فاعتنقه وقال ياأبا الحسن أنت لكل معضلة وشدة تدعى فدعا على كرم الله وجهه اليهود فقال سلوا عما بدا لكم فان النبى صلى الله عليه وسلم علمنى ألف باب من العلم فتشعب لى من كل باب ألف باب فسألوه عنها فقال على كرم الله وجهه : إن لى عليكم

بجبيرطة إذا أخبرتكم كما فى توراتكم دخلتم فى ديننا وآمنتم . فقالوا نعم . فقال سلوا عن خصلة خصلة قالوا أخبرنا عن أقفال السموات ماهى ؟ قال أقفال السموات الشرك بالله لأن العبد والأمة إذا كانا مشركين لم يرتفع لهما عمل . قالوا فأخبرنا عن مفاتيح السموات ماهى ؟ قال شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. قال فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون صدق الفتى . قالوا فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه ؟ فقال ذلك الحوت الذى التقم يونس بن متى فسار به فى البحار السبعة . فقالوا أخبرنا عمن أنذر قومه لاهو من الجن ولا من الانس ؟ قال هى نملة سليمان بن داود قالت — ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون — قالوا فأخبرنا عن خمسة مشوا على الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام ؟ قال ذلكم آدم وحواء وناقة صالح وكبش ابراهيم وعصا موسى ؟ . قالوا فأخبرنا مايقول الدراج فى صياحه ؟ قال يقول الرحمن على العرش استوى قالوا فأخبرنا مايقول الديك فى صراخه ؟ قال يقول اذكروا الله ياغافلون . قالوا اخبرنا ما يقول الفرس فى صهيله ؟ قال يقول اذا مشى المؤمنون الى الكافرين للجهاد اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين . قالوا فأخبرنا مايقول الحمار فى نهيقه ؟ قال يقول . لعن الله العشار ، وينهق فى أعين الشياطين ، قالوا فأخبرنا مايقول الضفدع فى نقيقه ؟ قال يقول سبحان ربى المعبود المسبح فى لجج البحار ، قالوا فأخبرنا مايقول القنبر فى صفيره ؟ قال يقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد وكان اليهود ثلاثة نفر قال اثنان منهم نشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ووثب الحبر الثالث فقال : ياعلى لقد وقع فى قلوب أصحابى ماوقع من الايمان والتصديق وقد بقى خلة واحدة أسألك عنها فقال سل عما بدالك ، فقال أخبرنى عن قوم فى أول الزمان ماتوا ثلثمائة وتسع سنين، ثم أحياهم الله فما كان من قصتهم ؟ قال على رضى الله عنه يايهودى هؤلاء أصحاب الكهف وقد أنزل الله على نبينا قرآنا فيه قصتهم وان شئت قرأت عليك قصتهم ، فقال ما أكثر ماقد سمعنا قراءتكم ان كنت عالما فأخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء مدينتهم واسم ملكهم واسم كلبهم واسم جبلهم واسم كهفهم وقصتهم من أولها الى آخرها، فاحتبى على كرم الله وجهه ببردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ياأخا العرب حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها أفسوس ويقال هى طرسوس وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس فلما جاء الاسلام سموها طرسوس قال وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس وكان جبارا كافرا فأقبل فى عساكره حتى دخل أفسوس فاتخذها دار ملكه وبنى فيها قصرا ، فوثب اليهودى وقال ان كنت عالما فصف لى ذلك القصر ومجالسه فقال يا أخا اليهود ابتنى فيها قصرا من الرخام طوله فرسخ فى عرض فرسخ واتخذ فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب وألف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج فى كل ليلة بالأدهان الطيبة واتخذ لشرقى المجلس مائة وثمانين كوة ولغربيه كذلك ، وكانت الشمس من حين تطلع الى

حين تغيب تدور فى المجلس كيفما دارت واتخذ فيه سريرا من الذهب طوله ثمانون ذراعا فى عرض أربعين ذراعا مرصعا بالجوهر ، ونصب على يمين السرير ثمانين كرسيا من الذهب فأجلس عليها بطارقته واتخذ أيضا ثمانين كرسيا من الذهب عن يساره فأجلس عليها هراقلته ، ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه فوثب اليهودى وقال : ياعلىّ ان كنت عالما فأخبرنى ممّ كان تاجه فقال يا أخا اليهود كان تاجه من الذهب السبيك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤه تضىء كما يضىء المصباح فى الليلة الظلماء واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة فمنطقهم بمناطق من الديباج الأحمر وسرولهم بسراويل القز الأخضر وتوّجهم ودملجهم وخلخلهم وأعطاهم عمد الذهب وأقامهم على رأسه ، واصطنع ستة غلمة من أولاد العلماء وجعلهم وزراءه فما يقطع أمرا دونهم وأقام منهم ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره ، فوثب اليهودى وقال . ياعلىّ ان كنت صادقا فأخبرنى ما كانت أسماء الستة ؟ فقال على كرم الله وجهه : حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن الذين كانوا عن يمينه أسماؤهم تمليخاومكسلمينا ومحسلمينا ، وأما الذين كانوا على يساره فمر طليوس وكشطوس وسادنيوس ، وكان يستشيرهم فى جميع أموره ، وكان اذا جلس كل يوم فى صحن داره واجتمع الناس عنده دخل من باب الدار ثلاث غلمة فى يد أحدهم جام من الذهب مملوء من المسك وفى يد الثانى جام من فضة مملوء من ماء الورد وعلى يد الثالث طائر فيصيح به فيطير الطائر حتى يقع وفى جام ماء الورد فيتمرغ فيه فينشف مافيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثانى فيطير فيقع فى جام المسك فيتمرغ فيه فينشف ما فيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بما فيه من المسك وماء الورد فمكث الملك فى ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط ، فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطغى وتجبر واستعصى وادعى الربوبية من دون الله تعالى ، ودعا اليه وجوه قومه فكل من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ومن لم يجبه ويتابعه قتله ، فأجابوه بأجمعهم فأقاموا فى ملكه زمانا يعبدونه من دون الله تعالى ، فبينما هو ذات يوم جالس فى عيد له على سريره والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقته فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيته يريدون قتاله فاغتم لذلك غما شديدا حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريره ، فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه الى ذلك وكان عاقلا يقال له تمليخا فتفكر وتذكر فى نفسه وقال : لوكان دقيانوس هذا إلها كما يزعم لما حزن ولما كان ينام ولما كان يبول ويتغوّط وليست هذه الأفعال من صفات الاله ، وكانت الفتية الستة يكونون كل يوم عند واحد منهم ، وكان ذلك اليوم نوبة تمليخا فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولم يأكل تمليخا ولم يشرب ، فقالوا ياتمليخا مالك لا تأكل ولاتشرب ؟ فقال يا إخوتى وقع فى قلبى شىء منعنى عن الطعام والشراب والنام ، فقالوا وماهو ياتمليخا ؟ فقال أطلت فكرى فى هذه السماء فقلت من رفعها سقفا محفوظا بلا علاقة من

فوقها ولا دعامة من تحتها ومن أجرى فيها شمسها وقمرها ومن زينها بالنجوم ، ثم أطلت فكرى فى هذه الأرض من سطحها على ظهر اليم الزاخر ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسى لئلا تميد ثم أطلت فكرى فى نفسى ، فقلت من أخرجنى جنينا من بطن أمى ومن غذانى وربانى ان لهذا صانعا ومدبرا سوى دقيانوس الملك فانكبت الفتية على رجليه يقبلونهما وقالوا ياتمليخا لقد وقع فى قلوبنا ماوقع فى قلبك فأشر علينا ، فقال ياإخوتى ماأجدلى ولكم حيلة الا الهرب من هذا الجبار الى ملك السموات والأرض ، فقالوا الرأى مارأيت فوثب تمليخا فابتاع تمرا بثلاثة دراهم وصرها فى ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تمليخا يا اخوتاه قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم لعل الله يجعل لكم من أمركم فرجا ومخرجا فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبعة فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطردما لأنهم لم يعتادوا المشى على أقدامهم فاستقبلهم رجل راع ، فقالوا أيها الراعى أعندك شربة ماء أولبن ؟ فقال عندى ماتحبون ولكنى أرى وجوهكم وجوه الملوك وماأظنكم إلاهرابا فأخبرونى بقصتكم ، فقالوا ياهذا إنا دخلنا فى دين لايحل لنا الكذب أفينجينا الصدق ؟ قال نعم ، فأخبروه بقصتهم فانكب الراعى على أرجلهم يقبلها ويقول قد وقع فى قلبى ماوقع فى قلوبكم فقفوا لى ههنا حتى أرد الأغنام الى أربابها وأعود اليكم فوقفوا له فردها وأقبل يسعى فتبعه كلب له فوثب اليهودى قائما ، وقال ياعلى ان كنت عالما فأخبرنى ما كان لون الكلب واسمه ؟ فقال ياأخا اليهود حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن الكلب كان أبلق بسواد وكان اسمه قطمير .

قال الأستاذ : اختلف العلماء فى لون كلب أصحاب الكهف ، فقال ابن عباس كان أنمر ، وقال مقاتل كان أصفر ، وقال محمد بن كعب كان من شدة حمرته وصفرته يضرب الى الحمرة ، وقال الكلبى لونه كالثلج وقيل لون الهرة وقيل لون السماء واختلفوا فى اسمه أيضا ، فروى عن على كرم الله وجهه أن اسمه ريان ، وقال ابن عباس كان اسمه قطميرى وهى احدى الروايات عن على ، وقال شعيب الجبائى كان اسمه حمرا وقال الأوزاعى تتوى . وقال مجاهد قنطوريا . وقال عبد الله بن سلام بسيط وقال كعب كان أصهب واسمه تفنى .

وأخبرنا ابن فنجويه باسناده عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه أن اسم كلبهم كان قطمور وقيل قطفير ، أخبرنى أبو على الزهرى باسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى ـ مايعلمهم إلاقليل ـ قال أنا من أولئك القليل هم مكسلمينا وتمليخا ومرطليوس وبينوس وساونوس ودانوس وكشطوس وهو الراعى والكلب اسمه قطمير كلب أنمر فوق القلطى ودون الكركى . وقال محمد بن اسحق القلطى الكلب الصغير وقال مابقى بنيسابور محدث إلا كتب عنى هذا الحديث وكتبه أبو عمرو الجبرى عنى .

رجعنا الى الحديث . قال : فلما نظر الفتية الى الكلب قال بعضهم لبعض انا نخاف أن يفضحنا هذا الكلب بنبيحه ، فألحوا عليه طردا بالحجارة . فلما نظر اليهم الكلب وقد ألحوا عليه بالحجارة والطرد أقعى على رجليه وتمطى وقال بلسان طلق ذلق ياقوم لم تطردوننى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له دعونى أحرسكم من عدوكم وأتقرب بذلك الى الله سبحانه وتعالى فتركوه ومضوا فصعد بهم الراعى جبلا وانحط بهم على كهف ، فوثب اليهودى وقال : ياعلى ما اسم ذلك الجبل وما اسم الكهف ؟ قال أمير المؤمنين ياأخا اليهود اسم الجبل ناجلوس واسم الكهف الوصيد وقيل خيرم .

رجعنا إلى الحديث . قال واذا بفناء الكهف أشجار مثمرة وعين غزيرة فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء وجنهم الليل فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يديه عليه وأمر الله ملك الموت بقبض أرواحهم ووكل الله تعالى بكل رجل منهم ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين .

قال ابن عباس : كانوا يقلبون فى السنة مرة لئلا تأكل الأرض لحومهم، ويقال ان يوم عاشوراء كان يوم تقلبهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل سنة تقليبتان

رجعنا الى الحديث . قال : وأوحى الله تعالى الى الشمس فكانت ـ تزاور عن كهفهم ذات اليمين ـ إذا طلعت ـ واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ـ ، فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية فقيل له إنهم اتخذوا إلها غيرك وخرجوا هاربين منك فركب فى ثمانين ألف فارس وجعل يقفو آثارهم حتى صعد الجبل وشارف الكهف فنظر اليهم مضطجعين فظن أنهم نيام فقال لأصحابه لو أردت أن أعاقبهم بشىء ما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم فائتونى بالبنائين فأتى بهم فرموا عليهم باب الكهف بالجبس والحجارة ، ثم قال لأصحابه قولوا لهم يقولوا لإلههم الذى فى السماء ان كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع فمكثوا ثلثمائة وتسع سنين فنفخ الله فيهم الروح وهموا من رقدتهم لما بزغت الشمس . فقال بعضهم لبعض لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى ، قوموا بنا الى العين فاذا بالعين قد غارت والأشجار قد جفت فقال بعضهم لبعض إنا من أمرنا هذا لفى عجب مثل هذه العين قد غارت فى ليلة واحدة ومثل هذه الأشجار قد جفت فى ليلة واحدة ، فألقى الله عليهم الجوع . فقالوا أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا بطعام منها ولينظر أن لا يكون من الطعام الذى يعجن بشحم الخنازير وذلك قوله تعالى ـ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ـ أى أحل وأجود وأطيب ، فقال لهم تمليخا يا إخوتى لا يأتيكم أحد بالطعام غيرى ولكن أيها الراعى ادفع إلى ثيابك وخذ ثيابى فلبس ثياب الراعى ومر وكان يمر بمواضع لا يعرفها وطريق ينكرها حتى أتى باب المدينة فاذا عليه علم أخضر مكتوب عليه لا إله الا الله عيسى روح الله صلى الله على نبينا وعليه وسلم فطفق الفتى ينظر اليه ويمسح عينيه ويقول أرانى نائما ، فلما طال عليه ذلك دخل

المدينة فمر بأقوام يقرءون الانجيل واستقبله أقوام لا يعرفهم حتى انتهى إلى السوق فاذا هو بخباز فقال له ياخباز ما اسم مدينتكم هذه ؟ قال أفسوس . قال وما اسم ملككم ؟ قال عبد الرحمن قال تمليخا ان كنت صادقا فان أمرى عجيب ادفع إلىّ بهذه الدراهم طعاما وكانت دراهم ذلك الزمان الأول ثقالا كبارا ، فعجب الخباز من تلك الدراهم ، فوثب اليهودى وقال ياعلى ان كنت عالما فأخبرنى كم كان وزن الدرهم منها ؟ فقال يا أخا اليهود أخبرنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم وثلثا درهم ، فقال له الخباز ياهذا انك قد أصبت كنزا فأعطنى بعضه والا ذهبت بك إلى الملك فقال تمليخا ما أصبت كنزا وانما هذا من ثمن تمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام وقد خرجت من هذه المدينة وهم يعبدون دقيانوس الملك ، فغضب الخباز وقال ألا ترضى ان أصبت كنزا أن تعطينى بعضه حتى تذكر رجلا جبارا كان يدعى الربوبية قد مات منذ ثلثمائة سنة وتسخربى ثم أمسكه واجتمع الناس ، ثم انهم أتوابه الى الملك وكان عاقلا عادلا فقال لهم ماقصة هذا الفتى ؟ قالوا أصاب كنزا ، فقال له الملك لاتخف فان نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لانأخذ من الكنوز إلا خمسها فادفع الىّ خمس هذا الكنز وامض سالما ، فقال أيها الملك تثبت فى أمرى ما أصبت كنزا وانما أنا من أهل هذه المدينة ، فقال له أنت من أهلها ؟ قال نعم . قال أفتعرف فيها أحدا ؟ قال نعم . قال فسم لنا فسمى له نحوا من رجل فلم يعرفوا منهم رجلا واحد ، قالوا ياهذا ما نعرف هذه الأسماء وليست هى من أسماء أهل زماننا ولكن هل لك فى هذه المدينة دار ؟ فقال نعم أيها الملك فابعث معى أحدا فبعث معه الملك جماعة حتى أتى بهم دارا أرفع دار فى المدينة وقال هذه دارى ، ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير قد استرخى حاجباه من الكبر على عينيه وهو فزع مرعوب مذعور فقال أيها الناس مابالكم ؟ فقال له رسول الملك ان هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وتبينه وقال له ما اسمك قال تمليخا بن فلسطين فقال الشيخ أعد علىّ فأعاد عليه فانكب الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقال هذا جدى ورب الكعبة وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار الى جبار السموات والأرض ولقد كان عيسى عليه السلام أخبرنا بقصتهم وأنهم سيحيون ، فأنهى ذلك الى الملك فركب الملك وأتى اليهم وحضرهم ، فلما رأى الملك تمليخا نزل عن فرسه وحمل تمليخا على عاتقه فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون له ياتمليخا ما فعل بأصحابك فأخبرهم أنهم فى الكهف ، وكانت المدينة قد وليها رجلان ملك مسلم وملك نصرانى فركبا فى أصحابهما وأخذا تمليخا ، فلما صاروا قريبا من الكهف قال لهم تمليخا ياقوم انى أخاف أن اخوتى يحسون بوقع حوافر الخيل والدواب وصلصلة اللجم والسلاح فيظنون أن دقيانوس قد غشيهم فيموتون جميعا فقفوا قليلا حتى أدخل اليهم فأخبرهم ، فوقف الناس ودخل عليهم تمليخا فوثب اليه الفتية واعتنقوه وقالوا الحمد لله الذى نجاك من دقيانوس ، فقال دعونى

منكم ومن دقيانوس ـ كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ـ قال بل لبثتم ثلثمائة وتسع سنين وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن وآمن أهل المدينة بالله العظيم وقد جاءوكم فقالوا له يا تمليخا تريد أن تصيرنا فتنة للعالمين قال فماذا تريدون ؟ قالوا ارفع يديك ونرفع أيدينا فرفعوا أيديهم وقالوا اللهم بحق ما أريتنا من العجائب فى أنفسنا الا قبضت أرواحنا ولم يطلع علينا أحد فأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف ، وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له بابا ولا منفذا ولا مسلكا فأيقنا حينئذ بلطيف صنع الله الكريم وأن أحوالهم كانت عبرة أراهم الله إياها ، فقال المسلم على دينى ماتوا أنا أبنى على باب الكهف مسجدا . وقال النصرانى بل ماتوا على دينى فأنا أبنى على باب الكهف ديرا ، فاقتتل الملكان فغلب المسلم النصرانى ، فبنى على باب الكهف مسجدا فذلك قوله تعالى ـ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ـ وذلك يا يهودى ما كان من قصتهم ، ثم قال علىّ كرم الله وجهه لليهودى سألتك بالله يا يهودى أوافق هذا مافى توراتكم ، فقال اليهودى مازدت حرفا ولا نقصت حرفا يا أبا الحسن لا تسمنى يهوديا فانى أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأنك أعلم هذه الأمة .

وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله فقذف الله فى قلوبهم الايمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد منهم الايمان عن صاحبه فقالوا فى أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنا عقاب بجرمهم ، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك فجلس اليه ثم خرج الآخرون فجاءوا فجلسوا اليهم واجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض ماجمعكم وكل واحد يكتم عن صاحبه ايمانه مخافة على نفسه ، ثم قالوا لبعضهم ليخرج كل فتيين منكم فيخلوا ثم ليفش كل واحد منكم أمره إلى صاحبه ، فخرج فتيان منهم فتوافقا ثم تكلما فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه ، فأقبلا وهما مستبشران إلى أصحابهما فقالا قد اتفقنا على أمر واحد وإذاهم جميعا على الايمان ، وإذا كهف فى الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ـ فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم ، فناموا ثلثمائة سنة وتسع سنين قال وفقدهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم ، فلما لم يقدروا عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم وكتبوا فى لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى يوم كذا فى شهر كذا من سنة كذا فى مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا ليكونن لهذا شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن .

وأخبرنا الحسن بن الحسين الثقفى باسناده عن أبى جعفر الباقر قال : كان أصحاب الكهف صيارفة.

وقال وهب بن منبه : جاء حوارى من أصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحابه الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له ان على بابها صنما لايدخلها أحد الا سجد له ، فكره أن يدخلها فأتى إلى حمام قريب من تلك المدينة وأجر نفسه من الحمامى وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام فى حمامه البركة ودر عليه الرزق ، فجعل يقوم عليه وتعلق به فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه ، وكانوا على مثل حاله فى حسن الهيئة وكان يشرط على صاحب الحمام أن الليل لى لايحول بينى وبينه أحد فيصلى ، فكان على ذلك الحال حتى أتى ابن الملك الحمام بامرأة فدخل بها الحمام فعيره بها الحوارى وقال له أنت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحيا ابن الملك وذهب ثم رجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك فسبه وانتهره ولم يلتفت اليه ثم انهما دخلا معا فماتا جميعا فى الحمام ، فأتى الملك وقيل له قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه فقال من كان يصحبه فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم فى زرع وهو على مثل إيمانهم فذكروا أنهم التمسوا فانطلق معهم ومعه كلبه حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا نبيت ههنا الليله ثم نصبح ان شاء الله تعالى فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم ، فخرج الملك فى أصحابه يطلبونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف وكان كلما أراد الرجل منهم أن يدخل الكهف أرعب فلم يطق أحد أن يدخله، فقال قائل أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا ؟ عطشا وجوعا ففعل ذلك . قال هب فتركهم بعد ماسدوا عليهم باب الكهف ومضى زمان بعد زمان ، ثم إن راعيا أدركه المطر عند باب الكهف فقال لوفتحت باب هذا الكهف فأدخلته فيه غنمى من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح الباب ورد الله اليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا .

وقال محمد بن اسحق : مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله تعالى وتوحيده فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس كان عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه فى ذلك ممن أقام على دين المسيح ، وكان ينزل قرى الروم فلايترك فى قرية نزلها أحدا يدين دين المسيح الاقتله حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أفسوس ، فلما نزلها كبر ذلك على أهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل ناحية ، وكان دقيانوس قد أمر حين دخلها أن يتتبع أهل الإيمان فيجمعوا اليه واتخذ شرطا من كفار أهلها وجعلوا يتتبعون أهل الايمان فى أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيقدمهم إلى الجامع الذى يذبح فيه للطواغيت فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت ، فمن القوم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله سبحانه وتعالى فيقتل . فلما رأى ذلك أهل الشدة

فى الايمـان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ثم يقطعون ويربط ماقطع من أجسامهم على سـور المدينـة من نواحيها كلها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة على أهل الايمـان فمنهم من أقر فترك ومنهم من صلب على دينه وقتل ، فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا وصلوا واشتغلوا بالتسبيح والتقديس والدعاء وكانوا من أشراف الروم وكانوا ثمـانية نفر فبكوا وتضرعوا وجعلوا يقولون ـ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا ـ ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك ، فبيناهم على ذلك اذ أدركهم الشرط وكانوا قد دخـلوا فى مصـلى لهم فوجـدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله تعـالى ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنته فلما رآهم أولئك الكفرة قالوا لهم ماخلفكم عن أمر الملك انطلقوا اليـه ثم خرجوا من عندهم ورفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يسخرون منك ويعصونك ، فلما سمع ذلك أتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم فى التراب فقال مامنعكم أن تشهدوا الذبح للآلهة التى نعبـدها فى الأرض وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم ، ثم انهم خيروا إما أن يذبحوا لآلهتهم كما ذبح غيرهم من الناس واما أن يقتلهم الملك فقال مكسلمينا وكان أكبرهم ان لنا إلها ملأ السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه الها أبدا ولن نقر بهذا الذى ندعو اليه أبدا ولـكنا نعبد ربنا الذى له التحميد والتـكبير والتسبيح والتقديس من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا فاصنع بنا مابدالك ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ماقال له قالوا فلما قالوا له ذلك أمر بهم فنزع ملبوسا كان عليهم من ملبوس عظمائهم ثم قال لهم انـكم إذا فعلتم مافعلتم فانى سأؤخركم وأتفرغ لـكم فأنجز لـكم ما أوعدتكم من العقوبة وما ينبغى أن أعجل لكم ذلك لأنى أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لـكم أجلا فتراجعوا فيه عقولـكم ، ثم أمر بحلية كانت معهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم ، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التى هم بها قريبة منهم لبعض أموره ، فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فأتمروا أن يأخـذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له باجلوس فيسكنون فيه ويعبدون الله تعـالى حتى إذا قدم دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم مايشاء ، فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدقوا منها وأنطلقوا بما بقى معهم من نفقتهم واتبعهم كلب كان لأحدهم حتى أتوا ذلك الـكهف فلبثوا فيه . وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب على دينهم ، وقال كعب مروا بكلب فتبعهم فطردوه فنبح عليهم ففعلوا ذلك مرارا ،

فقال لهم الكلب ماتريدون منى لاتخشوا جانبي فانى أحب أحباب الله فناموا حتى أحرسكم .

رجعنا إلى حديث ابن اسحق : فلبثوا فى ذلك الكهف ليس لهم عمل الا الصلاة والصيام والتسبيح وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم من المدينة طعامهم سرا وكان من أجلدهم وأجملهم ، فكان تمليخا يصنع ذلك فاذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ؛ ثم يأخذ درهما فينطلق إلى المدينة فيشترى طعاما وشرابا ويتسمع ويتجسس لهم الخبر هل يذكرونهم بشىء ، ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا كذلك مالبثوا، ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت ، ففزع من ذلك أهل الايمان ، وكان تمليخا بالمدينة يشترى طعاما فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام ، فأخبرهم أن دقيانوس دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيث ، فلما أخبرهم بذلك فزعوا ووقعوا سجدا يدعون الله تعالى ويتضرّعون اليه ويتعوّذون به من الفتنة ، ثم ان تمليخا قال لهم. يا اخوتاه ارفعوا رءوسكم فاطعموا منه وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا على أنفسهم فطعموا منه وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا ، فبيناهم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف فأصابه ما أصابهم ، فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعض قومه لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا يحسبون أنى غضبان عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمرى ، فانى لا أغضب عليهم إن تابوا وعبدوا آلهتى ، فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما مردة عصاة مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا له ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم وقال أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى ، فقالوا له أما نحن فلم نعصك ولم تقتلنا بقوم مردة وانهم خالفونا وانطلقوا إلى جبل يسمى ناجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لايدرى ما يصنع بالفتية : فألقى الله فى نفسه ان يأمر بالكهف فيسدّ عليهم ، وأراد الله تعالى أن يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف بعدهم وأن يبين لهم — أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور — فأمر دقيانوس بالكهف أن يسدّ عليهم ، وقال دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ، وليكن كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون مايصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف وقد غشيه ماغشيهم يقلبون ذات اليمين وذات الشمال.

قال ثم إن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اسم أحدهما تندروس والآخر روناس ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم فى لوح من رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان ، وقالا لعلّ الله أن يطلع على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبله

يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا اللوح ، ففعلا ذلك وبنيا عليه فبقى دقيانوس ما بقى ومات قومه ومات قرون بعده كثيرة ، وخلفت الملوك بعد الملوك ، ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس ، فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وثمانين سنة فتحزّب الناس فى ملكه أحزابا منهم من يؤمن بالله العظيم ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها ، فكبر ذلك على الملك الصالح ، فشكا إلى الله وتضرّع اليه وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحقّ ، وانهم يقولون لا حياة الا الحياة الدنيا وانما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وأما الجسد فيأكله التراب ونسوا مافى الكتاب ، فجعل الملك تندوسيس يرسل إلى من كان يظنّ فيه خيرا ، وانهم كانوا أئمة فى الحق فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين ، فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا ، فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكى مما يرى فيه الناس ويقول أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء ؟ فابعث لهم آية ثم إن الرحمن الرحيم جلّ وعزّ الذى يكره اختلاف العباد أراد أن يظهر لهم الفتية أصحاب الكهف ، ويبين للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ، وأنه يستجيب لعبده الصالح تندوسيس وأنه يتم نعمته عليه ولا ينزع منه ملكه ولا الايمان الذين أعطاه ، وأن لا يعبد الا الله ولا يشرك به شيئا ، وأن يجمع من كان تبدّد من المؤمنين ، فألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى به الكهف وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف، فيبنى به حظيرة لغنمه فأستأجر عاملين ، فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا عليهم باب الكهف وحجبهم الله عن الناس ، فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر اليهم يدخل من باب الكهف ثم يتقدم حتى يرى كلهم نائما . فلما نزعت الحجارة وفتح باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والعظمة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم . فسلم بعضهم على بعض حتى كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون بها . ثم انهم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون لايرون فى وجوههم ولا أبشارهم ولا ألوانهم شيئا ينكرونه إنما هم كهيئتهم حين رقدوا يرون أن ملكهم دقيانوس فى طلبهم . فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم : بين لنا ما الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون انهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل لهم أنهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون فى الليلة التى أصبحوا بها حتى تساءلوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض — كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم — وكلّ ذلك فى أنفسهم يسير ، فقال لهم تمليخا التمستم فى المدينة لتذبحوا للطواغيت أو تقتلوا قالوا فما شاء الله بعد ذلك فعل ، فقال مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقو

الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غدا ، ثم قالوا ياتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال عنا بها اليوم وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتع لنا طعاما وائتنا به. وزدنا على الطعام الذى جئتنا به أمس فانه كان قليلا وقد أصبحنا جياعا . ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها . ثم أخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع . فانطلق تمليخا خارجا . فلما مر بباب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فتعجب منها. ثم مر حتى أتى باب المدينة مستخفيا بعيدا عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب به إلى دقيانوس الجبار . ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة . فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة لأهل الايمان فلما رآها عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا فنظر يمينا وشمالا ، ثم انه ترك ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من ابوابها فنظر فرأى مثل ذلك فجعل يتخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكونوا قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل اليه أنه حيران ثم إنه رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ليت شعرى أما هذه عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ، وأما اليوم فانها ظاهرة لعلى حالم ثم يرى أنه لم ينم فأخذ كساءه وجعله على رأسه ، ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين أظهر أهل سوقها وهو يسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول فى نفسه : والله ما أدرى ماهذا أما عشية أمس فليس على الأرض أحد يذكر عيسى الا قتل ؟ وأما الغداة فأسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخشى ثم قال فى نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرفها فانى أسمع كلام أهلها ولا أعرف واحدا منهم والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران لايتوجه وجها ، ثم انه لقى فتى من أهل المدينة فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى ؟ فقال افسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلى والله يحق لى أن أبادر الخروج منها قبل أن يصيبنى شر فأهلك هذا مايحدث به تمليخا أصحابه حتى يبين لهم ماهم فيه . ثم أفاق وقال والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بى لكان أكيس لى فدنا من الذين يبيعون الطعام ، ثم أخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال ياعبد الله بعنى بهذه طعاما فأخذها الرجل ونظر الى ضرب الورق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها الى رجل من أصحابه فنظر اليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل فيتعجبون منها ، ثم جعلوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : ان هذا الرجل قد أصاب كنزا فى الأرض منذ زمان طويل ، فلما رآهم يتشاورون من أجله فرق فرقا شديدا فجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم انما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس . قال وجعل أناس آخرون يأتونه ويتعرفونه ، فقال لهم وهو شديد الفرق انفصلوا قد أخذتم ورقى فأمسكتموها فلا حاجة لى فى طعامكم ، فقالوا يافتى

من أنت وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين فأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرنا مكانه وشاركنا فيه يخف عليك ما وجدت فانك إن لم تفعل نأت السلطان ونسلمك اليه فلما سمع قولهم عجب فى نفسه ثم قال قد وقعت فى كل شىء كنت أحذر منه ثم قالوا والله يافتى انك لاتستطيع أن تكتم ما وجدت ولا تظن فى نفسك أن سنخفى عليك فتحير فى نفسه وليس يدرى مايقول لهم وما يرجع اليهم وفرق حتى مايخبرهم بشىء ، فلما رأوه لايتكلم أخذوا كساءه وطوقوه فى عنقه ثم جعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلا حتى سمع به من فيها وقيل أخذ رجل عنده كنز ، فاجتمع عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجعلوا ينظرون اليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط ومانعرفه فجعل تمليخا مايدرى مايقول لهم مع ما يسمع منهم . فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق ولم يتكلم ولو قال إنه من أهل المدينة لم يصدق وكان مستيقنا أن أباه واخوته فى المدينة وأن حسبه فى أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا وقد استيقن أنه فى عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها وأنه لايعرف اليوم من أهلها أحدا فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم . فبينما هو كذلك إذ قد اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومدبريها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرموس واسم الآخر اسطيوس ، فلما انطلقوا به ظن تمليخا أنهم انطلقوا به إلى دقيانوس الملك ، فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران فجعل تمليخا يبكى ثم رفع رأسه الى السماء وقال : اللهمّ إله السموات والأرض أفرغ علىّ اليوم صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يبكى ويقول فى نفسه : فرّق بينى وبين اخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت فيأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا كنا قد توافقنا لنكونن معالانكفر بالله ولانفترق فى موت ولا فى حياة أبدا ياليت شعرى ماهو فاعل بى هل هو قاتلى أم لا ؟ هذاماحدث به تمليخا أصحابه عن نفسه حين رجع اليهم فانتهى به الى الرجلين الصالحين أرموس واسطيوس فلما علم تمليخا أنه لم يذهب الى دقيانوس أفاق وسكن مابه فأخذ أرموس واسطيوس الورق ونظرا اليها وعجبا منها ، ثم قال أحدهما أين الكنز الذى وجدت يافتى ، فقال ماوجدت كنزاوانما هذه الورق ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أدرى ما أقول لكم فقال أحدهما من أنت ؟ فقال له تمليخا قال فمن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه ، فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحقّ فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حضر هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم ، فقام أحدهما ونظر اليه نظرا شديدا وقال له أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ولضرب هذه الورق ونقشها أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب تظن أن تأفكنا وتسخربنا ونحن شمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة

وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار لأعذبنك عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعرفني هـذا الـكنز الذى وجدت . فلما قال له ذلك قال له تمليخا : أنبئونى عن شيء أسألـكم عنه فان فعلتم صدقتـكم عما عنـدى ، فقالوا سل لا نـكتمك شيئا قال ما فعل بالملك دقيانوس ؟ قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملـكا يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملك قد هلك منذ دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة ، فقال له تمليخا فوالله ما أجد من الناس أحدا يصدقنى على ما أقول لقد كنا فتية وإن الملك دقيانوس أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فبتنا ، فلما انتهينا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما وأتجسس الأخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معى إلى الـكهف الذى فى جبل ناجلوس أريكم أصحابى ، فلما سمع أرموس ما يقول تمليخا قال : ياقوم لعلّ هـذه آية من آيات الله جعلها الله لـكم عبرة على يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه ، فانطلق معـه أرموس واسطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الـكهف لينظروا اليهم . وكان الفتية أصحاب الـكهف ظنوا أن تمليخا قد احتبس عنهم لأنه لم يأتهم بطعامهم وشرابهم فى القـدر الذى كان يأتى فيـه فظنوا أنه قد أخـذ وذهب به إلى دقيانوس . فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار وأنه بعث اليهم ليؤتى بهم ، فقاموا حين سمعوا ذلك الى الفلاة وسـلم بعضهم على بعض . ثم قالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدى دقيانوس ينتظر متى نأتيه ، فبينماهم يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهرانى الـكهف لم يشعروا إلا وأرموس وأصحابه وقوف على باب الـكهف وقـد سبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكى ، فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم انهم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم الحديث كله فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمان كله وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ثم دخـل على أثر تمليخا أرموس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الـكهف ، ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتحوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما إن مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونش وداسيوس وتـكريوس وبطيونس كانوا فتية هربوا من ملـكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم فدخلوا هذا الـكهف فلما علم مكانهم ملـكهم أمر بالـكهف فسـد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرءوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث فيهم ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ، ثم دخـلوا على الفتية الـكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخرّ أرموس وأصحابه سجودا وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملـكهم دقيانوس ، ثم انّ أرموس وأصحابه بعثوا إلى ملـكهم الصالح تندوسيس فاعجل لعلك تنظر آية من آيات الله تعالى قد أظهرها

الله فى ملكك فاعجل الى فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة ، فلما أتى الخبر قام من السدة التى كان عليها وقال : أحمدك اللهم رب السموات والأرض تطولت علىّ ورحمتنى برحمتك فلم تطفىء النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح فسطيطوس الملك . فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا الكهف . فلما رأى الفتية تندوسيس الملك ومن معه فرحوا به وخروا سجدا لله على وجوههم ، وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه . ثم إن الفتية قالت لتندوسيس نستودعك الله ونقرأ عليك السلام وحفظك الله وحفظ ملكك وأعاذك من شرّ الجن والانس ، فبينما الملك قائم إذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أرواحهم وقام الملك اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب . فلما أمسوا أتوه فى المنام فقالوا إنا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ، ولكنا خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه فأمر الملك حينئذ بتوابيت من ساج فجعلوا فيها وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد ان يدخل عليهم وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة . وقيل إنهم لما أتوا باب الكهف . قال تمليخا دعونى أدخل على أصحابى فأبشرهم فدخل وقبض الله روحه وأرواحهم وعمى عليهم مكانهم فلم يهتدوا اليه كما ذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه فهذا خبر أصحاب الكهف .

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل ربه ان يراهم . فقال إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن ابعث اليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الايمان بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل كيف أبعثهم ؟ قال ابسط كساءك واجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الثانى عمر وعلى الثالث على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعلى الرابع أبا ذر ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان بن داود فان الله أمرها أن تطيعك ففعل النبى عليه الصلاة والسلام ما أمره به فحملتهم الريح [1] حتى انطلقت بهم الى باب الكهف ، فلما دنوا من باب الكهف قلعوا منه حجرا فقام الكلب حين أبصر الضوء وهرّ وحمل عليهم ، فلما رآهم حرّك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه ان ادخلوا الكهف ، فدخلوا وقالوا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردّ الله عليهم أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم ، وقالوا وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالوا إن نبى الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ، فقالوا وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما بلغتم ، ثم انهم جلسوا بأجمعهم

(١) قوله فحملتهم الريح الخ هذا معارض لقوله تعالى (رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فليتنبه .

يتحدثون فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقبلوا دين الاسلام وقالوا أقرئوا محمدا صلى الله عليه وسلم منا السلام ، ثم انهم أخذوا مضاجعهم وصاروا الى رقدتهم الى آخر الزمان عند خروج المهدى فيقال ان المهدى يسلم عليهم فيحييهم الله تعالى له ثم انهم يرجعون الى رقدتهم فلا يقومون الى يوم القيامة ، ثم جلس كل واحد منهم على مكانه وحملتهم الريح الرخاء ، فهبط جبريل عليه السلام فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، فلما أتوا النبي ﷺ . قال كيف وجدتموهم ، وما الذى أجابوكم ؟ فقالوا يارسول الله دخلنا عليهم وسلمنا عليهم فقاموا فردوا السلام بأجمعهم وبلغناهم رسالتك ، فأجابوا وأنابوا وشهدوا أنك رسول الله حقا وحمدوا الله على ما أكرمهم بخروجهم وتوجيه رسلك اليهم وهم يقرءون عليك السلام ، فقال عليه الصلاة والسلام اللهم لاتفرق بينى وبين أصهارى وأحبائى واغفر لمن أحبنى وأحب أهل بيتى وأحب أمتى وأحب أصحابى .

مجلس فى ذكر جرجيس عليه السلام

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبدالله الضبي باسناده عن وهب بن منبه اليمانى . قال كان فى الموصل ملك يقال له زادانه ، وكان قد ملك الشام كلها ودان له أهلها ، وكان جبارا عاتيا وكان يعبد صنما يقال له أفلون ، وكان جرجيس عبدا صالحا من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حوارى عيسى بن مريم عليه السلام ، وكان تاجرا كثير المال عظيم الصدقة وكان لايأمن ولاية المشركين عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه فخرج يوما يريد ملك الموصل ومعه مال يريد أن يهديه اليه لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانا عليه دونه فجاءه وقد برز فى مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنصب والناس يعرضون عليه وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب ، وقد أوقد نارا عظيمة فمن لم يسجد لأفلون ألقى فى تلك النار ، فلما رأى جرجيس عليه السلام مايصنع فزع منه وهاله وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده وألقى الله فى نفسه بغضه ومجاهدته له فعمد الى المال الذى أراد أن يهديه له فقسمه فى أهل ملته حتى لم يبق منه شىء وكره أن يجاهده بالمال وأحب أن يلى ذلك بنفسه فأقبل عليه ، وقال له اعلم أنك عبد مملوك لاتملك لنفسك شيئا ولا لغيرك وأن لك ربا هو الذى يملكك وغيرك وهو الذى خلقك ورزقك ويحييك ويميتك ويضرك وينفعك ، وإذا قال لشىء كن فيكون وأنك إنما عمدت الى خلق من خلقه أصم لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغنى عنك شيئا من الله فزينته بالذهب والفضة وجعلته فتنة للناس ثم عبدته من دون الله ، فكان من جواب الملك له أن سأله عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو؟ فقال جرجيس أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته أذل عباده وأفقرهم اليه من التراب خلقت واليه أصير ، فقال له الملك لو كان ربك الذى تزعم كما تقول لرؤى أثره عليك كما رؤى أثرى على من حولى ومن هو فى طاعتى فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره ، ثم قال له أتعدل أفلون الأصم الأبكم الذى لا يغنى عنك شيئا برب العالمين الذى

قامت السموات والأرض بأمره أم تعدل طوفليا وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بما نال الياس من ولاية الله تعالى فان إلياس كان فى بدء أمره آدميا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فأكرمه الله تعالى حتى أنبت له الريش وكساه النور فصار إنسيا ملكيا سماويا أرضيا يطير مع الملائكة أم تعدل مخلطيس وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فان الله تعالى فضله على رجال العالمين وجعله وأمه آية للمعتبرين ، أم تعدل هذا الروح الطيبة التى اختارها الله بكلمته وفضلها على امائه وما نالت بولاية الله بأربيل وما نالت بولايتك فانها كانت من شيعتك وعلى ملتك فأسلمها الله مع عظيم ملكها حتى اقتحمت عليها الكلاب فى بيتها فانتهشت لحمها وولغت ى دمها وقطعت الضباع أوصالها ، فقال له الملك انك لتحدثنا بشىء ليس لنا به علم فائتنا بالرجلين اللذين ذكرتهما حتى أنظر اليهما فانى أنكر أن يكون هذا من أمر البشر فقال له جرجيس انما جاءك الانكار من قبل الغرة بالله تعالى ، وأما الرجلان فلن تراهما ولن يرياك إلا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما ، فقال له الملك أما نحن فقد أعذرنا اليك وتبين لنا كذبك لأنك فخرت بأمور عجزت عنها ولم تأت بتصديقها ، ثم إن الملك خير جرجيس بين العذاب وبين السجود لأفلون ، فقال له جرجيس ان كان أفلون هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لى وإلا فاخسأ أيها النجس الملعون ، فلما سمعها الملك غضب وشتمه وسب إلهه وأمر بخشبة فنصبت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جسده حتى تقطع لحمه وجلده وعروقه ونضح عليه فى خلال ذلك بالخل والخردل فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك ، فلما رأى الملك أن ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت حتى جعلت نارا فسمر بها رأسه حتى سال دماغه فحفظ من الألم والهلاك ، فلما رأى ذلك أنه لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله نارا أمر به فأدخل فى جوفه وأطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد حره . فلما رأى ذلك لم يقتله دعابه ، فقال له ياجرجيس أما تجد ألم هذا العذاب تعذب به ؟ فقال ان ربى الذى أخبرتك به حمل العذاب عنى وصبرنى لأحتج عليك ، فلما قال له ذلك أيقن بالشر وخافه على نفسه وملكه وأجمع رأيه على أن يخلده فى السجن ، فقال له الملأ من قومه إنك إن تركته طليقا فى السجن يكلم الناس أوشك أن يميل بهم عليك ولكن مر له بعذاب فى السجن فيشغله عن كلام الناس فأمر به فبطح على وجهه ثم أوتده فى يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد فى كل ركن منها وتد وأمر بأسطوانة من رخام فوضعت على ظهره ، ثم انه حمل على تلك الاسطوانة ثمانية عشر رجلا فظل يومه ذلك موتدا تحت الحجر ، فلما أدركه الليل أرسل الله تعالى إليه ملكا وذلك أول ما أيده الله تعالى بالملائكة وأول ماجاءه الوحى فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ، فلما أصبح أخرجه من السجن ثم قال له الحق بعدوك فجاهده فى الله حق جهاده فان الله يقول لك اصبر وأبشر فانى قد ابتليتك بعدوى هذا سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن أربع مرات ،

وفى كل ذلك أردّ اليك روحــك فاذا كان فى القتلة الرابعــة نقلت روحك وأوفيتك أجرك فلم يشعروا إلا وقد وقف جرجيس على رءوسهم يدعوهم الى الله تعالى ، فقال له الملك ياجرجيس من أخرجك من السجن ؟ فقال أخرجنى الذى سلطانه فوق سلطانك ، فلما قال له ذلك ملىء غيظا ودعا باصناف العذاب حتى لم يخلّ منها شيئا ، فلما رآها جرجيس أوجس فى نفسه خيفة وجزعا ، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون ، فلمــا فرغ من عتابه . قال لهم الملك مدّوه بين خشبتين فمدّوه ، ثم انهم وضعوا سيفا على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار جزءين ، ثم عمدوا الى أجزائه فقطعوها قطعا ودعوا له سبعة أسود ضارية كانت له فى جب وكانت صنفا من أصناف عــذابه فرموا بجسده اليها ، فلما هوى نحوها أمرها الله عزّ وجلّ فخضعت برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها تقيه الألم فظل يومه ذلك ميتا وكانت أول موتة ماتها ، فلما أدركه الليل جمع الله له جسده الذى قطعوه وضم بعضه الى بعض حتى سواه ثم رد الله اليــه روحه وأرســل الله له ملــكا فأخرجه من قعر الجب فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ، فلما أصبحوا قال له الملك : ياجرجيس قال لبيك ، قال له اعــلم أن القدرة التى خلق الله بها آدم هى التى أخرجتك من قعر الجب اخرج فالحق بعدوك وجاهده فى الله حق جهاده ومت موت الصابرين ، فلم يشعر الملك وأصحابه الآخرون إلا وقد أقبل جرجيس وهم عكوف على عيد لهم قد صنعوه فرحا بموت جرجيس ، فلما نظروا الى جرجيس مقبلا . قال الملك ما أشبة هذا الرجل بجرجيس ؟ فقالوا كأنه هو ، فقال الملك ليس هو حقا ألا ترون الى سكون ريحــه وقلة هيبته ، فقال جرجيس بل هو أنا فبئس القوم أنتم قتلتم ومثلتم فأحيانى الله تعــالى بقدرته فهلموا الى الرب العظيم الذى أراكم ما أراكم . فلمــا قال لهم ذلك أقبل بعضهم الى بعض وقالوا ساحر سحر أعينــكم فجمعوا له من كان ببلاد الملك من السحرة . فلما جاء السحرة قال الملك لــكبيرهم اعرض علىّ من كبير سحرك ما يسر عينى فقال ادع لى بثور من البقر . فلما أتى به نفث فى إحدى أذنيه فانشقت باثنتين . ثم نفخ فى الأذن الأخرى فاذا هو ثوران . ثم دعا ببذر فحرث وبذر ونبت الزرع وحصد ثم داس ودرى وطحن وعجن وخبز كل ذلك فى ساعة واحدة وهم يرون . فقال له الملك هل تقدر أن تمسخ لى جرجيس دابة . فقال الساحر أى دابة تطلب أمسخه لك كلبا ؟ فقال الساحر ادع لى بقــدح من ماء . فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر . ثم قال للملك اعزم عليه أن يشربه فشربه جرجيس حتى أتى على آخره . فلما فرغ منه . قال له الساحر ماذا تجد ؟ قال ما أجد إلا خيرا كنت قد عطشت فعطف الله لى بهذا الشراب وقوانى به عليــكم فلما قال ذلك أقبل الساحر على الملك وقال له اعلم أيها الملك أنك لو كنت تقايس رجلا مثلك اذا لــكنت غلبته ولــكنك تقايس جبار السموات والأرض وهو الملك الذى لا يرام. وقد كانت امرأة مسكينة من أهــل الشام قــد سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب فأتته وهو فى أشد ما فيه من البلاء . فقالت له ياجرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لى مال الاثور ان كنت أحرث

عليهما فماتا فجئتك لترحمني وتدعو الله أن يحيى لى ثورىّ فلماسمع كلامها ذرفت عيناه ثم دعا الله أن يحيي لها ثوريها ثم إنه أعطاها عصا وقال لها اذهبي إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولى لهما احييا باذن الله تعالى فقالت له ياجرجيس ان ثورى قد ماتا منذ سبعة أيام ومزقتهما السباع وبيني وبينهما أيام فقال لها لو لم تجدى منهما إلاشيئا يسيرا وقرعتيه بالعصا فانهما يقومان باذن الله تعالى فانطلقت المرأة حتى أتت مصرعهما وكان أول شيء بدالها من ثوريها ذقن أحدهما وشعر أذنى الآخر فجمعت أحدهما إلى الآخر وقرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها فقام الثوران باذن الله تعالى وعملت عليهما حتى جاءهم الخبر بذلك ، فلما قال الساحر للملك ماقال قال رجل من أصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك إنكم قد وضعتم أمر هذا الرجل على السحر وانكم قد عذبتموه فلم يصل اليه عذابكم وقتلتموه فلم يمت فهل رأيتم ساحرا يدرأ عن نفسه الموت أو أحيا ميتا قط فقالوا له إن كلامك لكلام رجل قد صبأ اليه فلعله استهواك اليه فقال آمنت بالله وأشهد أنى برىء مما تعتقدون فقام اليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس أربعة آلاف آمنوا فعمد اليهم الملك فلم يزل يعذبهم بألوان العذاب حتى أفناهم ، فلما فرغ منهم قال لجرجيس هلا دعوت ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك فقال جرجيس ماخلى بيني وبينهم حتى حانت آجالهم فقال له رجل من عظمائهم يقال له مخليطس إنك زعمت ياجرجيس أن إلهك هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وانى سائلك أمرا إن فعلته آمنت بك وصدقتك وكفيتك ، نحن قوم حولنا أربعة عشر كرسيا وهذه مائدة بيننا عليها أقداح وصحاف من أشجار شتى فادع ربك ينشىء هذه الكراسى والأوانى كما بدأها أول مرة تعود خضراء فيعرف كل عود منها أنبو بته وورقه وزهره فقال له جرجيس : لقد سألت أمرا عزيزا على وعليك وأنه على الله لهين فدعا الله عز وجل فما برحوا من مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسى والأوانى كلها وساخت عروقها وتلبست باللحم وتشعبت وأورقت وأزهرت وأثمرت فلما نظروا إلى ذلك انتدب لهم مخليطس الذى تمنى عليه ماتمنى فقال أناأعذب لكم هذا الساحر عذابا يبطل به كيده ، ثم انه عمد الى نحاس فصنع منه صورة ثور له جوف واسع ثم حشاها نفطا ورصاصا وكبريتا وزرنيخا ثم أدخل جرجيس مع الحشو فى جوفها ثم أوقد على الصورة حتى التهب وذاب كل شيء فيها واختلط جرجيس فى جوفها ، فلما مات جرجيس أرسل الله ريحا عاصفا فملأت السماء سحابا أسود فيه رعد وبرق وصواعق وأرسل الله اعصارا ملأت بلادهم عجاجا وقتاما حتى اسود مابين السماء والأرض فمكثوا أياما متحيرين فى تلك الظلمة لايفصلون بين الليل والنهار ، وأرسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التى فيها جرجيس حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ففزع من روعها أهل الشام فخرجوا لوجوههم صاعقين وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيا . فلما وقف يكلمهم انكشفت الظلمة وأسفر مابين السماء والأرض ورجعت اليهم أنفسهم ، فقال له رجل يقال له طوفليا لاندرى يا جرجيس ان كنت أنت تصنع هذه الأعاجيب

أم ربك ؟ فان كان ربك هــو الذى يصنع فادعــه يحيي لنا موتانا التى فى هذه القبور فان فيها أمواتا منهم من نعرفه ومنهم من لانعرفه . فقال له جرجيس لقد علمت أن مايصفح الله عنــكم هذاالصفح ويريكم هذه الأعاجيب إلا لتــكون عليــكم حجة فتستوجبوا بها غضبه ، ثم إنه أمر بالقبورفنبشت وهى عظام رفات وأقبل جرجيس على الدعاء فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعةعشرانسانا تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبية واذا فيهم شيخ كبير فقال له جرجيس ياشيخ مااسمك ؟ فقال ياجرجيس اسمى تو بيل قال متى مت قال فى زمان كذا وكذ فحسبوا فاذا هو قد مات منذ أربعمائة عام ، فلما نظر الملك وأصحابه إلى مافعل قالوا مابقى من أصناف العذاب شىء إلاوقدعذبتموه به إلا الجوع والعطش فعذبوه بهما فعمدوا إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد فحصروه فى بيتها وكانوا لايوصلون له من عند أحد طعاما ولاشرابا ، فلما بلغ به الجوع قال للعجوز هل عندك من طعام أوشراب ؟ فقالت لا والذى يحلف به ماعهدنا الطعام منذ كذا وكذا وسأخرج ألتمس لك شيئا فقال لها جرجيس هل تعرفــين الله تعــالى قالت نعم ؟ قال إياه تعبدين قالت لافدعاها إلى الله فصدقته ، ثم انها انطلقت تطلب لها شيئا وكان فى بيتها دعامة من خشب يابسة تحمل خشب البيت فأقبــل على الدعاء فاخضرت تلك الدعامة وأنبتت له كل فاكهة تؤكل اوتعرف حتى كان ممــا انبتت اللوبيا واللياز وهو مثل البردى يكون بالشام ، وظهر للدعامة فرع من فوق البيت اظله من فوقه ، فاقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رغــدا . فلما رأت الذى حدث فى بيتها من بعدها ، قالت آمنت بالذى اطعمك فى بيت الجوع فادع هذا الرب العظيم أن يشفى ابنى فقال لها أدنيه منى فأدنته فبصق فى عينيه فأبصر ونفث فى اذنيه فسمع ، فقالت له أطلق لسانه ورجليه رحمك الله ، فقال لها اخريه فإن له يوما عظيما ، وكان الملك قد خرج يوما يسير فى مدينته إذ وقع بصره على الشجرة فقال انى أرى شجرة بمــكان ما كنت أعرفها به . فقالوا له ان تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذى أردت أن تعذبه بالجوع فهو فيما يشاء يأكل وقد شبع منها وأشبع العجوز الــكبيرة الفقيرة وشفى لها ابنها فأمر الملك بالبيت فهدم وبالشجرة أن تقطع . فلما هموا بقطعها أيبس الله الشجرة وردها كما كانت أول مرة فتركوها ، وأمر بجرجيس فبطح على وجهه وأوتد له أربعــة أوتاد وأمر بعجل فأوقر اسطوانا وجعل فى أسفل العجــل خناجر وشفارا . ثم أمر بأربعــين ثورا فنهضت بالعجــل نهضة واحــدة وجرجيس تحتها فانقطع ثلاث قطع فأمر بقطعة أن تحرق فألقيت فى النار حتى عادت رمادا فبعث بذلك الرماد وبعث معه رجالا فذروه فى البحر فمــا برحوا عن مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يابحر إن الله يأمرك أن تحفظ مافيك من هذا الجسد الطيب فانى أريد أن أعيده كما كان ، ثم أرســل الله الرياح فأخرجته من البحر ثم جمعته حتى صــار الرماد صبرة واحدة كهيئته قبل أن يذرى فخرج منه جرجيس مغبرا ينفض رأسه فرجعوا ورجع جرجيس وأخبروا الملك خبر الصوت الذى سمعوه والريح الذى جمعته ، فقال له الملك ياجرجيس هل لك فيما هو خير لى ولك مما نحن فيه ولولا أن يقول

الناس انك غلبتنى وقهرتنى لاتبعتك وآمنت بك ولـكن اسجد لأفاون سجدة واحدة واذبح له شاة واحدة ثم انى أفعل لك مايسرك ، فقال له نعم مهما شئت فعلت فادخلنى على صنمك ففرح الملك بقوله وقام اليه وقبل يديه ورجليه ورأسه وقال له أعزم عليك أن تظل هذا اليوم ولاتبيت هذه الليلة إلا فى بيتى وعلى فراشى وفى كرامتى حتى تستريح ويذهب عنك وصب العذاب ويرى الناس كرامتك علىّ فأخلى له بيته فظل فيه جرجيس حتى إذا أدركه الليل قام يصلى ويقرأ الزبور وكان أحسن الناس صوتا . فلما سمعته امرأة الملك استجابت له فلم يشعر إلا وهى خلفه تبـكى فدعاها جرجيس الى الايمان فآمنت به وأمرها فـكتمت إيمانها ، فلما أن أصبح الصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها فلما سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل ابنها على عاتقها توبخ جرجيس والناس مشتغلون عنها ، فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظروا واذا بالعجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس اليه مقاما ، فلما رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم يكن يتـكلم قبل ذلك قط ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشى على رجليه ولم يكن يطأ الأرض قبل ذلك بقدميه قط ، فلما وقف بين يدى جرجيس قال له اذهب فادع لى هـذه الأصنام وهى يومئذ سبعون صنما على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر ، فقال له الغلام كيف أدعو الأصنام فقال له قل لهـا ان جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذى خلقك إلا ماأجبتيه فلما قال لها الغلام ذلك أقبلت تتدحرج إلى جرجيس فلما انتهت اليه ركض الأرض برجـله فخسف بها وبمنابرها وخرج ابليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربا فرقا من الخسف . فلما مر بجرجيس أخـذ بناصيته فخضع له وكلمه جرجيس، فقال له جرجيس أخبرنى أيها الروح النجسة والخلق الملعون ما الذى يحملك على أن تهلك نفسك وتهلك الناس معك وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم ، فقال له ابليس لعنه الله لو خيرت بين ما أشرقت عليه الشمس وبين ما أظلم عليه الليل وبين هلـكة واحـد من بنى آدم وضلالته لاخترت هلـكته على ذلك كله وإنه ليقع لى من الشهوة واللذة فى ذلك مثل جميع مايتلذذ به جميع الخلق ، ألم تعلم ياجرجيس أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائـكة فسجدوا له كلهم وامتنعت من السجود وقلت أنا خير منه . قال فلما قال هـذا خلى سبيله جرجيس فما دخل ابليس من يومئذ جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا . فقال الملك ياجرجيس غررتنى وخدعتنى وأهلـكت آلهتى . فقال جرجيس انمـا فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لوكانت آلهة لامتنعت منى فـكيف ثقتك ويلك بآلهة لم تمنع نفسها منى وانما أنا مخلوق ضعيف لاأملك إلا ماملـكنى ربى ، فلما قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلمتهم وكشفت لهم عن إيمانها وعـددت لهم أفعال جرجيس والعبر التى أراهم الله تعالى إياها وقالت لهم ماتنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسف بأصنامكم ، الله الله أيها القوم فى أنفسكم . فقال لهـا الملك ويحك يا اسكندرة ما أسرع ما أضلك هذا الساحر فى ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سـنين فلم يظفر منى بشىء فقالت له أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه

عليك فيكون له الفلاح والحجة عليك فى كل موطن . فلما سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة جرجيس التى كان علق عليها وجعلت عليها الأمشاط التى جعلت على جرجيس ، فلما آلمها قالت ادع ربك ياجرجيس فيخفف عنى فانى قد آلمنى العذاب . فقال لها انظرى فوقك فلما نظرت ضحكت . فقال لها الملك ما الذى يضحكك ؟ . قالت أرى ملكين فوقى معهما تاج من حلى الجنة ينتظران بخروج روحى . فلماخرجت روحها زيناها بذلك التاج ، ثم صعدا بها إلى الجنة ، فلما قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء وقال : اللهم أنت أكرمتنى بهذا البلاء لتعطينى منازل الشهداء فهذا آخر أيامى الذى كنت وعدتنى فيه الراحة من بلاء الدنيا . اللهم إنى أسألك أن لاتقبض روحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تنزل بهؤلاء المتكبرين من سطواتك ونقمتك مالا قبل لهم به حتى تشفى به صدرى وتقر به عينى فانهم ظلمونى وعذبونى فيك . اللهم وأسألك أن لايدعو بعدى داع فى بلاء وكرب فيذكرنى وينشدك باسمى إلا فرجت عنه ورحمته وأجبته وشفعتنى فيه . فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا فلما رأوا ذلك عمدوا اليه فضربوه بالسيوف غيظا من شدة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ماوعده ، ثم احترقت المدينة بجميع مافيها وصارت رمادا فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها فمكثت زمانا من الدهر يخرج من تحتها نار ودخان منتن لايشمه أحد إلا سقم سقما شديدا ، وكان جميع من آمن بجرجيس وقتل معه أربعة وثلاثين ألفا وامرأة الملك . قال الأستاذ وكانت قصة جرجيس فى أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

باب فى قصة شمسون النبى عليه السلام

قال الله تعالى — إنا أنزلناه فى ليلة القدر — إلى قوله تعالى — خير من ألف شهر —

أخبرنا أبو عمرو العراقى باسناده عن ابن أبى نجيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى اسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر فتعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله تعالى — إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر — » التى لبس الرجل فيها السلاح فى سبيل الله تعالى .

أخبرنا عبد الله الضبى باسناده عن وهب بن منبه : أن رجلا من أهل قرية من قرى الروم يقال له شمسون بن مسوح كان فيهم مسلما من أهل الانجيل ، وكانت أمه قد جعلته نذيرا ، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، وكان منزله منها على خمسة أميال ، وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم فى الله فيقتل منهم ويسبى ويصيب الأموال ، وكان اذا قاتلهم لقيهم بالجحفة لايلقاهم بغيرها ، وكان اذا قاتلهم وقاتلوه فتعب وعطش انفجر له من الحجر ماء عذب فيشرب منه حتى يروى ، وكان قد أعطى قوة فى البطش ، وكان لايوثقه حديد ولا غيره. فجاهدهم

فى الله ألف شهر يصيب منهم حاجته ولا يقدرون منـه على شىء فاحتالوا عليه وقالوا لا نأتيه إلا من قبل امرأته فجعلوا لها جعـلا على ذلك فأجابتهم وقالت أنا أوثقه لكم فأعطوها حبـلا وثيقا ، وقالوا لها إذا نام فأوثق يديه إلى عنقه حتى نأتيه فنأخـذه . فلما نام أوثقت يديه إلى عنقه بذلك الحبل . فلما انتبه من نومه جذبه بيده فوقع من عنقه . فقال لها لم فعلت ذلك ؟ فقالت له أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط ، فأرسلت اليهم وقالت لهم انى قد ربطته بالحبل فلم يغن عنه شيئا فأرسلوا اليها بجامعة من حديد وقالوا لها اذا نام فاجعليها فى عنقه فلما نام جعلتها فى عنقه ثم أحكمتها . فلما هب جذبها فوقعت من عنقه ويده فقال لها لم فعلت هذا قالت أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط فهل فى الأرض شىء يغلبك قال لا الا شىء واحد قالت وما هو ؟ قال ما أنا بمخبرك به فلم تزل تسأله عن ذلك وكان ذا شعر طويل كثير فقال لها ويحك إن أمى كانت أخبرتنى أن لا يغلبنى شىء أبدا ولا يغيظنى الاشعرى ، فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسـه فأوثقه ذلك فبعثت الى القوم فجاءوا وأخذوه فجدعوا أنفه وأذنيه وفقئوا عينيه وأوقفوه للناس بين ظهرانى المدينة وكانت مدينة ذات أساطين وكان ملـكهم قد أشرف عليها هو والناس لينظروا إلى شمسون وما يصنع به فدعا الله شمسون حين مثلوا به وأوقفوه على الناس أن يسلطه عليهم ، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التى عليها الملك والناس معه فيجذبهما جميعا فجذبهما فانهارت المدينة بمن فيها فهلـكوا فيها هـدما وهلـكت أيضا امرأته معهم ورد الله تعالى عليه بصره وما أصابوا من جسده تاما وعاد كما كان وكانت قصة شمسون فى أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

باب فى قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى — قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود — الآيات ، روى عطاء عن ابن عباس أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل فى الفترة قبل مولد النبي صلى الله عليه وسـلم بسبعين سنة وكان له ساحر حاذق ، فلما كبر قال للملك انى قد كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر ، فبعث اليـه غلاما يقال له عبدالله بن الساحر يعلمه السحر فـكره الغلام ذلك ولم يجـد بدا من طاعة الملك وطاعة أبيـه فجعل يتخلف عن الساحر وكان فى طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت ، فقعد الغلام عنده وسمع كلامه فأعجبه وكان يبطىء عند الراهب ويأتى المعلم فيضربه ويقول له ما الذى حبسك ؟ واذا انقلب إلى أبيه يجلس عنـد الراهب فيضربه أبوه ويقول له ما أبطأك ؟ فشـكا الغلام ذلك إلى الراهب فقال له الراهب إذا أتيت المعلم فقل له حبسنى أبى ، واذا أتيت أباك فقل حبسنى المعلم ، وكان فى تلك البلاد حية عظيمة قد قطعت الطريق على الناس فمر بها الغـلام ورماها بحجر وقال اللهمّ ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر فاقتلها فلما رماها قتلها ، فأتى الراهب وأخبره فقال له الراهب أنت قتلتها ،

فقال نعم . قال ان لك لشأنا وقد بلغ من أمرك ما أرى وانك ستبتلى فاذا ابتليت فلا تدل علىّ ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويشفى المرضى ، وكان للملك ابن عم مكفوف البصر فسمع بالغلام وقتله الحية فجاءه مع قائد وقال له أنت قتلت الحية قال لا ، قال فمن قتلها قال الله تعالى . قال فمن الله قال رب السموات والأرض وما بينهما ورب الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة . قال ان كنت صادقا فادع الله أن يردّ علىّ بصرى ، فقال له الغلام أرأيت ان ردّ الله عليك بصرك تؤمن بالله ؟ قال نعم ، قال اللهم ان كان صادقا فاردد عليه بصره فرجع إلى منزله بلا قائد ثم دخل على الملك ، فلما رآه تعجب منه وقال له من فعل هذا بك ؟ فقال الله . قال ومن الله ؟ قال رب السموات والأرض ، فقال له الملك أخبرنى من علمك هذا ، فأبى فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجىء بالغلام فقال له الملك يابنى قد بلغ من سحرك هذا ، فقال له الغلام انى لا أشفى أحدا وانما يشفى الله فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب فجىء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار ووضعه فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقتين ، ثم جىء بابن عم الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فشقه مثل ذلك ، ثم التفت إلى الغلام وقال له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا واصعدوا به إلى ذروة الجبل فان رجع عن دينه والا فاطرحوه ، فذهبوا به إلى الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وهلكوا ، ثم جاء الغلام يمشى إلى الملك فقال له الملك مافعل أصحابك فقال كفانيهم الله ، فغاظ الملك ذلك فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال لهم اذهبوا به فى قرقور وهى السفينة واطرحوه فى البحر ولججوا به فيه فان رجع عن دينه والا فاقذفوه فى البحر وأغرقوه فذهبوا به إلى البحر ، فقال الغلام اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك مافعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله ، فقال الملك اقتلوه بالسيف فنبا السيف عنه ، وفشا خبره فى الأرض وعرفه الناس وعظموه وعلموا أنه هو وأصحابه على الحق ، ثم إن الغلام قال للملك انك لا تقدر على قتلى إلا أن تفعل ما آمرك به ، فقال وماهو ؟ قال تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فتصلبنى على جذع وترمينى بسهم وتقول باسم الله رب الغلام ، ففعل الملك ذلك ثم رماه وقال باسم الله فأصابه فى صدغه فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس لا اله الا الله آمنا بدين عبد الله بن السامرى ولا دين الا دينه ، فلما آمن الناس برب العالمين رب الغلام ، قيل للملك قد والله نزل بك ما كنت تحذر فغضب الملك وأغلق أبواب المدينة وأخذ أفواه السكك وخدّ أخدودا وملأه نارا ، ثم عرض الناس عليه رجلا رجلا فمن رجع عن الاسلام تركه ، ومن لم يرجع ألقاه فى الأخدود فاحترق ، وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع ، فقال لها الملك أترجعين عن دينك والا ألقيتك أنت وأولادك فى النار فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقى فى النار ، ثم أخذ الأوسط وقال لها ارجعى

عن دينك فأبت فألقى أيضا فى النار ، ثم أخذ الرضيع وقال لها ارجعى ، فأبت فأمر بإلقائه فى النار فهمت المرأة بالرجوع ، فقال لها الصبى الصغير يا أماه لا ترجعى عن الاسلام فانك على الحق ولا بأس عليك ، فألقى الصبى فى النار وأمه على أثره ، وقد روى هذا بنحو ماذكرنا مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين بن جعفر المذكور باسناده عن صهيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل معناه « وقد تكلم ستة فى المهد شاهد يوسف الصديق عليه السلام ، وابن ماشطة بنت فرعون ويحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب وصاحب الأخدود » .

وقال سعيد بن المسيب : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ ورد عليه كتاب أنهم وجدوا ذلك الغلام بنجران وهو واضع يده على صدغه ، فكلما مدت يده عادت إلى الصدغ فكتب اليهم عمر واروه حيث وجدتموه ، وقال مقاتل كان أصحاب الأخاديد ثلاثة : واحد بنجران اليمن ، وآخر بالشام ، وآخر بفارس حرقوا بالنار ، أما الذى بالشام فانطياخوس الرومى أحرق قوما من المؤمنين ، وأما الذى بفارس فهو بختنصر .

وكانت قصته ما أخبرنا عبد الله بن حامد باسناده عن ابن أروى قال لما هزم المسلمون أهل الاسفندهار وانصرفوا جاءهم نعي عمر ، فاجتمعوا وقالوا أى شىء نجرى على المجوس من الأحكام فانهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركى العرب ، فقال على كرم الله وجهه بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمرة قد أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبت على عقله فتناول أخته فوقع عليها ، فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها ويحك ماهذا الذى أتيت وما المخرج منه ، فقالت المخرج منه أنك تخطب الناس فتقول أيها الناس ان الله قد أحل لكم نكاح الأخوات إذا ذهب هذا فى الناس تناسوا حرمته عليهم ، فقام فيهم خطيبا فقال أيها الناس ان الله أحل لكم نكاح الأخوات ، فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا ماجاءنا بهذا نبى ولا أنزل علينا فى كتاب فرجع إلى أخته وقال ويحك ان الناس قد أبوا على ، فقالت أبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا فقال لها ان الناس قد أبوا ، قالت فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا ، قالت فخد لهم الأخدود ثم اعرضهم عليه فمن تابعك خل عنه ومن أبى فاقذفه فى النار ، فخد الأخدود وأوقد فيه النيران وعرض أهل مملكته على ذلك فمن أبى قذفه فى النار ومن أجاب خلى سبيله فأنزل الله تعالى فيهم ــ قتل أصحاب الأخدود ــ إلى قوله تعالى ــ عذاب الحريق ــ وأما الذى فى اليمن فهو يوسف ذو نواس بن شرحبيل بن تبع بن يشهرخ الحميرى وقد ذكرنا قصته ، وذكر محمد بن اسحق بن بشار عن وهب بن منبه أن رجلا كان بقى على دين عيسى فوقع إلى نجران فدعاهم فأجابوه ، فخيرهم ذو نواس بين النار أو اليهودية فأبوا عليه ، فأحرق منهم

اثنى عشر ألفا ، وقال مقاتل انما قذف فى النار يومئذ سبعة وسبعين انسانا ؟ وقال الكلبى كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا ، فلما قذفوا المؤمنين فى النار خرجت النار إلى أعلى شفير الأخدود فأحرقتهم وارتفعت النار فوقهم اثنى عشر ذراعا ونجا ذو نواس ، فسلط الله عليهم ارياطا الحبشى حتى غلب على اليمن فخرج هاربا فاقتحم البحر فأغرقه الله فيه وفيه يقول عمرو بن معديكرب :

أتوعدنى كأنك نور عينى ... بأنعم عيشة أوذو نواس
وقدما كان قبلك فى نعيم ... وملك ثابت فى الناس راسى
فقدتم عهده من عهد عاد ... عظيم قاهر الجبروت قاسى
فأمسى أهله بادوا وأمسى ... ينقل فى أناس من أناس

باب فى قصة أصحاب الفيل وبيان مافيها من الفضل والشرف لنبينا محمد ﷺ

قال الله تعالى ـ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ـ إلى آخر السورة ، قال محمد بن اسحق ابن بشار كان من حديث أصحاب الفيل ما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وعمن يقى من علماء اليمن وغيرهم ، أن ملكا من ملوك حمير يقال له زرعة ذو نواس كان قد تهوّد واجتمعت معه حمير على ذلك إلا ما كان من أهل نجران فانهم كانوا على دين النصرانية على حكم الانجيل ولهم رأس يقال له عبد الله بن السامر فدعاهم إلى اليهودية فأبوا ، فخيرهم فاختاروا القتل فخد لهم الأخدود وصنف لهم أصناف القتل ،فمنهم من قتل صبرا ، ومنهم من ألقى فى النار إلا رجلا من أهل سبأ يقال له دوس بن ثعلبان ، فذهب على فرس له يركض حتى أعجزهم فى الرمل فأتى قيصر فذكر له مابلغ منهم واستنصره فقال له بعدت بلادك عنا ولكنى أكتب لك إلى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك فكتب له إلى النجاشى يأمره بنصره فلما قدم على النجاشى بعث معه رجلا من الحبشة يقال له ارياط ، فلما بعثه قال له : إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث بلادها وابعث إلىّ بثلث سباياها ، فلما دخلها ناوشهم القتال فتفرّقوا عن ذى نواس واقتحم به فرسه فاستعرض به البحر فهلكا جميعا فكان آخر العهد به ، ودخلها ارياط فعمل بما أمره النجاشى ، فقال ذو جدن الحميرى فيما أصاب أهل اليمن .

دعينى لا أبالك لم تطيقى ... لحاك الله قد أنزفت ريقى
بذا عزف القيان إذا انتشينا ... إذا نسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس علىّ عارا ... إذا لم يشكنى فيها رفيقى
وإن الموت لا ينهاه ناه ... ولو شرب الشفاء من النشوق
ولا مترهب فى أسطوان ... يناطح جلده بيض الأنوق
وغمدان الذى نبئت عنه ... بنوه ممسكا فى رأس نيق

لتهمه وأسفله حروث ... وجر الوجل اللثق الزليق
مصابيح السليط يلحن فيه ... إذا يمسى كرمضان البروق
فأصبح بعد جدته رمادا ... وغير حسنه لهب الحريق
ونخلته التى غرست اليه ... يكاد البسر يهصر بالعذوق
وأسلم ذو نواس مستبينا ... وحذر قومه ضنك المضيق

قال : فأقام ارياط باليمن وكتب اليه النجاشي أن اثبت بجندك ومن معك فأقام حينا ، ثم إن أبرهة بن الصباح ساخطه فى أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين ، فكانت معه طائفة ومع أبرهة طائفة ثم تزاحفا ، فلما دنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى ارياط انك لا تصنع شيئا فلا نلق الحبشة بعضها على بعض ولكن اخرج إلى فأينا قتل صاحبه انضم اليه الجند ، فأرسل اليه أنك قد أنصفت ، ثم انهما خرجا وكان ارياط جسيما عظيما وسيما فى يده حربة ، وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحيما وكان ذا دين فى النصرانية وكان خلف أبرهة وزير يقال له عتودة ، فلما دنوا رفع ارياط الحربة فضرب بها رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وجبينه وأنفه وشفته ، فلذلك سمى أبرهة الأشرم ، فلما رأى عتودة ذلك حمل على ارياط فقتله فاجتمع الجيش على أبرهة ، فبلغ النجاشي ماصنع أبرهة فغضب عليه وحلف لا يدع أبرهة حتى يجز ناصيته ويطأ بلاده . ثم إنه كتب إلى أبرهة إنك عدوت على أميرى فقتلته بغير أمرى وكان أبرهة رجلا ماردا . فلما بلغه قول النجاشي حلق رأسه وملأ جرابا من تراب أرضه وكتب إلى النجاشي أيها الملك انما كان ارياط عبدك وأنا عبدك اختلفنا فى أمرك وكنت أعلم بامر الحبشة وأسوس لها وكنت أردته أن يعتزل فأبى فقتلته . وقد بلغنى الذى حلف عليه الملك وقد حلقت رأسى وبعث به اليك وملأت جرابا من تراب أرضى وبعثته اليك ليطأه الملك فيبر قسمه . فلما انتهى اليه ذلك رضى عنه وأقره على عمله وكتب اليه بأن اثبت بمن معك من الجند . ثم إن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها القليس . ثم انه كتب الى النجاشي إنى قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن الملك مثلها قط . ولست منتهيا حتى أصرف اليها حج العرب . فسمع بذلك رجل من بنى مالك بن كنانة فخرج الى القليس . فدخلها ليلا فقذر فيها تهاونا بها وتغضبا للكعبة ، فبلغ ذلك أبرهة ويقال إنه أتاها ناظر اليها فدخلها فوجد العذرة فيها ، فقال من اجترأ على هذا ؟ فقيل فعل هذا رجل من العرب من أهل ذلك البيت الذى يحجونه سمع بالذى قلت فصنع هذا ، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها فخرج سائرا من الحبشة إلى مكة وأخرج معه الفيل ، فبلغ ذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم ، فخرج ملك من ملوك حمير يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه فقاتله فهزمه وأخذ ذو نفر فأتى به أبرهة ، فقال له أيها الملك لاتقتلنى فان استبقاءك لى خير لك من قتلى فاستحياه وأوثقه وكان أبرهة رجلا حليما ، ثم خرج سائرا حتى إذا دنا من ديار خثعم خرج اليه نفيل بن

حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم وهما شهران وناهش ومن اجتمع اليـه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا أسيرا ، فقال له أيها الملك إنى دليلك بأرض العرب فلاتقتلنى، وها أنا أنادى على قومى بالسمع والطاعة لك فاستبقـاه وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف فخرج اليه مسعود بن مغيث الثقفى فى رجال من ثقيف وقال له أيها الملك : انمـا نحن عبيدك فليس لك عنـدنا خلاف، وليس بيننا هذا الذى تريد يعنى به اللات انمـا تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا أبا رغال مولاهم فخرجوا حتى إذا كانوا بالمغمس مات أبو رغال فهو الذى ترجم قبره العرب وبعث أبرهة من المغمس رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مفصود على مقدمة خيله فجمع اليه أموالا وأصاب لعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتى بعير ، ثم ان أبرهة بعث حناطة الحميرى إلى أهل مكة سفيرا ، فقال له سل عن شريفها ثم أبلغه أنى لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حناطة حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال له : إن الملك أرسلنى اليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه انمـا أتى لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنـكم ، فقال عبد المطلب سنخلى بينـه وبين ماجاء له فان هـذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السـلام ، فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبين ذلك فهو كذلك فوالله مالنا به قوة . قال فانطلق معى إلى الملك ، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة له كان راكبا عليها وركب معه بعض بنيـه حتى قدم العسكر ، وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال له ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ، فقال ماغناء رجل أسير لايأمن من أن يقتل بكرة أو عشية ولـكنى سأبعث لك الى أنيس سائس الفيل فانه صديق لى ، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع اليه من الخـير ، ويعظم منزلتك وحظك عنده . قال فأرسل إلى أنيس فأتاه ، فقال له إن هذا سيد قريش صاحب عير مكة يعطى ويطعم الناس من السهل والجبل والوحش والطير فى رءوس الجبال ، وقدأصاب له الملك مائتى بعير ، فان استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فانه صديق لى وإنى أحبّ ما يصل اليه من الخير ، ثم إن أنيسا دخل على أبرهة هو وعبد المطلب فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والجبل والطير والوحش فى رءوس الجبال ، وقد جاءنا غير ناصب لك حربا ولا يخالف عليك يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن له فيـكلمك فأذن له ، وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما ، فلما دخل عليه جلس بين يديه فأقامه وأجلسه معه على السرير ، ثم قال لترجمانه قل له ماحاجتك ، فقال له الترجمان ذلك، فقال له عبد المطلب : حاجتى أن يرد على مائتى بعير أصابها لى ، فقال أبرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ولقد زهدت فيك الآن، فقال له ولم ؟ قال حيث جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهـدمه لم تـكلمنى فيه وتـكلمنى فى مائتى بعير أصبتها ، فقال له عبد المطلب قل له أنا رب هذه الإبل ولهذا البيت رب سيمنعه منك ، قال ما كان ليمنعه منى ؟ فقال له أنت وذاك ، ثم أمر له بإبله فردت عليـه ، قال محمـد بن اسحق

وكان فيما يزعم بعض أهل العلم أن عبد المطلب قد ذهب إلى أبرهة بعمرو بن معدى كرب بن الديل ابن بكر بن عبد مناف بن كنانة وهو يومئذ سيد بنى كنانة وخويلد بن واثلة الهذلى وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى أن يرجع . قال فلما ردت الابل على عبد المطلب ، رجع فأخبر قريشا الخبر وأمرهم أن يتفرقوا فى الشعاب ويتحرزوا فى رءوس الجبال تخوفا عليهم من معرة الجيش إذا دخل ، ففعلوا ذلك ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة فأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يارب لا أرجو لهم سواكا ... يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضا

لاهم إن المرء يـ ... ـمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ ... ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم أبدا محالك
جروا جموع بلادهم ... والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلا وماراقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فأمر مابدا لك

ثم إن عبد المطلب ترك الحلقة وتوجه فى بعض الوجوه مع قومه وأصبح أبرهة بالمغمس وقد تهيأ لدخول مكة وعبى جيشه وهيأ فيله ، وكان اسم الفيل محمودا وكان من قبل النجاشى بعثه إلى أبرهة ؛ وكان فيلا لم ير مثله فى الأرض عظما وقوة وجسما ، وقال الكلبى لم يكن عندهم إلا ذلك الفيل الواحد فلذلك قال الله تعالى — ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل — . قال الضحاك كانت الفيلة كثيرة ؛ ويقال كان معه اثنا عشر فيلا وانما وحد (١) على هذا التأويل لوفاق رءوس الآى ويقال نسبهم إلى الفيل الأعظم ؛ قال فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم فأخذ باذنه وقال : ابرك محمود أوارجع راشدا من حيث جئت فانك فى بلد الله الحرام ؛ فبرك الفيل فبعثوه فأبى أن يقوم فضربوه بالمعول فى رأسه فأبى ؛ فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه ورفعوه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ثم وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ثم وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ؛ فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم ؛ ثم إن نفيلا خرج من عندهم وصعد فى الجبل وأرسل الله تعالى طيرا من البحر كأمثال الخطاطيف مع كل طير منهم ثلاثة أحجار حجران فى رجليه وحجر فى منقاره أمثال الحمص والعدس فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحدا الاهلك وليس كل القوم أصابت فذلك قوله تعالى — طيرا أبابيل — أى متفرقة من ههنا وههنا ، قال ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطيور وأكف كأكف الكلاب . وقال عكرمة كان لها

---

(١) (قوله وانما وحد الخ) المراد أن الافراد فى الآية على هذا القول لوفاق رءوس الآى .

يرءوس كرءوس السباع ولم ترقبل ذلك ولابعده ، وقال ربيع لها أنياب كأنياب السباع ، وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر وقال أبو الجوزاء أنشأها الله فى الهواء فى ذلك الوقت — ترميهم بحجارة من سجيل — أى سنك كل [1] . قال ابن مسعود صاحت الطير ورمتهم بالحجارة وبعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها قوة فما وقع منها حجر على جنب رجل الاخرج من الجانب الآخر ، وإذا وقع على رأس رجل خرج من دبره — فجعلهم كعصف مأكول — أى كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه ، فلما رأت الحبشة ذلك خرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق ، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمة :

أين المفر والاله الطالب ... والأشرم المغلوب غير الغلب

وقال أيضا فى ذلك

ألا حييت عنا يارديناً ... نعمناكم مع الاصباح عينا
ردينة لو رأيت ولم تريه ... لدى جنب المحصب مارأينا
اذا لعذرتنى وحمدت أمرى ... ولم تأس على مافات بينا
حمدت الله إذ عاينت طيرا ... وخفت حجارة ترمى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل ... كأن علىّ للحبشان دينا

وذكر زياد عن عبد الله بن عمر أن طير الأبابيل كانوا أقبلوا من قبل البحر لرجال الهند ترميهم بحجارة أصغرها مثل رءوس الرجال وأكبرها كالابل البزل مارمت أصابت وماأصابت قتلت، ونفيل ينظر اليهم من بعض تلك الجبال ، وقد خرج القوم وصاح بعضهم على بعض فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل وبعث الله تعالى على أبرهة داء فى جسده فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة أتبعتها أنملة وقيح ودم فانتهى الى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما بقى من أصحابه فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك ، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذى جر حديث أصحاب الفيل هو أن فئة من قريش خرجوا تجارا الى أرض النجاشى فساروا حتى دنوا من ساحل البحر وفى سندها حقف من أحقافها بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل ويسميها النجاشى وأهل أرضه الماسرخسان فنزل القوم فى سندها فجمعوا حطبا وأججوا ناراواشتووا الحماء، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هى فى يوم صائف فعجت الرياح فاضطرم الهيكل نارا وانطلق الصريخ الى النجاشى فأخبروه فأسف عند ذلك غضبا للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة ، وكان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفى ، وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة ، وكان رجلا نبيها نبيلا عاقلا ، وكان لعبد المطلب خليلا ، فقال عبد المطلب ياأبا مسعود هذا يوم لانستغنى فيه عن

---

(١) (قوله أى سنك كل) لفظ فارسى معربه سجيل .

عن رأيك فما رأيك ؟ فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد الى مائة من الابل فاجعلها هديا لله تعالى وقلدها نعلا وأثبتها فى الحرم لعل بعض هؤلاء السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم الى تلك الابل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود : ان لهذا البيت ربا سيمنعه ، فقد نزل تبع ملك اليمن بصحراء هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام . فلما رأى ذلك تبع كساه القباطى البيض وعظمه ونحر له جزرا . ثم قال أبو مسعود لعبد المطلب انظر إلى بحر اليمن هل ترى شيئا ؟ فقال أرى طيرا بيضا نشأت من جانب البحر وحلقت على رءوسنا . فقال له هل تعرفها ؟ فقال عبد المطلب والله ماأعرفها ماهى بنجدية ولاتهامية ولاعربية ولاشامية وإنها تطير بأرضنا غير مؤنسة، قال ماقدرها قال أمثال اليعاسيب فى مناقيرها حصى كأنها حصى الحذف قد أقبلت كالليل المظلم يتبع بعضها بعضا أمام كل فرقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الراس طويل العنق فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رءوسهم فلما توافت الرجال كلها بحيالهم أهالت الطير مافى مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ثم إنها رجعت من حيث جاءت ، فلما أصبح عبد المطلب وأبو مسعود انحطا من ذروة الجبل فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحدا ثم إنهما مشيا فلم يسمعا حسا فقالا لبعضهما بات القوم سامدين فأصبحوا نياما ، فلما دنوا من معسكر الفيل فاذاهم خامدون ، وكان الحجر ينزل على بيضة أحدهم فيفجرها ويقطع فى دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر فى الأرض من شدة وقعه ، ثم إن عبد المطلب أخذ فأسا وحفر حتى أعمق فى الأرض فملاها من الذهب الأحمر والجوهر الجيد ، ثم حفر لصاحبه حفرة فملأها ، ثم قال لأبى مسعود هات خاتمك وأخيرك فاختر فان شئت أخذت حفرتى وان شئت أخذت حفرتك وان شئت فهما لك معا . فقال له أبو مسعود اخترلى على نفسك . فقال عبد المطلب انى جعلت أجود المتاع فى حفرتى فهو لك ؟ ثم جلس كل واحد منهما على حفرته ونادى عبد المطلب فى الناس فرجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا بذلك ذرعا وساد عبد المطلب بذلك على قريش وأعطته الرياسة فلم يزل أبو مسعود وعبد المطلب غنيين من ذلك المال إلى أن ماتا .

وقال الواقدى بأسانيده : غزا النجاشى ارياط فى أربعة آلاف إلى اليمن فغلب عليها فأكرم الملوك واستذل الفقراء فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبو يكسوم فدعا إلى طاعته فأجابوه فقتل ارياط وغلب على اليمن فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج فسأل أين تذهب الناس ؟ فقيل يحجون بيت الله بمكة ؟ قال فماهو قالوا من حجر قال فما كسوته قالوا ماياتى من ههنا من الوصائل . فقال والمسيح لأبنين خيرا منه فبنى لهم بيتا بالرخام الأبيض والأسود والأحمر والأصفر وحلاه بالذهب والفضة وحفه بالجواهر وجعل له أبوابا عليها صفائح الذهب ومسامير الذهب ورصعها

بالجواهر وجعل فيها ياقوتة حمراء وجعل لها حجاباوكان يوقد بالمندل ويلطخ جدرانه بالمسك حتى تغيب الجواهر وأمر الناس بحجه فحجه كثير من قبائل العرب سنين ، ومكث فيه رجال يتعبدون ويتنسكون ، فأمهل نفيل الخثعمى حتى كان ليلة من الليالى لم ير أحدا يتحرك فجاءه بعذرة فلطخ بها قبلته وألقى فيه الجيف فأخبر أبرهة بذلك فغضب أبرهة غضبا شديدا وقال انما فعلت العرب ذلك غيظا لأجل بيتهم ؟ ثم انه قال لأنقضنه حجرا حجرا . ثم انه كتب الى النجاشي يخبره بذلك ويسأله أن يبعث اليه بفيله محمود ، وكان فيله لم ير مثله فى الأرض عظما وجسما وقوة فبعثه اليه فغزا البيت كما ذكرنا إلى أن قال أقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار حجران فى رجليه وحجر فى منقاره فقذفت الحجارة عليهم لاتصيب شيئا إلا هشمته ، وبعث الله سيلا أتى عليهم فذهب بهم إلى البحر فألقاهم فيه وولى أبرهة ومن معه هاربا فجعل أبرهة يسقط عضوا عضوا حتى مات وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم فنجا ، وأما الفيلة الأخر فتشجعت فحصبت وهلكت وهو أول وقت رؤى عليه الجدرى والحصبة وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك

إن آيات ربنا بينات ... مايمارى بهن إلاالكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور

حوله من رجال كندة فتيا ... نمصاليت فى الحروب صقور

غادروه وقد تولوا سراعا ... كلهم عظم ساقه مكسور

وقال الكلبي:لما أهلكهم الله بالحجارة لم يفلت منهم إلاأبرهة الأشرم بن يكسوم فسار وطائر يطير فوقه ولم يشعر به حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصابهم فما استتم كلامه حتى رماه طائر فسقط ميتا فأرى الله النجاشي كيف كان هلاك أصحابه .

وقال الواقدى : كان أبرهة جد النجاشي الذى كان فى زمن النبي ﷺ وآمن به .

واختلفوا فى تاريخ عام الفيل فقال مقاتل : كان أمر الفيل قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة وقال عبيد بن عمير والكلبي كان قبل مولده بثلاث وعشرين سنة ، وقال آخرون كانت قصة الفيل فى العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا أكثر العلماء وهو الصحيح يدل عليه ماأخبرنا أبوبكر الجوزقى قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت الزبير حدثنا بن موسى عن أبى الجوزاء قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لغياث بن أسيم الكنانى ياغياث أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أسن منه ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ووقفت بى أمى على روث الفيل . ويدل عليه أيضا ماروى أن عائشة رضى الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

فلما كفى الله أمر أصحاب الفيل عظمت العرب قريشاوقالواهم أهل الله وان الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم والله عزوجل أعلم وأحكم وحسبنا الله ونعم الوكيل آمين

فهرس

قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس

صفحة

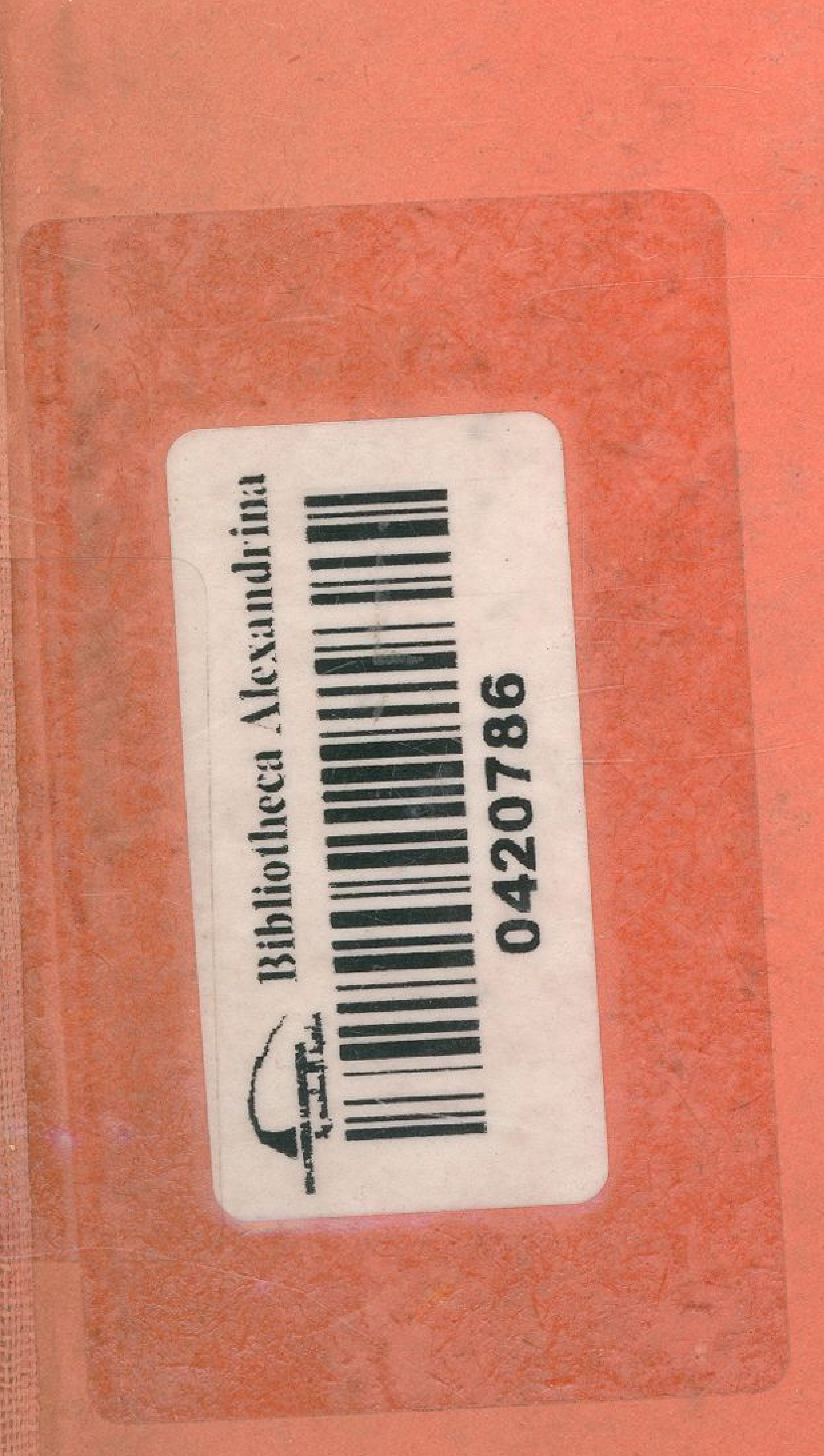
صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تمت)


Bibliotheca Alexandrina
04220786